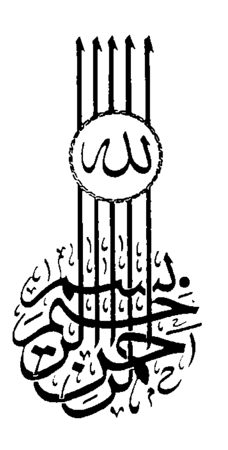
موسوعة الأعمال الكاملة
للإمام ابن قيم الجوزية



جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه

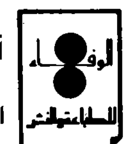
يسري السيد محمد

الجزء الثالث


بسم الله الرحمن الرحيم


جامع الآداب

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠
E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM

كتاب السلوك والزهد



فصل
فى القلب ومنزلته

انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب ،تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته ، يأمر، وينهى ، ويولى ، ويعزل . وقد حف به الأمراء والوزراء والجند ، كلهم فى خدمته، إن استقام استقاموا وإن زاغ زاغوا، وإن صح صحوا، وإن فسد فسدوا. فعليه المعول، وهو محل نظر الرب تعالى،ومحل معرفته ، ومحبته وخشيته ،والتوكل عليه،والإنابة إليه ، والرضا به،وعنه،والعبودية عليه أولاً وعلى رعيته وجنده تبعاً.

القلب أشرف ما فى الإنسان :

فأشرف ما فى الإنسان قلبه ، فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له . وهو محل الإيمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من الإيمان والعقل.

وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد ،والراعى للرعية ،والذى يسرى إلى الجوارح من الطاعات والمعاصى ، إنما هى آثاره . فإن أظلم أظلمت الجوارح ، وإن استنار استنارت ،ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل.

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه ، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد. أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلى إلى ،فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين، وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم،وقيل اقعدوا مع القاعدين.

كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ : « لا ومقلب القلوب » (١) وكان من دعائه: « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » (٢). قال بعض السلف: للقلب أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانها. وقال آخر: القلب أشد تقلباً من الريشة بأرض فلاة فى يوم ريح عاصف. ويطلق القلب على معنيين:

---

(١) البخارى (٦٦٢٨) فى الأيمان والنذور ، باب:كيف كانت يمين النبى ﷺ ، والترمذى (١٥٤٠) فى النذور والأيمان،باب: ماجاء كيف كان يمين النبى ﷺ ، وابن ماجه (٢٠٩٢) فى الكفارات ،باب : يمين رسول الله ﷺ التى كان يحلف بها،وأحمد (٢/ ٢٦).

(٢) الترمذى (٢١٤٠) فى القدر، باب: ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن ، وابن ماجه (٣٨٣٤) فى الدعاء ، باب :دعاء رسول الله ﷺ.

أحدهما : أمر حسى ، وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح .

والثانى : أمر معنوى وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية ، لها بهذا العضو تعلق واختصاص ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية.

وللقلب جندان: جند يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر. فأما جنده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ،وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافاً. فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم،وإذا أمر اليد بالبطش بطشت ،وإذا أمر الرجل بالسعى سعت ،وكذا جميع الأعضاء ذللت له تذليلاً.

ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل فى هذا العالم ليتزود منه،افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله. فأعين بالأعضاء والقوى ،وسخرت له ،وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ،ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ،فافتقر إلى جندين: باطن: وهو الإرادة والشهوة والقوى . وظاهر: وهو الأعضاء.

فخلق فى القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه،وخلقت له الأعضاء التى هى آلة الإرادة ،واحتاج فى دفع المضار إلى جندين :باطن: وهو الغضب الذى يدفع المهلكات،وينتقم به من الأعداء،وظاهر: وهو الأعضاء التى ينفذ بها غضبه ،كالأسلحة للقتال. ولا يتم ذلك إلا بمعرفة ما يجلب وما يدفع ،فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره.

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة ،وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ،وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ،فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفا ومحلا ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا ، وهو المنافسة فى فعل الخير ،والغبطة عليه ،والمسابقة إليه،ولقوة الكبر مصرفا وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم ،وقد قال النبى ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب: « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا المواطن »[(١)] وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بالغلظة على أعدائه.

وجعل لقوة الحرص مصرفًا، وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبى ﷺ: « احرص على ما ينفعك » [(٢)] ولقوة الشهوة مصرفاً ، وهو التزوج بأربع ، والتسرى بما شاء .

(١) البيهقى فى دلائل النبوه (٣/ ٢٣٤) ،والبداية والنهاية (٤/ ١٦).

(٢) مسلم (٢٦٦٤/ ٣٤) فى القدر ، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. . .إلخ ،وابن ماجه (٧٩) فى المقدمة ، باب : فى القدر ، وأحمد (٢/ ٣٦٦).

ولقوة حب المال مصرفًا ، وهو إنفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبة المال على هذا الوجه لا تذم.

ولمحبة الجاه مصرفًا ، وهو استعماله فى تنفيذ أوامره ، وإقامة دينه ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف، وإغاثة الضعيف، وقمع أعداء الله، فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة.

وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا ، وهو لهوه مع امرأته، أو بقوسه وسهمه، أو تأديبه فرسه ، وكل ما أعان على الحق.

وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفًا ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ويرده خاسئًا ، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه.

وهكذا جميع القوى التى ركبت فيه جعل لها مصرفاً، وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته، ولا يطلب تعطيلها ،وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل،ومن موضع إلى موضع ، ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به .

فصل
فى صيانة القلب

وجماع الطرق والأبواب التى يصان منها القلب وجنوده أربعة ،فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها فى محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه ، وهى : الحرص ، والشهوة ، والغضب، والحسد. فهذه الأربعة هى أصول مجامع طرق الشر والخير ، وكما هى طرق إلى العذاب السرمدى،فهى طرق إلى النعيم الأبدى.

فآدم أبو البشر ﷺ أخرج من الجنة بالحرص ، ثم أدخل إليها بالحرص،ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثانى.

وأبو الجن أخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها ، وقد قال النبى ﷺ : « لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار » (١).

وأما الغضب فهو غول العقل،يغتاله كما يغتال الذئب الشاة،وأعظم ما يفترسه الشيطان

---

(١) البخارى (٧٣) فى العلم،باب:الاغتباط فى العلم والحكمة ،وأحمد (٢/ ٩ ، ٣٦).

عند غضبه وشهوته ،وإذا كان حرصه إنما هو على ما ينفعه ،وحسده منافسة فى الخير،وغضبه لله على أعدائه ،وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعوناً له على ما أمر به،لم تضره هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع.

فصل
فى القلب بين الملك والشيطان

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان ، رأيت أعجب العجائب ، فهذا يلم به مرة ، وهذا يلم به مرة ، فإذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح ، والانشراح ، والنور، والرحمة ، والإخلاص ، والإنابة ، ومحبة الله ، وإيثاره على ما سواه ، وقصر الأمل ، والتجافى عن دار البلاء ، والامتحان ، والغرور ، فلو دامت له تلك الحالة لكان فى أهنأ عيش وألذه وأطيبه . ولكن تأتيه لمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم، والغم، والخوف، والسخط على المقدور، والشك فى الحق، والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب.

ثم للناس فى هذه المنحة مراتب لا يحصيها إلا الله : فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق والحصر وسوء الحال، بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها ، فهو دائمًا فى حرب بين اللمتين ، يدال له مرة ، ويدال عليه مرة أخرى ، والعاقبة للتقوى.

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى ،فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ، ولا يحس ما ناله الشيطان به ، مع أنه فى غاية العذاب والضيق والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم ، فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه ، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ، فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان، وهى لم تتجدد له،وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل ، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامناً ،وتجدد له أضعافه.

فصل
فى إلمام الشيطان ببعض القلوب

والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك جواذب تجذبه ، وهى نوعان : صفات، وإرادات . فإذا كانت الجواذب صفات قوى سلطانه هناك ، واستفحل أمره ووجد موطناً ومقرًا ، فتأتى الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس ، لا تدفع سلطان الشيطان ؛ لأن مركبه صفة لازمة.

فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال ، بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار. وذلك يضعفه، ويقوى لمة الملك فتأتى الأذكار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأسهل شيء.

وإذا أردت لذلك مثالاً مطابقًا : فمثله كلب جائع شديد الجوع ، وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك . فأنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأبى إلا التحوم عليك،والغارة على ما بين يديك. فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له،ولكن معلومه ومراده عندك،وقد قربته عليك،فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه فإنك يزجره وتصيح عليه فيذهب ، وكذلك القلب الخالى عن قوة الشيطان يزجره بمجرد الذكر.

وأما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبه وموطنه ، فيقع الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولا يقوى على إخراج العدو منه ، ومصداق ذلك تجده فى الصلاة ، فتأمل فى الحال ، وانظر : هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قبلك ، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدى ربه مقبلاً بكليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه يراه قد اجتمع همه كله على الله ؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به فى محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان.

وها هنا نكتة ينبغى التفطن لها ، وهى أن القلوب الممتلئة بالأخلاص الرديئة ، فالعبادات ، والأذكار ، والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن ، فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته ، وإن أزال منه شيئاً ما ، فمدار الأمر على شيئين : الحمية، واستعمال الأدوية.

فصل
فى نزعات الشيطان وعلاجها

وأول ما يطرق القلب الخطرة ، فإن دفعها استراح مما بعدها ، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة ، فكان دفعها أصعب ، فإن بادر ودفعها ، وإلا قويت ، وصارت شهوة ، فإن عالجها ، وإلا صارت إرادة ، فإن عالجها وإلا صارت عزيمة . ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها ، واقترن بها الفعل ولابد ، وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته.

وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية ، وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح . ولا ريب أن دفع مبادىء هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله - إن ساعد القدر وأعان التوفيق ، وإن الدفع أولى به . وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب ، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذى لا نسبة لهذا المحبوب إليه البتة لا فى قدره ، ولا فى بقائه. وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخس، وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى، والتنعم بحبه ، وذكره ، وطاعته ، ولذة الإقبال على الرذائل، والإنتان والقبائح . وليوازن بين لذة الظفر بالذنب، ولذة الظفر بالعدو وبين لذة الذنب ، ولذة العفة ، ولذة الذنب، ولذة القوة ، وقهر العدو . وبين لذة الذنب ، ولذة إرغام عدوه ، ورده خاسئاً ذليلاً . وبين لذة الذنب ، ولذة الطاعة التى تحول بينه وبين مراده وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه ، وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه ، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلاً ، وفرحة ما يثنيه عليه فى دنياه وآخرته. والله المستعان (١).

فصل
فى تفاوت الناس يوم القيامة بحسب أعمالهم

وقد أشار النبى ﷺ إلى أن كمال ما يستمتع به من الطيبات فى الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال فى الدنيا: فرأى قنوا من حشف معلقا فى المسجد للصدقة فقال: « إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة » (٢) ، فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله فيجزى

(١) التبيان (٥٢٣ - ٥٣٥).

(٢) أبو داود (١٦٠٨) فى الزكاة، باب: مالايجوز من الثمرة فى الصدقة ، والنسائى (٢٤٩٣) فى الزكاة ، باب: قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٧]، وابن ماجه (١٨٢١) فى الزكاة، باب: النهى أن يخرج فى الصدقة شر ماله.

على تلك الصدقة بحشف من جنسها .

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد ، وتفاوت الناس فى أحواله وما يجرى فيه من الأمور المتنوعة .

فمنها : خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره ، فإنه بحسب خفة وزره وثقله ، إن خف خف ، وإن ثقل ثقل .

ومنها : استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه للحر والشمس ، إن كان له من الأعمال الصالحة والخالصة والإيمان ما يظله فى هذه الدار من حر الشرك والمعاصى والظلم ، استظل هناك فى ظل أعماله تحت عرش الرحمن ، وإن كان ضاحيا هنا للمناهى والمخالفات والبدع والفجور ، ضحى هناك للحر الشديد .

ومنها : طول وقوفه فى الموقف ومشقته عليه وتهوينه « عليه » . إن طال وقوفه فى الصلاة ليلاً ونهاراً لله وتحمل لأجله المشاق فى مرضاته وطاعته ، خف عليه الوقوف فى ذلك اليوم وسهل عليه ، وإن آثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنعمة ، طال عليه الوقوف هناك واشتدت مشقته عليه .

وقد أشعار تعالى إلى ذلك فى قوله : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧)** ﴾ [الإنسان] ، فمن سبح الله ليلاً طويلا لم يكن ذلك اليوم ثقيلاً عليه ، بل كان أخف شىء عليه.

ومنها : أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمله ثقل الحق فى هذه الدار ، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل ، وأخذه إذا بذل ، كما قال الصديق فى وصيته لعمر : (واعلم أن لله حقًا بالليل لا يقبله بالنهار ، وله حق بالنهار لا يقبله بالليل ، واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق ، وثقل ذلك عليهم فى دار الدنيا وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى دار الدنيا وخفته عليهم ،وحق لميزان لا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفاً. . .) .

ومنها : أن ورود الناس الحوض وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سنة رسول الله ﷺ وشربهم منها ، فمن وردها فى هذه الدار وشرب منها وتضلع ورد هناك

حوضه وشرب منه وتضلع ، فله ﷺ حوضان عظيمان حوض فى الدنيا وهو سنته وما جاء به ، وحوض فى الآخرة ، فالشاربون من هذا الحوض فى الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة فشار ومحروم ومستقل ومستكثر ، والذين يذودهم هو والملائكة عن حوضه يوم القيامة هم الذين كانوا يذودون أنفسهم وأتباعهم عن سنته ، ويؤثرون عليها غيرها،فمن ظمأ من سنته فى هذه الدنيا ولم يكن له منها شرب،فهو فى الآخرة أشد ظمأ وأحر كبداً،وإن الرجل ليلقى الرجل فيقول . يا فلان ،أشربت فيقول:نعم والله ، فيقول:لكنى والله ما شربت،واعطشاه.

فـرد أيهـا الظمآن والـورد ممكن ... فإن لـم تـرد فاعلـم بأنـك هالك

وإن لم يكن رضوان يسقيك شربه ... سيسقكها إذ أنـت ظمآن مـالك

وإن لم ترد فى هذه الدار حوضه ... ستـصرف عنه يـوم يـلـقاك آنـك

ومنها : قسمه الأنوار فى الظلمة دون الجسر، فإن العبد يعطى من النور هناك، بحسب قوة نور إيمانه ومتابعته للرسول فى دار الدنيا، فمنهم من يكون نوره كالشمس، ودون ذلك كالقمر، ودونه كأشد كوكب فى السماء إضاءة.

ومنهم:من يكون نوره كالسراج فى قوته وضعفه ،وما بين ذلك.

ومنهم:من يعطى نور على إبهام قدمه،يضيء مرة ويطفى أخرى ، بحسب ما كان معه من نور الإيمان فى دار الدنيا ، فهو هذا النور بعينه ، أبرزه الله لعبده فى الآخرة ظاهرا يرى عيانا بالأبصار ، ولا يستضيء به غيره ، ولا يمشى أحد إلا فى نور نفسه إن كان له نور مشى فى نوره ، وإن لم يكن له نور أصلاً لم ينفعه نور غيره .

ولما كان المنافق فى الدنيا قد حصل له نور ظاهر غير مستمر ولا متصل بباطنه ، ولا له مادة من الإيمان أعطى في الآخرة نورا ظاهرا لا مادة له ، ثم يطفى عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها : أن مشيهم على الصراط فى السرعة والبطء بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم فى الدنيا ، فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك ، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك.

وأشدهم ثباتاً على الصراط المستقيم ، هنا أثبتهم هناك ،ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التى كأنها شوك السعدان هناك ، ويكون تأثير الكلاليب فيه هناك على حسب تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه ، هاهنا ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومخزول أى مقطع بالكلاليب مكردس فى النار ، كما أثرت

فيهم تلك الكلاليب فى الدنيا ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ] ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت]

والمقصود : أن الله تبارك وتعالى ضرب لعباده المثلين المائى والنارى فى سورة البقرة، وفى سورة الرعد، وفى سورة النور لما تضمن المثلان من الحياة والإضاءة فالمؤمن حي القلب مستنيره والكافر والمنافق ميت القلب مظلمه ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ الآية [فاطر]، فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره ، يصير حيًا فى ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك ، مستنيراً بنوره ، والآخر أعمى ميتاً فى حر الكفر والشرك والضلال ، منغمساً فى الظلمات ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية [الشورى : ٥٢] ،وقد اختلف فى مفسر الضمير من قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ فقيل: هو الإيمان؛ لكونه أقرب المذكورين. وقيل: هو الكتاب، فإنه النور الذى هدى به عباده . وقال شيخنا: والصواب أنه عائد على الروح المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ الآية أى : جعلنا ذلك الروح نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا ، فسمى وحيه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب ، والأرواح التى هى الحياة فى الحقيقة ومن عدمها فهو ميت لا حى ، والحياة الأبدية السرمدية فى دار النعيم هى ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذى أوحى إلى رسوله ﷺ ، فمن لم يحيى به فى الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وأعظم الناس حياة فى الدور الثلاث ، دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار الجزاء ، أعظمهم نصيبًا من هذه الحياة بهذا الروح.

وسماه روحًا فى غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر] ، وقال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل].

وسماه نوراً لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها، وكمال الروح بهاتين الصفتين: بالحياة والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والاهتداء

بما بعثوا به ، وتلقى العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة ، فإن كان العبد مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام والبحوث ، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذى أوحاه الله تعالى إلى رسول الله ﷺ،وجعله نوراً يهدى به من يشاء من عباده وراء ذلك كله ، فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام ،ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها ، وحقها من باطلها ،وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذى عليه سكة المدينة النبوية الذى لا يقبل الله عز وجل ثمناً لجنته سواه ، من النقد الذى عليه (سكة) جنكيزخان ونوابه من الفلاسفة ، والجهمية ، والمعتزلة . وكل من اتخذ لنفسه سكة ضرباً ونقدا يروجه بين العالم فهذه أحوج ما يكون إليها ، وتكون من الأعمال التى قدم الله تعالى عليها فجعلها هباءًا منثورًا ، ولصاحبها نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)** ﴾ [الكهف] ، وهذا حال أرباب الأعمال التى كانت لغير الله عز وجل ،أو على غير سنة رسول الله ﷺ،وحال أرباب العلوم والأنظار التى لم يتلقوها عن مشكاة النبوة ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال وكناسة أفكارهم ، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم فى تقرير آراء الرجال،أو الانتصار لهم ، وفهم ماقالوه وبثه فى المجالس والمحاضر ،وأعرضوا عما جاء به الرسول ﷺ صفحاً،ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلباً للفضيلة [١].

فصل
فى وقوع كرامات الأولياء

ومنها [٢] : وقوع كرامات الأولياء ، وأنها إنما تكون لحاجة فى الدين ، أو لمنفعة للإسلام والمسلمين ، فهذه هى الأحوال الرحمانية سببها متابعة الرسول ، ونتيجتها إظهار الحق ، وكسر الباطل ، والأحوال الشيطانية ضدها سببا ونتيجة [٣].

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٨٤ ـ ٩٠).

(٢) أى مما يستفاد من قصة قدوم وفد دوس على رسول الله ﷺ.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٢٧).

فصل
فى عشق الصور

عشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة أضعاف ما يذكره ذاكر ؛فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد ثغر التوحيد.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله ، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع ، وكان الداعى هاهنا فى غاية القوة ، وذلك من وجوه.

أحدها : ما ركبه الله ـ سبحانه ـ فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلاً ، بل يحمد كما فى كتاب « الزهد » للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البنانى عن أنس عن النبى ﷺ : «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب، وأصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن »[(١)] .

الثانى : أن يوسف عليه السلام كان شابًا ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزبًا ، ليس له زوجة ولا سرية تكسر ثورة الشهوة .

الرابع : أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له فى وطنه، وبين أهله ومعارفه.

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس : أنها غير ممتنعة ولا أبية ؛ فإن كثيرًا من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ؛ لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء

---

(١) النسائى (٣٩٣٩) فى عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وأحمد (٣/ ١٢٨)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٦٠) وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، كلهم بلفظ : « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعل قرة عينى فى الصلاة » دون ذكر لفظ : « أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » وهى فى رواية أحمد فى الزهد من طريق يوسف بن عطية الصفار وهو مجمع على ضعفه كما فى المجروحين لابن حبان (٣/ ١٣٤) .

والامتناع إرادة وحبًا ، كما قال الشاعر :

وزادني كلفًا في الحب أن منعت أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة ؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، ويضمحل عند إبائها وامتناعها ، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظيرها ما يحصل من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع :أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد ؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ،وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن :أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها ؛ بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملك على الزنا ؟ قالت : « قرب الوساد ، وطول السواد » ، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي ،وطول السواد بيننا.

الحادي عشر :أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال : ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] .

الثاني عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذا هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر :أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ،ويبعد كلاً منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿ **أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** ﴾ [يوسف : ٢٩] ، وللمرأة : ﴿ **وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف] . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع،وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] ، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ،وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين،وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة،لعلنا إن وفق الله أن نفردها فى مصنف مستقل (١).

فصل
فى أحاديث لم تصح فى الأبدال والأقطاب وغيرهما

من ذلك: أحاديث الأبدال ، والأقطاب ، والأغواث ، والنقباء والنجباء ، والأوتاد ، كلها باطلة على رسول الله ﷺ.

وأقرب ما فيها : « لا تسبوا أهل الشام ، فإن فيهم البدلاء ، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكان رجلاً آخر » رواه أحمد (٢) ، ولايصح أيضا ، فإنه منقطع (٣) .

---

(١) الداء والدواء (٣٥٠ ـ ٣٥٣).

(٢) الحديث بهذا اللفظ عزاه فى الكنز (٣٥٠٢٢) للطبرانى فى الأوسط، ولم نقف عليه ، ولفظ أحمد (١/ ١١٢) : «الأبدال يكونون بالشام » ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٦٥) فى المناقب ، باب : ماجاء فى الأبدال وأنهم بالشام : « رجاله رجال الصحيح غيرشريح بن عبيد وهو ثقة ، وقد سمع من المقداد وهو أقدم من على » ، وقال العلامة أحمد شاكر (٨٩٦) : « إسناده ضعيف لانقطاعه » .

(٣) المنار المنيف (١٣٦).



كتاب النسب



فصل
فى أن النبى ﷺ خير أهل الأرض نسبًا

هو ﷺ خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق ، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك ؛ ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدى ملك الروم. فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه.

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

إلى هاهنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ولا خلاف فيه البتة، وما فوق «عدنان» مختلف فيه ولا خلاف بينهم أن « عدنان » من ولد إسماعيل (١) .

فصل
فى حكمه ﷺ فى لحوق النسب بالزوج

ثبت عنه فى « الصحيحين » أن رَجلاً قال له : إن امرأتى ولدت غلامًا أسْوَدَ كأنه يُعرِّضُ بنفيه ، فقال النبى ﷺ : « هل لك من إبل» ؟ قال : نعم . قال : « ما لونها ؟ » قال: حمر . قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم . قال رسول الله ﷺ: « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : لعله يا رسول الله يكون نزعه عرق . فقال النبى ﷺ : « وهذا لعله يكون نزعه عرق» (٢) .

وفى هذا الحديث من الفقه أن الحد لا يجب بالتعريض إذا كان على وجه السؤال والاستفتاء ، ومن أخذ منه أنه لا يجب بالتعريض ولو كان على وجه المقابحة والمشاتمة، فقد أبعد النجعة، ورب تعريض أفهم ، وأوجع للقلب ، وأبلغ فى النكاية من التصريح، وبساط الكلام وسياقه يرد ما ذكروه من الاحتمال، ويجعل الكلام قطعى الدلالة على المراد.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢٧١) .

(٢) البخارى (٥٠٠٥) فى الطلاق ، باب : إذا عرض بنفى الولد ، ومسلم (١٥٠٠/١٨) فى أول كتاب اللعان.

وفيه أن مجرد الريبة لا يسوغ اللعان ونفى الولد .

وفيه ضرب الأمثال والأشباه والنظائر فى الأحكام، ومن تراجم البخارى فى «صحيحه» على هذا الحديث : باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين قد بين الله حكمه ليفهم السائل ، وساق معه حديث : « أرأيت لو كان على أمك دين ؟ » (١) .

وأيضا

تأمل قوله ﷺ للرجل الذى استفتاه عن امرأته وقد ولدت غلاما أسود فأنكر ذلك، فقال له النبى ﷺ : « ألك إبل؟ » قال : نعم . « فما لونها ؟ » قال : أسود.

قال : « هل فيها من أورق ؟ » قال : نعم ، قال : « فأنى له ذلك ؟ » قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق» (٢) . كيف تضمن إلغاء هذا الوصف الذى لا تأثير له فى الحكم وهو مجرد اللون ومخالفة الولد للأبوين فيه، وإن مثل هذا لا يوجب ريبة، وإن نظيره فى المخلوقات مشاهد بالحس، والله خالق الإبل وخالق بنى آدم ، وهو الخلاق العليم ، فكما أن الجمل الأورق قد يتولد من بين أبوين أسودين ، فكذلك الولد الأسود قد يتولد من بين أبوين أبيضين ، وإن ما جوز به من سبب ذلك فى الإبل هو بعينه قائم فى بنى آدم، فهذه من أصح المناظرات والإرشاد إلى اعتبار ما يجب اعتباره من الأوصاف ، وإلغاء ما يجب إلغاؤه منها وإن حكم الشىء حكم نظيره، وإن العلل والمعانى حق شرعًا وقدراً (٣) .

فصل
فى جهات ثبوت النسب

ثبت فى « الصحيحين » ، من حديث عائشة ﵂ ، قالت : اختصم سعد بن أبى وقاص، وعبد بن زمعة فى غلام ، فقال سعد : هذا يا رسول الله ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلى أنه ابنه ، انظر إلى شبهه، وقال عبد بن زمعة : هذا أخى يا رسول الله ولد على فراش أبى من وليدته، فنظر رسول الله ﷺ ، فرأى شبها بينا بعتبة ، فقال: «هو

(١) البخارى (١٨٥٢) فى جزاء الصيد، باب : الحج والنذر عن الميت والرجل يحج عن المرأة .
(٢) زاد المعاد (٥/٤٠٩) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ١٢٧ ، ١٢٨) .

لك يا عبد بن زمعة ، الولد للفراش ، وللعاهر الحجر واحتجبى منه يا سودة» ، فلم تره سودة قط (١) .

فهذا الحكم النبوى أصل فى ثبوت النسب بالفراش ، وفى أن الأمة تكون فراشا بالوطء ، وفى أن الشبه إذا عارض الفراش ، قدم عليه الفراش، وفى أن أحكام النسب تتبعض ، فتثبت من وجه دون وجه ، وهو الذى يسميه بعض الفقهاء حكما بين حكمين ، وفى أن القافة حق ، وأنها من الشرع .

فأما ثبوت النسب بالفراش ، فأجمعت عليه الأمة ، وجهات ثبوت النسب أربعة : الفراش، والاستلحاق ، والبينة ، والقافة ، فالثلاثة الأول ، متفق عليها، واتفق المسلمون على أن النكاح يثبت به الفراش ، واختلفوا فى التسرى ، فجعله جمهور الأمة موجبا للفراش ، واحتجوا بصريح حديث عائشة الصحيح، وأن النبى ﷺ قضى بالولد لزمعة ، وصرح بأنه صاحب الفراش ، وجعل ذلك علة للحكم بالولد له ، فسبب الحكم ومحله إنما كان فى الأمة ، فلا يجوز إخلاء الحديث منه وحمله على الحرة التى لم تذكر البتة ، وإنما كان الحكم فى غيرها، فإن هذا يستلزم إلغاء ما اعتبره الشارع وعلق الحكم به صريحا، وتعطيل محل الحكم الذى كان لأجله فيه .

ثم لو لم يرد الحديث الصحيح فيه ، لكان هو مقتضى الميزان الذى أنزله الله تعالى ليقوم الناس بالقسط ، وهو التسوية بين المتماثلين ، فإن السرية فراش حسا وحقيقة وحكما، كما أن الحرة كذلك ، وهى تراد لما تراد له الزوجة من الاستمتاع والاستيلاد ، ولم يزل الناس قديما وحديثا يرغبون فى السرارى لاستيلادهن واستفراشهن ، والزوجة إنما سميت فراشا لمعنى هى والسرية فيه على حد سواء .

وقال أبو حنيفة : لا تكون الأمة فراشا بأول ولد ولدته من السيد ، فلا يلحقه الولد إلا إذا استلحقه ، فيلحقه حينئذ بالاستلحاق ، لا بالفراش ، فما ولدت بعد ذلك لحقه إلا أن ينفيه ، فعندهم ولد الأمة لا يلحق السيد بالفراش ، إلا أن يتقدمه ولد مستلحق ، ومعلوم أن النبى ﷺ ألحق الولد بزمعة وأثبت نسبه منه ، ولم يثبت قط أن هذه الأمة ولدت له قبل ذلك غيره ، ولا سأل النبى ﷺ عن ذلك ولا استفصل فيه.

قال منازعوهم : ليس لهذا التفصيل أصل فى كتاب ولا سنة ، ولا أثر عن صاحب، ولا تقتضيه قواعد الشرع وأصوله ، قالت الحنفية : ونحن لا ننكر كون الأمة فراشا فى

(١) البخارى (٢٧٤٥) فى الوصايا ، باب : قول الموصى لوصيه : تعاهد ولدى . . .إلخ، ومسلم (٣٦/١٤٥٧) فى الرضاع، باب : الولد للفراش وتوقى الشبهات.

الجملة ، ولكنه فراش ضعيف ، وهى فيه دون الحرة ، فاعتبرنا ما تعتق به بأن تلد منه ولدا فيستلحقه ، فما ولدت بعد ذلك ، لحق به إلا أن ينفيه ، وأما الولد الأول، فلا يلحقه إلا بالاستلحاق. ولهذا قلتم : إنه إذا استلحق ولدا من أمته لم يلحقه ما بعده إلا باستلحاق مستأنف، بخلاف الزوجة ، والفرق بينهما : أن عقد النكاح إنما يراد للوطء والاستفراش ، بخلاف ملك اليمين ، فإن الوطء والاستفراش فيه تابع ؛ ولهذا يجوز وروده على من يحرم عليه وطؤها بخلاف عقد النكاح . قالوا : والحديث لا حجة لكم فيه ؛ لأن وطء زمعة لم يثبت، وإنما ألحقه النبى ﷺ لعبد أخا؛ لأنه استلحقه فألحقه باستلحاقه، لا بفراش الأب.

قال الجمهور: إذا كانت الأمة موطوءة ، فهى فِراش حقيقة وحكما، واعتبار ولادتها السابقة فى صيرورتها فراشا اعتبار ما لا دليل على اعتباره شرعا ، والنبى ﷺ لم يعتبره فى فراش زمعة ، فاعتباره تحكم .

وقولكم : إن الأمة لا تراد للوطء ، فالكلام فى الأمة الموطوءة التى اتخذت سرية وفراشا، وجعلت كالزوجة أو أحظى منها لا فى أمته التى هى أخته من الرضاع ونحوها.

وقولكم : إن وطء زمعة لم يثبت حتى يلحق به الولد ، ليس علينا جوابه، بل جوابه على من حكم بلحوق الولد بزمعة ، وقال لابنه : هو أخوك.

وقولكم : إنما ألحقه بالأخ لأنه استلحقه : باطل ، فإن المستلحق إن لم يقر به جميع الورثة ،لم يلحق بالمقر إلا أن يشهد منهم اثنان أنه ولد على فراش الميت ، وعبد لم يكن يقر له جميع الورثة ، فإن سودة زوجة النبى ﷺ أخته ، وهى لم تقر به ولم تستلحقه ، وحتى لو أقرت به مع أخيها عبد، لكان ثبوت النسب بالفراش لا بالاستلحاق، فإن النبى ﷺ صرح عقيب حكمه بإلحاق النسب، بأن الولد للفراش، معللا بذلك، منبها على قضية كلية عامة تتناول هذه الواقعة وغيرها . ثم جواب هذا الاعتراض الباطل المحرم ، أن ثبوت كون الأمة فراشا بالإقرار من الواطئ ، أو وارثه كاف فى لحوق النسب، فإن النبى ﷺ ألحقه به بقوله : ابن وليدة أبى ولد على فراشه ، كيف وزمعة كان صهر النبى ﷺ ، وابنته تحته ، فكيف لا يثبت عنده الفراش الذى يلحق به النسب؟

وأما ما نقضتم به علينا أنه إذا استلحق ولدا من أمته، لم يلحقه ما بعده إلا بإقرار مستأنف، فهذا فيه قولان لأصحاب أحمد، هذا أحدهما، والثانى: أنه يلحقه وإن لم يستأنف إقرارا، ومن رجح القول الأول قال: قد يستبرئها السيد بعد الولادة، فيزول حكم الفراش بالاستبراء ، فلا يلحقه ما بعد الأول إلا باعتراف مستأنف أنه وطئها ، كالحال فى أول ولد ، ومن رجح الثانى قال: قد يثبت كونُها فراشا أولا، والأصل بقاء الفراش حتى

يثبت ما يزيله ، إذ ليس هذا نظير قولكم : إنه لا يلحقه الولد مع اعترافه بوطئها حتى يستلحقه ، وأبطل من هذا الاعتراض قول بعضهم، إنه لم يلحقه به أخا، وإنما جعله له عبدا ، ولهذا أتى فيه بلام التمليك فقال: « هو لك » ، أى : مملوك لك ، وقوى هذا الاعتراض بأن فى بعض ألفاظ الحديث « هو لك عبد » ، وبأنه أمر سودة أن تحتجب منه، ولو كان أخا لها لما أمرها بالاحتجاب منه، فدل على أنه أجنبى منها.

قال : وقوله : «الولد للفراش » ، تنبيه على عدم لحوق نسبه بزمعة أى : لم تكن هذه الأمة فراشا له ، لأن الأمة لا تكون فراشا ، والولد إنما هو للفراش، وعلى هذا يصح أمر احتجاب سودة منه ، قال : ويؤكده أن فى بعض طرق الحديث « احتجبى منه ، فإنه ليس لك بأخ » قالوا : وحينئذ فتبين أنا أسعد بالحديث وبالقضاء النبوى منكم.

قال الجمهور : الآن حمى الوطيس ، والتقت حلقتا البطان فنقول والله المستعان : أما قولكم : إنه لم يلحقه به أخا ، وإنما جعله عبدا ، يرده ما رواه محمد بن إسماعيل البخارى فى «صحيحه » فى هذا الحديث : « هولك، هو أخوك يا عبد بن زمعة » [1] ، وليس اللام للتمليك، وإنما هى للاختصاص ، كقوله : « الولد للفراش » ، فأما لفظة قوله: « هو لك عبد »، فرواية باطلة لا تصح أصلا ، وأما أمره سودة بالاحتجاب منه، فإما أن يكون على طريق الاحتياط والورع لمكان الشبهة التى أورثها الشبه البين بعتبة ، وإما أن يكون مراعاة للشبهين وإعمالا للدليلين ، فإن الفراش دليل لحوق النسب ، والشبه بغير صاحبه دليل نفيه، فأعمل أمر الفراش بالنسبة إلى المدعى لقوته، وأعمل الشبه بعتبة بالنسبة إلى ثبوت المحرمية بينه وبين سودة، وهذا من أحسن الأحكام وأبينها، وأوضحها ، ولا يمنع ثبوت النسب من وجه دون وجه ، فهذا الزانى يثبت النسب منه بينه وبين الولد فى التحريم والبعضية دون الميراث والنفقة والولاية وغيرها ، وقد يتخلف بعض أحكام النسب عنه مع ثبوته لمانع ، وهذا كثير فى الشريعة ، فلا ينكر من تخلف المحرمية بين سودة وبين هذا الغلام لمانع الشبه بعتبة ، وهل هذا إلا محض الفقه ؟ وقد علم بهذا معنى قوله : «ليس لك بأخ » ، لو صحت هذه اللفظة مع أنها لا تصح ، وقد ضعفها أهل العلم بالحديث، ولا نبالى بصحتها مع قوله لعبد : « هو أخوك » ، وإذا جمعت أطراف كلام النبى ﷺ وقرنت قوله : « هو أخوك » بقوله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » ، تبين لك بطلان ما ذكروه من التأويل ، وأن الحديث صريح فى خلافه لا يحتمله بوجه والله أعلم .

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥.

والعجب أن منازعينا فى هذه المسألة يجعلون الزوجة فراشا لمجرد العقد، وإن كان بينها وبين الزوج بعد المشرقين ، ولا يجعلون سريته التى يتكرر استفراشه لها ليلا ونهارا فراشا .

واختلف الفقهاء فيما تصير به الزوجة فراشا، على ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه نفس العقد وإن علم أنه لم يجتمع بها، بل لو طلقها عقيبه فى المجلس ، وهذا مذهب أبى حنيفة.

والثانى : أنه العقد مع إمكان الوطء ، وهذا مذهب الشافعى وأحمد.

والثالث : أنه العقد مع الدخول المحقق لا إمكانه المشكوك فيه، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال: إن أحمد أشار إليه فى رواية حرب، فإنه نص فى روايته فيمن طلق قبل البناء ، وأتت امرأته بولد ، فأنكره أنه ينتفى عنه بغير لعان ، وهذا هو الصحيح المجزوم به ، وإلا فكيف تصير المرأة فراشا ولم يدخل بها الزوج ، ولم يبن بها لمجرد إمكان بعيد ؟ وهل يعد أهل العرف واللغة المرأة فراشا قبل البناء بها، وكيف تأتى الشريعة بإلحاق نسب بمن لم يبن بامرأته ، ولا دخل بها ، ولا اجتمع بها بمجرد إمكان ذلك ؟ وهذا الإمكان قد يقطع بانتفائه عادة ، فلا تصير المرأة فراشا إلا بدخول محقق ، وبالله التوفيق ، وهذا الذى نص عليه فى رواية حرب ، هو الذى تقتضيه قواعده وأصول مذهبه والله أعلم.

واختلفوا أيضا فيما تصير به الأمة فراشا :

فالجمهور : على أنها لا تصير فراشا إلا بالوطء، وذهب بعض المتأخرين من المالكية إلى أن الأمة التى تشترى للوطء دون الخدمة، كالمرتفعة التى يفهم من قرائن الأحوال أنها إنما تراد للتسرى، فتصير فراشا بنفس الشراء والصحيح أن الأمة والحرة لا تصيران فراشا إلا بالدخول.

فهذا أحد الأمور الأربعة التى يثبت بها النسب وهو الفراش .

الثانى : الاستلحاق وقد اتفق أهل العلم على أن للأب أن يستلحق، فأما الجد، فإن كان الأب موجودا لم يؤثر استلحاقه شيئا، وإن كان معدوما، وهو كل الورثة ، صح إقراره، وثبت نسب المقر به ، وإن كان بعض الورثة وصدقوه ، فكذلك ، وإلا لم يثبت نسبه إلا أن يكون أحد الشاهدين فيه.

والحكم فى الأخ كالحكم فى الجد سواء ، والأصل فى ذلك أن من حاز المال يثبت

النسب بإقراره واحدا كان أو جماعة، وهذا أصل مذهب أحمد والشافعى ؛ لأن الورثة قاموا مقام الميت ، وحلوا محله . وأورد بعض الناس على هذا الأصل ، أنه لو كان إجماع الورثة على إلحاق النسب يثبت النسب ، للزم إذا اجتمعوا على نفى حمل من أمة وطئها الميت أن يحلوا محله فى نفى النسب ، كما حلوا محله فى إلحاقه ، وهذا لا يلزم ؛ لأنا اعتبرنا جميع الورثة والحمل من الورثة ، فلم يجمع الورثة على نفيه.

فإن قيل : فأنتم اعتبرتم فى ثبوت النسب إقرار جميع الورثة، والمقر هاهنا إنما هو عبد، وسودة لم تقر به وهى أخته ، والنبى ﷺ ألحقه بعبد باستلحاقه ، ففيه دليل على استلحاق الأخ وثبوت النسب بإقراره ، ودليل على أن استلحاق أحد الأخوة كافٍ.

قيل : سودة لم تكن منكرة ، فإن عبدا استلحقه، وأقرته سودة على استلحاقه، وإقرارها وسكوتها على هذا الأمر المتعدى حكمه إليها من خلوته بها . ورؤيته إياها وصيرورته أخا لها تصديق لأخيها عبد، وإقرار بما أقر به ، وإلا لبادرت إلى الإنكار والتكذيب ، فجرى رضاها وإقرارها مجرى تصديقها ، هذا إن كان لم يصدر منها تصديق صريح ، فالواقعة واقعة عين، ومتى استلحق الأخ أو الجد أو غيرهما نسب من لو أقر به مورثهم لحقه ، ثبت نسبُه ما لم يكن هنا وارث منازع، فالاستلحاق مقتض لثبوت النسب، ومنازعة غيره من الورثة مانع من الثبوت، فإذا وجد المقتضى ، ولم يمنع مانع من اقتضائه، ترتب عليه حكمه . ولكن هاهنا أمر آخر ، وهو أن إقرار من حاز الميراث واستلحاقه : هل هو إقرار خلافة عن الميت أو إقرار شهادة ؟ هذا فيه خلاف :

فمذهب أحمد والشافعى رحمهما الله: أنه إقرار خلافه، فلا تشترط عدالة المستلحق، بل ولا إسلامه، بل يصح ذلك من الفاسق والدين .

وقالت المالكية : هو إقرار شهادة، فتعتبر فيه أهلية الشهادة ، وحكى ابن القصار عن مذهب مالك : أن الورثة إذا أقروا بالنسب لحق ، وإن لم يكونوا عدولا ، والمعروف من مذهب مالك خلافه.

الثالث : البينة ، بأن يشهد شاهدان أنه ابنه ، أو أنه ولد على فراشه من زوجته ، أو أمته ، وإذا شهد بذلك اثنان من الورثة لم يلتفت إلى إنكار بقيتهم ، وثبت نسبة ، ولا يعرف فى ذلك نزاع.

الرابع : القافة ، حكم رسول الله ﷺ وقضاؤه باعتبار القافة وإلحاق النسب بها.

ثبت فى « الصحيحين » : من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ ذات يوم مسرورا تبرق أسارير وجهه ، فقال : « ألم ترى أن مجززا المدلجى نظر آنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما ، فقال:

إن هذه الأقدام بعضها من بعض » [(١)] ، فسر النبى ﷺ بقول القائف ولو كانت كما يقول المنازعون من أمر الجاهلية كالكهانة ونحوها لما سر بها ، ولا أعجب بها ، ولكانت بمنزلة الكهانة . وقد صح عنه وعيد من صدق كاهنا.

قال الشافعى : والنبى ﷺ أثبته علما ، ولم ينكره ، ولو كان خطأ لأنكره ؛ لأن فى ذلك قذف المحصنات ، ونفى الأنساب، انتهى.

كيف والنبى ﷺ قد صرح فى الحديث الصحيح بصحتها واعتبارها ، فقال فى ولد الملاعنة : إن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية ، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لشريك ابن سحماء ، فلما جاءت به على شبه الذى رميت به قال : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن» [(٢)] وهل هذا إلا اعتبار للشبه وهو عين القافة ، فإن القائف يتبع أثر الشبه، وينظر إلى من يتصل ، فيحكم به لصاحب الشبه، وقد اعتبر النبى ﷺ الشبه وبين سببه، ولهذا لما قالت له أم سلمة : أو تحتلم المرأة ، فقال: « مم يكون الشبه » [(٣)] .

وأخبر فى الحديث الصحيح ، « أن ماء الرجل إذا سبق ماء المرأة، كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها ماءه، كان الشبه لها » [(٤)] . فهذا اعتبار منه للشبه شرعًا وقدرًا ، وهذا أقوى ما يكون من طرق الأحكام أن يتوارد عليه الخلق والأمر والشرع والقدر ، ولهذا تبعه خلفاؤه الراشدون فى الحكم بالقافة .

قال سعيد بن منصور : حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، عن سليمان بن يسار ، عن عمر فى امرأة وطئها رجلان فى طهر ، فقال القائف قد اشتركا فيه جميعا، فجعله بينهما .

قال الشعبى : وعلى يقول: هو ابنهما ، وهما أبواه يرثانه، ذكره سعيد أيضا .

وروى الأثرم بإسناده ، عن سعيد بن المسيب ، فى رجلين اشتركا فى طهر امرأة ، فحملت ، فولدت غلاما يشبههما ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فدعا القافة ، فنظروا ، فقالوا : نراه يشبههما ، فألحقه بهما ، وجعله يرثهما ويرثانه.

---

(١) البخارى (٦٧٧٠) فى الفرائض ، باب : القائف ، ومسلم (١٤٥٩/٣٨) فى الرضاع، باب: العمل بإلحاق القائف الولد .

(٢) أبو داود (٢٢٥٦) فى الطلاق ، باب : فى اللعان ، وأحمد (٢٣٨/١ ، ٢٣٩) وقال العلامة أحمد شاكر (٢١٣١): « إسناده صحيح ».

(٣) البخاري (١٣٠) فى العلم، باب : الحياء فى العلم ، ومسلم (٣١٣/ ٣٢) فى الحيض ، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها.

(٤) البخارى (٣٣٢٩) فى الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته.

ولا يعرف قط فى الصحابة من خالف عمر وعليا رضي الله عنهما فى ذلك، بل حكم عمر بهذا فى المدينة ، وبحضرته المهاجرون والأنصار، فلم ينكره منهم منكر.

قالت الحنفية : قد أجلبتم علينا في القافة بالخيل والرجل ، والحكم بالقيافة تعويل على مجرد الشبه والظن والتخمين ، ومعلوم أن الشبه قد يوجد من الأجانب، وينتفى عن الأقارب ، وذكرتم قصة أسامة وزيد ، ونسيتم قصة الذى ولدت امرأته غلاما أسود يخالف لونهما ، فلم يمكنه النبى ﷺ من نفيه ، ولا جعل للشبه ولا لعدمه أثرًا ، ولو كان للشبه أثر، لاكتفى به فى ولد الملاعنة ، ولم يحتج إلى اللعان ، بل كان لا يصح نفيه مع وجود الشبه بالزوج ، وقد دلت السنة الصحيحة الصريحة على نفيه عن الملاعن، ولو كان الشبه له، فإن النبى ﷺ قال: « أبصروها فإن جاءت به كذا وكذا ، فهو لهلال بن أمية » ، وهذا قاله بعد اللعان ونفى النسب عنه، فعلم أنه لو جاء على الشبه المذكور ، لم يثبت نسبه منه، وإنما كان مجيئه على شبهه دليلا على كذبه ، لا على لحوق الولد به .

قالوا : وأما قصة أسامة وزيد ، فالمنافقون كانوا يطعنون فى نسبه من زيد لمخالفة لونه لون أبيه ، ولم يكونوا يكتفون بالفراش، وحكم الله ورسوله فى أنه ابنه ، فلما شهد به القائف وافقت شهادته حكم الله ورسوله ، فسر به النبى ﷺ لموافقتها حكمه ، ولتكذيبها قول المنافقين ، لا أنه أثبت نسبه بها ، فأين فى هذا إثبات النسب بقول القائف ؟

قالوا: وهذا معنى الأحاديث التى ذكر فيها اعتبار الشبه، فإنها إنما اعتبرت فيه الشبه بنسب ثابت بغير القافة ، ونحن لا ننكر ذلك . قالوا: وأما حكم عمر وعلى ، فقد اختلف على عمر ، فروى عنه ما ذكرتم ، وروى عنه أن القائف لما قال له: قد اشتركا فيه، قال: وَالِ أيهما شئت [1] فلم يعتبر قول القائف.

قالوا : وكيف تقولون بالشبه، ولو أقر أحد الورثة بأخ ، وأنكره الباقون ، والشبه موجود، لم تثبتوا النسب به، وقلتم : إن لم تتفق الورثة على الإقرار به لم يثبت النسب ؟

قال أهل الحديث : من العجب أن ينكر علينا القول بالقافة ، ويجعلها من باب الحدس والتخمين من يلحق ولد المشرقى بمن فى أقصى المغرب، مع القطع بأنهما لم يتلاقيا طرفة عين ، ويلحق الولد باثنين مع القطع بأنه ليس ابنا لأحدهما ، ونحن إنما ألحقنا الولد بقول القائف المستند إلى الشبه المعتبر شرعا وقدرا ، فهو استناد إلى ظن غالب، ورأى راجح، وأمارة ظاهرة بقول من هو من أهل الخبرة ، فهو أولى بالقبول من قول المقومين ، وهل ينكر مجىء كثير من الأحكام مستندا إلى الأمارات الظاهرة ، والظنون الغالبة ؟

---

(١) مالك فى الموطأ (٢٢) فى الأقضية ، باب : القضاء بإلحاق الولد بأبيه .

وأما وجود الشبه بين الأجانب ، وانتفاؤه بين الأقارب ، وإن كان واقعا، فهو من أندر شىء وأقله ، والأحكام إنما هى للغالب الكثير ، والنادر فى حكم المعدوم.

وأما قصة من ولدت امرأته غلاما أسود ، فهو حجة عليكم؛ لأنها دليل على أن العادة التى فطر الله عليها الناس اعتبار الشبه ، وأن خلافه يوجب ريبة ، وأن فى طباع الخلق إنكار ذلك ولكن لما عارض ذلك دليل أقوى منه وهو الفراش ، كان الحكم للدليل القوى ، وكذلك نقول نحن وسائر الناس : إن الفراش الصحيح إذا كان قائما، فلا يعارض بقافة ولا شبه ، فمخالفة ظاهر الشبه لدليل أقوى منه ـ وهو الفراش ـ غير مستنكر ، وإنما المستنكر مخالفة هذا الدليل الظاهر بغير شىء .

وأما تقديم اللعان على الشبه ، وإلغاء الشبه مع وجوده، فكذلك أيضا هو من تقديم أقوى الدليلين على أضعفهما ، وذلك لا يمنع العمل بالشبه مع عدم ما يعارضه ، كالبينة تقدم على اليد والبراءة الأصلية ، ويُعمل بهما عند عدمهما .

وأما ثبوت نسب أسامة من زيد بدون القيافة ، فنحن لم نثبت نسبه بالقيافة ، والقيافة دليل آخر موافق لدليل الفراش، فسرور النبى ﷺ ، وفرحه بها ،واستبشاره لتعاضد أدلة النسب وتضافرها ،لا لإثبات النسب بقول القائف وحده ،بل هو من باب الفرح بظهور أعلام الحق وأدلته وتكاثرها ،ولو لم تصلح القيافة دليلاً لم يفرح بها ولم يسر ،وقد كان النبى ﷺ يفرح ويسر إذا تعاضدت عنده أدلة الحق ،ويخبر بها الصحابة ،ويجب أن يسمعوها من المخبر بها ،لأن النفوس تزداد تصديقاً بالحق إذا تعاضدت أدلته ،وتسر به وتفرح ،وعلى هذا فطر الله عباده ،فهذا حكم اتفقت عليه الفطرة والشرعة وبالله التوفيق.

وأما ما روى عن عمر أنه قال: وال أيهما شئت ، فلا تعرف صحته عن عمر ، ولو صح عنه لكان قولاً عنه ، فإن ما ذكرنا عنه فى غاية الصحة ، مع أن قوله : وال أيهما شئت ليس بصريح فى إبطال قول القائف ،ولو كان صريحاً فى إبطال قوله،لكان فى مثل هذا الموضع إذا ألحقه باثنين ،كما يقوله الشافعى ومن وافقه.

وأما إذا أقر أحد الورثة بأخ ، وأنكره الباقون ، فإنما لم يثبت نسبه لمجرد الإقرار، فأما إذا كان هناك شبه يستند إليه القائف ، فإنه لا يعتبر إنكار الباقين ، ونحن لا نقصر القافة على بنى مدلج ، ولا نعتبر تعدد القائف ، بل يكفى واحد على الصحيح بناء على أنه خبر،وعن أحمد رواية أخرى:أنه شهادة ، فلابد من اثنين ، ولفظ الشهادة بناء على اشتراط اللفظ.

فإن قيل: فالمنقول عن عمر أنه ألحقه بأبوين ، فما تقولون فيما إذا ألحقته القافة

بأبوين، هل تلحقونه بهما ، أو لا تلحقونه إلا بواحد ،وإذا ألحقتموه بأبوين ، فهل يختص ذلك باثنين ،أم يلحق بهم وإن كثروا ،وهل حكم الاثنين فى ذلك حكم الأبوين أم ماذا حكمهما ؟

قيل:هذه مسائل فيها نزاع بين أهل العلم ، فقال الشافعى ومن وافقه : لا يلحق بأبوين ، ولا يكون للرجل إلا أب واحد ، ومتى ألحقته القافة باثنين ،سقط قولها ، وقال الجمهور : بل يلحق باثنين ، ثم اختلفوا، فنص أحمد فى رواية منها بن يحيى : أنه يلحق بثلاثة ، وقال صاحب المغنى :ومقتضى هذا أنه يلحق بمن ألحقته القافة به وإن كثروا ،لأنه إذا جاز إلحاقه باثنين ، جاز إلحاقه بأكثر من ذلك ،وهذا مذهب أبى حنيفة ،لكنه لا يقول بالقافة ، فهو يلحقه بالمدعين وإن كثروا ، وقال القاضى : يجب ألا يلحق بأكثر من ثلاثة، وهو قول محمد بن الحسن ، وقال ابن حامد : لا يلحق بأكثر من اثنين ، وهو قول أبى يوسف ، فمن لم يلحقه بأكثر من واحد ، قال : قد أجرى الله سبحانه عادته أن للولد أبا واحداً ، وأماً واحدة ، ولذلك يقال : فلان ابن فلان وفلان ابن فلانة فقط . ولو قيل: فلان ابن فلان وفلان، لكان ذلك منكرًا وعد قذفاً ،ولهذا إنما يقال يوم القيامة: أين فلان ابن فلان ؟ وهذه غدرة فلان ابن فلان ، ولم يعهد قط فى فى الوجود نسبة ولد إلى أبوين قط، ومن ألحقه باثنين، احتج بقول عمر، وإقرار الصحابة له على ذلك ، وبأن الولد قد ينعقد من ماء رجلين كما ينعقد من ماء الرجل والمرأة ، ثم قال أبو يوسف : إنما جاء الأثر بذلك ، فيقتصر عليه.وقال القاضى : لا يتعدى به ثلاثة ؛ لأن أحمد إنما نص على الثلاثة، والأصل ألا يلحق بأكثر من واحد، وقد دل قول عمر على إلحاقه باثنين مع انعقاده من ماء الأم ، فدل على إمكان انعقاده من ماء ثلاثة ، وما زاد على ذلك، فمشكوك فيه.

قال الملحقون له بأكثر من ثلاثة : إذا جاز تخليقه من ماء رجلين وثلاثة ، جاز خلقه من ماء أربعة وخمسة ، ولا وجه لاقتصاره على ثلاثة فقط ، بل إما أن يلحق بهم وإن كثروا ، وإما ألا يتعدى به أحد ، ولا قول سوى القولين والله أعلم.

فإن قيل: إذا اشتمل الرحم على ماء الرجل ، وأراد الله أن يخلق منه الولد،انضم عليه أحكم انضمام ، وأتمه حتى لا يفسد ، فكيف يدخل عليه ماء آخر ؟ قيل : لا يمتنع أن يصل الماء الثانى إلى حيث وصل الأول ، فينضم عليهما ،وهذا كما أن الولد ينعقد من ماء الأبوين ، وقد سبق ماء الرجل ماء المرأة أو بالعكس ،ومع هذا فلا يمتنع وصول الماء الثانى إلى حيث وصل الأول ، وقد علم بالعادة أن الحامل إذا توبع وطؤها ، جاء الولد عبل الجسم ما لم يعارض ذلك مانع ؛ ولهذا ألهم الله سبحانه الدواب إذا حملت ألا تمكن

الفحل أن ينزو عليها ، بل تنفر عنه كل النفار ، وقال الإمام أحمد : إن الوطء الثانى يزيد فى سمع الولد وبصره ، وقد شبهه النبى ﷺ بسقى الزرع ، ومعلوم أن سقيه يزيد فى ذاته والله أعلم .

فإن قيل: فقد دل الحديث على حكم استلحاق الولد ، وعلى أن الولد للفراش ، فما تقولون لو استلحق الزانى ولداً لا فراش هناك يعارضه ، هل يلحقه نسبه ، ويثبت له أحكام النسب ؟

قيل : هذه مسألة جليلة اختلف أهل العلم فيها ، فكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى أن المولود من الزنا إذا لم يكن مولوداً على فراش يدعيه صاحبه، وادعاه الزانى، ألحق به، وأول قول النبى ﷺ : « الولد للفراش» ، على أنه حكم بذلك عند تنازع الزانى وصاحب الفراش ، كما تقدم ، وهذا مذهب الحسن البصرى ، رواه عنه إسحاق بإسناده ، فى رجل زنى بامرأة ، فولدت ولداً ، فادعى ولدها فقال: يجلد ويلزمه الولد ،وهذا مذهب عروة بن الزبير، وسليمان بن يسار ذكر عنهما أنهما قالا: أيما رجل أتى إلى غلام يزعم أنه ابن له ، وأنه زنى بأمه ولم يدع ذلك الغلام أحد ، فهو ابنه ،واحتج سليمان ،بأن عمر بن الخطاب كان يليط أولاد الجاهلية بمن ادعاهم فى الإسلام ، وهذا المذهب كما تراه قوة ووضوحًا ، وليس مع الجمهور أكثر من « الولد للفراش » وصاحب هذا المذهب أول قائل به ، والقياس الصحيح يقتضيه ، فإن الأب أحد الزانيين ، وهو إذا كان يلحق بأمه ، وينسب إليها ، وترثه ويرثها ، ويثبت النسب بينه وبين أقارب أمه مع كونها زنت به ، وقد وجد الولد من ماء الزانيين ، وقد اشتركا فيه ، واتفقا على أنه ابنهما ، فما المانع من لحوقه بالأب إذا لم يدعه غيره ؟ فهذا محض القياس ، وقد قال جريج للغلام الذى زنت أمه بالراعى : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلان الراعى ، وهذا إنطاق من الله لا يمكن فيه الكذب .

فإن قيل : فهل لرسول الله ﷺ فى هذه المسألة حكم ؟ قيل : قد روى عنه فيها حديثان ، نحن نذكر شأنهما (١).

وأيضا

ومن العجب منعهم (٢) إلحاق النسب بالقيافة التى هى من أظهر الأدلة ، وقد اعتبرها النبى ﷺ وعمل بها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإلحاقهم النسب برجل تزوج امرأة بأقصى المشرق وهو بأقصى المغرب وبينهما مالا يقطعه البشر وقال : تزوجت فلانة

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٤١٠ ـ ٤٢٦).

(٢) أى بعض الفقهاء.

وهى طالق ثلاثا عقب القبول ثم جاءت بولد ، فقالت: هو منه.

ومن العجب إلحاقهم الولد فى هذه الصورة وزعمهم أن الرجل إذا كانت له سرية وهو يطأها دائمًا فأتت بولد على فراشه لم يلحقه إلا أن يستلحقه (١).

وأيضًا

قوله ﷺ: « أبصروها فإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية ،وإن جاءت به كذا وكذا فهو لشريك بن سحماء »(٢) إرشاد منه ﷺ إلى اعتبار الحكم بالقافة ،وأن للشبه مدخلاً فى معرفة النسب وإلحاق الولد بمنزله الشبه وإنما لم يلحق بالملاعن لو قدر أن الشبه له لمعارضة اللعان الذى هو أقوى من الشبه له(٣).

فصل

ذكر حكم رسول الله ﷺ فى استلحاق ولد الزنا وتوريثه

ذكر أبو داود فى « سننه » : من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا مساعاة فى الإسلام ، من ساعى فى الجاهلية فقد لحق بعصبته ، ومن ادعى ولدا من غير رشدة ، فلا يرث ولا يورث » (٤).

المساعاة : الزنا ، وكان الأصمعى يجعلها فى الإيماء دون الحرائر ؛ لأنهن يسعين لمواليهن ، فيكتسبن لهم ، وكان عليهن ضرائب مقررة ، فأبطل النبى ﷺ المساعاة فى الإسلام ، ولم يلحق النسب بها، وعفا عما كان فى الجاهلية منها، وألحق النسب به. وقال الجوهرى : يقال : زنى الرجل وعهر ، فهذا قد يكون فى الحرة والأمة ، ويقال فى الأمة خاصة : قد ساعاها . ولكن فى إسناد هذا الحديث رجل مجهول ، فلا تقوم به حجة.

وروى أيضاً فى « سننه » من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن النبى ﷺ ، قضى أن كل مستلحق استلحق بعد أبيه الذى يدعى له ،ادعاه ورثته ، فقضى

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٠) .

(٢) البخارى (٤٧٧٤) فى التفسير ، باب : ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ ، ومسلم (١٤٩٧/ ١١) فى أول اللعان ، عن أنس ، والترمذى (٣١٧٩) فى تفسير القرآن ، باب : (٢٥) ، ومن سورة النور وقال : «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث هشام بن حسان ... إلخ ».

(٣) زاد المعاد (٥/ ٤٠٣).

(٤) أبو داود (٢٢٦٤) فى الطلاق ، باب: فى ادعاء ولد الزنا ، وضعفه الألبانى .

أن كل من كان من أمة يملكها يوم أصابها ، فقد لحق بمن استلحقه ، وليس له مما قسم قبله من الميراث ، وما أدرك من ميراث لم يقسم ، فله نصيبه ، ولا يلحق إذا كان أبوه الذى يدعى له أنكره ، وإن كان من أمة لم يملكها ،أو من حرة عاهر بها ،فإنه لا يلحق ولا يرث ، وإن كان الذى يدعى له هو ادعاه ، فهو من ولد زنية من حرة كان أو أمة (١).

وفى رواية: وهو ولد زنا لأهل أمة من كانوا حرة أو أمة ،وذلك فيما استلحق فى أول الإسلام ، فما اقتسم من مال قبل الإسلام ،فقد مضى (٢) وهذا لأهل الحديث فى إسناده مقال ؛ لأنه من رواية محمد بن راشد المكحولى.

وكان قوم الجاهلية لهم إماء بغايا ، فإذا ولدت أمة أحدهم وقد وطئها غيره بالزنا ، فربما ادعاه سيدها ، وربما ادعاه الزانى ، واختصما فى ذلك ، حتى قام الإسلام ، فحكم النبى ﷺ بالولد للسيد ؛ لأنه صاحب الفراش ، ونفاه على الزانى.

ثم تضمن هذا الحديث أمورًا .

منها: أن المستلحق إذا استلحق بعد أبيه الذى يدعى له ادعاه ورثته ، فإن كان الولد من أمة يملكها الواطئ يوم أصابها ، فقد لحق بمن استلحقه ، يعنى إذا كان الذى استلحقه ورثة مالك الأمة ، وصار ابنه من يومئذ ، وليس له مما قسم قبله من الميراث شيء ،لأن هذا تجديد حكم نسبه ، ومن يومئذ يثبت نسبه ، فلا يرجع بما اقتسم قبله من الميراث،إذا لم يكن حكم البنوة ثابتاً ، وما أدرك من ميراث لم يقسم ، فله نصيبه منه ؛ لأن الحكم ثبت قبل قسمه الميراث ، فيستحق منه نصيبه ،وهذا نظير من أسلم على ميراث قبل قسمه، قسم له فى أحد قولى العلماء ،وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وإن أسلم بعد قسم الميراث ، فلا شيء له ،فثبوت النسب هاهنا بمنزلة الإسلام بالنسبة إلى الميراث.

قوله : « ولا يلحق إذا كان أبوه الذى يدعى له أنكره » هذا ، يبين أن التنازع بين الورثة ، وأن الصورة الأولى أن يستلحقه ورثة أبيه الذى كان يدعى له ، وهذه الصورة إذا استلحقه ورثته وأبوه الذى يدعى له كان ينكر ، فإنه لا يلحق ، لأن الأصل الذى الورثة خلف عنه منكر له ، فكيف يلحق به مع إنكاره ؟ فهذا إذا كان من أمة يملكها ، أما إذا كان من أمه لم يملكها ، أو من حرة عاهر بها ، فإنه لا يلحق ، ولا يرث ، وإن ادعاه الواطئ وهو ولد زنية من أمة كان أو من حرة ، وهذا حجة الجمهور على إسحاق ومن قال بقوله: إنه لا يلحق بالزانى إذا ادعاه ،ولا يرثه ،وأنه ولد زنا لأهل أمه من كانوا حرة كانت أمة.

---

(١) أبو داود (٢٢٦٥) فى الطلاق ، باب فى ادعاء ولد الزنا .

(٢) أبو داود (٢٢٦٦) فى الكتاب والباب السابقين .

وأما ما اقتسم من مال قبل الإسلام ، فقد مضى ، فهذا الحديث يرد قول إسحاق ومن وافقه ، لكن فيه محمد بن راشد ، ونحن نحتج بعمرو بن شعيب ، فلا يعلل الحديث به ، فإن ثبت هذا الحديث ، تعين القول بموجبه ، والمصير إليه ، وإلا فالقول قول إسحاق ومن معه ، والله المستعان.

فصل

فى ذكر الحكم الذى حكم به على بن أبى طالب رضي الله عنه فى الجماعة الذين وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، ثم تنازعوا الولد

ذكر أبو داود والنسائى فى « سننهما » ، من حديث عبدالله بن الخليل ، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبى ﷺ ، فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : إن ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا علياً يختصمون إليه فى ولد ، قد وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فقال لاثنين: طيبا بالولد لهذا فَغَلَيَا ، ثم قال لاثنين: طيبا بالولد لهذا ، فغليا ، ثم قال لاثنين: طيبا بالولد لهذا، فغليا، فقال: أنتم شركاء متشاكسون، إنى مقرع بينكم فمن قرع، فله الولد وعليه لصاحبيه ثلثا الديه ، فأقرع بينهم ، فجعله لمن قرع ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أضراسه أو نواجذه [١] . وفى إسناده يحيى بن عبدالله الكندى الأجلح ولا يحتج بحديثه ، لكن رواه أبو داود والنسائى بإسناد كلهم ثقات إلى عبد خير ، عن زيد بن أرقم. قال: أتى على بن أبى طالب بثلاثة وهو باليمن وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فسأل اثنين أتقران لهذا بالولد ؟ قالا : لا ، حتى سألهم جميعاً ، فجعل كلما سأل اثنين قالا: لا ، فأقرع بينهم ، فألحق الولد بالذى صارت عليه القرعة، وجعل عليه ثلثى الدية، قال: فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه [٢] . وقد أعل هذا الحديث بأنه روى عن عبد خير بإسقاط زيد بن أرقم ، فيكون مرسلاً. قال النسائى : وهذا أصوب . وهذا أعجب ، فإن إسقاط زيد بن أرقم من هذا الحديث لا يجعله مرسلاً ، فإن عبد خير أدرك عليًا وسمع منه ، وعلى صاحب القصة ، فهب أن زيد بن أرقم لا ذكر له فى السند فمن أين يجىء الإرسال ، إلا أن يقال : عبد خير لم يشاهد ضحك النبى ﷺ ، وعلى إذ

---

(١) أبو داود (٢٢٦٩) فى الطلاق ، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعوا فى الولد ، والنسائى (٣٤٩٠) فى الطلاق، باب : القرعة فى الولد إذا تنازعو فيه . . . إلخ .

(٢) أبو داود (٢٢٧٠) فى الطلاق، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعوا فى الولد ، والنسائى (٣٤٨٨) فى الطلاق ، باب: القرعة فى الولد إذا تنازعوا فيه

ذاك كان باليمن ، وإنما شاهد ضحكه ﷺ زيد بن أرقم أو غيره من الصحابة ، وعبد خير لم يذكر من شاهد ضحكه ، فصار الحديث به مرسلاً. فيقال إذا : قد صح السند عن عبد خير ، عن زيد بن أرقم ، متصلاً ، فمن رجح الاتصال ؛ لكونه زيادة من الثقة فظاهر ، ومن رجح رواية الأحفظ والأضبط ، وكان الترجيح من جانبه ولم يكن على قد أخبره بالقصة ، فغايتها أن تكون مرسلة ، وقد يقوى الحديث بروايته من طريق أخرى متصلاً .

وبعد ،فاختلف الفقهاء فى هذا الحكم ، فذهب إليه إسحاق بن راهويه ، وقال : هو السنة فى دعوى الولد ، وكان الشافعى يقول به فى القديم ، وأما الإمام أحمد ، فسئل عن هذا الحديث ، فرجح عليه حديث القافة ، وقال : حديث القافة أحب إلى .

وهاهنا أمران ، أحدهما : دخول القرعة فى النسب ، والثانى : تغريم من خرجت له القرعة ثلثى دية ولده لصاحبيه . وأما القرعة ، فقد تستعمل عند فقدان مرجح سواها من بينة أو إقرار ، أو قافة ، وليس ببعيد تعيين المستحق بالقرعة فى هذه الحال ، إذ هى غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى ، ولها دخول فى دعوى الأملاك المرسلة التى لا تثبت بقرينة ولا أمارة ، فدخولها فى النسب الذى يثبت بمجرد الشبه الخفى المستند إلى قول القائف أولى وأحرى . وأما أمر الدية فمشكل جداً ، فإن هذا ليس بموجب الدية ، وإنما هو تفويت نسبه بخروج القرعة ، فيقال : وطء كل واحد صالح لجعل الولد له ، فقد فوته كل واحد منهم على صاحبيه بوطئه ، ولكن لم يتحقق من كان له الولد منهم ، فلما أخرجته القرعة لأحدهم ، صار مفوتاً لنسبه عن صاحبيه ، فأجرى ذلك مجرى إتلاف الولد، ونزل الثلاثة منزلة أب واحد ، فحصة المتلف منه ثلث الدية ، إذ قد عاد الولد له ، فيغرم لكل من صاحبيه ما يخصه ،وهو ثلث الدية.

ووجه آخر أحسن من هذا ، أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحوق الولد به ،وجب عليه ضمان قيمته ،وقيمة الولد شرعاً هى ديته ،فلزمه لهما ثلثا قيمته ،وهى ثلثا الدية ،وصار هذا كمن أتلف عبداً بينه وبين شريكين له،فإنه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكيه ،فإتلاف الولد الحر عليهما بحكم القرعة ،كإتلاف الرقيق الذى بينهم.

ونظير هذا تضمين الصحابة المغرور بحرية الأمة قيمة أولاده لسيد الأمة لما فات رقهم على السيد لحريتهم ، وكانوا بصدد أن يكونوا أرقاء ، وهذا ألطف ما يكون من القياس وأدقه، وأنت إذا تأملت كثيراً من أقيسة الفقهاء وتشبيهاتهم ، وجدت هذا أقوى منها، وألطف مسلكاً ، وأدق مأخذاً ، ولم يضحك منه النبى ﷺ سدى.

وقد يقال : لا تعاض بين هذا وبين حديث القافة ، بل إن وجدت القافة تعين العمل

بها ، وإن لم توجد قافة ،أو أشكل عليهم ، تعين العمل بهذا الطريق ، والله أعلم [١] .

وأيضا

مما أشكل على جمهور الفقهاء وظنوه فى غاية البعد عن القياس الحكم الذى حكم به على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه فى الجنة ـ فى الجماعة الذين وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، ثم تنازعوا الولد ، فأقرع بينهم فيه.

ونحن نذكر هذه الحكومة ونبين مطابقتها للقياس .فذكر أبو داود والنسائى من حديث عبدالله بن الخليل . عن زيد بن أرقم ، قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ ، فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : إن ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا عليا يختصمون إليه فى ولد ، قد وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فقال لاثنين : طيبا بالولد لهذا ، فقالا : لا ، ثم قال لاثنين : طيبا بالولد لهذا ، فقالا : لا ، ثم قال لاثنين : طيبا بالولد لهذا ، فقالا : لا ، فقال: أنتم شركاء متشاكسون ، إنى مقرع بينكم ، فمن قرع ، فله الولد ، وعليه لصاحبيه ثلثا الدية ، فأقرع بينهم ، فجعله لمن قرع له ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أضراسه أو نواجذه [٢].

وفى إسناده يحيى بن عبدالله الكندى الأجلح، ولا يحتج بحديثه ، لكن رواه أبو داود والنسائى بإسناد كلهم ثقات إلى عبد خير عن زيد بن أرقم ، قال : أتى على بثلاثة ، وهو باليمن وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فقال لاثنين : أتقران لهذا ؟ قالا : لا ؛ حتى سألهم جميعاً ، فجعل كلما سأل اثنين ، قالا : لا ، فأقرع بينهم ، فألحق الولد بالذى صارت له القرعة ، وجعل لصاحبيه عليه ثلثى الدية ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه . وقد أعل هذا الحديث بأنه روى عن عبد خير بإسقاط زيد بن أرقم ، فيكون مرسلا، قال النسائى: وهذا أصوب قلت: وهذا ليس بعلة ، ولا يوجب إرسالا للحديث، فإن عبد خير سمع من على ، وهو صاحب القصة ، فهب أن زيد بن أرقم لا ذكر له فى المتن ، فمن أين يجىء الإسال ؟

وبعد ، فقد اختلف الفقهاء فى حكم هذا الحديث فذهب إلى القول به إسحاق ابن راهويه، وقال: هو السنة فى دعوى الولد. وكان الشافعى يقول به فى القديم ، وأما الإمام

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٤٢٦ ـ ٤٣٢).

(٢) سبق تخريجه ص ٣٧ .

أحمد، فسئل عنه، فرجح عليه حديث القافة، وقال: حديث القافة أحب إلى، وههنا أمران:

أحدهما: دخول القرعة فى النسب.

والثانى: تغريم من خرجت له القرعة ثلثى دية ولده لصاحبيه ،وكل منهما بعيد عن القياس ، فلذلك قالوا : هذا من أبعد شىء عن القياس ، فيقال : القرعة قد تستعمل عند فقدان مرجح سواهما من بينة أو إقرار ، أو قافة وليس ببعيد تعيين المستحق بالقرعة فى هذه الحال ،إذ هى غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى ،ولها دخول فى دعوى الأملاك المرسلة التى لا تثبت بقرينة ،ولا أمارة ،فدخولها فى النسب الذى يثبت بمجرد الشبه الخفى المستند إلى قول القائف أولى وأحرى ،وأما أمر الدية ، فمشكل جداً فإن هذا ليس بقتيل يوجب الدية،وإنما هو تفويت نسبه بخروج القرعة له ، فيمكن أن يقال: وطء كل واحد صالح لجعل الولد له ،فقد فوته كل واحد عنهم على صاحبه بوطئه ،ولكن لم يتحقق من كان له الولد منهم ، فلما أخرجته القرعة لأحدهم صار مفوتا لنسبه على صاحبيه ،فأجرى ذلك مجرى إتلاف الولد ،ونزل الثلاثة منزلة أب واحد ،فحصة المتلف منه ثلث الدية ،إذ قد عاد الولد له ،فيغرم لكل من صاحبيه ما يخصه ،وهو ثلث الدية.

ووجه آخر أحسن من هذا: أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحوق الولد به ،وجب عليه ضمان قيمته . وقيمة الولد شرعا هى ديته ،فلزمه لها ثلثا قيمته ،وهى ثلثا الدية. وصار هذا كمن أتلف عبداً بينه وبين شريكين له فإنه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكيه ،فإتلاف الولد الحر عليهما بحكم القرعة ،كإتلاف الرقيق الذى بينهم . ونظير هذا تضمين الصحابة المغرور بحرية الأمة لما فات رقهم على السيد بحريتهم ،وكانوا بصدد أن يكونوا أرقاء له ،وهذا من ألطف ما يكون من القياس وأدقه. ولا يهتدى إليه إلا أفهام الراسخين فى العلم. وقد ظن طائفة أن هذا أيضاً على خلاف القياس. وليس كما ظنوا .بل هو محض الفقه. فإن الولد تابع للأم فى الحرية والرق؛ ولهذا ولد الحر من أمة الغير رقيق ،وولد العبد من الحرة حر.

قال الإمام أحمد: إذا تزوج الحر بالأمة رق نصفه ؛ وإذا تزوج العبد بالحرة عتق نصفه، فولد الأمة المزوجة بهذا المغرور ، كانوا بصدد أن يكونوا أرقاء لسيدها ، ولكن لما دخل الزوج على حرية المرأة ، دخل على أن يكون أولاده أحراراً ،والولد يتبع اعتقاد الواطئ، فانعقد ولده أحراراً ، وقد فوتهم على السيد ، وليس مراعاة أحدهما بأولى من مراعاة الآخرى، ولا تفويت حق أحدهما بأولى من حق صاحبه، فحفظ الصحابة الحقين، وراعوا الجانبين، فحكموا بحرية الأولاد ، وإن كانت أمهم رقيقة ؛ لأن الزوج إنما دخل على حرية أولاده ، ولو توهم رقهم لم يدخل على ذلك ،ولم يضيعوا حق السيد ،بل حكموا على

الواطئ بفداء أولاده ،وأعطوا العدل حقه،فأوجبوا فداءهم بمثلهم تقريباً لا بالقيمة ، ثم وفوا العدل ، بأن مكنوا المغرور من الرجوع بما غرمه على من غره ؛ لأن غرمه كان بسبب غروره ، والقياس والعدل يقتضى أن من تسبب إلى إتلاف مال شخص أو تغريمه، أنه يضمن ما غرمه، كما يضمن ما أتلفه ؛ إذ غايته أنه إتلاف بسبب؛ وإتلاف المتسبب كإتلاف المباشر فى أصل الضمان.

فإن قيل :وبعد ذلك كله؛ فهذا خلاف القياس أيضاً؛ فإن الولد كما هو بعض الأم وجزء منها؛ فهو بعض الأب، وبعضيته للأب أعظم من بعضيته للأم؛ ولهذا يذكر الله ـ سبحانه ـ فى كتابه تخليقه من ماء الرجل كقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾ [الطارق] ، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ﴾ [القيامة : ٣٧] ونظائرها من الآيات التى إن لم تختص بماء الرجل؛ فهى فيه أظهر؛ وإذا كان جزءاً من الواطئ ؛وجزءاً من الأم؛ فكيف كان ملكا لسيد الأم دون سيد الأب؟!

ويخالف القياس من وجه آخر ، وهو أن الماء بمنزلة البذر ؛ ولو أن رجلاً أخذ بذر غيره ، فزرعه فى أرضه ،كان الزرع لصاحب البذر ؛وإن كان عليه أجرة الأرض.

قيل: لا ريب أن الولد منعقد من ماء الأب؛ كما هو منعقد من ماء الأم ؛ ولكن إنما تكوَّن وصار مالاً متقوماً فى بطن الأم ؛فالأجزاء التى صار بها كذلك من الأم أضعاف أضعاف الجزء الذى من الأب مع مساواتها له فى ذلك الجزء ؛ فهو إنما تكون فى أحشائها من لحمها ودمها ، ولما وضعه الأب لم يكن له قيمة أصلا، بل كان كما سماه الله ماء مهيناً لا قيمة له ، ولهذا لو نزا فحل رجل على رَمَكة آخر كان الولد لمالك الأم باتفاق المسلمين، وهذا بخلاف البذر ؛ فإنه مال متقوم ، له قيمة قبل وضعه فى الأرض ، يعاوض عليه بالأثمان،وعسب الفحل لا يعاوض عليه ، فقياس أحدهما على الآخر من أبطل القياس.

فإن قيل : فهلا طردتم ذلك فى النسب ، وجعلتموه للأم ؛كما جعلتموه للأب؟

قيل: قد اتفق المسلمون على أن النسب للأب ، كما اتفقوا على أنه يتبع الأم فى الحرية والرق ،وهذا هو الذى تقتضيه حكمة الله شرعاً وقدراً،فإن الأب هو المولود له ، والأم وعاء وإن تكوَّن فيها ، والله ـ سبحانه ـ جعل الولد خليفة أبيه وشجنته والقائم مقامه ، ووضع الأنساب بين عباده ، فيقال : فلان بن فلان ، ولا تتم مصالحهم وتعارفهم ومعاملاتهم إلا بذلك كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات:١٣] ، فلولا ثبوت الأنساب من قبل الآباء لما حصل التعارف، ولفسد نظام العباد ، فإن النساء محتجبات مستورات عن العيون ، فلا يمكن فى الغالب أن تعرف عين الأم ، فيشهد على نسب الولد منها ، فلو جعلت الأنساب للأمهات لضاعت

وفسدت ، وكان ذلك مناقضاً للحكمة والرحمة والمصلحة ؛ ولهذا إنما يدعى الناس يوم القيامة بآبائهم ،لا بأمهاتهم ،قال البخارى فى صحيحه: باب يدعى الناس بآبائهم يوم القيامة،ثم ذكر حديث: « لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته ، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان » (١) فكان من تمام الحكمة أن جعل الحرية والرق تبعا للأم ، والنسب تبعا للأب، والقياس الفاسد إنما يجمع بين ما فرق الله بينه،أو يفرق بين ما جمع الله بينه.

فإن قيل: فهلا طردتم ذلك فى الولاء بل جعلتموه لموالى الأم ، والولاء لحمة كلحمة النسب؟

قيل: لما كان الولاء من آثار الرق وموجباته ،كان تابعا له فى حكمه،فكان لموالى الأم،ولما كان فيه شائبة النسب ،وهو لحمة كلحمته رجع إلى موالى الأب عند انقطاعه عن موالى الأم ،فروعى فيه الأمران ورتب عليه الأثران.

فإن قيل: فهلا جعلتم الولد فى الدين تابعا لمن له النسب ، بل ألحقتموه بأبيه تارة وبأمه تارة. قيل: الطفل لا يستقل بنفسه ،بل لا يكون إلا تابعا لغيره ، فجعله الشارع تابعا لخير أبويه فى الدين تغليباً لخير الدينين ، فإنه إذا لم يكن له بد من التبعية لم يجز أن يتبع من هو على دين الشيطان ، وتنقطع تبعيته عمن هو على دين الرحمن،فهذا محال فى حكمة الله تعالى وشرعه.

فإن قيل: فاجعلوه تابعا لسابيه فى الإسلام،وإن كان معه أبواه ،أو أحدهما فإن تبعيته لأبويه قد انقطعت ،وصار السابى هو أحق به.

قيل: نعم ،وهكذا نقول سواء،وهو قول إمام أهل الشام عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعى ،ونص عليه أحمد ،واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد أجمع الناس على أنه يحكم بإسلامه تبعا لسابيه إذا سبى وحده ،قالوا: لأن تبعيته قد انقطعت عن أبويه وصار تابعا لسابيه ،واختلفوا فيما إذا سبى مع أحدهما على ثلاثة مذاهب:

أحدها: يحكم بإسلامه ، نص عليه أحمد فى إحدى الروايتين ، وهى المشهورة من مذهبه ، وهو قول الأوزاعى.

والثانى: لا يحكم بإسلامه ؛ لأنه لم ينفرد عن أبويه.

---

(١) البخارى (٦١٧٧) فى الأدب ، باب: ما يدعى الناس بآبائهم.

والثالث: أنه إن سبى مع الأب تبعه فى دينه . وإن سبى مع الأم وحدها، فهو مسلم، وهو قول مالك وقول الأوزاعى، وفقهاء أهل الثغر أصح وأسلم من التناقض. فإن السابى قد صار أحق به، وقد انقطعت تبعيته لأبويه ولم يبق لهما عليه حكم ، فلا فرق بين كونهما فى دار الحرب ، وبين كونهما أسيرين فى أيدى المسلمين ، بل انقطاع تبعيته لهما فى حال أسرهما وقهرهما ، وإذلالهما واستحقاق قتلهما أولى من انقطاعها حال قوة شوكتهما. وخوف معرتهما. فما الذى يسوغ له الكفر بالله والشرك به ، وأبواه أسيران فى أيدى المسلمين ومنعه من ذلك وأبوه فى دار الحرب ، وهل هذا إلا تناقض محض ، وأيضاً، فيقال لهم: إذا سبى الأبوان ، ثم قتلا فهل يستمر الطفل على كفره عندكم أو تحكمون بإسلامه؟ فمن قولكم أنه يستمر على كفره ، كما لو ماتا ، فيقال : وأى كتاب أو سنة أو قياس صحيح ، أو معنى معتبر . أو فرق مؤثر بين أن يقتلا فى حال الحرب . أو بعد الأسر والسبى، وهل يكون المعنى الذى حكم بإسلامه لأجله إذا سبى وحده زائلا بسبائهما ثم قتلهما بعد ذلك. وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلين.

وأيضا: فهل تعتبرون وجود الطفل والأبوين فى ملك ساب واحد أو يكون معهما فى جملة العسكر؟ فإن اعتبرتم الأول طولبتم بالدليل على ذلك وإن اعتبرتم الثانى فمن المعلوم انقطاع تبعيته لهما واستيلائهما عليه واختصاصه بسابيه ووجودهما بحيث لا يمكنان منه ، ومن تربيته وحضانته ، واختصاصهما به لا أثر له ، وهو كوجودهما فى دار الحرب سواء.

وأيضا: فإن الطفل لما لم يستقل بنفسه ، لم يكن بد من جعله تابعا لغيره وقد دار الأمر بين أن يجعل تابعا لمالكه وسابيه ، ومن هو أحق الناس به، أو بين أن يجعل تابعا لأبويه ولاحق لهما فيه بوجه .

وأيضاً: فإن ولاية الأبوين قد زالت بالكلية ، وقد انقطع الميراث وولاية النكاح ، وسائر الولايات ، فما بال ولاية الدين الباطل باقية وحدها ؟

وقد نص الإمام أحمد على منع أهل الذمة أن يشتروا رقيقا من سبى المسلمين وكتب بذلك عمر بن الخطاب إلى الأمصار ، واشتهر ولم ينكره منكر؛ فهو إجماع من الصحابة ، وإن نازع فيه بعض الأئمة ، وما ذاك إلا أن فى تمليكه للكافر ونقله عن يد المسلم قطعا لما كان بصدده من مشاهدة معالم الإسلام وسماعه القرآن فربما دعاه ذلك إلى اختياره ، فلو كان تابعا لأبويه على دينهما ، لم يمنعا من شراه وبالله التوفيق.

فإن قيل: فيلزمكم على هذا أنه لو مات الأبوان أن تحكموا بإسلام الطفل لانقطاع تبعيته للأبوين ، ولا سيما وهو مسلم بأصل الفطرة ، وقد زال معارض الإسلام وهو تهويد الأبوين

وتنصيرهما. قيل: قد نص على ذلك الإمام أحمد فى رواية جماعة من أصحابه واحتج بقوله ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »(١) فإذا لم يكن له أبوان فهو على أصل الفطرة فيكون مسلما.

فإن قيل: فهل تطردون هذا فما لو انقطع نسبه عن الأب مثل كونه ولد زنا أو منفيا بلعان؟

قيل: نعم لوجود المقتضى لإسلامه بالفطرة وعدم المانع، وهو وجود الأبوين، ولكن الراجح فى الدليل قول الجمهور، وأنه لا يحكم بإسلامه بذلك، وهو الرواية الثانية عنه، اختارها شيخ الإسلام.

وعلى هذا فالفرق بين هذه المسألة ومسألة المسبى أن المسبى قد انقطعت تبعيته لمن هو على دينه، وصار تابعا لسابيه المسلم بخلاف من مات أبواه أو أحدهما فإنه تابع لأقاربه، أو وصى أبيه، فإن انقطعت تبعيته لأبويه، فلم تنقطع لمن يقوم مقامهما من أقاربه أو أوصيائه والنبى ﷺ أخبر عن تهويد الأبوين وتنصيرهما بناء على الغالب، وهذا لا مفهوم له لوجهين:

أحدهما: أنه مفهوم لقب.

الثانى: أنه خرج مخرج الغالب ومما يدل على ذلك: العمل المستمر من عهد الصحابة وإلى اليوم بموت أهل الذمة وتركهم الأطفال، ولم يتعرض أحد من الأئمة ولا ولاة الأمور لأطفالهم، ولم يقولوا هؤلاء مسلمون، ومثل هذا لا يهمله الصحابة والتابعون وأئمه المسلمين.

فإن قيل: فهل تطردون هذا الأصل فى جعله تبعاً للمالك، فتقولون إذا اشترى المسلم طفلا كافرا يكون مسلما تبعاً له أو تتناقضون، فتفرقون بينه وبين السابى؟

وصورة المسألة فيما إذا زوج الذمى عبده الكافر من أمته، فجاءت بولد أو تزوج الحر منهم بأمه فأولدها، ثم باع السيد هذا الولد لمسلم.

قيل: نعم نطرده ونحكم بإسلامه قاله شيخنا ـ قدس الله ورحه ـ ولكن جادة المذهب أنه باق على كفره، كما لو سبى مع أبويه وأولى والصحيح قول شيخنا؛ لأن تبعيته للأبوين قد زالت وانقطعت الموالاة والميراث والحضانة بين الطفل والأبوين، وصار المالك أحق به، وهو تابع له فلا يفرد عنه بحكم، فكيف يفرد عنه فى دينه، وهذا طرد الحكم بإسلامه

(١) أحمد ٢/ ٣١٥، ٣٤٦، ٣٤٧.

في مسألة السباء، وبالله التوفيق (١).

فصل
فى نسب قبائل من العرب

سئل ﷺ عن سبأ: هل هو أرض أم امرأة ،فقال:« ليس بأرض ولا امرأة ،ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ، فتيامن منهم ستة ،وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وغسان وعاملة ،وأما الذين تيامنوا: فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذجح وأنمار ».

فقال رجل: يا رسول الله ،وما أنمار ؟فقال :« الذين منهم خثعم وبجيلة » (٢) (٣).

فصل
فيما كان من أحكام تتعلق بالنسب فى
قدوم وفد كندة على رسول الله ﷺ

إن من كان ولد النضر بن كنانة فهو من قريش.

وللنبى ﷺجدة من كندة مذكورة ، وهى أم كلاب بن مرة أن من انتسب إلى غير أبيه، فقد انتفى من أبيه ،وقفى أمه ، أى رماها بالفجور. أن كندة ليسوا من ولد النضر بن كنانة .وأن من أخرج رجلا عن نسبه المعروف ، جلد حد القذف (٤).

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٥ ـ ٣٤)

(٢) أبو داود (٣٩٨٨) أول كتاب الحروف والقراءات ، والترمذى (٣٢٢٢) فى تفسير القرآن ، باب: (٣٥) « ومن سورة سبأ ».

(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٣٤٥).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٦١٨).



كتاب الخصائص

فصل
من خصائص النبى ﷺ

قد ذكر فى الحديث ما يدل على أن الوصال من خصائصه فقال : « إنى لست كهيئتكم» (١) (٢).

وأيضا

رسول الله ﷺ لايفتقر نكاحه إلى ولى. وقال ابن عقيل: ظاهركلام أحمد أن النبى ﷺ لا يشترط فى نكاحه الولى، وأن ذلك من خصائصه(٣).

فصل
من خصائص البلد الحرام

ومن هذا (٤) اختياره ـ سبحانه وتعالى ـ من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها ،وهى البلد الحرام. فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين ،كاشفى رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا ،وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة ،ولا ينفر له صيد ،ولا يختلى خلاه ،ولا تلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف ليس إلا ،وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب ،ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا، كما فى « الصحيحين »عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من أتى هذا البيت، فلم يرفث ،ولم يفسق ،رجع كيوم ولدته أمه » (٥)، ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففى «السنن» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة ،فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب

---

(١) البخارى (١٩٦٧) فى الصوم ، باب : الوصال إلى السحر، ومسلم (١١٠٢/٥٦) فى الصوم ، باب: النهى عن الوصال فى الصوم، وأحمد (١٢٨/٢).

(٢) زاد المعاد (٣٧/٢).

(٣) زاد المعاد (١٠٨/١).

(٤) إشارة إلى تخصيص الله عز وجل بعض الأشياء فى الفضل على بعض.

(٥) البخارى (١٨١٩) فى المحصر ،باب: قوله الله عزوجل : ﴿ ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾ ،ومسلم (١٣٥٠/٤٣٨) فى الحج ، باب :فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفه.

والفضة ،وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة » [١] وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة أن رسول اللهﷺ قال: « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ،والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » [٢] ،فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده،وأحبها إليه ،ومختاره من البلاد ،لما جعل عرصاتها مناسك لعباده ،فرض عليهم قصدها ،وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام ، وأقسم به في كتابه العزيز فى موضعين منه ،فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين:٣]،وقال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد:١]،وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعى إليها والطواف بالبيت الذى فيها غيرها ،وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه ،وتحط الخطايا والأوزار فيه غير الحجر الأسود ،والركن اليمانى.وثبت عن النبى ﷺ أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، ففى « سنن النسائى » و « المسند » بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير،عن النبى ﷺ أنه قال:«صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ،وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » [٣] ، ورواه ابن حبان فى « صحيحه» [٤] وهذا صريح فى أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق ، ولذلك ،كان شد الرحال إليه فرضاً ،ولغيره مما يستحب ولا يجب ،وفى « المسند »، والترمذى والنسائى ،عن عبدالله بن عدى بن الحمراء أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحزورة من مكة يقول: « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح [٥] .

بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم ،فليس على وجه الأرض قبلة غيرها.

ومن خواصها أيضاً أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر

---

(١) الترمذي (٨١٠) فى الحج ،باب: ماجاء فى ثواب الحج والعمرة ، والنسائى (٢٦٣١) فى مناسك الحج ، باب: فضل المتابعة بين الحج والعمرة ،وابن ماجه (٢٨٨٧) فى المناسك ، باب: فضل الحج والعمرة عن عمر ، وفى الزوائد: « مدار الإسنادين على عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف . . . إلخ » ،وأحمد (١/ ٢٥).

(٢) البخاري (١٧٧٣) فى العمرة،باب :العمرة ،وجوب العمرة وفضلها ،ومسلم (١٣٤٩/ ٤٣٧) في الحج ، باب: فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفة .

(٣) النسائى فى السنن الكبرى (٧٧٣) فى المساجد ،باب: فضل مسجد النبي (ﷺ) والصلاة فيه عن أبى هريرة ، وأحمد ٤/ ٥.

(٤) ابن حبان (١٦٢٣).

(٥) الترمذى(٣٩٢٥) فى المناقب ،باب: فضل مكة ،وقال الترمذى: « هذا حديث حسن غريب صحيح » ، وابن ماجه (٣١٠٨) فى المناسك ،باب :فضل مكة.

بقاع الأرض.

وأصح المذاهب فى هذه المسألة: أنه لا فرق فى ذلك بين القضاء والبنيان، لبضعة عشر دليلاً قد ذكرت فى غير هذا الموضع، وليس مع المفرق ما يقاومها البتة، مع تناقضهم فى مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحجاج من الطرفين.

ومن خواصها أيضاً أن المسجد الحرام أول مسجد وضع فى الأرض، كما فى «الصحيحين» عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض؟ فقال: « المسجد الحرام » قلت: ثم أى ؟ قال: « المسجد الأقصى » قلت: كم بينهما ؟ قال: « أربعون عاماً »(١). وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام، وهذا من جهل هذا القائل، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده، لا تأسيسه، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وآلهما وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار.

ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى، فالقرى كلها تبع لها. وفرع عليها. وهى أصل القرى، فيجب ألا يكون لها فى القرى عديل. فهى كما أخبر النبى ﷺ عن (الفاتحة) أنها أم القرآن ولهذا لم يكن لها فى الكتب الإلهية عديل.

ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية لا يشاركها فيها شىء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد روى عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعاً: « لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام، من أهلها ومن غير أهلها » (٢) ذكره أبو أحمد بن عدى، ولكن الحجاج بن أرطاة فى الطريق. وآخر قبله من الضعفاء.

وللفقهاء فى المسألة ثلاثة أقوال: النفى، والإثبات، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها. فحكمه حكم أهل مكة، وهو قول أبى حنيفة، والقولان الأولان للشافعى وأحمد.

ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]، فتأمل كيف عدى فعل الإرادة هاهنا

---

(١) البخارى (٣٣٦٦) فى الأنبياء، باب (١٠)، ومسلم (٥٢٠) فى أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) الكامل فى الضعفاد (٦/ ٢٧٣).

بالباء،ولا يقال:أردت بكذا إلا لما ضمن معنى فعل « هم » ،فإنه يقال :هممت بكذا،فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم.

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه لا كمياتها ،فإن السيئة جزاؤها سيئة لكن سيئة كبيرة،وجزاؤها مثلها ،وصغيرة جزاؤها مثلها،فالسيئة فى حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها فى طرف من أطراف الأرض،ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه فى الموضع البعيد من داره وبساطه ، فهذا فصل النزاع فى تضعيف السيئات ،والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة،وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ، فهو الأولى بقول القائل:

محاسنه هيولى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال

ولهذا أخبر ـ سبحانه ـ أنه مثابة للناس ،أى:يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ،ولا يقضون منه وطراً ،بل كلما ازدادوا له زيارة ،ازدادوا له اشتياقاً.

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ، وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ، ورضى المحب بمقارفة فلذ الأكباد والأهل ، والأحباب والأوطان ، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف ، والمعاطف والمشاق،وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ، ويراه ـ لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه ـ أطيب من نعيم المتحلية وترفههم ولذاتهم

وليس محبا من يعد شفاءه عذابا إذا بما كان يرضى حبيبه (١)

فصل
من خصائص يوم الجمعة

كان ﷺ يقرأ فى فجره بسورتى ﴿ **الٓمٓ تَنزِيل** ﴾ [سورة السجدة] و﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ** ﴾ [سورة الإنسان].ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة ،ويسمونها سجدة الجمعة ،وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة ،استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة ؛ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة فى

(١) زاد المعاد (١/ ٤٦ ـ ٥٢).

فجر الجمعة ، دفعاً لتوهم الجاهلين .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبى ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة؛ لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها ، فإنهما اشتملتا على خلق آدم ،وعلى ذكر المعاد ،وحشر العباد ،وذلك يكون يوم الجمعة ،وكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون ،والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها حيث اتفقت .فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.

الخاصة الثانية : استحباب كثرة الصلاة على النبى ﷺ فيه وفى ليلته ،لقوله ﷺ: «أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة وليلة الجمعة » [(١)].

ورسول الله ﷺ سيد الأنام ، ويوم الجمعة سيد الأيام ، فللصلاة عليه فى هذا اليوم مزية ليست لغيره مع حكمة أخرى ، وهى أن كل خير نالته أمته فى الدنيا والآخرة ،فإنما نالته على يده ، فجمع الله لأمته به بين خيرى الدنيا والآخرة ، فأعظم كرامة تحصل لهم ، إنما تحصل يوم الجمعة ؛ فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم فى الجنة ، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة ، وهو يوم عيد لهم فى الدنيا ، ويوم فيه يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم ،ولا يرد سائلهم ، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده ، فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه فى هذا اليوم وليلته.

الخاصة الثالثة: صلاة الجمعة التى هى من آكد فروض الإسلام ،ومن أعظم مجامع المسلمين ،وهى أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه سوى مجمع عرفة ، ومن تركها تهاوناً بها ، طبع الله على قلبه ، وقرب أهل الجنة يوم القيامة ، وسبقهم إلى الزيارة يوم المزيد بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

الخاصة الرابعة: الأمر بالاغتسال فى يومها ،وهو أمر مؤكد جداً ،ووجوبه أقوى من وجوب الوتر ، وقراءة البسملة فى الصلاة ،ووجوب الوضوء من مس النساء ،ووجوب الوضوء من مس الذكر ،ووجوب الوضوء من القهقهة فى الصلاة ،ووجوب الوضوء من الرعاف ،والحجامة ،والقيء ،ووجوب الصلاة على النبىﷺ فى التشهد الأخير ،ووجوب القراءة على المأموم.

وللناس فى وجوبه ثلاثة أقوال: النفى والإثبات،والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى إزالتها ،فيجب عليه،ومن هو مستغن عنه ،فيستحب له،والثلاثة لأصحاب أحمد.

---

(١) البيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٢٤٩).

الخاصة الخامسة: التطيب فيه، وهو أفضل من التطيب فى غيره من أيام الأسبوع.

الخاصة السادسة: السواك فيه، وله مزية على السواك فى غيره.

الخاصة السابعة: التبكير للصلاة.

الخاصة الثامنة: أن يشتغل بالصلاة، والذكر، والقراءة حتى يخرج الإمام.

الخاصة التاسعة: الإنصات للخطبة إذا سمعها وجوباً فى أصح القولين، فإن تركه، كان لاغيا، ومن لغا، فلا جمعة له، وفى «المسند» مرفوعاً: «والذى يقول لصاحبه: أنصت، فلا جمعة له» (١).

الخاصة العاشرة: قراءة سورة الكهف فى يومها، فقد روى عن النبى ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء به يوم القيامة، وغفر له ما بين الجمعتين» (٢).

وذكره سعيد بن منصور من قول أبى سعيد الخدرى وهو أشبه.

الحادية عشرة: أنه لا يكره فعل الصلاة فيه وقت الزوال عند الشافعى - رحمه الله - ومن وافقه، وهو اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية، ولم يكن اعتماده على حديث ليث، عن مجاهد، عن أبى الخليل، عن أبى قتادة، عن النبى ﷺ، أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة. وقال: «إن جهنم تسجر إلا يوم الجمعة» (٣) وإنما كان اعتماده على أن من جاء إلى الجمعة يستحب له أن يصلى حتى يخرج الإمام، وفى الحديث الصحيح: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته. ثم يخرج. فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلى ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى». رواه البخارى (٤) فندبه إلى الصلاة ما كتب له، ولم يمنعه عنها إلا فى وقت خروج الإمام؛ ولهذا قال غير واحد من السلف، منهم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وتبعه عليه الإمام أحمد بن حنبل: خروج الإمام يمنع الصلاة، وخطبته تمنع الكلام، فجعلوا المانع من الصلاة خروج الإمام لا انتصاف النهار.

---

(١) أحمد (١/ ٩٣)، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٨٠: «روى أبو داود طرفا منه يسيرو فيه رجل لم يسم»، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده ضعيف لجهالة مولى امرأة عطاء الخرسانى».

(٢) البيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٢٤٩)، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٦٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى.

(٣) أبو داود (١٠٨٣) فى الصلاة، باب: الصلاة يوم الجمعة قبل الزوال، وضعفه الألبانى.

(٤) البخارى (٨٨٣) فى الجمعة، باب: الدهن للجمعة.

وأيضا : فإن الناس يكونون فى المسجد تحت السقوف ، ولا يشعرون بوقت الزوال، والرجل يكون متشاغلاً بالصلاة لا يدرى بوقت الزوال ولا يمكنه أن يخرج ، ويتخطى رقاب الناس، وينظر إلى الشمس ويرجع ولا يشرع له ذلك.

وحديث أبى قتادة هذا، قال أبو داود: هو مرسل؛ لأن أبا الخليل لم يسمع من أبى قتادة والمرسل إذا اتصل به عمل ،وعضده قياس ،أو قول صحابى ،أو كان مرسله معروفاً باختيار الشيوخ ورغبته عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ونحو ذلك مما يقتضى قوته عمل به.

وأيضاً، فقد عضده شواهد أخر، منها ما ذكره الشافعى فى كتابه فقال: روى عن إسحاق ابن عبدالله ،عن سعيد بن أبى سعيد ،عن أبى هريرة ،أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة هكذا رواه ـ رحمه الله ـ فى كتاب « اختلاف الحديث » [1] ورواه فى «كتاب الجمعة»: حدثنا إبراهيم بن محمد ،عن إسحاق .ورواه أبو خالد الأحمر ،عن شيخ من أهل المدينة ،يقال له: عبدالله بن سعيد المقبرى ،عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ [2]. وقد رواه البيهقى فى « المعرفة » من حديث عطاء بن عجلان، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا: كان النبى ﷺ ينهى عن الصلاة نصف النهار، إلا يوم الجمعة .ولكن إسناده فيه من لا يحتج به. قاله البيهقى، قال: ولكن إذا انضمت هذه الأحاديث إلى حديث أبى قتاده أحدثت بعض القوة.

قال الشافعى: من شأن الناس التهجير إلى الجمعة ،والصلاة إلى خروج الإمام ،قال البيهقى: الذى أشار إليه الشافعى موجود فى الأحاديث الصحيحة، وهو أن النبى ﷺ رغب فى التبكير إلى الجمعة، وفى الصلاة إلى خروج الامام من غير استثناء ،وذلك يوافق هذه الأحاديث التى أبيحت فيها الصلاة نصف النهار يوم الجمعة ،وروينا الرخصة فى ذلك عن عطاء ، وطاووس ،والحسن ،ومكحول.

قلت: اختلف الناس فى كراهة الصلاة نصف النهار على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ليس وقت كراهة بحال، وهو مذهب مالك.

الثانى: أنه وقت كراهة فى يوم الجمعة وغيرها، وهو مذهب أبى حنيفة، والمشهور من مذهب أحمد.

والثالث: أنه وقت كراهة إلا يوم الجمعة، فليس بوقت كراهة، وهذا مذهب الشافعى.

---

(١) اختلاف الحديث للشافعى ص ٨٠ ،طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) الأم للشافعى (١/ ١٩٧) ،طبعة دار المعرفة.

الثانية عشرة: قراءة (سورة الجمعة)و(المنافقين)،أو (سبح والغاشية)فى صلاة الجمعة،فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بهن فى الجمعة،ذكره مسلم فى « صحيحه » (١).

وفيه أيضاً: أنه ﷺ،كان يقرأ فيها بـ (الجمعة)و(هل أتاك حديث الغاشية)(٢) ثبت عنه ذلك كله.

ولا يستحب أن يقرأ من كل سورة بعضها ،أو يقرأ إحداهما فى الركعتين ،فإنه خلاف السنة ،وجهال الأئمة يداومون على ذلك.

الثالثة عشرة: أنه يوم عيد متكرر فى الأسبوع ،وقد روى أبو عبدالله ابن ماجه فى «سننه » من حديث أبى لبابة بن عبدالمنذر قال: قال رسول الله ﷺ: « إن يوم الجمعة سيد الأيام، وأعظمها عند الله ،وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ،ويوم الفطر ،فيه خمس خلال: خلق الله فيه آدم ،وأهبط فيه آدم إلى الأرض ،وفيه توفى الله آدم ،وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا أعطاه ،ما لم يسأل حراماً ،وفيه تقوم الساعة ،ما من ملك مقرب ،ولا سماء ،ولا أرض ،ولا رياح ،ولا جبال ،ولا شجر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (٣).

الرابعة عشرة: أنه يستحب أن يلبس فيه أحسن الثياب التى يقدر عليها ،فقد روى الإمام أحمد فى « مسنده» من حديث أبى أيوب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان له ،ولبس من أحسن ثيابه ،ثم خرج وعليه السكينة يأتى المسجد ،ثم يركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينهما » (٤).

وفى سنن أبى داود ، عن عبدالله بن سلام ،أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر فى يوم الجمعة : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » (٥).

وفى سنن ابن ماجه ،عن عائشة رضي الله عنها ،أن النبى ﷺ خطب الناس يوم الجمعة ،فرأى عليهم ثياب النمار، فقال ،: « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى

---

(١) مسلم (٦١/١٧٧) فى الجمعة ، باب: ما يقرأ فى صلاة الجمعة.

(٢) مسلم (٦٣/١٧٨) فى الجمعة ، باب: ما يقرأ فى صلاة الجمعة .

(٣) ابن ماجه (١٠٨٤) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: في فضل الجمعة.

(٤) أحمد (٥/ ٤٢٠) .

(٥) أبو داود (١٠٧٨) فى الصلاة باب: اللبس للجمعة.

ثوبى مهنته » [1].

الخامسة عشرة: أنه يستحب فيه تجمير المسجد، فقد ذكر سعيد ابن منصور، عن نعيم بن عبدالله المجمر، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أن يجمر مسجد المدينة كل جمعة حين ينتصف النهار.

قلت: ولذلك سمى نعيم المجمر.

السادسة عشرة: أنه لا يجوز السفر فى يومها لمن تلزمه الجمعة قبل فعلها بعد دخول وقتها، وأما قبله، فللعلماء ثلاثة أقوال، وهى روايات منصوصات عن أحمد، أحدها: لا يجوز، والثانى: يجوز، والثالث: يجوز للجهاد خاصة.

وأما مذهب الشافعى - رحمه الله - فيحرم عنده إنشاء السفر يوم الجمعة بعد الزوال، ولهم فى سفر الطاعة وجهان، أحدهما: تحريمه، وهو اختيار النووى، والثانى: جوازه وهو اختيار الرافعى.

وأما السفر قبل الزوال، فللشافعى فيه قولان: القديم: جوازه والجديد: أنه كالسفر بعد الزوال.

وأما مذهب مالك، فقال صاحب « التفريع »: ولا يسافر أحد يوم الجمعة بعد الزوال حتى يصلى الجمعة، ولا بأس أن يسافر قبل الزوال، والاختيار: أن لا يسافر إذا طلع الفجر وهو حاضر حتى يصلى الجمعة.

وذهب أبو حنيفة إلى جواز السفر مطلقاً، وقد روى الدارقطنى فى « الأفراد »، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « من سافر من دار إقامته يوم الجمعة، دعت عليه الملائكة ألا يصحب فى سفره »[2]. وهو من حديث ابن لهيعة.

وفى مسند الإمام أحمد من حديث الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة فى سرية، فوافق ذلك يوم الجمعة، قال: فغدا أصحابه، وقال: أتخلف وأصلى مع رسول الله ﷺ، ثم ألحقهم، فلما صلى النبى ﷺ، رآه، فقال: « ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟» فقال: أردت أن أصلى معك، ثم ألحقهم، فقال: « لو أنفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم» [3].

---

(١) ابن ماجه (١٠٩٦) فى إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ماجاء فى الزينة يوم الجمعة.

(٢) انظر التلخيص الحبير (٢/٦٦).

(٣) أحمد ١/ ٢٢٤، وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح ».

وأعل هذا الحديث، بأن الحكم لم يسمع من مقسم

هذا إذا لم يخف المسافر فوت رفقته ، فإن خاف فوت رفقته وانقطاعه بعدهم ،جاز له السفر مطلقاً ،لأن هذا عذر يسقط الجمعة والجماعة ولعل ما روى عن الأوزاعى - أنه سئل عن مسافر سمع أذان الجمعة وقد أسرج دابته ،فقال: ليمض على سفره - محمول على هذا، وكذلك قول ابن عمر رضي الله عنه: الجمعة لا تحبس عن السفر. وإن كان مرادهم جواز السفر مطلقاً ،فهى مسألة نزاع. والدليل: هو الفاصل على أن عبدالرزاق قد روى فى « مصنفه» عن معمر ، عن خالد الحذاء ، عن ابن سيرين أو غيره ،أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً عليه ثياب سفر بعد ما قضى الجمعة ،فقال: ما شأنك ؟قال: أردت سفراً ، فكرهت أن أخرج حتى أصلى ،فقال عمر: إن الجمعة لا تمنعك السفر مالم يحضر وقتها (١). فهذا قول من يمنع السفر بعد الزوال ،ولا يمنع منه قبله.

وذكره عبدالرزاق أيضاً عن الثورى ،عن الأسود بن قيس ،عن أبيه قال: أبصر عمر بن الخطاب رجلاً عليه هيئة السفر ،وقال الرجل: إن اليوم يوم الجمعة ولولا ذلك لخرجت ، فقال عمر: إن الجمعة لا تحبس مسافراً ،فاخرج ما لم يحن الرواح (٢).

وذكر أيضاً عن الثورى ،عن ابن أبى ذئب ،عن صالح بن كثير ،عن الزهرى قال: خرج رسول الله ﷺ مسافراً يوم الجمعة ضحى قبل الصلاة (٣).

وذكر عن معمر قال: سألت يحيى بن أبى كثير: هل يخرج الرجل يوم الجمعة؟ فكرهه، فجعلت أحدثه بالرخصة فيه، فقال لى: قلما يخرج رجل فى يوم الجمعة إلا رأى ما يكرهه ، لو نظرت فى ذلك وجدته كذلك (٤).

وذكر ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن حسان بن أبى عطية ، قال: إذا سافر الرجل يوم الجمعة ،دعا عليه النهار ألا يعان على حاجته ،ولا يصاحب فى سفره (٥).

وذكر الأوزاعى ، عن ابن المسيب ،أنه قال: السفر يوم الجمعة بعد الصلاة . قال ابن جريج: قلت لعطاء: أبلغك أنه كان يقال: إذا أمسى فى قرية جامعة من ليلة الجمعة ، فلا يذهب حتى يجمع ؟قال: إن ذلك ليكره. قلت: فمن يوم الخميس؟قال: لا، ذلك النهار فلا يضره (٦).

---

(١) مصنف عبدالرزاق (٥٥٣٦) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٥٥٣٧) فى الجمعة، باب: السفر يوم الجمعة.

(٣) مصنف عبدالرزاق (٥٥٤٠) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.

(٤) مصنف عبد الرزاق (٥٥٤١) فى الجمعة ، باب:السفر يوم الجمعة.

(٥) مصنف عبدالرزاق (٥٥٤٢) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.

(٦) مصنف عبدالرزاق (٥٥٤٣) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.

السابعة عشرة: أن للماشى إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها ،قال عبدالرزاق:عن معمر ،عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى قلابة، عن أبى الأشعث الصنعانى،عن أو من بن أوس ،قال:قال رسول الله ﷺ:« من غسل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر ،ودنا من الإمام ،فأنصت ،كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها ، وذلك على الله يسير »[1].ورواه الإمام أحمد فى « مسنده »[2].

قال الإمام أحمد:غسل ،بالتشديد: جامع أهله ،وكذلك فسره وكيع .

الثامنة عشرة: أنه يوم تكفير السيئات ،فقد روى الإمام أحمد فى « مسنده » عن سليمان قال:قال لى رسول الله ﷺ:« أتدرى ما يوم الجمعة؟» قلت:هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم آدم قال:« ولكنى أدرى ما يوم الجمعة،لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ،ثم يأتى الجمعة ،فينصت حتى يقضى الإمام صلاته ،إلا كانت كفارة لما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة »[3].

وفى « المسند » أيضاً من حديث عطاء الخراسانى،عن نبيشة الهذلى ،أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ:« إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ،ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً،فإن لم يجد الإمام خرج ،صلى ما بدا له ،وإن وجد الإمام قد خرج جلس ، فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته وكلامه ،إن لم يغفر له فى جمعته تلك ذنوبه كلها ،أن تكون كفارة للجمعة التى تليها »[4].

وفى صحيح البخارى،عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ« لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ،ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ، ثم يخرج،فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ماكتب له ،ثم ينصت اذا تكلم الإمام ،إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[5].

وفى مسند أحمد،من حديث أبى الدرداء،قال:قال رسول الله ﷺ:« من اغتسل يوم الجمعة ،ثم لبس ثيابه،ومس طيباً إن كان عنده ،ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينة،ولم

---

(١) مصنف عبدالرزاق (٥٥٧٠) فى الجمعة ، باب:عظم يوم الجمعة.

(٢) أحمد (٤/٨).

(٣) أحمد ٥/ ٤٣٩ ،وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٧٧):« روى النسائى بعضه،ورواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن ».

(٤) أحمد (٥/ ٧٥)،وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٧٤):« رجاله رجال الصحيح خلا شيخ أحمد وهو ثقه ».

(٥) سبق تخريجه ص ٥٤ .

يتخط أحداً ،ولم يؤذه ،وركع ما قضى له ،ثم انتظر حتى ينصرف الإمام ،غفر له ما بين الجمعتين » (١).

التاسعة عشرة :أن جهنم تسجركل يوم إلا يوم الجمعة .وقد تقدم حديث أبى قتادة فى ذلك ،وسر ذلك - والله أعلم - أنه أفضل الأيام عند الله ،ويقع فيه من الطاعات،والعبادات ،والدعوات ،والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى ،ما يمنع من تسجير جهنم فيه .ولذلك تكون معاصى أهل الإيمان فيه أقل من معاصيهم فى غيره ،حتى إن أهل الفجور ليمتنعون فيه مما لا يمتنعون منه فى يوم السبت وغيره.

وهذا الحديث الظاهر منه أن المراد سجر جهنم فى الدنيا ،وأنها توقد كل يوم إلا يوم الجمعة ،وأما يوم القيامة ،فإنه لا يفتر عذابها ،ولا يخفف عن أهلها الذين هم أهلها يوماً من الأيام ،ولذلك يدعون الخزنة أن يدعوا ربهم ليخفف عنهم يوماً من العذاب ،فلا يجيبونهم إلى ذلك.

العشرون : أن فيه ساعة الإجابة،وهى الساعةالتى لا يسأل الله عبد مسلم فيها شيئاً إلا أعطاه ،ففى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ﷺ،قال:قال رسول الله ﷺ: « إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه،وقال:بيده يقللها» (٢).

وفى المسند من حديث أبى لبابة بن عبد المنذر ،عن النبى ﷺ قال:« سيد الأيام يوم الجمعة ،وأعظمها عند الله ،وأعظم عند الله من يوم الفطر ،ويوم الأضحى ،وفيه خمس خصال:خلق الله فيه آدم ،وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفى الله عز وجل آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ،ولا أرض ،ولا رياح ،ولا بحر ،ولا جبال ،ولا شجر ،إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (٣) (٤).

---

(١) أحمد (٥/ ١٩٨)،وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٧٤):« رواه الطبرانى فى الكبير ،عن حرب بن قيس ،عن أبى الدرداء ،وحرب لم يسمع من أبى الدرداء ١٢٢.

(٢) البخارى (٩٣٥) فى الجمعة ،باب: الساعة التى فى يوم الجمعة ،ومسلم (٨٥٢/ ١٣) فى الجمعة ،باب:فى الساعة التى فى الجمعة .

(٣) أحمد ٣/ ٤٣٠ ،وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٦٦:« فيه عبدالله بن محمد بن عقيل ،وفيه كلام ،وقد وثق، وبقية رجالة ثقات ».

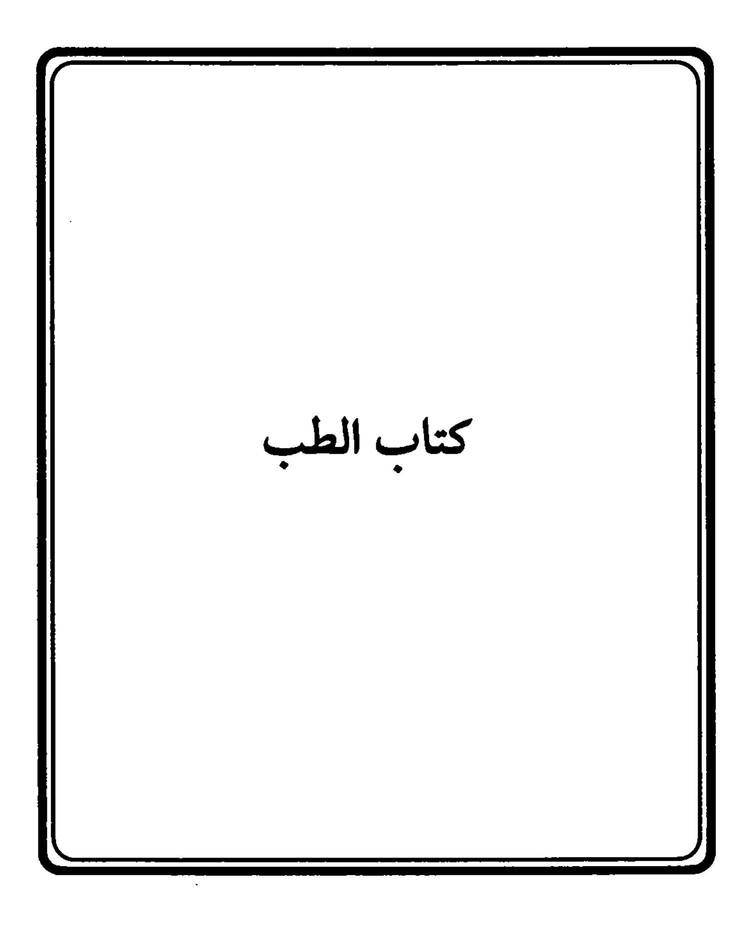
(٤) زاد المعاد (١/ ٣٧٥ - ٣٨٨).

وأيضا

إن فيه [١] صلاة الجمعة التى خصت من بين سائر الصلوات المفروضات بخصائص لا توجد فى غيرها ؛ من الاجتماع ،والعدد المخصوص ،واشتراط الإقامة والاستيطان والجهر بالقراءة [٢].

(١) أى :يوم الجمعة .
(٢) زاد المعاد (١/ ٣١٧).





كتاب الطب

فصل
فى الحث على التداوى وطلب الشفاء

روى مسلم فى « صحيحه » من حديث أبى الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى ﷺ ، أنه قال : « لكل داء داوء ،فإذا أصيب دواء الداء ، برأ بإذن الله عز وجل » (١) .

وفى « الصحيحين » عن عطاء ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء » (٢) .

وفى « مسند الإمام أحمد » من حديث زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك ، قال : كنت عند النبى ﷺ ، وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوى ؟ فقال :« نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داءٍ واحدٍ » ، قالوا : ماهو ؟ قال : « الهرم » (٣) .

وفى لفظ : « إن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، علمه من علمه وجهله من جهله» (٤).

وفى « المسند » من حديث ابن مسعود يرفعه : « إن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » (٥) .

وفى « المسند » و « السنن » عن أبى خزامة ، قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت رقى نسترقيها ، ودواءً نتداوى به ، وتقاة نتقيها ،هل ترد من قدر الله شيئًا ؟ فقال : « هى من قدر الله » (٦) .

فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، ويجوز أن يكون قوله : « لكل داء دواء » . على عمومه حتى يتناول الأدواء القاتلة ، والأدواء التى لا يمكن لطبيب أن يبرئها ، ويكون الله عز وجل قد جعل لها أدوية تبرئها ، ولكن طوى علمها عن البشر ، ولم يجعل لهم إليه سبيلا ؛ لأنه لا علم للخلق إلا ما

---

(١) مسلم (٢٢٠٤ / ٦٩) فى السلام ، باب : لكل داء دواء واستحباب التداوى .

(٢) البخارى (٥٦٧٨) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٦٦) لمسلم .

(٣ ، ٤) أحمد (٢٧٨/٤) ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣٤٣٦) .

(٥) أحمد (١ /٣٧٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٥٧٨) : « إسناده صحيح » .

(٦) أحمد (٣ / ٤٢١) ، والترمذى (٢٠٦٥) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى والأدوية ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٤٣٧) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء ، وضعفه الألبانى .

علمهم الله ؛ ولهذا علق النبى ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء ، فإنه لا شىء من المخلوقات إلا له ضد ، وكل داء له ضد من الدواء يعالج بضده ، فعلق النبى ﷺ البرء بموافقة الداء للدواء ،وهذا قدر زائد على مجرد وجوده، فإن الدواء متى جاوز درجة الداء فى الكيفية ، أو زاد فى الكمية على ما ينبغى ، نقله إلى داء آخر ، ومتى قصر عنها لم يف بمقاومته ، وكان العلاج قاصرًا ، ومتى لم يقع المداوى على الدواء ، أو لم يقع الدواء على الداء ، لم يحصل الشفاء ، ومتى لم يكن الزمان صالحًا لذلك الدواء ، لم ينفع ، ومتى كان البدن غير قابل له ، أو القوة عاجزة عن حمله، أو ثَمَّ مانع يمنع من تأثيره ، لم يحصل البرء لعدم المصادفة ، ومتى تمت المصادفة حصل البرء بإذن الله ولابد ، وهذا أحسن المحملين فى الحديث .

والثانى : أن يكون من العام المراد به الخاص ، لا سيما والداخل فى اللفظ أضعاف الخارج منه ،وهذا يستعمل فى كل لسان ، ويكون المراد أن الله لم يضع داءً يقبل الدواء إلا وضع له دواء ، فلا يدخل فى هذا الأدواء التى لا تقبل الدواء ، وهذا كقوله تعالى فى الريح التى سلطها على قوم عاد : ﴿ **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ [الأحقاف : ٢٥] أى كل شىء يقبل التدمير ، ومن شأن الريح أن تدمره ، ونظائره كثيرة .

ومن تأمل خلق الأضداد فى هذا العالم ، ومقاومة بعضها لبعض ، ودفع بعضها ببعض ، وتسليط بعضها على بعض ، تبين له كمال قدرة الرب تعالى ، وحكمته ، وإتقان ما صنعه ،وتفرده بالربوبية ،والوحدانية ،والقهر ، وأن كل ما سواه فله ما يضاده ويمانعه ، كما أنه الغنى بذاته ، وكل ما سواه محتاج بذاته .

وفى الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، كما لا ينافيه دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعًا ، وأن تعطيلها يقدح فى نفس التوكل ، كما يقدح فى الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى فى التوكل ، فإن تركها عجزًا ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه ، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه ، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ، ولا توكله عجزًا .

وفيها رد على من أنكر التداوى ، وقال : إن كان الشفاء قد قدر ، فالتداوى لا يفيد ، وإن لم يكن قد قدر ، فكذلك ، وأيضًا ، فإن المرض حصل بقدر الله ، وقدر الله لا يدفع

ولا يرد ، وهذا السؤال هو الذى أورده الأعراب على رسول الله ﷺ . وأما أفاضل الصحابة ، فأعلم بالله وحكمته وصفاته من أن يوردوا مثل هذا ، وقد أجابهم النبى ﷺ بما شفى وكفى ، فقال : هذه الأدوية والرقى والتقى هى من قدر الله ، فما خرج شىء عن قدره ، بل يرد قدره بقدره ، وهذا الرد من قدره ، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما ، وهذا كرد قدر الجوع ، والعطش الحر ، والبرد بأضدادها ، وكرد قدر العدو بالجهاد ، وكلٌ من قدر الله الدافع والمدفوع والدفع .

ويقال لمورد هذا السؤال : هذا يوجب عليك ألا تباشر سببًا من الأسباب التى تجلب بها منفعة ، أو تدفع بها مضرة ، لأن المنفعة و المضرة إن قدرتا ، لم يكن بد من وقوعهما ، وإن لم تقدرا لم يكن سبيل إلى وقوعهما، وفى ذلك خراب الدين والدنيا ، وفساد العالم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق ، معاند له ، فيذكر القدر ليدفع حجة المحق عليه ، كالمشركين الذين قالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ، و﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا** ﴾ [النحل : ٣٥] ،فهذا قالوه دفعًا لحجة الله عليهم بالرسل .

وجواب هذا السائل أن يقال : بقى قسم ثالث لم تذكره ، وهو أن الله قدر كذا وكذا بهذا السبب ، فإن أتيت بالسبب حصل المسبب ، وإلا فلا . فإن قال : إن كان قدر لى السبب، فعلته ، وإن لم يقدره لى لم أتمكن من فعله .

قيل : فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك ، وولدك ، وأجيرك إذا احتج به عليك فيما أمرته به ، ونهيته عنه فخالفك ؟ فإن قبلته ، فلا تلم من عصاك ، وأخذ مالك ، وقذف عرضك ، وضيع حقوقك ، وإن لم تقبله ، فكيف يكون مقبولا منك فى دفع حقوق الله عليك . وقد روى فى أثر إسرائيلى : إن إبراهيم الخليل قال : يا رب ، ممن الداء ؟ قال : « منى » . قال : « فممن الدواء » ؟ قال : « منى » . قال : فما بال الطبيب ؟ . قال : « رجل أرسل الدواء على يديه » .

وفى قوله ﷺ : « لكل داء دواء » ، تقوية لنفس المريض والطبيب ، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه ، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله ، تعلق قلبه بروح الرجاء ، وبردت عنده حرارة اليأس ، وانفتح له باب الرجاء ، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية ، وكان ذلك سببًا لقوة الأرواح الحيوانية النفسانية والطبيعية ، ومتى قويت هذه الأرواح ، قويت القوى التى هى حاملة لها ، فقهرت المرض ودفعته .

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه ، وأمراض

الأبدان على وزان أمراض القلوب ، وما جعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده ، فإن علمه صاحب الداء واستعمله ، وصادف داء قلبه ، أبرأه بإذن الله تعالى [١] .

وأيضًا

قد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » [٢] .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله » [٣] .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبى ﷺ قال : « إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه وجهله من جهله » [٤] ، وفى لفظ : « إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء،إلا داء واحدًا » قالوا: يا رسول الله ما هو ؟ قال : « الهرم » قال الترمذى : هذا حديث صحيح [٥] [٦] .

وأيضًا

سأله ﷺ ناس من الأعراب ، فقالوا : أفتنا فى كذا ، أفتنا فى كذا ، أفتنا فى كذا ، أفتنا فى كذا ، فقال : « أيها الناس ؛ إن الله قد وضع عنكم الحرج ، إلا من اقترض من عرض أخيه ؛ فذلك الذى حرج وهلك »،قالوا : أفنتداوى يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء ، غير داء واحد ، قالوا: يا رسول الله وما هو قال : « الهرم » [٧] [٨] .

وأيضًا

سئل ﷺ : أيغنى الدواء شيئا ؟ فقال : « سبحان الله ! وهل أنزل الله تبارك وتعالى

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٣ ـ ١٧) .
(٢) سبق تخريجه ص ٦٥
(٣) سبق تخريجه ص ٦٥.
(٤) سبق تخريجه ص ٦٥ .
(٥) الترمذى (٢٠٣٩) فى الطب ، باب : ما جاء ما يطعم المريض ، وقال : « حسن صحيح » .
(٦) الداء والدواء (١٧ ، ١٨) .
(٧) ابن حبان (٤٨٦) .
(٨) إعلام الموقعين (٤ / ٤٠٠) .

من داء فى الأرض إلا جعل له شفاء » (١) (٢) .

فصل
فى أصول الطب

أصول الطب ثلاثة : الحمية ، وحفظ الصحة ، واستفراغ المادة المضرة وقد جمعها الله تعالى له ولأمته فى ثلاثة مواضع من كتابه ، فحمى المريض من استعمال الماء خشية من الضرر ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾ [النساء : ٤٣ ، والمائدة : ٦] ، فأباح التيمم للمريض حمية له كما أباحه للعادم .

وقال فى حفظ الصحة : ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [البقرة : ١٨٤] . فأباح للمسافر الفطر فى رمضان حفظًا لصحته ، لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر فيضعف القوة والصحة .

وقال فى الاستفراغ فى حلق الرأس للمحرم : ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** ﴾ [البقرة : ١٩٦] فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم أن يحلق رأسه و يستفرغ المواد الفاسدة والأبخرة الرديئة التى تولد عليه القمل ، كما حصل لكعب بن عجرة أو تولد عليه المرض .

وهذه الثلاثة هى قواعد الطب وأصوله ، فذكر من كل جنس منها شيئًا وصورة تنبيها بها على نعمته على عباده فى أمثالها من حميتهم وحفظ صحتهم واستفراغ مواد أذاهم ، رحمة لعباده ، ولطفًا بهم ، ورأفة بهم ، وهو الرؤوف الرحيم(٣) .

فصل
فى أنواع المرض

المرض : نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان ، وهما مذكوران فى القرآن .

ومرض القلوب : نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغى ، وكلاهما فى

---

(١) البخارى (٥٦٧٨) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء .

(٢) إعلام الموقعين (٤/٣٩٦) . (٣) زاد المعاد (١ / ١٦٤ ، ١٦٥) .

القرآن. قال تعالى فى مرض الشبهة : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ [المدثر : ٣١] ، وقال تعالى فى حق من دعى إلى تحكيم القرآن والسنة ، فأبى وأعرض : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور] ، فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وأما مرض الشهوات ، فقال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، فهذا مرض شهوة الزنا، والله أعلم .

وأما مرض الأبدان، فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ ﴾ [النور : ٦١] ، وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسر بديع يبين لك عظمة القرآن والاستغناء به لمن فهمه وعقله عن سواه ، وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة ، فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى هذه المواضع الثلاثة .

فقال فى آية الصوم : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ،وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم فى السفر لاجتماع شدة الحركة ، وما يوجبه من التحليل ، وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلل ، فتخور القوة ، وتضعف ، فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها .

وقال فى آية الحج : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : ١٩٦] ،فأباح للمريض ، ومن به أذى من رأسه ، من قمل ، أو حكة ، أو غيرهما ، أن يحلق رأسه فى الإحرام استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر ، فإذا حلق رأسه ، تفتحت المسام ، فخرجت تلك الأبخرة منها ، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه . والأشياء التى يؤذى انحباسها ومدافعتها عشرة : الدم إذا هاج ، والمنى إذا تبيغ ، والبول ، والغائط ، والريح ، والقيء ، والعطاس ، والنوم ، والجوع ، والعطش . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه .

وقد نبه ـ سبحانه ـ باستفراغ أدناها ، وهو البخار المحتقن فى الرأس على استفراغ ما هو أصعب منه ، كما هى طريقة القرآن التنبيه بالأدنى على الأعلى .

أما الحمية : فقال تعالى فى آية الوضوء : ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾ [النساء : ٤٣] ، فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه ، وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج ، فقد أرشد ـ سبحانه ـ عباده إلى أصول الطب ومجامع قواعده ، ونحن نذكر هدى رسول الله ﷺ فى ذلك ، ونبين أن هديه فيه أكمل هدى .

فأما طب القلوب ، فمسلم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها ،وفاطرها ، وبأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأحكامه ، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابه ، متجنبة لمناهيه ومساخطه ، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل ، وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ، فغلط ممن يظن ذلك ، وإنما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية ، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل ، ومن لم يميز بين هذا وهذا ، فليبك على حياة قلبه ، فإنه من الأموات ، وعلى نوره ، فإنه منغمس فى بحار الظلمات .

وأما طب الأبدان : فإنه نوعان :

نوع قد فطر الله عليه الحيوان ناطقه وبهيمه ، فهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب ، كطب الجوع ، والعطش ، والبرد ، والتعب بأضدادها وما يزيلها .

والثانى : ما يحتاج إلى فكر وتأمل ، كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة فى المزاج ، بحيث يخرج بها عن الاعتدال ، إما إلى حرارة ، أو برودة ، أو يبوسة ، أو رطوبة ، أو ما يتركب من اثنين منها ، وهى نوعان : إما مادية ، وإما كيفية ، أعنى إما أن يكون بانصباب مادة ، أو بحدوث كيفية ، والفرق بينهما أن أمراض الكيفية تكون بعد زوال المواد التى أوجبتها ، فتزول موادها ، ويبقى أثرها كيفية فى المزاج .

وأمراض المادة أسبابها معها تمدها ، وإذا كان سبب المرض معه ، فالنظر فى السبب ينبغى أن يقع أولاً ، ثم فى المرض ثانيًا ، ثم فى الدواء ثالثًا . أو الأمراض الآلية وهى التى تخرج العضو عن هيئته ، إما فى شكل ، أو تجويف ، أو مجرى ،أو خشونة،أو ملاسة ،

أو عدد ، أو عظم ، أو وضع ، فإن هذه الأعضاء إذا تألفت وكان منها البدن سمى تألفها اتصالاً ، والخروج عن الاعتدال فيه يسمى تفرق الاتصال ، أو الأمراض العامة التى تعم المتشابهة والآلية .

والأمراض المتشابهة ، هى التى يخرج بها المزاج عن الاعتدال ، وهذا الخروج يسمى مرضًا بعد أن يضر بالفعل إضراراً محسوسًا .

وهى على ثمانية أضرب : أربعة بسيطة ، وأربعة مركبة، فالبسيطة : البارد ، والحار ، والرطب ، واليابس ، والمركبة : الحار الرطب ، والحار اليابس ، والبارد الرطب ، والبارد اليابس ، وهى إما أن تكون بانصباب مادة ، أو بغير انصباب مادة ، وإن لم يضر المرض بالفعل يسمى خروجًا عن الاعتدال صحة .

وللبدن ثلاثة أحوال : حال طبيعية ، وحال خارجة عن الطبيعية ، وحال متوسطة بين الأمرين .فالأولى: بها يكون البدن صحيحًا ، والثانية : بها يكون مريضًا . والحال الثالثة : هى متوسطة بين الحالتين ، فإن الضدد لا ينتقل إلى ضده إلا بمتوسط ، وسبب خروج البدن عن طبيعته ، إما من داخله ؛ لأنه مركب من الحار والبارد ، والرطب واليابس ، وإما من خارج ، فلأن ما يلقاه قد يكون موافقًا ، وقد يكون غير موافق ، والضرر الذى يلحق الإنسان قد يكون من سوء المزاج بخروجه عن الاعتدال ، وقد يكون من فساد فى العضو ، وقد يكون من ضعف فى القوى ، أو الأرواح الحاملة لها ، ويرجع ذلك إلى زيادة ما الاعتدال فى عدم زيادته ، أو نقصان ما الاعتدال فى عدم نقصانه ، أو تفرق ما الاعتدال فى اتصاله،أو اتصال ما الاعتدال فى تفرقه ، أو امتداد ما الاعتدال فى انقباضه ، أو خروج ذى وضع وشكل عن وضعه وشكله بحيث يخرجه عن اعتداله .

فالطبيب : هو الذى يفرق ما يضر بالإنسان جمعه ، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه ، أو ينقص منه ما يضره زيادته ، أو يزيد فيه ما يضر بالإنسان جمعه ، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه ، أو ينقص منه ما يضره زيادته ، أو يزيد فيه ما يضره نقصه ، فيجلب الصحة المفقودة،أو يحفظها بالشكل والشبه ، ويدفع العلة الموجودة بالضد والنقيض ، ويخرجها ، أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية ، وسترى هذا كله فى هدى رسول الله ﷺ شافيًا كافيًا بحول الله وقوته ، وفضله ومعونته [١] .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٥ ـ ١٠) .

فصــل

فكان من هديه ﷺ فعل التداوى فى نفسه ، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه ، ولكن لم يكن من هديه ولا هدى أصحابه استعمال هذه الأدوية المركبة التى تسمى أقرباذين ، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات ، وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه ، أو يكسر سورته ، وهذا غالب طب الأمم على اختلاف أجناسها من العرب والترك ، وأهل البوادى قاطبة ، وإنما عنى بالمركبات الروم واليونانيون ، وأكثر طب الهند بالمفردات .

وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوى بالغذاء لا يعدل عنه إلى الدواء ، ومتى أمكن بالبسيط لا يعدل عنه إلى المركب .

قالوا : وكل داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية لم يحاول دفعه بالأدوية .

قالوا : ولا ينبغى للطبيب أن يولع بسقى الأدوية ،فإن الدواء إذا لم يجد فى البدن داء يحلله ، أو وجد داء لا يوافقه ، أو وجد ما يوافقه فزادت كميته عليه ، أو كيفيته ، تشبَّثْ بالصحة ، وعبث بها . وأرباب التجارب من الأطباء طبهم بالمفردات غالبًا ، وهم أحد فرق الطب الثلاث .

والتحقيق فى ذلك أن الأدوية من جنس الأغذية ، فالأمة والطائفة التى غالب أغذيتها المفردات : أمراضها قليلة جداً ، وطبها بالمفردات ، وأهل المدن الذين غلبت الأغذية المركبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة وسبب ذلك أن أمراضهم فى الغالب مركبة ، فالأدوية المركبة أنفع لها وأمراض أهل البوادى والصحارى مفردة ، فيكفى فى مداواتها الأدوية المفردة ، فهذا برهان بحسب الصناعة الطبية .

ونحن نقول :إن ها هنا أمراً آخر ، نسبة طب الأطباء إليه كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم ، وقد اعترف به حذاقهم وأئمتم ، فإن ما عندهم من العلم بالطب منهم من يقول : هو قياس ، ومنهم من يقول : هو تجربة . ومنهم من يقول : هو إلهامات ، ومنامات ، وحدس صائب . ومنهم من يقول : أخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية ، كما نشاهد السنانير إذا أكلت ذوات السموم تعمد إلى السراج ، فتلغ فى الزيت تتداوى به ، وكما رؤيت الحيات إذا خرجت من بطون الأرض ، وقد عشت أبصارها تأتى إلى ورق الرازيانج فتمر عيونها عليها ، وكما عهد من الطير الذى يحتقن بماء البحر عند انحباس

طبعه ، وأمثال ذلك مما ذكر فى مبادئ الطب .

وأين يقع هذا وأمثاله من الوحى الذى يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره ، فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحى كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء ، بل ها هنا من الأدوية التى تشفى من الأمراض مالم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم ، وأقيستهم من الأدوية القلبية ، والروحانية ، وقوة القلب ، واعتماده على الله ، والتوكل عليه ، والالتجاء إليه ، والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له ، والصدقة ، والدعاء ، والتوبة ، والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق ، وإغاثة الملهوف ، والتفريج عن المكروب ، فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها ، فوجدوا لها من التأثير فى الشفاء ما لايصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ، ولا قياسه .

وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمرًا كثيرة ،ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية ، بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند الأطباء ، وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجًا عنها ، ولكن الأسباب متنوعة ، فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التى يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه ، وقد علم أن الأرواح متى قويت ، وقويت النفس والطبيعة تعاونا على دفع الداء وقهره ،فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقربها من بارئها ، وأنسها به ، وحبها له ، وتنعمها بذكره ، وانصراف قواه كلها إليه ،وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه ، أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية ، ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس ، وأغلظهم حجابًا ، وأكثفهم نفسًا ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية ، وسنذكر إن شاء الله السبب الذى به أزالت قراءة الفاتحة داء اللدغة عن اللديغ التى رقى بها ، فقام حتى كأن ما به قلبه (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٠ ـ ١٢) .

فصل

في هديه ﷺ في الاحتماء من التخم، والزيادة في الأكل على قدر الحاجة، والقانون الذي ينبغي مراعاته في الأكل والشرب

في «المسند» وغيره : عنه ﷺ أنه قال : «ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بد فاعلا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» (١) .

الأمراض نوعان : أمراض مادية تكون عن زيادة مادة أفرطت في البدن حتى أضرت بأفعاله الطبيعية ، وهي الأمراض الأكثرية ، وسببها إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأول ، والزيادة في القدر الذي يحتاج إليه البدن ، وتناول الأغذية القليلة النفع ، البطيئة الهضم ، والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة ، فإذا ملأ الآدمي بطنه من هذه الأغذية ، واعتاد ذلك ، أورثته أمراضًا متنوعة ، منها بطيء الزوال وسريعه ، فإذا توسط في الغذاء ، وتناول منه قدر الحاجة ، وكان معتدلا في كميته وكيفيته ، كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير .

ومراتب الغذاء ثلاثة : أحدها : مرتبة الحاجة ، والثانية : مرتبة الكفاية . والثالثة : مرتبة الفضلة . فأخبر النبي ﷺ : أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه ، فلا تسقط قوته ، ولا تضعف معها ، فإن تجاوزها ، فليأكل في ثلث بطنه ، ويدع الثلث الآخر للماء ، والثالث للنفس ، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب ، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب ، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس ، وعرض له الكرب والتعب بحمله بمنزلة حال الحمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب ، وكسل الجوارح عن الطاعات ، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع . فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن .

هذا إذا كان دائمًا أو أكثريًا، وأما إذا كان في الأحيان، فلا بأس به، فقد شرب أبو هريرة بحضرة النبي ﷺ من اللبن ، حتى قال : والذي بعثك بالحق ، لا أجد له مسلكًا (٢) ، وأكل الصحابة بحضرته مرارًا حتى شبعوا .

---

(١) الترمذي (٢٣٨٠) في الزهد ، باب : ما جاء في كراهية كثرة الأكل ، وقال : «حسن صحيح» ، وابن ماجه (٣٣٤٩) في الأطعمة ، باب : الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع ، وأحمد (٤ / ١٣٢) .

(٢) البخاري (٦٤٥٢) في الرقاق ، باب : كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا .

والشبع المفرط يضعف القوى والبدن ، وإن أخصبه ، وإنما يقوى البدن بحسب ما يقبل من الغذاء ، لا بحسب كثرته ، ولما كان فى الإنسان جزء أرضى ، وجزء هوائى ، وجزء مائى ، قسم النبى ﷺ طعامه وشرابه ونفسه على الأجزاء الثلاثة ، فإن قيل : فأين حظ الجزء النارى ؟

قيل : هذه مسألة تكلم فيها الأطباء ، وقالوا : إن فى البدن جزءًا ناريًا بالفعل ، وهو أحد أركانه واسطقساته (١) .

ونازعهم فى ذلك آخرون من العقلاء من الأطباء وغيرهم ، وقالوا : ليس فى البدن جزءٌ نارى بالفعل ، واستدلوا بوجوه :

أحدها : أن ذلك الجزء النارى إما أن يدعى أنه نزل عن الأثير ، واختلط بهذه الأجزاء المائية والأرضية ، أو يقال : إنه تولد فيها وتكون ، والأول مستبعد لوجهين ، أحدهما : أن النار بالطبع صاعدة ، فلو نزلت ، لكانت بقاسر من مركزها إلى هذا العالم . الثانى : أن تلك الأجزاء النارية لابد فى نزولها أن تعبر على كرة الزمهرير التى هى فى غاية البرد ، ونحن نشاهد فى هذا العالم أن النار العظيمة تنطفئ بالماء القليل ، فتلك الأجزاء الصغيرة عند مرورها بكرة الزمهرير التى هى فى غاية البرد ، ونهاية العظم أولى بالانطفاء .

وأما الثانى ـ وهو أن يقال : إنها تكونت هاهنا ـ فهو أبعد وأبعد ؛ لأن الجسم الذى صار نارًا بعد أن لم يكن كذلك ، قد كان قبل صيرورته إما أرضًا ، وإما ماءً ، وإما هواء لانحصار الأركان فى هذه الأربعة ، وهذا الذى قد صار نارًا أولا ، كان مختلطًا بأحد هذه الأجسام ، ومتصلاً بها ، والجسم الذى لا يكون نارًا إذا اختلط بأجسام عظيمة ليست بنار ولا واحد منها ، لا يكون مستعدًا لأن ينقلب نارًا لأنه فى نفسه ليس بنار ، والأجسام المختلطة باردة ، فيكف يكون مستعدًا لانقلابه نارًا .

فإن قلتم : لم لا تكون هناك أجزاء نارية تقلب هذه الأجسام ، وتجعلها نارًا بسبب مخالطتها إياها ؟

قلنا : الكلام فى حصول تلك الأجزاء النارية كالكلام فى الأول ، فإن قلتم :إنا نرى من رش الماء على النورة المطفأة تنفصل منها نار ، وإذا وقع شعاع الشمس على البلورة ، ظهرت النار منها ، وإذا ضربنا الحجر على الحديد ، ظهرت النار ، وكل هذه النارية حدثت عند الاختلاط ، وذلك يبطل ما قررتموه فى القسم الأول أيضًا .

---

(١) المقصود به : أصوله ومفرده « اسطقس » ، وهو لفظ يونانى .

قال المنكرون : نحن لا ننكر أن تكون المصاكة الشديدة محدثة للنار ، كما فى ضرب الحجارة على الحديد ، أو تكون قوة تسخين الشمس محدثة للنار ، كما فى البلورة ، لكنا نستبعد ذلك جدًا فى أجرام النبات والحيوان ، إذ ليس فى أجرامها من الاصطكاك ما يوجب حدوث النار ، ولا فيها من الصفاء والصقال ما يبلغ إلى حد البلورة ، كيف وشعاع الشمس يقع على ظاهرها ، فلا تتولد النار البتة ، فالشعاع الذى يصل إلى باطنها كيف يولد النار .

الوجه الثانى فى أصل المسألة : أن الأطباء مجمعون على أن الشراب العتيق فى غاية السخونة بالطبع ، فلو كانت تلك السخونة بسبب الأجزاء النارية ، لكانت محالاً إذ تلك الأجزاء النارية مع حقارتها كيف يعقل بقاؤها فى الأجزاء المائية الغالبة دهرًا طويلاً ، بحيث لا تنطفئ مع أنا نرى النار العظيمة تطفأ بالماء القليل .

الوجه الثالث : أنه لو كان فى الحيوان والنبات جزء نارى بالفعل ، لكان مغلوبًا بالجزء المائى الذى فيه ، وكان الجزء النارى مقهورًا به ، وغلبة بعض الطبائع والعناصر على بعض يقتضى انقلاب طبيعة المغلوب إلى طبيعة الغالب ، فكان يلزم بالضرورة انقلاب تلك الأجزاء النارية القليلة جدًا إلى طبيعة الماء الذى هو ضد النار .

الوجه الرابع : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر خلق الإنسان فى كتابه فى مواضع متعددة ، يخبر فى بعضها أنه خلقه من ماء ، وفى بعضها أنه خلقه من تراب ، وفى بعضها أنه خلقه من المركب منهما وهو الطين ، وفى بعضها أنه خلقه من صلصال كالفخار ، وهو الطين الذى ضربته الشمس والريح حتى صار صلصالاً كالفخار ، ولم يخبر فى موضع واحد أنه خلقه من نار بل جعل ذلك خاصية إبليس . وثبت فى « صحيح مسلم » : عن النبى ، قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (١) ، وهذا صريح فى أنه خلق مما وصفه الله فى كتابه فقط ، ولم يصف لنا سبحانه أنه خلقه من نار ، ولا أن فى مادته شيئًا من النار .

الوجه الخامس : أن غاية ما يستدلون به ما يشاهدون من الحرارة فى أبدان الحيوان ، وهى دليل على الأجزاء النارية ، وهذا لا يدل ، فإن أسباب الحرارة أعم من النار ، فإنها تكون عن النار تارة ، وعن الحركة أخرى ، وعن انعكاس الأشعة ، وعن سخونة الهواء ، وعن مجاورة النار ، وذلك بواسطة سخونة الهواء أيضًا ، وتكون عن أسباب أخر ، فلا يلزم من الحرارة النار .

---

(١) مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠) فى الزهد والرقائق ، باب : فى أحاديث متفرقة .

قال أصحاب النار : من المعلوم أن التراب والماء إذا اختلطا فلا بد لهما من حرارة تقتضى طبخهما وامتزاجهما ، وإلا كان كل منهما غير ممازج للآخر ، ولا متحدًا به ، وكذلك إذا ألقينا البذر فى الطين بحيث لا يصل إليه الهواء ولا الشمس فسد ، فلا يخلو ؛ إما أن يحصل فى المركب جسم منضج طابخ بالطبع أولا ،فإن حصل فهو الجزء النارى ، وإن لم يحصل ، لم يكن المركب مسخنًا بطبعه ، بل إن سخن كان التسخين عرضيًا ، فإذا زال التسخين العرضى،لم يكن الشىء حارًا فى طبعه ،ولا فى كيفيته ، وكان باردًا مطلقًا ، لكن من الأغذية والأدوية ما يكون حارًا بالطبع ، فعلمنا أن حرارتها إنما كانت ؛ لأن فيها جوهرًا ناريًا .

وأيضًا ، فلو لم يكن فى البدن جزء مسخن لوجب أن يكون فى نهاية البرد ، لأن الطبيعة إذا كانت مقتضية للبرد ، وكانت خالية عن المعاون والمعارض ، وجب انتهاء البرد إلى أقصى الغاية ، ولو كان كذلك لما حصل لها الإحساس بالبرد ؛ لأن البرد الواصل إليه إذا كان فى الغاية كان مثله ، والشىء لا ينفعل عن مثله ، وإذا لم ينفعل عنه لم يحس به، وإذا لم يحس به لم يتألم عنه ، وإن كان دونه فعدم الانفعال يكون أولى ، فلو لم يكن فى البدن جزء مسخن بالطبع لما انفعل عن البرد ، ولا تألم به ، قالوا : وأدلتكم إنما تبطل قول من يقول : الأجزاء النارية باقية فى هذه المركبات على حالها ،وطبيعتها النارية ، ونحن لا نقول بذلك ، بل نقول : إن صورتها النوعية تفسد عند الامتزاج .

قال الآخرون : لم لا يجوز أن يقال : إن الأرض والماء والهواء إذا اختلطت ، فالحرارة المنضجة الطابخة لها هى حرارة الشمس وسائر الكواكب ، ثم ذلك المركب عند كمال نضجه مستعد لقبول الهيئة التركيبية بواسطة السخونة نباتًا كان أو حيوانًا أو معدنًا ، وما المانع أن تلك السخونة والحرارة التى فى المركبات هى بسبب خواص وقوى يحدثها الله تعالى عند ذلك الامتزاج لا من أجزاء نارية بالفعل ؟ ولا سبيل لكم إلى إبطال هذا الإمكان البتة ، وقد اعترف جماعة من فضلاء الأطباء بذلك .

وإما حديث إحساس البدن بالبرد،فنقول : هذا يدل على أن فى البدن حرارة وتسخينًا، ومن ينكر ذلك لكن ما الدليل على انحصار المسخن فى النار،فإنه وإن كان كل نار مسخنًا، فإن هذه القضية لا تنعكس كلية ، بل عكسها الصادق بعض المسخن نار .

وأما قولكم بفساد صورة النار النوعية ، فأكثر الأطباء على بقاء صورتها النوعية ، والقول بفسادها قول فاسد قد اعترف بفساده أفضل متأخريكم فى كتابه المسمى بالشفاء ، وبرهن على بقاء الأركان أجمع على طبائعها فى المركبات ، وبالله التوفيق .

وكان علاجه ﷺ للمرض ثلاثة أنواع :

أحدها : بالأدوية الطبيعية .

والثانى : بالأدوية الإلهية .

والثالث : بالمركب من الأمرين .

وهذا إنما نشير إليه إشارة ، فإن رسول الله ﷺ إنما بعث هاديًا ، وداعيًا إلى الله ، وإلى جنته ، ومعرفًا بالله ، ومبينًا للأمة مواقع رضاه وآمرًا لهم بها ، ومواقع سخطه وناهيًا لهم عنها ، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم ، وأخبار تخليق العالم ، وأمر المبدأ والمعاد ، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها ، وأسباب ذلك .

وأما طب الأبدان : فجاء من تكميل شريعته ، ومقصودًا لغيره ، بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه ، فإذا قدر على الاستغناء عنه ، كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح ، وحفظ صحتها ، ودفع أسقامها ، وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع ،وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدًا ، وهى مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة ، وبالله التوفيق (١) .

فصل
فى النهى عن التشاؤم بالمرض

عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » . فقال أعرابى : ما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها ؟ قال : « فمن أعدى الأول » (٢) .

قال معمر : قال الزهرى : فحدثنى رجل عن أبى هريرة : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لا يوردنَّ ممرض على مصحّ » ، قال : فراجعه الرجل ، فقال : أليس قد حدثتنا : أن النبى ﷺ قال : « لا عدوى ، ولا صفر ، ولا هامة ؟ » قال : لم أحدثكموه ، قال الزهرى : قال أبو سلمة : قد حدث به ، وما سمعت أبا هريرة نسى حديثا قط غيره .

وأخرجه البخارى ومسلم مطولا ومختصرا (٣) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٧ ـ ٢٤) .

(٢) أبو داود (٣٩١١) فى الطب ، باب : فى الطيرة .

(٣) البخارى (٥٧٥٧) فى الطب ، باب : لا هامة ، ومسلم (٢٢٢٣) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل ، وما يكون فيه من الشؤم .

قيل : « لا يورد ممرض على مصح » منسوخ بقوله ﷺ : « لا عدوى » .

وقيل : ليس بينهما تناف ، ولكن نفى العدوى ، وهى اعتقاد كون بعض الأمراض يفعل فى غيرها بطبيعتها . وأما أن يكون سببًا يخلق البارئ ـ سبحانه وتعالى ـ عندها مرض من وردت عليه ، فلم ينفه ، ونهى أن يورد الممرض على المصح ؛ لئلا تمرض الصحاح من قبل الله جلت قدرته عند ورود الممرض ، فيكون المرض لا لسبب فيها .

وقيل المراد بهذا : الاحتياط على اعتقاد الناس ؛ لئلا يتشاءموا بالمريضة ، ويعتقدوا أنها أمرضت إبلهم ، فيأثموا فى هذا الاعتقاد .

ذهب بعضهم إلى أن قوله: « لا يورد ممرض على مصحّ » منسوخ بقوله: « لا عدوى ».

وهذا غير صحيح ، وهو مما تقدم آنفًا : أن المنهى عنه نوع غير المأذون فيه .

فإن الذى نفاه النبى ﷺ فى قوله : « لا عدوى ولا صفر » هو ما كان عليه أهل الإشراك من اعتقادهم ثبوت ذلك على قياس شركهم ، وقاعدة كفرهم .

والذى نهى عنه النبى ﷺ ـ من إيراد الممرض على المصح ـ فيه تأويلان :

أحدهما : خشية توريط النفوس فى نسبة ما عسى أن يقدره الله تعالى من ذلك إلى العدوى وفيه التشويش على من يورد عليه ، وتعريضه لاعتقاد العدوى ، فلا تنافى بينها بحال .

والتأويل الثانى : أن هذا إنما يدل على أن إيراد الممرض على المصح : قد يكون سببًا يخلق الله تعالى به فيه المرض ، فيكون إيراده سببًا ، وقد يصرف الله سبحانه تأثيره بأسباب تضاده ، أو تمنعه قوة السببية ، وهذا محض التوحيد ، بخلاف ما كان عليه أهل الشرك .

وهذا نظير نفيه ـ سبحانه ـ الشفاعة فى يوم القيامة بقوله : ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ** ﴾ [البقرة : ٢٥٤] فإنه لا تضاد الأحاديث المتواترة المصرحة بإثباتها ، فإنه ـ سبحانه ـ إنما نفى الشفاعة التى كان أهل الشرك يثبتونها ، وهى شفاعة يتقدم فيها الشافع بين يدى المشفوع عنده ، وإن لم يأذن له ، وأما التى أثبتها الله ورسوله : فهى الشفاعة التى تكون من بعد إذنه ، كقوله : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ **وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وقوله : ﴿ **وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [سبأ: ٢٢] والله الموفق للصواب (١).

---

(١) تهذيب السنن (٥ / ٣٧٥ ـ ٣٧٧) .

فصل
فى معرفة الأطباء لقوى الأدوية وطبائعها

الأطباء لا يصلح لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قوى الأدوية والأمزجة والأغذية وطبائعها ، ونسبة بعضها إلى بعض ، ومقدار تأثير بعضها فى بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، والموازنة بين قوة الدواء وقوة المرض وقوة المريض ، ودفع الضد بضده ، وحفظ ما يريدون حفظه بمثله ومناسبه .

فصناعة الطب وعمله مبنى على معرفة الأسباب والعلل،والقوى والطبائع والخواص ، فلو نفوا ذلك وأبطلوه ، وأحالوا على محض المشيئة وصرف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل ، وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الماء ، وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الغذاء ليس فى أحدهما خاصية ولا قوة يتميز بها عن الآخر : لفسد علم الطب ولبطلت حكمة الله فيه ، بل العالم مربوط بالأسباب والقوى والعلل الفاعلية والغائية (١) .

فصل
فى الرعاية الصحية للمولود

ينبغى أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة ، وهو الأجود لما فى لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط ، بخلاف لبن من قد استقلت على الرضاع ، وكل العرب تعتنى بذلك حتى تسترضع أولادها عند نساء البوادى ، كما استرضع النبى ﷺ فى بنى سعد .

وينبغى أن يمنع حملهم والطواف بهم حتى يأتى عليهم ثلاثة أشهر فصاعدًا لقرب عهدهم ببطون الأمهات ، وضعف أبدانهم .

وينبغى أن يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم لضعف معدتهم وقوتهم الهاضمة عن الطعام ، فإذا نبتت أسنانه قويت معدته ، وتغذى بالطعام ، فإن الله سبحانه أخر إنباتها إلى وقت حاجته إلى الطعام لحكمته ولطفه ، ورحمة منه بالأم وحلمة ثديها ، فلا يعضه الولد بأسنانه .

---
(١) مدارج السالكين (١ / ٢٤٢) .

وينبغى تدريجهم فى الغذاء ، فأول ما يطعمونهم : الغذاء اللَّيِّن ، فيطعمونهم الخبز المنقوع فى الماء الحار ،واللبن والحليب، ثم بعد ذلك الطبيخ ،والأمراق الخالية من اللحم ، ثم بعد ذلك ما لطف جدًا من اللحم بعد إحكام مضغه ، أو رضّه رضًا ناعمًا .

فإذا قربوا من وقت التكلم ، وأريد تسهيل الكلام عليهم ، فليدلك ألسنتهم بالعسل والملح الأندرانى ؛ لما فيهما من الجلاء للرطوبات الثقيلة المانعة من الكلام ، فإذا كان وقت نطقهم فليلقنوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه ،وتوحيده ، وأنه ـ سبحانه ـ فوق عرشه ينظر إليهم ، ويسمع كلامهم ، وهو معهم أينما كانوا ، وكان بنو إسرائيل كثيرًا ما يسمون أولادهم بـ « عمانويل » ومعنى هذه الكلمة : إلهنا معنا ، ولهذا كان أحب الأسماء إلى الله : عبد الله ، وعبد الرحمن ، بحيث إذا وعى الطفل وعقل ، علم أنه : عبد الله ، وأن الله هو سيده ومولاه .

فإذا حضر وقت نبات الأسنان ، فينبغى أن يدلك لثاهم كل يوم بالزبد والسمن ، ويمرخ خرز العنق تمريخًا كثيرًا ، ويحذر عليهم كل الحذر وقت نباتها إلى حين تكاملها وقوتها من الأشياء الصلبة ، ويمنعون منها كل المنع ، لما فى التمكن منها من تعريض الأسنان لفسادها وتعويجها وخللها .

ولا ينبغى أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه،ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع ، فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعًا عظيمًا،فإنه يروض أعضاءه ويوسع أمعاءه ، ويفسح صدره ، ويسخن دماغه ، ويحمى مزاجه ، ويثير حرارته الغريزية ، ويحرك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول ، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره .

وينبغى ألا يهمل أمر قماطه ورباطه ، ولو شق عليه إلى أن يصلب بدنه ، وتقوى أعضاؤه ، ويجلس على الأرض ، فحينئذ يمرن ويدرب على الحركة والقيام قليلاً قليلاً إلى أن يصير له ملكة وقوة يفعل ذلك بنفسه .

وينبغى أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه : من الأصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المزعجة ، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها ، فلا ينتفع بها بعد كبره ، فإذا عرض له عارض من ذلك ، فينبغى المبادرة إلى تلافيه بضده ، وإيناسه بما ينسيه إياه ، وأن يلقم ثديه فى الحال ، ويسارع إلى رضاعه ليزول عنه ذلك المزعج له ، ولا يرتسم فى قوته الحافظة ، فيعسر زواله ، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة إلى أن ينام ، فينسى ذلك ، ولا يهمل هذا الأمر ، فإن فى إهماله إسكان الفزع والروع فى قلبه ، فينشأ على ذلك ، يعسر زواله ويتعذر إسكان الفزع والروع فى قلبه ، فينشأ على

ذلك ، ويعسر زواله ويتعذر .

ويتغير حال المولود عند نبات أسنانه ، ويهيج به القيء ،والحميات ، وسوء الأخلاق ، ولاسيما إذا كان نباتها فى وقت الشتاء والبرد ، أو فى وقت الصيف وشدة الحر ،وأحمد أوقات نباتها : الربيع والخريف ، ووقت نباتها لسبعة أشهر ، وقد تنبت فى الخامس ، وقد تتأخر إلى العاشر ، فينبغى التلطف فى تدبيره وقت نباتها ، وأن يكرر عليه دخول الحمام ، وأن يغذى غذاء يسيراً ، فلا يملأ بطنه من الطعام ، وقد يعرض له انطلاق البطن ، فيعصب بما يكفيه مثل عصابة صوف عليها كمون ناعم ، وكرفس ، وأنيسون ، وتدلك لثته بما تقدم ذكره ، ومع هذا فانطلاق بطنه فى ذلك الوقت خير له من اعتقاله ، فإن كان بطنه معتقلاً عند نبات أسنانه ، فينبغى أن يبادر إلى تليين طبيعته ، فلا شيء أضر على الطفل عند نبات أسنانه من اعتقال طبيعته ، ولا شيء أنفع له من سهولتها باعتدال .

وأحمد ما تلين به ، عسل مطبوخ يتخذ من فتائل ويحمل بها ، أو حبق مسحوق معجون بعسل يتخذ منه فتائل كذلك وينبغى للمرضع فى ذلك الوقت تلطيف طعامها وشرابها ، وتجنب الأغذية المضرة .

فصل
فى كيفية فطام الرضيع صحيًّا

قال الله تعالى : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فدلت الآية على عدة أحكام :

أحدها : أن تمام الرضاع حولين ،وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ، ولم يستغن عنه ، وأكدهما « بكاملين » لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر .

وثانيها :أن الأبوين إذا أراد فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل ، فلهما ذلك .

وثالثها : أن الأب إذا أرادا أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن

كرهت الأم ، إلا أن يكون مضاراً بها أو بولدها ، فلا يجاب إلى ذلك ، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث ، أو أكثر .

وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً فى الحر والبرد ، وقد تكامل نبات أسنانه وأضراسه ، وقويت على تقطيع الغذاء وطحنه ، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له ، ووقت الاعتدال الخريفى أنفع فى الفطام من وقت الاعتدال الربيعى ، لأنه فى الخريف يستقبل الشتاء ، والهواء يبرد فيه ، والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو ، والهضم يزداد قوة ، وكذلك الشهوة .

وينبغى للمرضع إذا أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج ، ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة ، بل تعوده إياه ، وتمرنه عليه ؛ لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة ، كما قال بقراط فى فصوله : استعمال الكبير بغتة مما يملأ البدن ، أو يستفرغه ، أو يسخنه ، أو يبرده ، أو يحركه بنوع آخر من الحركة أى نوع كان ، فهو خطر ، وكلما كان كثيراً فهو معاد للطبيعة ، وكلما كان قليلاً فهو مأمون .

ومن سوء التدبير للأطفال ، أن يمكنوا من الامتلاء من الطعام وكثرة الأكل والشرب ، ومن أنفع التدبير لهم أن يعطوا دون شبعهم ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم ، وتقل الفضول فى أبدانهم ، وتصح أجسادهم ، وتقل أمراضهم لقلة الفضلات فى المواد الغذائية .

قال بعض الأطباء : وأنا أمدح قومًا ، ذكرهم حيث لا يطعمون الصبيان إلا دون شبعهم ، ولذلك ترتفع قاماتهم ، وتعتدل أجسامهم ، ويقل فيهم ما يعرض لغيرهم من الكزاز ووجع القلب ، وغير ذلك . قال : فإن أحببت أن يكون الصبى حسن الجسد ، مستقيم القامة ، غير منحدب ، فقه كثرة الشبع ، فإن الصبى إذا امتلأ وشبع ، فإنه يكثر النوم من ساعته ويسترخى ، ويعرض له نفخة فى بطنه ، ورياح غليظة .

وقال جالينوس : ولست أمنع هؤلاء الصبيان من شرب الماء البارد أصلا ، لكنى أطلق لهم شربة تعقب الطعام فى أكثر الأمر ، وفى الأوقات الحارة فى زمن الصيف إذا تاقت أنفسهم إليه ، قلت : وهذا لقوة وجود الحار الغريزى فيهم ، ولا يضرهم شرب الماء البارد فى هذه الأوقات ، ولا سيما عقيب الطعام ، فإنه يتعين تمكينهم منه بقدر ، لضعفهم عن احتمال العطش باستيلاء الحرارة .

ومما ينبغى أن يحذر ، أن يحمل الطفل على المشى قبل وقته لما يعرض فى أرجلهم

بسبب ذلك من الانفتال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك ، واحذر كل الحذر أن تحبس عنه ما يحتاجه إليه فى قىء ،أو نوم ، أو طعام ، أو شراب ، أو عطاس ، أو بول ، أو إخراج دم ، فإن لحبس ذلك عواقب رديئة فى حق الطفل والكبير (١) .

فصل
فى حكم نظر الطبيب إلى بدن المريض ومسه بيده

قال مخلد بن الحسين : حدثنا هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين قال : كان عمر ابن الخطاب يعس بالليل فسمع صوت امرأة تغنى وتقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فقال: أما وعمر حى فلا . فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجاج ، فإذا رجل جميل فقال : اخرج فلا تساكنى بالمدينة ، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مجاشع ابن مسعود ، وكانت له امرأة جميلة فأعجبها نصر ، فأحبها وأحبته فكان يقعد هو ومجاشع يتحدثان والمرأة معهما ، فكتب لها نصر فى الأرض كتابًا ، فقالت : وأنا ، فعلم مجاشع أنها جواب كلام ، وكان مجاشع لا يكتب والمرأة تكتب ، فدعا بإناء فأكفاه على المكتوب ودعا كاتبا فقرأه فإذا هو : إنى لأحبك حبًا لو كان فوقك لأظلك ولو كان تحتك لأقلك ، وبلغ نصرًا ما صنع مجاشع فاستحيا ولزم بيته وضنى جسمه حتى كان كالفرخ ، فقال مجاشع لامرأته : اذهبى إليه فأسنديه إلى صدرك ، وأطعميه الطعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فأتته فأسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها ، فلما تحامل خرج من البصرة .

إن الذين بخير كنت تذكرهم ... هم أهلكوك وعنهم كنت أنهاكا

لا تطلبن شفاء عند غيرهم ... فليس يحييك إلا من توفاكا

فإن قيل : فهل تبيح الشريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعين طريقًا للدواء ونجاة العبد من الهلكة لم يكن بأعظم من مداواة المرأة للرجل الأجنبى ، ومداواته لها ، ونظر الطبيب إلى بدن المريض ومسه بيده للحاجة ، وأما التداوى بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجه ما، وأما

(١) تحفة المودود (٢٥٧ ـ ٢٦٣) .

التداوى بالضمّ والقبلة فإن تحقق الشفاء به كان نظير التداوى بالخمر عند من يبيحه[١] ، بل هذا أسهل من التداوى بالخمر ، فإن شربه من الكبائر ، وهذا الفعل من الصغائر [٢] .

فصل
فى الغَيْل وأثره على الصحة

عن أسماء بنت يزيد بن السكن ﵂ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تقتلوا أولادكم سراً، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه » وأخرجه ابن ماجه [٣] .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص : أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إنى أعزل عن امرأتى ، فقال رسول الله ﷺ : « لم تفعل ذلك ؟ » قال : أشفق على ولدها ، أو على أولادها ، فقال رسول الله ﷺ : « لو كان ذلك ضاراً ضر فارس والروم » [٤] .

وهذا الحديث: أصح من حديث أسماء بنت يزيد، وهو حديث شامى يرويه عمرو بن مهاجر عن أبيه المهاجر بن أسلم مولى أسماء بنت يزيد ـ يعد فى الشاميين ـ عن أسماء بنت يزيد، فإن كان صحيحًا فيكون النهى عنه أولا إرشاداً وكراهة، لا تحريمًا والله تعالى أعلم [٥].

فصل
فى هديه ﷺ فى العلاج بشرب العسل ، والحجامة ، والكى

فى « صحيح البخارى » عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ،قال : « الشفاء فى ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى » [٦] .

قال أبو عبد الله المازرى : الأمراض الامتلائية : إما أن تكون دموية ، أو صفراوية ، أو بلغمية ، أو سوداوية . فإن كانت دموية ، فشفاؤها إخراج الدم ، وإن كانت من

---

(١) أما قوله : « ونظر الطبيب بدن المريض ومسه بيده للحاجة » ، فهذا مقبول وإن كان أجنبيًا وهى مسلمة ، أما أن يكون من التداوى بالضم والقبلة مظنة تحقق الشفاء ، فأرى أن ابن القيم لو كان نوقش فى هذا لتوقف عنه ، والله تعالى أعلم .

(٢) روضة المحبين (٣٧٨ ـ ٣٨٠) .

(٣) أبو داود (٣٨٣٨) فى الطب، باب: فى الغيل ، وابن ماجه (٢٠١٢) فى النكاح ، باب: الغيل، وضعفه الألبانى .

(٤) مسلم (١٤٤٣ / ١٤٣) فى النكاح ، باب : جواز الغيلة وهى وطء المرضع ، وكراهة العزل .

(٥) تهذيب السنن (٥ / ٣٦١ ، ٣٦٢) .

(٦) البخارى (٥٦٨٠) فى الطب ، باب : الشفاء فى ثلاث .

الأقسام الثلاثة الباقية ، فشفاؤها بالإسهال الذى يليق بكل خلط منها ، وكأنه ﷺ نبه بالعسل على المسهلات ، وبالحجامة على الفصد ، وقد قال بعض الناس : إن الفصد يدخل فى قوله : « شرطه محجم » . فإذا أعيا الدواء ، فآخر الطب الكى ، فذكره ﷺ فى الأدوية ؛ لأنه يستعمل عند غلبة الطباع لقوى الأدوية ، وحيث لا ينفع الدواء المشروب . وقوله : « وأنا أنهى أمتى عن الكى » ، وفى الحديث الآخر،« وما أحب أن أكتوى » (١) ، إشارة إلى أن يؤخر العلاج به حتى تدفع الضرورة إليه ،ولا يعجل التداوى به لما فيه من استعجال الألم الشديد فى دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكى ، انتهى كلامه .

وقال بعض الأطباء : الأمراض المزاجية : إما أن تكون بمادة ، أو بغير مادة ، والمادية منها : إما حارة ، أو باردة ، أو رطبة ، أو يابسة ، أو ما تركب منها ، وهذه الكيفيات الأربع ، منها كيفيتان فاعلتان : وهما الحرارة والبرودة ، وكيفيتان منفعلتان ؛ وهما الرطوبة واليبوسة ،ويلزم من غلبة إحدى الكيفيتين الفاعلتين استصحاب كيفية منفعلة معها ، وكذلك كان لكل واحد من الأخلاط الموجودة فى البدن ، وسائر المركبات كيفيتان : فاعلة ومنفعلة .

فحصل من ذلك أن أصل الأمراض المزاجية هى التابعة لأقوى كيفيات الأخلاط التى هى الحرارة والبرودة ، فجاء كلام النبوة فى أصل معالجة الأمراض التى هى الحارة والباردة على طريق التمثيل ، فإن كان المرض حارًا ، عالجناه بإخراج الدم ، بالفصد كان أو بالحجامة ؛ لأن فى ذلك استفراغًا للمادة ، وتبريدًا للمزاج . وإن كان باردًا عالجناه بالتسخين ، وذلك موجود فى العسل ، فإن كان يحتاج مع ذلك إلى استفراغ المادة الباردة ، فالعسل أيضًا يفعل فى ذلك لما فيه من الإنضاج ، والتقطيع ، والتلطيف ، والجلاء ، والتليين ، فيحصل بذلك استفراغ تلك المادة برفق وأمن من نكاية المسهلات القوية (٢) .

وأما الكى :

فلأن كل واحد من الأمراض المادية ، إما أن يكون حادًا فيكون سريع الإفضاء لأحد الطرفين ، فلا يحتاج إليه فيه ، وإما أن يكون مزمنًا ، وأفضل علاجه بعد الاستفراغ الكى فى الأعضاء التى يجوز فيها الكى ؛ لأنه لا يكون مزمنًا إلا عن مادة باردة غليظة قد رسخت فى العضو ، وأفسدت مزاجه ، وأحالت جميع ما يصل إليه إلى مشابهة جوهرها ، فيشتعل فى ذلك العضو ، فيستخرج بالكى تلك المادة من ذلك المكان الذى هو فيه بإفناء الجزء

---

(١) البخارى (٥٧٠٤) فى الطب ، باب : من اكتوى أو كوى غيره ، ومسلم (٢٢٠٥/ ٧١) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٥٠ ، ٥١) .

النارى الموجود بالكى لتلك المادة .

فتعلمنا بهذا الحديث الشريف أخذ معالجة الأمراض المادية جميعها ،كما استنبطنا معالجة الأمراض الساذجة من قوله ﷺ:« إن شدة الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء »[(١)(٢)] .

وأما الحجامة :

ففى « سنن ابن ماجه » من حديث جبارة بن المغلس ، ـ وهو ضعيف ـ عن كثير بن سليم ، قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ :« ما مررت ليلة أسرى بى بملأ إلا قالوا : يا محمد ، مر أمتك بالحجامة »[(٣)] .

وروى الترمذى فى « جامعه » من حديث ابن عباس هذا الحديث وقال فيه : « عليك بالحجامة يا محمد »[(٤)] .

وفى « الصحيحين » : من حديث طاوس ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ « احتجم وأعطى الحجام أجره »[(٥)] .

وفى « الصحيحين » أيضًا ، عن حميد الطويل ، عن أنس ، أن رسول الله ﷺ حجمه أبو طيبة ، فأمر له بصاعين من طعام ، وكلم مواليه ، فخففوا عنه من ضريبته ، وقال : « خير ما تداويتم به الحجامة »[(٦)] .

وفى « جامع الترمذى » عن عباد بن منصور ، قال : سمعت عكرمة يقول : كان لابن عباس غلمة ثلاثة حجامون ، فكان اثنان يغلان عليه ، وعلى أهله ،وواحد لحجمه ، وحجم أهله . قال : وقال ابن عباس : قال نبى الله ﷺ : « نعم العبد الحجام يذهب بالدم ، ويخف الصلب ، ويجلو البصر » ، وقال : إن رسول الله ﷺ حيث عرج به ، ما مر على ملأ من الملائكة إلا قالوا : « عليك بالحجامة » ، وقال : « إن خير ما تحتجمون فيه يوم سبع عشرة ، ويوم تسع عشرة ، ويوم إحدى وعشرين» ، وقال : « إن خير ما تداويتم به السعوط واللدود ، والحجامة والمشى» ، وإن رسول الله ﷺ لد فقال : « من

---

(١) البخارى (٥٧٢٥ ، ٥٧٢٦) فى الطب ، باب : الحمى من فيح جهنم .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٥١ ، ٥٢) .

(٣) ابن ماجه (٣٤٧٩) فى الطب ، باب : الحجامة .

(٤) الترمذى (٢٠٥٣) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٥) البخارى (٥٦٩١) فى الطب ، باب : السعوط ، ومسلم (١٢٠٢ / ٧٦) فى السلام ، باب : لكل داء دواء، واستحباب التداوى .

(٦) البخارى (٥٦٩٦) فى الطب ، باب : الحجامة من الداء ، ومسلم (١٥٧٧ / ٦٢) فى المساقاة ، باب : حل أجرة الحجامة .

لدنى » ؟ فكلهم أمسكوا ، فقال : « لا يبقى أحد فى البيت إلا لد إلا العباس » . قال : هذا حديث غريب ، ورواه ابن ماجه [١] .

وأما منافع الحجامة : فإنها تنقى سطح البدن أكثر من الفصد ، والفصد لأعماق البدن أفضل ، والحجامة تستخرج الدم من نواحى الجلد .

قلت : والتحقيق فى أمرها وأمر الفصد ، أنهما يختلفان باختلاف الزمان ، والمكان ، والأسنان ، والأمزجة ، فالبلاد الحارة ، والأزمنة الحارة، والأمزجة الحارة التى دم أصحابها فى غاية النضج الحجامة فيها أنفع من الفصد بكثير ، فإن الدم ينضج ويرق ويخرج إلى سطح الجسد الداخل ، فتخرج الحجامة ما لا يخرجه الفصد ، ولذلك كانت أنفع للصبيان من الفصد ، ولمن لا يقوى على الفصد ، وقد نص الأطباء على أن البلاد الحارة الحجامة فيها أنفع وأفضل من الفصد ، وتستحب فى وسط الشهر ، وبعد وسطه . وبالجملة فى الربع الثالث من أرباع الشهر ، لأن الدم فى أول الشهر لم يكن بعد قد هاج وتبيغ ، وفى آخره يكون قد سكن ، وأما فى وسطه وبعيده ، فيكون فى نهاية التزيد .

قال صاحب القانون : ويؤمر باستعمال الحجامة لا فى أول الشهر ؛ لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت ، ولا فى آخره لأنها تكون قد نقصت ، بل فى وسط الشهر حين تكون الأخلاط هائجة بالغة فى تزايدها لتزيد النور فى جرم القمر . وقد روى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « خير ما تداويتم به الحجامة والفصد » . وفى حديث : « خير الدواء الحجامة والفصد » [٢] انتهى.

وقوله ﷺ : « خير ما تداويتم به الحجامة » إشارة إلى أهل الحجاز والبلاد الحارة ، لأن دماءهم رقيقة ، وهى أميل إلى ظاهر أبدانهم لجذب الحرارة الخارجة لها إلى سطح الجسد ، واجتماعها فى نواحى الجلد ، ولأن مسام أبدانهم واسعة ، وقواهم متخلخلة ، ففى الفصد لهم خطر ، والحجامة تفرق اتصالى إرادى يتبعه استفراغ كلى من العروق ، وخاصة العروق التى لا تفصد كثيرًا ،ولفصد كل واحد منها نفع خاص ، ففصد الباسليق : ينفع من حرارة الكبد والطحال والأورام الكائنة فيهما من الدم ، وينفع من أورام الرئة ، وينفع من الشوصة وذات الجنب وجميع الأمراض الدموية العارضة من أسفل الركبة إلى الورك .

---

(١) الترمذى (٢٠٥٣) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عباد بن منصور » ، وابن ماجه (٣٤٧٨) فى الطب ، باب : الحجامة ، وضعفه الألبانى .

(٢) سبق تخريجه ص ٨٨ .

وفصد الأكحل : ينفع من الامتلاء العارض فى جميع البدن إذا كان دمويًا ، وكذلك إذا كان الدم قد فسد فى جميع البدن .

وفصد القيفال : ينفع من العلل العارضة فى الرأس والرقبة من كثرة الدم أو فساده .

وفصد الودجين : ينفع من وجع الطحال ، والربو ، والبهر ، ووجع الجبين .

والحجامة على الكاهل : تنفع من وجع المنكب والحلق .

والحجامة على الأخدعين : تنفع من أمراض الرأس ، وأجزائه ، كالوجه والأسنان والأذنين والعينين والأنف والحلق ، وإذا كان حدوث ذلك عن كثرة الدم أو فساده ، أو عنهما جميعًا . قال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يحتجم فى الأخدعين والكاهل (١) .

وفى « الصحيحين » عنه : كان رسول الله ﷺ يحتجم ثلاثًا : واحدة على كاهله ، واثنتين على الأخدعين (٢) .

وفى « الصحيح» : عنه ، أنه احتجم وهو محرم فى رأسه لصداع كان به (٣) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن على ، نزل جبريل على النبى ﷺ بحجامة الأخدعين والكاهل (٤).

وفى « سنن أبى داود » من حديث جابر ، أن النبى ﷺ احتجم فى وركه من وثءٍ كان به (٥) .

واختلف الأطباء فى الحجامة على نقرة القفا ، وهى القمحدوة .

وذكر أبو نعيم فى كتاب الطب النبوى حديثًا مرفوعًا : « عليكم بالحجامة فى جوزة القمحدوة ، فإنها تشفى من خمسة أدواءٍ » ، ذكر منها الجذام (٦) .

وفى حديث آخر : « عليكم بالحجامة فى جوزة القمحدوة ؛ فإنها شفاء من اثنين

---

(١) أبو داود (٣٨٦٠) فى الطب ، باب : فى موضع الحجامة ، و الترمذى (٢٠٥١) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٤٨٣) فى الطب ، باب : موضع الحجامة .

(٢) الحديث وهم المؤلف رحمه الله فى عزوه إلى الصحيحين فإنه لم يخرجه إلا أصحاب السنن واستدركه الحاكم على البخارى ومسلم فى مستدركه ٤ / ٢١٠ ، وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٣) البخارى (٥٦٩٩) فى الطب ، باب : الحجامة على الرأس .

(٤) ابن ماجه (٣٤٨٢) فى الطب ، باب : موضع الحجامة ، وفى الزوائد : « فى إسناده أسبغ بن نباتة الحنظلى وهو ضعيف » .

(٥) أبو داود (٣٨٦٣) فى الطب ، باب : متى تستحب الحجامة .

(٦) الجامع الصغير للسيوطى (٥٥٢٠) ، وعزاه إلى أبى نعيم .

وسبعين داء » (١) .

فطائفة منهم استحسنته وقالت : إنها تنفع من جحظ العين ، والنتوء العارض فيها ، وكثير من أمراضها ، ومن ثقل الحاجبين والجفن ، وتنفع من جربه. وروى أن أحمد بن حنبل احتاج إليها ، فاحتجم فى جانبى قفاه ، ولم يحتجم فى النقرة ، وممن كرهها صاحب « القانون » وقال : إنها تورث النسيان حقًا ، كما قال سيدنا ومولانا وصاحب شريعتنا محمد ﷺ ، فإن مؤخر الدماغ موضع الحفظ ، والحجامة تذهبه ، انتهى كلامه .

ورد عليه آخرون ، وقالوا : الحديث لا يثبت ، وإن ثبت فالحجامة إنما تضعف مؤخر الدماغ إذا استعملت لغير ضرورة ، فأما إذا استعملت لغلبة الدم عليه ، فإنها نافعة له طبًا وشرعًا ، فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه احتجم فى عدة أماكن من قفاه بحسب ما اقتضاه الحال فى ذلك ، واحتجم فى غير القفا بحسب ما دعت إليه حاجته .

والحجامة تحت الذقن تنفع من وجع الأسنان والوجه والحلقوم ، إذا استعملت فى وقتها ، وتنقى الرأس والفكين ، والحجامة على ظهر القدم تنوب عن فصد الصافن ، وهو عرق عظيم عند الكعب ، وتنفع من قروح الفخذين والساقين ، وانقطاع الطمث ، والحكة العارضة فى الأنثيين،والحجامة فى أسفل الصدر نافعة من دماميل الفخذ ، وجربه وبثوره ، ومن النقرس والبواسير ، والفيل وحكة الظهر (٢) .

فصل
فى هديه فى أوقات الحجامة

روى الترمذى فى « جامعه » : من حديث ابن عباس يرفعه : « إن خير ما تحتجمون فيه يوم سابع عشرة ، أو تاسع عشرة ، ويوم إحدى وعشرين » (٣) .

وفيه عن أنس: كان رسول الله ﷺ يحتجم فى الأخدعين والكاهل ، وكان يحتجم لسبعة عشر ، وتسعة عشر ، وفى إحدى وعشرين (٤) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن أنس مرفوعًا : « من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر ، أو تسعة عشر ، أو إحدى وعشرين ، لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله » (٥) .

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٤٢ (٧٣٠٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٥ / ٩٧ : « رجاله ثقات » .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٥٢ ـ ٥٨) .
(٣) الترمذى (٢٠٥٣) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال :« حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .
(٤) الترمذى (٢٠٥١) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن غريب » .
(٥) ابن ماجه (٣٤٨٦) فى الطب ، باب : فى أى الأيام يحتجم ، وفى الزوائد : « إن الإسناد ضعيف لضعف النهاس بن قهم » .

وفى « سنن أبى دواد » من حديث أبى هريرة مرفوعًا : « من احتجم لسبع عشرة ، أو تسع عشرة ، أو إحدى وعشرين ، كانت شفاء من كل داءٍ »[1] ، وهذا معناه من كل داء سببه غلبة الدم .

وهذه الأحاديث موافقة لما أجمع عليه الأطباء ، أن الحجامة فى النصف الثانى ، وما يليه من الربع الثالث من أرباعه أنفع من أوله وآخره ، وإذا استعملت عند الحاجة إليها نفعت أى وقت كان من أول الشهر وآخره .

قال الخلال : أخبرنى عصمة بن عصام ، قال : حدثنا حنبل ، قال : كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل يحتجم أى وقت هاج به الدم ، وأى ساعة كانت .

وقال صاحب « القانون » : أوقاتها فى النهار : الساعة الثانية أو الثالثة ، ويجب توقيها بعد الحمام إلا فيمن دمه غليظ ،فيجب أن يستحم ، ثم يستجم ساعة ، ثم يحتجم ، انتهى .

وتكره عندهم الحجامة على الشبع ، فإنها ربما أورثت سددًا وأمراضًا رديئة ، لا سيما إذا كان الغذاء رديئًا غليظًا . وفى أثر : « الحجامة على الريق دواء ، وعلى الشبع داء ، وفى سبعة عشر من الشهر شفاء » .

واختيار هذه الأوقات للحجامة ، فيما إذا كانت على سبيل الاحتياط والتحرز من الأذى ، وحفظًا للصحة . وأما فى مداواة الأمراض ، فحيثما وجد الاحتياج إليها وجب استعمالها ، وفى قوله : « لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله » ، دلالة على ذلك ، يعنى لئلا يتبيغ فحذف حرف الجر مع (أن) ، ثم حذفت (أن) ، والتبيغ : الهيج ، وهو مقلوب البغى ، وهو بمعناه ؛ فإنه بغى الدم وهيجانه ، وقد تقدم أن الإمام أحمد كان يحتجم أى وقت احتاج من الشهر .

وأما اختيار أيام الأسبوع للحجامة ، فقال الخلال فى « جامعه » : أخبرنا حرب بن إسماعيل ، قال : قلت لأحمد : تكره الحجامة فى شىء من الأيام ؟ قال : قد جاء فى الأربعاء والسبت .

وفيه : عن الحسين بن حسان ،أنه سأل أبا عبد الله عن الحجامة : أى يوم تكره ؟ فقال : فى يوم السبت ، ويوم الأربعاء ، ويقولون : يوم الجمعة .

وروى الخلال ، عن أبى سلمة وأبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة مرفوعًا : « من

---

(١) أبو داود (٣٨٦١) فى الطب ، باب : متى تستحب الحجامة .

احتجم يوم الأربعاء أو يوم السبت ، فأصابه بياض أو برص ، فلا يلومن إلا نفسه » [١] .

وقال الخلال :أخبرنا محمد بن على بن جعفر ، أن يعقوب بن بختان حدثهم ، قال : سئل أحمد عن النورة والحجامة يوم السبت ويوم الأربعاء ، فكرهها . وقال : بلغنى عن رجل أنه تنور ، واحتجم ـ يعنى يوم الأربعاء ـ فأصابه البرص . قلت له : كأنه تهاون بالحديث ؟ قال : نعم .

وفى كتاب « الأفراد للدارقطنى » ، من حديث نافع قال : قال لى عبد الله بن عمر : تبيغ بى الدم ، فابغ لى حجامًا ، ولا يكن صبيًا ولا شيخًا كبيرًا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحجامة تزيد الحافظ حفظًا ، والعاقل عقلاً ، فاحتجموا على اسم الله تعالى ، ولا تحتجموا الخميس ، والجمعة ، والسبت والأحد ، واحتجموا الاثنين ، وما كان من جذام ولا برص ، إلا نزل يوم الأربعاء » [٢] . قال الدارقطنى : تفرد به زياد بن يحيى ، وقد رواه أيوب عن نافع ، وقال فيه : « واحتجموا يوم الاثنين والثلاثاء ، ولا تحتجموا يوم الأربعاء » [٣] .

وقد روى أبو داود فى « سننه » من حديث أبى بكرة ، أنه كان يكره الحجامة يوم الثلاثاء ، وقال : إن رسول الله ﷺ قال : « يوم الثلاثاء يوم الدم وفيه ساعة لا يرقأ فيها الدم » [٤] .

وفى ضمن هذه الأحاديث المتقدمة استحباب التداوى ، واستحباب الحجامة ، وأنها تكون فى الموضع الذى يقتضيه الحال ، وجواز احتجام المحرم ، وإن آل إلى قطع شىء من الشعر ، فإن ذلك جائز ، وفى وجوب الفدية عليه نظر ، ولا يقوى الوجوب ، وجواز احتجام الصائم ، فإن فى « صحيح البخارى » أن رسول الله ﷺ احتجم وهو صائم [٥] ، ولكن هل يفطر بذلك ، أم لا ؟ مسألة أخرى ، الصواب : الفطر بالحجامة ؛ لصحته عن رسول الله ﷺ من غير معارض ، وأصح ما يعارض به حديث حجامته وهو صائم ؛ ولكن لا يدل على عدم الفطر إلا بعد أربعة أمور . أحدها : أن الصوم كان فرضًا . الثانى : أنه كان مقيمًا . الثالث : أنه لم يكن به مرض احتاج معه إلى الحجامة . الرابع : أن هذا

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٤٠٩) وسكت عنه ، وقال الذهبى : « سليمان بن أرقم متروك » ، والبيهقى فى الكبرى (٩ / ٣٤٠) .

(٢ ، ٣) ابن ماجه (٣٤٨٧ ، ٣٤٨٨) فى الطب ، باب : فى أى الأيام يحتجم ،والحاكم فى المستدرك (٤ / ٤٠٩) ، وقال : « رواة هذا الحديث كلهم ثقات غير عثمان بن جعفر هذا فإنى لا أعرفه بعدالة ولا جرح » .

(٤ ، ٥) البخارى (٥٦٩٤) فى الطب ، باب : أى ساعة يحتجم ؟ واحتجم أبو موسى ليلاً ، وأبو داود (٢٣٧٢) فى الصوم ، باب : فى الرخصة فى ذلك ، والترمذى (٧٧٥) فى الصوم ، باب : ما جاء من الرخصة فى ذلك .

الحديث متأخر عن قوله : « أفطر الحاجم والمحجوم » (١) .

فإذا ثبتت هذه المقدمات الأربع ، أمكن الاستدلال بفعله ﷺ على بقاء الصوم مع الحجامة ، وإلا فما المانع أن يكون الصوم نفلا يجوز الخروج منه بالحجامة وغيرها ، أو من رمضان لكنه فى السفر ، أو من رمضان فى الحضر ، لكن دعت الحاجة إليها كما تدعو حاجة من به مرض إلى الفطر ،أو يكون فرضًا من رمضان فى الحضر من غير حاجة إليها ، لكنه مبقى على الأصل ، وقوله : « أفطر الحاجم والمحجوم » ناقل ومتأخر ، فيتعين المصير إليه ، ولا سبيل إلى إثبات واحدة من هذه المقدمات الأربع ، فكيف بإثباتها كلها .

وفيها دليل على استئجار الطبيب وغيره من غير عقد إجارة ، بل يعطيه أجرة المثل ، أو ما يرضيه .

وفيها دليل على جواز التكسب بصناعة الحجامة ، وإن كان لا يطيب للحر أكل أجرته من غير تحريم عليه ، فإن النبى ﷺ أعطاه أجره ، ولم يمنعه من أكله ، وتسميته إياه خبيثًا كتسميته للثوم والبصل خبيثين ، ولم يلزم من ذلك تحريمهما .

وفيها دليل على جواز ضرب الرجل الخراج على عبده كل يوم شيئًا معلومًا بقدر طاقته، وأن للعبد أن يتصرف فيما زاد على خراجه ، ولو منع من التصرف ، لكان كسبه كله خراجًا ولم يكن لتقديره فائدة ، بل ما زاد على خراجه ، فهو تمليك من سيده له يتصرف فيه كما أراد ، والله أعلم (٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى قطع العروق والكى

ثبت فى « الصحيح » من حديث جابر بن عبد الله ، أن النبى ﷺ بعث إلى أبى بن كعب طبيبا ، فقطع له عرقًا وكواه عليه (٣).

ولما رمى سعد بن معاذ فى أكحله حسمه النبى ﷺ ثم ورمت ، فحسمه الثانية (٤) . والحسم : هو الكى .

---

(١) البخارى معلقًا (الفتح ٤ / ١٧٤) فى الصوم ، باب : فى الحجامة والقىء للصائم ، وأبو داود (٢٣٧١) فى الصوم ، باب : فى الصائم يحتجم ، وابن ماجه (١٦٨٠) فى الصيام ، باب : ما جاء فى الحجامة للصائم .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٥٨ ـ ٦٣) .

(٣) مسلم (٢٢٠٧ / ٧٣) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى .

(٤) مسلم (٢٢٠٨ / ٧٥) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى ، وأحمد ٣ / ٣١٢ ، ٣٨٦ .

وفى طريق آخر : أن النبى ﷺ كوى سعد بن معاذ فى أكحله بمشقص ، ثم حسمه سعد بن معاذ أو غيره من أصحابه .

وفى لفظ آخر : أن رجلا من الأنصار رمى فى أكحله بمشقص ، فأمر النبى ﷺ به فكوى .

وقال أبو عبيد: وقد أتى النبى ﷺ برجل نعت له الكى، فقال: « اكووه وارضفوه » [١]. قال أبوعبيد : الرضف : الحجارة تسخن ، ثم يكمد بها .

وقال الفضل بن دكين : حدثنا سفيان ، عن أبى الزبير ، عن جابر: أن النبى ﷺ كواه فى أكحله .

وفى « صحيح البخارى » من حديث أنس، أنه كوى من ذات الجنب والنبى ﷺ حى[٢] .

وفى الترمذى ، عن أنس ، أن النبى ﷺ « كوى أسعد بن زرارة من الشوكة » [٣] ، وقد تقدم الحديث المتفق عليه وفيه : « وما أحب أن أكتوى » [٤] وفى لفظ آخر : « وأنا أنهى أمتى عن الكى » [٥] .

وفى « جامع الترمذى » وغيره عن عمران بن حصين ، أن النبى ﷺ نهى عن الكى قال : فابتلينا فاكتوينا فما أفلحنا ، ولا أنجحنا . وفى لفظ : نهينا عن الكى ، وقال : فما أفلحن ولا أنجحن [٦] .

قال الخطابى : إنما كوى سعدًا ليرقأ الدم من جرحه ، وخاف عليه أن ينزف فيهلك . والكى مستعمل فى هذا الباب ، كما يكوى من تقطع يده أو رجله .

وأما النهى عن الكى ، فهو أن يكتوى طلبًا للشفاء ، وكانوا يعتقدون أنه متى لم يكتو ، هلك ، فنهاهم عنه لأجل هذه النية .

---

(١) المصنف لعبد الرزاق (١٩٥١٧) .

(٢) البخارى (٥٧١٩ ـ ٥٧٢١) فى الطب ، باب : ذات الجنب .

(٣) الترمذى (٢٠٥٠) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرخصة فى ذلك ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) البخارى (٥٧٠٤) فى الطب ، باب : من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتو ، ومسلم (٢٢٠٥ / ٧١) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى

(٥) سبق تخريجه ص ٨٦ .

(٦) الترمذى (٢٠٤٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى كراهية التداوى بالكى ، وقال : « حسن صحيح » ، وأبو داود (٣٨٦٥) فى الطب ، باب : فى الكى ، وابن ماجه (٣٤٩٠) فى الطب ، باب : الكى .

وقيل : إنما نهى عنه عمران بن حصين خاصة ؛ لأنه كان به ناصور ، وكان موضعه خطرًا ، فنهاه عن كيه ، فيشبه أن يكون النهى منصرفًا إلى الموضع المخوف منه ، والله أعلم .

وقال ابن قتيبة : الكى جنسان : كى الصحيح لئلا يعتل ، فهذا الذى قيل فيه : لم يتوكل من اكتوى ؛ لأنه يريد أن يدفع القدر عن نفسه .

والثانى : كى الجرح إذا نغل ، والعضو إذا قطع ، ففى هذا الشفاء .

وأما إذا كان الكى للتداوى الذى يجوز أن ينجع ، ويجوز ألا ينجع ، فإنه إلى الكراهة أقرب . انتهى .

وثبت فى « الصحيح » فى حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم «الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » [1] .

فقد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع ، أحدها : فعله ؛ والثانى : عدم محبته له ، والثالث : الثناء على من تركه ،والرابع : النهى عنه ، ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى ، فإن فعله يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه . وأما الثناء على تاركه ، فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذى لا يحتاج إليه ، بل يفعل خوفًا من حدوث الداء ، والله أعلم [2] .

فصل
فى التأكيد على الشفاء بالعسل

الشفاء الحاصل من العسل قد حرمه الله كثيرا من الناس ، حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته .ولا ريب أن كونه شفاء ، وكون القرآن شفاء ، والصلاة شفاء ، وذكر الله والإقبال عليه شفاء ، أمر لا يعم الطبائع والأنفس . فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع ، وهو أعظم الشفاء ، وما أقل المستشفين به ، بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا ، وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفى به من عليل ، وكم قد عوفى به من مريض ، وكم قام

(١) البخارى (٥٧٥٢) فى الطب ، باب : من لم يرق ، ومسلم (٢٢٠/ ٣٧٤) فى الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب

(٢) زاد المعاد (٤ / ٦٣ ـ ٦٦) .

مقام كثير من الأدوية التى لا تبلغ قريبًا من مبلغه فى الشفاء . وأنت ترى كثيرًا من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلا ، ولقد رأيت فى بعض كتب الأطباء المسلمين فى ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة ، ذكرها فى باب الصاد ، وذكر من منافعها فى البدن التى توجب الشفاء وجوها عديدة ، ومن منافعها فى الروح والقلب . وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول وقد عرض له بعض الألم ، فقال له الطبيب : أضر ما عليك الكلام فى العلم والفكر فيه والتوجه والذكر ، فقال : ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها ، فإذا قويت عليه قهرته ؟ فقال له الطبيب : بلى ، فقال : إذا اشتغلت نفسى بالتوجه والذكر والكلام فى العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت ، فأوجب ذلك دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام .

والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء ، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها ، وهو شفاء لما فى الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس] فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة ، فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به ، ولم يصف الله فى كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل ، فهما الشفاءان ، هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها ، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها . ولقد أصابنى أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ، ولا طبيب هناك ولا أدوية كما فى غيرها من المدن ، فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ، ورأيت فيهما من الشفاء أمرًا عجيبًا . وتأمل إخباره ـ سبحانه وتعالى ـ عن القرآن بأنه نفسه شفاء ، وقال عن العسل ﴿ **فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء ، وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه (١) .

فصل
فى بيان معنى نهى النبى ﷺ عن الكىّ

عن مطرف ـ وهو ابن طريف ـ عن عمران بن حصين رضي الله عنهما ، قال : نهى النبى ﷺ

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٥٠) .

عن الكى ، فاكتوينا ، فما أفلحنا ولا أنجحنا (١) .

وأخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث الحسن البصرى عن عمران (٢) .

ولفظ الترمذى : أن رسول الله ﷺ نهى عن الكى ، قال : فابتلينا فاكتوينا ، فما أفلحنا ولا أنجحنا .

ولفظ ابن ماجه : نهى رسول الله ﷺ فاكتويت ، فما أفلحت ولا أنجحت . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وفيما قاله نظر . فقد ذكر غير واحد من الأئمة : أن الحسن لم يسمع من عمران بن حصين .

ذكر المنذرى قول الترمذى : حسن صحيح ، قال : وفيما قاله نظر ، وقد ذكر غير واحد من الأئمة : أن الحسن لم يسمع من عمران بن حصين .

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣) ، ثم قال بعده : الزجر عن الكى فى حديث عمران بن حصين : إنما هو عن الابتداء به من غير علة توجبه ، كما كانت العرب تفعله ، تريد به الوشم ، وحديث جابر فيه : إباحة استعماله لعلة تحدث من غير الاتكال عليه فى برئها، وفى هذا نظر .

وقالت طائفة: النهى من باب ترك الأولى؛ ولهذا جاء فى حديث السبعين الألف: « أنهم لا يكتوون ولا يسترقون » (٤) وفعله يدل على إباحته .

وهذا أقرب الأقوال . وحديث عمران يدل عليه ، فإنه قال : نهانا عن الكى فاكتوينا فلو كان نهيه للتحريم ، لم يقدموا عليه ، والله أعلم (٥) .

فصل

فى هديه ﷺ فى معالجة المرضى بترك إعطائهم ما يكرهونه من الطعام والشراب ، وأنهم لا يُكرهون على تناولهما

روى الترمذى فى « جامعه » ، وابن ماجه ، عن عقبة بن عامر الجهنى ، قال : قال

---

(١) أبو داود (٣٨٦٥) فى الطب ، باب : فى الكى .

(٢) سبق تخريجه ص ٩٥ .

(٣) ابن حبان (٦٠٤٩) .

(٤) سبق تخريجه ص ٩٦ .

(٥) تهذيب السنن (٥ / ٣٥٠ ، ٣٥١) .

رسول الله ﷺ : « لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب ، فإن الله عز وجل يطعمهم ويسقيهم » (١) .

قال بعض فضلاء الأطباء: ما أغزر فوائد هذه الكلمة النبوية المشتملة على حكم إلهية ، لا سيما للأطباء ، ولمن يعالج المرضى ، وذلك أن المريض إذا عاف الطعام أو الشراب ، فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهدة المرض ، أو لسقوط شهوته ، أو نقصانها لضعف الحرارة الغريزية أو خمودها ، وكيفما كان فلا يجوز حينئذ إعطاء الغذاء فى هذه الحالة .

واعلم أن الجوع إنما هو طلب الأعضاء للغذاء لتخلف الطبيعة به عليها عوض ما يتحلل منها ، فتجذب الأعضاء القصوى من الأعضاء الدنيا حتى ينتهى الجذب إلى المعدة ، فيحس الإنسان بالجوع ، فيطلب الغذاء ، وإذا وجد المرض ، اشتغلت الطبيعة بمادته وإنضاجها وإخراجها عن طلب الغذاء ،أو الشراب ، فإذا أكره المريض على استعمال شيء من ذلك ، تعطلت به الطبيعة عن فعلها ، واشتغلت بهضمه وتدبيره عن إنضاج مادة المرض ودفعه ، فيكون ذلك سببًا لضرر المريض ، ولاسيما فى أوقات البحران ، أو ضعف الحار الغريزى أو خموده،فيكون ذلك زيادة فى البلية، وتعجيل النازلة المتوقعة ، ولا ينبغى أن يستعمل فى هذا الوقت والحال إلا ما يحفظ عليه قوته ويقويها من غير استعمال مزعج للطبيعة البتة ، وذلك يكون بما لطف قوامه من الأشربة والأغذية ، واعتدل مزاجه كشراب اللينوفر ، والتفاح ، والورد الطرى ، وما أشبه ذلك ، ومن الأغذية مرق الفراريج المعتدلة الطيبة فقط،وإنعاش قواه بالأراييح العطرة الموافقة ،والأخبار السارة ، فإن الطبيب خادم الطبيعة ، ومعينها لا معيقها .

واعلم أن الدم الجيد هو المغذى للبدن ، وأن البلغم دم فج قد نضج بعض النضج ، فإذا كان بعض المرضى فى بدنه بلغم كثير،وعدم الغذاء ، عطفت الطبيعة عليه ، وطبخته ، وأنضجته ، وصيرته دمًا ، وغذت به الأعضاء ، واكتفت به عما سواه ، والطبيعة هى القوة التى وكلها الله سبحانه بتدبير البدن وحفظه وصحته ، وحراسته مدة حياته .

واعلم أنه قد يحتاج فى الندرة إلى إجبار المريض على الطعام والشراب ، وذلك فى الأمراض التى يكون معها اختلاط العقل ،وعلى هذا فيكون الحديث من العام المخصوص ، أو من المطلق الذى قد دل على تقييده دليل ، ومعنى الحديث : أن المريض قد يعيش بلا غذاء أيامًا لا يعيش الصحيح فى مثلها .

---

(١) الترمذى (٢٠٤٠) فى الطب، باب: ما جاء لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب وقال : « حسن غريب »، وابن ماجه (٣٤٤٤) فى الطب ، باب: لا تكرهوا المريض على الطعام ،وحسنه الألبانى (صحيح الجامع ٧٣١٦).

وفى قوله ﷺ : « فإن الله يطعمهم ويسقيهم » معنى لطيف زائد على ما ذكره الأطباء لا يعرفه إلا من له عناية بأحكام القلوب والأرواح ، وتأثيرها فى طبيعة البدن ، وانفعال الطبيعة عنها ، كما تنفعل هى كثيرًا عن الطبيعة ، ونحن نشير إليه إشارة ، فنقول : النفس إذا حصل لها ما يشغلها من محبوب أو مكروه أو مخوف ، اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب ، فلا تحس بجوع ولا عطش ، بل ولا حر ولا برد ، بل تشتغل به عن الإحساس المؤلم الشديد الألم ،فلا تحس به ، وما من أحد إلا وقد وجد فى نفسه ذلك أو شيئًا منه ، وإذا اشتغلت النفس بما دهمها ، وورد عليها ، لم تحس بألم الجوع ، فإن كان الوارد مفرحًا قوى التفريح ، قام لها مقام الغذاء ، فشبعت به ، وانتعشت قواها ، وتضاعفت ، وجرت الدموية فى الجسد حتى تظهر فى سطحه ، فيشرق وجهه ، وتظهر دمويته ، فإن الفرح يوجب انبساط دم القلب ، فينبعث فى العروق ، فتمتلئ به ، فلا تطلب الأعضاء حظها من الغذاء المعتاد لاشتغالها بما هو أحب إليها ، وإلى الطبيعة منه ، والطبيعة إذا ظفرت بما تحب، آثرته على ما هو دونه .

وإن كان الوارد مؤلمًا أو محزنًا أو مخوفًا ، اشتغلت بمحاربته ومقاومته ومدافعته عن طلب الغذاء ، فهى فى حال حربها فى شغل عن طلب الطعام والشراب . فإن ظفرت فى هذا الحرب ، انتعشت قواها ، وأخلفت عليها نظير ما فاتها من قوة الطعام والشراب ، وإن كانت مغلوبة مقهورة ، انحطت قواها بحسب ما حصل لها من ذلك ، وإن كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سجالا ، فالقوة تظهر تارة وتختفى أخرى ، وبالجملة فالحرب بينهما على مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقاتلين ، والنصر للغالب ، والمغلوب إما قتيل ، وإما جريح ، وإما أسير .

فالمريض : له مدد من الله تعالى يغذيه به زائدًا على ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم ، وهذا المدد بحسب ضعفه وانكساره وانطراحه بين يدى ربه عز وجل ، فيحصل له من ذلك ما يوجب له قربًا من ربه ، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه إذا انكسر قلبه ، ورحمة ربه عندئذ قريبة منه ،فإن كان وليًا له ، حصل له من الأغذية القلبية ما تقوى به قوى طبيعته ، وتنتعش به قواه أعظم من قوتها،وانتعاشها بالأغذية البدنية ، وكلما قوى إيمانه وحبه لربه ، وأنسه به ، وفرحه به ، وقوى يقينه بربه ، واشتد شوقه إليه ورضاه به وعنه ، وجد فى نفسه من هذه القوة ما لا يعبر عنه ، ولا يدركه وصف طبيب ، ولا يناله علمه .

ومن غلظ طبعه ، وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به ، فلينظر حال كثير من عشاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحب ما يعشقونه من صورة ، أو جاه ، أو مال ،

أو علم ، وقد شاهد الناس من هذا عجائب فى أنفسهم وفى غيرهم .

وقد ثبت فى « الصحيح » : عن النبى ﷺ أنه كان يواصل فى الصيام . الأيام ذوات العدد ، وينهى أصحابه عن الوصال ويقول : « لست كهيئتكم إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى » (١) .

ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذى يأكله الإنسان بفمه ، وإلا لم يكن مواصلا ، ولم يتحقق الفرق ، بل لم يكن صائمًا ، فإنه قال : « أظل يطعمنى ربى ويسقينى » .

وأيضًا ، فإنه فرق بينه وبينهم فى نفس الوصال ، وأنه يقدر منه على ما لا يقدرون عليه ، فلو كان يأكل ويشرب بفمه ، لم يقل : لست كهيئتكم ، وإنما فهم هذا من الحديث من قل نصيبه من غذاء الأرواح والقلوب ، وتأثيره فى القوة وإنعاشها ، واغتذائها به فوق تأثير الغذاء الجسمانى والله الموفق (٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى دفع ضرر الأغذية والفاكهة وإصلاحها بما يدفع ضررها ، ويقوى نفعها

ثبت فى « الصحيحين » من حديث عبد الله بن جعفر ، قال : رأيت رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالقثاء (٣) .

والرطب : حار رطب فى الثانية ، يقوى المعدة الباردة ، ويوافقها ، ويزيد فى الباه ، ولكنه سريع التعفن ، معطش معكر للدم ، مصدع مولد للسدد ، ووجع المثانة ، ومضر بالأسنان ، والقثاء بارد رطب فى الثانية ، مسكن للعطش ، منعش للقوى بشمه لما فيه من العطرية ،مطفئ لحرارة المعدة الملتهبة ، وإذا جفف بزره ، ودق واستحلب بالماء ، وشرب ، سكن العطش ،وأدر البول ، ونفع من وجع المثانة . وإذا دق ونخل ، ودلك به الأسنان ، جلاها ، وإذا دق ورقه وعمل منه ضماد مع الميبختج ، نفع من عضة الكَلْب الكَلبِ .

---

(١) البخارى (١٩٦٦) فى الصوم ، باب : التنكيل لمن أكثر الوصال ، ومسلم (١١٠٣ / ٥٧) فى الصيام ، باب : النهى عن الوصال فى الصوم .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٩٠ ـ ٩٤) .

(٣) البخارى (٥٤٤٠) فى الأطعمة ، باب : القثاء بالرطب ، ومسلم (٢٠٤٣ / ١٤٧) فى الأشربة ، باب : أكل القثاء بالرطب .

وبالجملة : فهذا حار ، وهذا بارد ، وفى كل منهما صلاح الآخر ، وإزالة لأكثر ضرره ، ومقاومة كل كيفية بضدها ، ودفع سورتها بالأخرى ، وهذا أصل العلاج كله ، وهو أصل فى حفظ الصحة ، بل علم الطب كله يستفاد من هذا . وفى استعمال ذلك وأمثاله فى الأغذية والأدوية إصلاح لها وتعديل ، ودفع لما فيها من الكيفيات المضرة لما يقابلها ، وفى ذلك عون على صحة البدن ، وقوته وخصبه ، قالت عائشة رضي الله عنها : سمنونى بكل شيء فلم أسمن ، فسمنونى بالقثاء والرطب ، فسمنت .

وبالجملة: فدفع ضرر البارد بالحار، والحار بالبارد، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وتعديل أحدهما بالآخر من أبلغ أنواع العلاجات، وحفظ الصحة، ونظير هذا ما تقدم من أمره بالسنا والسنوت ، وهو العسل الذى فيه شيء من السمن يصلح به السنا ، ويعدله، فصلوات الله وسلامه على من بعث بعمارة القلوب والأبدان، وبمصالح الدنيا والآخرة (١).

فصل
فى هديه ﷺ فى الحمية

الدواء كله شيئان : حمية وحفظ صحة . فإذا وقع التخليط ، احتيج إلى الاستفراغ الموافق ، وكذلك مدار الطب كله على هذه القواعد الثلاثة . والحمية : حميتان : حمية عما يجلب المرض ، وحمية عما يزيده ، فيقف على حاله ، فالأولى : حمية الأصحاء . والثانية : حمية المرضى ، فإن المريض إذا احتمى وقف مرضه عن التزايد ، وأخذت القوى فى دفعه . والأصل فى الحمية قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء ٤٣ ، والمائدة : ٦] ، فحمى المريض من استعمال الماء ؛ لأنه يضره .

وفى « سنن ابن ماجه » وغيره عن أم المنذر بنت قيس الأنصارية ، قالت : دخل عَلَىَّ رسول الله ﷺ ومعه عَلِىٌّ ، وعلى ناقه من مرض ، ولنا دوالى معلقة ، فقام رسول الله ﷺ يأكل منها ، وقام على يأكل منها ، فطفق رسول الله ﷺ يقول لعلى : « إنك ناقه » حتى كف . قالت : وصنعت شعيراً وسلقًا ، فجئت به ، فقال النبى ﷺ لعلى : «من هذا أصب ، فإنه أنفع لك » وفى لفظ فقال : « من هذا فأصب ، فإنه أوفق لك » (٢) .

(١) زاد المعاد (٤ / ١٠٢ ، ١٠٣) .

(٢) ابن ماجه (٣٤٤٢) فى الطب ، باب : الحمية ، وأبو داود (٣٨٥٦) فى الطب ، باب : فى الحمية ، والترمذى (٢٠٣٧) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحمية ، وقال : « حسن غريب » .والحديث « حسن » .

وفى « سنن ابن ماجه » أيضًا عن صهيب قال : قدمت على النبى ﷺ وبين يديه خبز وتمر ، فقال : « ادن فكل » ، فأخذت تمرًا فأكلت ، فقال : « أتأكل تمرًا وبك رمد » ؟ فقلت : يا رسول الله ، أمضغ من الناحية الأخرى ، فتبسم رسول الله ﷺ (١).

وفى حديث محفوظ عنه ﷺ : « إن الله إذا أحب عبدًا ، حماه من الدنيا ، كما يحمى أحدكم مريضه عن الطعام والشراب » . وفى لفظ : « إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا » (٢) .

وأما الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس : الحمية رأس الدواء ، والمعدة بيت الداء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد ، فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، ولا يصح رفعه إلى النبى ﷺ ، قاله غير واحد من أئمة الحديث ، ويذكر عن النبى ﷺ . « أن المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا سقمت المعدة ، صدرت العروق بالسقم » (٣) .

وقال الحارث : رأس الطب الحمية ، والحمية عندهم للصحيح فى المضرة بمنزلة التخليط للمريض والناقه ، وأنفع ما تكون الحمية للناقه من المرض ، فإن طبيعته لم ترجع بعد إلى قوتها ، والقوة الهاضمة ضعيفة ، والطبيعة قابلة ، والأعضاء مستعدة ، فتخليطه يوجب انتكاسها ، وهو أصعب من ابتداء مرضه .

واعلم أن فى منع النبى ﷺ ،لعلى من الأكل من الدوالى ، وهو ناقه أحسن التدبير ، فإن الدوالى أقناء من الرطب تعلق فى البيت للأكل بمنزلة عناقيد العنب ، والفاكهة تضر بالناقه من المرض لسرعة استحالتها ، وضعف الطبيعة عن دفعها ، فإنها لم تتمكن بعد من قوتها ، وهى مشغولة بدفع آثار العلة ، وإزالتها من البدن وفى الرطب خاصة نوع ثقل على المعدة ، فتشتغل بمعالجته وإصلاحه عما هى بصدده من إزالة بقية المرض وآثاره ، فإما أن تقف تلك البقية ، وإما أن تتزايد ، فلما وضع بين يديه السلق والشعير ، أمره أن يصيب منه ، فإنه من أنفع الأغذية للناقه ،فإن فى ماء الشعير من التبريد والتغذية ، والتلطيف والتليين ، وتقوية الطبيعة ما هو أصلح للناقه ، ولا سيما إذا طبخ بأصول السلق ، فهذا من أوفق الغذاء لمن فى معدته ضعف ، ولا يتولد عنه من الأخلاط ما يخاف منه .

---

(١) ابن ماجه (٣٤٤٣) فى الطب ، باب : الحمية ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .
(٢) أحمد (٥ / ٤٢٧) ، والترمذى (٢٠٣٦) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحمية ، وقال : « حسن غريب » .
(٣) ذكره صاحب مجمع الزوائد الهيثمى (٥ / ٨٩) ، وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : « فيه يحيى بن عبد الله البابلتى وهو ضعيف » .

وقال زيد بن أسلم : حمى عمر ﷺ مريضًا له ، حتى إنه من شدة ما حماه كان يمص النوى .

وبالجملة : فالحمية من أنفع الأدوية قبل الداء ، فتمنع حصوله ، وإذا حصل فتمنع تزايده وانتشاره .

ومما ينبغى أن يعلم أن كثيرًا مما يحمى عنه العليل والناقه والصحيح ، إذا اشتدت الشهوة إليه ، ومالت إليه الطبيعة ، فتناول منه الشىء اليسير الذى لا تعجز الطبيعة عن هضمه ، لم يضره تناوله ، بل ربما انتفع به ، فإن الطبيعة والمعدة تتلقيانه بالقبول والمحبة ، فيصلحان مايخشى من ضرره ، وقد يكون أنفع من تناول ما تكرهه الطبيعة ، وتدفعه من الدواء ، ولهذا أقر النبى ﷺ صهيبًا وهو أرمد على تناول التمرات اليسيرة ، وعلم أنها لا تضره ، ومن هذا ما يروى عن على أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو أرمد ، وبين يدى النبى ﷺ تمر يأكله ، فقال : « يا على ، تشتهيه ؟ » ورمى إليه بتمرة ، ثم بأخرى حتى رمى إليه سبعًا ، ثم قال : « حسبك يا على » .

ومن هذا ما رواه ابن ماجه فى « سننه » من حديث عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ عاد رجلاً ، فقال له : « ما تشتهى » ؟ فقال : أشتهى خبز بر . وفى لفظ : أشتهى كعكًا ، فقال النبى ﷺ : « من كان عنده خبز بر فليبعث إلى أخيه » ، ثم قال : « إذا اشتهى مريض أحدكم شيئًا ، فليطمعه » [١] .

ففى هذا الحديث سر طبى لطيف ، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق طبيعى، وكان فيه ضرر ما ، كان أنفع وأقل ضررًا مما لا يشتهيه، وإن كان نافعًا فى نفسه، فإن صدق شهوته ، ومحبة الطبيعة يدفع ضرره ، وبغض الطبيعة وكراهتها للنافع ، قد يجلب لها منه ضررًا . وبالجملة : فاللذيذ المشتهى تقبل الطبيعة عليه بعناية ، فتهضمه على أحمد الوجوه ، سيما عند انبعاث النفس إليه بصدق الشهوة ، وصحة القوة ، والله أعلم [٢] .

---

(١) ابن ماجة (١٤٣٩) فى الجنائز ، باب: ما جاء فى عيادة المريض ، وفى الزوائد : « فى إسناده صفوان بن هبيرة ، ذكرة ابن حبان فى الثقات ، وقال النفيلى : لا يتابع على حديثه » .

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٠٣ ـ ١٠٦) .

فصل

فى هديه ﷺ فى إصلاح الطعام الذى يقع فيه الذباب ، وإرشاده إلى دفع مضرات السموم بأضدادها

فى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم ، فامقلوه ، فإن فى أحد جناحيه داء ، وفى الآخر شفاء » (١) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « أحد جناحى الذباب سم ، والآخر شفاء ، فإذا وقع فى الطعام ، فامقلوه ، فإنه يقدم السم ، ويؤخر الشفاء » (٢) .

هذا الحديث فيه أمران : أمر فقهى ، وأمر طبى ، فأما الفقهى ، فهو دليل ظاهر الدلالة جدًا على أن الذباب إذا مات فى ماء أو مائع ، فإنه لا ينجسه ، وهذا قول جمهور العلماء،ولا يعرف فى السلف مخالف فى ذاك . ووجه الاستدلال به أن النبى، أمر بمقله ، وهو غمسه فى الطعام ، ومعلوم أنه يموت من ذلك ، ولا سيما إذا كان الطعام حارًا . فلو كان ينجسه لكان أمرًا بإفساد الطعام ، وهو ﷺ إنما أمر بإصلاحه ، ثم عدى هذا الحكم إلى كل ما لا نفس له سائلة ، كالنحلة والزنبور ، والعنكبوت وأشباه ذلك ، إذ الحكم يعم بعموم علته ، وينتفى لانتفاء سببه ، فلما كان سبب التنجيس هو الدم المحتقن فى الحيوان بموته ، وكان ذلك مفقود فيما لا دم له سائل انتفى الحكم بالتنجيس لانتفاء علته .

ثم قال من لم يحكم بنجاسة عظم الميتة : إذا كان هذا ثابتًا فى الحيوان الكامل مع ما فيه من الرطوبات ، والفضلات ، وعدم الصلابة ، فثبوته فى العظم الذى هو أبعد عن الرطوبات والفضلات ، واحتقان الدم أولى ، وهذا فى غاية القوة ، فالمصير إليه أولى .

وأول من حفظ عنه فى الإسلام أنه تكلم بهذه اللفظة ، فقال : ما لا نفس له سائلة؛ إبراهيم النخعى ، وعنه تلقاها الفقهاء ـ والنفس فى اللغة : يعبر بها عن الدم ، ومنه نفست المرأة ـ بفتح النون ـ إذا حاضت ، ونفست ـ بضمها ـ إذا ولدت .

وأما المعنى الطبى ، فقال أبو عبيد : معنى امقلوه : اغمسوه ليخرج الشفاء منه ، كما

---

(١) البخارى (٥٧٨٢) فى الطب ، باب: إذا وقع الذباب فى الإناء ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٤٦) لمسلم ، وقد وهم المؤلف فى عزوه .

(٢) ابن ماجه (٣٥٠٤) فى الطب ، باب : يقع الذباب فى الإناء .

خرج الداء ، يقال للرجلين : هما يتماقلان ، إذا تغاطا فى الماء .

واعلم أن فى الذباب عندهم قوة سمية يدل عليها الورم ، والحكة العارضة عن لسعه ، وهى بمنزلة السلاح ، فإذا سقط فيما يؤذيه ، اتقاه بسلاحه ، فأمر النبى ﷺ أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله سبحانه فى جناحه الآخر من الشفاء ، فيغمس كله فى الماء والطعام ، فيقابل المادة السمية المادة النافعة ، فيزول ضررها ، وهذا طب لا يهتدى إليه كبار الأطباء وأئمتهم ، بل هو خارج من مشكاة النبوة ، ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفق يخضع لهذا العلاج ، ويقرء لمن جاء به بأنه أكمل الخلق على الإطلاق ، وأنه مؤيد بوحى إلهى خارج عن القوى البشرية .

وقد ذكر غير واحد من الأطباء أن لسع الزنبور والعقرب إذا دلك موضعه بالذباب نفع منه نفعًا بينًا ، وسكنه ، وما ذاك إلا للمادة التى فيه من الشفاء ، وإذا دلك به الورم الذى يخرج فى شعر العين المسمى شعرة بعد قطع رؤوس الذباب ، أبرأه (١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج المرضى بتطييب نفوسهم وتقوية قلوبهم

روى ابن ماجه « فى سننه » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخلتم على المريض ، فنفسوا له فى الأجل ، فإن ذلك لا يرد شيئًا ، وهو يطيب نفس المريض » (٢) .

وفى هذا الحديث نوع شريف جدًا من أشرف أنواع العلاج ، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذى تقوى به الطبيعة ، وتنتعش به القوة ، وينبعث به الحار الغريزى ، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذى هو غاية تأثير الطبيب .

وتفريح نفس المريض ، وتطييب قلبه ، وإدخال ما يسره عليه ، له تأثير عجيب فى شفاء علته وخفتها ، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك ، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذى ، وقد شاهد الناس كثيرًا من المرضى تنتعش قواه بعيادة من يحبونه ، ويعظمونه ، ورؤيتهم لهم ، ولطفهم بهم ، ومكالمتهم إياهم ، وهذا أحد فوائد عيادة المرضى التى تتعلق بهم ، فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد : نوع يرجع إلى المريض ، ونوع يعود على العائد ، ونوع

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١١١ ـ ١١٣) .

(٢) ابن ماجه (١٤٣٨) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى عيادة المريض .

يعود على أهل المريض ، ونوع يعود على العامة .

وفى هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه ، وكيف يجده ويسأله عما يشتهيه ، ويضع يده على جبهته،وربما وضعها بين ثدييه ، ويدعو له ، ويصف له ما ينفعه فى علته ، وربما توضأ وصب على المريض من وضوئه ، وربما كان يقول للمريض : « لا بأس طهور إن شاء الله » [(١)] ، وهذا من كمال اللطف ، وحسن العلاج والتدبير .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج الأبدان بما اعتادته من الأدوية والأغذية دون ما لم تعتده

هذا أصل عظيم من أصول العلاج ، وأنفع شيء فيه ، وإذا أخطأه الطبيب ، أضر المريض من حيث يظن أنه ينفعه ، ولا يعدل عنه إلى ما يجده من الأدوية فى كتب الطب إلا طبيب جاهل ، فإن ملاءمة الأدوية والأغذية للأبدان بحسب استعدادها وقبولها ، وهؤلاء أهل البوادى والأكارون وغيرهم لا ينجع فيهم شراب اللينوفر والورد الطرى ولا المغلى ، ولا يؤثر فى طباعهم شيئًا ، بل عامة أدوية أهل الحضر وأهل الرفاهية لا تجدى عليهم ، والتجربة شاهدة بذلك ، ومن تأمل ما ذكرناه من العلاج النبوى ، رآه كله موافقًا لعادة العليل وأرضه ، وما نشأ عليه،فهذا أصل عظيم من أصول العلاج يجب الاعتناء به ، وقد صرح به أفاضل أهل الطب حتى قال طبيب العرب بل أطبهم الحارث بن كلدة ، وكان فيهم كأبقراط فى قومه : الحمية رأس الدواء ، والمعدة بيت الداء ، وعودوا كل بدن ما اعتاد ، وفى لفظ عنه : الأزم دواء ، والأزم : الإمساك عن الأكل يعنى به الجوع ، وهو من أكبر الأدوية فى شفاء الأمراض الامتلائية كلها بحيث إنه أفضل فى علاجها من المستفرغات إذا لم يخف من كثرة الامتلاء ، وهيجان الأخلاط ، وحدتها أو غليانها .

وقوله : المعدة بيت الداء ، المعدة : عضو عصبى مجوف كالقرعة فى شكلها ، مركب من ثلاث طبقات ، مؤلفة من شظايا دقيقة عصبية تسمى الليف ، ويحيط بها لحم ، وليف إحدى الطبقات بالطول ، والأخرى بالعرض ، والثالثة بالورب ، وفم المعدة أكثر عصبًا ، وقعرها أكثر لحمًا ، وفى باطنها خمل ، وهى محصورة فى وسط البطن ، وأميل إلى الجانب الأيمن قليلاً ، خلقت على هذه الصفة لحكمة لطيفة من الخالق الحكيم سبحانه ،

(١) البخارى (٥٦٦٢) فى المرضى ، باب : ما يقال للمريض وما يجيب .

وهى بيت الداء ، وكانت محلا للهضم الأول ، وفيها ينضج الغذاء وينحدر منها بعد ذلك إلى الكبد والأمعاء ، ويتخلف منه فيها فضلات قد عجزت القوة الهاضمة عن تمام هضمها ، إما لكثرة الغذاء ، أو لرداءته ، أو لسوء ترتيب فى استعماله ، أو لمجموع ذلك ، وهذه الأشياء بعضها مما لا يتخلص الإنسان منه غالبًا ، فتكون المعدة بيت الداء لذلك ، وكأنه يشير بذلك إلى الحث على تقليل الغذاء ، ومنع النفس من اتباع الشهوات ، والتحرز عن الفضلات .

وأما العادة فلأنها كالطبيعة للإنسان ، ولذلك يقال : العادة طبع ثان ، وهى قوة عظيمة فى البدن ، حتى إن أمرًا واحدًا إذا قيس إلى أبدان مختلفة العادات ، كان مختلف النسبة إليها . وإن كانت تلك الأبدان متفقة فى الوجوه الأخرى مثال ذلك أبدان ثلاثة حارة المزاج فى سن الشباب ، أحدها : عود تناول الأشياء الحارة ؛ والثانى : عود تناول الأشياء الباردة ، والثالث : عود تناول الأشياء المتوسطة ، فإن الأول متى تناول عسلا لم يضر به ، والثانى : متى تناوله ، أضر به ، والثالث : يضر به قليلا ، فالعادة ركن عظيم فى حفظ الصحة ، ومعالجة الأمراض ، ولذلك جاء العلاج النبوى بإجراء كل بدن على عادته فى استعمال الأغذية والأدوية وغير ذلك .

فصل
فى هديه ﷺ فى تغذية المريض بألطف ما اعتاده من الأغذية

فى « الصحيحين » من حديث عروة عن عائشة ، أنها كانت إذا مات الميت من أهلها ، واجتمع لذلك النساء ، ثم تفرقن إلى أهلهن ، أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت ، وصنعت ثريدًا ، ثم صبت التلبينة عليه،ثم قالت : كلوا منها ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « التلبينة مجمة لفؤاد المريض تذهب ببعض الحزن » (١) .

وفى « السنن » من حديث عائشة أيضًا ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالبغيض النافع التلبين » ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا اشتكى أحد من أهله لم تزل البرمة على النار حتى ينتهى أحد طرفيه . يعنى يبرأ أو يموت (٢) .

---

(١) البخارى (٥٤١٧) فى الأطعمة ، باب : التلبينة ، ومسلم (٢٢١٦ / ٩٠) فى السلام ، باب : التلبينة مجمة لفؤاد المريض .

(٢) ابن ماجه (٣٤٤٦) فى الطب ، باب : التلبينة ، وضعفه الألبانى .

وعنها : كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلانًا وجع لا يطعم الطعام، قال : « عليكم بالتلبينة فحسوه إياها » ، ويقول : « والذى نفسى بيده إنها تغسل بطن أحدكم كما تغسل إحداكن وجهها من الوسخ » (١) .

التلبين: هو الحساء الرقيق الذى هو فى قوام اللبن ، ومنه اشتق اسمه ، قال الهروى : سميت تلبينة لشبهها باللبن لبياضها ورقتها ، وهذا الغذاء هو النافع للعليل ، وهو الرقيق النضيج لا الغليظ النىء ، وإذا شئت أن تعرف فضل التلبينة ، فاعرف فضل ماء الشعير ، بل هى ماء الشعير لهم ، فإنها حساء متخذ من دقيق الشعر بنخالته ، والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يطبخ صحاحًا ، والتلبينة تطبخ منه مطحونًا ، وهى أنفع منه لخروج خاصية الشعير بالطحن ، وقد تقدم أن للعادات تأثيرًا فى الانتفاع بالأدوية والأغذية ، وكانت عادة القوم أن يتخذوا ماء الشعير منه مطحونًا لا صحاحًا ، وهو أكثر تغذية ، وأقوى فعلاً ، وأعظم جلاء ، وإنما اتخذه أطباء المدن منه صحاحًا ليكون أرق وألطف ، فلا يثقل على طبيعة المريض، وهذا بحسب طبائع أهل المدن ورخاوتها ، وثقل ماء الشعير المطحون عليها ، والمقصود : أن ماء الشعير مطبوخًا صحاحًا ينفذ سريعًا ، ويجلو جلاءً ظاهرًا ، ويغذى غذاءً لطيفًا ، وإذا شرب حارًا كان جلاؤه أقوى ، ونفوذه أسرع ، وإنماؤه للحرارة الغريزية أكثر ، وتلميسه لسطوح المعدة أوفق .

وقوله ﷺ فيها : « مجمة لفؤاد المريض » يروى بوجهين . بفتح الميم والجيم ، وبضم الميم ، وكسر الجيم ، والأول : أشهر ، ومعناه : أنها مريحة له ، أى : تريحه وتسكنه من الإجمام، وهو الراحة. وقوله : « تذهب ببعض الحزن » ، هذا ـ والله أعلم ـ لأن الغم والحزن يبردان المزاج ، ويضعفان الحرارة الغريزية لميل الروح الحامل لها إلى جهة القلب الذى هو منشؤها ، وهذا الحساء يقوى الحرارة الغريزية بزيادته فى مادتها ، فتزيل أكثر ما عرض له من الغم والحزن .

وقد يقال ـ وهو أقرب ـ : إنها تذهب ببعض الحزن بخاصية فيها من جنس خواص الأغذية المفرحة ، فإن من الأغذية ما يفرح بالخاصية ، والله أعلم .

وقد يقال : إن قوى الحزين تضعف باستيلاء اليبس على أعضائه ، وعلى معدته خاصة لتقليل الغذاء، وهذا الحساء يرطبها ، ويقويها ، ويغذيها ، ويفعل مثل ذلك بفؤاد المريض ، لكن المريض كثيرًا ما يجتمع فى معدته خلط مرارى ، أو بلغمى ، أو صديدى ، وهذا الحساء يجلو ذلك عن المعدة ويسروه ، ويحدره ، ويميعه ، ويعدل كيفيته ، ويكسر سورته ،

---

(١) ابن ماجه (٣٤٤٥) فى الطب ، باب : التلبينة ، وضعفه الألبانى ، وأحمد (٦ / ٧٩) .

فيريحها ولا سيما لمن عادته الاغتذاء بخبز الشعير ، وهى عادة أهل المدينة إذ ذاك ، وكان هو غالب قوته ، وكانت الحنطة عزيزة عندهم ، والله أعلم [١] .

فصل
فى هديه ﷺ فى الإرشاد إلى معالجة أحذق الطبيبين

ذكر مالك فى « موطئه » : عن زيد بن أسلم ، أن رجلاً فى زمان رسول الله ﷺ أصابه جرح ، فاحتقن الجرح الدم ، وأن الرجل دعا رجلين من بنى أنمار ، فنظروا إليه فزعما أن رسول الله ﷺ قال لهما : « أيكما أطب » ؟ فقال : أو فى الطب خير يا رسول الله ؟ فقال : « أنزل الدواء الذى أنزل الداء » [٢] .

ففى هذا الحديث أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق ، فإنه إلى الإصابة أقرب .

وهكذا يجب على المستفتى أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم ؛ لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه .

وكذلك من خفيت عليه القبلة،فإنه يقلد أعلم من يجده ، وعلى هذا فطر الله عباده ، كما أن المسافر فى البر والبحر إنما سكون نفسه ، وطمأنينته إلى أحذق الدليلين وأخبرهما ، وله يقصد ، وعليه يعتمد ، فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل .

وقوله ﷺ :« أنزل الدواء الذى أنزل الداء » ، قد جاء مثله عنه فى أحاديث كثيرة ، فمنها ما رواه عمرو بن دينار ، عن هلال بن يساف ، قال : دخل رسول الله ﷺ على مريض يعوده ، فقال : « أرسلوا إلى طبيب » ، فقال قائل : وأنت تقول ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء » [٣].

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة يرفعه : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء » [٤] .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١١٦ ـ ١٢١) .

(٢) مالك فى الموطأ (٢ ٩٤٣ ، ٩٤٤) (١٢) فى العين ، باب : تعالج المريض ، وهو حديث مرسل له شواهد .

(٣) أحمد (١/ ٣٧١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٨٧) : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البخارى (٥٦٧٨) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠/ ٢٦٦) لمسلم .

واختلف فى معنى « أنزل الداء والدواء » ، فقالت طائفة : إنزاله إعلام العباد به ، وليس بشىء ، فإن النبى ﷺ أخبر بعموم الإنزال لكل داء ودواه ، وأكثر الخلق لا يعلمون ذلك ، ولهذا قال : « علمه من علمه ، وجهله من جهله » [١] .

وقالت طائفة : إنزالهما :خلقهما ووضعهما فى الأرض ،كما فى الحديث الآخر:« إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء » ، وهذا وإن كان أقرب من الذى قبله ، فلفظة الإنزال أخص من لفظة الخلق والوضع ، فلا ينبغى إسقاط خصوصية اللفظة بلا موجب .

وقالت طائفة : إنزالهما بواسطة الملائكة الموكلين بمباشرة الخلق من داء ودواء وغير ذلك ، فإن الملائكة موكلة بأمر هذا العالم ، وأمر النوع الإنسانى من حين سقوطه فى رحم أمه إلى حين موته ، فإنزال الداء والدواء مع الملائكة ، وهذا أقرب من الوجهين قبله .

وقالت طائفة : إن عامة الأدواء والأدوية هى بواسطة انزال الغيث من السماء الذى تتولد به الأغذية ، والأقوات ، والأدوية ، والأدواء ، وآلات ذلك كله ، وأسبابه ومكملاته ، وما كان منها من المعادن العلوية ، فهى تنزل من الجبال ، وما كان منها من الأودية والأنهار والثمار ، فداخل فى اللفظ على طريق التغليب والاكتفاء عن الفعلين بفعل واحد يتضمنهما ، وهو معروف من لغة العرب ، بل وغيرها من الأمم ، كقول الشاعر :

علفتها تبنًا وماءً باردًا حتى غدت همالة عيناها

وقول الآخر :

ورأيت زوجك قد غدا متقلدًا سيفًا ورمحًا

وقول الآخر :

إذا ما الغانيات برزن يومًا وزججن الحواجب والعيونا

وهذا أحسن مما قبله من الوجوه والله أعلم .

وهذا من تمام حكمة الرب عز وجل ، وتمام ربوبيته ، فإنه كما ابتلى عباده بالأدواء ، أعانهم عليها بما يسره لهم من الأدوية ، وكما ابتلاهم بالذنوب أعانهم عليها بالتوبة ، والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ، وكما ابتلاهم بالأرواح الخبيثة من الشياطين ، أعانهم عليها بجند من الأرواح الطيبة ، وهم الملائكة . وكما ابتلاهم بالشهوات أعانهم على قضائها بما يسره لهم شرعًا وقدرًا من المشتهيات اللذيذة النافعة ، فما ابتلاهم سبحانه بشىء إلا أعطاهم ما يستعينون به على ذلك البلاء ، ويدفعونه به ، ويبقى التفاوت بينهم فى العلم بذلك ، والعلم بطريق حصوله والتوصل إليه ، وبالله المستعان [٢] .

(١) أحمد (١/ ٣٧٣) ، وقال الشيخ شاكر (٣٥٧٥): « إسناده صحيح » .
(٢) زاد المعاد (٤ / ١٣٢ ـ ١٣٥) .

فصل
في هديه ﷺ في تضمين من طب الناس ، وهو جاهل بالطب

روى أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ،من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك ، فهو ضامن » (١) .

هذا الحديث يتعلق به ثلاثة أمور : أمر لغوى ، وأمر فقهى ، وأمر طبى .

أما الأمر الشرعى ، فإيجاب الضمان على الطبيب الجاهل ، فإذا تعاطى علم الطب وعمله ، ولم يتقدم له به معرفة ، فقد هجم بجهله على إتلاف الأنفس ، وأقدم بالتهور على ما لم يعلمه ، فيكون قد غرر بالعليل ، فيلزمه الضمان لذلك ، وهذا إجماع من أهل العلم .

قال الخطابى : لا أعلم خلافًا فى أن المعالج إذا تعدى ، فتلف المريض كان ضامنًا ، والمتعاطى علمًا أو عملاً لا يعرفه متعد ، فإذا تولد من فعله التلف ضمن الدية ، وسقط عنه القود ، لأنه لا يستبد بذلك بدون إذن المريض وجناية المتطبب فى قول عامة الفقهاء على عاقلته .

قلت : الأقسام خمسة:

أحدها : طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها ولم تجن يده ، فتولد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع ، ومن جهة من يطبه تلف العضو أو النفس ، أو ذهاب صفة ، فهذا لا ضمان عليه اتفاقًا ، فإنها سراية مأذون فيه ، وهذا كما إذا ختن الصبى فى وقت ، وسنه قابل لختان ، وأعطى الصنعة حقها ، فتلف العضو أو الصبى ، لم يضمن ، وكذلك إذا بط من عاقل أو غيره ما ينبغى بطه فى وقته على الوجه الذى ينبغى فتلف به ، لم يضمن ، وهكذا سراية كل مأذون فيه لم يتعد الفاعل فى سببها ، كسراية الحد بالاتفاق . وسراية القصاص عند الجمهور خلافًا لأبى حنيفة فى إيجابه الضمان بها ، وسراية التعزير ، وضرب الرجل امرأته ، والمعلم الصبى، والمستأجر الدابة، خلافًا لأبى حنيفة والشافعى فى إيجابهما الضمان فى ذلك ، واستثنى الشافعى ضرب الدابة .

(١) أبو داود (٤٥٨٦) فى الديات ، باب : فيمن تطبب بغير علم فأعنت ، والنسائى (٤٨٣٠) فى القسامة ، باب : صفة شبه العمد وعلى من دية الأجنة ، وابن ماجه (٣٤٦٦) فى الطب ، باب : من تطبب ولم يُعلم منه طب .

وقاعدة الباب إجماعًا ونزاعًا : أن سراية الجناية مضمونة بالاتفاق ، وسراية الواجب مهدرة بالاتفاق ، وما بينهما ففيه النزاع ، فأبو حنيفة أوجب ضمانه مطلقًا ، وأحمد ومالك أهدرا ضمانه ، وفرق الشافعى بين المقدر،فأهدر ضمانه ، وبين غير المقدر فأوجب ضمانه ، فأبو حنيفة نظر إلى أن الإذن فى الفعل إنما وقع مشروطًا بالسلامة ، وأحمد ومالك نظرا إلى أن الإذن أسقط الضمان ، والشافعى نظر إلى أن المقدر لا يمكن النقصان منه ، فهو بمنزلة النص ،وأما غير المقدر كالتعزيرات ،والتأديبات ، فاجتهادية ، فإذا تلف بها ،ضمن ، لأنه فى مظنة العدوان .

القسم الثانى : متطبب جاهل باشرت يده من يطبه ، فتلف به ، فهذا إن علم المجنى عليه أنه جاهل لا علم له ، وأذن له فى طبه لم يضمن ، ولا تخالف هذه الصورة ظاهر الحديث ، فإن السياق وقوة الكلام يدل على أنه غر العليل ، وأوهمه أنه طبيب ، وليس كذلك ، وإن ظن المريض أنه طبيب ، وأذن له فى طبه لأجل معرفته ، ضمن الطبيب ما جنت يده ، وكذلك إن وصف له دواء يستعمله ، والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه فتلف به ، ضمنه ، والحديث ظاهر فيه أو صريح .

القسم الثالث : طبيب حاذق ، أذن له ، وأعطى الصنعة حقها ، لكنه أخطأت يده ، وتعدت إلى عضو صحيح فأتلفه ،مثل : أن سبقت يد الخاتن إلى الكمرة ، فهذا يضمن ، لأنها جناية خطأ ، ثم إن كانت الثلث فما زاد ، فهو على عاقلته ، فإن لم تكن عاقلة ، فهل تكون الدية فى ماله،أو فى بيت المال ؟ على قولين ،هما روايتان عن أحمد . وقيل:إن كان الطبيب ذميًا . ففى ماله ، وإن كان مسلمًا ، ففيه الروايتان ، فإن لم يكن بيت مال ، أو تعذر تحميل ، فهل تسقط الدية ، أو تجب فى مال الجانى ؟ فيه وجهان أشهرهما : سقوطها .

القسم الرابع : الطبيب الحاذق الماهر بصناعته ، اجتهد فوصف للمريض دواءً ، فأخطأ فى اجتهاده ، فقتله ،فهذا يخرج على روايتين : إحداهما : أن دية المريض فى بيت المال . والثانية: أنها على عاقلة الطبيب ، وقد نص عليهما الإمام أحمد فى خطأ الإمام والحاكم .

القسم الخامس : طبيب حاذق ، أعطى الصنعة حقها،فقطع سلعة من رجل أو صبى ، أو مجنون بغير إذنه ، أو إذن وليه ، أو ختن صبيًا بغير إذن وليه فتلف ، فقال أصحابنا : يضمن؛لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه ، وإن أذن له البالغ ، أو ولى الصبى والمجنون ، لم يضمن ، ويحتمل ألا يضمن ، مطلقًا لأنه محسن ، وما على المحسنين من سبيل .

وأيضًا فإنه إن كان متعديًا ، فلا أثر لإذن الولى فى إسقاط الضمان ، وإن لم يكن متعديًا ، فلا وجه لضمانه . فإن قلت : هو متعد عند عدم الإذن ، غير متعد عند الإذن ، قلت : العدوان وعدمه إنما يرجع إلى فعله هو ، فلا أثر للإذن وعدمه فيه ، وهذا موضع نظر .

والطبيب فى هذا الحديث يتناول من يطب بوصفه وقوله ، وهو الذى يخص باسم الطبائعى ، وبمروده ، وهو الكحال ، وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحى ، وبموساه وهو الخاتن ، وبريشته وهو الفاصد وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام ، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر ، وبمكواته وناره وهو الكواء ، وبقربته وهو الحاقن ، وسواء كان طبه لحيوان بهيم ، أو إنسان ، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم ، وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء عرف حادث ، كتخصيص لفظ الدابة بما يخصها به كل قوم .

والطبيب الحاذق : هو الذى يراعى فى علاجه عشرين أمرًا :

أحدها : النظر فى نوع المرض من أى الأمراض هو ؟

الثانى : النظر فى سببه من أى شىء حدث ، والعلة الفاعلة التى كانت سبب حدوثه ما هى ؟

الثالث : قوة المريض ، وهل هى مقاومة للمرض ، أو أضعف منه ؟ فإن كانت مقاومة للمرض ، مستظهرة عليه ، تركها والمرض ، ولم يحرك بالدواء ساكنًا .

الرابع : مزاج البدن الطبيعى ما هو ؟

الخامس : المزاج الحادث على غير المجرى الطبيعى .

السادس : سن المريض .

السابع : عادته .

الثامن : الوقت الحاضر من فصول السنة وما يليق به .

التاسع : بلد المريض وتربته .

العاشر : حال الهواء فى وقت المرض .

الحادى عشر : النظر فى الدواء المضاد لتلك العلة .

الثانى عشر : النظر فى قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة المريض .

الثالث عشر : ألا يكون كل قصده إزالة تلك العلة فقط ، بل إزالتها على وجه يأمن

معه حدوث أصعب منها ، فمتى كان إزالتها لا يأمن معها حدوث علة أخرى أصعب منها ، أبقاها على حالها ، وتلطيفها هو الواجب وهذا كمرض أفواه العروق ، فإنها متى عولج بقطعه وحبسه خيف حدوث ما هو أصعب منه .

الرابع عشر : أن يعالج بالأسهل فالأسهل ، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره ، ولا ينتقل إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء البسيط ، فمن حذق الطبيب علاجه بالأغذية بدل الأدوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

الخامس عشر :أن ينظر فى العلة،هل هى مما يمكن علاجها أولا ؟ فإن لم يمكن علاجها، حفظ صناعته وحرمته ، لا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئًا ، وإن مكن علاجها نظر هل يمكن زوالها أم لا ؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها ، نظر هل يمكن تخفيفها وتقليلها أم لا ؟ فإن لم يمكن تقليلها ، ورأى أن غاية الإمكان إيقافها وقطع زيادتها ، قصد بالعلاج ذلك ، وأعان القوة ، وأضعف المادة .

السادس عشر : ألا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ ، بل يقصد إنضاجه ، فإذا تم نضجه ، بادر إلى استفراغه .

السابع عشر : أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها ، وذلك أصل عظيم فى علاج الأبدان ، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود ، والطبيب إذا كان عارفًا بأمراض القلب والروح وعلاجهما ، كان هو الطبيب الكامل ، والذى لا خبرة له بذلك وإن كان حاذقًا فى علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب . وكل طبيب لا يداوى العليل ، بتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية روحه وقواه بالصدقة ، وفعل الخير ،والإحسان ، والإقبال على الله والدار الآخرة ، فليس بطبيب ، بل متطبب قاصر . ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء ، والتضرع والابتهال إلى الله ، والتوبة ، ولهذا الأمور تأثير فى دفع العلل ، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية ، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها فى ذلك ونفعه .

الثامن عشر : التلطف بالمريض ، والرفق به ، كالتطلف بالصبى .

التاسع عشر : أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية ، والعلاج بالتخييل ، فإن لحذاق الأطباء فى التخييل أمورًا عجيبة لا يصل إليها الدواء ، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين .

العشرون : ـ وهو ملاك أمر الطبيب ـ أن يجعل علاجه وتدبيره دائرًا على ستة أركان: حفظ الصحة الموجودة ، ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان ، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان ، واحتمال أدنى المفسدتين لإزالة أعظمهما ، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج ، وكل طبيب لا تكون هذه أخيته التى يرجع إليها ، فليس بطبيب ، والله أعلم .

ولما كان للمرض أربعة أحوال : ابتداء ، وصعود ، وانتهاء ، وانحطاط ، تعين على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يناسبها ويليق بها ، ويستعمل فى كل حال ما يجب استعماله فيها . فإذا رأى فى ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة إلى ما يحرك الفضلات ويستفرغها لنضجها ، بادر إليه ، فإن فاته تحريك الطبيعة فى ابتداء المرض لعائق منع من ذلك ، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ ، أو لبرودة الفصل ، أو لتفريط وقع ، فينبغى أن يحذر كل الحذر أن يفعل ذلك فى صعود المرض ؛ لأنه إن فعله تحيرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء ، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية ، ومثاله : أن يجىء إلى فارس مشغول بمواقعة عدوه ، فيشغله عنه بأمر آخر ، ولكن الواجب فى هذه الحال أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن ، أخذ فى استفراغه ، واستئصال أسبابه ، فإذا أخذ فى الانحطاط ، كان أولى بذلك ، ومثال هذا مثال العدو إذا انتهت قوته ، وفرغ سلاحه ، كان أخذه سهلا ، فإذا ولى وأخذ فى الهرب ، كان أسهل أخذًا ، وحدته وشوكته إنما هى فى ابتدائه ، وحال استفراغه ، وسعة قوته ، فهكذا الداء والدواء سواء .

ومن حذق الطبيب : أنه حيث أمكن التدبير بالأسهل ، فلا يعدل إلى الأصعب ، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى إلا أن يخاف فوت القوة حينئذ ، فيجب أن يبتدئ بالأقوى ، ولا يقيم فى المعالجة على حال واحدة فتألفها الطبيعة ، ويقل انفعالها عنه ، ولا تجسر على الأدوية القوية فى الفصول القوية ، وقد تقدم أنه إذا أمكنه العلاج بالغذاء ، فلا يعالج بالدواء ، وإذا أشكل عليه المرض أحار هو أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له ، ولا يجربه بما يخاف عاقبته ، ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره .

وإذا اجتمعت أمراض ، بدأ بما تخصه واحدة من ثلاثة خصال :

إحداها : أن يكون برء الآخر موقوفًا على برئه كالورم والقرحة ، فإنه يبدأ بالورم .

الثانية : أن يكون أحدها سببًا للآخر،كالسدة والحمى العفنة ،فإنه يبدأ بإزالة السبب .

الثالثة : أن يكون أحدهما أهم من الآخر ، كالحاد والمزمن ، فيبدأ بالحاد ، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر . وإذا اجتمع المرض والعرض ، بدأ بالمرض ، إلا أن يكون العرض أقوى كالقولنج ، فيسكن الوجع أولاً ،ثم يعالج السدة ، وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ بالجوع أو الصوم أو النوم ، لم يستفرغه ، وكل صحة أراد حفظها ، حفظها بالمثل أو الشبه ، وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها نقلها بالضد (١) .

فصل

في هديه ﷺ في التحرز من الأدواء المعدية بطبعها وإرشاده الأصحاء إلى مجانبة أهلها

ثبت في « صحيح مسلم » من حديث جابر بن عبد الله ، أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبي ﷺ : « ارجع فقد بايعناك » (٢) .

وروى البخاري في « صحيحه » تعليقًا من حديث أبي هريرة ،عن النبي ﷺ أنه قال : « فر من المجذوم كما تفر من الأسد » (٣) .

وفي « سنن ابن ماجه » من حديث ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال : « لا تديموا النظر إلى المجذومين » (٤) .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ « لا يوردن ممرض على مصح » (٥) .

ويذكر عنه ﷺ : « كلم المجذوم ، وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين » (٦) .

الجذام : علة رديئة تحدث من انتشار المرة السوداء في البدن كله، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها ، وربما فسد في آخره اتصالها حتى تتآكل الأعضاء وتسقط ، ويسمى داء الأسد .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٣٥ - ١٤٦) .

(٢) مسلم (٢٢٣١ / ١٢٦) في السلام ، باب : اجتناب المجذوم ونحوه .

(٣) البخاري (٥٧٠٧) في الطب ، باب : الجذام .

(٤) ابن ماجه (٣٥٤٣) في الطب ، باب : الجذام .

(٥) البخاري (٥٧٧٤) في الطب ، باب : لا عدوى ، ومسلم (٢٢٢١ / ١٠٤) في السلام ، باب : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، ولا نوء ولا غول ، ولا يورد ممرض على مصح .

(٦) أحمد (١ / ٧٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (٥ / ١٠٣) : « فيه الفرج بن فضالة وثقه أحمد وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وبقية رجاله ثقات إن لم يكن سقط من الإسناد أحد » .

وفى هذه التسمية ثلاثة أقوال للأطباء :أحدها :أنها لكثرة ما تعترى الأسد ، والثانى : لأن هذه العلة تجهم وجه صاحبها وتجعله فى سحنة الأسد ، والثالث : أنه يفترس من يقربه ، أو يدنو منه بدائه افتراس الأسد .

وهذه العلة عند الأطباء من العلل المعدية المتوارثة ، ومقارب المجذوم ، وصاحب السل يسقم برائحته ، فالنبى ﷺ لكمال شفقته على الأمة ، ونصحه لهم نهاهم عن الأسباب التى تعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم ، ولا ريب أنه قد يكون فى البدن تهيؤ واستعداد كامن لقبول هذا الداء ، وقد تكون الطبيعة سريعة الانفعال قابلة للاكتساب من أبدان من تجاوره وتخالطه ، فإنها نقالة ، وقد يكون خوفها من ذلك ووهمها من أكبر أسباب إصابة تلك العلة لها،فإن الوهم فعال مستول على القوى والطبائع، وقد تصل رائحة العليل إلى الصحيح فتسقمه ، وهذا معاين فى بعض الأمراض ، والرائحة أحد أسباب العدوى ، ومع هذا كله فلا بد من وجود استعداد البدن وقبوله لذلك الداء ، وقد تزوج النبى ﷺ امرأة ، فلما أراد الدخول بها ،وجد بكشحها بياضًا ، فقال : « الحقى بأهلك » (١) .

وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الأحاديث معارضة بأحاديث أخر تبطلها وتناقضها ، فمنها : ما رواه الترمذى ، من حديث جابر ، أن رسول الله ﷺ أخذ بيد رجل مجذوم ، فأدخلها معه فى القصعة،وقال:« كل بسم الله ثقة بالله ، وتوكلا عليه » ؛ ورواه ابن ماجه وبما ثبت فى « الصحيح »، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ أنه قال « لا عدوى ولا طيرة » (٢) .

ونحن نقول : لا تعارض بحمد الله بين أحاديثه الصحيحة ، فإذا وقع التعارض ، فإما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ وقد غلط فيه بعض الرواة مع كونه ثقة بتًا ، فالثقة يغلط، أو يكون أحد الحديثين ناسخًا للآخر إذا كان مما يقبل النسخ، أو يكون التعارض فى فهم السامع، لا فى نفس كلامه ﷺ، فلا بد من وجه من هذه الوجوه الثلاثة.

وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه ، ليس أحدهما ناسخًا للآخر ، فهذا لا يوجد أصلا ، ومعاذ الله أن يوجد فى كلام الصادق المصدوق الذى لا يخرج من بين شفتيه إلا الحق، والآفة من التقصير فى معرفة المنقول ، والتمييز بين صحيحه ومعلوله، أو من القصور فى فهم مراده ﷺ ، وحمل كلامه على غير ما عناه به ،أو منهما معا ،

---

(١) أحمد ٣ / ٤٩٣ .

(٢) مسلم (٢٢٢٣ / ١١٢) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل .

ومن هاهنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع ، وبالله التوفيق .

قال ابن قتيبة فى كتاب « اختلاف الحديث » له حكاية عن أعداء الحديث وأهله، قالوا: حديثان متناقضان رويتم عن النبى ﷺ أنه قال : « لا عدوى ولا طيرة » . وقيل له : إن النقبة تقع بمشفر البعير ، فيجرب لذلك الإبل . قال : « فما أعدى الأول » [١] ، ثم رويتم « لا يورد ذو عاهة على مصح ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد ، وأتاه رجل مجذوم ليبايعه بيعة الإسلام، فأرسل إليه البيعة ، وأمره بالانصراف ، ولم يأذن له ، وقال : « الشؤم فى المرأة والدار والدابة » [٢] . قالوا : وهذا كله مختلف لا يشبه بعضه بعضًا .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إنه ليس فى هذا اختلاف ، ولكل معنى منها وقت وموضع ، فإذا وضع موضعه زال الاختلاف .

والعدوى جنسان : أحدهما : عدوى الجذام ، فإن المجذوم تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومحادثه، وكذلك المرأة تكون تحت المجذوم ، فتضاجعه فى شعار واحد ، فيوصل إليها الأذى ، وربما جذمت ، وكذلك ولده ينزعون فى الكبر إليه ، وكذلك من كان به سل ودق ونقب والأطباء تأمر أن لا يجالس المسلول ولا المجذوم ، ولا يريدون بذلك معنى العدوى ، وإنما يريدون به معنى تغير الرائحة ، وأنها قد تسقم من أطال اشتمامها ، والأطباء أبعد الناس عن الإيمان بيمن وشؤم ، وكذلك النقبة تكون بالبعير - وهو جرب رطب - فإذا خالط الإبل أو حاكها ، وأوى فى مباركها ، وصل إليها بالماء الذى يسيل منه ، وبالنطف نحو ما به ، فهذا هو المعنى الذى قال فيه النبى ﷺ : « لا يورد ذو عاهة على مصح » ، كره ، أن يخالط المعيوه الصحيح ، لئلا يناله من نطفه وحكته نحو مما به .

قال : وأما الجنس الآخر من العدوى ، فهو الطاعون ينزل ببلد ، فيخرج منه خوف العدوى ، وقد قال ﷺ : « إذا وقع ببلد ، وأنتم به ، فلا تخرجوا منه ، وإذا كان ببلد ، فلا تدخلوه » . يريد بقوله : لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم من الله ، ويريد إذا كان ببلد ، فلا تدخلوه ، أى : مقامكم فى الموضع الذى لا طاعون فيه أسكن لقلوبكم ، وأطيب لعيشكم ، ومن ذلك المرأة تعرف بالشؤم أو الدار ، فينال الرجل مكروه أو جائحة ، فيقول : أعدتنى بشؤمها ، فهذا هو العدوى الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « لا عدوى » .

---

(١) مسلم (٢٢٢٠ / ١٠١) فى السلام ، باب : لا عدوى ولا طيرة ولا سفر .

(٢) البخارى (٥٠٩٣) فى النكاح ، باب : ما يتقى من شؤم المرأة ، ومسلم (٢٢٢٥ / ١١٥) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

وقالت : فرقة أخرى : بل الأمر باجتناب المجذوم والفرار منه على الاستحباب، والاختيار ، والإرشاد ، أما الأكل معه ، ففعله لبيان الجواز ، وأن هذا ليس بحرام .

وقالت : فرقة أخرى : بل الخطاب بهذين الخطابين جزئى لا كلى ، فكل واحد خاطبه النبى ﷺ بما يليق بحاله ، فبعض الناس يكون قوى الإيمان ، قوى التوكل تدفع قوة توكله قوة العدوى ،كما تدفع قوة الطبيعة قوة العلة فتبطلها ، وبعض الناس لا يقوى على ذلك ، فخاطبه بالاحتياط والأخذ بالتحفظ ، وكذلك هو ﷺ فعل الحالتين معًا ، لتقتدى به الأمة فيهما ، فيأخذ من قوى من أمته بطريقة التوكل والقوة والثقة بالله ،ويأخذ من ضعف منهم بطريقة التحفظ والاحتياط ، وهما طريقان صحيحان . أحدهما : للمؤمن القوى ، والآخر للمؤمن الضعيف،فتكون لكل واحد من الطائفتين حجة وقدوة بحسب حالهم وما يناسبهم، وهذا كما أنه ﷺ كوى،وأثنى على تارك الكى، وقرن تركه بالتوكل ، وترك الطيرة ، ولهذا نظائر كثيرة ، وهذه طريقة لطيفة حسنة جدًا من أعطاها حقها ، ورزق فقه نفسه فيها ، أزالت عنه تعارضًا كثيرًا يظنه بالسنة الصحيحة .

وذهبت فرقة أخرى إلى أن الأمر بالفرار منه ، ومجانبته لأمر طبيعى ، وهو انتقال الداء منه بواسطة الملامسة والمخالطة والرائحة إلى الصحيح ، وهذا يكون مع تكرير المخالطة والملامسة له ، وأما أكله معه مقدارًا يسيرًا من الزمان لمصلحة راجحة فلا بأس به ، ولا تحصل العدوى من مرة واحدة ولحظة واحدة ، فنهى سدًا للذريعة ، وحماية للصحة ، وخالطه مخالطة ما للحاجة والمصلحة ، فلا تعارض بين الأمرين .

وقالت طائفة أخرى : يجوز أن يكون هذا المجذوم الذى أكل معه به من الجذام أمر يسير لا يعدى مثله ، وليس الجذمى كلهم سواء ، ولا العدوى حاصلة من جميعهم ، بل منهم من لا تضر مخالطته ، ولا تعدى ، وهو من أصابه من ذلك شىء يسير ، ثم وقف واستمر على حاله ، ولم يعد بقية جسمه ، فهو ألا يعدى غيره أولى وأحرى .

وقالت فرقة أخرى : إن الجاهلية كانت تعتقد أن الأمراض المعدية تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله سبحانه ، فأبطل النبى ﷺ اعتقادهم ذلك ، وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله سبحانه هو الذى يمرض ويشفى ، ونهى عن القرب منه ليتبين لهم أن هذا من الأسباب التى جعلها الله مفضية إلى مسبباتها ، ففى نهيه إثبات الأسباب ، وفى فعله بيان أنها لا تستقل بشىء ، بل الرب سبحانه إن شاء سلبها قواها ، فلا تؤثر شيئًا ، وإن شاء أبقى عليها قواها فأثرت .

وقالت فرقة أخرى : بل هذه الأحاديث فيها الناسخ والمنسوخ ، فينظر فى تاريخها ،

فإن علم المتأخر منها ، حكم بأنه الناسخ ، وإلا توقفنا فيها .

وقالت فرقة أخرى : بل بعضها محفوظ ، وبعضها غير محفوظ ، وتكلمت فى حديث « لا عدوى » ، وقالت : قد كان أبو هريرة يرويه أولا ، ثم شك فيه فتركه ، وراجعوه فيه ، وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبى أن يحدث به .

قال أبو سلمة : فلا أدرى ، أنسى أبو هريرة ، أم نسخ أحد الحديثين الآخر ؟

وأما حديث جابر : أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم ، فأدخلها معه فى القصعة ، فحديث لا يثبت ولا يصح ، وغاية ما قال فيه الترمذى : إنه غريب ، لم يصححه ولم يحسنه ، وقد قال شبعة وغيره : اتقوا هذه الغرائب . قال الترمذى : ويروى هذا من فعل عمر، وهو أثبت ، فهذا شأن هذين الحديثين اللذين عورض بهما أحاديث النهى ، أحدهما: رجع أبو هريرة عن التحديث به وأنكره ، والثانى : لا يصح عن رسول الله ﷺ ، والله أعلم ، وقد أشبعنا الكلام فى هذه المسألة فى كتاب « المفتاح » بأطول من هذا ، وبالله التوفيق [١] .

فصل
فى هديه ﷺ فى المنع من التداوى بالمحرمات

روى أبو داود فى « سننه » من حديث أبى الدرداء ﷺ قال : قال : رسول الله ﷺ :« إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داءٍ دواءً، فتداووا، ولا تداووا بالمحرم » [٢].

وذكر البخارى فى « صحيحه » عن ابن مسعود : إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم [٣] .

وفى « السنن » : عن أبى هريرة ، قال :نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث [٤] .

وفى « صحيح مسلم » عن طارق بن سويد الجعفى ، أنه سأل النبى ﷺ عن الخمر ، فنهاه ، أو كرهه أن يصنعها ، فقال : إنما أصنعها للدواء ، فقال : « إنه ليس بدواءٍ ، ولكنه داء » [٥] .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٤٦ ـ ١٥٤) .

(٢) أبو داود (٣٨٧٤) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة .

(٣) البخارى تعليقا فتح البارى (١٠ / ٧٨) فى الأشربة ، باب شراب الحلواء والعسل .

(٤) أبو داود (٣٨٧٠) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة ، والترمذى (٢٠٤٥) فى الطب ، باب : ما جاء فيمن قتل نفسه بسمٍّ أو غيره ، وابن ماجه (٣٤٥٩) فى الطب ، باب : النهى عن الدواء الخبيث .

(٥) مسلم (١٩٨٤ / ١٢) فى الأشربة ، باب : تحريم التداوى بالخمر .

وفى « السنن » أنه ﷺ سئل عن الخمر يجعل فى الدواء ، فقال : « إنها داء وليست بالدواء » ، رواه أبو داود ، والترمذى (١) .

وفى « صحيح مسلم » عن طارق بن سويد الحضرمى ،قال : قلت : يا رسول الله ، إن بأرضنا أعنابًا نعتصرها فنشرب منها ، قال : « لا » فراجعته ، قلت : إنا نستشفى للمريض ، قال : « إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء » (٢) .

وفى « سنن النسائى » أن طبيبًا ذكر ضفدعًا فى دواء عند رسول الله ﷺ ، فنهاه عن قتلها (٣) .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال : « من تداوى بالخمر ، فلا شفاه الله » (٤) .

المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلا وشرعًا،أما الشرع فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها، وأما العقل ، فهو أن الله ـ سبحانه ـ إنما حرمه لخبثه ، فإنه لم يحرم علي هذه الأمة طيبًا عقوبة لها ، كما حرمه على بنى إسرائيل بقوله : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٦٠] ، وإنما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه ، وتحريمه له حمية لهم ، وصيانة عن تناوله ، فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل ، فإنه وإن أثر فى إزالتها ، لكنه يعقب سقماً أعظم منه فى القلب بقوة الخبث الذى فيه ، فيكون المداوى به قد سعى فى إزالة سقم البدن بسقم القلب .

وأيضا ، فإن تحريمه يقتضى تجنبه والبعد عنه لكل طريق ، وفى اتخاذه دواءحض على الترغيب فيه وملابسته . وهذا ضد مقصود الشارع ، وأيضا فإنه داء كما نص عليه صاحب الشريعة ، فلا يجوز أن يتخذ دواء .

وأيضا ، فإنه يكسب الطبيعة والروح صفة الخبث ، لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالاً بيناً ، فإذا كانت كيفيته خبيثة، اكتسبت الطبيعة منه خبثاً ، فكيف إذا كان خبيثاً فى ذاته ، ولهذا حرم الله سبحانه على عباده الأغذية والأشربة والملابس الخبيثة ، لما تكسب النفس من هيئة الخبث وصفته .

---

(١) أبو داود (٣٨٧٣) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة ، والترمذى (٢٠٤٦) فى الطب ، باب : ما جاء فى كراهة التداوى بالمسكر ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) الحديث وهم المؤلف ـ رحمه الله ـ فى عزوه لمسلم ، حيث إن الإمام مسلم لم يرو حديثًا لطارق بن سويد ، انظر التحفة (٤ / ٢٠٦) ، والحديث رواه ابن ماجه (٣٥٠٠) فى الطب ، باب : النهى أن يتداوى بالخمر .

(٣) النسائى (٤٣٥٥) فى الصيد والذبائح ، باب : فى الضفدع .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى (٨٥٨١) بنحوه .

وأيضاً ، فإن فى إباحة التداوى به ، ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة، لاسيما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها مزيل لأسقامها جالب لشفائها، فهذا أحب شىء إليها . والشارع سد الذريعة إلى تناوله لكل ممكن ، ولا ريب أن بين سد الذريعة إلى تناوله ، وفتح الذريعة إلى تناوله تناقضاً وتعارضاً .

وأيضاً ، فإن فى هذا الدواء المحرم من الأدواء ما يزيد على ما يظن فيه من الشفاء، ولنفرض الكلام فى أم الخبائث التى ما جعل الله لنا فيها شفاء قط ، فإنها شديدة المضرة بالدماغ الذى هو مركز العقل عند الأطباء ، وكثير من الفقهاء والمتكلمين . قال أبقراط فى أثناء كلامه فى الأمراض الحادة :

ضرر الخمرة بالرأس شديد ؛ لأنه يسرع الارتفاع إليه . ويرتفع بارتفاعه الأخلاط التى تعلو فى البدن ، وهو كذلك يضر بالذهن .

وقال صاحب « الكامل » : إن خاصية الشراب الإضرار بالدماغ والعصب .

وأما غيره من الأدوية المحرمة فنوعان :

أحدهما : تعافه النفس ولا تنبعث لمساعدته الطبيعة على دفع المرض به كالسموم ، ولحوم الأفاعى وغيرها من المستقذرات ، فيبقى كلا على الطبيعة مثقلاً لها ، فيصير حينئذ داء لا دواء .

والثانى : ما لا تعافه النفس كالشراب الذى تستعمله الحوامل مثلاً ، فهذا ضرره أكثر من نفعه ، والعقل يقضى بتحريم ذلك ، فالعقل والفطرة مطابق للشرع فى ذلك .

وهاهنا سر لطيف فى كون المحرمات لا يستشفى بها ، فإن شرط الشفاء بالدواء تلقيه بالقبول ، واعتقاد منفعته ، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء ، فإن النافع هو المبارك ، وأنفع الأشياء أبركها من الناس أينما كان هو الذى ينتفع به حيث حل ، ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين مما يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها ، وبين حسن ظنه بها ، وتلقى طبعه لها بالقبول ، بل كلما كان العبد أعظم إيمانًا ، كان أكره لها وأسوأ اعتقاداً فيها، وطبعه أكره شىء لها ، فإذا تناولها فى هذه الحال ، كانت داء له لا دواء إلا أن يزول اعتقاد الخبث فيها ، وسوء الظن والكراهة لها بالمحبة ، وهذا ينافى الإيمان ، فلا يتناولها المؤمن قط إلا على وجه داء ، والله أعلم (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٨) .

وأيضـًا

إنه نهى عن التداوى بالخمر وإن كانت مصلحة التداوى راجحة على مفسدة ملابستها سدًا لذريعة قربانها واقتنائها يحبه النفوس لها فحسم عليها المادة حتى فى تناولها على وجه التداوى وهذا من أبلغ سد الذرائع (١) .

فصل
فى الأدوية المكروهة

عن أبى هريرة ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث (٢) .

وأخرجه الترمذى وابن ماجه (٣) .

وفى حديث الترمذى وابن ماجه : « يعنى السم » .

وذكر بعضهم : أن خبث الدواء يكون من وجهين :

أحدهما : خبث النجاسة ؛ وهو أن يدخله المحرم ، كالخمر ، ولحم ما لا يؤكل من الحيوان .

والثانى : أن يكون خبيثًا من جهة الطعم والمذاق ، ولا ينكر أن يكون كره ذلك لما فيه من المشقة على الطباع ، ولتكره النفس إياه (٤) .

فصل
فى هديه ﷺ فى حفظ الصحة

لما كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة ، فالرطوبة مادته ، والحرارة تنضجها ، وتدفع فضلاتها ، وتصلحها ، وتلطفها ، وإلا

---

(١) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٢) .

(٢) أبو داود (٣٨٧٠) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة .

(٣) الترمذى (٢٠٤٥) فى الطب ، باب : ما جاء فيمن قتل نفسه بسم أو غيره ، وابن ماجه (٣٤٥٩) فى الطب ، باب : النهى عن الدواء الخبيث .

(٤) تهذيب السنن (٥ / ٣٥٥) .

أفسدت البدن ولم يمكن قيامه ، وكذلك الرطوبة هى غذاء الحرارة ، فلولا الرطوبة ، لأحرقت البدن وأيبسته وأفسدته ، فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها ، وقوام البدن بهما جميعًا ، وكل منهما مادة للأخرى ، فالحرارة مادة للرطوبة تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة ، والرطوبة مادة للحرارة تغذوها وتحملها ، ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى، حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائمًا تحلل الرطوبة ، فيحتاج البدن إلى ما به يخلف عليه ما حللته الحرارة ـ لضرورة بقائه ـ وهو الطعام والشراب، ومتى زاد على مقدار التحلل ، ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته ، فاستحالت مواد رديئة ، فعاثت فى البدن ، وأفسدت ، فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع موادها وقبول الأعضاء واستعدادها ، وهذا كله مستفاد من قوله تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ [الأعراف : ٣١] ، فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه ، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن فى الكمية والكيفية ، فمتى جاوز ذلك كان إسرافًا ، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض ، أعنى عدم الأكل والشرب ، أو الإسراف فيه .

فحفظ الصحة كله فى هاتين الكلمتين الإلهيتين ، ولا ريب أن البدن دائمًا فى التحلل والاستخلاف ، وكلما كثر التحلل ضعفت الحرارة لفناء مادتها ، فإن كثرة التحلل تفنى الرطوبة ، وهى مادة الحرارة ، وإذا ضعفت الحرارة ، ضعف الهضم ، ولا يزال كذلك حتى تفنى الرطوبة ، وتنطفىء الحرارة جملة ، فيستكمل العبد الأجل الذى كتب الله له أن يصل إليه .

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة ، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما ، فإن هذا مما لم يحصل لبشر فى هذه الدار ، وإنما غاية الطبيب أن يحمى الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها ، ويحمى الحرارة عن مضعفاتها ، ويعدل بينهما بالعدل فى التدبير الذى به قام بدن الإنسان ، كما أن به قامت السماوات والأرض وسائر المخلوقات ، إنما قوامها بالعدل ، ومن تأمل هدى النبى ﷺ وجده أفضل هدى يمكن حفظ الصحة به ، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب ،والملبس والمسكن ، والهواء والنوم ، واليقظة والحركة ، والسكون والمنكح ، والاستفراغ والاحتباس ، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة ، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل .

ولما كانت الصحة والعافية من أجل نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظًا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يصادها، وقد روى البخاري في « صحيحه » من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ » (١).

وفي الترمذي وغيره من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أصبح معافى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا » (٢).

وفي الترمذي أيضًا من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم، أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونروك من الماء البارد » (٣).

ومن هاهنا قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ [التكاثر]، قال: عن الصحة.

وفي « مسند الإمام أحمد » أن النبي ﷺ قال للعباس: « يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة » (٤).

وفيه عن أبي بكر الصديق، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيرًا من العافية » (٥).

فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه.

وفي « سنن النسائي » من حديث أبي هريرة يرفعه: « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتي أحد بعد يقين خيرًا من معافاة » (٦). وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومة

---

(١) البخاري (٦٤١٢) في الرقاق، باب: ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة.

(٢) الترمذي (٢٣٤٦) في الزهد، باب: في التوكل على الله، وقال: « حسن غريب »، ابن ماجه (٤١٤١) في الزهد، باب: القناعة.

(٣) الترمذي (٣٣٥٨) في التفسير، باب: ومن سورة التكاثر، وقال: « حديث غريب ».

(٤) أحمد ١ / ٢٠٩، وقال الشيخ شاكر (١٧٨٣): « إسناده صحيح ».

(٥) أحمد ١ / ٣، وقال: الشيخ شاكر (٦): « إسناده صحيح ».

(٦) النسائي في الكبرى (١٠٧١٧) في عمل اليوم والليلة، باب: مسألة المعافاة من حديث أبي بكر الصديق.

والاستمرار على العافية .

وفى الترمذى مرفوعًا : « ما سئل الله شيئًا أحب إليه من العافية » (١) .

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى : عن أبى الدرداء ، قلت : يا رسول الله ! لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر ، فقال رسول الله ﷺ : « ورسول الله يحب معك العافية » .

ويذكر عن ابن عباس أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس ؟ فقال : « سل الله العافية » ، فأعاد عليه ، فقال له فى الثالثة : « سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » .

وإذا كان هذا شأن العافية والصحة ، فنذكر من هديه ﷺ فى مراعاة هذه الأمور ما تبين لمن نظر فيه أنه أكمل هدى على الإطلاق ينال به حفظ صحة البدن والقلب ، وحياة الدنيا والآخرة ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فأما المطعم والمشرب ، فلم يكن من عادته ﷺ حبس النفس على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى ما سواه ، فإن ذلك يضر بالطبيعة جدًا ، وقد يتعذر عليها أحيانًا ، فإن لم يتناول غيره ، ضعف أو هلك ، وإن تناول غيره ، لم تقبله الطبيعة ، واستضر به ، فقصرها على نوع واحد دائمًا ـ ولو أنه أفضل الأغذية ـ خطر مضر .

بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكل من اللحم ، والفاكهة ، والخبز ، والتمر ، وغيره مما ذكرناه فى هديه فى المأكول ، فعليك بمراجعته هناك .

وإذا كان فى أحد الطعامين كيفية تحتاج إلى كسر وتعديل ، كسرها وعدلها بضدها إن أمكن ، كتعديل حرارة الرطب بالبطيخ ، وإن لم يجد ذلك ، تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف ، فلا تتضرر به الطبيعة .

وكان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله ، ولم يحملها إياه على كره ، وهذا أصل عظيم فى حفظ الصحة ، فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه ، ولا يشتهيه ، كان تضرره به أكثر من انتفاعه: قال أبو هريرة : ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه ، ولم يأكل منه (٢) . ولما قدم إليه الضب المشوى لم يأكل منه فقيل له : أهو حرام ؟ قال :

---

(١) الترمذى (٣٥١٥) فى الدعوات ، باب : ٨٥ ، وقال : « غريب » .

(٢) البخارى (٥٤٠٩) فى الأطعمة ، باب:ما عاب النبى ﷺ طعامًا ،ومسلم (٢٠٦٤ / ١٨٧) فى الأشربة ، باب : لا يعيب الطعام .

« لا ، ولكن لم يكن بأرض قومى ، فأجدنى أعافه » (١) ، فراعى عادته وشهوته ، فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه ، وكانت نفسه لا تشتهيه ، أمسك عنه ، ولم يمنع من أكله من يشتهيه ، ومن عادته أكله .

وكان يحب اللحم ، وأحبه إليه الذراع ، ومقدم الشاة ، ولذلك سم فيه ، وفى « الصحيحين » : أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه » (٢) .

وذكر أبو عبيدة وغيره عن ضباعة بنت الزبير ، أنها ذبحت فى بيتها شاة ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن أطعمينا من شاتكم ، فقالت للرسول : ما بقى عندنا إلا الرقبة ، وإنى لأستحى أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ ، فرجع الرسول فأخبره ، فقال : « ارجع إليها فقل لها أرسلى بها ، فإنها هادية الشاة وأقرب إلى الخير ، وأبعدها من الأذى » (٣) .

ولا ريب أن أخف لحم الشاة لحم الرقبة ، ولحم الذراع والعضد ، وهو أخف على المعدة ، وأسرع انهضامًا ، وفى هذا مراعاة الأغذية التى تجمع ثلاثة أوصاف أحدها : كثرة نفعها وتأثيرها فى القوى . الثانى : خفتها على المعدة ، وعدم ثقلها عليها . الثالث : سرعة هضمها ، وهذا أفضل ما يكون من الغذاء ، والتغذى باليسير من هذا أنفع من الكثير من غيره .

وكان يحب الحلواء والعسل ، وهذه الثلاثة ـ أعنى : اللحم والعسل والحلواء ـ من أفضل الأغذية ، وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء ، وللاغتذاء بها نفع عظيم فى حفظ الصحة ولا ينفر منها إلا من به علة وآفة .

وكان يأكل الخبز مأدومًا ما وجد له إدامًا ، فتارة يأدمه باللحم ويقول : « هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة » . رواه ابن ماجه وغيره (٤) وتارة بالبطيخ ، وتارة بالتمر ، فإنه وضع تمرة على كسرة شعير ، وقال : « هذا إدام هذه » (٥) . وفى هذا من تدبير الغذاء أن خبز الشعير بارد يابس ، والتمر حار رطب على أصح القولين ، فأدم خبز الشعير به من

(١) البخارى (٥٥٣٧) فى الذبائح ، والصيد ، باب : الضب ، ومسلم (١٩٤٦ / ٤٤) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الضب .

(٢) البخارى (٣٣٤٠) فى الأنبياء ، باب : قول الله عز وجل : ﴿ولقد أرسلنا نوح إلى قومه﴾ ، ومسلم (١٩٤ / ٣٢٧) فى الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

(٣) أحمد (٦ / ٣٦٠ ، ٣٦١) ، والطبرانى فى الكبير (٢٤ / ٣٣٧) (٨٤٤) .

(٤) ابن ماجه (٣٣٠٥) فى الأطعمة ، باب : اللحم ، وفى الزوائد : « فى إسناده أبو شجعة وابن أخيه مسلمة بن عبد الله لم أر من جرحهما ولا وثقهما . . . » .

(٥) أبو داود (٣٢٥٩) فى الأيمان والنذور ، باب : الرجل يحلف ألا يتأدم .

أحسن التدبير ، لا سيما لمن تلك عادتهم ، كأهل المدينة ، وتارة بالخل ، ويقول : « نعم الإدام الخل » وهذا ثناء عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر ، لا تفضيل له على غيره ، كما يظن الجهال ، وسبب الحديث أنه دخل على أهله يومًا ، فقدموا له خبزًا ، فقال : « هل عندكم من إدام ؟ » قالوا : ما عندنا إلا خل ، فقال : « نعم الإدام الخل » (١) .

والمقصود : أن أكل الخبز مأدومًا من أسباب حفظ الصحة ، بخلاف الاقتصار على أحدهما وحده ، وسمى الأدم أدمًا : لإصلاحه الخبز ، وجعله ملائمًا لحفظ الصحة ، ومنه قوله فى إباحته للخاطب النظر : إنه أحرى أن يؤدم بينهما ، أى أقرب إلى الالتئام والموافقة ، فإن الزوج يدخل على بصيرة ، فلا يندم .

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ، ولا يحتمى عنها ، وهذا أيضًا من أكبر أسباب حفظ الصحة ، فإن الله ـ سبحانه ـ بحكمته جعل فى كل بلدة من الفاكهة ما ينتفع به أهلها فى وقته ، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم ، ويغنى عن كثير من الأدوية ، وقل من احتمى عن فاكهة بلده خشية السقم إلا وهو من أسقم الناس جسمًا ، وأبعدهم من الصحة والقوة .

وما فى تلك الفاكهة من الرطوبات ، فحرارة الفصل والأرض وحرارة المعدة تنضجها وتدفع شرها إذا لم يسرف فى تناولها ، ولم يحمل منها الطبيعة فوق ما تحتمله ، ولم يفسد بها الغذاء قبل هضمه ولا أفسدها بشرب الماء عليها ، وتناول الغذاء بعد التحلى منها ، فإن القولنج كثيرًا ما يحدث عند ذلك ، فمن أكل منها ما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى ، كانت له دواءً نافعًا (٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى هيئة الجلوس للأكل

صح عنه أنه قال : « لا آكل متكئا » (٣) ، وقال : « إنما أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد » (٤) .

وروى ابن ماجه فى « سننه » أنه نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه (٥) .

---

(١) مسلم (٢٠٥٢ / ١٦٦) فى الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به ، وأبو داود (٣٨٢١) فى الأطعمة ، باب فى الخل ، والترمذى (١٨٤٠) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الخل ، وقال : « هذا أصح من حديث مبارك ابن سعيد » .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢١٣ ـ ٢٢٠) .

(٣) البخارى (٥٣٩٨) فى الأطعمة ، باب : الأكل متكئا .

(٤) أبو داود (٣٧٧٥) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الجلوس على مائدة عليها بعض ما يكره .

(٥) ابن ماجه (٣٣٧٠) فى الأطعمة ، باب : النهى عن الأكل منبطحًا .

وقد فسر الاتكاء بالتربع ، وفسر الاتكاء على الشيء ، وهو الاعتماد عليه ، وفسر بالاتكاء على الجنب ، والأنواع الثلاثة من الاتكاء ، فنوع منها يضر بالآكل ، وهو الاتكاء على الجنب ، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته ، ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة ويضغط المعدة ، فلا يستحكم فتحها للغذاء ، وأيضًا فإنها تميل ولا تبقى منتصبة ، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة .

وأما النوعان الآخران : فمن جلوس الجبابرة المنافي للعبودية ؛ ولهذا قال : « آكل كما يأكل العبد » وكان يأكل وهو مقعن [(١)]،ويذكر عنه أنه كان يجلس للأكل متوركًا على ركبتيه ، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنى تواضعًا لربه عز وجل ، وأدبًا بين يديه ، واحترامًا للطعام وللمؤاكل ، فهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها ؛ لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذى خلقها الله ـ سبحانه ـ عليه مع ما فيها من الهيئة الأدبية ، وأجود ما اغتذى الإنسان إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعي ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الإنسان منتصبًا الانتصاب الطبيعي ، وأردأ الجلسات للأكل الاتكاء على الجنب ، لما تقدم من أن المرىء ، وأعضاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة ، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعي ؛ لأنها تنعصر مما يلى البطن بالأرض ، ومما يلى الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء ، وآلات التنفس .

وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذى تحت الجالس ، فيكون المعنى أنى إذا أكلت لم أقعد متكئًا على الأوطية والوسائد ، كفعل الجبابرة ، ومن يريد الإكثار من الطعام ، لكنى آكل بلغة كما يأكل العبد .

وكان يأكل بأصابعه الثلاث ، وهذا أنفع ما يكون من الأكلات ، فإن الأكل بأصبع أو أصبعين لا يستلذ به الآكل ، ولا يمريه ، ولا يشبعه إلا بعد طول ، ولا تفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها فى كل أكلة ، فتأخذها على إغماض ، كما يأخذ الرجل حقه حبة أو حبتين أو نحو ذلك ، فلا يلتذ بأخذه ، ولا يسر به ، والأكل بالخمسة والراحة يوجب ازدحام الطعام على آلاته ، وعلى المعدة،وربما انسدت الآلات فمات ،وتغصب الآلات على دفعه ، والمعدة على احتماله ، ولا يجد له لذة ولا استمراء ، فأنفع الأكل أكله ﷺ ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاث .

ومن تدبر أغذيته ﷺ ، وما كان يأكله ، وجده لم يجمع قط بين لبن وسمك ، ولا بين لبن وحامض ، ولا بين غذاءين حارين ، ولا باردين ، ولا لزجين ، ولا قابضين ، ولا

---

(١) مسلم (٢٠٤٤/١٤٨) فى الأشربة ، باب : استحباب تواضع الآكل وصفة قعوده .

مسهلين ، ولا غليظين ، ولا مرخيين ، ولا مستحيلين إلى خلط واحد ، ولا بين مختلفين كقابض ومسهل ، وسريع الهضم وبطيئه ، ولا بين شوى وطبيخ ، ولا بين طرى وقديد ، ولا بين لبن وبيض، ولا بين لحم ولبن ، ولم يكن يأكل طعامًا فى وقت شدة حرارته ، ولا طبيخًا بائتًا يُسخن له بالغد ، ولا شيئًا من الأطعمة العفنة والمالحة ، كالكوامخ والخللات ، والملوحات ، وكل هذه الأنواع ضار مولد لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال .

وكان يصلح ضرر بعض الأغذية ببعض إذا وجد إليه سبيلا ، فيكسر حرارة هذا ببرودة هذا،ويبوسة هذا برطوبة هذا ، كما فعل فى القثاء والرطب ،وكما كان يأكل التمر بالسمن، وهو الحيس ، ويشرب نقيع التمر يلطف به كيموسات الأغذية الشديدة .

وكان يأمر بالعشاء ولو بكفّ من تمر ، ويقول : « ترك العشاء مهرمة » ، ذكره الترمذى فى « جامعه » ، وابن ماجه فى « سننه » (١) .

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان ينهى عن النوم على الأكل ، ويذكر أنه يقسى القلب ، ولهذا فى وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة : أن يمشى بعد العشاء خطوات ولو مائة خطوة ، ولا ينام عقبه ، فإنه مضر جدًا ، وقال مسلموهم : أو يصلى عقيبه ليستقر الغذاء بقعر المعدة ، فسهل هضمه ، ويجود بذلك .

ولم يكن من هديه ﷺ أن يشرب على طعامه فيفسده ، ولا سيما إن كان الماء حارًا أو باردًا، فإنه ردىء جدًا ، قال الشاعر :

لا تكـن عند أكـل سخن وبـرد   ودخـول الحمـام تشرب مـاء
فـإذا مـا اجتنبت ذلـك حقـًا   لم تخف ما حييت فى الجوف داء

ويكره شرب الماء عقيب الرياضة، والتعب، وعقيب الجماع وعقيب الطعام وقبله، وعقيب أكل الفاكهة ، وإن كان الشرب عقيب بعضها أسهل من بعض ، وعقب الحمام ، وعند الانتباه من النوم،فهذا كله مناف لحفظ الصحة،ولا اعتبار بالعوائد،فإنها طبائع ثوان (٢).

فصل
فى هديه ﷺ فى الشراب بما ينفع البدن

وأما هديه فى الشراب ، فمن أكمل هدى يحفظ به الصحة ، فإنه كان يشرب العسل

---

(١) الترمذى (١٨٥٦) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى فضل العشاء ، وقال : « منكر » ، وابن ماجه (٣٣٥٥) فى الأطعمة ، باب : ترك العشاء .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٢٠ ـ ٢٢٤) .

المزوج بالماء البارد،وفى هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدى إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء ، فإن شربه ولعقه على الريق يذيب البلغم ، ويغسل خمل المعدة ، ويجلو لزوجتها ، ويدفع عنها الفضلات ، ويسخنها باعتدال ، ويفتح سددها ، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلى والمثانة ، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها ، وإنما يضر بالعرض لصاحب الصفراء لحدته وحدة الصفراء ، فربما هيجها ، ودفع مضرته لهم بالخل ، فيعود حينئذ لهم نافعًا جدًا ، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرها ، ولا سيما لمن لم يعتد هذه الأشربة ، ولا ألفها طبعه ، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمة العسل ، ولا قريبًا منه ، والمحكم فى ذلك العادة ، فإنها تهدم أصولاً ، وتبنى أصولاً .

وأما الشراب إذا جمع وصفى الحلاوة والبرودة ، فمن أنفع شىء للبدن ، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة ، وللأرواح والقوى ، والكبد والـقلب عشق شديد له ، واستمداد منه ، وإذا كان فيه الوصفان ، حصلت به التغذية ، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء ، وإيصاله إليها أتم تنفيذ .

والماء البارد رطب يقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية ، ويرد عليه بدل ما تحلل منها ، ويرقق الغذاء وينفذه فى العروق .

واختلف الأطباء : هل يغذى البدن ؟ على قولين : فأثبتت طائفة التغذية به بناءً على ما يشاهدونه من النمو والزيادة والقوة فى البدن به ، ولا سيما عند شدة الحاجة إليه .

قالوا : وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة منها : النمو والاغتذاء والاعتدال ، وفى النبات قوة حس تناسبه ، ولهذا كان غذاء النبات بالماء ، فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء ، وأن يكون جزءًا من غذائه التام .

قالوا : ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه فى الطعام ، وإنما أنكرنا ألا يكون للماء تغذية البتة. قالوا:وأيضًا الطعام إنما يغذى بما فيه من المائية، ولولاها لما حصلت به التغذية .

قالوا : ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشىء ، حصلت به التغذية ، فكيف إذا كانت مادته الأصلية ، قال الله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، فكيف ننكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق ؟

قالوا : وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرى بالماء البارد ، تراجعت إليه قواه ونشاطه وحركته ، وصبر عن الطعام ، وانتفع بالقدر اليسير منه ، ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر

الكثير من الطعام ، ولا يجد به القوة والاغتذاء ، ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن ، وإلى جميع الأعضاء ، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به ، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل فى إنكار الأمور الوجدانية .

وأنكر طائفة أخرى حصول التغذية به ، واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به ، وأنه لا يقوم مقام الطعام ، وأنه لا يزيد فى نمو الأعضاء ، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية ، فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ، ولطافته ورقته ، وتغذيه كل شيء بحسبه ، وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه ،والرائحة الطيبة تغذى نوعًا من الغذاء ، فتغذية الماء أظهر وأظهر .

والمقصد : أنه إذا كان باردًا ، وخالطه ما يحليه كالعسل أو الزبيب ، أو التمر أو السكر ، كان من أنفع ما يدخل البدن ، وحفظ عليه صحته ، فلهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ البارد الحلو . والماء الفاتر ينفخ ، ويفعل ضد هذه الأشياء .

ولما كان الماء البائت أنفع من الذى يشرب وقت استقائه ، قال النبى ﷺ وقد دخل إلى حائط أبى الهيثم بن التيهان : « هل من ماء بات فى شنة ؟ » فأتاه به ، فشرب منه ، رواه البخارى ولفظه : « إن كان عندك ماء بات فى شنة وإلا كرعنا » (١) .

والماء البائت بمنزلة العجين الخمير ، والذى شرب لوقته بمنزلة الفطير ، وأيضًا فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات ، وقد ذكر أن النبى ﷺ كان يستعذب له الماء ، ويختار البائت منه . وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يستقى له الماء العذب من بئر السقيا (٢) .

والماء الذى فى القرب والشنان ، ألذ من الذى يكون فى آنية الفخار والأحجار وغيرهما ، ولا سيما أسقية الأدم ، ولهذا التمس النبى ﷺ ماء بات فى شنة دون غيرها من الأوانى ، وفى الماء إذا وضع فى الشنان ، وقرب الأدم خاصة لطيفة لما فيها من المسام المنفتحة التى يرشح منها الماء ، ولهذا كان الماء فى الفخار الذى يرشح ألذ منه ، وأبرد فى الذى لا يرشح ، فصلاة الله وسلامه على أكمل الخلق ، وأشرفهم نفسًا ، وأفضلهم هديًا فى كل شيء ، لقد دل أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم فى القلوب والأبدان ، والدنيا

---

(١) البخارى (٥٦٢٢) فى الأشربة ، باب : الكرع فى الحوض .

(٢) أبو داود (٣٧٣٥) فى الأشربة ، باب : فى إيكاء الآنية ،والحاكم فى المستدرك (٤ / ١٣٨) وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » .

والآخرة .

قالت عائشة : كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد » (١) .

وهذا يحتمل أن يريد به الماء العذب ، كمياه العيون والآبار الحلوة ، فإنه كان يستعذب له الماء ، ويحتمل أن يريد به الماء الممزوج بالعسل ، أو الذى نقع فيه التمر أو الزبيب . وقد يقال ـ وهو الأظهر : يعمهما جميعًا .

وقوله فى الحديث الصحيح : « إن كان عندك ماء بات فى شن وإلا كرعنا » ، فيه دليل على جواز الكرع ، وهو الشرب بالفم من الحوض والمقراة ونحوها ، وهذه ـ والله أعلم ـ واقعة عين دعت الحاجة فيها إلى الكرع بالفم ، أو قاله مبينًا لجوازه ، فإن من الناس من يكرهه ، والأطباء تكاد تحرمه ، ويقولون : إنه يضر بالمعدة ، وقد روى فى حديث لا أدرى ما حاله عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ نهانا أن نشرب على بطوننا ، وهو الكرع ، ونهانا أن نغترف باليد الواحدة وقال : « لا يلغ أحدكم كما يلغ الكلب ، ولا يشرب بالليل من إناء حتى يختبره إلا أن يكون مخمراً » (٢) .

وحديث البخارى أصح من هذا ، وإن صح ، فلا تعارض بينهما ، إذ لعل الشرب باليد لم يكن يمكن حينئذ ، فقال : وإلا كرعنا ، والشرب بالفم إنما يضر إذا انكب الشارب على وجهه وبطنه ، كالذى يشرب من النهر والغدير ، فأما إذا شرب منتصبًا بفمه من حوض مرتفع ونحوه ، فلا فرق بين أن يشرب بيده أو بفمه .

وكان من هديه الشرب قاعدًا ، هذا كان هديه المعتاد ، وصح عنه أنه نهى عن الشرب قائمًا ، وصح عنه أنه أمر الذى شرب قائمًا أن يستقىء ، وصح عنه أنه شرب قائمًا .

قالت طائفة : هذا ناسخ للنهى ، وقالت طائفة : بل مبين أن النهى ليس للتحريم ، بل للإرشاد وترك الأولى ، وقالت طائفة : لا تعارض بينهما أصلا ، فإنه إنما شرب قائمًا للحاجة ، فإنه جاء إلى زمزم ، وهم يستقون منها ، فاستقى فناولوه الدلو ، فشرب وهو قائم ، وهذا كان موضع حاجة .

وللشرب قائمًا آفات عديدة منها : أنه لا يحصل به الرى التام ، ولا يستقر فى المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء ، وينزل بسرعة وحدة إلى المعدة ، فيخشى منه أن يبرد

(١) أحمد (٦ / ٣٨) ، والترمذى (١٨١٦) فى الأشربة ، باب : ما جاء أن الشراب كان أحب إلى رسول الله ﷺ ، وقال : « هذا أصح من حديث ابن عيينة رحمه الله » .

(٢) ابن ماجه (٣٤٣١) فى الأشربة ، باب : الشرب بالأكف والكرع ، وفى الزوائد : « فى إسناده بقية وهو مدلس وقد عنعنه » .

حرارتها ،ويشوشها،ويسرع النفوذ إلى أسفل البدن بغير تدريج ، وكل هذا يضر بالشارب ، وأما إذا فعله نادراً أو لحاجة ، لم يضره ، ولا يعترض بالعوائد على هذا ، فإن العوائد طبائع ثوان ، ولها أحكام أخرى ، وهى بمنزلة الخارج عن القياس عند الفقهاء .

وفى « صحيح مسلم » من حديث أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله ﷺ يتنفس فى الشراب ثلاثًا ، ويقول : « إنه أروى وأمرأ وأبرأ » (١) .

الشراب فى لسان الشارع وحملة الشرع : هو الماء ، ومعنى تنفسه فى الشراب : إبانته القدح عن فيه ، وتنفسه خارجه ، ثم يعود إلى الشراب ، كما جاء مصرحًا به فى الحديث الآخر : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس فى القدح ، ولكن ليبن الإناء عن فيهِ » (٢) .

وفى هذا الشرب حكم جمة ،وفوائد مهمة ، وقد نبه ﷺ على مجامعها بقوله : « إنه أروى وأمرأ وأبرأ » فأروى : أشد ريا ، وأبلغه وأنفعه ، وأبرأ : أفعل من البرء ، وهو الشفاء ، أى يبرئ من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات ، فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه ، والثالثة ما عجزت الثانية عنه ، وأيضًا فإنه أسلم لحرارة المعدة ، وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلة واحدة ، ونهلة واحدة .

وأيضًا ، فإنه لا يروى لمصادفته لحرارة العطش لحظة ، ثم يقلع عنها ، ولما تكسر سورتها وحدتها ، وإن انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التمهل والتدريج .

وأيضًا ، فإنه أسلم عاقبة ، وآمن غائلة من تناول جميع ما يروى دفعة واحدة ، فإنه يخاف منه أن يطفئ الحرارة الغريزية بشدة برده ، وكثرة كميته ، أو يضعفها فيؤدى ذلك إلى فساد مزاج المعدة والكبد ، وإلى أمراض رديئة ، خصوصًا فى سكان البلاد الحارة ، كالحجاز واليمن ونحوهما ، أو فى الأزمنة الحارة كشدة الصيف ، فإن الشرب وهلة واحدة مخوف عليهم جدًا،فإن الحار الغريزى ضعيف فى بواطن أهلها ،وفى تلك الأزمنة الحارة .

وقوله : « وأمرأ » : هو أفعل من مرئ الطعام والشراب فى بدنه : إذا دخله ، وخالطه بسهولة ولذة ونفع . ومنه : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء : ٤] ، هنيئًا فى عاقبته ، مريئًا فى مذاقه . وقيل : معناه أنه أسرع انحداراً عن المرىء لسهولته وخفته عليه ، بخلاف الكثير ، فإنه لا يسهل على المرىء انحداره .

---

(١) مسلم (٢٠٢٨ / ١٢٣) فى الأشربة ،باب: كراهة التنفس فى نفس الإناء ،واستحباب النفس ثلاثا خارج الإناء .
(٢) الترمذى (١٨٨٨) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى كراهية النفخ فى الشرب ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٤٢٧) فى الأشربة ، باب : التنفس فى الإناء ، وأحمد (٣ / ٢٦) .

ومن آفات الشرب نهلة واحدة أنه يخاف منه الشرق بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه ، فيغص به ، فإذا تنفس روايدًا ، ثم شرب ، أمن من ذلك .

ومن فوائده : أن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخانى الحار الذى كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه ،فأخرجته الطبيعة عنها ، فإذا شرب مرة واحدة ، اتفق نزول الماء البارد ، وصعود البخار ، فيتدافعان ويتعالجان ، ومن ذلك يحدث الشرق والغصة ولا يتهنأ الشارب بالماء ، ولا يمرئه ، ولا يتم ريه ، وقد روى عبد الله بن المبارك ، والبيهقى،وغيرهما عن النبى ﷺ : « إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصًا ، ولا يعب عبًا ، فإنه من الكباد » .

والكباد ـ بضم الكاف وتخفيف الباء ـ هو وجع الكبد ، وقد علم بالتجربة أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها ، وسبب ذلك المضادة التى بين حرارتها ، وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته ، ولو ورد بالتدريج شيئًا فشيئًا ، لم يضاد حرارتها ، ولم يضعفها ، وهذا مثاله صب الماء البارد على القدر ، وهى تفور ، لا يضرها صبه قليلاً قليلاً ، وقد روى الترمذى فى « جامعه » عنه ﷺ : « لا تشربوا نفسًا واحدًا كشرب البعير ، ولكن اشربوا مثنى وثلاث ، وسموا إذا أنتم شربتم واحمدوا إذا أنتم فرغتم » (١) .

وللتسمية فى أول الطعام والشراب ، وحمد الله فى آخره تأثير عجيب فى نفعه واستمرائه ، ودفع مضرته .

قال الإمام أحمد : إذا جمع الطعام أربعًا ، فقد كمل : إذا ذكر اسم الله فى أوله ، وحمد الله فى آخره ، وكثرت عليه الأيدى ، وكان من حل .

وقد روى مسلم فى « صحيحه » : من حديث جابر بن عبد الله ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « غطوا الإناء ، وأوكوا السقاء ، فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء ، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا وقع فيه من ذلك الداء » (٢) . وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم ، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة . قال الليث بن سعد أحد رواة الحديث : الأعاجم عندنا يتقون تلك الليلة فى السنة فى كانون الأول منها .

---

(١) الترمذى (١٨٨٥) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى التنفس فى الإناء ، وقال : « غريب » .

(٢) مسلم (٢٠١٤/ ٩٩١) فى الأشربة ، باب : الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء .

وصح عنه أنه أمر بتخمير الإناء ولو أن يعرض عليه عوداً [١] وفى عرض العود عليه من الحكمة ، وأنه لا ينسى تخميره ، بل يعتاده حتى بالعود ، وفيه : أنه ربما أراد الدبيب أن يسقط فيه ، فيمر على العود ، فيكون العود جسراً له يمنعه من السقوط فيه .

وصح عنه : أنه أمر عند إيكاء الإناء بذكر اسم الله ، فإن ذكر اسم الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشيطان ، وإيكاؤه يطرد عنه الهوام ، ولذلك أمر بذكر اسم الله فى هذين الموضعين لهذين المعنيين .

وروى البخارى فى « صحيحه » من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من فى السقاء [٢] .

وفى هذا آداب عديدة :

منها : أن تردد أنفاس الشارب فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يعاف لأجلها .

ومنها : أنه ربما غلب الداخل إلى جوفه من الماء ، فتضرر به .

ومنها : أنه ربما كان فيه حيوان لا يشعر به ، فيؤذيه .

ومنها : أن الماء ربما كان فيه قذاة أو غيرها لا يراها عند الشرب ، فتلج جوفه .

ومنها : أن الشرب كذلك يملأ البطن من الهواء ، فيضيق عن أخذ حظه من الماء ، أو يزاحمه ، أو يؤذيه ، ولغير ذلك من الحكم .

فإن قيل : فما تصنعون بما فى « جامع الترمذى » : أن رسول الله ﷺ دعا بإدواة يوم أحد ، فقال : « اخنث فم الإداوة » ، ثم شرب منها من فيها [٣] ؟ قلنا نكتفى فيه بقول الترمذى : هذا حديث ليس إسناده بصحيح ، وعبد الله بن عمر العمرى يضعف من قبل حفظه ، ولا أدرى سمع من عيسى أو لا انتهى . يريد عيسى بن عبد الله الذى رواه عنه ، عن رجل من الأنصار .

وفى « سنن أبى داود » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من ثلمة القدح ، وأن ينفخ فى الشراب [٤]، وهذا من الآداب التى تتم بها

---

(١) البخارى (٥٦٢٣) فى الأشربة ، تغطية الإناء ، ومسلم (٢٠١٢/ ٩٦١) فى الأشربة ، الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء .

(٢) البخارى (٥٦٢٩) فى الأشربة ، باب : الشرب من فم السقاء .

(٣) أبو داود (٣٧٢١) فى الأشربة ، باب : اختناث الأسقية ، والترمذى (١٨٩١) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى الرخصة فى ذلك .

(٤) أبو داود (٣٧٢٢) فى الأشربة ، باب : الشرب من ثلمة القدح .

مصلحة الشارب ، فإن الشرب من ثلمة القدح فيه عدة مفاسد :

أحدها : أن ما يكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع إلى الثلمة بخلاف الجانب الصحيح .

الثانى : أنه ربما شوش على الشارب ، ولم يتمكن من حسن الشرب من الثلمة .

الثالث : أن الوسخ والزهومة تجتمع فى الثلمة ، ولا يصل إليها الغسل ، كما يصل إلى الجانب الصحيح .

الرابع : أن الثلمة محل العيب فى القدح ، وهى أردأ مكان فيه ، فينبغى تجنبه ، وقصد الجانب الصحيح ، فإن الردىء من كل شىء لا خير فيه ، ورأى بعض السلف رجلاً يشترى حاجة رديئة ، فقال : لا تفعل أما علمت أن الله نزع البركة من كل ردىء .

الخامس : أنه ربما كان فى الثلمة شق أو تحديد يجرح فم الشارب ، ولغير هذه من المفاسد .

وأما النفخ فى الشراب، فإنه يكسبه من فم النافخ رائحة كريهة يعاف لأجلها، ولاسيما إن كان متغير الفم . وبالجملة : فأنفاس النافخ تخالطه ؛ ولهذا جمع رسول الله ﷺ بين النهى عن التنفس فى الإناء والنفخ فيه فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس فى الإناء ، أو ينفخ فيه [(١)] .

فإن قيل : فما تصنعون بما فى « الصحيحين » من حديث أنس ، أن رسول الله ﷺ كان يتنفس فى الإناء ثلاثا [(٢)] قيل :نقابله بالقبول والتسليم،ولا معارضة بينه وبين الأول ، فإن معناه أنه كان يتنفس فى شربه ثلاثًا ، وذكر الإناء لأنه آلة الشرب ، وهذا كما جاء فى الحديث الصحيح :أن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مات فى الثدى [(٣)]،أى فى مدة الرضاع .

وكان ﷺ يشرب اللبن خالصًا تارة ، ومشوبًا بالماء أخرى ، وفى شرب اللبن الحلو فى تلك البلاد الحارة خالصًا ومشوبًا نفع عظيم فى حفظ الصحة ، وترطيب البدن ، ورى الكبد ، ولاسيما اللبن الذى ترعى دوابه الشيح والقيصوم ، والخزامى وما أشبهها ، فإن لبنها غذاء مع الأغذية ،وشراب مع الأشربة ، ودواء مع الأدوية . وفى « جامع الترمذى »

---

(١) الترمذى (١٨٨٨) فى الأشربة ، باب : ما جاء كراهية النفخ فى الشراب ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) البخارى (٥٦٣١) فى الأشربة ، باب : الشرب بنفسين أو ثلاثة ، ومسلم (٢٠٢٨ / ١٢٢) فى الأشربة ، باب : كراهة التنفس فى نفس الإناء .

(٣) مسلم (٢٣١٦ / ٦٣) فى الفضائل ، باب : رحمته ﷺ الصبيان والعيال .

عنه ﷺ : « إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيراً منه ، وإذا سقى لبنًا فليقل : الهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شىء يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن » . قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وثبت فى « صحيح مسلم » أنه ﷺ كان ينبذ له أول الليل ، ويشربه إذا أصبح يومه ذلك ، والليلة التى تجىء ، والغد ، والليلة الأخرى ، والغد إلى العصر ، فإن بقى منه شىء سقاه الخادم ، أو أمر به فصب (٢) وهذا النبيذ : هو ما يطرح فيه تمر يحليه ، وهو يدخل فى الغذاء والشراب ، وله نفع عظيم فى زيادة القوة ، وحفظ الصحة ، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفًا من تغيره إلى الإسكار (٣) .

فصل
فى تدبيره ﷺ لأمر الملبس بما ينفع البدن

وكان من أتم الهدى ، وأنفعه للبدن ، وأخفه عليه ، وأيسره لبسًا وخلعًا ، وكان أكثر لبسه الأردية والأزر ، وهى أخف على البدن من غيرها ، وكان يلبس القميص ، بل كان أحب الثياب إليه. وكان هديه فى لبسه لما يلبسه أنفع شىء للبدن،فإنه لم يكن يطيل أكمامه، ويوسعها ، بل كانت كم قميصه إلى الرسغ: لا يجاوز اليد ، فتشق على لابسها ، وتمنعه خفة الحركة والبطش ، ولا تقصر عن هذه ، فتبرز للحر والبرد ، وكان ذيل قميصه وإزاره إلى أنصاف الساقين لم يتجاوز الكعبين ، فيؤذى الماشى ويؤوده ، ويجعله كالمقيد ، ولم يقصر عن عضلة ساقيه ، فتنكشف ويتأذى بالحر والبرد ، ولم تكن عمامته بالكبيرة التى يؤذى الرأس حملها ، ويضعفه ويجعله عرضة للضعف والآفات ، كما يشاهد من حال أصحابها ،ولا بالصغيرة التى تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد ، بل وسطا بين ذلك ، وكان يدخلها تحت حنكه ، وفى ذلك فوائد عديدة : فإنها تقى العنق الحر والبرد ، وهو أثبت لها ، ولا سيما عند ركوب الخيل والإبل ، والكر والفر ، وكثير من الناس اتخذ الكلاليب عوضًا عن الحنك ، ويا بعد ما بينهما فى النفع والزينة ، وأنت إذا تأملت هذه اللبسة وجدتها من أنفع اللبسات وأبلغها فى حفظ صحة البدن وقوته ، وأبعدها من التكلف والمشقة على البدن .

وكان يلبس الخفاف فى السفر دائمًا ، أو أغلب أحواله لحاجة الرجلين إلى ما يقيهما

(١) الترمذى (٣٤٥٥) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا أكل طعامه ، وقال : « حسن » .
(٢) مسلم (٢٠٠٤ / ٧٩) فى الأشربة ، باب : إباحة النبيذ الذى لم يشتد .
(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٢٤ ـ ٢٣٧) .

من الحر والبرد ، وفى الحضر أحيانًا .

وكان أحب ألوان الثياب إليه البياض ، والحبرة ، وهى البرود المحبرة ، ولم يكن من هديه لبس الأحمر ، ولا الأسود ، ولا المصبغ ، ولا المصقول ، وأما الحلة الحمراء التى لبسها ،فهى الرداء اليمانى الذى فيه سواد وحمرة وبياض ، كالحلة الخضراء ، فقد لبس هذه وهذه ، وقد تقدم تقرير ذلك ، وتغليط من زعم أنه لبس الأحمر القانى بما فيه كفاية (١) .

فصل
فى تدبيره ﷺ لأمر المسكن بما ينفع البدن

لما علم ﷺ أنه على ظهر سير ، وأن الدنيا مرحلة مسافرٍ ينزل فيها مدة عمره ، ثم ينتقل عنها إلى الآخرة ، لم يكن من هديه وهدى أصحابه ، ومن تبعه الاعتناء بالمساكن وتشييدها ، وتعليتها وزخرفتها وتوسيعها ، بل كانت من أحسن منازل المسافر تقى الحر والبرد ، وتستر عن العيون ، وتمنع من ولوج الدواب ، ولا يخاف سقوطها لفرط ثقلها ، ولا تعشش فيها الهوام لسعتها ولا تعتور عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها ، وليست تحت الأرض فتؤذى ساكنها ، ولا فى غاية الارتفاع عليها ، بل وسط ، وتلك أعدل المساكن وأنفعها ، وأقلها حرًا وبردًا ، ولا تضيق عن ساكنها ، فينحصر ، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة،فتأوى الهوام فى خلوها ،ولم يكن فيها كنف تؤذى ساكنها برائحتها ، بل رائحتها من أطيب الروائح لأنه كان يحب الطيب ، ولا يزال عنده ، وريحه هو من أطيب الرائحة ، وعرقه من أطيب الطيب ، ولم يكن فى الدار كنيف تظهر رائحته ، ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوفقها للبدن ، وحفظ صحته (٢) .

فصل
فى تدبيره ﷺ لأمر النوم واليقظة بما ينفع البدن

من تدبر نومه ويقظته ﷺ ، وجده أعدل نوم ، وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى ، فإنه كان ينام أول الليل ، ويستيقظ فى أول النصف الثانى ، فيقوم ويستاك ، ويتوضأ ويصلى ما كتب الله له ، فيأخذ البدن والأعضاء والقوى حظها من النوم والراحة ، وحظها من الرياضة مع وفور الأجر ، وهذا غاية صلاح القلب والبدن ، والدنيا والآخرة .

ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه ، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٣٧ ، ٢٣٨) .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٣٨ ، ٢٣٩) .

منه ، وكان يفعله على أكمل الوجوه ، فينام إذا دعته الحاجة إلى النوم على شقه الأيمن ، ذاكرًا الله حتى تغلبه عيناه ، غير ممتلئ البدن من الطعام والشراب ، ولا مباشرٍ بجنبه الأرض ، ولا متخذٍ للفرش المرتفعة ، بل له ضجاع من أدم حشوه ليف ، وكان يضطجع على الوسادة ، ويضع يده تحت خده أحيانًا .

ونحن نذكر فصلا فى النوم والنافع منه والضار ، فنقول :

النوم حالة للبدن يتبعها غور الحرارة الغريزية والقوى إلى باطن البدن لطلب الراحة ، وهو نوعان : طبيعى وغير طبيعى ، فالطبيعى : إمساك القوى النفسانية عن أفعالها ، وهى قوى الحس والحركة الإرادية ، ومتى أمسكت هذه القوى عن تحريك البدن استرخى ، واجتمعت الرطوبات والأبخرة التى كانت تتحلل وتتفرق بالحركات واليقظة فى الدماغ الذى هو مبدأ هذه القوى ، فيتخدر ويسترخى ، وذلك النوم الطبيعى .

وأما النوم غير الطبيعى ، فيكون لعرض أو مرض ، وذلك بأن تستولى الرطوبات على الدماغ استيلاء لا تقدر اليقظة على تفريقها ، أو تصعد أبخرة رطبة كثيرة كما يكون عقيب الامتلاء من الطعام والشراب فتثقل الدماغ وترخيه ، فيتخدر ، ويقع إمساك القوى النفسانية عن أفعالها ، فيكون النوم .

وللنوم فائدتان جليلتان :

إحداهما : سكون الجوارح وراحتها مما يعرض لها من التعب ، فيريح الحواس من نصب اليقظة ، ويزيل الإعياء والكلال .

والثانية : هضم الغذاء ، ونضج الأخلاط ؛ لأن الحرارة الغريزية فى وقت النوم تغور إلى باطن البدن ، فتعين على ذلك ، ولهذا يبرد ظاهره ويحتاج النائم إلى فضل دثار .

وأنفع النوم : أن ينام على الشق الأيمن ، ليستقر الطعام بهذه الهيئة فى المعدة استقرارًا حسنًا ، فإن المعدة أميل إلى الجانب الأيسر قليلاً ، ثم يتحول إلى الشق الأيسر قليلاً ليسرع الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد ، ثم يستقر نومه على الجانب الأيمن ، ليكون الغذاء أسرع انحدارًا عن المعدة ، فيكون النوم على الجانب الأيمن بداءة نومه ونهايته ، وكثرة النوم على الجانب الأيسر مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه ، فتنصب إليه المواد .

وأردأ النوم النوم على الظهر ، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم ، وأردأ منه أن ينام منبطحًا على وجهه ، وفى « المسند » و « سنن ابن ماجه » عن أبى أمامة قال : مر النبى ﷺ على رجل نائم فى المسجد منبطح على وجهه ، فضربه برجله ، وقال : « قم

أو اقعد ، فإنها نومة جهنمية »[(١)] .

قال أبقراط فى كتاب « التقدمة » : وأما نوم المريض على بطنه من غير أن يكون عادته فى صحته جرت بذلك ، فذلك يدل على اختلاط عقل ، وعلى ألم فى نواحى البطن ، قال الشراح لكتابه: لأنه خالف العادة الجيدة إلى هيئة رديئة من غير سبب ظاهر ولا باطن .

والنوم المعتدل ممكن للقوى الطبيعية من أفعالها ، مريح للقوة النفسانية ، مكثر من جوهر حاملها ، حتى إنه ربما عاد بإرخائه مانعًا من تحلل الأرواح .

ونوم النهار ردىء يورث الأمراض الرطوبية والنوازل،ويفسد اللون، ويورث الطحال ، ويرخى العصب ، ويكسل ، ويضعف الشهوة إلا فى الصيف وقت الهاجرة ، وأردؤه نوم أول النهار ، وأردأ منه النوم آخره بعد العصر ، ورأى عبد الله بن عباس ابنًا له نائمًا نومة الصبحة ، فقال له : قم ، أتنام فى الساعة التى تقسم فيها الأرزاق ؟

وقيل : نور النهار ثلاثة : خلق ، وحرق ، وحمق ، فالخلق : نومة الهاجرة ، وهى خلق رسول الله ﷺ.والحرق : نومة الضحى ، تشغل عن أمر الدنيا والآخرة . والحمق : نومة العصر . قال بعض السلف : من نام بعد العصر ، فاختلس عقله ، فلا يلومن إلا نفسه . وقال الشاعر :

ألا أن نومات الضحى تورث الفتى خبالاً ونومات العصير جنون

ونوم الصبحة يمنع الرزق ؛ لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها ، وهو وقت قسمة الأرزاق،فنومه حرمان إلا لعارض أو ضرورة ،وهو مضر جدًا بالبدن لإرخائه البدن ، وإفساده للفضلات التى ينبغى تحليلها بالرياضة ، فيحدث تكسرًا وعيًا وضعفًا . وإن كان قبل التبرز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشىء ، فذلك الداء العضال المولد لأنواع من الأدواء .

والنوم فى الشمس يثير الداء الدفين ، ونوم الإنسان بعضه فى الشمس ، وبعضه فى الظل ردىء ، وقد روى أبو داود فى « سننه » من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان أحدكم فى الشمس فقلص عنه الظل ، فصار بعضه فى الشمس ، وبعضه فى الظل فليقم »[(٢)] .

---

(١) ابن ماجه (٣٧٢٥) فى الأدب ، باب : النهى عن الاضطجاع على الوجه ، وفى الزوائد : « الوليد بن جميل لينه أبو زرعة . . . » .

(٢) أبو داود (٤٨٢١) فى الأدب ، باب : الجلوس بين الظل والشمس .

وفى « سنن ابن ماجه » وغيره من حديث بريدة بن الحصيب ، أن رسول الله ﷺ نهى أن يقعد الرجل بين الظل والشمس [١] . وهذا تنبيه على منع النوم بينهما .

وفى « الصحيحين » عن البراء بن عازب ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ،ثم قل : اللهم إنى أسلمت نفسى إليك،ووجهت وجهى إليك ،وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك ، إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت،واجعلهن آخر كلامك، فإن مت من ليلتك، مت على الفطرة » [٢] .

وفى « صحيح البخارى » عن عائشة أن رسول الله ﷺ ، كان إذا صلى ركعتى الفجر يعنى سنتها ـ اضطجع على شقه الأيمن [٣] .

وقد قيل : إن الحكمة فى النوم على الجانب الأيمن ، ألا يستغرق النائم فى نومه ؛ لأن القلب فيه ميل إلى جهة اليسار ، فإذا نام على جنبه الأيمن ، طلب القلب مستقره من الجانب الأيسر ، وذلك يمنع من استقرار النائم واستثقاله فى نومه ، بخلاف قراره فى النوم على اليسار ، فإنه مستقره ، فيحصل بذلك الدعة التامة ، فيستغرق الإنسان فى نومه ، ويستثقل ، فيفوته مصالح دينه ودنياه .

ولما كان النائم بمنزلة الميت ، والنوم أخو الموت ـ ولهذا يستحيل على الحى الذى لا يموت ، وأهل الجنة لا ينامون فيها ـ كان النائم محتاجًا إلى من يحرس نفسه ، ويحفظها مما يعرض لها من الآفات ، ويحرس بدنه أيضًا من طوارق الآفات ، وكان ربه وفاطره تعالى هو المتولى لذلك وحده ، علم النبى ﷺ النائم أن يقول كلمات التفويض والالتجاء ، والرغبة والرهبة ، ليستدعى بها كمال حفظ الله له ، حراسته لنفسه وبدنه ، وأرشده مع ذلك إلى أن يستذكر الإيمان ، وينام عليه ، ويجعل التكلم به آخر كلامه ، فإنه ربما توفاه الله فى منامه ، فإذا كان الإيمان آخر كلامه دخل الجنة ، فتضمن هذا الهدى فى المنام مصالح القلب والبدن والروح فى النوم واليقظة ، والدنيا والآخرة ، فصلوات الله وسلامه على من نالت به أمته كل خير .

وقوله : « أسلمت نفسى إليك » ، أى : جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه

---

(١) ابن ماجه (٣٧٢٢) فى الأدب ، باب : الجلوس بين الظل والشمس ، وفى الزوائد : « إسناد حديث ابن بريدة حسن » .

(٢) البخارى (٦٣١١) فى الدعوات ، باب : إذا بات طاهرًا ، ومسلم (٢٧١٠ / ٥٦) فى الذكر والدعاء والتوبة ، والاستغفار ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

(٣) البخارى (١١٦٠) فى التهجد ، باب : الضجعة على الشق الأيمن بعد ركعتى الفجر .

إلى سيده ومالكه ، وتوجيه وجهه إليه يتضمن إقباله بالكلية على ربه ، وإخلاص القصد والإرادة له ، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد ، قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾ [آل عمران : ٢٠] . وذكر الوجه إذ هو أشرف ما فى الإنسان ، ومجمع الحواس ، وأيضًا ففيه معنى التوجه والقصد من قوله :

أستغفر الله ذنبًا لست محصيه   رب العباد إليه الوجه والعمل

وتفويض الأمر إليه رده إلى الله ـ سبحانه ـ وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته ، والرضى بما يقضيه ويختاره له مما يحبه ويرضاه ، والتفويض من أشرف مقامات العبودية ، ولا علة فيه ، وهو من مقامات الخاصة خلافًا لزاعمى خلاف ذلك .

وإلجاء الظهر إليه سبحانه يتضمن قوة الاعتماد عليه ، والثقة به ، والسكون إليه ، والتوكل عليه ، فإن من أسند ظهره إلى ركن وثيق ، لم يخف السقوط .

ولما كان للقلب قوتان : قوة الطلب ، وهى الرغبة ، وقوة الهرب ، وهى الرهبة ، وكان العبد طالبًا لمصالحه ، هاربًا من مضاره ، جمع الأمرين فى هذا التفويض والتوجه ، فقال : رغبة ورهبة إليك ، ثم أثنى على ربه ، لأنه لا ملجأ للعبد سواه ، ولا منجا له منه غيره ، فهو الذى يلجأ إليه العبد لينجيه من نفسه ، كما فى الحديث الآخر : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » (١) ، فهو ـ سبحانه ـ الذى يعيد عبده وينجيه من بأسه الذى هو بمشيئته وقدرته ، فمنه البلاء ، ومنه الإعانة ، ومنه ما يطلب النجاة منه ، وإليه الالتجاء فى النجاة ، فهو الذى يلجأ إليه فى أن ينجى مما منه ، ويستعاذ به مما منه ، فهو رب كل شىء ، ولا يكون شىء إلا بمشيئته : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام : ١٧] ، ﴿ **قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً** ﴾ [الأحزاب : ١٧] ، ثم ختم الدعاء بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله الذى هو ملاك النجاة ، والفوز فى الدنيا والآخرة ، فهذا هديه فى نومه .

لو لم يقل إنى رسول لكا   ن شاهد فى هديه ينطق

وأما هديه فى يقظته ، فكان يستيقظ إذا صاح الصاروخ وهو الديك ، فيحمد الله تعالى ويكبره ، ويهلله ويدعوه ، ثم يستاك ، ثم يقوم إلى وضوئه ، ثم يقف للصلاة بين يدى ربه مناجيًا له بكلامه ، مثنيًا عليه ، راجيًا له ، راغبًا راهبًا ، فأى حفظٍ لصحة القلب والبدن ، والروح والقوى ، ولنعيم الدنيا والآخرة فوق هذا (٢) .

---

(١) مسلم (٤٨٦ / ٢٢٢) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٣٩ ـ ٢٤٦) .

فصل
فى تدبيره ﷺ لأمر الحركة والسكون بما ينفع البدن

وأما تدبير الحركة والسكون ، وهو الرياضة ، فنذكر منها فصلاً يعلم منه مطابقة هديه فى ذلك لأكمل أنواعه وأحمدها وأصوبها ، فنقول :

من المعلوم افتقار البدن فى بقائه إلى الغذاء والشراب ، ولا يصير الغذاء بجملته جزءًا من البدن ، بل لا بد أن يبقى منه عند كل هضم بقية ما ، إذا كثرت على ممر الزمان اجتمع منها شيء له كمية وكيفية،فيضر بكميته بأن يسد ويثقل البدن ،ويوجب أمراض الاحتباس ، وإن استفرغ تأذى البدن بالأدوية ؛ لأن أكثرها سمية ، ولا تخلو من إخراج الصالح المنتفع به ، ويضر بكيفيته ، بأن يسخن بنفسه ، أو بالعفن ، أو يبرد بنفسه ، أو يضعف الحرارة الغريزية عن إنضاجه .

وسدد الفضلات لا محالة ضارة تركت ، أو استفرغت ، والحركة أقوى الأسباب فى منع تولدها ، فإنها تسخن الأعضاء ، وتسيل فضلاتها ، فلا تجتمع على طول الزمان ، وتعود البدن الخفة والنشاط ، وتجعله قابلاً للغذاء ، وتصلب المفاصل ، وتقوى الأوتار والرباطات ، وتؤمن جميع الأمراض المادية وأكثر الأمراض المزاجية إذا استعمل القدر المعتدل منها فى وقته ، وكان باقى التدبير صوابًا .

ووقت الرياضة بعد انحدار الغذاء ، وكمال الهضم ، والرياضة المعتدلة هى التى تحمر فيها البشرة ، وتربو ويتندى بها البدن، وأما التى يلزمها سيلان العرق فمفرطة ، وأى عضو كثرت رياضته قوى ، وخصوصًا على نوع تلك الرياضة ، بل كل قوة فهذا شأنها ، فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته ، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة ، ولكل عضو رياضة تخصه ، فللصدر القراءة ، فليبتدئ فيها من الخفية إلى الجهر بتدريج . ورياضة السمع بسمع الأصوات ، والكلام بالتدريج ، فينتقل من الأخف إلى الأثقل ، وكذلك رياضة اللسان فى الكلام ، وكذلك رياضة البصر ، وكذلك رياضة المشى بالتدريج شيئًا فشيئًا .

وأما ركوب الخيل ، ورمى النشاب ، والصراع ، والمسابقة على الأقدام ، فرياضة للبدن كله ، وهى قالعة لأمراض مزمنة ، كالجذام والاستسقاء ، والقولنج .

ورياضة النفوس بالتعلم والتأدب ، والفرح والسرور ، والصبر ، والثبات ، والإقدام

والسماحة ، وفعل الخير ، ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس ، ومن أعظم رياضتها : الصبر والحب ، والشجاعة والإحسان ، فلا تزال ترتاض بذلك شيئًا فشيئًا حتى تصير لها هذه الصفات هيئات راسخة ، وملكات ثابتة .

وأنت إذا تأملت هديه ﷺ ، فى ذلك ، وجدته أكمل هدى حافظ للصحة والقوى ، ونافع فى المعاش والمعاد .

ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن ، وإذابة أخلاطه وفضلاته ما هو من أنفع شىء له سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة ، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة ، ومن أنشط شىء للبدن والروح والقلب ، كما فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ ، أنه قال: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل ، فارقد ، فإن هو استيقظ ، فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ ، انحلت عقدة ثانية ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (١) .

وفى الصوم الشرعى من أسباب حفظ الصحة ورياضة البدن والنفس ما لا يدفعه صحيح الفطرة .

وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية التى هى من أعظم أسباب القوة ، وحفظ الصحة ، وصلابة القلب والبدن، ودفع فضلاتهما ، وزوال الهم والغم والحزن ، فأمر إنما يعرفه من له منه نصيب ، وكذلك الحج ، وفعل المناسك ، وكذلك المسابقة على الخيل ، وبالنصال ، والمشى فى الحوائج ، وإلى الإخوان ، وقضاء حقوقهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ،والمشى إلى المساجد للجمعات والجماعات ، وحركة الوضوء والاغتسال ، وغير ذلك .

وهذا أقل ما فيه الرياضة المعينة على حفظ الصحة ، ودفع الفضلات . وأما ما شرع له من التوصل به إلى خيرات الدنيا والآخرة ، ودفع شرورهما ، فأمر وراء ذلك .

فعلمت أن هديه فوق كل هدى فى طب الأبدان والقلوب ، وحفظ صحتهما ، ودفع أسقامهما ، ولا مزيد على ذلك لمن قد أحضر رشده ، وبالله التوفيق (٢) .

---

(١) البخارى (١١٤٢) فى التهجد ، باب : عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ، ومسلم (٧٧٦ / ٢٠٧) فى صلاة المسافرين ، باب : ما روى فى من نام الليل أجمع حتى أصبح .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٤٦ ـ ٢٤٨) .

فصل
فى هديه ﷺ لأمر الجماع بما ينفع البدن

وأما الجماع والباه ، فكان هديه فيه أكمل هدى ، يحفظ به الصحة وتتم به اللذة وسرور النفس ، ويحصل به مقاصده التى وضع لأجلها ، فإن الجماع وضع فى الأصل لثلاثة أمور هى مقاصده الأصلية :

أحدها : حفظ النسل ، ودوام النوع إلى أن تتكامل العدة التى قدر الله بروزها إلى هذا العالم .

الثانى : إخراج الماء الذى يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن .

الثالث : قضاء الوطر ، ونيل اللذة ، والتمتع بالنعمة ، وهذه وحدها هى الفائدة التى فى الجنة ، إذ لا تناسل هناك ، ولا احتقان يستفرغه الإنزال .

وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة . قال جالينوس : الغالب على جوهر المنى النار والهواء ، ومزاجه حار رطب ؛ لأن كونه من الدم الصافى الذى تغتذى به الأعضاء الأصلية ، وإذا ثبت فضل المنى ، فاعلم أنه لا ينبغى إخراجه إلا فى طلب النسل ، أو إخراج المحتقن منه ، فإنه إذا دام احتقانه ، أحدث أمراضًا رديئة ، منها : الوسواس ، والجنون ، والصرع ، وغير ذلك ، وقد يبرئ استعماله من هذه الأمراض كثيرًا ، فإنه إذا طال احتباسه ، فسد واستحال إلى كيفية سمية توجب أمراضًا رديئة ؛ ولذلك تدفعه الطبيعة بالاحتلام إذا كثر عندها من غير جماع .

وقال بعض السلف : ينبغى للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثًا : ألا يدع المشى ، فإن احتاج إليه يومًا قدر عليه ، وينبغى ألا يدع الأكل ، فإن أمعاءه تضيق ، وينبغى ألا يدع الجماع ، فإن البئر إذا لم تنزح ، ذهب ماؤها . وقال محمد بن زكريا : من ترك الجماع مدة طويلة ، ضعفت قوى أعصابه ، وانسدت مجاريها ، وتقلص ذكره . قال : ورأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف ، فبردت أبدانهم ، وعسرت حركاتهم ، ووقعت عليهم كآبة بلا سبب ، وقلت شهواتهم وهضمهم ، انتهى .

ومن منافعه : غض البصر ، وكف النفس ، والقدرة على العفة عن الحرام ، وتحصيل ذلك للمرأة ، فهو ينفع نفسه فى دنياه وأخراه ، وينفع المرأة ، ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويحبه ، ويقول : « حبب إلى من دنياكم : النساء والطيب » (١) .

---

(١) النسائى (٣٩٣٩) فى عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وأحمد (٣ / ١٢٨) .

وفى كتاب « الزهد » للإمام أحمد فى هذا الحديث زيادة لطيفة ، وهى : « أصبر عن الطعام والشراب ، ولا أصبر عنهن » .

وحث على التزويج أمته فقال : « تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم » (١) .

وقال ابن عباس : خير هذه الأمة أكثرها نساء .

وقال : « إنى أتزوج النساء ، وأنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٢) .

وقال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » (٣) .

ولما تزوج جابر ثيبًا قال له : « هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك » (٤) .

وروى ابن ماجه فى « سننه » : من حديث أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن يلقى الله طاهرًا مطهرًا ، فليتزوج الحرائر » (٥) .

وفى « سننه » أيضًا من حديث ابن عباس يرفعه ، قال : « لم نر للمتحابين مثل النكاح » (٦) .

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » (٧) .

وكان ﷺ يحرض أمته على نكاح الأبكار الحسان ، وذوات الدين ، وفى « سنن النسائى » عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى النساء خير ؟ قال : « التى تسره

---

(١) أبو داود (٢٠٥٠) فى النكاح ، باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء ، والنسائى (٣٢٢٧) فى النكاح ، باب : كراهية تزويج العقيم .

(٢) البخارى (٥٠٦٣) فى النكاح ، باب : الترغيب فى النكاح ، ومسلم (١٤٠١ / ٥) فى النكاح ، باب : استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه .

(٣) البخارى (٥٠٦٥) فى النكاح ، باب : قول النبى ﷺ من استطاع الباءة فليتزوج ، ومسلم (١٤٠٠ / ١) فى النكاح ، باب : استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة .

(٤) البخارى (٥٠٧٩) فى النكاح ، باب : تزويج الثيبات ، ومسلم (٧١٥ / ١١٠) فى المساقاة ، باب : بيع البعير واستثناء ركوبه .

(٥) ابن ماجه (١٨٦٢) فى النكاح ، باب: تزويج الحرائر والولود ،وفى الزوائد :« إسناده ضعيف ؛ لضعف كثير بن سليم ، وسلام هو ابن سليمان بن ثوار ، وقال ابن عدى : عنده مناكير ، وقال العقيلى: فى حديثه مناكير » .

(٦) ابن ماجه (١٨٤٧) فى النكاح ،باب:ما جاء فى فضل النكاح ، وفى الزوائد: « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) مسلم (١٤٦٧ / ٦٤) فى الرضاع ، باب : خير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فيما يكره فى نفسها وماله » [١] .

وفى « الصحيحين » عنه ، عن النبى ﷺ قال : « تنكح المرأة لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين ، تربت يداك » [٢] .

وكان يحث على نكاح الولود ، ويكره المرأة التى لا تلد ، كما فى « سنن أبى داود » عن معقل بن يسار ، أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : « لا » ، ثم أتاه الثانية : ، فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم » [٣] .

وفى الترمذى عنه مرفوعًا : « أربع من سنن المرسلين : النكاح ، والسواك والتعطر ، والحناء » [٤] روى فى « الجامع » بالنون والياء [٥] . وسمعت أبا الحجاج الحافظ يقول : الصواب : أنه الختان ، وسقطت النون من الحاشية ، وكذلك رواه المحاملى عن شيخ أبى عيسى الترمذى .

ومما ينبغى تقديمه على الجماع ملاعبة المرأة ، وتقبيلها ، ومص لسانها ، وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله ، ويقبلها .

وروى أبو داود فى « سننه » أنه ﷺ كان يقبل عائشة ، ويمص لسانها [٦] .

ويذكر عن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة .

وكان ﷺ ربما جامع نساءه كلهن بغسل واحد ، وربما اغتسل عند كل واحدة منهن ، فروى مسلم فى « صحيحه » عن أنس ، أن النبى ﷺ ، كان يطوف على نسائه بغسل واحد [٧] .

وروى أبو داود فى « سننه » عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه فى ليلة ، فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلاً ، فقلت : يا رسول الله ، لو اغتسلت غسلاً واحدًا ، فقال : « هذا أزكى وأطهر وأطيب » [٨] .

---

(١) النسائى (٣٢٣١) فى النكاح ، باب : أى النساء خير .

(٢) البخارى (٥٠٩٠) فى النكاح ، باب : الأكفاء فى الدين ، ومسلم (١٤٦٦ / ٥٣) فى الرضاع ، باب : استحباب نكاح ذات الدين .

(٣) أبو داود (٢٠٥٠) فى النكاح ،باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء .

(٤) الترمذى (١٠٨٠) فى النكاح ،باب : ما جاء فى فضل التزويج والحث عليه ، وقال : « حسن غريب » .

(٥) أحمد (٥ / ٤٢١) .

(٦) أبو داود (٢٣٨٦) فى الصوم ، باب الصائم يبلع الريق .

(٧) مسلم (٣٠٩ / ٢٨) فى الحيض ، باب : جواز نوم الجنب .

(٨) أبو داود (٢١٩) فى الطهارة ، باب : الوضوء لمن أراد أن يعود .

وشرع للمجامع إذا أراد العود قبل الغسل الوضوء بين الجماعين ، كما روى مسلم فى « صحيحه » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتى أحدكم أهله ، ثم أراد أن يعود فليتوضأ » (١) .

وفى الغسل والوضوء بعد الوطء من النشاط ، وطيب النفس ، وإخلاف بعض ما تحلل بالجماع ، وكمال الطهر والنظافة ، واجتماع الحار الغريزى إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع ، وحصول النظافة التى يحبها الله ، ويبغض خلافها ما هو من أحسن التدبير فى الجماع ، وحفظ الصحة والقوى فيه .

وأنفع الجماع : ما حصل بعد الهضم ، وعند اعتدال البدن فى حره وبرده ، ويبوسته ورطوبته ، وخلائه وامتلائه . وضرره عند امتلاء البدن أسهل وأقل من ضرره عند خلوه ، وكذلك ضرره عند كثرة الرطوبة أقل منه عند اليبوسة ، وعند حرارته أقل منه عند برودته ، وإنما ينبغى أن يجامع إذا اشتدت الشهوة ، وحصل الانتشار التام الذى ليس عن تكلف ولا فكر فى صورة ، ولا نظر متتابع ، ولا ينبغى أن يستدعى شهوة الجماع ويتكلفها ، ويحمل نفسه عليها ، وليبادر إليه إذا هاجت به كثرة المنى ، واشتد شبقه ، وليحذر جماع العجوز والصغيرة التى لا يوطأ مثلها،والتى لا شهوة لها ،والمريضة ، والقبيحة المنظر ، والبغيضة ، فوطء هؤلاء يوهن القوى ، ويضعف الجماع بالخاصية ، وغلط من قال من الأطباء : إن جماع الثيب أنفع من جماع البكر ، وأحفظ للصحة ، وهذا من القياس الفاسد ، حتى ربما حذر منه بعضهم ، وهو مخالف لما عليه عقلاء الناس ، ولما اتفقت عليه الطبيعة والشريعة.

وفى جماع البكر من الخاصية وكمال التعلق بينها وبين مجامعها ، وامتلاء قلبها من محبته،وعدم تقسيم هواها بينه وبين غيره،ما ليس للثيب. وقد قال النبى ﷺ لجابر : « هلا تزوجت بكرًا » (٢) ،وقد جعل الله ـ سبحانه ـ من كمال نساء أهل الجنة من الحور العين، أنهن لم يطمثهن أحد قبل من جعلن له من أهل الجنة ، وقالت عائشة للنبى ﷺ : أرأيت لو مررت بشجرة قد أرتع فيها ،وشجرة لم يرتع فيها ، ففى أيهما كنت ترتع بعيرك ؟ قال : « فى التى لم يرتع فيها » (٣) ، تريد أنه لم يأخذ بكرًا غيرها .

وجماع المرأة المحبوبة فى النفس يقل إضعافه للبدن مع كثرة استفراغه للمنى ، وجماع البغيضة يحل البدن ،ويوهن القوى مع قلة استفراغه ،وجماع الحائض حرام طبعًا وشرعًا ،

(١) مسلم (٣٠٨ / ٢٧) فى الحيض ، باب : جواز نوم الجنب .
(٢) سبق تخريجه ص ١٤٨ .
(٣) البخارى (٥٠٧٧) فى النكاح ،باب : نكاح الأبكار .

فإنه مضر جدًا ، والأطباء قاطبة تحذر منه .

وأحسن أشكال الجماع أن يعلو الرجل المرأة ، مستفرشًا لها بعد الملاعبة والقبلة ، وبهذا سميت المرأة فراشًا ، كما قال ﷺ : « الولد للفراش » [1] ، وهذا من تمام قوامية الرجل على المرأة ، كما قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣٤] ، وكما قيل :

إذا رمتها كانت فراشًا يقلنى وعند فراغى خاد يتملق

وقد قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، وأكمل اللباس وأسبغه على هذه الحال ، فإن فراش الرجل لباس له ، وكذلك لحاف المرأة لباس لها ، فهذا الشكل الفاضل مأخوذ من هذ الآية ، وبه يحسن موقع استعارة اللباس من كل من الزوجين للآخر . وفيه وجه آخر ، وهو أنها تنعطف عليه أحيانًا ، فتكون عليه كاللباس ، قال الشاعر :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تثنت فكانت عليه لباسا

وأردأ أشكاله أن تعلوه المرأة ، ويجامعها على ظهره ، وهو خلاف الشكل الطبيعى الذى طبع الله عليه الرجل والمرأة ، بل نوع الذكر والأنثى .

وفيه من المفاسد ، أن المنى يتعسر خروجه كله ، فربما بقى فى العضو منه فيتعفن ويفسد ، فيضر ،وأيضًا : فربما سال إلى الذكر رطوبات من الفرج . وأيضًا ، فإن الرحم لا يتمكن من الاشتمال على الماء واجتماعه فيه ، وانضمامه عليه لتخليق الولد . وأيضًا ، فإن المرأة مفعول بها طبعًا وشرعًا ، وإذا كانت فاعلة خالفت مقتضى الطبع والشرع ، وكان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف ، ويقولون : هو أيسر للمرأة .

وكانت قريش والأنصار تشرح النساء على أقفائهن ، فعابت اليهود عليهم ذلك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[2] [البقرة : ٢٢٣] .

وفى « الصحيحين » عن جابر ، قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها فى قبلها ، كان الولد أحول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ . وفى لفظ لمسلم : « إن شاء مجبية ، وإن شاء غير مجبية ، غير أن

---

(١) البخارى (٢٧٤٥) فى الوصايا ، باب: قول الموصى لوصيه : تعاهد ولدى ، ومسلم (١٤٥٧/٣٦) فى الرضاع ، باب : الولد للفراش وتوقى الشبهات .

(٢) أبو داود (٢١٦٤) فى النكاح ، باب فى جامع النكاح .

ذلك فى صمام واحد » (١).

والمجبية :المنكبة على وجهها ، والصمام الواحد: الفرج، وهو موضع الحرث والولد.

وأما الدبر : فلم يبح قط على لسان نبى من الأنبياء ، ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة فى دبرها،فقد غلط عليه ،وفى « سنن أبى داود » عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ملعون من أتى المرأة فى دبرها » (٢) .

وفى لفظ لأحمد وابن ماجه : « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها » (٣).

وفى لفظ للترمذى وأحمد : « من أتى حائضًا أو امرأة فى دبرها أو كاهنا ، فصدقه ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » (٤) .

وفى لفظ للبيهقى : « من أتى شيئًا من الرجال والنساء فى الأدبار فقد كفر » .

وفى « مصنف وكيع » : حدثنى زمعة بن صالح ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن يزيد ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يستحيى من الحق ،لا تأتوا النساء فى أعجازهن » وقال مرة : « فى أدبارهن » (٥) .

وفى الترمذى : عن على بن طلق ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تأتوا النساء فى أعجازهن ، فإن الله لا يستحيى من الحق » (٦) .

وفى « الكامل » لابن عدى :من حديثه عن المحاملى ، عن سعيد بن يحيى الأموى ، قال : حدثنا محمد بن حمزة ، عن زيد بن رفيع ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود يرفعه : « لا تأتوا النساء فى أعجازهن » (٧) .

---

(١) البخارى (٤٥٢٨) فى التفسير ، باب : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ ، ومسلم (١٤٣٥ / ١١٧) فى النكاح ، باب : جواز جماعه امرأته فى قبلها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر .

(٢) أبو داود (٢١٦٢) فى النكاح ، باب : فى جامع النكاح .

(٣) ابن ماجه (١٩٢٣) فى النكاح ، باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهن ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ؛ لأن الحارث بن مخلد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وباقى رجال الإسناد ثقات . قال السندى : والحديث قد رواه أبو داود والترمذى بلفظ قريب من هذا » ، وأحمد ٢ / ٢٧٢ .

(٤) الترمذى (١٣٥) فى الطهارة ،باب:ما جاء فى كراهية إتيان الحائض،وقال الشيخ أحمد شاكر:«حديث صحيح» .

(٥) الحديث ذكره الهيثمى فى المجمع (٤ / ٣٠١) وقال : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الكبير والبزار ورجال أبى يعلى رجال الصحيح ، خلا يعلى بن اليمان وهو ثقة » .

(٦) الترمذى (١١٦٤) فى الرضاع ، باب : ما جاء فى كراهية إتيان النساء فى أدبارهن ، وقال : « حسن » ، والنسائى فى الكبرى (٩٠٢٣) فى عشرة النساء ،باب:ذكر حديث على بن طلق والحديث عن على بن طلق .

(٧) الكامل فى الضعفاء لابن عدى (٣ / ٢٠٦) .

وروينا فى حديث الحسن بن على الجوهرى ، عن أبى ذر مرفوعًا : « من أتى الرجال أو النساء فى أدبارهن ، فقد كفر » .

وروى إسماعيل بن عياش ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر يرفعه : « استحيوا من الله ، فإن الله لا يستحيى من الحق ، لا تأتوا النساء فى حشوشهن » . ورواه الدارقطنى من هذه الطريق ولفظه : إن الله لا يستحيى من الحق ، لا يحل مأتاك النساء فى حشوشهن » (١) .

وقال البغوى : حدثنا هدبة ، حدثنا همام ، قال : سئل قتادة عن الذى يأتى امرأته فى دبرها ؟ فقال : حدثنى عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ قال : « تلك اللوطية الصغرى » (٢) .

وقال أحمد فى « مسنده » : حدثنا عبد الرحمن ، قال : حدثنا همام ، أخبرنا عن قتادة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، فذكره (٣) .

وفى « المسند » أيضًا عن ابن عباس ، أنزلت هذه الآية : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ** ﴾ فى أناس من الأنصار ، أتوا رسول الله ﷺ فسألوه ، فقال : « ائتها على كل حال إذا كان فى الفرج » (٤) .

وفى « المسند » أيضًا عن ابن عباس ،قال :جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هلكت ، فقال : « وما الذى أهلكك ؟ » قال : حولت رحلى البارحة ، قال : فلم يرد عليه شيئًا ، فأوحى الله إلى رسوله : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ** ﴾ أقبل وأدبر ، واتق الحيضة والدبر » (٥) .

وفى الترمذى : عن ابن عباس مرفوعًا : « لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة فى الدبر » (٦) .

وروينا من حديث أبى على الحسن بن الحسين بن دوما ، عن البراء بن عازب يرفعه : « كفر بالله العظيم عشرة من هذه الأمة : القاتل ، والساحر ، والديوث ، وناكح المرأة فى دبرها ، ومانع الزكاة ، ومن وجد سعة فمات ولم يحج ، وشارب الخمر ، والساعى فى

---

(١) الدارقطنى (٣ / ٢٨٨) (١٦٠) .
(٢) شرح معانى الآثار (٣ / ٤٤) .
(٣) أحمد (٢ / ١٨٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٠٦) : « إسناده صحيح » .
(٤) أحمد (١ / ٢٩٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢٤١٤) : « إسناده ضعيف » .
(٥) أحمد (١ / ٢٩٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢٧٠٣) : « إسناده صحيح » .
(٦) الترمذى (١١٦٥) فى الرضاع ، باب : ما جاء فى كراهية إتيان النساء فى أدبارهن ، وقال : « حسن غريب».

الفتن ، وبائع السلاح من أهل الحرب ، ومن نكح ذات محرم منه » (١) .

وقال عبد الله بن وهب : حدثنا عبد الله بن لهيعة عن مشرح بن هاعان ، عن عقبة ابن عامر ، أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من يأتى النساء فى محاشهن - يعنى : أدبارهن » (٢) .

وفى « مسند الحارث بن أبى أسامة » من حديث أبى هريرة وابن عباس ،قالا : خطبنا رسول الله ﷺ قبل وفاته ، وهى آخر خطبة خطبها بالمدينة حتى لحق بالله عز وجل ، وعظنا فيها وقال : « من نكح امرأة فى دبرها أو رجلا أو صبيًا ، حشر يوم القيامة ، وريحه أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخل النار ، وأحبط الله أجره ، ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلاً ، ويدخل فى تابوت من نار ، ويشد عليه مسامير من نار » قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب .

وذكر أبو نعيم الأصبهانى ، من حديث خزيمة بن ثابت يرفعه : « إن الله لا يستحيى من الحق ، لا تأتوا النساء فى أعجازهن » (٣) .

وقال الشافعى : أخبرنى عمى محمد بن على بن شافع ، قال : أخبرنى عبد الله بن على بن السائب ، عن عمرو بن أحيحة بن الجلاح ، عن خزيمة بن ثابت ، أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن إتيان النساء فى أدبارهن ، فقال : « حلال » ، فلما ولى ،دعاه فقال:« كيف قلت ، فى أى الخربتين أو فى أى الخرزتين ، أو فى أى الخصفتين أمن دبرها فى قبلها ؟ فنعم . أم من دبرها فى دبرها ، فلا ، إن الله لا يستحيى من الحق ، لا تأتوا النساء فى أدبارهن » (٤) .

قال الربيع : فقيل للشافعى : فما تقول ؟ فقال : عمى ثقة، وعبد الله بن على ثقة ، وقد أثنى على الأنصارى خيرًا ، يعنى عمرو بن الجلاح ، وخزيمة ممن لا يشك فى ثقته ، فلست أرخص فيه ، بل أنهى عنه .

قلت : ومن هاهنا نشأ الغلط على من نقل عنه الإباحة من السلف والأئمة ، فإنهم أباحوا أن يكون الدبر طريقًا إلى الوطء فى الفرج ، فيطأ من الدبر لا فى الدبر ، فاشتبه على السامع « من » بـ « فى » ولم يظن بينهما فرقًا ، فهذا الذى أباحه السلف والأئمة ، فغلط عليهم الغالط أقبح الغلط وأفحشه .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى (٦٢٦٣) ، وعزاه لابن عساكر ، وقال : « ضعيف » .

(٢) الكامل فى الضعفاء لابن عدى (٤/١٤٨) .

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٣٧٦) ، وقال : « غريب من حديث طاوس » .

(٤) ترتيب مسند الشافعى (٢ / ٢٩) (٩٠) فى النكاح ، باب : فى ما يتعلق بعشرة النساء .

وقد قال تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] قال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فقال : تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها يعنى فى الحيض . وقال على بن أبى طلحة عنه ، يقول : فى الفرج ، ولا تعده إلى غيره .

وقد دلت الآية على تحريم الوطء فى دبرها من وجهين : أحدهما : أنه أباح إتيانها فى الحرث ، وهو موضع الولد لا فى الحش الذى هو موضع الأذى ، وموضع الحرث هو المراد من قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية قال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] وإتيانها فى قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضًا؛ لأنه قال : ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أى: من أين شئتم من أمام أو من خلف . قال ابن عباس : فأتوا حرثكم ، يعنى: الفرج .

وإذا كان الله حرم الوطء فى الفرج لأجل الأذى العارض ، فما الظن بالحش الذى هو محل الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل والذريعة القريبة جدًا من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان .

وأيضًا ، فللمرأة حق على الزوج فى الوطء ، ووطؤها فى دبرها يفوت حقها ، ولا يقضى وطرها ، ولا يحصل مقصودها .

وأيضًا ،فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل ، ولم يخلق له ، وإنما الذى هيئ له الفرج ، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعًا .

وأيضًا ،فإن ذلك مضر بالرجل،ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم ، لأن للفرج خاصية فى اجتذاب الماء المحتقن وراحة الرجل منه ، والوطء فى الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء ، ولا يخرج كل المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعى.

وأيضًا ، يضر من وجه آخر ، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جدًا لمخالفته للطبيعة .

وأيضًا ، فإنه محل القذر والنجو ، فيستقبله الرجل بوجهه ، ويلابسه .

وأيضًا ، فإنه يضر بالمرأة جدًا ، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع ، منافر لها غاية المنافرة .

وأيضًا ، فإنه يحدث الهم والغم ، والنفرة عن الفاعل والمفعول .

وأيضًا ، فإنه يسود الوجه ، ويظلم الصدر ، ويطمس نور القلب ،ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسيماء يعرفها من له أدنى فراسة .

وأيضًا ، فإنه يوجب النفرة والتباغض الشديد ، والتقاطع بين الفاعل والمفعول ، ولابد .

وأيضًا ، فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فسادًا لا يكاد يرجى بعده صلاح ، إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح .

وأيضًا ، فإنه يذهب بالمحاسن منهما ، ويكسوهما ضدها ، كما يذهب بالمودة بينهما ، ويبدلهما بها تباغضًا وتلاعنًا .

وأيضًا ، فإنه من أكبر أسباب زوال النعم ، وحلول النقم ، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله ، وإعراضه عن فاعله ، وعدم نظره إليه ، فأى خير يرجوه بعد هذا ، وأى شر يأمنه ، وكيف حياة عبد قد حلت عليه لعنة الله ومقته ، وأعرض عنه بوجهه ، ولم ينظر إليه .

وأيضًا ، فإنه يذهب بالحياء جملة ، والحياء هو حياة القلوب ، فإذا فقدها القلب ، استحسن القبيح ، واستقبح الحسن ، وحينئذ فقد استحكم فساده .

وأيضًا ، فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله ، ويخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يركب الله عليه شيئًا من الحيوان،بل هو طبع منكوس ، وإذا نكس الطبع انتكس القلب ، والعمل ، والهدى ، فيستطيب حينئذ الخبيث من الأعمال والهيئات ، ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره .

وأيضًا ، فإنه يورث من الوقاحة والجرأة مالا يورثه سواه .

وأيضًا ، فإنه يورث من المهانة والسفال والحقارة ما لا يورثه غيره .

وأيضًا : فإنه يكسو العبد من حلة المقت والبغضاء ، وازدراء الناس له ، واحتقارهم إياه ، واستصغارهم له ما هو مشاهد بالحس ، فصلاة الله وسلامه على من سعادة الدنيا والآخرة فى هديه واتباع ما جاء به ، وهلاك الدنيا والآخرة فى مخالفة هديه وما جاء به .

والجماع الضار : نوعان ؛ ضار شرعًا ، وضار طبعًا ، فالضار شرعًا : المحرم ، وهو مراتب بعضها أشد من بعض . والتحريم العارض منه أخف من اللازم ، كتحريم الإحرام ، والصيام ، والاعتكاف ، وتحريم المظاهر منها قبل التكفير ، وتحريم وطء الحائض ونحو ذلك ، ولهذا لا حد فى هذا الجماع .

وأما اللازم : فنوعان ، نوع لا سبيل إلى حله البتة ، كذوات المحارم ، فهذا من أضر الجماع ،وهو يوجب القتل حدًا عند طائفة من العلماء،كأحمد بن حنبل رحمه الله وغيره ،

وفيه حديث مرفوع ثابت (١) .

والثانى : ما يمكن أن يكون حلالاً ، كالأجنبية ، فإن كانت ذات زوج ، ففى وطئها حقان ، حق لله ، وحق للزوج ، فإن كانت مكرهة ، ففيه ثلاثة حقوق ، وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العار بذلك صار فيه أربعة حقوق ، فإن كانت ذات محرم منه ، صار فيه خمسة حقوق ، فمضرة هذا النوع بحسب درجاته فى التحريم .

وأما الضار طبعًا : فنوعان أيضًا : نوع ضار بكيفيته كما تقدم ، ونوع ضار بكميته كالإكثار منه، فإنه يسقط القوة ، ويضر بالعصب ، ويحدث الرعشة ، والفالج ، والتشنج، ويضعف البصر وسائر القوى ، ويطفئ الحرارة الغريزية ، ويوسع المجارى ، ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية .

وأنفع أوقاته ، ما كان بعد انهضام الغذاء فى المعدة وفى زمان معتدل لا على جوع ، فإنه يضعف الحار الغريزى ،ولا على شبع ، فإنه يوجب أمراضًا شديدة ، ولا على تعب ، ولا إثر حمام ، ولا استفراغ ، ولا انفعال نفسانى كالغم والهم والحزن وشدة الفرح .

وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل إذا صادف انهضام الطعام،ثم يغتسل أو يتوضأ، وينام عليه ، وينام عقبه، فتراجع إليه قواه،وليحذر الحركة والرياضة عقبه،فإنها مضرة جدًا (٢).

فصل
فى هديه ﷺ فى حفظ الصحة بالطِّيب

لما كانت الرائحة الطيبة غذاء الروح ، والروح مطية القوى ، والقوى تزداد بالطيب ، وهو ينفع الدماغ والقلب ، وسائر الأعضاء الباطنية ، ويفرح القلب ، ويسر النفس ويبسط الروح ، وهو أصدق شيء للروح ، وأشده ملاءمة لها ، وبينه وبين الروح الطيبة نسبة قريبة ، كان أحد المحبوبين من الدنيا إلى أطيب الطيبين صلوات الله عليه وسلامه .

وفى « صحيح البخارى » أنه ﷺ كان لا يرد الطيب (٣) .

---

(١) أبو داود (٤٤٥٧) فى الحدود ، باب : فى الرجل يزنى بحريمه ، والترمذى (١٣٦٢) فى الأحكام ، باب : فيمن تزوج امرأة أبيه ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٢٦٠٧) فى الحدود ، باب : من تزوج امرأة أبيه من بعده .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٤٩ ـ ٢٦٥) .

(٣) البخارى (٥٩٢٩) فى اللباس ، باب : من لم يرد الطيب .

وفى « صحيح مسلم » عنه ﷺ : « من عرض عليه ريحان ، فلا يرده فإنه طيب الريح ، خفيف المحمل » [١] .

وفى « سنن أبى داود » والنسائى ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ : « من عرض عليه طيب ، فلا يرده ، فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة » [٢] .

وفى « مسند البزار » : عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفناءكم وساحاتكم ، ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكب فى دورهم » [٣] . الأكب : الزبالة .

وذكر ابن أبى شيبة ، أنه ﷺ كان له سكة يتطيب منها .

وصح عنه أنه قال : « إن لله حقًا على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام، وإن كان له طيب أن يمس منه » [٤] .

وفى الطيب من الخاصية ، أن الملائكة تحبه ، والشياطين تنفر عنه ، وأحب شىء إلى الشياطين الرائحة المنتنة الكريهة ، فالأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة ، والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة ، وكل روح تميل إلى ما يناسبها ، فالخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، وهذا وإن كان فى النساء والرجال ، فإنه يتناول الأعمال والأقوال، والمطاعم والمشارب ، والملابس والروائح ، إما بعموم لفظه ، أو بعموم معناه [٥] .

فصل
فى هديه ﷺ فى حفظ صحة العين

روى أبو داود فى « سننه » عن عبد الرحمن بن النعمان بن معبد بن هوذة الأنصارى، عن أبيه ،عن جدة رضي الله عنه ،أن رسول الله ﷺ أمر بالإثمد المروح عند النوم ،وقال: « ليتقه الصائم » [٦] ، قال أبو عبيد : المروح : المطيب بالمسك .

---

(١) مسلم (٢٢٥٣ / ٢٠) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب استعمال المسك ، وإنه أطيب الطيب .

(٢) أبو داود (٤١٧٢) فى الترجل ، باب : فى رد الطيب ، والنسائى (٥٢٥٩) فى الزينة ، باب : الطيب .

(٣) انظر الترمذى (٢٧٩٩) فى الأدب ، باب : ما جاء فى النظافة وقال : « حديث غريب » .

(٤) البخارى (٨٨٠) فى الجمعة ، باب : الطيب للجمعة من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، أو يستن وأن يمس طيبا إن وجد » .

(٥) زاد المعاد (٤ / ٢٧٨ ـ ٢٨٠) .

(٦) أبو داود (٢٣٧٧) فى الصوم ، باب : فى الكحل عند النوم للصائم .

وفى « سنن ابن ماجه » وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت للنبى ﷺ مكحلة يكتحل منها ثلاثًا فى كل عين [١] .

وفى الترمذى : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا اكتحل يجعل فى اليمنى ثلاثًا ، يبتدئ بها ، ويختم بها ، وفى اليسرى ثنتين [٢] .

وقد روى أبو داود عنه ﷺ : « من اكتحل فليوتر » [٣] ، فهل الوتر بالنسبة إلى العينين كلتيهما ،فيكون فى هذه ثلاث،وفى هذه ثنتان ، واليمنى أولى بالابتداء والتفضيل ، أو هو بالنسبة إلى كل عين ، فيكون فى هذه ثلاث ، وفى هذه ثلاث ، وهما قولان فى مذهب أحمد وغيره .

وفى الكحل حفظ لصحة العين ، وتقوية للنور الباصر ، وجلاء لها ، وتلطيف للمادة الرديئة ، واستخراج لها مع الزينة فى بعض أنواعه ، وله عند النوم مزيد فضل لاشتمالها على الكحل ، وسكونها عقيبه عن الحركة المضرة بها ، وخدمة الطبيعة لها ، وللإثمد من ذلك خاصية .

وفى « سنن ابن ماجه » عن سالم عن أبيه يرفعه : « عليكم بالإثمد ؛ فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر » [٤] .

وفى كتاب أبى نعيم : « فإنه منبتة للشعر ، مذهبة للقذى ، مصفاة للبصر » [٥] .

وفى « سنن ابن ماجه » أيضًا :عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه : « خير أكحالكم الإثمد ، يجلو البصر ، وينبت الشعر [٦] [٧] .

---

(١) ابن ماجه (٣٤٩٩) فى الطب ، باب : من اكتحل وترًا ، والترمذى (١٧٥٧) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الاكتحال ، وقال : « حسن غريب » ، وأحمد ١ / ٣٥٤ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٣١٨) : « إسناده صحيح » .

(٢) الترمذى (١٧٥٧) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الاكتحال بلفظ « . . . كانت له مكحلة يكتحل بها كل ليلة ثلاثة فى هذه وثلاثة فى هذه » ، وقال : « حسن غريب » .

(٣) أبو داود (٣٥) فى الطهارة ، باب : الاستتار فى الخلاء .

(٤) ابن ماجه (٣٤٩٥) فى الطب ، باب : الكحل بالإثمد ، وفى الزوائد : « فى إسناد حديث ابن عمر مقال ؛ لأن عثمان بن عبد الملك ، قال فيه أبو حاتم : منكر الحديث . . .» .

(٥) أبو نعيم فى « الحلية » (٣ / ١٧٨) .

(٦) ابن ماجه (٣٤٩٧) فى الطب ، باب : الكحل بالإثمد .

(٧) زاد المعاد (٤ / ٢٨٠ _ ٢٨٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج الحمى

ثبت فى « الصحيحين » عن نافع ، عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ قال : « إنما الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم ، فأبردوها بالماء » (١) .

وقد أشكل هذا الحديث على كثير من جهلة الأطباء ، ورأوه منافيًا لدواء الحمى وعلاجها ، ونحن نبين بحول الله وقوته وجهه وفقهه ، فنقول : .

خطاب النبى ﷺ نوعان : عام لأهل الأرض ، وخاص ببعضهم ، فالأول : كعامة خطابه ، والثانى : كقوله : « لا تستقبلوا القبلة بغائط ، ولا بول ، ولا تستدبروها ، ولكن شرقوا ، أو غربوا » (٢) فهذا ليس بخطاب لأهل المشرق والمغرب ولا العراق ، ولكن لأهل المدينة وما على سمتها ، كالشام وغيرها ، وكذلك قوله : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » (٣) .

وإذا عرف هذا ، فخطابه فى هذا الحديث خاص بأهل الحجاز ، وما والاهم ، إذ كان أكثر الحميات التى تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس ، وهذه ينفعها الماء البارد شربًا واغتسالاً ، فإن الحمى حرارة غريبة تشتعل فى القلب ، وتنبث منه بتوسط الروح والدم فى الشرايين والعروق إلى جميع البدن ، فتشتعل فيه اشتعالاً يضر بالأفعال الطبيعية ، وهى تنقسم إلى قسمين : عرضية : وهى الحادثة إما عن الورم ، أو الحركة ، أو إصابة حرارة الشمس ، أو القيظ الشديد ونحو ذلك .

ومرضية : وهى ثلاثة أنواع ، وهى لا تكون إلا فى مادة أولى ، ثم منها يسخن جميع البدن ، فإن كان مبدأ تعلقها بالروح سميت حمى يوم ؛ لأنها فى الغالب تزول فى يوم ، ونهايتها ثلاثة أيام ، وإن كان مبدأ تعلقها بالأخلاط سميت عفنية ، وهى أربعة أصناف : صفراوية ، وسوداوية ، وبلغمية ، ودموية ، وإن كان مبدأ تعلقها بالأعضاء الصلبة

---

(١) البخارى (٥٧٢٣) فى الطب ، باب : الحمى من فيح جهنم ، ومسلم (٢٢٠٩ / ٧٨) فى السلام ، باب : لكل داء دواء واستحباب التداوى .

(٢) البخارى (٣٩٤) فى الصلاة ، باب : قبلة أهل المدينة وأهل الشام والشرق ، ليس فى المشرق ولا فى المغرب قبلة ، ومسلم (٢٦٤ / ٥٩) فى الطهارة ، باب : الاستطابة .

(٣) الترمذى (٣٤٤) فى الصلاة ، باب : ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (١٠١١) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : القبلة ، والبيهقى فى الكبرى (٢ / ٩) .

الأصلية ، سميت حمى دق ، وتحت هذه الأنواع أصناف كثيرة .

وقد ينتفع البدن بالحمى انتفاعًا عظيمًا لا يبلغه الدواء ، وكثيرًا ما يكون حمى يوم ، وحمى العفن سببًا لإنضاج مواد غليظة لم تكن تنضج بدونها ، وسببًا لتفتح سدد لم يكن تصل إليها الأدوية المفتحة .

وأما الرمد الحديث والمتقادم ، فإنها تبرئ أكثر أنواعه برءًا عجيبًا سريعًا ، وتنفع من الفالج، واللقوة ، والتشنج الامتلائى ، وكثيرًا من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة .

وقال لى بعض فضلاء الأطباء : إن كثيرًا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى ، كما يستبشر المريض بالعافية ، فتكون الحمى فيه أنفع من شرب الدواء بكثير ، فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضر بالبدن ، فإذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها ، فأخرجها ، فكانت سببًا للشفاء .

وإذا عرف هذا ، فيجوز أن يكون مراد الحديث من أقسام الحميات العرضية ، فإنها تسكن على المكان بالانغماس فى الماء البارد ، وسقى الماء البارد المثلوج ، ولا يحتاج صاحبها مع ذلك إلى علاج آخر ، فإنها مجرد كيفية حارة متعلقة بالروح ، فيكفى فى زوالها مجرد وصول كيفية باردة تسكنها ، وتخمد لهبها من غير حاجة إلى استفراغ مادة ، أو انتظار نضج .

ويجوز أن يراد به جميع أنواع الحميات ، وقد اعترف فاضل الأطباء جالينوس : بأن الماء البارد ينفع فيها ، قال فى المقالة العاشرة من كتاب « حيلة البرء » : ولو أن رجلاً شابًا حسن اللحم ، خصب البدن فى وقت القيظ ، وفى وقت منتهى الحمى ، وليس فى أحشائه ورم ، استحم بماء بارد ، أو سبح فيه ، لا نتفع بذلك . قال : ونحن نأمر بذلك بلا توقف .

وقال الرازى فى كتابه الكبير : إذا كانت القوة قوية ، والحمى حادة جدًا ، والنضج بين ولا ورم فى الجوف ، ولا فتق ، ينفع الماء البارد شربًا ، وإن كان العليل خصب البدن والزمان حار ، وكان معتادًا لاستعمال الماء البارد من خارج ، فليؤذن فيه .

وقوله : « الحمى من فيح جهنم » هو شدة لهبها ، وانتشارها ،ونظيره: قوله : « شدة الحر من فيح جهنم » ، وفيه وجهان :

أحدهما : أن ذلك أنموذج ورقيقة اشتقت من جهنم ليستدل بها العباد عليها ، ويعتبروا بها ، ثم إن الله سبحانه قدر ظهورها بأسباب تقتضيها ، كما أن الروح والفرح والسرور

واللذة من نعيم الجنة أظهرها الله فى هذه الدار عبرة ودلالة،وقدر ظهورها بأسباب توجبها.

والثانى : أن يكون المراد التشبيه ، فشبه شدة الحمى ولهبها بفيح جهنم ، وشبه شدة الحر به أيضًا تنبيهًا للنفوس على شدة عذاب النار ،وأن هذه الحرارة العظيمة مشبهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها .

وقوله : « فأبردوها » ، روى بوجهين : بقطع الهمزة وفتحها ، رباعى : من أبرد الشىء : إذا صيره باردًا ، مثل أسخنه : إذا صيره سخنًا .والثانى : بهمزة الوصل مضمومة من برد الشىء يبرده ، وهو أفصح لغة واستعمالا ، والرباعى لغة رديئة عندهم قال :

إذا وجدت لهيب الحب فى كبدى أقبلت نحو سقاء القوم أبترد

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد

وقوله : « بالماء » ، فيه قولان : أحدهما : أنه كل ماء وهو الصحيح .والثانى : أنه ماء زمزم ، واحتج أصحاب هذا القول بما رواه البخارى فى « صحيحه » ، عن أبى جمرة نصر بن عمران الضبعى ، قال : كنت أجالس ابن عباس بمكة ، فأخذتنى الحمى ، فقال : أبردها عنك بماء زمزم،فإن رسول الله ﷺ قال: « إن الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء - أو قال - بماء زمزم » (١) . وراوى هذا قد شك فيه ، ولو جزم به لكان أمرًا لأهل مكة بماء زمزم ، إذ هو متيسر عندهم ، ولغيرهم بما عندهم من الماء .

ثم اختلف من قال : إنه على عمومه هل المراد به الصدقة بالماء ، أو استعماله ؟ على قولين ، والصحيح أنه استعمال ، وأظن أن الذى حمل من قال : المراد الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد فى الحمى ، ولم يفهم وجهه مع أن لقوله وجهًا حسنًا ، وهو أن الجزاء من جنس العمل ، فكما أخمد لهيب العطش عن الظمآن بالماء البارد ، أخمد الله لهيب الحمى عنه جزاء وفاقًا ، ولكن هذا يؤخذ من فقه الحديث وإشارته ، وأما المراد به فاستعماله .

وقد ذكر أبو نعيم وغيره من حديث أنس يرفعه : « إذا حم أحدكم ، فليرش عليه الماء البارد ثلاث ليال من السحر » (٢).

وفى « سنن ابن ماجه » عن أبى هريرة يرفعه : « الحمى كير من كير جهنم ، فنحوها

(١) البخارى (٣٢٦١) فى بدء الخلق ، باب : صفة النار وأنها مخلوقة .

(٢) انظر الحاكم فى المستدرك (٤ / ٢٠٠) ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ... » .

عنكم بالماء البارد » [١] .

وفى « المسند » وغيره، من حديث الحسن ؛ عن سمرة يرفعه : « الحمى قطعة من النار، فأبردوها عنكم بالماء البارد ، وكان رسول الله ﷺ إذا حم دعا بقربة من ماء ، فأفرغها على رأسه فاغتسل [٢] .

وفى « السنن » : من حديث أبى هريرة قال : ذكرت الحمى عند رسول الله ﷺ ، فسبها رجل ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبها فإنها تنفى الذنوب ، كما تنفى النار خبث الحديد » [٣] .

لما كانت الحمى يتبعها حمية عن الأغذية الرديئة ، وتناول الأغذية والأدوية النافعة ، وفى ذلك إعانة على تنقية البدن ، ونفى أخباثه وفضوله ، وتصفيته من مواده الرديئة ، وتفعل فيه كما تفعل النار فى الحديد فى نفى خبثه ، وتصفية جوهره ، كانت أشبه الأشياء بنار الكير التى تصفى جوهر الحديد ، وهذا القدر هو المعلوم عند أطباء الأبدان .

وأما تصفيتها القلب من وسخه ودرنه ، وإخراجها خبائثه ، فأمر يعلمه أطباء القلوب ، ويجدونه كما أخبرهم به نبيهم رسول الله ﷺ ، ولكن مرض القلب إذا صار مأيوسًا من برئه ، لم ينفع فيه هذا العلاج .

فالحمى تنفع البدن والقلب ، وما كان بهذه المثابة فسبه ظلم وعدوان ، وذكرت مرة وأنا محمومٌ قول بعض الشعراء يسبها :

زارت مكفرة الذنوب وودعت تبًا لها من زائرٍ ومودع

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد فقلت أن لا ترجعى

فقلت : تبًا له إذ سب ما نهى رسول الله ﷺ عن سبه ، ولو قال :

زارت مكفرة الذنوب لصبها أهلاً بها من زائرٍ ومودع

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد فقلت : أن لا تقلعى

لكان أولى به ، ولأقلعت عنه ، فأقلعت عنى سريعًا ، وقد روى فى أثر لا أعرف حاله

---

(١) ابن ماجه (٣٤٧٥) فى الطب ، باب: الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٢) لم نجده فى أحمد ، وانظر : الطبرانى فى الكبير (٧ / ٢٢٧) (٦٩٤٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٩٧) : « رواه الطبرانى والبزار وفيه إسماعيل بن مسلم وهو متروك » .

(٣) ابن ماجه (٣٤٦٩) فى الطب ، باب : الحمى ، وفى الزوائد : « فى إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف » .

« حمى يوم كفارة سنة » ، وفيه قولان : أحدهما : أن الحمى تدخل فى كل الأعضاء والمفاصل ، وعدتها ثلاثمائة وستون مفصلا ، فتكفر عنه ـ بعدد كل مفصل ـ ذنوب يوم . والثانى : أنها تؤثر فى البدن تأثيراً لا يزول بالكلية إلى سنة ،كما قيل فى قوله ﷺ : « من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يومًا » (١) : إن أثر الخمر يبقى فى جوف العبد ، وعروقه ، وأعضائه أربعين يومًا والله أعلم .

قال أبو هريرة : ما من مرض يصيبنى أحب إلى من الحمى ، لأنها تدخل فى كل عضو منى ، وإن الله سبحانه يعطى كل عضو حظه من الأجر .

وقد روى الترمذى فى « جامعه » من حديث رافع بن خديج يرفعه : « إذا أصابت أحدكم الحمى ـ وإن الحمى قطعة من النار ـ فليطفئها بالماء البارد ، ويستقبل نهرًا جاريًا ، فليستقبل جرية الماء بعد الفجر وقبل طلوع الشمس ، وليقل بسم الله ،اللهم اشف عبدك ، وصدق رسولك ، وينغمس فيه ثلاث غمسات ثلاثة أيام ، فإن برئ ، وإلا ففى خمس ، فإن لم يبرأ فى خمس ، فسبع ، فإن لم يبرأ فى سبع فتسع ، فإنها لا تكاد تجاوز تسعًا بإذن الله » (٢) .

قلت : وهو ينفع فعله فى فصل الصيف فى البلاد الحارة على الشرائط التى تقدمت ، فإن الماء فى ذلك الوقت أبرد ما يكون لبعده عن ملاقاة الشمس ، ووفور القوى فى ذلك الوقت لما أفادها النوم ، والسكون ، وبرد الهواء ، فتجتمع فيه قوة القوى ، وقوة الدواء ، وهو الماء البارد على حرارة الحمى العرضية ، أو الغب الخالصة ، أعنى التى لا ورم معها ، ولا شىء من الأعراض الرديئة والمواد الفاسدة ، فيطفئها بإذن الله ، لا سيما فى أحد الأيام المذكورة فى الحديث ، وهى الأيام التى يقع فيها بحران الأمراض الحادة كثيراً ، سيما فى البلاد المذكورة لرقة أخلاط سكانها ، وسرعة انفعالهم عن الدواء النافع (٣) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج استطلاق البطن

فى « الصحيحين » : من حديث أبى المتوكل ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلا أتى

(١) ابن ماجه (٣٣٧٧) فى الأشربة ، باب : من شرب الخمر لم تقبل له صلاة ، وأحمد (٢ / ١٨٩) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٧٣) : « إسناده صحيح » .
(٢) الترمذى (٢٠٨٤) فى الطب ، باب (٣٣) ، وقال : « غريب » ، عن ثوبان .
(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٥ ـ ٣٢) .

النبي ﷺ ،فقال : إن أخي يشتكي بطنه : وفي رواية : استطلق بطنه ، فقال : « اسقه عسلا » ، فذهب ثم رجع ، فقال : قد سقيته ، فلم يغن عنه شيئًا وفي لفظ : فلم يزده إلا استطلاقًا مرتين أو ثلاثًا ، كل ذلك يقول له : « اسقه عسلا » ، فقال له في الثالثة أو الرابعة : « صدق الله ، وكذب بطن أخيك » [(١)] .

وفي « صحيح مسلم » في لفظ له : إن أخي عرب بطنه [(٢)] ، أي فسد هضمه ، واعتلت معدته ، والاسم العرب بفتح الراء ، والذرب أيضًا .

والعسل فيه منافع عظيمة ، فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها ، محلل للرطوبات أكلاً وطلاءً ، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم ، ومن كان مزاجه باردًا رطبًا ، وهو مغذٍ ملين للطبيعة ، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه ، مذهب لكيفيات الأدوية الكريهة ، منقٍ للكبد والصدر ، مدر للبول ، موافق للسعال الكائن عن البلغم ، وإذا شرب حارًا بدهن الورد ، نفع من نهش الهوام ، وشرب الأفيون ، وإن شرب وحده ممزوجًا بماء نفع من عضة الكَلْب الكَلِب ، وأكل الفطر القتال ، وإذا جعل فيه اللحم الطري ، حفظ طراوته ثلاثة أشهر ، وكذلك إن جعل فيه القثاء ، والخيار ، والقرع ، والباذنجان ، ويحفظ كثيرًا من الفاكهة ستة أشهر ، ويحفظ جثة الموتى ، ويسمى الحافظ الأمين ،وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر ، قتل قمله وصئبانه ، وطول الشعر ، وحسنه ، ونعمه ، وإن اكتحل به ، جلا ظلمة البصر ، وإن استن به ، بيض الأسنان وصقلها ، وحفظ صحتها ، وصحة اللثة ، ويفتح أفواه العروق ، ويدر الطمث ، ولعقه على الريق يذهب البلغم ، ويغسل خمل المعدة ، ويدفع الفضلات عنها ، ويسخنها تسخينًا معتدلاً ، ويفتح سددها ، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة ، وهو أقل ضررًا لسدد الكبد والطحال من كل حلو .

وهو مع هذا كله مأمون الغائلة ، قليل المضار ، مضر بالعرض للصفراويين ، ودفعها بالخل ونحوه ، فيعود حينئذ نافعًا له جدًا .

وهو غذاء مع الأغذية،ودواء مع الأدوية ،وشراب مع الأشربة ، وحلو مع الحلوى ، وطلاء مع الأطلية ، ومفرح مع المفرحات ، فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه ، ولا مثله ، ولا قريبًا منه ، ولم يكن معول القدماء إلا عليه ، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة ، ولا يعرفونه،فإنه حديث العهد حدث قريبًا ، وكان النبي ﷺ يشربه بالماء على

(١ ،٢) البخاري (٥٦٨٤) في الطب ، باب : الدواء بالعسل ، ومسلم (٢٢١٧ / ٩١) في السلام ، باب : التداوي بسقي العسل .

الريق ، وفى ذلك سر بديع فى حفظ الصحة لا يدركه إلا الفطن الفاضل ، وسنذكر ذلك إن شاء الله عند ذكر هديه فى حفظ الصحة .

وفى « سنن ابن ماجه » مرفوعًا من حديث أبى هريرة : « من لعق العسل ثلاث غدوات كل شهر ، لم يصبه عظيم من البلاء » (١) ،وفى أثر آخر : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن » (٢) فجمع بين الطب البشرى والإلهى ، وبين طب الأبدان ، وطب الأرواح ، وبين الدواء الأرضى والدواء السمائى .

إذا عرف هذا ، فهذا الذى وصف له النبى ﷺ العسل ، كان استطلاق بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء ، فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة فى نواحى المعدة والأمعاء ، فإن العسل فيه جلاء ، ودفع للفضول وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة ، تمنع استقرار الغذاء فيها للزوجتها ، فإن المعدة لها خمل كخمل القطيفة ، فإذا عقلت بها الأخلاط اللزجة،أفسدتها وأفسدت الغذاء ، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط ، والعسل جلاء ، والعسل من أحسن ما عولج به هذا الداء ، لا سيما إن مزج بالماء الحار .

وفى تكرار سقيه العسل معنى طبى بديع ، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار ، وكمية بحسب حال الداء ، إن قصر عنه ، لم يزله بالكلية ، وإن جاوزه ، أوهى القوى ، فأحدث ضررًا آخر ، فلما أمره أن يسقيه العسل ، سقاه مقدارًا لا يفى بمقاومة الداء ، ولا يبلغ الغرض ، فلما أخبره ، علم أن الذى سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة ، فلما تكرر تردداه إلى النبى ﷺ ، أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء ، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء ، برأ ، بإذن الله ، واعتبار مقادير الأدوية ، وكيفياتها ، ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب .

وفى قوله ﷺ:« صدق الله وكذب بطن أخيك » ،إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء ، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء فى نفسه،ولكن لكذب البطن، وكثرة المادة الفاسدة فيه ، فأمره بتكرار الدواء لكثرة المادة .

وليس طبه ﷺ كطب الأطباء ، فإن طب النبى ﷺ متيقن قطعى إلهى ، صادر عن الوحى ، ومشكاة النبوة ، وكمال العقل ، وطب غيره ، أكثره حدس وظنون ، وتجارب ، ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة ، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول ،

---

(١) ابن ماجه (٣٤٥٢) فى الطب ، باب : العسل ، وفى الزوائد « إسناده لين ، ومع ذلك فهو منقطع ، قال البخارى : لم نعرف لعبد الحميد سماعًا من أبى هريرة » .

(٢) ابن ماجه (٣٤٥٢) فى الطب ، باب : العسل ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

واعتقاد الشفاء به ، وكمال التلقى له بالإيمان والإذعان ، فهذا القرآن الذى هو شفاء لما فى الصدور ـ إن لم يتلق هذا التلقى ـ لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها ، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم ، ومرضًا إلى مرضهم ، وأين يقع طب الأبدان منه ، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة ، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية ، فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذى هو الشفاء النافع ، وليس ذلك لقصور فى الدواء ، ولكن لخبث الطبيعة ، وفساد المحل ، وعدم قبوله ، والله الموفق .

وقد اختلف الناس فى قوله تعالى : ﴿ **يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ [النحل : ٦٩] ، هل الضمير فى « فيه » راجع إلى الشراب ، أو راجع إلى القرآن ؟ على قولين : الصحيح : رجوعه إلى الشراب ، وهو قول ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والأكثرين ، فإنه هو المذكور ، والكلام سيق لأجله ، ولا ذكر للقرآن فى الآية ، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله : « صدق الله » كالصريح فيه ، والله تعالى أعلم (١) .

فصل

فى هديه ﷺ فى الطاعون ، وعلاجه ، والاحتراز منه

فى « الصحيحين » عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه ، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ فى الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ، وعلى من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها فرارًا منه » (٢) .

وفى « الصحيحين » أيضًا : عن حفصة بنت سيرين ، قالت : قال أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون شهادة لكل مسلم » (٣) .

الطاعون من حيث اللغة : نوع من الوباء ، قاله صاحب « الصحاح » ، وهو عند أهل

(١) زاد المعاد (٣٢ ـ ٣٦) .

(٢) البخارى (٣٤٧٣) فى الأنبياء ، باب (٥٤) ، ومسلم (٢٢١٨/ ٩٢) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٣) البخارى (٥٧٣٢) فى الطب ، باب : ما يذكر فى الطاعون ، ومسلم (١٩١٦ / ١٦٦) فى الإمارة ، باب : بيان الشهداء .

الطب : ورم ردىء قتال يخرج معه تلهب شديد مؤلم جدًا يتجاوز المقدار فى ذلك ، ويصير ما حوله فى الأكثر أسود أو أخضر ، أو أكمد ، ويؤول أمره إلى التقرح سريعًا ، وفى الأكثر ، يحدث فى ثلاثة مواضع : فى الإبط ، وخلف الأذن ، والأرنبة ، وفى اللحوم الرخوة .

وفى أثر عن عائشة أنها قالت للنبى ﷺ :الطعن قد عرفناه ،فما الطاعون ؟ قال:« غدة كغدة البعير يخرج فى المراق والإبط » (١).

قال الأطباء: إذا وقع الخراج فى اللحوم الرخوة ، والمغابن ، وخلف الأذن والأرنبة ، وكان من جنس فاسد ، سمى طاعونًا ، وسببه دم ردىء مائل إلى العفونة والفساد ، مستحيل إلى جوهر سمى ، يفسد العضو ويغير ما يليه ، وربما رشح دما وصديدًا ، ويؤدى إلى القلب كيفية رديئة ، فيحدث القىء والخفقان والغشى ، وهذا الاسم وإن كان يعم كل ورم يؤدى إلى القلب كيفية رديئة حتى يصير لذلك قتالاً ؛ فإنه يختص به الحادث فى اللحم الغددى ، لأنه لرداءته لا يقبله من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع ، وأردؤه ما حدث فى الإبط وخلف الأذن لقربهما من الأعضاء التى هى أرأس ، وأسلمه الأحمر ، ثم الأصفر ، والذى إلى السواد ، فلا يفلت منه أحد .

ولما كان الطاعون يكثر فى الوباء ، وفى البلاد الوبيئة ، عبر عنه بالوباء ، كما قال الخليل : الوباء : الطاعون ، وقيل : هو كل مرض يعم ، والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عمومًا وخصوصًا ، فكل طاعون وباء ، وليس كل وباء طاعونًا ، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون ، فإنه واحد منها ، والطواعين خراجات وقروح وأورام رديئة حادثة فى المواضع المتقدم ذكرها .

قلت : هذه القروح ، والأورام ، والجراحات ، هى آثار الطاعون ،وليست نفسه ، ولكن الأطباء لما لم تدرك منه إلا الأثر الظاهر ، جعلوه نفس الطاعون .

والطاعون يعبر به عن ثلاثة أمور :

أحدها :هذا الأثر الظاهر ، وهو الذى ذكره الأطباء .

والثانى : الموت الحادث عنه ، وهو المراد بالحديث الصحيح فى قوله : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

والثالث : السبب الفاعل لهذا الداء ، وقد ورد فى الحديث الصحيح : « أنه بقية رجز

---

(١) أحمد (٦ / ١٤٥) .

أرسل على بنى إسرائيل »[(١)] ، وورد فيه « أنه وخز الجن » ، وجاء أنه دعوة نبى .

وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها ، كما ليس عندهم ما يدل عليها ، والرسل تخبر بالأمور الغائبة ، وهذه الآثار التى أدركوها من أمر الطاعون ليس معهم ما ينفى أن تكون بتوسط الأرواح ، فإن تأثير الأرواح فى الطبيعة وأمراضها وهلاكها أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وتأثيراتها ، وانفعال الأجسام وطبائعها عنها ، والله سبحانه قد جعل لهذه الأرواح تصرفًا فى أجسام بنى آدم عند حدوث الوباء ،وفساد الهواء ، كما يجعل لها تصرفًا عند بعض المواد الرديئة التى تحدث للنفوس هيئة رديئة ، ولا سيما عند هيجان الدم ، والمرة السوداء ، وعند هيجان المنى ، فإن الأرواح الشيطانية تتمكن من فعلها بصاحب هذه العوارض ما لا تتمكن من غيره ، ما لم يدفعها دافع أقوى من هذه الأسباب من الذكر ،والدعاء ، والابتهال والتضرع ، والصدقة ، وقراءة القرآن ، فإنه يستنزل بذلك من الأرواح الملكية ما يقهر هذه الأرواح الخبيثة ، ويبطل شرها ويدفع تأثيرها ، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا مراراً لا يحصيها إلا الله، ورأينا لاستنزال هذه الأرواح الطيبة واستجلاب قربها تأثيراً عظيمًا فى تقوية الطبيعة ، ودفع المواد الرديئة ، وهذا يكون قبل استحكامها وتمكنها ، ولا يكاد ينخرم ، فمن وفقه الله ، بادر عند إحساسه بأسباب الشر إلى هذه الأسباب التى تدفعها عنه ، وهى له من أنفع الدواء ، وإذا أراد الله عز وجل إنفاذ قضائه وقدره ، أغفل قلب العبد عن معرفتها وتصورها وإرادتها ، فلا يشعر بها ، ولا يريدها ، ليقضى الله فيه أمرا كان مفعولاً .

وسنزيد هذا المعنى ـ إن شاء الله تعالى ـ إيضاحًا وبيانًا عند الكلام على التداوى بالرقى، والعوذ النبوية ، والأذكار ، والدعوات ، وفعل الخيرات ، ونبين أن نسبة طب الأطباء إلى هذا الطب النبوى ، كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم ، كما اعترف به حذاقهم وأئمتهم ، ونبين أن الطبيعة الإنسانية أشد شىء انفعالاً عن الأرواح ، وأن قوى العوذ ، والرقى ، والدعوات ، فوق قوى الأدوية ، حتى إنها تبطل قوى السموم القاتلة .

والمقصود : أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام ، والعلة الفاعلة للطاعون ، فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده ،يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة ، لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه ، كالعفونة ، والنتن والسمية فى أى وقت كان من أوقات السنة ، وإن كان أكثر حدوثه فى أواخر الصيف، وفى الخريف غالبًا لكثرة اجتماع

---

(١) مسلم (٢٢١٨ / ٩٧) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ، وأحمد (٤ / ٣٩٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٣١٤ ، ٣١٥) : « رواه أحمد بأسانيد ، ورجال بعضها رجال الصحيح » .

الفضلات المرارية الحادة وغيرها فى فصل الصيف، وعدم تحللها فى آخره ، وفى الخريف لبرد الجو ، وردغة الأبخرة والفضلات التى كانت تتحلل فى زمن الصيف ، فتنحصر ، فتسخن، وتعفن ، فتحدث الأمراض العفنة ، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعدًا ، قابلاً ، رهلاً ، قليل الحركة ، كثير المواد ، فهذا لا يكاد يفلت من العطب .

وأصح الفصول فيه فصل الربيع ، قال بقراط : إن فى الخريف أشد ما تكون من الأمراض ، وأقتل ، وأما الربيع ، فأصح الأوقات كلها وأقلها موتًا ، وقد جرت عادة الصيادلة ، ومجهزى الموتى أنهم يستدينون ، ويتسلفون فى الربيع والصيف على فصل الخريف ، فهو ربيعهم ، وهم أشوق شيء إليه ، وأفرح بقدومه ، وقد روى فى حديث : « إذا طلع النجم ارتفعت العاهة عن كل بلد »[1] ، وفسر بطلوع الثريا ، وفسر بطلوع النبات زمن الربيع ، ومنه ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾ [الرحمن] فإن كمال طلوعه وتمامه يكون فى فصل الربيع ، وهو الفصل الذى ترتفع فيه الآفات .

وأما الثريا ، فالأمراض تكثر وقت طلوعها مع الفجر وسقوطها .

قال التميمى فى كتاب « مادة البقاء » : أشد أوقات السنة فسادًا ، وأعظمها بلية على الأجساد وقتان ، أحدهما : وقت سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر ، والثانى : وقت طلوعها من المشرق قبل طلوع الشمس على العالم ، بمنزلة من منازل القمر ، وهو وقت تصرم فصل الربيع وانقضائه ، غير أن الفساد الكائن عند طلوعها أقل ضررًا من الفساد الكائن عند سقوطها .

وقال أبو محمد بن قتيبة : يقال : ما طلعت الثريا ، ولا نأت إلا بعاهة فى الناس والإبل ، وغروبها أعوه من طلوعها .

وفى الحديث قول ثالث ـ ولعله أولى الأقوال به ـ أن المراد بالنجم: الثريا، وبالعاهة : الآفة التى تلحق الزروع والثمار فى فصل الشتاء وصدر فصل الربيع ، فحصل الأمن عليها عند طلوع الثريا فى الوقت المذكور ، ولذلك نهى ﷺ عن بيع الثمرة وشرائها قبل أن يبدو صلاحها . والمقصود : الكلام على هديه ﷺ عند وقوع الطاعون .

وقد جمع النبى ﷺ للأمة فى نهيه عن الدخول إلى الأرض التى هو بها ، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه كمال التحرز منه ، فإن فى الدخول فى الأرض التى هو بها تعرضًا

---

(١) أحمد (٢ / ٣٤١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ /١٠٦) : « فيه عسل بن سفيان ، وثقه ابن حبان وقال : يخطئ ويخالف ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله رجال الصحيح » ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٨٤٧٦):« إسناده ضعيف » .

للبلاء ، وموافاة له فى محل سلطانه ، وإعانة للإنسان على نفسه ، وهذا مخالف للشرع والعقل ، بل تجنب الدخول إلى أرضه من باب الحمية التى أرشد الله سبحانه إليها ، وهى حمية عن الأمكنة ، والأهوية المؤذية .

وأما نهيه عن الخروج من بلده ، ففيه معنيان :

أحدهما : حمل النفوس على الثقة بالله ، والتوكل عليه ، والصبر على أقضيته، والرضى بها .

والثانى : ما قاله أئمة الطب : أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية ، ويقلل الغذاء ، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه إلا الرياضة والحمام ، فإنهما مما يجب أن يحذرا ، لأن البدن لا يخلو غالبًا من فضل ردىء كامن فيه ، فتثيره الرياضة والحمام ، ويخلطانه بالكيموس الجيد ، وذلك يجلب علة عظيمة ، بل يجب عند وقوع الطعاون السكون والدعة ، وتسكين هيجان الأخلاط ، ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلا بحركة شديدة ، وهى مضرة جدًا ، هذا كلام أفضل الأطباء المتأخرين ، فظهر المعنى الطبى من الحديث النبوى ، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلاحهما .

فإن قيل : ففى قول النبى ﷺ : « لا تخرجوا فرارًا منه » ، ما يبطل أن يكون أراد هذا المعنى الذى ذكرتموه ، وأنه لا يمنع الخروج لعارض ، ولا يحبس مسافرًا عن سفره ؟ قيل : لم يقل أحد ، طبيب ولا غيره : إن الناس يتركون حركاتهم عند الطواعين ، ويصيرون بمنزلة الجمادات ، وإنما ينبغى فيه التقلل من الحركة بحسب الإمكان ، والفار منه لا موجب لحركته إلا مجرد الفرار منه ، ودعته وسكونه أنفع لقلبه وبدنه ، وأقرب إلى توكله على الله تعالى ، واستسلامه لقضائه ، وأما من لا يستغنى عن الحركة ، كالصناع ، والأجراء ، والمسافرين ، والبرد ، وغيرهم ، فلا يقال لهم : اتركوا حركاتكم جملة ، وإن أمروا أن يتركوا منها ما لا حاجة لهم إليه ، كحركة المسافر فارًا منه والله تعالى أعلم .

وفى المنع من الدخول إلى الأرض التى قد وقع بها عدة حكم :

أحدها : تجنب الأسباب المؤدية ، والبعد منها .

الثانى : الأخذ بالعافية التى هى مادة المعاش والمعاد .

الثالث : أن لا يستنشقوا الهواء الذى قد عفن وفسد فيمرضون .

الرابع : أن لا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك ، فيحصل لهم بمجاورتهم من

جنس أمراضهم .

وفى « سنن أبى داود » مرفوعًا : « إن من القرف التلف » (١) .

قال ابن قتيبة : القرف مداناة الوباء ، ومداناة المرضى .

الخامس : حمية النفوس عن الطيرة والعدوى ، فإنها تتأثر بهما ، فإن الطيرة على من تطير بها ، وبالجملة ففى النهى عن الدخول فى أرضه الأمر بالحذر والحمية ، والنهى عن التعرض لأسباب التلف،وفى النهى عن الفرار منه الأمر بالتوكل ، والتسليم ، والتفويض ، فالأول : تأديب وتعليم ، والثانى : تفويض وتسليم .

وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام،حتى إذا كان بسرغ،لقيه أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال لابن عباس : ادع لى المهاجرين الأولين ، قال : فدعوتهم ، فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال له بعضهم : خرجت لأمر ، فلا نرى أن ترجع عنه ، وقال آخرون : معك بقية الناس ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، فلا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال عمر: ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى الأنصار ، فدعوتهم له ، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى من هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم له ، فلم يختلف عليه منهم رجلان ، قالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فأذن عمر فى الناس إنى مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح ، يا أمير المؤمنين ، أفرارًا من قدر الله تعالى ؟ قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى ، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديًا له عدوتان ، إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ،ألست إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى،وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله تعالى ؟ قال :فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا فى بعض حاجاته ، فقال : إن عندى فى هذا علمًا ، سمعت من رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فرارًا منه ، وإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه » (٢) (٣) .

---

(١) أبو داود (٣٩٢٣) فى الطب ، باب : فى الطيرة ، وضعفه الألبانى .

(٢) مسلم (٢٢١٩ / ٩٨) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٣٦ ـ ٤٥) .

فصل
في هديه ﷺ في داء الاستسقاء وعلاجه

في « الصحيحين » : من حديث أنس بن مالك ، قال : « قدم رهط من عرينة وعكل على النبي ﷺ فاجتووا الدنية ، فشكوا إلى النبي ﷺ فقال : « لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فلما صحوا ، عمدوا إلى الرعاة فقتلوهم ، واستاقوا الإبل ،وحاربوا الله ورسوله،فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم ،فأخذوا ، فقطع أيديهم ، وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ألقاهم في الشمس حتى ماتوا » (١) .

والدليل على أن هذا المرض كان الاستسقاء ، ما رواه مسلم في « صحيحه » في هذا الحديث أنهم قالوا : إنا اجتوينا المدينة ، فعظمت بطوننا ، وارتهشت أعضاؤنا ، وذكر تمام الحديث .

والجوى : داء من أدواء الجوف ، والاستسقساء : مرض مادى سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء فتربو لها إما الأعضاء الظاهرة كلها ، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط ، وأقسامه ثلاثة : لحمى ، وهو أصعبها ، وزقى ، وطبلى .

ولما كانت الأدوية المحتاج إليها في علاجه هي الأدوية الجالبة التي فيها إطلاق معتدل ، وإدرار بحسب الحاجة ، وهذه الأمور موجودة في أبوال الإبل وألبانها ، أمرهم النبي ﷺ بشربها ، فإن في لبن اللقاح جلاءً وتليينًا ، وإدراراً وتلطيفًا ، وتفتيحًا للسدد ، إذ كان أكثر رعيها الشيح ، والقيصوم ، والبابونج ، والأقحوان ، والإذخر ، وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء .

وهذا المرض لا يكون إلا مع آفة في الكبد خاصة ، أو مع مشاركة ، وأكثرها عن السدد فيها ، ولبن اللقاح العربية نافع من السدد لما فيه من التفتيح ، والمنافع المذكورة .

قال الرازى : لبن اللقاح يشفى أوجاع الكبد ، وفساد المزاج . وقال الإسرائيلى : لبن اللقاح أرق الألبان ، وأكثرها مائية وحدة ، وأقلها غذاء ، فلذلك صار أقواها على تلطيف الفضول ، وإطلاق البطن ، وتفتيح السدد ، ويدل على ذلك ملوحته اليسيرة التي فيه لإفراط حرارة حيوانية بالطبع ، ولذلك صار أخص الألبان بتطرية الكبد ، وتفتيح سددها ،

---

(١) البخارى (٦٨٠٢) في الحدود ، باب : المحاربين من أهل الكفر والردة ، ومسلم (١٦٧١ / ٩) في القسامة ، باب : حكم المحاربين والمرتدين .

وتحليل صلابة الطحال إذا كان حديثًا ، والنفع من الاستسقاء خاصة إذا استعمل لحرارته التى يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل ، وهو حار كما يخرج من الحيوان ، فإن ذلك مما يزيد فى ملوحته ، وتقطيعه الفضول ، وإطلاقه البطن ، فإن تعذر انحداره وإطلاقه البطن ، وجب أن يطلق بدواء مسهل .

قال صاحب القانون : ولا يلتفت إلى ما يقال : من أن طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء . قال : واعلم أن لبن النوق داواء نافع لما فيه من الجلاء برفق ، وما فيه من خاصية ، وأن هذا اللبن شديد المنفعة ، فلو أن إنسانًا أقام عليه بدل الماء والطعام شفى به ، وقد جرب ذلك فى قوم دفعوا إلى بلاد العرب ، فقادتهم الضرورة إلى ذلك فعوفوا ، وأنفع الأبوال : بول الجمل الأعرابى ، وهو النجيب ، انتهى .

وفى القصة : دليل على التداوى والتطبب ، وعلى طهارة بول مأكول اللحم ، فإن التداوى بالمحرمات غير جائز ، ولم يؤمروا مع قرب عهده بالإسلام بغسل أفواههم ، وما أصابته ثيابهم من أبوالها للصلاة ، وتأخير البيان لا يجوز عن وقت الحاجة .

وعلى مقاتلة الجانى بمثل ما فعل ، فإن هؤلاء قتلوا الراعى ،وسملوا عينيه ، ثبت ذلك فى « صحيح مسلم » .

وعلى قتل الجماعة ، وأخذ أطرافهم بالواحد .

وعلى أنه إذا اجتمع فى حق الجانى حد وقصاص استوفيا معًا ، فإن النبى ﷺ قطع أيديهم وأرجلهم حدًا لله على حرابهم ، وقتلهم لقتلهم الراعى .

وعلى أن المحارب إذا أخذ المال ، وقتل ، قطعت يده ورجله فى مقام واحد وقتل .

وعلى أن الجنايات إذا تعددت تغلظت عقوباتها ، فإن هؤلاء ارتدوا بعد إسلامهم ، وقتلوا النفس ، ومثلوا بالمقتول ، وأخذوا المال ، وجاهروا بالمحاربة .

وعلى أن حكم ردء المحاربين حكم مباشرهم ، فإنه من المعلوم أن كل واحد منهم لم يباشر القتل بنفسه ، ولا سأل النبى ﷺ عن ذلك .

وعلى أن قتل الغيلة يوجب قتل القاتل حدًا فلا يسقطه العفو،ولا تعتبر فيه المكافأة ، وهذا مذهب أهل المدينة ، وأحد الوجهين فى مذهب أحمد ، اختاره شيخنا ، وأفتى به .

فصل
فى هديه فى علاج الجرح

فى « الصحيحين » : عن أبى حازم ، أنه سمع سهل بن سعد يسأل عما دووى به جرح رسول الله ﷺ يوم أحد ، فقال : « جرح وجهه ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم ، وكان على بن أبى طالب يسكب عليها بالمجن ، فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة ، أخذت قطعة حصير ، فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم » (١) ، برماد الحصير المعمول من البردى ، وله فعل قوى فى حبس الدم ؛ لأن فيه تجفيفًا قويًا ، وقلة لذع ، فإن الأدوية القوية التجفيف إذا كان فيها لذع هيجت الدم وجلبته ،وهذا الرماد إذا نفخ وحده ، أو مع الخل فى أنف الراعف قطع رعافه .

وقال صاحب القانون: البردى ينفع من النزف ويمنعه ، ويذر على الجراحات الطرية أكلة الفم ، ويحبس نفث الدم ، ويمنع القروح الخبيثة أن تسعى (٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج الصرع

أخرجا فى « الصحيحين » من حديث عطاء بن أبى رباح ، قال : قال ابن عِباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء ، أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أصرع ، وإنى أتكشف ، فادع الله لى ، فقال : « إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك »، فقالت : أصبر . قالت : فإنى أتكشف ، فادع الله ألا أتكشف ، فدعا لها » (٣) .

قلت: الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية ،صرع من الأخلاط الرديئة .

---

(١) البخارى (٢٩١١) فى الجهاد ، باب : لبس البيضة ، ومسلم (١٧٩٠ / ١٠١) فى الجهاد والسير ، باب غزوة أحد .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٤٦ ـ ٥٠) .

(٣) البخارى (٥٦٥٢) فى المرضى ، باب : فضل من يصرع من الريح ، ومسلم (٢٥٧٧ / ٥٥) فى البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم .

والثانى : هو الذى يتكلم فيه الأطباء فى سببه وعلاجه .

وأما صرع الأرواح ، فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ، ولا يدفعونه ، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة فتدافع آثارها ، وتعارض أفعالها وتبطلها ، وقد نص على ذلك بقراط فى بعض كتبه ، فذكر بعض علاج الصرع ، وقال : هذا إنما ينفع من الصرع الذى سببه الأخلاط والمادة ، وأما الصرع الذى يكون من الأرواح ، فلا ينفع فيه هذا العلاج .

وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ، ومن يعتقد بالزندقة فضيلة ، فأولئك ينكرون صرع الأرواح ، ولا يقرون بأنها تؤثر فى بدن المصروع ، وليس معهم إلا الجهل ، وإلا فليس فى الصناعة الطبية ما يدفع ذلك ، والحس والوجود شاهد به ، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط ، هو صادق فى بعض أقسامه لا فى كلها .

وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع : المرض الإلهى ، وقالوا : إنه من الأرواح ، وأما جالينوس وغيره ، فتأولوا عليهم هذه التسمية ، وقالوا : إنما سموه بالمرض الإلهى لكون هذه العلة تحدث فى الرأس ، فتضر بالجزء الإلهى الطاهر الذى مسكنه الدماغ .

وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها ، وتأثيراتها ، وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده .

ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم.

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين :

أمر من جهة المصروع ، وأمر من جهة المعالج ، فالذى من جهة المصروع يكون بقوة نفسه ، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها ، والتعوذ الصحيح الذى قد تواطأ عليه القلب واللسان ، فإن هذا نوع محاربة ، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين : أن يكون السلاح صحيحًا فى نفسه جيدًا ، وأن يكون الساعد قويًا ، فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل ، فكيف إذا عدم الأمران جميعًا : يكون القلب خرابًا من التوحيد ، والتوكل ، والتقوى ، والتوجه ، ولا سلاح له .

والثانى : من جهة المعالج ، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضًا ، حتى إن من المعالجين من يكتفى بقوله : « اخرج منه » ، أو بقول : « بسم الله » ، أو بقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، والنبى ﷺ كان يقول : « اخرج عدو الله أنا رسول الله » (١) .

---

(١) ابن ماجه (٣٥٤٨) فى الطب ، باب : الفزع والأرق وما يتعوذ منه ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات . . . » .

وشاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التى فيه ، ويقول : قال لك الشيخ : اخرجى ، فإن هذا لا يحل لك ، فيفيق المصروع ، وربما خاطبها بنفسه ، وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب ، فيفيق المصروع ولا يحس بألم ، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً .

وكان كثيرًا ما يقرأ فى أذن المصروع : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)** ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

وحدثنى أنه قرأها مرة فى أذن المصروع ، فقالت الروح: نعم ،ومد بها صوته .قال : فأخذت له عصا ، وضربته بها فى عروق عنقه حتى كلت يداى من الضرب ، ولم يشك الحاضرون أنه يموت لذلك الضرب . ففى أثناء الضرب قالت : أنا أحبه ، فقلت لها : هو لا يحبك ، قالت :أنا أريد أن أحج به ، فقلت لها : هو لا يريد أن يحج معك ، فقالت : أنا أدعه كرامة لك ، قال : قلت : لا ولكن طاعة لله ولرسوله ، قالت : فأنا أخرج منه ، قال: فقعد المصروع يلتفت يمينًا وشمالاً ، وقال : ما جاء بى إلى حضرة الشيخ ، قالوا له : وهذا الضرب كله فقال : وعلى أى شىء يضربنى الشيخ ولم أذنب ، ولم يشعر بأنه وقع به ضرب البتة .

وكان يعالج بآية الكرسى ، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع ومن يعالجه بها ، وبقراءة المعوذتين .

وبالجملة فهذا النوع من الصرع ، وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة ، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم ، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر ، والتعاويذ ، والتحصنات النبوية والإيمانية ، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه ، وربما كان عريانًا فيؤثر فيه هذا .

ولو كشف الغطاء ، لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة ، وهى فى أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت ، ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها ، وبها الصرع الأعظم الذى لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة ، فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة ، وبالله المستعان .

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل ، وأن تكون الجنة والنار نصب عينيه وقبله قلبه،ويستحضر أهل الدنيا ، وحلول المثلات والآفات بهم ، ووقوعها خلال ديارهم كمواقع القطر،وهم صرعى لا يفيقون ، وما أشد داء هذا الصرع ،

ولكن لما عمت البلية به بحيث لا يرى إلا مصروعًا ، لم يصر مستغربًا ولا مستنكرًا ، بل صار لكثرة المصروعين عين المستنكر المستغرب خلافه .

فإذا أراد الله بعبد خيرًا أفاق من هذه الصرعة ، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يمينًا وشمالاً على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من أطبق به الجنون ، ومنهم من يفيق أحيانًا قليلة ، ويعود إلى جنونه ، ومنهم من يفيق مرة ، ويجن أخرى ، فإذا أفاق عمل عمل أهل الإفاقة والعقل ، ثم يعاوده الصرع فيقع فى التخبط .

وأما صرع الأخلاط ، فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعًا غير تام ، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة ، فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفى الأعضاء نفوذًا تامًا من غير انقطاع بالكلية ، وقد تكون لأسباب أخر كريح غليظ يحتبس فى منافذ الروح ، أو بخار ردىء يرتفع إليه من بعض الأعضاء ، أو كيفية لاذعة ، فينقبض الدماغ لدفع المؤذى ، فيتبعه تشنج فى جميع الأعضاء ، ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصبًا بل يسقط ، ويظهر فى فيه الزبد غالبًا .

وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة ، وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها ، وعسر برئها لا سيما إن تجاوز فى السن خمسًا وعشرين سنة ، وهذه العلة فى دماغه ، وخاصة فى جوهره ، فإن صرع هؤلاء يكون لازمًا .قال أبقراط : إن الصرع يبقى فى هؤلاء حتى يموتوا .

إذا عرف هذا ، فهذه المرأة التى جاء الحديث أنها كانت تصرع وتتكشف ، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع ، فوعدها النبى ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض ، ودعا لها ألا تتكشف ، وخيرها بين الصبر والجنة ، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان ، فاختارت الصبر والجنة .

وفى ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوى ، وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء ، وأن تأثيره وفعله ، وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية ، وانفعال الطبيعة عنها ، وقد جربنا هذا مرارًا نحن وغيرنا ، وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية ، وانفعالاتها فى شفاء الأمراض عجائب ، وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم ، وسفلتهم ، وجهالهم .
والظاهر : أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع ، ويجوز أن يكون من جهة الأرواح ، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة ، وبين الدعاء لها بالشفاء ، فاختارت الصبر والستر ، والله أعلم (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٦٦ ـ ٧١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج عرق النسا

روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث محمد بن سيرين،عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ، ثم يشرب على الريق فى كل يوم جزء » (١) .

عرق النساء : وجع يبتدئ من مفصل الورك ، وينزل من خلف على الفخذ ، وربما على الكعب ، وكلما طالت مدته ، زاد نزوله ، وتهزل معه الرجل والفخذ ، وهذا الحديث فيه معنى لغوى ، ومعنى طبى . فأما المعنى اللغوى ، فدليل على جواز تسمية هذا المرض بعرق النسا خلافًا لمن منع هذه التسمية ، وقال : النسا هو العرق نفسه ، فيكون من باب إضافة الشىء إلى نفسه وهو ممتنع .

وجواب هذا القائل من وجهين :

أحدهما : أن العرق أعم من النسا ، فهو من باب إضافة العام إلى الخاص نحو : كل الدراهم أو بعضها .

الثانى : أن النسا : هو المرض الحال بالعرق ، والإضافة فيه من باب إضافة الشىء إلى محله وموضعه . قيل : وسمى بذلك لأن ألمه ينسى ما سواه ، وهذا العرق ممتد من مفصل الورك ، وينتهى إلى آخر القدم ، وراء الكعب من الجانب الوحشى فيما بين عظم الساق والوتر .

وأما المعنى الطبى فقد تقدم أن كلام رسول الله ﷺ نوعان :

أحدهما : عام بحسب الأزمان ، والأماكن ، والأشخاص ، والأحوال .

والثانى : خاص بحسب هذه الأمور أو بعضها ، وهذا من هذا القسم ، فإن هذا خطاب للعرب ، وأهل الحجاز ، ومن جاورهم ، ولا سيما أعراب البوادى ، فإن هذا العلاج من أنفع العلاج لهم ، فإن هذا المرض يحدث من يبس ، وقد يحد من مادة غليظة لزجة ، فعلاجها بالإسهال والألية الخاصيتان : الإنضاج ، والتليين ، ففيها الإنضاج ، والإخراج، وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين ، وفى تعيين الشاة الأعرابية لقلة

(١) ابن ماجه (٣٤٦٣) فى الطب ، باب : دواء عرق النسا ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

فضولها ، وصغر مقدارها ، ولطف جوهرها ، وخاصية مرعاها لأنها ترعى أعشاب البر الحارة ، كالشيح ، والقيصوم ، ونحوهما ، وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان ، صار فى لحمه من طبعها بعد أن يلطفها تغذيه بها ، ويكسبها مزاجًا ألطف منها ، ولا سيما الألية ، وظهور فعل هذه النباتات فى اللبن أقوى منه فى اللحم ، ولكن الخاصية التى فى الألية من الإنضاج والتليين لا توجد فى اللبن ، وهذا كما تقدم أن أدوية غالب الأمم والبوادى هى الأدوية المفردة ، وعليه أطباء الهند .

وأما الروم واليونان ، فيعتنون بالمركبة ، وهم متفقون كلهم على أن من مهارة الطبيب أن يداوى بالغذاء ، فإن عجز فبالمفرد ، فإن عجز فبما كان أقل تركيبًا .

وقد تقدم أن غالب عادات العرب وأهل البوادى الأمراض البسيطة ، فالأدوية البسيطة تناسبها ، وهذا لبساطة أغذيتهم فى الغالب ، وأما الأمراض المركبة فغالبًا ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها فاختيرت لها الأدوية المركبة ، والله تعالى أعلم (١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج يبس الطبع ، واحتياجه إلى ما يمشيه ويلينه

روى الترمذى فى « جامعه » وابن ماجه فى « سننه » من حديث أسماء بنت عميس ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « بماذا كنت تستمشين » ؟ قالت : بالشبرم ، قال : « حار جار » قالت: استمشيت بالسنا ، فقال : « لو كان شىء يشفى من الموت لكان السنا » (٢) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن إبراهيم بن أبى عبلة، قال: سمعت عبد الله ابن أم حرام ، وكان قد صلى مع رسول الله ﷺ القبلتين يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « عليكم بالسنا والسنوت ، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام »، قيل: يا رسول الله ! وما السام ؟ قال : « الموت » (٣) .

قوله : « بماذا كنت تستمشين » ؟ أى : تلينين الطبع حتى يمشى ، ولا يصير بمنزلة الواقف ، فيؤذى باحتباس النجو ، ولهذا سمى الدواء المسهل مشيًا على وزن فعيل ،

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٧١ ـ ٧٣) .

(٢) الترمذى (٢٠٨١) فى الطب ، باب : ما جاء فى السنا ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٣٤٦١) فى الطب ، باب : دواء المشى ، وضعفه الألبانى .

(٣) ابن ماجه (٣٤٥٧) فى الطب ، باب : السنا والسنوت ، وفى الزوائد : « فى إسناده عمرو بن بكر السكسكى قال فيه ابن حبان : روى عن إبراهيم بن أبى عبلة الأوابد والطامات لا يحل الاحتجاج به ، لكن قال الحاكم : « إنه إسناد صحيح » .

وقيل : لأن المسهول يكثر المشى والاختلاف للحاجة وقد روى : « بماذا تستشفين » ؟ فقالت : بالشبرم ، وهو من جملة الأدوية اليتوعية ، وهو قشر عرق شجرة ، وهو حار يابس فى الدرجة الرابعة ، وأجوده المائل إلى الحمرة ، الخفيف الرقيق الذى يشبه الجلد الملفوف ، وبالجملة فهو من الأدوية التى أوصى الأطباء بترك استعمالها لخطرها ، وفرط إسهالها .

وقوله ﷺ : « حار جار » ويروى : « حار يار » ، قال أبو عبيد : وأكثر كلامهم بالياء . قلت : وفيه قولان :

أحدهما : أن الحار الجار ـ بالجيم : الشديد الإسهال ، فوصفه بالحرارة ، وشدة الإسهال وكذلك هو ، قاله أبو حنيفة الدينورى .

والثانى ـ وهو الصواب : أن هذا من الإتباع الذى يقصد به تأكيد الأول ، ويكون بين التأكيد اللفظى والمعنوى ،ولهذا يراعون فيه إتباعه فى أكثر حروفه ، كقولهم :حسن بسن ، أى : كامل الحسن ، وقولهم : حسن قسن بالقاف ، ومنه شيطان ليطان ، وحار جار ، مع أن فى الجار معنى آخر،وهو الذى يجر الشىء الذى يصيبه من شدة حرارته وجذبه له ، كأنه ينزعه ويسلخه . ويار : إما لغة فى جار ، كقولهم : صهرى وصهريج ، والصهارى والصهاريج ، وإما إتباع مستقل .

وأما السنا ، ففيه لغتان : المد والقصر ، وهو نبت حجازى أفضله المكى ، وهو دواء شريف مأمون الغائلة ، قريب من الاعتدال ، حار يابس فى الدرجة الأولى ، يسهل الصفراء والسوداء ، ويقوى جرم القلب ، وهذه فضيلة شريفة فيه ، وخاصيته النفع من الوسواس السوداوى ، ومن الشقاق العارض فى البدن ، ويفتح العضل وينفع من انتشار الشعر ، ومن القمل والصداع العتيق ، والجرب ، والبثور ، والحكة ، والصرع ، وشرب مائه مطبوخًا أصلح من شربه مدقوقًا ، ومقدار الشربة منه ثلاثة دراهم ، ومن مائة خمسة دراهم،وإن طبخ معه شىء من زهر البنفسج والزبيب الأحمر المنزوع العجم كان أصلح .

قال الرازى : السناء والشاهترج يسهلان الأخلاط المحترقة ، وينفعان من الجرب والحكة ، والشربة من كل واحد منهما من أربعة دراهم إلى سبعة دارهم .

وأما السنوت، ففيه ثمانية أقوال ؛ أحدها : أنه العسل. والثانى : أنه رب عكة السمن يخرج خططًا سوداء على السمن ، حكاهما عمرو بن بكر السكسكى . الثالث : أنه حب يشبه الكمون وليس به ، قاله ابن الأعرابى ، الرابع : أنه الكمون الكرمانى ، والخامس :

أنه الرازيانج ، حكاهما أبو حنيفة الدينورى عن بعض الأعراب . السادس : أنه الشبت . السابع : أنه التمر حكاهما أبو بكر بن السنى الحافظ . الثامن : أنه العسل الذى يكون فى زقاق السمن ، حكاه عبد اللطيف البغدادى ، قال بعض الأطباء : وهذا أجدر بالمعنى ، وأقرب إلى الصواب ، أى : يخلط السناء مدقوقًا بالعسل المخالط للسمن ، ثم يلعق فيكون أصلح من استعماله مفردًا لما فى العسل والسمن من إصلاح السنا ، وإعانته له على الإسهال . والله أعلم .

وقد روى الترمذى وغيره من حديث ابن عباس يرفعه : « إن خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة ، والمشى » (١) والمشى : هو الذى يمشى الطبع ويلينه ويسهل خروج الخارج (٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج حكة الجسم وما يولد القمل

فى « الصحيحين » من حديث قتادة ، عن أنس بن مالك قال : رخص رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما فى لبس الحرير لحكة كانت بهما .

وفى رواية : أن عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما ، شكوا القمل إلى النبى ﷺ فى غزاة لهما ، فرخص لهما فى قميص الحرير ، ورأيته عليهما » (٣) .

هذا الحديث يتعلق به أمران : أحدهما : فقهى ، والآخر طبى .

فأما الفقهى : فالذى استقرت عليه سنته ﷺ إباحة الحرير للنساء مطلقًا ، وتحريمه على الرجال إلا لحاجة ومصلحة راجحة ، فالحاجة إما من شدة البرد ، ولا يجد غيره ، أو لا يجد سترة سواه ومنها : لباسه للجرب ، والمرض ، والحكة وكثرة القمل كما دل عليه حديث أنس هذا الصحيح .

والجواز : أصح الروايتين عن الإمام أحمد ، وأصح قولى الشافعى ؛ إذ الأصل عدم التخصيص ، والرخصة إذا ثبتت فى حق بعض الأمة لمعنى تعدت إلى كل من وجد فيه ذلك المعنى ، إذ الحكم يعم بعموم سببه .

---

(١) الترمذى (٢٠٤٧) فى الطب ، باب :ما جاء فى السعوط وغيره ، وقال : « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٧٣ ـ ٧٦) .
(٣) البخارى (٢٩١٩ ـ ٢٩٢٢) فى الجهاد ، باب : الحرير فى الحرب ، ومسلم (٢٠٧٦ / ٢٤ ـ ٢٦) فى اللباس والزينة ، باب : إباحة لبس الحرير للرجل ، إذا كان به حكة أو نحوها .

ومن منع منه ، قال : أحاديث التحريم عامة ، وأحاديث الرخصة يحتمل اختصاصها بعبد الرحمن بن عوف والزبير ، ويحتمل تعديها إلى غيرهما وإذا احتمل الأمران ، كان الأخذ بالعموم أولى ، ولهذا قال بعض الرواة فى هذا الحديث : فلا أدرى أبلغت الرخصة من بعدهما ، أم لا ؟

والصحيح : عموم الرخصة ، فإنه عرف خطاب الشرع فى ذلك ما لم يصرح بالتخصيص ، وعدم إلحاق غير من رخص له أولاً به ، كقوله لأبى بردة فى تضحيته بالجذعة من المعز : « تجزيك ولن تجزى عن أحد بعدك » وكقوله تعالى لنبيه ﷺ فى نكاح من وهبت نفسها له : ﴿ **خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

وتحريم الحرير : إنما كان سداً للذريعة ، ولهذا أبيح للنساء ، وللحاجة ، والمصلحة الراجحة ، وهذه قاعدة ما حرم لسد الذرائع ، فإنه يباح عند الحاجة والمصلحة الراجحة ، كما حرم النظر سداً لذريعة الفعل ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة الراجحة ، وكما حرم التنفل بالصلاة فى أوقات النهى سداً لذريعة المشابهة الصورية بعباد الشمس ، وأبيحت للمصلحة الراجحة ، وكما حرم ربا الفضل سداً لذريعة ربا النسيئة ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة من العرايا ، وقد أشبعنا الكلام فيما يحل ويحرم من لباس الحرير فى كتاب « التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير » .

وأما الأمر الطبى : فهو أن الحرير من الأدوية المتخذة من الحيوان ، ولذلك يعد فى الأدوية الحيوانية ، لأن مخرجه من الحيوان ، وهو كثير المنافع ، جليل الموقع ، ومن خاصيته تقوية القلب،وتفريحه ، والنفع من كثير من أمراضه ، ومن غلبة المرة السوداء ، والأدواء الحادثة عنها ، وهو مقو للبصر إذا اكتحل به ، والخام منه ـ وهو المستعمل فى صناعة الطب ـ حار يابس فى الدرجة الأولى ، وقيل : حار رطب فيها : وقيل : معتدل ، وإذا اتخذ منه ملبوس كان معتدل الحرارة فى مزاجه ، مسخنًا للبدن ، وربما برد البدن بتسمينه إياه .

قال الرازى : الإبريسم أسخن من الكتاب ، وأبرد من القطن ، يربى اللحم ، وكل لباس خشن ، فإنه يهزل ، ويصلب البشرة وبالعكس .

قلت : والملابس ثلاثة أقسام ؛ قسم يسخن البدن ويدفئه ، وقسم يدفئه ولا يسخنه ، وقسم لا يسخنه ولا يدفئه ، وليس هناك ما يسخنه ولا يدفئه ، إذ ما يسخنه فهو أولى بتدفئته ، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفئ ، وملابس الكتان والحرير والقطن تدفئ ولا تسخن ، فثياب الكتان باردة يابسة ، وثياب الصوف حارة يابسة ، وثياب القطن

معتدلة الحرارة ، وثياب الحرير ألين من القطن وأقل حرارة منه .

قال صاحب « المنهاج » : ولبسه لا يسخن كالقطن ، بل هو معتدل ، وكل لباس أملس صقيل ، فإنه أقل إسخانًا للبدن ، وأقل عونًا فى تحلل ما يتحلل منه ، وأحرى أن يلبس فى الصيف ، وفى البلاد الحارة .

ولما كانت ثياب الحرير كذلك، وليس فيها شىء من اليبس والخشونة الكائنين فى غيرها، صارت نافعة من الحكة ، إذ الحكة لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة ، فلذلك رخص رسول الله ﷺ للزبير وعبد الرحمن فى لباس الحرير لمداواة الحكة ، وثياب الحرير أبعد عن تولد القمل فيها ، إذ كان مزاجها مخالفة لمزاج ما يتولد منه القمل .

وأما القسم الذى لا يدفئ ولا يسخن ، فالمتخذ من الحديد والرصاص ، والخشب والتراب ، ونحوها ، فإن قيل : فإذا كان لباس الحرير أعدل اللباس وأوفقه للبدن ، فلماذا حرمته الشريعة الكاملة الفاضلة التى أباحت الطيبات ، وحرمت الخبائث ؟

قيل : هذا السؤال يجيب عنه كل طائفة من طوائف المسلمين بجواب ، فمنكرو الحكم والتعليل لما رفعت قاعدة التعليل من أصلها لم يحتاجوا إلى جواب عن هذا السؤال .

ومثبتو التعليل والحكم ـ وهم الأكثرون ـ منهم من يجيب عن هذا بأن الشريعة حرمته لتصبر النفوس عنه ، وتتركه لله ، فتثاب على ذلك لا سيما ولها عوض عنه بغيره .

ومنهم من يجيب عنه بأنه خلق فى الأصل للنساء ، كالحلية بالذهب ، فحرم على الرجال لما فيه من مفسدة تشبه الرجال بالنساء ، ومنهم من قال : حرم لما يورثه من الفخر والخيلاء والعجب ، ومنهم من قال : حرم لما يورثه بملامسته للبدن من الأنوثة والتخنث ، وضد الشهامة والرجولة ، فإن لبسه يكسب القلب صفة من صفات الإناث ، ولهذا لا تكاد تجد من يلبسه فى الأكثر إلا وعلى شمائله من التخنث والتأنث والرخاوة ما لا يخفى ، حتى لو كان من أشهم الناس وأكثرهم فحولية ورجولية، فلا بد أن ينقصه لبس الحرير منها، وإن لم يذهبها، ومن غلظت طباعه وكثفت عن فهم هذا، فليسلم للشارع الحكيم ، ولهذا كان أصح القولين: أنه يحرم على الولى أن يلبسه الصبى لما ينشأ عليه من صفات أهل التأنيث .

وقد روى النسائى من حديث أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله أحل لإناث أمتى الحرير والذهب ، وحرمه على ذكورها » وفى لفظ : « حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى ، وأحل لإناثهم » (١) .

---

(١) النسائى (٥١٤٨) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال .

وفى « صحيح البخارى » عن حذيفة قال : نهى رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديباج ، وأن يجلس عليه ، وقال : « هو لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » (١) (٢) .

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج ذات الجنب

روى الترمذى فى « جامعه » من حديث زيد بن أرقم ، أن النبى ﷺ قال : « تداووا من ذات الجنب بالقسط البحرى والزيت » (٣) .

وذات الجنب عند الأطباء نوعان : حقيقى وغير حقيقى ، فالحقيقى : ورم حار يعرض فى نواحى الجنب فى الغشاء المستبطن للأضلاع ، وغير الحقيقى : ألم يشبهه يعرض فى نواحى الجنب عن رياح غليظة مؤذية تحتقن بين الصفاقات ، فتحدث وجعًا قريبًا من وجع ذات الجنب الحقيقى ، إلا أن الوجع فى هذا القسم ممدود ، وفى الحقيقى ناخس .

قال صاحب « القانون » : قد يعرض فى الجنب ، والصفاقات ، والعضل التى فى الصدر ، والأضلاع ، ونواحيها أورام مؤذية جدًا موجعة ، تسمى شوصة وبرسامًا ، وذات الجنب،وقد تكون أيضًا أوجاعًا فى هذه الأعضاء ليست من ورم ، ولكن من رياح غليظة ، فيظن أنها من هذه العلة ، ولا تكون منها . قال : واعلم أن كل وجع فى الجنب قد يسمى ذات الجنب اشتقاقًا من مكان الألم ، لأن معنى ذات الجنب صاحبة الجنب ، والغرض به هاهنا وجع الجنب ، فإذا عرض فى الجنب ألم عن أى سبب كان نسب إليه ، وعليه حمل كلام بقراط فى قوله : إن أصحاب ذات الجنب ينتفعون بالحمام ، قيل : المراد به كل من به وجع جنب ، أو وجع رئة من سوء مزاج ، أو من أخلاط غليظة ، أو لذاعة من غير ورم ولا حمى .

قال بعض الأطباء : وأما معنى ذات الجنب فى لغة اليونان ، فهو ورم الجنب الحار ، وكذلك ورم كل واحد من الأعضاء الباطنة ، وإنما سمى ذات الجنب ورم ذلك العضو إذا كان ورمًا حارًا فقط .

ويلزم ذات الجنب الحقيقى خمسة أعراض :وهى الحمى والسعال ، والوجع الناخس ،

---

(١) البخارى (٥٨٣٠) فى اللباس ، باب : لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٧٦ ـ ٨١) .

(٣) الترمذى (٢٠٧٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى دواء ذات الجنب ، وقال : « حسن غريب صحيح » ، وضعفه الألبانى .

وضيق النفس ، والنبض المنشارى .

والعلاج الموجود فى الحديث ، ليس هو لهذا القسم ، لكن للقسم الثانى الكائن عن الريح الغليظة ، فإن القسط البحرى ـ وهو العود الهندى على ما جاء مفسرًا فى أحاديث أخرى ـ صنف من القسط إذا دق دقًا ناعمًا ، وخلط بالزيت المسخن ، ودلك به مكان الريح المذكور ، أو لعق ، كان دواءً موافقًا لذلك ، نافعًا له ، محللاً لمادته ، مذهبًا لها ، مقويًا للأعضاء الباطنة ، مفتحًا للسدد ، والعود المذكور فى منافعه كذلك .

قال المسبحى : العود : حار يابس ، قابض يحبس البطن ، ويقوى الأعضاء الباطنة ، ويطرد الريح ، ويفتح السدد ، نافع من ذات الجنب ، ويذهب فضل الرطوبة ، والعود المذكور جيد للدماغ . قال : ويجوز أن ينفع القسط من ذات الجنب الحقيقة أيضًا إذا كان حدوثها عن مادة بلغمية لا سيما فى وقت انحطاط العلة ، والله أعلم .

وذات الجنب : من الأمراض الخطرة ؛ وفى الحديث الصحيح : عن أم سلمة ، أنها قالت : بدأ رسول الله ﷺ بمرضه فى بيت ميمونة ، وكان كلما خف عليه ، خرج وصلى بالناس ، وكان كلما وجد ثقلا قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » (١) ، واشتد شكواه حتى غمر عليه من شدة الوجع ، فاجتمع عنده نساؤه ، وعمه العباس ، وأم الفضل بنت الحارث وأسماء بنت عميس ، فتشاوروا فى لده، فلدوه وهو مغمور ،فلما أفاق قال: « من فعل بى هذا ، هذا من عمل نساء جئن من هاهنا » ، وأشار بيده إلى أرض الحبشة ، وكانت أم سلمة وأسماء لدتاه ،فقالوا : يا رسول الله ، خشينا أن يكون بك ذات الجنب . قال : « فبم لددتمونى » ؟ قالوا : بالعود الهندى ، وشىء من ورس ، وقطرات من زيت . فقال : « ما كان الله ليقذفنى بذلك الداء » ، ثم قال : « عزمت عليكم ألا يبقى فى البيت أحد إلا لد إلا عمى العباس » (٢).

وفى « الصحيحين » عن عائشة ﵂ قالت : لددنا رسول الله ﷺ ، فأشار ألا تلدونى ، فقلنا : كراهية المريض للدواء ، فلما أفاق قال : « ألم أنهكم أن تلدونى ، لا يبقى منكم أحد إلا لد غير عمى العباس ، فإنه لم يشهدكم » (٣) .

قال أبو عبيد عن الأصمعى : اللدود ما يسقى الإنسان فى أحد شقى الفم ، أخذ من

---

(١) البخارى (٦٦٤) فى الأذان ، باب :حد المريض أن يشهد الجماعة ، ومسلم (٤١٨ / ٩٠) فى الصلاة ، باب : استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلى بالناس ، عن عائشة .

(٢) المصنف لعبد الرزاق (٩٧٥٤) .

(٣) البخارى (٥٧١٢) فى الطب ، باب : اللدود ، ومسلم (٢٢١٣ / ٨٥) فى السلام ، باب : كراهة التداوى باللدود .

لديدى الوادى ، وهما جانباه ، وأما الوجور : فهو فى وسط الفم .

قلت: واللدود ـ بالفتح : هو الدواء الذى يلد به ، والسعوط : ما أدخل من أنفه .

وفى هذا الحديث من الفقه معاقبة الجانى بمثل ما فعل سواء ، إذا لم يكن فعله محرمًا لحق الله ، وهذا هو الصواب المقطوع به لبضعة عشر دليلاً قد ذكرناها فى موضع آخر ، وهو منصوص أحمد ، وهو ثابت عن الخلفاء الراشدين ، وترجمة المسألة بالقصاص فى اللطمة والضربة، وفيها عدة أحاديث لا معارض لها البتة ، فيتعين القول بها [1] .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج الصداع والشقيقة

روى ابن ماجه فى « سننه » حديثًا فى صحته نظر : أن النبى ﷺ كان إذا صدع ، غلف رأسه بالحناء ، ويقول : « إنه نافع بإذن الله من الصداع » [2] .

والصداع : ألم فى بعض أجزاء الرأس أو كله ، فما كان منه فى أحد شقى الرأس لازمًا يسمى شقيقة ، وإن كان شاملاً لجميعه لازمًا ، يسمى بيضة وخودة تشبيهًا ببيضة السلاح التى تشتمل على الرأس كله ، وربما كان فى مؤخر الرأس أو فى مقدمه .

وأنواعه كثيرة ، وأسبابه مختلفة ، وحقيقة الصداع سخونة الرأس ، واحتماؤه لما دار فيه من البخار يطلب النفوذ من الرأس ، فلا يجد منفذًا ، فيصدعه كما يصدع الوعى إذا حمى ما فيه وطلب النفوذ ، فكل شىء رطب إذا حمى ، طلب مكانًا أوسع من مكانه الذى كان فيه ، فإذا عرض هذا البخار فى الرأس كله بحيث لا يمكنه التفشى والتحلل ، وجال فى الرأس ، سمى السدر .

والصداع يكون عن أسباب عديدة :

أحدها : من غلبة واحد من الطبائع الأربعة .

والخامس : يكون من قروح تكون فى المعدة ، فيألم الرأس لذلك الورم لاتصال العصب المنحدر من الرأس بالمعدة .

والسادس : من ريح غليظة تكون فى المعدة ، فتصعد إلى الرأس فتصدعه .

والسابع : يكون من ورم فى عروق المعدة ، فيألم الرأس بألم المعدة للاتصال الذى بينهما.

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٨١ ـ ٨٤) .

(٢) ابن ماجه (٣٥٠٢) فى الطب ، باب : الحناء .

والثامن : صداع يحصل عن امتلاء المعدة من الطعام ، ثم ينحدر ويبقى بعضه نيئًا ، فيصدع الرأس ويثقله .

والتاسع :يعرض بعد الجماع لتخلخل الجسم،فيصل إليه من حر الهواء أكثر من قدره .

والعاشر : صداع يحصل بعد القيء والاستفراغ ، إمام لغلبة اليبس ، وإما لتصاعد الأبخرة من المعدة إليه .

والحادى عشر : صداع يعرض عن شدة الحر وسخونة الهواء .

والثانى عشر : ما يعرض عن شدة البرد ، وتكاثف الأبخرة فى الرأس وعدم تحللها .

والثالث عشر : ما يحدث من السهر وعدم النوم .

والرابع عشر : ما يحدث من ضغط الرأس وحمل الشىء الثقيل عليه .

والخامس عشر : ما يحدث من كثرة الكلام ، فتضعف قوة الدماغ لأجله .

والسادس عشر : ما يحدث من كثرة الحركة والرياضة المفرطة .

والسابع عشر : ما يحدث من الأعراض النفسانية ، كالهموم ، والغموم ، والأحزان ، والوساوس ، والأفكار الرديئة .

والثامن عشر : ما يحدث من شدة الجوع ، فإن الأبخرة لا تجد ما تعمل فيه ، فتكثر وتتصاعد إلى الدماغ فتؤلمه .

والتاسع عشر : ما يحدث عن ورم فى صفاق الدماغ ، ويجد صاحبه كأنه يضرب بالمطارق على رأسه .

والعشرون : ما يحدث بسبب الحمى لاشتعال حرارتها فيه فيتألم ، والله أعلم .

وسبب صداع الشقيقة مادة فى شرايين الرأس وحدها حاصلة فيه ، أو مرتقية إليها ، فيقبلها الجانب الأضعف من جانبيه ، وتلك المادة إما بخارية ، وإما أخلاط حارة أو باردة ، وعلامتها الخاصة بها ضربان الشرايين ، وخاصة فى الدموى ، وإذا ضبطت بالعصائب ، ومنعت من الضربان ، سكن الوجع .

وقد ذكر أبو نعيم فى كتاب « الطب النبوى » له : أن النوع كان يصيب النبى ﷺ ، فيمكث اليوم واليومين ، ولا يخرج .

وفيه : عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، وقد عصب رأسه بعصابة .

وفى « الصحيح » ، أنه قال فى مرض موته : « وارأساه » [(١)] وكان يعصب رأسه فى مرضه ، وعصب الرأس ينفع فى وجع الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس .

وعلاجه يختلف باختلاف أنواعه وأسبابه ، فمنه ما علاجه بالاستفراغ ، ومنه ما علاجه بتناول الغذاء ، ومنه ما علاجه بالسكون والدعة ، ومنه ما علاجه بالضمادات ، ومنه ما علاجه بالتبريد ، ومنه ما علاجه بالتسخين ، ومنه ما علاجه بأن يجتنب سماع الأصوات والحركات .

إذا عرف هذا ، فعلاج الصداع فى هذا الحديث بالحناء ، هو جزئى لا كلى ، وهو علاج نوع من أنواعه ، فإن الصداع إذا كان من حرارة ملهبة ، ولم يكن من مادة يجب استفراغها ، نفع فيه الحناء نفعًا ظاهرًا ، وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل ، سكن الصداع ، وفيه قوة ،موافقة للعصب إذا ضمد به ، سكنت أوجاعه ، وهذا لا يختص بوجع الرأس ، بل يعم الأعضاء وفيه قبض تشد به الأعضاء ، وإذا ضمد به موضع الورم الحار والملتهب ، سكنه .

وقد روى البخارى فى « تاريخه » وأبو داود فى « السنن » أن رسول الله ﷺ ما شكى إليه أحد وجعًا فى رأسه إلا قال له : « احتجم » ، ولا شكى إليه وجعًا فى رجليه إلا قال له : « اختضب بالحناء » [(٢)] .

وفى الترمذى : عن سلمى أم رافع خادمة النبى ﷺ قالت : كان لا يصيب النبى ﷺ قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء » [(٣)] .

والحناء بارد فى الأول ، يابس فى الثانية ، وقوة شجر الحناء وأغصانها مركبة من قوة محللة اكتسبها من جوهر فيها مائى ، حار باعتدال ، ومن قوة قابضة اكتسبتها من جوهر فيها أرضى بارد .

ومن منافعه أنه محلل نافع من حرق النار ، وفيه قوة موافقة للعصب إذا ضمد به ، وينفع إذا مضغ من قروح الفم والسلاق العارض فيه ، ويبرئ القلاع الحادث فى أفواه الصبيان ، والضماد به ينفع من الأورام الحارة الملهبة ، ويفعل فى الجراحات فعل دم الأخوين ، وإذا خلط نوره مع الشمع المصفى ، ودهن الورد ، ينفع من أوجاع الجنب .

---

(١) البخارى (٥٦٦٦) فى المرضى ، باب :ما رخص للمريض أن يقول : إنى وجع أو وارأساه أو اشتد بى الوجع .
(٢) أبو داود (٣٨٥٨) فى الطب ، باب : فى الحجامة .
(٣) الترمذى (٢٠٥٤) فى الطب ، باب : ما جاء فى التداوى بالحناء ، وقال : « حسن غريب » .

ومن خواصه أنه إذا بدأ الجدرى يخرج بصبى ، فخضبت أسافل رجليه بحناء ، فإنه يؤمن على عينيه أن يخرج فيها شيء منه ، وهذا صحيح مجرب لا شك فيه ، وإذا جعل نوره بين طى ثياب الصوف طيبها ،ومنع السوس عنها ،وإذا نقع ورقه فى ماء عذب يغمره ، ثم عصر وشرب من صفوه أربعين يومًا كل يوم عشرون درهمًا مع عشرة دراهم سكر ، ويغذى عليه بلحم الضأن الصغير ، فإنه ينفع من ابتداء الجذام بخاصية فيه عجيبة .

وحكى أن رجلا تشققت أظافير أصابع يده ، وأنه بذل لمن يبرئه مالاً ، فلم يجد ، فوصفت له امرأة ، أن يشرب عشرة أيام حناء ، فلم يقدم عليه ، ثم نقعه بماء وشربه ، فبرأ ورجعت أظافيره إلى حسنها .

والحناء إذا ألزمت به الأظفار معجونًا حسنها ونفعها ،وإذا عجن بالسمن وضمد به بقايا الأورام الحارة التى ترشح ماء أصفر،نفعها ونفع من الجرب المتقرح المزمن منفعة بليغة ، وهو ينبت الشعر ويقويه ،ويحسنه ، ويقوى الرأس ،وينفع من النفاطات ، والبور العارضة فى الساقين والرجلين ، وسائر البدن [١] .

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج العذرة ، وفى العلاج بالسعوط

ثبت عنه فى « الصحيحين » أنه قال:« خير ما تداويتم به الحجامة ،والقسط البحرى ، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة » [٢] .

وفى « السنن » و« المسند » عنه من حديث جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ على عائشة ، وعندها صبى يسيل منخراه دمًا ، فقال : « ما هذا ؟ » . فقالوا : به العذرة ، أو وجع فى رأسه ،فقال:« ويلكن لا تقتلن أولادكن أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع فى رأسه ، فلتأخذ قسطًا هنديًا فلتحكه بماء ، ثم تسعطه إياه » فأمرت عائشة رضي الله عنها فصنع ذلك بالصبى ، فبرأ [٣] .

قال أبو عبيد عن أبى عبيدة : العذرة : تهيج فى الحلق من الدم ، فإذا عولج منه ،

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٨٤ ـ ٩٠) .

(٢) البخارى (٥٦٩٦) فى الطب ، باب : الحجامة من الداء ، ومسلم (١٥٧٧ / ٦٢) فى المساقاة ، باب : حل أجرة الحجامة .

(٣) أحمد (٣ / ٣١٥) ،وأبو يعلى (١٩١٢) ، وقال : الهيثمى فى المجمع (٥ / ٩٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

قيل : قد عذر به ، فهو معذور ، انتهى . وقيل : العذرة : قرحة تخرج فيما بين الأذن والحلق ، وتعرض للصبيان غالبًا .

وأما نفع السعوط منها بالقسط المحكوك ، فلأن العذرة مادتها دم يغلب عليه البلغم ، لكن تولده فى أبدان الصبيان أكثر ، وفى القسط تجفيف يشد اللهاة ويرفعها إلى مكانها ، وقد يكون نفعه فى هذا الداء بالخاصية ، وقد ينفع فى الأدواء الحارة ، والأدوية الحارة بالذات تارة ، وبالعرض أخرى ، وقد ذكر صاحب القانون » فى معالجة سقوط اللهاة : القسط مع الشب اليمانى وبزر المرو .

والقسط البحرى المذكور فى الحديث : هو العود الهندى ، وهو الأبيض منه ، وهو حلو ، وفيه منافع عديدة ، وكانوا يعالجون أولادهم بغمز اللهاة ، وبالعلاق ، وهو شىء يعلقونه على الصبيان ، فنهاهم النبى ﷺ عن ذلك ، وأرشدهم إلى ما هو أنفع للأطفال ، وأسهل عليهم .

والسعوط : ما يصب فى الأنف ، وقد يكون بأدوية مفردة ومركبة تدق وتنخل وتعجن وتجفف، ثم تحل عند الحاجة، ويسعط بها فى أنف الإنسان، وهو مستلق على ظهره ، وبين كتفيه ما يرفعهما لتنخفض رأسه ، فيتمكن السعوط من الوصول إلى دماغه ، ويستخرج ما فيه من الداء بالعطاس ، وقد مدح النبى ﷺ التداوى بالسعوط فيما يحتاج إليه فيه .

وذكر أبو داود فى « سننه » أن النبى ﷺ استعط (١) (٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج المفؤود

روى أبو داود فى « سننه » من حديث مجاهد ، عن سعد ، قال : مرضت مرضًا ، فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى ، فوضع يده بين ثديى حتى وجدت بردها على فؤادى ، وقال لى : « إنك رجل مفؤود فأت الحارث بن كلدة من ثقيف ، فإنه رجل يتطبب ، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة ، فليجأهن بنواهن ، ثم ليلدك بهن » (٣) .

المفؤود : الذى أصيب فؤاده ، فهو يشتكيه ، كالمبطون الذى يشتكى بطنه .

---

(١) أبو داود (٣٨٦٧) فى الطب ، باب : فى السعوط .

(٢) زاد المعاد (٤/ ٩٤ ـ ٩٦) .

(٣) أبو داود (٣٨٧٥) فى الطب ، باب : تمرة العجوة ، وضعفه الألبانى .

واللدود ما سقاه الإنسان من أحد جانبى الفم ، وفى التمر خاصية عجيبة لهذا الداء ، ولا سيما تمر المدينة ، ولا سيما العجوة منه . وفى كونها سبعًا خاصية أخرى ، تدرك بالوحى ، وفى « الصحيحين » : من حديث عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصبح بسبع تمراتٍ من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » (١) .

وفى لفظ : « من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح ، لم يضره سم حتى يمسى » (٢) .

والتمر حار فى الثانية ، يابس فى الأولى . وقيل : رطب فيها . وقيل : معتدل ، وهو غذاء فاضل حافظ للصحة لا سيما لمن اعتاد الغذاء به ، كأهل المدينة وغيرهم ، وهو من أفضل الأغذية فى البلاد الباردة والحارة التى حرارتها فى الدرجة الثانية ، وهو لهم أنفع منه لأهل البلاد الباردة ، لبرودة بواطن سكانها ، وحرارة بواطن سكان البلاد الباردة ، ولذلك يكثر أهل الحجاز واليمن والطائف ، وما يليهم من البلاد المشابهة لها من الأغذية الحارة ما لا يتأتى لغيرهم ، كالتمر والعسل ، وشاهدناهم يضعون فى أطعمتهم من الفلفل والزنجبيل كما يأكل غيرهم الحلوى ، ولقد شاهدت من يتنقل به منهم كما يتنقل بالنقل ؛ ويوافقهم ذلك ولا يضيرهم لبرودة أجوافهم ، وخروج الحرارة إلى ظاهر الجسد ، كما تشاهد مياه الآبار تبرد فى الصيف ، وتسخن فى الشتاء ، وكذلك تنضج المعدة من الأغذية الغليظة فى الشتاء ما لا تنضجه فى الصيف .

وأما أهل المدينة ، فالتمر لهم يكاد أن يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم ، وهو قوتهم ومادتهم ، وتمر العالية من أجود أصناف تمرهم ، فإنه متين الجسم ، لذيذ الطعم ، صادق الحلاوة ، والتمر يدخل فى الأغذية والأدوية والفاكهة ، وهو يوافق أكثر الأبدان ، مقو للحار الغريزى، ولا يتولد عنه من الفضلات الرديئة ما يتولد عن غيره من الأغذية والفاكهة، بل يمنع لمن اعتاده من تعفن الأخلاط وفسادها .

وهذا الحديث من الخطاب الذى أريد به الخاص ، كأهل المدينة ومن جاورهم ، ولا ريب أن للأمكنة اختصاصًا بنفع كثير من الأدوية فى ذلك المكان دون غيره ، فيكون الدواء الذى قد ينبت فى هذا المكان نافعًا من الداء ، ولا يوجد فيه ذلك النفع إذا نبت فى مكان

---

(١) البخارى (٥٧٦٩) فى الطب ، باب : الدواء بالعجوة للسحر ، ومسلم (٢٠٤٧ / ١٥٥) فى الأشربة ،باب : فضل تمر المدينة .

(٢) مسلم (٢٠٤٧ / ١٥٤) فى الأشربة ، باب : فضل تمر المدينة .

غيره لتأثير نفس التربة أو الهواء ، أو هما جميعًا ، فإن للأرض خواص وطبائع يقارب اختلافها اختلاف طبائع الإنسان ، وكثير من النبات يكون فى بعض البلاد غذاء مأكولاً ، وفى بعضها سمًا قاتلاً ، ورب أدوية لقوم أغذية لآخرين ، وأدوية لقوم من أمراض هى أدوية لآخرين فى أمراض سواها ، وأدوية لأهل بلدٍ لا تناسب غيرهم ، ولا تنفعهم .

وأما خاصية السبع ، فإنها قد وقعت قدرًا وشرعًا ، فخلق الله عز وجل السماوات سبعًا ، والأرضين سبعًا ، والأيام سبعًا ، والإنسان كمل خلقه فى سبعة أطوار ، وشرع الله سبحانه لعباده الطواف سبعًا ، والسعى بين الصفا والمروة سبعًا ، ورمى الجمار سبعًا سبعًا، وتكبيرات العيدين سبعًا فى الأولى . وقال ﷺ: « مروهم بالصلاة لسبع » (١) . « وإذا صار للغلام سبع سنين خير بين أبويه » (٢) ، فى رواية ، وفى رواية أخرى : « أبوه أحق به من أمه » (٣) ، وفى ثالثة : « أمه أحق به » (٤) ، وأمر النبى ﷺ فى مرضه أن يصب عليه من سبع قرب (٥) ، وسخر الله الريح على قوم عاد سبع ليال ، ودعا النبى ﷺ أن يعينه الله على قومه بسبع كسبع يوسف (٦) ، ومثل الله ـ سبحانه ـ ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والسنابل التى رآها صاحب يوسف سبعًا ، والسنين التى زرعوها دأبًا سبعًا ، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفًا .

فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره ، والسبعة جمعت معانى العدد كله وخواصه ، فإن العدد شفع ووتر . والشفع : أول وثان ، والوتر : كذلك ، فهذه أربع مراتب : شفع أول ، وثان . ووتر أول وثان ، ولا تجتمع هذه المراتب فى أقل من سبعة ، وهى عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة ، أعنى الشفع والوتر ، والأوائل والثوانى ،

---

(١) أبو داود (٤٩٤) فى الصلاة ، باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة ، والترمذى (٤٠٧) فى الصلاة ، باب : ما جاء متى يؤمر الصبى بالصلاة ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) الذى ثبت عنه ﷺ أنه خير غلامًا بين أبيه وأمه ،وانظر :أبا داود (٢٢٧٧) فى الطلاق ، باب : من أحق بالولد، والترمذى (١٣٥٧) فى الأحكام ،باب:ما جاء فى تخيير الغلام بين أبويه إذا افترقا ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٢٣٥١) فى الأحكام ، باب تخيير الصبى بين أبويه ، ولم يرد عنه ﷺ فى تحديد السن شىء .

(٣) ابن ماجه (٢٣٥٢) فى الأحكام ، باب : تخيير الصبى بين أبويه ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ، قال الدارقطنى : عبد الحميد بن سلمة أبوه وجده لا يعرفون » ، والبيهقى فى الكبرى (٨ / ٣ ، ٤) . وهذه الروايات فيمن كان أبوه أحدهما مسلم والآخر كافر .

(٤) أبو داود (٢٢٧٦) فى الطلاق ، باب : من أحق بالولد ، وأحمد (٢ / ١٨٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٠٧) : « إسناده صحيح » ، والبيهقى فى الكبرى (٨ / ٤ ، ٥) .

(٥) البخارى (٤٤٤٢) فى المغازى ، باب : مرض النبى ﷺ ووفاته .

(٦) البخارى (١٠٠٧) فى الاستسقاء ، باب : دعاء النبى ﷺ « اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » .

ونعنى بالوتر الأول الثلاثة ، وبالثانى الخمسة ، وبالشفع الأول الاثنين ، وبالثانى الأربعة ، وللأطباء اعتناء عظيم بالسبعة ، ولا سيما فى البحارين . وقد قال بقراط : كل شىء من هذا العالم ، فهو مقدر على سبعة أجزاء ، والنجوم سبعة ، والأيام سبعة ، وأسنان الناس سبعة ، أولها طفل إلى سبع،ثم صبى إلى أربع عشرة ، ثم مراهق ، ثم شاب ، ثم كهل ، ثم شيخ ، ثم هرم إلى منتهى العمر ، والله تعالى أعلم بحكمته وشرعه ، وقدره فى تخصيص هذا العدد ، هل هو لهذا المعنى أو لغيره ؟

ونفع هذا العدد من هذا التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر ، بحيث تمنع إصابته ، من الخواص التى لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الأطباء ، لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والإذعان والانقياد ، مع أن القائل إنما معه الحدس والتخمين والظن ، فمن كلامه كله يقين ، وقطع وبرهان ، ووحى أولى أن تتلقى أقواله بالقبول والتسليم ، وترك الاعتراض ، وأدوية السموم تارة تكون بالكيفية ، وتارة تكون بالخاصية كخواص كير من الأحجار والجواهر واليواقيت ، والله أعلم .

ويجوز نفع التمر المذكور فى بعض السموم ، فيكون الحديث من العام المخصوص ، ويجوز نفعه لخاصية تلك البلد ، وتلك التربة الخاصة من كل سم ، ولكن هاهنا أمر لابد من بيانه،وهو أن من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله ،واعتقاد النفع به ، فتقبله الطبيعة ، فتستعين به على دفع العلة ، حتى إن كثيراً من المعالجات ينفع بالاعتقاد ، وحسن القبول ، وكمال التلقى ، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب ، وهذا لأن الطبيعة يشتد قبولها له ، وتفرح النفس به ، فتنتعش القوة ، ويقوى سلطان الطبيعة ، وينبع الحار الغريزى ، فيساعد على دفع المؤذى ، وبالعكس يكون كثير من الأدوية نافعًا لتلك العلة ، فيقطع عمله سوء اعتقاد العليل فيه ، وعدم أخذ الطبيعة له بالقبول ، فلا يجدى عليها شيئًا . واعتبر هذا بأعظم الأدوية والأشفية ، وأنفعها للقلوب والأبدان ، والمعاش والمعاد ، والدنيا والآخرة ، وهو القرآن الذى هو شفاء من كل داء ، كيف لا ينفع القلوب التى لا تعتقد فيه الشفاء والنفع ، بل لا يزيدها إلا مرضًا إلى مرضها ، وليس لشفاء القلوب دواء قط أنفع من القرآن ، فإنه شفاؤها التام الكامل الذى لا يغادر فيها سقمًا إلا أبرأه ، ويحفظ عليها صحتها المطلقة ، ويحميها الحمية التامة من كل مؤذ ومضر ، ومع هذا فإعراض أكثر القلوب عنه ، وعدم اعتقادها الجازم الذى لا ريب فيه أنه كذلك ، وعدم استعماله ، والعدول عنه إلى الأدوية التى ركبها بنو جنسها حال بينها وبين الشفاء به،وغلبت العوائد ،واشتد الإعراض ، وتمكنت العلل والأدواء المزمنة من القلوب ، ويربى المرضى والأطباء على علاج بنى جنسهم

وما وضعه لهم شيوخهم ، ومن يعظمونه ويحسنون به ظنونهم ، فعظم المصاب ، واستحكم الداء ، وتركبت أمراض وعلل أعيا عليهم علاجها، وكلما عالجوها بتلك العلاجات الحادثة تفاقم أمرها ، وقويت ، ولسان الحال ينادى عليهم :

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الشفاء وما إليه وصول

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول (١)

أيضـــًا

عن مجاهد ـ وهو ابن جبر ـ عن سعد ـ وهو ابن أبى وقاص ﷺ قال : مرضت مرضًا . أتانى رسول الله ﷺ يعودنى ، فوضع يده بين ثديى ، حتى وجدت بردها على فؤادى ، فقال : « إنك رجل مفؤود ، ائت الحارث بن كلدة ، أخا ثقيف ، فإنه رجل يتطبب ، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة ، فليجأهن بنواهن ، ثم ليلدك بهن » (٢) .

قال أبو حاتم الرازى : لم يدرك مجاهد سعدًا ، إنما يروى عن مصعب بن سعد ، قال أبو زرعة الرازى : مجاهد عن سعد : مرسل .

وهذا ظاهره : أنه مختص بتمر المدينة،وأما حديث عائشة: فرواه مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « فى عجوة العالية شفاء ، وأنها ترياق أول البكرة » (٣) .

وظاهر هذا : اختصاصها بعجوة العالية .

وقد روى النسائى فى سننه من حديث الأعمش عن أبى نضرة عن أبى سعيد وجابر عن النبى ﷺ : « العجوة من الجنة ، وهى شفاء من السم » (٤) .

وأخرج عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله (٥) .

فقيل : هذا يختص بالمدينة ، لعظم بركتها ، لا أن ذلك عام فى كل تمر .

وقيل : مختص بعجوة العالية (٦) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٩٦ ـ ١٠١) .

(٢) أبو داود (٣٨٧٥) فى الطب ، باب : فى تمرة العجوة ، وضعفه الألبانى ، والطبقات الكبرى (٣ / ١٠٨) .

(٣) مسلم (٢٠٤٨ / ١٥٦) فى الأشربة ، باب : فضل تمر المدينة .

(٤) النسائى فى الكبرى (٦٧١٧ ، ٦٧١٨) فى الأطعمة ، باب : عجوة العالية .

(٥) النسائى فى الكبرى (٦٧١٥ ، ٦٧١٦) فى الأطعمة ، باب : عجوة العالية .

(٦) تهذيب السنن (٥ / ٣٥٨ ، ٣٥٩) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج الرمد بالسكون ، والدعة ، وترك الحركة ، والحمية مما يهيج الرمد

ذكر أبو نعيم فى كتاب « الطب النبوى » : أنه ﷺ كان إذا رمدت عين امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها .

الرمد : ورم حار يعرض فى الطبقة الملتحمة من العين ، وهو بياضها الظاهر ، وسببه انصباب أحد الأخلاط الأربعة ، أو ريح حارة تكثر كميتها فى الرأس والبدن ، فينبعث منها قسط إلى جوهر العين ، أو ضربة تصيب العين ، فترسل الطبيعة إليها من الدم والروح مقدارًا كثيرًا ، تروم بذلك شفاءها مما عرض لها ، ولأجل ذلك يرم العضو المضروب ، والقياس يوجب ضده .

واعلم أنه كما يرتفع من الأرض إلى الجو بخاران ، أحدهما : حار يابس ، والآخر : حار رطب ، فينعقدان سحابًا متراكمًا ، ويمنعان أبصارنا من إدراك السماء ، فكذلك يرتفع من قعر المعدة إلى منتهاها مثل ذلك ، فيمنعان النظر ، ويتولد عنهما علل شتى ، فإن قويت الطبيعة على ذلك ودفعته إلى الخياشيم ، أحدث الزكام ، وإن دفعته إلى اللهاة والمنخرين أحدث الخناق ، وإن دفعته إلى الجنب ، أحدث الشوصة ، وإن دفعته إلى الصدر ، أحدث النزلة ، وإن انحدر إلى القلب ، أحدث الخبطة ، وإن دفعته إلى العين أحدث رمدًا ، وإن انحدر إلى الجوف ، أحدث السيلان ، وإن دفعته إلى منازل الدماغ أحدث النسيان ، وإن ترطبت أوعية الدماغ منه ،وامتلأت به عروقه أحدث النوم الشديد ، ولذلك كان النوم رطبًا ، والسهر يابسًا ، وإن طلب البخار النفوذ من الرأس ، فلم يقدر عليه ، أعقبه الصداع والسهر ، وإن مال البخار إلى أحد شقى الرأس ، أعقبه الشقيقة ، وإن ملك قمة الرأس ووسط الهامة ، أعقبه داء البيضة ، وإن برد منه حجاب الدماغ ، أو سخن ، أو ترطب وهاجت منه أرياح ، أحدث العطاس ، وإن أهاج الرطوبة البلغمية فيه حتى غلب الحار الغريزى، أحدث الإغماء والسكات، وإن أهاج المرة السوداء حتى أظلم هواء الدماغ ، أحدث الوسواس ، وإن فاض ذلك إلى مجارى العصب ، أحدث الصرع الطبيعى ،وإن

ترطبت مجامع عصب الرأس وفاض ذلك فى مجاريه ، أعقبه الفالج ، وإن كان البخار من مرة صفراء ملتهبة محمية الدماغ ، أحدث البرسام ، فإن شركه الصدر فى ذلك ، كان سرسامًا ، فافهم هذا الفصل .

والمقصود : أن أخلاط البدن والرأس تكون متحركة هائجة فى حال الرمد ، والجماع مما يزيد حركتها وثورانها ، فإنه حركة كلية للبدن والروح والطبيعة ، فأما البدن ، فيسخن بالحركة لا محالة ، والنفس تشتد حركتها طلبًا للذة واستكمالها ، والروح تتحرك تبعًا لحركة النفس والبدن ، فإن أول تعلق الروح من البدن بالقلب ، ومنه ينشأ الروح ، وتنبث فى الأعضاء وأما حركة الطبيعة ، فلأجل أن ترسل ما يجب إرساله من المنى على المقدار الذى يجب إرساله .

وبالجملة : فالجماع حركة كلية عامة يتحرك فيها البدن وقواه ، وطبيعته وأخلاطه ، والروح والنفس ، فكل حركة فهى مثيرة للأخلاط مرققة لها توجب دفعها وسيلانها إلى الأعضاء الضعيفة ، والعين فى حال رمدها أضعف ما تكون ، فأضر ما عليها حركة الجماع.

قال بقراط فى كتاب « الفصول » : وقد يدل ركوب السفن أن الحركة تثور الأبدان . وهذا مع أن فى الرمد منافع كثيرة ، منها ما يستدعيه من الحمية والاستفراغ ، وتنقية الرأس والبدن من فضلاتهما وعفوناتهما ، والكف عما يؤذى النفس والبدن من الغضب ، والهم والحزن ،والحركات العنيفة ، والأعمال الشاقة . وفى أثر سلفى : لا تكرهوا الرمد ، فإنه يقطع عروق العمى .

ومن أسباب علاجه ملازمة السكون والراحة ، وترك مس العين والاشتغال بها ، فإن أضداد ذلك يوجب انصباب المواد إليها ، وقد قال بعض السلف : مثل أصحاب محمد مثل العين ، ودواء العين ترك مسها ، وقد روى فى حديث مرفوع ، الله أعلم به : « علاج الرمد تقطير الماء البارد فى العين » وهو من أنفع الأدوية للرمد الحار ، فإن الماء دواء بارد يستعان به على إطفاء حرارة الرمد إذا كان حارًا ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود ﷺ لامرأته زينب وقد اشتكت عينها : لو فعلت كما فعل رسول الله ﷺ كان خيرًا لك وأجدر أن تشفى ، تنضحين فى عينك الماء ، ثم تقولين : « أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقمًا » [1] . وهذا خاص ببعض البلاد ، وبعض أوجاع العين ، فلا يجعل كلام النبوة الجزئى الخاص كليًا عامًا ، ولا الكلى العام

(١) أبو داود (٣٨٨٣) فى الطب،باب : فى تعليق التمائم ، وابن ماجه (٣٥٣٠) فى الطب ، باب : تعليق التمائم.

جزئيًا خاصًا ، فيقع من الخطأ ، وخلاف الصواب ما يقع ، والله أعلم .

فصل
في هديه ﷺ في علاج الخدران الكلي الذي يجمد معه البدن

ذكر أبو عبيد في « غريب الحديث » من حديث أبي عثمان النهدي : أن قومًا مروا بشجرة فأكلوا منها ، فكأنما مرت بهم ريح ، فأجمدتهم ، فقال النبي ﷺ : « قرسوا الماء في الشنان ، وصبوا عليهم فيما بين الأذانين » ، ثم قال أبو عبيد : قرسوا : يعني بردوا . وقول الناس : قد قرس البرد ، إنما هو من هذا بالسين ليس بالصاد . والشنان : الأسقية والقرب : الخلقان ، يقال للسقاء : شن ، وللقربة : شنة . وإنما ذكر الشنان دون الجدد لأنها أشد تبريدًا للماء ، وقوله : « بين الأذانين » ، يعني أذان الفجر والإقامة ، فسمى الإقامة أذانًا ، انتهى كلامه .

قال بعض الأطباء : وهذا العلاج من النبي ﷺ من أفضل علاج هذا الداء إذا كان وقوعه بالحجاز ، وهي بلاد حارة يابسة ، والحار الغريزي ضعيف في بواطن سكانها ، وصب الماء البارد عليهم في الوقت المذكور ـ وهو أبرد أوقات اليوم ـ يوجب جمع الحار الغريزي المنتشر في البدن الحامل لجميع قواه ، فيقوى القوة الدافعة ، ويجتمع من أقطار البدن إلى باطنه الذي هو محل ذاك الداء ، ويستظهر بباقي القوى على دفع المرض المذكور، فيدفعه بإذن الله عز وجل ، ولو أن بقراط ، أو جالينوس ، أو غيرهما ، وصف هذا الدواء لهذا الداء ، لخضعت له الأطباء ، وعجبوا من كمال معرفته (١) .

فصل
في هديه ﷺ في علاج البثرة

ذكر ابن السني في كتابه عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت : دخل علي رسول الله ﷺ وقد خرج في أصبعي بثرة ، فقال :« عندك ذريرة ؟ قلت : نعم . قال : « ضعيها عليها ، وقولي : اللهم مصغر الكبير ، ومكبر الصغير ، صغر ما بي » (٢) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٠٧ ـ ١١٠) .

(٢) النسائي في الكبرى (١٠٨٧٠) في عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول على البثرة ، وأحمد (٥ / ٣٧٠) ، والحاكم في المستدرك (٤ / ٢٠٧) ، وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

الذريرة : داوء هندى يتخذ من قصب الذريرة ، وهى حارة يابسة تنفع من أورام المعدة والكبد والاستسقاء ، وتقوى القلب لطيبها .

وفى « الصحيحين » عن عائشة أنها قالت : طيبت رسول الله ﷺ بيدى بذريرة فى حجة الوداع للحل والإحرام » [١] .

والبثرة: خراج صغير يكون عن مادة حارة تدفعها الطبيعة،فتسترق مكانًا من الجسد تخرج منه ، فهى محتاجة إلى ما ينضجها ويخرجها ، والذريرة أحد ما يفعل بها ذلك ، فإن فيها إنضاجًا وإخراجًا مع طيب رائحتها ، مع أن فيها تبريدًا للنارية التى فى تلك المادة ، وكذلك قال صاحب « القانون »: إنه لا أفضل لحرق النار من الذريرة بدهن الورد والخل [٢] .

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج الأورام ، والخراجات التى تبرأ بالبط والبزل

يذكر عن على أنه قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على رجل يعوده بظهره ورم ، فقالوا : يا رسول الله ، بهذه مدة . قال : « بطوا عنه » ، قال على : فما برحت حتى بطت ، والنبى ﷺ شاهد [٣] .

ويذكر عن أبى هريرة،أن النبى ﷺ أمر طبيبًا أن يبط بطن رجل أجوى البطن ،فقيل : يا رسول الله ، هل ينفع الطب ؟ قال:« الذى أنزل الداء ، أنزل الشفاء ، فيما شاء » [٤] .

الورم : مادة فى حجم العضو لفضل مادة غير طبيعية تنصب إليه ، ويوجد فى أجناس الأمراض كلها ، والمواد التى تكون عنها من الأخلاط الأربعة ، والمائية ، والريح ، وإذا اجتمع الورم سمى خراجًا ، وكل ورم حار يؤول أمره إلى أحد ثلاثة أشياء : إما تحلل ، وإما جمع مدة ، وإما استحالة إلى الصلابة ، فإن كانت القوة قوية ، استولت على مادة الورم وحللته ، وهى أصلح الحالات التى يؤول حال الورم إليها ، وإن كانت دون ذلك ، أنضجت المادة ، وأحلتها مدة بيضاء ، فتحت لها مكانًا أسالتها منه ، وإن نقصت عن ذلك أحالت المادة مدة غير مستحكمة النضج ، وعجزت عن فتح مكان فى العضو تدفعها منه ، فيخاف على العضو الفساد بطول لبثها فيه ، فيحتاج حينئذ إلى إعانة الطبيب بالبط ، أو غيره

(١) البخارى (٥٩٣٠) فى اللباس ، باب : الذريرة ، ومسلم (١١٨٩ / ٣٥) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام .
(٢) زاد المعاد (٤ / ١١٣ ، ١١٤) .
(٣) أبو يعلى (٤٥٤) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ١٠٢) : « فيه أبو الربيع السمان ، وهو ضعيف » .
(٤) أحمد (٥ / ٣٧١) ، وابن أبى شيبة (٧ / ٣٥٩) .

لإخراج تلك المادة الرديئة المفسدة للعضو .

وفى البط فائدتان :

إحداهما : إخراج المادة الرديئة المفسدة .

والثانية : منع اجتماع مادة أخرى إليها تقويها .

وأما قوله فى الحديث الثانى : « إنه أمر طبيبًا أن يبط بطن رجل أجوى البطن » ، فالجوى يقال على معان منها : الماء المنتن الذى يكون فى البطن يحدث عنه الاستسقاء .

وقد اختلف الأطباء فى بزله لخروج هذه المادة ، فمنعته طائفة منهم لخطره ، وبعد السلامة معه ، وجوزته طائفة أخرى ، وقالت : لا علاج له سواه ، وهذا عندهم إنما هو فى الاستسقاء الزقى ، فإنه كما تقدم ثلاثة أنواع : طبلى ، وهو الذى ينتفخ معه البطن بمادة ريحية إذا ضربت عليه سمع له صوت كصوت الطبل ، ولحمى : وهو الذى يربو معه لحم جميع البدن بمادة بلغمية تفشو مع الدم فى الأعضاء،وهو أصعب من الأول ، وزقى : وهو الذى يجتمع معه فى البطن الأسفل مادة رديئة يسمع لها عند الحركة خضخضة الماء فى الزق ، وهو أردأ أنواعه عند الأكثرين من الأطباء ، وقالت طائفة : أردأ أنواعه اللحمى لعموم الآفة به .

ومن جملة علاج الزقى إخراج ذلك بالبزل ، ويكون ذلك بمنزلة فصد العروق لإخراج الدم الفاسد ، لكنه خطر ، وإن ثبت هذا الحديث ، فهو دليل على جواز بزله ، والله أعلم [١] .

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج السم الذى أصابه بخيبر من اليهود

ذكر عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك : أن امرأة يهودية أهدت إلى النبى ﷺ شاة مصلية بخيبر ، فقال : « ما هذه » ؟ قالت : هدية ، وحذرت أن تقول : من الصدقة ، فلا يأكل منها ، فأكل النبى ﷺ ، وأكل الصحابة ، ثم قال : « أمسكوا » ، ثم قال للمرأة : « هل سممت هذه الشاة » ؟ قالت : من أخبرك بهذا ؟ قال:« هذا العظم لساقها »،وهو فى يده ؟ قالت : نعم .قال : « لم ؟ » قالت : أردت إن كنت كاذبًا أن يستريح منك الناس ، وإن كنت نبيًا لم يضرك ، قال :

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١١٤ ـ ١١٦) .

فاحتجم النبى ﷺ ثلاثة على الكاهل ، وأمر أصحابه أن يحتجموا ، فاحتجموا ، فمات بعضهم (١) .

وفى طريق أخرى: واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة، حجمه أبو هند بالقرن والشفرة ، وهو مولى لبنى بياضة من الأنصار ، وبقى بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى توفى فيه ، فقال : « مازلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر حتى كان هذا أوان انقطاع الأبهر منى » فتوفى رسول الله ﷺ شهيدًا ، قاله موسى بن عقبة (٢) .

معالجة السم تكون بالاستفراغات ، وبالأدوية التى تعارض فعل السم وتبطله ، إما بكيفياتها ، وإما بخواصها ، فمن عدم الدواء ، فليبادر إلى الاستفراغ الكلى وأنفعه الحجامة، ولا سيما إذا كان البلد حارًا ، والزمان حارًا ، فإن القوة السمية تسرى إلى الدم ، فتنبعث فى العروق والمجارى حتى تصل إلى القلب ، فيكون الهلاك ، فالدم هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء ، فإذا بادر المسموم ، وأخرج الدم ، خرجت معه تلك الكيفية السمية التى خالطته ، فإن كان استفراغًا تامًا لم يضره السم ، بل إما أن يذهب ، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة ، فتبطل فعله أو تضعفه .

ولما احتجم النبى ﷺ ، احتجم فى الكاهل ، وهو أقرب المواضع التى يمكن فيها الحجامة إلى القلب ، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجًا كليًا ، بل بقى أثرها مع ضعفه لما يريد الله ـ سبحانه ـ من تكميل مراتب الفضل كلها له ، فلما أراد الله إكرامه بالشهادة ، ظهر تأثير ذلك الأثر الكامن من السم ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ، وظهر سر قوله تعالى لأعدائه من اليهود: ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** (٨٧) ﴾ [البقرة] ، فجاء بلفظ « كذبتم » بالماضى الذى قد وقع منه، وتحقق ، وجاء بلفظ : « تقتلون » بالمستقبل الذى يتوقعونه وينتظرونه ، والله أعلم (٣) .

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج السحر الذى سحرته اليهود به

قد أنكر هذا طائفة من الناس ، وقالوا : لا يجوز هذا عليه ، وظنوه نقصًا وعيبًا ،

(١) عبد الرزاق (١٩٨١٤) .
(٢) البخارى معلقًا (٤٤٢٨) (الفتح ٨ / ١٣١) .
(٣) زاد المعاد (٤ / ١٢١ ـ ١٢٣) .

وليس الأمر كما زعموا ، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع ، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما ، وقد ثبت فى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها ،أنها قالت: سحر رسول الله ﷺ حتى إن كان ليخيل إليه أنه يأتى نساءه ، ولم يأتهن ، وذلك أشد ما يكون من السحر [١] .

قال القاضى عياض: والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ، كأنواع الأمراض مما لا ينكر ، ولا يقدح فى نبوته ، وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يفعله ، فليس فى هذا ما يدخل عليه داخلة فى شىء من صدقه ، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هذا فيما يجوز طروه عليه فى أمر دنياه التى لم يبعث لسببها ، ولا فضل من أجلها ، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ، ثم ينجلى عنه كما كان .

والمقصود : ذكر هديه فى علاج هذا المرض ، وقد روى عنه فيه نوعان :

أحدهما ـ وهو أبلغهما : استخراجه وإبطاله ، كما صح عنه ﷺ أنه سأل ربه ـ سبحانه ـ فى ذلك ، فدل عليه ، فاستخرجه من بئر ، فكان فى مشط ومشاطة ، جف طلعة ذكر [٢] ، فلما استخرجه ، ذهب ما به ، حتى كأنما أنشط من عقال ، فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبوب ، وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ .

والنوع الثانى : الاستفراغ فى المحل الذى يصل إليه أذى السحر ، فإن للسحر تأثيرا فى الطبيعة، وهيجان أخلاطها ، وتشويش مزاجها ، فإذا ظهر أثره فى عضو ، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو ، نفع جدًا .

وقد ذكر أبو عبيد فى كتاب « غريب الحديث » له بإسناده ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، أن النبى ﷺ احتجم على رأسه بقرن حين طب [٣] قال أبو عبيد : معنى طب : أى سحر .

وقد أشكل هذا على من قل علمه ، وقال : ما للحجامة والسحر ، وما الرابطة بين هذا الداء وهذا الدواء ، ولو وجد هذا القائل بقراط ، أو ابن سينا ، أو غيرهما قد نص على هذا العلاجة ، لتلقاه بالقبول والتسليم ، وقال : قد نص عليه من لا يشك فى معرفته وفضله .

(١ ، ٢) البخارى (٥٧٦٥) فى الطب ، باب : هل يستخرج السحر ؟، ومسلم (٢١٨٩ / ٤٣) فى السلام ، باب : السحر .

(٣) غريب الحديث للهروى (٤٣١٢) .

فاعلم أن مادة السحر الذى أصيب به ﷺ انتهت إلى رأسه إلى إحدى قواه التى فيه بحيث كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء ولم يفعله ، وهذا تصرف من الساحر فى الطبيعة والمادة الدموية بحيث غلبت تلك المادة على البطن المقدم منه ، فغيرت مزاجه عن طبيعته الأصلية .

والسحر : هو مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة ، وانفعال القوى الطبيعية عنها ، وهو أشد ما يكون من السحر ، ولا سيما فى الموضع الذى انتهى السحر إليه ، واستعمال الحجامة على ذلك المكان الذى تضررت أفعاله بالسحر من أنفع المعالجة إذا استعملت على القانون الذى ينبغى .

قال بقراط : الأشياء التى ينبغى أن تستفرغ يجب أن تستفرغ من المواضع التى هى إليها أميل بالأشياء التى تصلح لاستفراغها .

وقالت طائفة من الناس : إن رسول الله ﷺ لما أصيب بهذا الداء ، وكان يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يفعله ، ظن أن ذلك عن مادة دموية أو غيرها مالت إلى جهة الدماغ ، وغلبت على البطن المقدم منه ، فأزالت مزاجه عن الحالة الطبيعية له ، وكان استعمال الحجامة إذ ذاك من أبلغ الأدوية ، وأنفع المعالجة ، فاحتجم ، وكان ذلك قبل أن يوحى إليه أن ذلك من السحر ، فلما جاءه الوحى من الله تعالى ، وأخبره أنه قد سحر ، عدل إلى العلاج الحقيقى وهو استخراج السحر وإبطاله ،فسأل الله ـ سبحانه ـ فدله على مكانه ، فاستخرجه ،فقام كأنما أنشط من عقال ،وكان غاية هذا السحر فيه إنما هو فى جسده ، وظاهر جوارحه ،لا على عقله وقلبه ،ولذلك لم يكن يعتقد صحة ما يخيل إليه من إتيان النساء ،بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له ،ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض ،والله أعلم .

ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية ، بل هى أدويته النافعة بالذات ، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية ، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار ، والآيات ، والدعوات التى تبطل فعلها وتأثيرها ، وكلما كانت أقوى وأشد ، كانت أبلغ فى النشرة ،وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عدته وسلاحه ،فأيهما غلب الآخر ، قهره ، وكان الحكم له ، فالقلب إذا كان ممتلئًا من الله مغمورًا بذكره ، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه لسانه ، كان هذا من أعظم الأسباب التى تمنع إصابة السحر له ، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه .

وعند السحرة : أن سحرهم إنما يتم تأثيره فى القلوب الضعيفة المنفعلة ، والنفوس الشهوانية التى هى معلقة بالسفليات ، ولهذا فإن غالب ما يؤثر فى النساء ، والصبيان ،

والجهال ، وأهل البوادى ، ومن ضعف حظه من الدين والتوكل والتوحيد ، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوذات النبوية .

وبالجملة :فسلطان تأثيره فى القلوب الضعيفة المنفعلة التى يكون ميلها إلى السفليات ، قالوا : والمسحور هو الذى يعين على نفسه ، فإنا نجد قلبه متعلقًا بشىء كثير الالتفات إليه ، فيتسلط على قلبه بما فيه من الميل والالتفات ، والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لتسلطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة،وبفراغها من القوة الإلهية ، وعدم أخذها للعدة التى تحاربها بها، فتجدها فارغة لا عدة معها، وفيها ميل إلى ما يناسبها ، فتتسلط عليها ، ويتمكن تأثيرها فيها بالسحر وغيره ، والله أعلم (١) .

فائـــدة

قال (٢) فى رواية منها فى الرجل تأتيه المرأة المسجورة فيطلق عنها السحر ، قال : لا بأس . وحدثنا إسماعيل بن علية عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال : سألت سعيد بن المسيب عن المرأة تأتى الرجل فيطلق عنها السحر ،فقال : لا بأس ، فقلت لأحمد : أحدث بهذا عنك ، قال : نعم . وقال فى رواية المروزى : حممت ، فكتب لى فى الحمى : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله ومحمد رسول الله **﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾** [الأنبياء]. اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، أشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبريتك إله الحق، آمين، وقال فى رواية عبد الله : يكتب للمرأة إذا عسر عليها الولادة فى جام أو شىء نظيف : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾** [النازعات] ، **﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾** [الأحقاف : ٣٥] ، ثم تسقى وينضح بما بقى دون سرتها ، وقال فى رواية الكوسج: يكره التفل فى الرقية،ولا بأس بالنفخ ، وقال فى رواية صالح : الحقنة إذا كانت لضرورة فلا بأس ، وقال فى رواية المروزى : الحقنة إن اضطر إليها فلا بأس . قال المروزى : ووصف لأبى عبد الله ففعل (٣) .

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢٤ ـ ١٢٧) .

(٢) أى الإمام أحمد ـ رحمه الله .

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٢٢، ١٢٣) .

فصل
فى هديه ﷺ فى الاستفراغ بالقىء

روى الترمذى فى « جامعه » عن معدان بن أبى طلحة ، عن أبى الدرداء ، أن النبى ﷺ قاء ، فتوضأ فلقيت ثوبان فى مسجد دمشق ، فذكرت له ذلك ، فقال : صدق ، أنا صببت له وضوءه ، قال الترمذى : وهذا أصح شىء فى الباب [١].

القىء أحد الاستفراغات الخمسة التى هى أصول الاستفراغ،وهى الإسهال ، والقىء ، وإخراج الدم ، وخروج الأبخرة والعرق ، وقد جاءت بها السنة .

فأما الإسهال: فقد مرَّ فى حديث « خير ما تداويتم به المشى » وفى حديث « السنا » .

وأما إخراج الدم ، فقد تقدم فى أحاديث الحجامة .

وأما استفراغ الأبخرة ، فنذكره عقيب هذا الفصل إن شاء الله .

وأما الاستفراغ بالعرق،فلا يكون غالبًا بالقصد، بل بدفع الطبيعة له إلى ظاهر الجسد ، فيصادف المسام مفتحة ، فيخرج منها .

والقىء استفراغ من أعلى المعدة، والحقنة من أسفلها ، والدواء من أعلاها وأسفلها ، والقىء : نوعان : نوع بالغلبة والهيجان ، ونوع بالاستدعاء والطلب ، فأما الأول : فلا يسوغ حبسه ودفعه إلا إذا أفرط وخيف منه التلف،فيقطع بالأشياء التى تمسكه، وأما الثانى: فأنفعه عند الحاجة إذا روعى زمانه وشروطه التى تذكر .

وأسباب القىء عشرة :

أحدها : غلبه المرة الصفراء ، وطفوها على رأس المعدة ، فتطلب الصعود .

الثانى : من غلبة بلغم لزج قد تحرك فى المعدة ، واحتاج إلى الخروج .

الثالث:أن يكون من ضعف المعدة فى ذاتها،فلا تهضم الطعام،فتقذفه إلى جهة فوق .

الرابع : أن يخالطها خلط ردىء ينصب إليها ، فيسىء هضمها ، ويضعف فعلها .

الخامس : أن يكون من زيادة المأكول أو المشروب على القدر الذى تحتمله المعدة ، فتعجز عن إمساكه ، فتطلب دفعه وقذفه .

---

(١) الترمذى (٨٧) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى الوضوء من القىء والرعاف .

السادس : أن يكون من عدم موافقة المأكول والمشروب لها ، وكراهتها له ، فتطلب دفعه وقذفه .

السابع : أن يحصل فيها ما يثور الطعام بكيفيته وطبيعته ، فنقذف به .

الثامن : القرف ، وهو موجب غثيان النفس وتهوعها .

التاسع : من الأعراض النفسانية ، كالهم الشديد ، والغم ، والحزن ، وغلبة اشتغال الطبيعة والقوى الطبيعية به ، واهتمامها بوروده عن تدبير البدن ، وإصلاح الغذاء ، وإنضاجه ، وهضمه ، فتقذفه المعدة ، وقد يكون لأجل تحرك الأخلاط عند تخبط النفس ، فإن كل واحد من النفس والبدن ينفعل عن صاحبه ، ويؤثر فى كيفيته .

العاشر : نقل الطبيعة بأن يرى من يتقيأ ، فيغلبه هو القيء من غير استدعاء ، فإن الطبيعة نقالة .

وأخبرنى بعض حذاق الأطباء ، قال : كان لى ابن أخت حذق فى الكحل ، فجلس كحالاً ، فكان إذا فتح عين الرجل ، ورأى الرمد وكحله ، رمد هو ، وتكرر ذلك منه ، فترك الجلوس . قلت له : فما سبب ذلك قال : نقل الطبيعة ، فإنها نقالة ، قال : وأعرف آخر ، كان رأى خراجًا فى موضع من جسم رجل يحكه . فحك هو ذلك الموضع، فخرجت فيه خراجة . قلت : وكل هذا لابد فيه من استعداد الطبيعة ، وتكون المادة ساكنة فيها غير متحركة ، فتتحرك لسبب من هذه الأسباب ، فهذه أسباب لتحرك المادة لا أنها هى الموجبة لهذا العارض .

ولما كانت الأخلاط فى البلاد الحارة ، والأزمنة الحارة ترق وتنجذب إلى فوق ، كان القيء فيها أنفع ،ولما كانت فى الأزمنة الباردة والبلاد الباردة تغلظ ، ويصعب جذبها إلى فوق ، كان استفراغها بالإسهال أنفع .

وإزالة الأخلاط ودفعها تكون بالجذب والاستفراغ ، والجذب يكون من أبعد الطرق ، والاستفراغ من أقربها ، والفرق بينهما أن المادة إذا كانت عاملة فى الانصباب أو الترقى لم تستقر بعد ، فهى محتاجة إلى الجذب ، فإن كانت متصاعدة جذبت من أسفل ، وإن كانت منصبة جذبت من فوق ،وأما إذا استقرت فى موضعها ، استفرغت من أقرب الطرق إليها ، فمتى أضرت المادة بالأعضاء العليا ، اجتذبت من أسفل ، ومتى أضرت بالأعضاء السفلى ، اجتذبت من فوق ، ومتى استقرت ، استفرغت من أقرب مكان إليها ، ولهذا احتجم النبى ﷺ على كاهله تارة ، وفى رأسه أخرى ، وعلى ظهر قدمه تارة ، فكان يستفرغ مادة الدم

المؤذى من أقرب مكان إليه . والله أعلم .

والقىء ينقى المعدة ويقويها ، ويحد البصر ،ويزيل ثقل الرأس ، وينفع قروح الكلى ، والمثانة ، والأمراض المزمنة كالجذام والاستسقاء ، والفالج والرعشة ، وينفع اليرقان .

وينبغى أن يستعمله الصحيح فى الشهر مرتين متواليتين من غير حفظ دور ، ليتدارك الثانى ما قصر عنه الأول ، وينقى الفضلات التى انصبت بسببه ، والإكثار منه يضر المعدة ، ويجعلها قابلة للفضول ، ويضر بالأسنان والبصر والسمع ، وربما صدع عرقًا ، ويجب أن يجتنبه من به ورم فى الحلق ، أو ضعف فى الصدر ، أو دقيق الرقبة ، أو مستعد لنفث الدم ، أو عسر الإجابة له .

وأما ما يفعله كثير ممن يسىء التدبير ، وهو أن يمتلئ من الطعام ، ثم يقذفه ، ففيه آفات عديدة ، منها : أنه يجعل الهرم ، ويوقع فى أمراض رديئة ، ويجعل القىء له عادة ، والقىء مع اليبوسة ، وضعف الأحشاء ، وهزال المراق ، أو ضعف المُستقىء خطر .

وأحمد أوقاته الصيف والربيع دون الشتاء والخريف ، وينبغى عند القىء أن يعصب العينين ، ويقمط البطن ، ويغسل الوجه بماء بارد عند الفراغ ، وأن يشرب عقيبه شراب التفاح مع يسير من مصطكى ، وماء الورد ينفعه نفعًا مبينا .

والقىء يستفرغ من أعلى المعدة ، ويجذب من أسفل ، والإسهال بالعكس ، قال أبقراط : وينبغى أن يكون الاستفراغ فى الصيف من فوق أكثر من الاستفراغ بالدواء ، وفى الشتاء من أسفل (١).

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج القَمْل الذى فى الرأس وإزالته

فى « الصحيحين » عن كعب بن عجرة ، قال : كان بى أذى من رأسى ، فحملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهى ، فقال : « ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك ما أرى » (٢)،وفى رواية : فأمره أن يحلق رأسه ، وأن يطعم فرقاً بين ستة ، أو يهدى شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام (٣) .

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢٨ ـ ١٣٢) .

(٢) البخارى (١٨١٦) فى المحصر ، باب : الإطعام فى الفدية نصف صاع .

(٣) البخارى (١٨١٤) فى المحصر ، باب : قول الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، ومسلم (١٢٠١ / ٨٣ ، ٨٤) فى الحج ، باب : جواز حلق الرأس للمحرم .

القمل يتولد فى الرأس والبدن من شيئين : خارج عن البدن وداخل فيه ، فالخارج : الوسخ والدنس المتراكم فى سطح الجسد ، والثانى من خلط ردىء عفن تدفعه الطبيعة بين الجلد واللحم ، فيتعفن بالرطوبة الدموية فى البشرة بعد خروجها من المسام ، فيكون منه القمل ، وأكثر ما يكون ذلك بعد العلل والأسقام ، وبسبب الأوساخ ، وإنما كان فى رؤوس الصبيان أكثر لكثرة رطوباتهم وتعاطيهم الأسباب التى تولد القمل ، ولذلك حلق النبى ﷺ رؤوس بنى جعفر .

ومن أكبر علاجه: حلق الرأس لتنفتح مسام الأبخرة ، فتتصاعد الأبخرة الرديئة ، فتضعف مادة الخلط ، وينبغى أن يطلى الرأس بعد ذلك بالأدوية التى تقتل القمل ، وتمنع تولده .

وحلق الرأس ثلاثة أنواع : أحدها: نسك وقربة . والثانى : بدعة وشرك ، والثالث : حاجة ودواء ، فالأول : الحلق فى أحد النسكين ، الحج أو العمرة ، والثانى حلق الرأس لغير الله سبحانه ، كما يحلقها المريدون لشيوخهم ، فيقول أحدهم : أنا حلقت رأسى لفلان ، وأنت حلقته لفلان ، وهذا بمنزلة أن يقول : سجدت لفلان ، فإن حلق الرأس خضوع وعبودية وذل ، ولهذا كان من تمام الحج ، حتى إنه عند الشافعى ركن من أركانه لا يتم إلا به ، فإنه وضع النواصى بين يدى ربها خضوعًا لعظمته ، وتذللاً لعزته ، وهو من أبلغ أنواع العبودية؛ ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه ، حلقوا رأسه وأطلقوه ، فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة ، فأرادوا من مريديهم أن يتعبدوا لهم ، فزينوا لهم حلق رؤوسهم لهم ، كما زينوا لهم السجود لهم ، وسموه بغير اسمه ، وقالوا : هو وضع الرأس بين يدى الشيخ،ولعمر الله إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه سبحانه ، وزينوا لهم أن ينذروا لهم ، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله، قال تعالى: **﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) ﴾** [آل عمران] .

وأشرف العبودية عبودية الصلاة ،وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة ، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها ، وهو السجود ، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع ، فإذا لقى بعضهم بعضًا ركع له كما يركع المصلى لربه سواء ، وأخذ الجبابرة منهم القيام ، فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم ، وهم جلوس ، وقد نهى رسول الله

ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل ، فتعاطيها مخالفة صريحة له ، فنهى عن السجود لغير الله وقال: « لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد » (١) . وأنكر على معاذ لما سجد له وقال : « مه » ، وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة ، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله ، وهو من أبلغ أنواع العبودية ، فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع للبشر ، فقد جوز العبودية لغير الله، وقد صح أنه قيل له :الرجل يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال : « لا »، قيل: أيلتزمه ويقبله قال : « لا » قيل : أيصافحه ؟ قال : « نعم » (٢) .

وأيضًا ، فالانحناء عند التحية سجود ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ [البقرة : ٥٨] أى منحنين ، وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه ، وصح عنه النهى عن القيام ، وهو جالس ، كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا ، حتى منع من ذلك فى الصلاة ، وأمرهم إذا صلى جالسًا أن يصلوا جلوسًا ، وهم أصحاء لا عذر لهم ، لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس ، مع أن قيامهم لله ، فكيف إذا كان القيام تعظيمًا وعبودية لغيره ـ سبحانه .

والمقصود : أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله ـ سبحانه ـ وأشركت فيها من تعظمه من الخلق ، فسجدت لغير الله ، وركعت له ، وقامت بين يديه قيام الصلاة ، وحلفت بغيره ، ونذرت لغيره ، وحلقت لغيره ، وذبحت لغيره ، وطافت لغير بيته ، وعظمته بالحب ، والخوف ، والرجاء ، والطاعة ، كما يعظم الخالق ، بل أشد ، وسوت من تعبده من المخلوقين برب العالمين ، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل ، وهم الذين بربهم يعدلون ، وهم الذين يقولون ـ وهم فى النار مع آلهتهم يختصمون : ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)**﴾ [الشعراء : ٩٨] ، وهم الذين قال فيهم : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥] . وهذا كله من الشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ، فهذا فصل معترض فى هديه فى حلق الرأس ولعله أهم مما قصد الكلام فيه ، والله الموفق (٣) .

---

(١) أحمد (٥ / ٢٢٧ ، ٢٢٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٣١٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) الترمذى (٢٧٢٨) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المصافحة ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٣٧٠٢) فى الأدب ، باب : المصافحة .

(٣) زاد المعاد (٤ / ١٥٨ ـ ١٦٢) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج المصاب بالعين

روى مسلم فى « صحيحه » عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ، ولو كان شىء سابق القدر ، لسبقته العين » (١) .

وفى « صحيحه » أيضًا عن أنس ، أن النبى ﷺ رخص فى الرقية من الحمة والعين والنملة (٢) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « العين حق »(٣).

وفى « سنن أبى داود » عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ، ثم يغتسل منه المعين (٤) .

وفى « الصحيحين » عن عائشة قالت: أمرنى النبى ﷺ، أو أمر أن نسترقى من العين(٥).

وذكر الترمذى ،من حديث سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر ، عن عبيد بن رفاعة الزرقى ، أن أسماء بنت عميس ، قالت : يا رسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم ؟ فقال : « نعم ، فلو كان شىء يسبق القضاء لسبقته العين » قال الترمذى: « حديث حسن صحيح » (٦) .

وروى مالك ـ رحمه الله: عن ابن شهاب، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، قال : رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ! قال : فلبط سهل ، فأتى رسول الله ﷺ عامرًا ، فتغيظ عليه وقال : « علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت اغتسل له »، فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره فى قدح ، ثم صب عليه ، فراح مع الناس (٧) .

---

(١) مسلم (٢١٨٨ / ٤٢) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرقى .

(٢) مسلم (٢١٩٦ / ٥٧) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٣) البخارى (٥٧٤٠) فى الطب ، باب : العين حق ، ومسلم (٢١٨٧ / ٤١) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرقى .

(٤) أبو داود (٣٨٨٠) فى الطب ، باب : ما جاء فى العين .

(٥) البخارى (٥٧٣٨) فى الطب ، باب : رقية العين ، ومسلم (٢١٩٥ / ٥٥) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٦) الترمذى (٢٠٥٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقية من العين .

(٧) الموطأ (٢ / ٩٣٩) (٢) فى العين ، باب : الوضوء من العين .

وروى مالك ـ رحمه الله ـ أيضًا عن محمد بن أبى أمامة بن سهل ، عن أبيه هذا الحديث ، وقال فيه : « إن العين حق ، توضأ له » فتوضأ له [١] .

وذكر عبد الرزاق ، عن معمر ،عن ابن طاووس ، عن أبيه مرفوعًا : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسل أحدكم فليغتسل » [٢] ، ووصله صحيح .

قال الزهرى : يؤمر الرجل العائن بقدح ، فيدخل كفه فيه ، فيتمضمض ، ثم يمجه فى القدح ، ويغسل وجهه فى القدح ، ثم يدخل يده اليسرى ، فيصب على ركبته اليمنى فى القدح ، ثم يدخل يده اليمنى ، فيصب على ركبته اليسرى ، ثم يغسل داخلة إزاره ، ولا يوضع القدح فى الأرض ثم يصب على رأس الرجل الذى تصيبه العين من خلفه صبة واحدة .

والعين عينان : عين إنسية ، وعين جنية ، فقد صح عن أم سلمة ، أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال : « استرقوا لها ، فإن بها النظرة » [٣] .

قال الحسين بن مسعود الفراء : وقوله : « سفعة » : أى نظرة ، يعنى : من الجن ، يقول : بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح .

ويذكر عن جابر يرفعه : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر » [٤] .

وعن أبى سعيد ، أن النبى ﷺ كان يتعوذ من الجان ، ومن عين الإنسان [٥] .

فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجابًا ، وأكثفهم طباعًا ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها ، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ، ولا تنكره ، وإن اختلفوا فى سببه وجهة تأثير العين .

---

(١) الموطأ (٢ / ٩٣٨) (١) فى الكتاب والباب السابقين .

(٢) عبد الرزاق (١٩٧٧٠) .

(٣) البخارى (٥٧٣٩) فى الطب ، باب : رقية العين ، ومسلم (٢١٩٧ / ٥٩) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٤) حلية الأولياء (٧ / ٩٠) ، وتاريخ بغداد (٩ / ٢٤٤) ، والكامل فى ضعفاء الرجال (٦ / ٤٠٨) .

(٥) الترمذى (٢٠٥٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقية بالمعوذتين ،وقال : « حسن غريب » ، والنسائى (٥٤٩٤) فى الاستعاذة ، باب : الاستعاذة من عين الجان ، وابن ماجه (٣٥١١) فى الطب ، باب : من استرقى من العين .

فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة ، انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين ، فيتضرر ، قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان ، فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن .

وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً ، وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم ، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين .

ولا ريب أن الله ـ سبحانه ـ خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواص ، وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس ، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحى منه،ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح ، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينًا ؛ ولهذا أمر الله ـ سبحانه ـ رسوله أن يستعيذ به من شره ، وتأثير الحاسد فى أذى المحسود أمرٌ لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة،وتقابل المحسود ،فتؤثر فيه بتلك الخاصية ، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى ، فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها ، انبعثت منها قوة غضبية ، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية ، فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر فى إسقاط الجنين ، ومنها ما تؤثر فى طمس البصر ، كما قال النبى ﷺ فى الأبتر ، وذى الطفيتين من الحيات : « إنهما يلتمسان البصر ، ويسقطان الحبل » [1] .

ومنها ، ما تؤثر فى الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة ، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه

(١) البخارى (٣٢٩٧) فى بدء الخلق ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ [البقرة : ١٦٤] ، ومسلم (١٢٩/٢٢٣٣) فى السلام ، باب : قتل الحيات وغيرها .

من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية ، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل ، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه ، وإن لم يره .

وكثير من العائنين يؤثر فى المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال تعالى لنبيه : ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ**﴾ [القلم : ٥١] .

وقال : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)**﴾ [سورة الفلق] ، فكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائنًا ، فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه ، أثرت فيه ، ولابد ، وإن صادفته حذرًا شاكى السلاح لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها ، وهذا بمثابة الرمى الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وذاك من الأجسام والأشباح ، وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين .

وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه ، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانى، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عرف بذلك، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت ، وهذا هو الصواب قطعًا .

والمقصود : العلاج النبوى لهذه العلة ، وهو أنواع ، وقد روى أبو داود فى « سننه » عن سهل بن حنيف ، قال : مررنا بسيل ، فدخلت ، فاغتسلت فيه ، فخرجت محمومًا ، فنمى ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « مروا أبا ثابت يتعوذ » ، قال : فقلت : يا سيدى ، والرقى صالحة ؟فقال : « لا رقية إلا فى نفس، أو حمة أو لدغة » [(١)] .

والنفس : العين، يقال : أصابت فلانًا نفس ، أى : عين ، والنافس : العائن . واللدغة ـ بدال مهملة وغين معجمة ـ وهى ضربة العقرب ونحوها .

فمن التعوذات والرقى الإكثار من قراءة المعوذتين ، وفاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، ومنها التعوذات النبوية .

(١) أبو داود (٣٨٨٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى ، وضعفه الألبانى .

نحو : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق .

ونحو : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة .

ونحو : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل إلا طارق يطرق بخير يا رحمن .

ومنها : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون .

ومنها : اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم ، وكلماتك التامات من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم ، واللهم إنه لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، سبحانك وبحمدك .

ومنها : أعوذ بوجه الله العظيم الذى لا شىء أعظم منه ، وبكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وأسماء الله الحسنى ، ما علمت منها وما لم أعلم ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر كل ذى شر لا أطيق شره ، ومن شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، إن ربى على صراط مستقيم .

ومنها : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحصى كل شىء عددًا ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، ومن شر كل دابة آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

وإن شاء الله قال : تحصنت بالله الذى لا إله إلا هو ، إلهى وإله كل شىء ، واعتصمت بربى ورب كل شىء ، وتوكلت على الحى الذى لا يموت ، واستدفعت الشر بلا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبى الله ونعم الوكيل ، حسبى الرب من العباد ، حسبى الخالق من المخلوق ، حسبى الرازق من المرزوق ، حسبى الذى هو حسبى ، حسبى الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله مرمى، حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم .

ومن جرب هذه الدعوات والعوذ ، عرف مقدار منفعتها ، وشدة الحاجة إليها ، وهى

تمنع وصول أثر العائن ، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها ، وقوة نفسه ، واستعداده ، وقوة توكله وثبات قلبه ، فإنها سلاح ، والسلاح بضاربه .

وإذا كان العائن يخشى ضرر عينه وإصابتها لمعين ، فليدفع شرها بقوله : الله بارك عليه ، كما قال النبى ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف : « ألا بركت » أى : قلت : اللهم بارك عليه .

ومما يدفع به إصابة العين قول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، روى هشام بن عروة ، عن أبيه ، أنه كان إذا رأى شيئًا يعجبه ، أو دخل حائطًا من حيطانه ، قال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .

ومنها : رقية جبريل عليه السلام للنبى ﷺ التى رواها مسلم فى « صحيحه » « باسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » (١) .

ورأى جماعة من السلف أن تكتب له الآيات من القرآن ، ثم يشربها . قال مجاهد : لا بأس أن يكتب القرآن ويغسله ، ويسقيه المريض ، ومثله عن أبى قلابة . ويذكر عن ابن عباس : أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسر عليها ولادها أثر من القرآن ، ثم يغسل وتسقى . وقال أيوب : رأيت أبا قلابة كتب كتابًا من القرآن ، ثم غسله بماء، وسقاه رجلاً كان به وجع .

ومنها : أن يؤمر العائن بغسل مغابنه وأطرافه وداخلة إزاره ، وفيه قولان : أحدهما : أنه فرجه . والثانى : أنه طرف إزاره الداخل الذى يلى جسده من الجانب الأيمن ، ثم يصب على رأس المعين من خلفه بغتة ، وهذا مما لا يناله علاج الأطباء ، ولا ينتفع به من أنكره ، أو سخر منه ، أو شك فيه ، أو فعله مجربًا لا يعتقد أن ذلك ينفعه .

وإذا كان فى الطبيعة خواص لا تعرف الأطباء عللها البتة ، بل هى عندهم خارجة عن قياس الطبيعة تفعل بالخاصية ، فما الذى ينكره زنادقتهم وجهلتهم من الخواص الشرعية ، هذا مع أن فى المعالجة بهذا الاستغسال ما تشهد له العقول الصحيحة ، وتقر لمناسبته ، فاعلم أن ترياق سم الحية فى لحمها ، وأن علاج تأثير النفس الغضبية فى تسكين غضبها ، وإطفاء ناره بوضع يدك عليه ، والمسح عليه ، وتسكين غضبه ، وذلك بمنزلة رجل معه شعلة من نار ، وقد أراد أن يقذفك بها ، فصببت عليها الماء ، وهى فى يده حتى طفئت ،

(١) مسلم (٢١٨٦ / ٤٠) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرقى .

ولذلك أمر العائن أن يقول : « اللهم بارك عليه » ليدفع تلك الكيفية الخبيثة بالدعاء الذى هو إحسان إلى المعين ، فإن دواء الشىء بضده ، ولما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر فى المواضع الرقيقة من الجسد ، لأنها تطلب النفوذ ، فلا تجد أرق من المغابن، وداخلة الإزار، ولاسيما إن كان كناية عن الفرج ،فإذا غسلت بالماء ، بطل تأثيرها وعملها ؛ وأيضًا فهذه المواضع للأرواح الشيطانية بها اختصاص .

والمقصود : أن غسلها بالماء يطفئ تلك النارية ، ويذهب بتلك السمية.

وفيه أمر آخر ، وهو وصول أثر الغسل إلى القلب من أرق المواضع وأسرعها تنفيذًا ، فيطفئ تلك النارية والسمية بالماء ، فيشفى المعين ، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها، خف أثر اللسعة عن الملسوع ، ووجد راحة ، فإن أنفسها تمد أذاها بعد لسعها ، وتوصله إلى الملسوع ، فإذا قتلت ، خف الألم ، وهذا مشاهد ، وإن كان من أسبابه فرح الملسوع ، واشتفاء نفسه بقتل عدوه ، فتقوى الطبيعة على الألم ، فتدفعه .

وبالجملة : غسل العائن يذهب تلك الكيفية التى ظهرت منه ، وإنما ينفع غسله عند تكيف نفسه بتلك الكيفية .

فإن قيل : فقد ظهرت مناسبة الغسل ، فما مناسبة صب ذلك الماء على المعين قيل : هو فى غاية المناسبة ، فإن ذلك الماء ماء طفئ به تلك النارية ، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل ، فكما طفئت به النارية القائمة بالفاعل طفئت به ، وأبطلت عن المحل المتأثر بعد ملابسته للمؤثر العائن ، والماء الذى يطفأ به الحديد يدخل فى أدوية عدة طبيعية ذكرها الأطباء،فهذا الذى طفئ به نارية العائن ، لا يستنكر أن يدخل فى دواء يناسب هذا الداء ، وبالجملة : فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوى ، كطب الطرقية بالنسبة إلى طبهم ، بل أقل ، فإن التفاوت الذى بينهم وبين الأنبياء أعظم ، وأعظم من التفاوت الذى بينهم وبين الطرقية بما لا يدرك الإنسان مقداره ، فقد ظهرت لك عقد الإخاء الذى بين الحكمة والشرع ، وعدم مناقضة أحدهما للآخر ، والله يهدى من يشاء إلى الصواب ، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب ، وله النعمة السابغة ، والحجة البالغة .

ومن علاج ذلك أيضًا والاحتراز منه ستر محاسن من يخاف عليه العين بما يردها عنه ، كما ذكر البغوى فى كتاب « شرح السنة » : أن عثمان رضي الله عنه رأى صبيًا مليحًا ، فقال : دسموا نونته ، لئلا تصيبه العين ، ثم قال فى تفسيره : ومعنى : دسموا نونته : أى : سودوا نونته ،والنونة : النقرة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير .

وقال الخطابى فى « غريب الحديث » له عن عثمان : إنه رأى صبيًا تأخذه العين ، فقال :دسموا نونته . فقال أبو عمرو : سألت أحمد بن يحيى عنه ، فقال : أراد بالنونة : النقرة التى فى ذقنه . والتدسيم : التسويد ، أراد : سودوا ذلك الموضع من ذقنه ، ليرد العين . قال : ومن هذا حديث عائشة أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم ، وعلى رأسه عمامة دسماء ، أى : سوداء ، أراد الاستشهاد على اللفظة ، ومن هذا أخذ الشاعر قوله :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

ومن الرقى التى ترد العين ما ذكر عن أبى عبد الله الساجى ، أنه كان فى بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة، وكان فى الرفقة رجل عائن ،فلما نظر إلى شىء إلا أتلفه ، فقيل لأبى عبد الله : احفظ ناقتك من العائن ، فقال : ليس له إلى ناقتى سبيل ، فأخبر العائن بقوله ، فتحين غيبة أبى عبد الله ، فجاء إلى رحله ، فنظر إلى الناقة ، فاضطربت وسقطت ، فجاء أبو عبد الله ، فأخبر أن العائن قد عانها ، وهى كما ترى ، فقال : دلونى عليه ، فدل ، فوقف عليه ، وقال : بسم الله ، حبس حابس ، وحجر يابس، وشهاب قابس ، رددت عين العائن عليه ، وعلى أحب الناس إليه ، ﴿ **فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)** ﴾ [الملك] ، فخرجت حدقتا العائن ، وقامت الناقة لا بأس بها (١) .

فصل

فى هديه ﷺ فى العلاج العام لكل شكوى بالرقية الإلهية

روى أبو داود فى « سننه » : من حديث أبى الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اشتكى منكم شيئًا ، أو اشتكاه أخ له فليقل : ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء ، فاجعل رحمتك فى الأرض ، واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ بإذن الله » (٢) .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى سعيد الخدرى ،أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، اشتكيت ؟ فقال : « نعم » ، فقال جبريل عليه السلام : « باسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » (٣) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٦٢ ـ ١٧٤) .

(٢) أبو داود (٣٨٩٢) فى الطب ، باب : كيف الرقى ، وضعفه الألبانى .

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٥ .

فإن قيل : فما تقولون فى الحديث الذى رواه أبو داود : « لا رقية إلا من عين ، أو حمة » والحمة : ذوات السموم كلها .

فالجواب : أنه ﷺ لم يرد به نفى جواز الرقية فى غيرها ، بل المراد به : لا رقية أولى وأنفع منها فى العين والحمة ، ويدل عليه سياق الحديث ، فإن سهل بن حنيف قال له لما أصابته العين : أو فى الرقى خير ؟ فقال : « لا رقية إلا فى نفس أو حمة » ويدل عليه سائر أحاديث الرقى العامة والخاصة ، وقد روى أبو داود من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم يرقأ » (١) .

وفى « صحيح مسلم » عنه أيضًا : رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من العين والحمة والنملة (٢) (٣) .

وأيضًا

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يقول للإنسان ـ إذا اشتكى ـ يقول بريقه ، ثم قال به فى التراب : « تربة أرضنا ، بريق بعضنا ، يشفى سقيمنا بإذن ربنا » (٤) . وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه (٥) .

وفى الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقى من العين » (٦).

وفى الصحيحين عن أم سلمة : أن النبى ﷺ قال لجارية فى بيت أم سلمة ، رأى بوجهها سفعة ، فقال : « بها نظرة ، فاسترقوا لها » (٧) يعنى بوجهها صفرة .

وفى صحيح مسلم عن جابر قال: رخص رسول الله ﷺ لآل حزم فى رقية الحية (٨) .

وقال لأسماء بنت عميس : ما لى أرى أجسام بنى أخى ضارعة ، أتصيبهم الحاجة ؟ قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم ، قال : « ارقيهم » ، قال : فعرضت عليه ، فقال :

---

(١) أبو داود (٣٨٨٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى ، وضعفه الألبانى .

(٢) مسلم (٢١٩٦ / ٥٧) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٣) زاد المعاد (٤ / ١٧٤ ، ١٧٥) .

(٤) أبو داود (٣٨٩٥) فى الطب ، باب : كيف الرقى .

(٥) البخارى (٥٧٤٥، ٥٧٤٦) فى الطب ، باب : رقية النبى ﷺ ، ومسلم (٢١٩٤ / ٥٤) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة،والنسائى فى الكبرى (١٠٨٦٢) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ذكر رقية رسول الله ﷺ ، وابن ماجه (٣٥٢١) فى الطب ، باب : ما عوّذ به النبى ﷺ وما عُوّذ منه .

(٦) سبق تخريجه ص ٢١٠ . (٧) سبق تخريجه ص ٢١١ .

(٨) مسلم (٢١٩٩ / ٦١) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين ، والنملة والحمة والنظرة .

« ارقيهم » (١) .

وفى صحيح مسلم أيضًا عن جابر قال : لدغت رجلا منا عقرب ، ونحن جلوس مع رسول الله ﷺ ، فقال رجل : يا رسول الله ، أرقى له ؟ قال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » (٢) .

وأما ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر : أن رسول الله ﷺ نهى عن الرقى (٣)، فهذا لا يعارض هذه الأحاديث ، فإنه إنما نهى عن الرقى التى تتضمن الشرك ، وتعظيم غير الله ـ سبحانه ـ كغالب رقى أهل الشرك .

والدليل على هذا : ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث عوف بن مالك الأشجعى قال : كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « اعرضوا على رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » (٤) .

وفى حديث النهى أيضًا : ما يدل على ذلك .

فإن جابرًا قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقى ، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرقى ، قال : « فاعرضوها على » ، فعرضوها عليه ، فقال : « ما أرى بها بأسًا ، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » رواه مسلم (٥) .

وهذا المسلك فى هذه الأحاديث وأمثالها : فيما يكون المنهى عنه نوعًا ، والمأذون فيه نوعًا آخر ، وكلاهما داخل تحت اسم واحد من تفطن له زال عنه اضطراب كثير ، يظنه من لم يحط علمًا بحقيقة المنهى عنه من ذلك الجنس ، والمأذون فيه متعارضًا ، ثم يسلك مسلك النسخ ، أو تضعيف أحد الأحاديث .

وأما هذه الطريقة فلا يحتاج صاحبها إلى ركوب طريق النسخ ، ولا تعسف أنواع العلل .

وقد يظهر فى كثير من المواضع ، مثل هذا الموضع ، وقد يدق ويلطف فيقع الاختلاف بين أهل العلم ، والله يسعد بإصابة الحق من يشاء ، وذلك فضله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم (٦) .

---

(١) مسلم (٢١٩٨ / ٦٠) فى الكتاب والباب السابقين .

(٢) مسلم (٢١٩٩ / ٦٢) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) مسلم فى الموضع السابق .

(٤) مسلم (٢٢٠٠ / ٦٤) فى السلام ، باب : لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك .

(٥) مسلم (٢١٩٩ / ٦٣) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٦) تهذيب السنن (٢ / ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

فصل
فى هديه ﷺ فى رقية اللديغ بالفاتحة

أخرجا فى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : انطلق نفر من أصحاب النبى ، فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء ، فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه ، فهل عند أحدٍ منكم من شىء ؟ فقال بعضهم : نعم والله إنى لأرقى، ولكن استضفناكم، فلم تضيفونا ، فما أنا براقٍ حتى تجعلوا لنا جعلاً فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفل عليه ، ويقرأ الحمد لله رب العالمين ، فكأنما نشط فى عقال ، فانطلق يمشى وما به قلبة ، قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ ،فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله ﷺ ، فذكروا له ذلك ، فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » ، ثم قال : « قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم سهمًا » (١) .

وقد روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث على قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الدواء القرآن » (٢) .

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة ،فما الظن بكلام رب العالمين ، الذى فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه الذى هو الشفاء التام ،والعصمة النافعة ، والنور الهادى ، والرحمة العامة ، الذى لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلالته . قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، و « من » هاهنا لبيان الجنس لا للتبعيض ، هذا أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح : ٢٩] وكلهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فما الظن بفاتحة الكتاب التى لم ينزل فى القرآن ، ولا فى التوراة ،

---

(١) البخارى (٥٩٤٧) فى الطب ، باب : النفث فى الرقية ، ومسلم (٢٢٠١ / ٦٥) فى السلام ، باب : جواز أخذ الأجرة على الرقية .

(٢) ابن ماجه (٣٥٠١) فى الطب ، باب : الاستشفاء بالقرآن وفى الزوائد : « فى إسناده الحارث الأعور ، وهو ضعيف » ، وضعفه الألبانى .

ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور مثلها ، المتضمنة لجميع معانى كتب الله ، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب ـ تعالى ـ ومجامعها ، وهى الله ، والرب ، والرحمن ، وإثبات المعاد ، وذكر التوحيدين : توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، وذكر الافتقار إلى الرب ـ سبحانه فى طلب الإعانة وطلب الهداية ، وتخصيصه ـ سبحانه ـ بذلك ، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه، وما العباد أحوج شىء إليه ، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه ، والاستقامة عليه إلى الممات ، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى منعم عليه بمعرفة الحق ، والعمل به ، ومحبته ، وإيثاره ، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له ، وضال بعدم معرفته له ، وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر ، والشرع ، والأسماء ، والصفات ، والمعاد ، والنبوات ، وتزكية النفوس ، وإصلاح القلوب ، وذكر عدل الله وإحسانه ، والرد على جميع أهل البدع والباطل ، كما ذكرنا ذلك فى كتابنا الكبير « مدارج السالكين » فى شرحها ، وحقيق بسورة هذا بعض شأنها ، أن يستشفى بها من الأدواء ، ويرقى بها اللديغ .

وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله ، وتفويض الأمر كله إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وسؤاله مجامع النعم كلها ، وهى الهداية التى تجلب النعم ، وتدفع النقم ، من أعظم الأدوية الشافية الكافية .

وقد قيل : إن موضع الرقية : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء ، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل ، والالتجاء والاستعانة ، والافتقار والطلب ، والجمع بين أعلى الغايات ، وهى عبادة الرب وحده ، وأشرف الوسائل وهى الاستعانة به على عبادته ما ليس فى غيرها ، ولقد مر بى وقت بمكة سقمت فيه ، وفقدت الطبيب والدواء ، فكنت أتعالج بها ، آخذ شربة من ماء زمزم ، وأقرؤها عليها مرارًا ، ثم أشربه ، فوجدت بذلك البرء التام ، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع ، فأنتفع بها غاية الانتفاع .

وفى تأثير الرقى بالفاتحة وغيرها فى علاج ذوات السموم سر بديع ، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الخبيثة ، كما تقدم ، وسلاحها وحماتها التى تلدغ بها ، وهى لا تلدغ حتى تغضب ، فإذا غضبت ، ثار فيها السم ، فتقذفه بآلتها ، وقد جعل الله سبحانه لكل داء دواء ، ولكل شىء ضدًا ، ونفس الراقى تفعل فى نفس المرقى بين نفسيهما فعل وانفعال ، كما يقع بين الداء والدواء ، فتقوى نفس الراقى وقوته بالرقية على ذلك الداء ،

فيدفعه بإذن الله ، ومدار تأثير الأدوية والادواء على الفعل ، والانفعال ، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين ، يقع بين الداء والدواء الروحانيين ، والروحانى والطبيعى ، وفى النفث والتفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء، فإن الرقية تخرج من قلب الراقى وفمه ، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس ، كانت أتم تأثيرًا ، وأقوى فعلاً ونفوذًا ، ويحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية .

وبالجملة : فنفس الراقى تقابل تلك النفوس الخبيثة ، وتزيد بكيفية نفسه ، وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر ، وكلما كانت كيفية نفس الراقى أقوى ، كانت الرقية أتم ، واستعانته بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها .

وفى النفث سر آخر ، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة ، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل الإيمان . قال تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④﴾ [الفلق] ، وذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب والمحاربة ، وترسل أنفاسها سهمًا لها ، وتمدها بالنفث والتفل الذى معه شيء من الريق مصاحب لكيفية مؤثرة ، والسواحر تستعين بالنفث استعانةً بينة ، وإن لم تتصل بجسم المسحور ، بل تنفث على العقدة وتعقدها ، وتتكلم بالسحر ، فيعمل ذلك فى المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة ، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية ، وتستعين بالنفث ، فأيهما قوى كان الحكم له ، ومقابلة الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتها وآلتها من جنس مقابلة الأجسام ، ومحاربتها وآلتها سواء ، بل الأصل فى المحاربة والتقابل للأزواح والأجسام وآلاتها وجندها ، ولكن من غلب عليه الحس لا يشعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سلطان الحس عليه ، وبعده من عالم الأرواح ، وأحكامها ، وأفعالها .

والمقصود :أن الروح إذا كان قوية وتكيفت بمعانى الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل ، قابلت ذلك الأثر الذى حصل من النفوس الخبيثة ، فأزالته والله أعلم (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٧٦ ـ ١٧٨) .

فصل
فى بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين : شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال ، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم ، وفساد القصد .

ويترتب عليهما داءان قاتلان ، وهما الضلال والغضب ، فالضلال نتيجة فساد العلم . والغضب نتيجة فساد القصد ، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها ، فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال ، ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد ، وأوجبه عليه كل يوم وليلة ، فى كل صلاة ، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة ، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه .

والتحقيق بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ⁅٥⁆ ﴾ [الفاتحة] علمًا ومعرفة ، وعملاً وحالاً : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد ، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعى قصده فاسدا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته : من المشركين ، ومتبعى الشهوات ، الذين لا غاية لهم وراءها ، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأى طريق كان من حق أو باطل ، فإذا جاء الحق معارضًا فى طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإذا لم يجدوا منه بدًا أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين ، لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم ، وانتصارهم به ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ** ⁅٤٨⁆ **وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** ⁅٤٩⁆ **أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ⁅٥٠⁆ ﴾ [النور] .

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد فى غاياتهم ووسائلهم ، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التى طلبوها ، واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات ، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا ، إذا حق الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التى

كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة ، وهذا يظهر كثيرًا فى الدنيا ، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله . ويشتد ظهوره وتحققه فى البرزخ ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء ، إذا حقت الحقائق ، وفاز المحقون وخسر المبطلون ، وعلموا أنهم كانوا كاذبين ، وكانوا مخدوعين مغرورين ، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه ، ويقين لا ينجى مستيقنه .

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه ، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه ، وهى من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا ، وكلاهما فاسد القصد ، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء « إياك نعبد وإياك نستعين » .

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء : عبودية الله لا غيره ، بأمره وشرعه ، لا بالهوى ، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ، ورسومهم ، وأفكارهم ، بالاستعانة على عبوديته به ، لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره .

فهذه هى أجزاء ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض حصل بها الشفاء التام ، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها ، أو اثنين أو أكثر .

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ .

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ تدفع الرياء ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ تدفع الكبرياء .

فإذا عوفى من مرض الرياء بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٦) ﴾ [الفاتحة : ٦] عوفى من أمراضه وأسقامه ، ورفل فى أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة ،وكان من المنعم عليهم ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفاتحة : ٧] وهم أهل فساد القصد ،الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿**وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة : ٧] وهم أهل فساد العلم ،الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه .

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين : أن يستشفى بها من كل مرض ؛ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذى هو أعظم الشفاءين ، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى ، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التى عقلت عن الله وكلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًا،

اختصها به ، من معانى هذه السورة .

وأما تضمنها لشفاء الأبدان : فنذكر منه ما جاءت به السنة ، وما شهدت به قواعد الطب ، ودلت عليه التجربة .

فأما ما دلت عليه السنة : ففى الصحيح من حديث أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى : أن ناسًا من أصحاب النبى ﷺ مروا بحى من العرب ، فلم يقروهم ، ولم يضيفوهم ، فلدغ سيد الحى ، فأتوهم ، فقالوا : هل عندكم من رقية ، أو هل فيكم من راق ؟ فقالوا : نعم ، ولكنكم لم تقرونا ، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا ، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم ، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب ، فقام كأن لم يكن به قلبة ، فقلنا : لا تعجلوا حتى نأتى النبى ﷺ . فأتيناه ، فذكرنا له ذلك ، فقال : « ما يدرك أنها رقية ؟ كلوا ، واضربوا لى معكم بسهم » (١) .

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه ، فأغنته عن الدواء ، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء .

هذا مع كون المحل غير قابل،إما لكون هؤلاء الحى غير مسلمين ،أو أهل بخل ولؤم ، فكيف إذا كان المحل قابلاً .

وأما شهادة قواعد الطب بذلك :فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم ، وهى ذوات الأنفس الخبيثة التى تتكيف بكيفية غضبية ، تثير فيها سمية نارية ، يحصل بها اللدغ،وهى متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها ، فإذا تكيفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية ، تجد راحة ولذة فى إلقائها إلى المحل القابل ، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة فى إيصال شره إلى من يوصله إليه ، وكثير من الناس لا يهنأ له عيش فى يوم لا يؤذى فيه أحدًا من بنى جنسه،ويجد فى نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذى فيه ،حتى يفرغه فى غيره ، فيبرد عند ذلك أنينه ، وتسكن نفسه ، ويصيبه فى ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع ، فيسوء خلقه ، وتثقل نفسه حتى يقضى وطره ، هذا فى قوة الشهوة ، وذاك فى قوة الغضب .

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس الغضبية ، فلولا هو لفسدت الأرض وخربت ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** (٢٥١) ﴾ [البقرة] وأباح الله ـ بلطفه ورحمته ـ لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٢١ .

والمقصود : أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه ، ومنها ما يؤثر فى المحل بمجرد مقابلته له ، وإن لم يمسه ، فمنها ما يطمس البصر ، ويسقط الحبل .

ومن هذا نظر العائن، فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت فى نفسه كيفية سمية أثرت فى المعين بحسب عدم استعداده ، وكونه أعزل من السلاح ، وبحسب قوة تلك النفس ، وكثير من هذه النفوس يؤثر فى المعين إذا وصف له،فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به، ومنكر هذا ليس معدوداً من بنى آدم إلا بالصورة والشكل ، فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التى فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية ، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها ، وما تضمنته من التوحيد والتوكل ، والثناء على الله ، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذى ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه ، ولا على خير إلا نماه وزاده ، دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية ، فحصل البرء ، فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده ، وحفظ الشىء بمثله ، فالصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يدفع بالضد ، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقًا وأمرًا ، ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة ، وقبول من الطبيعة المنفعلة ، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ، ولم تقو نفس الراقى على التأثير، لم يحصل البر .

فهنا أمور ثلاثة : موافقة الدواء للداء ، وبذل الطبيب له ، وقبول طبيعة العليل ، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء ، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله ـ سبحانه وتعالى .

ومن عرف هذا كما ينبغى تبين له أسرار الرقى ، وميز بين النافع منها وغيره ورقى الداء بما يناسبه من الرقى ، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل ، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع ، وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره ، وحسن تأمله ، والله أعلم .

وأما شهادة التجارب بذلك : فهى أكثر من أن تذكر ، وذلك فى كل زمان ، وقد جربت أنا من ذلك فى نفسى وفى غيرى أموراً عجيبة ، ولا سيما مدة المقام بمكة ، فإنه كان يعرض لى آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة منى وذلك فى أثناء الطواف وغيره ، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط ، جربت ذلك مراراً عديدة وكنت آخذ قدحا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارا فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما

لم أعهده مثله فى الدواء ،والأمر أعظم من ذلك ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين ، والله المستعان (١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج لدغة العقرب بالرقية

روى ابن أبى شيبة فى « مسنده » ، من حديث عبد الله بن مسعود، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلى ، إذ سجد فلدغته عقرب فى أصبعه ،فانصرف رسول الله ﷺ وقال:« لعن الله العقرب ما تدع نبيا ولا غيره »، قال : ثم دعا بإناء فيه ماء وملح ، فجعل يضع موضع اللدغة فى الماء والملح ، ويقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، والمعوذتين حتى سكنت (٢) .

ففى هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين : الطبيعى والإلهى ، فإن فى سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمى الاعتقادى ، وإثبات الأحدية لله ، المستلزمة نفى كل شركة عنه ، وإثبات الصمدية المستلزمة لإثبات كل كمال له مع كون الخلائق تصمد إليه فى حوائجها، أى: تقصده الخليقة ، وتتوجه إليه، علويها وسفليها ، ونفى الوالد والولد، والكفء عنه المتضمن لنفى الأصل ، والفرع والنظير ، والمماثل مما اختصت به وصارت تعدل ثلث القرآن ، ففى اسمه الصمد إثبات كل الكمال وفى نفى الكفء التنزيه عن الشبيه والمثال ، وفى الأحد نفى كل شريك لذى الجلال ، وهذه الأصول الثلاثة هى مجامع التوحيد .

وفى المعوذتين الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً ، فإن الاستعاذة من شر ما خلق تعم كل شر يستعاذ منه ، سواء كان فى الأجسام أو الأرواح ، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل ، وآيته وهو القمر إذا غاب ، تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التى كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار ، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر ، انتشرت وعاثت .

والاستعاذة من شر النفاثات فى العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن .

والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٢ ـ ٥٨) .

(٢) انظر : الطبرانى فى الصغير (٢ / ٢٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ١١٤) : « إسناده حسن » .

والسورة الثانية : تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن ، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر ، ولهما شأن عظيم فى الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، ولهذا أوصى النبى ﷺ عقبة بن عامر بقرائتهما عقب كل صلاة، ذكره الترمذى فى « جامعه » (١)، وفى هذا سر عظيم فى استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال : ما تعوذ المتعوذون بمثلهما . وقد ذكر أنه ﷺ سحر فى إحدى عشرة عقدة ، وأن جبريل نزل عليه بهما ، فجعل كلما يقرأ آية منهما انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، وكأنما نشط من عقال . وأما العلاج الطبيعى فيه ، فإن فى الملح نفعًا لكثير من السموم ، ولا سيما لدغة العقرب ، قال صاحب « القانون » : يضمد به مع بذر الكتان للسع العقرب ، وذكره غيره أيضًا ، وفى الملح من القوة الجاذبة المحللة ما يجذب السموم ويحللها ، ولما كان فى لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب وإخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللسعة ، والملح الذى فيه جذب وإخراج ، وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله ، وفيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج ، والله أعلم .

وقد روى مسلم فى « صحيحه » عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة فقال : « أما لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم تضرك » (٢) .

واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله ، وتمنع من قوعه ، وإن وقع لم يقع وقوعًا مضرًا ، وإن كان مؤذيًا، والأدوية الطبيعية إنما تنفع ، بعد حصول الداء ، فالتعوذات والأذكار ، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب ، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه ، فالرقى والعوذ تستعمل لحفظ الصحة ، ولإزالة المرض ، أما الأول : فكما فى « الصحيحين » من حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث فى كفيه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين ، ثم يمسح بهما وجهه ، وما بلغت يده من جسده (٣) .

وكما فى حديث عوذة أبى الدرداء المرفوع : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم » ، وقد تقدم وفيه: « من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة

---

(١) الترمذى (٢٩٠٢) فى فضائل القرآن ، باب : ما جاء فى المعوذتين ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) مسلم (٢٧٠٩) فى الذكر والدواء ، باب : فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

(٣) البخارى (٥٧٤٨) فى الطب ، باب : النفث فى الرقية ، مسلم (٢١٩٢ / ٥٠) فى السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات والنفث .

حتى يمسى ، ومن قالها آخر نهاره لم تصبه مصيبة حتى يصبح » (١) .

وكما فى « الصحيحين » : « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » (٢) .

وكما فى « صحيح مسلم » عن النبى ﷺ : « من نزل منزلاً فقال : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك » (٣) .

وكما فى « سنن أبى داود » أن رسول الله ﷺ كان فى السفر يقول بالليل: « يا أرض، ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، وشر ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والدٍ وما ولد » (٤) .

وأما الثانى : فكما تقدم من الرقية بالفاتحة ، والرقية للعقرب وغيرها مما يأتى (٥) .

فصل

فى هديه ﷺ فى رقية النملة

قد تقدم من حديث أنس الذى فى « صحيح مسلم » أنه ﷺ رخص فى الرقية من الحمة والعين والنملة .

وفى « سنن أبى داود » عن الشفاء بنت عبد الله ، قالت : دخل على رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة ، فقال : « ألا تُعلِّمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة » (٦) .

النملة: قروح تخرج فى الجنبين ، وهو داء معروف ، وسمى نملة ؛ لأن صاحبه يحس فى مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه، وأصنافها ثلاثة ، قال ابن قتيبة وغيره : كان المجوس يزعمون أن ولد الرجل من أخته إذا خط على النملة ، شفى صاحبها ، ومنه قول الشاعر :

ولا عيب فينا غير عرف لمعشر كرام وأنا لا نخط على النمل

وروى الخلال : أن الشفاء بنت عبد الله كانت ترقى فى الجاهلية من النملة ، فلما هاجرت إلى النبى ﷺ وكانت قد بايعته بمكة ، قالت : يا رسول الله ، إنى كنت أرقى فى الجاهلية من النملة ، وإنى أريد أن أعرضها عليك ، فعرضت عليه فقالت : بسم الله

(١) كنز العمال (٣٥٨٣) وعزاه إلى الديلمى عن أبى الدرداء ، والأذكار للنووى (٢٢١) .

(٢) البخارى (٥٠٠٩) فى فضائل القرآن ، باب: فضل سورة البقرة ،ومسلم (٨٠٨ / ٢٥٥) فى صلاة المسافرين ، باب : فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .

(٣) مسلم (٢٧٨٠٨ / ٥٤) فى الذكر والدعاء ، باب : فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

(٤) أبو داود (٢٦٠٣) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا نزل المنزل .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٨٠ ـ ١٨٤) .

(٦) أبو دواد (٣٨٨٧) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى .

ضلت حتى تعود من أفواهها ، ولا تضر أحدًا ، اللهم اكشف البأس رب الناس ، قال : ترقى بها على عود سبع مرات، وتقصد مكانًا نظيفًا، وتدلكه على حجر بخل خمر حاذق ، وتطليه على النملة ، وفى الحديث : دليل على جواز تعليم النساء الكتابة (١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى رقية الحية

قد تقدم قوله : « لا رقية إلا فى عين ، أو حمة » ، الحمة : بضم الحاء وفتح الميم وتخفيفها . وفى سنن ابن ماجه من حديث عائشة : رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من الحية والعقرب (٢) . ويذكر عن ابن شهاب الزهرى قال : لدغ بعض أصحاب رسول الله ﷺ حية ، فقال النبى ﷺ : « هل من راق ؟ » فقالوا : يا رسول الله ، إن آل حزم كانوا يرقون رقية الحية ، فلما نهيت عن الرقى تركوها ، فقال :« ادعوا عمارة بن حزم » ، فدعوه ، فعرض عليه رقاه ، فقال : « لا بأس بها » فأذن له فيها فرقاه (٣) (٤) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج الوجع بالرقية

روى مسلم فى « صحيحه » عن عثمان بن أبى العاص ، أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال النبى ﷺ : « ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل :بسم الله ثلاثًا ،وقل سبع مرات:أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » (٥) ففى هذا العلاج من ذكر الله ، والتفويض إليه ، والاستعاذة بعزته وقدرته من شر الألم ما يذهب به ، وتكراره ليكون أنجع وأبلغ ، كتكرار الدواء لإخراج المادة ، وفى السبع خاصية لا توجد فى غيرها ، وفى « الصحيحين » : أن النبى ﷺ كان يعوذ بعض أهله ، يمسح بيده اليمنى ، ويقول : « اللهم رب الناس، أذهب الباس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقمًا » (٦). ففى هذه الرقية توسل إلى الله بكمال ربوبيته

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٨٤ ، ١٨٥) .

(٢) ابن ماجه (٣٥١٧) فى الطب ، باب : رقية الحية والعقرب .

(٣) مسلم (٢١٩٩ / ٦١) فى السلام ، باب: استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٤) زاد المعاد (٤ / ١٨٥) .

(٥) مسلم (٢٢٠٢) فى السلام ، باب : استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء .

(٦) البخارى (٥٧٥٠) : فى الطب ، باب : مسح الراقى الوجع بيده اليمنى ، ومسلم (٢١٩١ / ٤٦) فى السلام ، باب : استحباب رقية المريض .

وكمال رحمته بالشفاء ، وأنه وحده الشافى ، وأنه لا شفاء إلا شفاؤه ، فتضمنت التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته (١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج حر المصيبة وحزنها

قال تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** ﴾ [البقرة] ، وفى « المسند » عنه ﷺ أنه قال : « ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خير منها ، إلا أجاره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » (٢) .

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب ، وأنفعه له فى عاجلته وآجلته ، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته :

أحدهما : أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة ، وقد جعله عند العبد عارية ، فإذا أخذه منه ،فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضًا فإنه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له متعة معارة فى زمن يسير ، وأيضًا فإنه ليس الذى أوجده عن عدمه،حتى يكون ملكه حقيقة ، ولا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، ولا يبقى عليه وجوده ، فليس له فيه تأثير ، ولا ملك حقيقى ، وأيضًا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهى ، لا تصرف الملاك ، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقى .

والثانى : أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق ، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجىء ربه فردًا كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن بالحسنات والسيئات ، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته ، فكيف يفرح بموجود ، أو يأسى على مفقود ، ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء .

ومن علاجها : أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا**

(١) زاد المعاد (٤ / ١٨٨) .
(٢) أحمد (٤ / ٢٧) .

يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد] .

ومن علاجها : أن ينظر إلى ما أصيب به ، فيجد ربه قد أبقى عليه مثله ، أو أفضل منه ، وادخر له ـ إن صبر ورضى ـ ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة ، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هى .

ومن علاجها : أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب ، وليعلم أنه فى كل وادٍ بنو سعد ، ولينظر يمنة،فهل يرى إلا محنة ؟ ثم ليعطف يسرة ، فهل يرى إلا حسرة؟ ، وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى ، إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل ،إن أضحكت قليلاً، أبكت كثيراً ، وإن سرت يومًا ، ساءت دهرًا ، وإن متعت قليلا ، منعت طويلا ، وما ملأت دارًا خيرة إلا ملأتها عبرة ، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : لكل فرحة ترحة ، وما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا . وقال ابن سيرين : ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء .

وقالت هند بنت النعمان : لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكًا ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس، وأنه حق على الله ألا يملأ دارًا خيرة إلا ملأها عبرة.

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها ، فقالت : أصبحنا ذا صباح ، وما فى العرب أحد إلا يرجونا ، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمنا .

وبكت أختها حرقة بنت النعمان يومًا ، وهى فى عزها ، فقيل لها : ما يبكيك ، لعل أحدًا آذاك ؟ قالت : لا ، ولكن رأيت غضارة فى أهلى ، وقلما امتلأت دارٌ سرورًا إلا امتلأت حزنًا .

قال إسحاق بن طلحة : دخلت عليها يومًا ، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس ، إنا نجد فى الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون فى خيرة إلا سيعقبون بعدها عبرة ، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فـأف لدنيا لا يـدوم نعيمهـا ... تقلب تـارات بنـا وتصـرف

ومن علاجها : أن يعلم أن الجزع لا يردها ، بل يضاعفها ، وهو فى الحقيقة من تزايد المرض .

ومن علاجها : أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم ، وهو الصلاة والرحمة والهداية التى ضمنها الله على الصبر ، والاسترجاع أعظم من المصيبة فى الحقيقة .

ومن علاجها : أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه ، ويسوء صديقه ، ويغضب ربه ، ويسر شيطانه ، ويحبط أجره ، ويضعف نفسه ، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه ، ورده خاسئًا ، وأرضى ربه ، وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحمل عن إخوانه ، وعزاهم هو قبل أن يعزوه ، فهذ هو الثبات والكمال الأعظم ، لا لطم الخدود وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والثبور ، والسخط على المقدور .

ومن علاجها : أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقى عليه ، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذى يبنى له فى الجنة على حمده لربه واسترجاعه ، فينظر : أى المصيبتين أعظم ؟ مصيبة العاجلة ، أو مصيبة فوات بيت الحمد فى جنة الخلد ، وفى الترمذى مرفوعًا : « يود ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض فى الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء » (١) .

وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس .

ومن علاجها : أن يروح قلبه بروح رجاء الخلف من الله ، فإنه من كل شىء عوض إلا الله ، فما منه عوض كما قيل :

من كل شىء إذا ضيعته عوض   وما من الله إن ضيعته عوض

ومن علاجها : أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له ، فمن رضى ، فله الرضا ، ومن سخط ، فله السخط ، فحظك منها ما أحدثته لك ، فاختر خير الحظوظ أو شرها ، فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا ، كتب فى ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا فى ترك واجب ، أو فعل محرم ، كتب فى ديوان المفرطين ، وإن أحدثت له شكاية ، وعدم صبر ، كتب فى ديوان المغبونين ، وإن أحدثت له اعتراضًا على الله ، وقدحًا فى حكمته ، فقد قرع باب الزندقة أو ولجه ، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله، كتب فى ديوان الصابرين ، وإن أحدثت له الرضا عن الله، كتب فى ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر ، كتب فى ديوان الشاكرين ، وكان تحت لواء الحمد مع الحمادين ، وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلى لقاء ربه ، كتب فى ديوان المحبين المخلصين .

---

(١) الترمذى (٢٤٠٢) فى الزهد ، باب : عظم ثواب أهل البلاء يوم القيامة ، وقال : « حديث لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه » .

وفى « مسند الإمام أحمد » والترمذى ، من حديث محمود بن لبيد يرفعه : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » ، زاد أحمد : « ومن جزع فله الجزع » (١) .

ومن علاجها : أن يعلم أنه وإن بلغ فى الجزع غايته، فآخر أمره إلى صبر الاضطرار ، وهو غير محمود ولا مثاب ، قال بعض الحكماء : العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام ، سلا سلو البهائم . وفى « الصحيح » مرفوعًا : « الصبر عند الصدمة الأولى » (٢) . وقال الأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا ، وإلا سلوت سلو البهائم .

ومن علاجها : أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له ، وأن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب،فمن ادعى محبة محبوب ، ثم سخط ما يحبه ، وأحب ما يسخطه ، فقد شهد على نفسه بكذبه ، وتمقت إلى محبوبه .

وقال أبو الدرداء : إن الله إذا قضى قضاء ، أحب أن يرضى به ، وكان عمران بن حصين يقول فى علته : أحبه إلى أحبه إليه ، وكذلك قال أبو العالية .

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع الحبين ، ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به .

ومن علاجها : أن يوازن بين أعظم اللذتين والتمتعين ، وأدومهما : لذة تمتعه بما أصيب به ، ولذة تمتعه بثواب الله له ، فإن ظهر له الرجحان ، فآثر الراجح ، فليحمد الله على توفيقه ، وإن آثر المرجوح من كل وجه ، فليعلم أن مصيبته فى عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التى أصيب بها فى ديناه .

ومن علاجها : أن يعلم أن الذى ابتلاه بها أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به ، ولا ليعذبه به ، ولا ليجتاحه ، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طريحًا ببابه ، لائذًا بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعًا قصص الشكوى إليه .

قال الشيخ عبد القادر : يا بنى ، إن المصيبة ما جاءت لتهلكك ، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك ، يا بنى ، القدر سبع والسبع لا يأكل الميتة .

والمقصود : أن المصيبة كير العبد الذى يسبك به حاصله ، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر ،

---

(١) الترمذى (٢٣٩٦) فى الزهد،باب:ما جاء فى الصبر على البلاء ، وقال « حسن غريب »،وأحمد (٥ / ٤٢٧) .

(٢) البخارى (١٣٠٢) فى الجنائز ، باب : الصبر عند الصدمة الأولى ، ومسلم (١٩٢٦ / ١٤) فى الجنائز ، باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى .

وإما أن يخرج خبثًا كله ، كما قيل :

سبكناه ونحسبه لجينًا فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا ، فبين يديه الكير الأعظم ، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لا بد من أحد الكيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل .

ومن علاجها : أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها ، لأصاب العبد ـ من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ـ ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً ، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده فى الأحيان بأنواع من أدوية المصائب ، تكون حمية له من هذه الأدواء ، وحفظًا لصحة عبوديته ، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه ، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلى بنعمائه كما قيل :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه ـ سبحانه ـ يداوى عباده بأدوية المحن والابتلاء ، لطغوا ، وبغوا ، وعتوا ، والله ـ سبحانه ـ إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة ، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه ، أهله لأشرف مراتب الدنيا ، وهى عبوديته ، وأرفع ثواب الآخرة ، وهو رؤيته وقربه .

ومن علاجها : أن يعلم أن مرارة الدنيا هى بعينها حلاوة الآخرة ، يقلبها الله سبحانه كذلك ، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة ، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك ، فإن خفى عليك هذا ، فانظر إلى قول الصادق المصدوق : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » (١) .

وفى هذا المقام تفاوتت عقولُ الخلائق ، وظهرت حقائق الرجال ، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التى لا تزول ، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد ، ولا ذل ساعة لعز الأبد ، ولا محنة ساعة لعافية الأبد ، فإن الحاضر عنده شهادة ، والمنتظر غيب ، والإيمان ضعيف ، وسلطان الشهوة حاكم ، فتولد من ذلك إيثار العاجلة ، ورفض الآخرة ، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور ، وأوائلها ومبادئها ، وأما النظر الثاقب الذى يخرق حجب العاجلة ، ويجاوزه إلى العواقب والغايات ، فله شأن آخر .

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم ، والسعادة الأبدية ،

---

(١) مسلم (٢٨٢٢ / ١) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

والفوز الأكبر ، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزى والعقاب والحسرات الدائمة ، ثم اختر أى القسمين أليق بك ، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه ، وما هو الأولى به ، ولا تستطل هذا العلاج ، فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه ، وبالله التوفيق (١) .

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج الكرب والهم والغم والحزن

أخرجا فى « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات السبع ورب الأرض رب العرش الكريم » (٢) .

وفى « جامع الترمذى » عن أنس ، أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر ، قال : « يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » (٣) .

وفيه : « عن أبى هريرة ، أن النبى ، ، كان إذا أهمه الأمر ، رفع طرفه إلى السماء فقال : « سبحان الله العظيم »، وإذا اجتهد فى الدعاء قال : « يا حى يا قيوم » (٤) .

وفى « سنن أبى داود » عن أبى بكرة ،أن رسول الله ﷺ قال : « دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » (٥) .

وفيها أيضًا عن أسماء بنت عميس قالت : قال لى رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب ، أو فى الكرب : الله ربى لا أشرك به شيئًا » (٦) ، وفى رواية أنها تقال سبع مرات (٧) .

وفى « مسند الإمام أحمد » عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « ما أصاب عبدًا

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٨٨ ـ ١٩٦) .

(٢) البخارى (٦٣٤٥) فى الدعوات، باب : الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٣٧٣ / ٨٣) فى الذكر والدعاء ، باب : دعاء الكرب .

(٣) الترمذى (٣٥٢٢) فى الدعوات ، باب : (٩٢) ، وقال : « غريب » .

(٤) الترمذى (٣٤٣٦) فى الدعوات ، باب : ما جاء ما يقول عند الكرب ، و قال : « حسن غريب » .

(٥) أبو داود (٥٠٩٠) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .

(٦) أبو داود (١٥٢٥) فى الصلاة، باب : فى الاستغفار .

(٧) الطبرانى فى الأوسط (٦١١٩) .

هم ولا حزن فقال : « اللهم إنى عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه ، وأبدله مكانه فرحًا » (١) .

وفى الترمذى عن سعد بن أبى وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذ دعا ربه وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجيب له » (٢) .

وفى رواية : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه : كلمة أخى يونس » (٣) .

وفى « سنن أبى داود » عن أبى سعيد الخدرى قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة ، فقال : « يا أبا أمامة ، ما لى أراك فى المسجد فى غير وقت الصلاة ؟ » فقال : هموم لزمتنى ، وديون يا رسول الله ، فقال : « ألا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى دينك ؟ » قلت : بلى يا رسول، قال: « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » قال : ففعلت لك ، فأذهب الله عز وجل همى ، وقضى عنى دينى (٤) .

وفى « سنن أبى داود » عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (٥) .

وفى « المسند » أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر، فزع إلى الصلاة (٦) ، وقد قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وفى « السنن » : « عليكم بالجهاد ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يدفع الله به عن

---

(١) أحمد (١ / ٤٥٢) .

(٢) الترمذى (٣٥٠٥) فى الدعوات ، باب : (٨٢) .

(٣) كنزل العمال (٣٤٢٧) وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن سعد .

(٤) أبو داود (١٥٥٥) فى الزكاة ، باب : فى الاستعاذة .

(٥) أبو داود (١٥١٨) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار .

(٦) أحمد (٥ / ٣٨٨) .

النفوس الهم والغم » [١] .

ويذكر عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ : « من كثرت همومه وغمومه ، فليكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » [٢] .

وثبت فى « الصحيحين » أنها كنز من كنوز الجنة [٣] .

وفى الترمذى : أنها باب من أبواب الجنة [٤] .

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعًا من الدواء ، فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن ، فهو داء قد استحكم ، وتمكنت أسبابه ، ويحتاج إلى استفراغ كلى :

الأول : توحيد الربوبية .

الثانى : توحيد الإلهية .

الثالث : التوحيد العلمى الاعتقادى .

الرابع : تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده ، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك .

الخامس : اعتراف العبد بأنه هو الظالم .

السادس : التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء ، وهو أسماؤه وصفاته ومن أجمعها لمعانى الأسماء والصفات : الحى القيوم .

السابع : الاستعانة به وحده .

الثامن : إقرار العبد له بالرجاء .

التاسع : تحقيق التوكل عليه ، والتفويض إليه ، والاعتراف له بأن ناصيته فى يده يصرفها كيف يشاء ، وأنه ماض فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه .

العاشر : أن يرتع قلبه فى رياض القرآن ، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان ، وأن

---

(١) البيهقى فى الكبرى (٩ / ٢٠) فى السير ، باب : أصل فرض الجهاد ، وأحمد (٥ / ٣١٩) ، والطبرانى فى الأوسط (٨٣٣٤) .

(٢) الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية للكحال ٧ / ١٧٩ .

(٣) البخارى (٦٤٠٩) فى الدعوات ، باب : قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومسلم (٤ ٢٧٠/ ٤٤) فى الذكر والدعاء ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

(٤) الترمذى (٣٥٨١) فى الدعوات ، باب : فى فضل لا حول ولا قوة إلا بالله » وقال : « صحيح غريب من هذا الوجه » .

يستضيء به فى ظلمات الشبهات والشهوات ، وأن يتسلى به عن كل فائت ، ويتعزى به عن كل مصيبة ، ويستشفى به من أدواء صدره ، فيكون جلاء حزنه وشفاء همه وغمه .

الحادى عشر : الاستغفار .

الثانى عشر : التوبة .

الثالث عشر : الجهاد .

الرابع عشر : الصلاة .

الخامس عشر : البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلى من هما بيده [١] .

فصل
فى بيان جهة تأثير هذه الأدوية فى هذه الأمراض

خلق الله ـ سبحانه ـ ابن آدم وأعضاءه ، وجعل لكل عضو منها كمالاً إذا فقده أحس بالألم ، وجعل لملكها وهو القلب كمالاً ، إذا فقده ، حضرته أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان .

فإذا فقدت العين ما خلقت له من قوة الإبصار وفقدت الأذن ما خلقت له من قوة السمع ، واللسان ما خلق له من قوة الكلام ، فقدت كمالها .

والقلب : خلق لمعرفة فاطره ومحبته وتوحيده والسرور به، والابتهاج بحبه ، والرضا عنه ، والتوكل عليه ، والحب فيه ، والبغض فيه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، ودوام ذكره ، وأن يكون أحب إليه من كل ما سواه ، وأرجى عنده من كل ما سواه ، وأجل فى قلبه من كل ما سواه ، ولا نعيم له ولا سرور ولا لذة ، بل ولا حياة إلا بذلك ، وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة ، فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته ، فالهموم والغموم والأحزان مسارعة من كل صوب إليه ، ورهن مقيم عليه .

ومن أعظم أدوائه : الشرك والذنوب والغفلة ، والاستهانة بمحابه ومراضيه ، وترك التفويض إليه ، وقلة الاعتماد عليه ، والركون إلى ما سواه ، والسخط بمقدوره ، والشك فى وعده ووعيده .

وإذا تأملت أمراض القلب ، وجدت هذه الأمور وأمثالها هى أسبابها لا سبب لها سواها ، فدواؤه الذى لا دواء له سواه ما تضمنته هذه العلاجات النبوية من الأمور المضادة لهذه الأدواء ، فإن المرض يزال بالضد والصحة تحفظ بالمثل ، فصحته تحفظ بهذه الأمور

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٩٦ ـ ٢٠١) .

النبوية ، وأمراضه بأضدادها .

فالتوحيد : يفتح للعبد باب الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج ، والتوبة استفراغ لأخلاط المواد الفاسدة التى هى سبب أسقامه ، وحمية له من التخليط ، فهى تغلق عنه باب الشرور ، فيفتح له باب السعادة والخير بالتوحيد ، ويغلق باب الشرور بالتوبة والاستغفار .

قال بعض المتقدمين من أئمة الطب : من أراد عافية الجسم ، فليقلل من الطعام والشراب ، ومن أراد عافية القلب ، فليترك الآثام . وقال ثابت بن قرة : راحة الجسم فى قلة الطعام ، وراحة الروح فى قلة الآثام ، وراحة اللسان فى قلة الكلام .

والذنوب للقلب بمنزلة السموم، إن لم تهلكه أضعفته ، ولا بد ، وإذا ضعفت قوته ، لم يقدر على مقاومة الأمراض ، قال طبيب القلوب عبد الله بن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

فالهوى أكبر أدوائها، ومخالفته أعظم أدويتها،والنفس فى الأصل خلقت جاهلة ظالمة، فهى لجهلها تظن شفاءها فى اتباع هواها ، وإنما فيه تلفها وعطبها ، ولظلمها لا تقبل من الطبيب الناصح ،بل تضع الداء موضع الدواء فتعتمده،وتضع الدواء موضع الداء فتجتنبه ، فيتولد من بين إيثارها للداء ، واجتنابها للدواء أنواع من الأسقام والعلل التى تعيى الأطباء ، ويتعذر معها الشفاء ، والمصيبة العظمى ، أنها تركب ذلك القدر ، فتبرئ نفسها ، وتلوم ربها بلسان الحال دائمًا ، ويقوى اللوم حتى يصرح به اللسان .

وإذا وصل العليل إلى هذه الحال ، فلا يطمع فى برئه إلا أن تتداركه رحمة من ربه ، فيحييه حياة جديدة ، ويرزقه طريقة حميدة ، فلهذه كان حديث ابن عباس فى دعاء الكرب مشتملاً على توحيد الإلهية والربوبية ، ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم ، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة ، والإحسان والتجاوز ، ووصفه بكمال ربوبيته للعالم العلوى والسفلى ، والعرش الذى هو سقف المخلوقات وأعظمها ، والربوبية التامة تستلزم توحيده ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة والحب والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له ، وعظمته المطلقة تستلزم إثبات كل كمال له ، وسلب كل نقص وتمثيل عنه ، وحمله يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه .

فعلم القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده ، فيحصل له من الابتهاج

واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم ، وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه ، ويقوى نفسه ، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسى ، فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى .

ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التى تضمنها دعاء الكرب ، وجدته فى غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق ،وخروج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور ، وهذه الأمور إنما يصدق بها من أشرقت فيه أنوارها ، وباشر قلبه حقائقها .

وفى تأثير قوله : « يا حى يا قيوم ، برحمتك أستغيث » (١) فى دفع هذا الداء مناسبة بديعة ، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال ، مستلزمة لها ، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال ، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى : هو اسم الحى القيوم ، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام ، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شىء من الآفات ، ونقصان الحياة تضر بالأفعال ، وتنافى القيومية ، فكمال القيومية لكمال الحياة ، فالحى المطلق التام الحياة لا تفوته صفة الكمال البتة ، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة ، فالتوسل بصفة الحياة والقيومية له تأثير فى إزالة ما يضاد الحياة ، ويضر بالأفعال .

ونظير هذا توسل النبى ﷺ إلى ربه بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، فإن حياة القلب بالهداية ، وقد وكل الله ـ سبحانه ـ هؤلاء الأملاك الثلاثة بالحياة ، فجبريل موكل بالوحى الذى هو حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر الذى هو حياة الأبدان والحيوان ، وإسرافيل بالنفخ فى الصور الذى هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها ، فالتوسل إليه سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة ، له تأثير فى حصول المطلوب .

والمقصود : أن لاسم الحى القيوم تأثيرًا خاصًا فى إجابة الدعوات ،وكشف الكربات ، وفى « السنن » و« صحيح أبى حاتم » مرفوعًا:« اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ [البقرة]، وفاتحة آل عمران ﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) ﴾ ، وقال الترمذى : حديث صحيح (٢) .

وفى « السنن » و« صحيح ابن حبان » أيضًا :من حديث أنس أن رجلاً دعا ، فقال :

(١) الترمذى (٣٥٢٤) فى الدعوات ، باب : (٩٢) ، وقال : « غريب » .

(٢) أبو داود (١٤٩٦) فى الصلاة ، باب:الدعاء ، والترمذى (٣٤٧٨) فى الدعوات ، باب:(٦٥) ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٨٥٥) فى الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم .

اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم ، فقال النبى ﷺ : « لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (١) .

ولهذا كان النبى ﷺ إذا اجتهد فى الدعاء قال : « يا حى يا قيوم » .

وفى قوله : « اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت » (٢) من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيديه والاعتماد عليه وحده ، وتفويض الأمر إليه ، والتضرع إليه ، أن يتولى إصلاح شأنه ، ولا يكله إلى نفسه ، والتوسل إليه بتوحيده مما له تأثير قوى فى دفع هذا الداء ، وكذلك قوله : « الله ربى لا أشرك به شيئًا » .

وأما حديث ابن مسعود : « اللهم إنى عبدك ابن عبدك » ، ففيه من المعارف الإلهية ، وأسرار العبودية ما لا يتسع له كتاب، فإنه يتضمن الاعتراف بعبوديته وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده يصرفها كيف يشاء ، فلا يملك العبد دونه لنفسه نفعًا ولا ضرًا ، ولا موتًا ولا حياةً ، ولا نشورًا ، لأن من ناصيته بيد غيره ، فليس إليه شىء من أمره ، بل هو عانٍ فى قبضته ، ذليل تحت سلطان قهره .

وقوله : « ماضٍ فىّ حكمك عدلٌ فىّ قضاؤك » (٣) متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد :

أحدها : إثبات القدر ، وأن أحكام الرب تعالى نافذة فى عبده ماضية فيه ، لا انفكاك له عنها ، ولا حيلة له فى دفعها .

والثانى : أنه ـ سبحانه ـ عدل فى هذه الأحكام ، غير ظالم لعبده ، بل لا يخرج فيها عن موجب العدل والإحسان ، فإن الظلم سببه حاجة الظالم ، أو جهله ، أو سفهه، فيستحيل صدوره ممن هو بكل شىء عليم ، ومن هو غنى عن كل شىء ، وكل شىء فقير إليه ، ومن هو أحكم الحاكمين ، فلا تخرج ذرة من مقدوراته عن حكمته وحمده ، كما لم تخرج عن قدرته ومشيئته ، فحكمته نافذة حيث نفذت مشيئته وقدرته ، ولهذا قال نبى

---

(١) أبو داود (١٤٩٥) فى الصلاة ، باب : الدعاء ، وابن ماجه (٣٨٥٨) فى الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم ، وابن حبان (٨٩٠) .

(٢) أبو داود (٥٠٩٠) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، وأحمد (٥ / ٤٢) .

(٣) أحمد (١ / ٣٩١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٣٩) : « رجال أحمد وأبى يعلى رجال اصحيح غير أبى سلمة الجهنى ، وقد وثقه ابن حبان » وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٧١٢) : « إسناده صحيح » .

الله هود صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، وقد خوفه قومه بآلهتهم : ﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود]، أى : مع كونه سبحانه آخذًا بنواصى خلقه وتصريفهم كما يشاء ، فهو على صراط مستقيم لا يتصرف فيهم إلا بالعدل والحكمة ، والإحسان والرحمة . فقوله : « ماض فى حكمك » ، مطابق لقوله : ﴿ **مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ ، وقوله : « عدل فى قضاؤك » [1] مطابق لقوله : ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود : ٥٧] ، ثم توسل إلى ربه بأسمائه التى سمى بها نفسه ما علم العباد منها وما لم يعلموا . ومنها : ما استأثره فى علم الغيب عنده ، فلم يطلع على عليه ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلاً ، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل ، وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمطلوب .

ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه كالربيع الذى يرتع فيه الحيوان ، وكذلك القرآن ربيع القلوب ، وأن يجعله شفاء همه وغمه ، فيكون له بمنزلة الدواء الذى يستأصل الداء ، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله ، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذى يجلو الطبوع والأصدية وغيرها فأحرى بهذا العلاج إذا صدق العليل فى استعماله أن يزيل عنه داءه ، ويعقبه شفاء تامًا ، وصحة وعافية ، والله الموفق .

وأما دعوة ذى النون : فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم، والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله ـ سبحانه ـ فى قضاء الحوائج ، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله ، واستقالته عثرته ، والاعتراف بعبوديته ، وافتقاره إلى ربه ، فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها : التوحيد ، والتنزيه ، والعبودية ، والاعتراف .

وأما حديث أبى أمامة : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن » [2] ، فقد تضمن الاستعاذة من ثمانية أشياء ، كل اثنين منها قرينان مزدوجان ، فالهم والحزن أخوان ، والعجز والكسل أخوان ، والجبن والبخل أخوان ،وضلع الدين وغلبة الرجال أخوان ، فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب، فإما أن يكون سببه أمرًا ماضيًا ،فيوجب له الحزن ،

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٧ .

(٢) البخارى (٥٤٢٥) فى الأطعمة ، باب : الحيس .

وإن كان أمرًا متوقعًا فى المستقبل،أوجب الهم ، وتخلف العبد عن مصالحه وتفويتها عليه ، إما أن يكون من عدم القدرة وهو العجز ، أو من عدم الإرادة وهو الكسل ، وحبس خيره ونفعه عن نفسه وعن بنى جنسه ، إما أن يكون منع نفعه ببدنه ، فهو الجبن ، أو بماله ، فهو البخل ، وقهر الناس له إما بحق ، فهو ضلع الدين ، أو بباطل فهو غلبة الرجال ، فقد تضمن الحديث الاستعاذة من كل شر ، وأما تأثير الاستغفار فى دفع الهم والغم والضيق ، فلما اشترك فى العلم به أهل الملل وعقلاء كل أمة أن المعاصى والفساد توجب الهم والغم ، والخوف والحزن ، وضيق الصدر ، وأمراض القلب ، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسئمتها نفوسهم ، ارتكبوها دفعاً لما يجدونه فى صدورهم من الضيق والهم والغم ، كما قال شيخ الفسوق :

وكأس شربت على لذةٍ وأخرى تداويت منها بها

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام فى القلوب ، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار .

وأما الصلاة ، فشأنها فى تفريح القلب وتقويته ، وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن ، وفيها من اتصال القلب والروح بالله ، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته ، والوقوف بين يديه ، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته فى عبوديته ، وإعطاء كل عضو حظه منها ، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاوراتهم ، وانجذاب قوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره ، وراحته من عدوه حالة الصلاة ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التى لا تلائم إلا القلوب الصحيحة ، وأما القلوب العليلة ، فهى كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة .

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة ، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة ، وهى منهاة عن الإثم ، ودافعة لأدواء القلوب ، ومطردة للداء على الجسد ، ومنورة للقلب ، ومبيضة للوجه ، ومنشطة للجوارح والنفس ، وجالبة للرزق ، ودافعة للظلم،وناصرة للمظلوم ،وقامعة لأخلاط الشهوات ، وحافظة للنعمة ، ودافعة للنقمة ، ومنزلة للرحمة ، وكاشفة للغمة ، ونافعة من كثير من أوجاع البطن ،وقد روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث مجاهد، عن أبى هريرة قال : رآنى رسول الله ﷺ وأنا نائم أشكو من وجع بطنى ، فقال لى : « يا أبا هريرة ، أشكمت درد ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « قم فصل ، فإن فى الصلاة شفاء » (١) . وقد روى هذا الحديث موقوفًا على أبى هريرة ، وأنه هو الذى قال ذلك لمجاهد ، وهو أشبه ، ومعنى هذه اللفظة

---

(١) ابن ماجه (٣٤٥٨) فى الطب ، باب : الصلاة شفاء ، وضعفه الألبانى .

بالفارسى : أيوجعك بطنك ؟

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج ،فيخاطب بصناعة الطب ، ويقال له : الصلاة رياضة النفس والبدن جميعًا ، إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب ، والركوع ، والسجود والتورك ، والانتقالات وغيرها من الأوضاع التى يتحرك معها أكثر المفاصل ، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة ، كالمعدة ، والأمعاء ، وسائر آلات النفس ، والغذاء ، فما ينكر أن يكون فى هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد ، ولاسيما بواسطة قوة النفس وانشراحها فى الصلاة ، فتقوى الطبيعة ، فيندفع الألم ، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل ، والتعوض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نارٌ تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

وأما تأثير الجهاد فى دفع الهم والغم ، فأمر معلوم بالوجدان ، فإن النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه ، اشتد همها وغمها ، وكربها وخوفها ، فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحًا ونشاطًا وقوة ، كما قال تعالى: ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [التوبة]، فلا شىء أذهب لجوى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد ، والله المستعان .

وأما تأثير « لا حول ولا قوة إلا بالله » فى دفع هذا الداء ، فلما فيها من كمال التفويض والتبرى من الحول والقوة إلا به ، وتسليم الأمر كله له ، وعدم منازعته فى شىء منه ، وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال فى العالم العلوى والسفلى ، والقوة على ذلك التحول،وأن ذلك كله بالله وحده ،فلا يقوم لهذه الكلمة شىء ، وفى بعض الآثار ، إنه ما ينزل ملك من السماء ، ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولها تأثير عجيب فى طرد الشيطان ، والله المستعان [١] .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج الفزع ، والأرق المانع من النوم

روى الترمذى فى « جامعه » عن بريدة قال : شكى خالد إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله، ما أنام الليل من الأرق ،فقال النبى ﷺ: « إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السماوات السبع وما أظلت،ورب الأرضين وما أقلت،ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعًا أن يفرط على أحد منهم،أو يبغى على ، عز جارك،

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٠١ ـ ٢١١) .

وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك » (١) .

وفيه أيضًا : عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع : « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ، وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون » ، قال : وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه ومن لم يعقل كتبه ، فأعلقه عليه (٢) ، ولا يخفى مناسبة هذه العوذة لعلاج هذا الداء (٣) .

فصل
فى هديه ﷺ فى علاج داء الحريق وإطفائه

يذكر عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الحريق فكبروا ، فإن التكبير يطفئه » (٤) ، لما كان الحريق سببه النار ، وهى مادة الشيطان التى خلق منها ، وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله كان للشيطان إعانة عليه ، وتنفيذ له ، وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد ، وهذان الأمران وهما العلو فى الأرض والفساد هما هدى الشيطان ، وإليهما يدعو ، وبهما يملك بنى آدم ، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو فى الأرض والفساد ، وكبرياء الرب ـ عز وجل ـ تقمع الشيطان وفعله .

ولهذا كان تكبير الله ـ عز وجل ـ له أثر فى إطفاء الحريق،فإن كبرياء الله ـ عز وجل ـ لا يقوم لها شىء ، فإذا كبّر المسلم ربه ،أثر تكبيره فى خمود النار وخمود الشيطان التى هى مادته ، فيطفئ الحريق وقد جربنا نحن وغيرنا هذا ، فوجدناه كذلك ، والله أعلم (٥).

---

(١) الترمذى (٣٥٢٣) فى الدعوات ، باب : (٩١) ، وقال : ليس إسناده بالقوى ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث » .

(٢) الترمذى (٣٥٢٨) فى الدعوات، باب : (٩٤) ، وقال : حسن غريب » .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢١١ ، ٢١٢) .

(٤) المطالب العالية للحافظ ابن حجر (٣٤٢٤) ، وقال : « مرسل حسن » ، والضعفاء الكبير للعقيلى ٢ / ٢٩٦) ، والكامل فى ضعفاء الرجل لابن عدى ٤ / ١٥١ .

(٥) زاد المعاد (٤ / ٢١٢ ، ٢١٣) .

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج العشق

هذا مرض من أمراض القلب ، مخالف لسائر الأمراض فى ذاته وأسبابه وعلاجه ، وإذا تمكن واستحكم ، عز على الأطباء دواؤه ، وأعيى العليل داؤه ، وإنما حكاه الله سبحانه فى كتابه عن طائفتين من الناس : من النساء وعشاق الصبيان المردان ، فحكاه عن امرأة العزيز فى شأن يوسف ، وحكاه عن قوم لوط ، فقال تعالى إخبارًا عنهم لما جاء الملائكة لوطًا : ﴿ **وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)** ﴾ [الحجر] .

وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره أنه ابتلى به فى شأن زينب بنت جحش ، وأنه رآها فقال: « سبحان مقلب القلوب » وأخذت بقلبه ، وجعل يقول لزيد ابن حارثة : «أمسكها»، حتى أنزل الله عليه : ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾(١) [الأحزاب : ٣٧] ، فظن هذا الزاعم أن ذلك فى شأن العشق ، وصنف بعضهم كتابًا فى العشق ، وذكر فيه عشق الأنبياء ، وذكر هذه الواقعة ، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل ، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله ، ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه ، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة ، وكان رسول الله ﷺ قد تبناه ، وكان يدعى زيد بن محمد وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه ، فشاور رسول الله ﷺ فى طلاقها ، فقال له رسول الله ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله » وأخفى فى نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد ، وكان يخشى من قالة الناس أنه تزوج امرأة ابنه ، لأن زيدًا كان يدعى ابنه ، فهذا هو الذى أخفاه فى نفسه ، وهذه هى الخشية من الناس التى وقعت له ، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها ، وأعلمه أن لا ينبغى له أن

---

(١) خبر باطل وكذب على رسول الله ﷺ أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٨ / ٨٠ ، ٨١) ، ترجمة (٤١٣٢) ، والحاكم (٤ / ٢٣) .

يخشى الناس فيما أحل الله له ، وأن الله أحق أن يخشاه ، فلا يتحرج ما أحله له لأجل قول الناس ، ثم أخبره أنه سبحانه زوجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها لتقتدى أمته به فى ذلك ، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبنى ، لا امرأة ابنه لصلبه ، ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ **وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٣] .وقال فى هذه السورة: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ** ﴾ [الأحزاب : ٤٠] وقال فى أولها : ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ** ﴾ [الأحزاب : ٤] ، فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ ، ودفع طعن الطاعنين عنه ، وبالله التوفيق .

نعم،كان رسول الله ﷺ يحب نساءه ،وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ، ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب ، بل صح أنه قال : « لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » [١]،وفى لفظ:«وإن صاحبكم خليل الرحمن » [٢].

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى ، المعرضة عنه ، المتعوضة بغيره عنه ، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه ، دفع ذلك عن مرض عشق الصور ، ولهذا قال تعالى فى حق يوسف : ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)** ﴾ [يوسف] ، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التى هى ثمرته ونتيجته ، فصرف المسبب صرف لسببه ،ولهذا قال بعض السلف :العشق حركة قلب فارغ ، يعنى فارغًا مما سوى معشوقه ، قال تعالى : ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ** ﴾ [القصص : ١٠] أى : فارغًا من كل شىء إلا من موسى لفرط محبتها له ، وتعلق قلبها به .

والعشق مركب من أمرين : استحسان للمعشوق ، وطمع فى الوصول إليه ، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق ، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء ، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب .

فنقول : قد استقرت حكمة الله ـ عز وجل ـ فى خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه ، وانجذاب الشىء إلى موافقه ومجانسه بالطبع ، وهروبه من مخالفه ،

---

(١) البخارى (٣٦٥٦) فى فضائل الصحابة ، باب : قول النبى ﷺ : « لو كنت متخذًا خليلا » .
(٢) مسلم (٢٣٨٣ / ٧) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل الصديق رضي الله عنه .

ونفرته عنه بالطبع ، فسر التمازج والاتصال فى العالم العلوى والسفلى ، إنما هو التناسب والتشاكل ، والتوافق ، وسر التباين والانفصال ، إنما هو بعدم التشاكل والتناسب ، وعلى ذلك قام الخلق والأمر ، فالمثل إلى مثله مائل ، وإليه صائر ، والضد عن ضده هارب ، وعنه نافر ، وقد قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ، فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره ، فعلة السكون المذكور ـ وهو الحب ـ كونها منه ، فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة ، ولا الموافقة فى القصد والإرادة ، ولا فى الخلق والهدى ، وإن كانت هذه أيضًا من أسباب السكون والمحبة .

وقد ثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (١) . وفى « مسند الإمام أحمد » وغيره فى سبب هذا الحديث : أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس ، فجاءت إلى المدينة ، فنزلت على امرأة تضحك الناس ، فقال النبى ﷺ : « الأرواح جنود مجندة » الحديث (٢) .

وقد استقرت شريعته سبحانه أن حكم الشىء حكم مثله ، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبدًا،ولا تجمع بين متضادين ، ومن ظن خلاف ذلك ، فإما لقلة علمه بالشريعة ، وإما لتقصيره فى معرفة التماثل والاختلاف ،وإما لنسبته إلى شريعته ما لم ينزل به سلطانًا ، بل يكون من آراء الرجل ، فبحكمته وعدله ظهر خلقه وشرعه ، وبالعدل والميزان قام الخلق والشرع ، وهو التسوية بين المتماثلين ، والتفريق بين المختلفين .

وهذا كما أنه ثابت فى الدنيا ،فهو كذلك يوم القيامة قال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)** ﴾ [الصافات] .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعده الإمام أحمد ـ رحمه الله : أزواجهم أشباههم ونظراؤهم .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)** ﴾ [التكوير] أى : قرن كل صاحب عمل

(١) مسلم (٢٦٣٨ / ١٥٩) فى البر والصلة والآداب ، باب : الأرواح جنود مجندة .
(٢) أحمد (٢ / ٢٩٥ ، ٥٢٧) .

بشكله ونظيره ، فقرن بين المتحابين فى الله فى الجنة ، وقرن بين المتحابين فى طاعة الشيطان فى الجحيم ، فالمرء مع من أحب شاء أو أبى ، وفى « مستدرك الحاكم » وغيره عن النبى ﷺ : « لا يحب المرء قومًا إلا حشر معهم »(١) .

والمحبة أنواع متعددة : فأفضلها وأجلها : المحبة فى الله ولله ، وهى تستلزم محبة ما أحب الله ، وتستلزم محبة الله ورسوله .

ومنها محبة الاتفاق فى طريقة،أو دين ، أو مذهب ، أو نحلة أو قرابة ، أو صناعة ، أو مراد ما .

ومنها:محبة لنيل غرض من المحبوب ،إما من جاهه أو من ماله أو من تعليه وإشاده ، أو قضاء وطر منه ،وهذه هى المحبة العرضية التى تزول بزوال موجبها،فإن من ودك لأمر ، ولى عنك عند انقضائه .

وأما محبة المشاكلة والمناسبة التى بين المحب والمحبوب ، فمحبة لازمة لاتزول إلا لعارض يزيلها ،ومحبة العشق من هذا النوع ، فإنها استحسان روحانى ، وامتزاج نفسانى ، ولا يعرض فى شىء من أنواع المحبة من الوسواس والنحول ، وشغل البال ، والتلف ما يعرض من العشق .

فإن قيل : فإذا كان سبب العشق ما ذكرتم من الاتصال والتناسب الروحانى ، فما باله لا يكون دائمًا من الطرفين ، بل تجده كثيرًا من طرف العاشق وحده ، فلو كان سببه الاتصال النفس والامتزاج الروحانى ، لكانت المحبة مشتركة بينهما .

فالجواب : أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط ، أو لوجود مانع ، وتخلف المحبة من الجانب الآخر لا بد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب :

الأول : علة فى المحبة ، وأنها محبة عرضية لا ذاتية ، ولا يجب الاشتراك فى المحبة العرضية ، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب .

الثانى : مانع يقوم بالمحب يمنع محبة محبوبه له ، إما فى خُلُقه ، أو فى خَلْقه أو هديه أو فعله ، أوهيئته أو غير ذلك .

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٣٨٤) .

الثالث : مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب فى محبته ، ولولا ذلك المانع ، لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر ، فإذا انتفت هذه الموانع ، وكانت المحبة ذاتية ، فلا يكون قط إلا من الجانبين ، ولولا مانع الكبر والحسد ، والرياسة والمعاداة فى الكفار ، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم ، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال .

والمقصود : أن العشق لما كان مرضًا من الأمراض ، كان قابلاً للعلاج ، وله أنواع من العلاج ، فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعًا وقدراً ، فهو علاجه ، كما ثبت فى « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإن له وجاء » [1] ، فدل المحب على علاجين : أصلى ، وبدلى ، وأمره بالأصلى ، وهو العلاج الذى وضع لهذا الداء ، فلا ينبغى العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً .

وروى ابن ماجه فى « سننه » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لم نر للمتحابين مثل النكاح » [2] ، وهذا هو المعنى الذى أشر إليه ـ سبحانه ـ عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** (٢٨) ﴾ [النساء] . فذكر تخفيفه فى هذا الموضع ، وإخباره عن ضعف الإنسان يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة ، وأنه ـ سبحانه ـ خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مثنى وثلاث ورباع ، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه ، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلى ذلك علاجًا لهذه الشهوة وتخفيفًا عن هذا الخلق الضعيف ، ورحمة به .

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال معشوقه قدرًا أو شرعًا ، أو هو ممتنع عليه من الجهتين ، وهو الداء العضال ، فمن علاجه إشعار نفسه اليأس منه ، فإن النفس متى يئست من الشيء استراحت منه ، ولم تلتفت إليه ، فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس ، فقد انحرف الطبع انحرافًا شديداً ، فينتقل إلى علاج آخر ، وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق

(١) البخارى (١٩٠٥) فى الصوم ، باب : الصوم لمن خاف على نفسه العزلة ، ومسلم (١٤٠٠/ ١) فى النكاح ، باب : استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة .

(٢) ابن ماجه (١٨٤٧) فى النكاح ، باب:ما جاء فى فضل النكاح ، وفى الزوائد:« إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

القلب بما لا مطمع فى حصوله نوع من الجنون ، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس ، وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران معها فى فلكها ، وهذا معدود عند جميع العقلاء فى زمرة المجانين .

وإن كان الوصال متعذرًا شرعًا لا قدرًا ، فعلاجه بأن ينزله منزلة المتعذر قدرًا ، إذ ما لم يأذن فيه الله ، فعلاج العبد ونجاته موقوف على اجتنابه ، فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه ، وأنه بمنزلة سائر المحالات ، فإن لم تجبه النفس الأمارة ، فليتركه لأحد أمرين إما خشية ، وإما فوات محبوب هو أحب إليه ، وأنفع له ، وخير له منه ، وأدوم لذة وسرورًا ، فإن العاقل متى وازن بين نيل محبوب سريع الزوال بفوات محبوب أعظم منه ، وأدوم ، وأنفع ، وألذ أو بالعكس ، ظهر له التفاوت ، فلا تبع لذة الأبد التى لا خطر لها بلذة ساعة تنقلب آلامًا ، وحقيقتها أنها أحلام نائم ، أو خيال لا ثبات له ،فتذهب اللذة ، وتبقى التبعة ، وتزول الشهوة ، وتبقى الشقوة .

الثانى : حصول مكروه أشق عليه من فوات هذا المحبوب ، بل يجتمع له الأمران ، أعنى : فوات ما هو أحب إليه من هذا المحبوب ، وحصول ما هو أكره إليه من فوات هذا المحبوب ، فإذا تيقن أن فى إعطاء النفس حظها من هذا المحبوب هذين الأمرين ، هان عليه تركه ، ورأى أن صبره على فوته أسهل من صبره عليهما بكثير ، فعقله ودينه ، ومروءته وإنسانيته ، تأمره باحتمال الضرر اليسير الذى ينقلب سريعًا لذة وسرورًا ،وفرحًا لدفع هذين الضررين العظيمين . وجهله وهواه ، وظلمه وطيشه ، وخفته يأمره بإيثار هذا المحبوب العاجل بما فيه جالبًا عليه ما جلب ، والمعصوم من عصمه الله .

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء ، ولم تطاوعه لهذه المعالجة ، فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفاسد عاجلته ، وما تمنعه من مصالحها ، فإنها أجلب شىء لمفاسد الدنيا ، وأعظم شىء تعطيلاً لمصالحها ، فإنها تحول بين العبد وبين رشده الذى هو ملاك أمره ، وقوام مصالحه .

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء ، فليتذكر قبائح المحبوب ، وما يدعوه إلى النفرة عنه ، فإنه إن طلبها وتأملها وجدها أضعاف محاسنه التى تدعو إلى حبه ، وليسأل جيرانه عما خفى عليه منها ، فإن المحاسن كما هى داعية الحب والإرادة ، فالمساوئ داعية البغض

والنفرة ، فيوازن بين الداعيين ، وليحب أسبقهما وأقربهما منه بابًا ، ولا يكن من غره لون جمال على جسم أبرص مجذوم وليجاوز بصره حسن الصورة إلى قبح الفعل ، وليعبر من حسن المنظر والجسم إلى قبح المخبر والقلب .

فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه ، وليطرح نفسه بين يديه على بابه ، مستغيثًا به ، متضرعًا ، متذللاً ، مستكينًا ، فمتى وفق لذلك ، فقد قرع باب التوفيق ، فليعف وليكتم ، ولا يشبب بذكر المحبوب ، ولا يفضحه بين الناس ويعرضه للأذى ، فإنه يكون ظالمًا معتديًا .

ولا يغتر بالحديث الموضوع على رسول الله ﷺ الذى رواه سويد بن سعيد ، عن على بن مسهر ، عن أبى يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ ، ورواه عن أبى مسهر أيضًا ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ ، ورواه الزبير بن بكار، عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، عن عبد العزيز ابن أبى حازم ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى أنه قال: « من عشق ، فعف، فمات فهو شهيد » وفى رواية : « من عشق وكتم وعف وصبر ، غفر الله له ، وأدخله الجنة » (١) .

فإن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، ولا يجوز أن يكون من كلامه ، فإن الشهادة درجة عالية عند الله ، مقرونة بدرجة الصديقية ، ولها أعمال وأحوال ، هى شرط فى حصولها ، وهى نوعان :

عامة وخاصة : فالخاصة : الشهادة فى سبيل الله .

والعامة : خمس مذكورة فى « الصحيح » ليس العشق واحدًا منها .

وكيف يكون العشق الذى هو شرك فى المحبة ، وفراغ القلب عن الله ،وتمليك القلب والروح ، والحب لغيره تنال به درجة الشهادة ، هذا من المحال ، فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد ، بل هو خمر الروح الذى يسكرها ، ويصدها عن ذكر الله وحبه ، والتلذذ بمناجاته ، والأنس به ، ويوجب عبودية القلب لغيره ، فإن قلب العاشق متعبد

(١) تاريخ بغداد (٥ / ١٥٦ ، ٢٦٢) ، والقارى فى الأسرار المرفوعة (٥٠٨) .

لمعشوقه ، بل العشق لب العبودية ، فإنها كمال الذل ، والحب والخضوع والتعظيم ، فكيف يكون تعبد القلب لغير الله مما تنال به درجة أفاضل الموحدين وساداتهم ، وخواص الأولياء ، فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس ، كان غلطًا ووهمًا ، ولا يحفظ عن رسول الله ﷺ لفظ العشق فى حديث صحيح البتة .

ثم إن العشق منه حلال ، ومنه حرام ، فكيف يظن بالنبى ﷺ أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد ، فترى من يعشق امرأة غيره ، أو يعشق المردان والبغايا ، ينال بعشقه درجة الشهداء ، وهل هذا إلا خلاف المعلوم من دينه ﷺ بالضرورة ؟ كيف والعشق مرض من الأمراض التى جعل الله سبحانه لها الأدوية شرعًا وقدرًا ، والتداوى منه إما واجب إن كان عشقًا حرامًا ، وإما مستحب .

وأنت إذا تأملت الأمراض والآفات التى حكم رسول الله ﷺ لأصحابها بالشهادة ، وجدتها من الأمراض التى لا علاج لها ، كالمطعون ، والمبطون ، والمجنون ، والحريق ، والغريق ، وموت المرأة يقتلها ولدها فى بطنها ، فإن هذه بلايا من الله لا صنع للعبد فيها ، ولا علاج لها ، وليست أسبابها محرمة ، ولا يترتب عليها من فساد القلب وتعبده لغير الله ما يترتب على العشق، فإن لم يكف هذا فى إبطال نسبة هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ ، فقلد أمة الحديث العالمين به وبعلله ، فإنه لا يحفظ عن إمام واحد منهم قط أنه شهد له بصحة ، بل ولا بحسن ، كيف وقد أنكروا على سويد هذا الحديث ، ورموه لأجله بالعظائم واستحل بعضهم غزوه لأجله . قال أبو أحمد بن عدى فى « كامله » : هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد ، وكذلك قال البيهقى : إنه مما أنكر عليه ، وكذلك قال ابن طاهر فى « الذخيرة » وذكره الحاكم فى « تاريخ نيسابور » وقال : أنا أتعجب من هذا الحديث ، فإنه لم يحدث به عن غير سويد ، وهو ثقة ، وذكره أبو الفرج ابن الجوزى فى كتاب « الموضوعات » ، وكان أبو بكر الأزرق يرفعه أولاً عن سويد ، فعوتب فيه ، فأسقط النبى ﷺ وكان لا يجاوز به ابن عباس رضي الله عنهما .

ومن المصائب التى لا تحتمل جعل هذا الحديث من حديث هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبى ﷺ. ومن له أدنى إلمام بالحديث وعلله ، لا يحتمل هذا البتة ، ولا يحتمل أن يكون من حديث الماجشون عن ابن أبى حازم ، عن ابن أبى نجيح ، عن

مجاهد ، عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا ، وفى صحته موقوفًا على ابن عباس نظر ، وقد رمى الناس سويد بن سعيد راوى هذا الحديث بالعظائم ، وأنكره عليه يحيى بن معين وقال : هو ساقط كذاب ،لو كان لى فرس ورمح كنت أغزوه ، وقال الإمام أحمد : متروك الحديث ، وقال النسائى : ليس بثقة ، وقال البخارى : كان قد عمى فيلقن ما ليس من حديثه ، وقال ابن حبان : يأتى بالمعضلات عن الثقات يجب مجانبة ما روى ، انتهى . وأحسن ما قيل فيه قول أبى حاتم الرازى : إنه صدوق كثير التدليس ، ثم قول الدارقطنى : هو ثقة غير أنه لما كبر كان ربما قرئ عليه حديث فيه بعض النكارة فيجيزه انتهى ، وعيب على مسلم إخراج حديثه ، وهذه حاله ، ولكن مسلم روى من حديثه ما تابعه عليه غيره ، ولم ينفرد به ، ولم يكن منكرًا ولا شاذًا بخلاف هذا الحديث ، والله أعلم [١] .

فصل
فى ذكر شيء من الأدوية والأغذية المفردة
التى جاءت على لسانه ﷺ مرتبه على حروف المعجم
(حرف الهمزة)

إثمد:

هو حجر الكحل الأسود ، يؤتى به من أصبهان ، وهو أفضله ، ويؤتى به من جهة المغرب أيضًا ، وأجوده السريع التفتيت الذى لفتاته بصيص ، وداخله أملس ليس فيه شيء من الأوساخ .

ومزاجه بارد يابس ينفع العين ويقويها ، ويشد أعصابها ، ويحفظ صحتها ، ويذهب اللحم الزائد فى القروح ويدملها ، وينقى أوساخها ، ويجلوها ، ويذهب الصداع إذا اكتحل به مع العسل المائى الرقيق ، وإذا دق وخلط ببعض الشحوم الطرية ، ولطخ على حرق النار ، لم تعرض فيه خشكريشة ، ونفع من التنفط الحادث بسببه ، وهو أجود إكحال العين لا سيما للمشايخ،والذين قد ضعفت أبصارهم إذا جعل معه شيء من المسك .

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٦٥ ـ ٢٧٨) .

أترج :

ثبت فى « الصحيح » : عن النبى ، أنه قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، طعمها طيب ، وريحها طيب » (١) .

فى الأترج منافع كثيرة ، وهو مركب من أربعة أشياء : قشر ، ولحم ، وحمض ، وبزر ، ولكل واحد منها مزاج يخصه ، فقشره حار يابس ، ولحمه حار رطب ، وحمضه بارد يابس ، وبزره حار يابس .

ومن منافع قشره : أنه إذا جعل فى الثياب منع السوس ، ورائحته تصلح فساد الهواء والباء ، ويطيب النكهة إذا أمسكه فى الفم ، ويحلل الرياح ، وإذا جعل فى الطعام كالأبازير ، أعان على الهضم . قال صاحب « القانون » : وعصارة قشره تنفع من نهش الأفاعى شربًا ، وقشره ضمادًا ، وحراقة قشره طلاء جيد للبرص . انتهى .

وأما لحمه : فملطف لحرارة المعدة ، نافع لأصحاب المرة الصفراء ، قامع للبخارات الحارة . وقال الغافقى : أكل لحمه ينفع البواسير ، انتهى .

وأما حمضه : فقابض كاسر للصفراء ، ومسكن للخفقان الحار ، نافع من اليرقان شربًا واكتحالاً ، قاطع للقىء الصفراوى ، مشهٍ للطعام ، عاقل للطبيعة ، نافع من الإسهال الصفراوى ، وعصارة حمضه يسكن غلمة النساء ، وينفع طلاء من الكلف ، ويذهب بالقوباء ، ويستدل على ذلك من فعله فى الحبر إذا وقع فى الثياب قلعه ، وله قوة تلطف ، وتقطع ، وتبرد ، وتطفئ حرارة الكبد ، وتقوى المعدة ، وتمنع حدة المرة الصفراء ، وتزيل الغم العارض منها ، وتسكن العطش .

وأما بزره : فله قوة محللة مجففة ، وقال ابن ماسويه : خاصية حبه النفع من السموم القاتلة إذا شرب منه وزن مثقال مقشرًا بماء فاتر ، وطلاء مطبوخ ، وإن دق ووضع على موضع اللسعة ، نفع ، وهو ملين للطبيعة ، مطيب للنكهة ، وأكثر هذا الفعل موجود فى قشره ، وقال غيره : خاصية حبه النفع من لسعات العقارب إذا شرب منه وزن مثقالين مقشرًا بماء فاتر ، وكذلك إذا دق ووضع على موضع اللدغة . وقال غيره : حبه يصلح

---

(١) البخارى (٥٠٢٠) فى فضائل القرآن ، باب : فضل القرآن على سائر الكلام ، ومسلم (٧٩٧ / ٢٤٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضيلة حافظ القرآن .

للسموم كلها ، وهو نافع من لدغ الهوام كلها .

وذكر أن بعض الأكاسرة غضب على قوم من الأطباء ، فأمر بحبسهم ، وخيرهم أدمًا لا يزيد لهم عليه ، فاختاروا الأترج ، فقيل لهم : لم اخترتموه على غيره ؟ فقالوا : لأنه فى العاجل ريحان، ومنظره مفرح ، وقشره طيب الرائحة ، ولحمه فاكهة ، وحمضه أدم ، وحبه ترياق ، وفيه دهن .

وحقيق بشىء هذه منافعه أن يشبه به خلاصة الوجود ،وهو المؤمن الذى يقرأ القرآن ، وكان بعض السلف يحب النظر إليه لما فى منظره من التفريح .

أَرُزّ :

فيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ ، أحدهما : أنه « لو كان رجلاً ، لكان حليمًا » ، الثانى : « كل شىء أخرجته الأرض ففيه داء وشفاء إلا الأرز ، فإنه شفاء لا داء فيه » ذكرناهما تنبيهًا وتحذيرًا من نسبتهما إليه ﷺ .

وبعد فهو حار يابس ، وهو أغذى الحبوب بعد الحنطة ، وأحمدها خلطًا ، يشد البطن شدًا يسيرًا ، ويقوى المعدة ، ويدبغها ، ويمكث فيها ، وأطباء الهند تزعم أنه أحمد الأغذية وأنفعها إذا طبخ بألبان البقر ، وله تأثير فى خصب البدن ، وزيادة المنى ، وكثرة التغذية ، وتصفية اللون .

أرز :

بفتح الهمزة وسكون الراء : وهو الصنوبر ، ذكره النبى ﷺ فى قوله : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع ، تفيئها الرياح ، تقيمها مرة ، وتميلها أخرى ، ومثل المنافق مثل الأرزة لا تزال قائمة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » (١) ، وحبه حار رطب ، وفيه إنضاج وتليين ، وتحليل ، ولذع يذهب بنقعه فى الماء ، وهو عسر الهضم ، وفيه تغذية كثيرة ، وهو جيد للسعال ، ولتنقية رطوبات الرئة ، ويزيد فى المنى ، ويولد مغصًا ، وترياقه حب الرمان المز .

إذخر:

ثبت فى « الصحيح » عنه ﷺ أنه قال فى مكة :« لا يختلى خلاها » ، فقال لـه

(١) البخارى (٥٦٤٣) فى المرضى ، باب : ما جاء فى كفارة المرض ، ومسلم (٢٨١٠ / ٥٩) فى صفات المنافقين ، باب : مثل المؤمن كالزرع .

العباس رضي الله عنه : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : « إلا الإذخر » (١) .

والإذخر حار فى الثانية ، يابس فى الأولى ، لطيف مفتح للسدد ، وأقواه العروق ، يدر البول والطمث، ويفتت الحصى ويحلل الأورام الصلبة فى المعدة والكبد والكليتين شربًا وضمادًا ،وأصله يقوى عمود الأسنان والمعدة ، ويسكن الغثيان ، ويعقل البطن (٢) .

(حرف الباء)

بطيخ :

روى أبو داود والترمذى ، عن النبى ﷺ،أنه كان يأكل البطيخ بالرطب،يقول:« نكسر حر هذا ببرد هذا ، وبرد هذا بحر هذا » (٣).

وفى البطيخ عدة أحاديث لا يصح منها شيء غير هذا الحديث الواحد والمراد به الأخضر ، وهو بارد رطب ،وفيه جلاء ، وهو أسرع انحدارًا عن المعدة من القثاء والخيار ، وهو سريع الاستحالة إلى أى خلط كان صادفه فى المعدة ، وإذا كان آكله محرورًا انتفع به جدًا ، وإن كان مبرودًا دفع ضره بيسير من الزنجبيل ونحوه ، وينبغى أكله قبل الطعام ، ويتبع به ، وإلا غثى وقيأ ، وقال بعض الأطباء إنه قبل الطعام يغسل البطن غسلاً ، ويذهب بالداء أصلاً .

بلح :

روى النسائى وابن ماجه فى « سننهما » من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « كلوا البلح بالتمر ، فإن الشيطان إذا نظر إلى ابن آدم يأكل البلح بالتمر يقول : بقى ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق » (٤) . وفى رواية

---

(١) البخارى (١٨٣٣) فى جزاء الصيد ، باب : لا ينفر صيد الحرم ، ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) فى الحج ، باب : تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٨٣ ـ ٢٨٦) .

(٣) أبو داود (٣٨٣٦) فى الأطعمة ،باب:فى الجمع بين لونين فى الأكل ، والترمذى (١٨٤٣) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل البطيخ بالرطب ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) النسائى فى الكبرى (٦٧٢٤) فى الأطعمة ، باب : البلح بالتمر ، وابن ماجه (٣٣٣٠) فى الأطعمة ، باب : أكل البلح بالتمر ، وضعفه الألبانى .

رواية : « كلوا البلح بالتمر ، فإن الشيطان يحزن إذا رأى ابن آدم يأكله يقول : عاش ابن آدم حتى أكل الجديد بالخلق » ، رواه البزار فى « مسنده » وهذا لفظه .

قلت : الباء فى الحديث بمعنى: مع،أى كلوا هذا مع هذا ، قال بعض أطباء الإسلام : إنما أمر النبى ﷺ بأكل البلح بالتمر،ولم يأمر بأكل البسر مع التمر ، لأن البلح بارد يابس ، والتمر حار رطب ، ففى كل منهما إصلاح للآخر ، وليس كذلك البسر مع التمر ، فإن كل واحد منهما حار ، وإن كانت حرارة التمر أكثر ، ولا ينبغى من جهة الطب الجمع بين حارين أو باردين ، كما تقدم . وفى هذا الحديث : التنبيه على صحة أصل صناعة الطب ، ومراعاة التدبير الذى يصلح فى دفع كيفيات الأغذية والأدوية بعضها ببعض ، ومراعاة القانون الطبى الذى تحفظ به الصحة .

وفى البلح برودة ويبوسة ، وهو ينفع الفم واللثة والمعدة ، وهو ردىء للصدر والرئة بالخشونة التى فيه ، بطىء فى المعدة يسير التغذية ، وهو للنخلة كالحصرم لشجرة العنب ، وهما جميعًا يولدان رياحًا ، وقراقر ، ونفخًا ، ولا سيما إذا شرب عليهما الماء ، ودفع مضرتهما بالتمر ، أو بالعسل والزبد .

بسر:

ثبت فى « الصحيح »:أن أبا الهيثم بن التيهان،لما ضافه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، جاءهم بعذق ـ وهو من النخلة كالعنقود من العنب ـ فقال له : « هلا انتقيت لنا من رطبه » فقال : « أحببت أن تنتقوا من بسره ورطبه » (١) .

والبسر حار يابس ، ويبسه أكثر من حره ، ينشف الرطوبة ، ويدبغ المعدة ويحبس البطن ، وينفع اللثة والفم ، وأنفعه ما كان هشا وحلوًا ، وكثرة أكله وأكل البلح يحدث السدد فى الأجشاء .

بيض :

ذكر البيهقى فى « شعب الإيمان » أثرًا مرفوعًا : أن نبيًا من الأنبياء شكى إلى الله

---

(١) مسلم (٢٠٣٨ / ١٤٠) فى الأشربة ، باب : جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ، والترمذى (٢٣٦٩) فى الزهد ، باب : ما جاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ وقال : « حسن صحيح » .

سبحانه الضعف ، فأمره بأكل البيض ، وفى ثبوته نظر ، ويختار من البيض الحديث على العتيق ، وبين الدجاج على سائر بيض الطير ، وهو معتدل يميل إلى البرودة قليلاً .

قال صاحب « القانون » : ومُحُّهُ : حار رطب ، يولد دمًا صحيحًا محمودًا ، ويغذى غذاءً يسيرًا ، ويسرع الانحدار من المعدة إذا كان رخوًا ، وقال غيره : مح البيض : مسكن للألم، مملس للحلق وقصبة الرئة ، نافع للحلق والسعال وقروح الرئة والكلى والمثانة ، مذهب للخشونة ، لا سيما إذا أخذ بدهن اللوز الحلو ، ومنضج لما فى الصدر ، ملين له ، مسهل لخشونة الحلق ، وبياضه إذا قطر فى العين الوارمة ورمًا حارًا ، برده ، وسكن الوجع ، وإذا لطخ به حرق النار أو ما يعرض له ، لم يدعه يتنفط ، وإذا لطخ به الوجع ، منع الاحتراق العارض من الشمس ، وإذا خلط بالكندر ، ولطخ على الجبهة ، نفع من النزلة .

وذكره صاحب « القانون » فى الأدوية القلبية ، ثم قال : وهو - وإن لم يكن من الأدوية المطلقة - فإنه مما له مدخل فى تقوية القلب جدًا أعنى الصفرة ، وهى تجمع ثلاثة معان : سرعة الاستحالة إلى الدم ، وقلة الفضلة ، وكون الدم المتولد منه مجانسًا للدم الذى يغذو القلب خفيفًا مندفعًا إليه بسرعة، ولذلك هو أوفق ما يتلافى به عادة الأمراض المحللة لجوهر الروح .

بصل :

روى أبو داود فى « سننه » : عن عائشة رضي الله عنها ، أنها سئلت عن البصل ، فقالت : إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ كان فيه بصل [١] ، وثبت عنه فى « الصحيح » أنه منع آكله من دخول المسجد [٢] .

والبصل : حار فى الثالثة ، وفيه رطوبة فضلية ينفع من تغير المياه ، ويدفع رُيح السموم ، ويفتق الشهوة ويقوى المعدة ، ويهيج الباه ، ويزيد فى المنى ، ويحسن اللون ، ويقطع البلغم ، ويجلو المعدة ، وبزره يذهب البهق ، ويدلك به حول داء الثعلب ، فينفع

(١) أبو داود (٣٨٢٩) فى الأطعمة ، باب : فى أكل الثوم ، وضعفه الألبانى .
(٢) البخارى (٥٤٥١) فى الأطعمة ، باب : ما يكره من الثوم والبقول ، ومسلم (٥٦٢ / ٧٠) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من أكل ثومًا أو بصلا أو كراثا أو نحوه .

جدًا ،وهو بالملح يقلع الثآليل ، وإذا شمة من شرب دواء مسهلاً منعه من القيء والغثيان ، وأذهب رائحة ذلك الدواء ، وإذا استعط بمائه ، نقى الرأس ، ويقطر فى الأذن لثقل السمع والطنين والقيح ، والماء الحادث فى الأذنين ،وينفع من الماء النازل من العينين اكتحالاً يكتحل ببزره مع العسل لبياض العين ، والمطبوخ منه كثير الغذاء ينفع من اليرقان والسعال ، وخشونة الصدر ، ويدر البول ، ويلين الطبع ، وينفع من عضة الكلب غير الكلب إذا نطل عليها ماؤه بملح وسذاب ، وإذا احتمل، فتح أفواه البواسير .

وأما ضرره : فإن يورث الشقيقة ، ويصدع الرأس ، ويولد أرياحًا ، ويظلم البصر ، وكثرة أكله تورث النسيان ، ويفسد العقل ، ويغير رائحة الفم والنهكة ، ويؤذى الجليس ، والملائكة ، وإماتته طبخًا تذهب بهذه المضرات منه .

وفى السنن أنه ﷺ أمر آكله وآكل الثوم أن يميتهما طبخًا [١] ويذهب رائحته مضغ ورق السذاب عليه .

باذنجان :

فى الحديث الموضوع المختلق على رسول الله ﷺ :« الباذنجان لما أكل له » [٢] ، وهذا الكلام مما يستقبح نسبته إلى آحاد العقلاء ، فضلا عن الأنبياء ، وبعد ، فهو نوعان : أبيض وأسود ، وفيه خلاف ، هل هو بارد أو حار ؟ والصحيح : أنه حار ، وهو مولد للسوداء والبواسير ، والسدد والسرطان والجذام ، ويفسد اللون ويسوده ، ويضر بنتن الفم ، والأبيض منه المستطيل عار من ذلك [٣] .

(حرف التاء)

تمر :

ثبت فى « الصحيح » عنه ﷺ : « من تصبح بسبع تمرات [٤] ـ وفى لفظ : من تمر

(١) النسائى (٧٠٨) فى المساجد ، باب : من يخرج من المسجد ، وابن ماجه (٣٣٦٣) فى الأطعمة ، باب : أكل الثوم والبصل والكراث .

(٢) المنار المنيف (٥٤) ، والأسرار المرفوعة (١١٢) ، وقال : « باطل لا أصل له » .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٨٦ ـ ٢٩١) .

(٤) البخارى (٥٧٦٩) فى الطب،باب:الدواء بالعجوة،ومسلم (٢٠٤٧/ ١٥٥) فى الأشربة ، باب:فضل تمر المدينة .

العالية ـ لم يضره ذلك اليوم سم ، ولا سحر » (١) . وثبت عنه أنه قال : « بيت لا تمر فيه جياع أهله » (٢). وثبت عنه أكل التمر بالزبد ، وأكل التمر بالخبز ، وأكله مفرداً (٣) .

وهو حار فى الثانية ، وهل هو رطب فى الأولى ، أو يابس فيها ؟ على قولين . وهو مقو للكبد ، ملين للطبع ، يزيد فى الباه ، ولا سيما مع حب الصنوبر ، ويبرئ من خشونة الحلق،ومن لم يعتده كأهل البلاد الباردة فإن يورث لهم السدد ، ويؤذى الأسنان ، ويهيج الصداع ، ودفع ضرره باللوز والخشخاش ، وهو من أكثر الثمار تغذية للبدن بما فيه من الجوهر الحار الرطب ،وأكله على الريق يقتل الدود ، فإنه مع حرارته فيه قوة ترياقية ، فإذا أديم استعماله على الريق ، خفف مادة الدود ، وأضعفه وقلله ، أو قتله ، وهو فاكهة وغذاء ، ودواء وشراب وحلوى .

تين :

لما لم يكن التين بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأت له ذكر فى السنة ، فإن أرضه تنافى أرض النخل ، ولكن قد أقسم الله به فى كتابه ، لكثرة منافعه وفوائده ، والصحيح : أن المقسم به : هو التين المعروف .

وهو حار ، وفى رطوبته ويبوسته قولان ، وأجوده : الأبيض الناضج القشر ، يجلو رمل الكلى والمثانة ، ويؤمن من السموم ، وهو أغذى من جميع الفواكه وينفع خشونة الحلق والصدر ، وقصبة الرئة ،ويغسل الكبد والطحال ، وينقى الخلط البلغمى من المعدة ، ويغذو البدن غذاءً جيداً ، إلا أنه يولد القمل إذا أكثر منه جداً .

ويابسه يغذو وينفع العصب ، وهو مع الجوز واللوز محمود ، قال جالينوس : وإذا أكل مع الجوز والسذاب قبل أخذ السم القاتل ، نفع ، وحفظ من الضرر .

ويذكر عن أبى الدرداء : أهدى إلى النبى ﷺ طبق من تين ، فقال : « كلوا » وأكل منه ، وقال : لو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة قلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوا منها فإنها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس » . وفى ثبوت هذا نظر .

واللحم منه أجود ، ويعطش المحرورين ، ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ،

---

(١) فتح البارى (١٠ / ٢٣٩) .

(٢) مسلم (٢٠٤٦ / ١٥٣) فى الأشربة ، باب : فى إدخال التمر ونحوه من الأقوات للعيال .

(٣) أبو داود (٣٨٣٧) فى الأطعمة ، باب : فى الجمع بين لونين فى الأكل ، وابن ماجه (٣٣٣٤) فى الأطعمة ، باب : التمر بالزبد .

وينفع السعال المزمن ، ويدر البول ، ويفتح سدد الكبد والطحال ، ويوافق الكلى والمثانة ، ولأكله على الريق منفعة عجيبة فى تفتيح مجارى الغذاء، وخصوصًا باللوز والجوز ، وأكله مع الأغذية الغليظة ردىء جدًا ،والتوت الأبيض قريب منه،لكنه أقل تغذية وأضر بالمعدة .

تلبينة :

قد تقدم أنها ماء الشعير المطحون ، وذكرنا منافعها ، وأنها أنفع لأهل الحجاز من ماء الشعير الصحيح [١] [٢] .

(حرف الثاء)

ثلج :

ثبت فى « الصحيح » : عن النبى ﷺ أنه قال : « اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » [٣] .

وفى هذا الحديث من الفقه : أن الداء يداوى بضده ، فإن فى الخطايا من الحرارة والحريق ما يضاده الثلج والبرد ، والماء البارد ، ولا يقال : إن الماء الحار أبلغ فى إزالة الوسخ ، لأن فى الماء البارد من تصليب الجسم وتقويته ما ليس فى الحار ، والخطايا توجب أثرين : التدنيس والإرخاء ، فالمطلوب مداواتها بما ينظف القلب ويصلبه ، فذكر الماء البارد والثلج والبرد إشارة إلى هذين الأمرين .

وبعد ، فالثلج بارد على الأصح ،وغلط من قال : حار ، وشبهته تولد الحيوان فيه ، وهذا لا يدل على حرارته ، فإنه يتولد فى الفواكه الباردة ، وفى الخل ، وأما تعطيشه ، فلتهييجه الحرارة لا لحرارته فى نفسه ، ويضر المعدة والعصب ، وإذا كان وجع الأسنان من حرارة مفرطة ، سكنها .

ثوم :

هو قريب من البصل ، وفى الحديث : « من أكلهما فليمتهما طبخًا » [٤] ، وأهدى إليه طعام فيه ثوم ، فأرسل به إلى أبى أيوب الأنصارى ، فقال : يا رسول الله ، تكرهه

---

(١) انظر ص ١٠٨ .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٩١ ـ ٢٩٣) .

(٣) مسلم (٥٩٨ / ١٤٧) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة .

(٤) مسلم (٥٦٧ / ٧٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : نهى من أكل ثومًا أو بصلاً أو كراثًا ونحوهما ، وابن ماجه (١٠١٤) فى إقامة الصلاة ، باب : من أكل الثوم فلا يقربن المسجد .

وترسل به إلى ؟ فقال : « إنى أناجى من لا تناجى » (١) .

وبعد فهو حار يابس فى الرابعة ، يسخن تسخينًا قويًا ، ويجفف تجفيفًا بالغًا ، نافع للمبرودين،وله مزاجه بلغمى ،ولمن أشرف على الوقوع فى الفالج ، وهو مجفف للمنى ، مفتح للسدد ، محلل للرياح الغليظة ، هاضم للطعام ، قاطع للعطش ، مطلق للبطن ، مدر للبول ،يقوم فى لسع الهوام وجميع الأورام البارد مقام الترياق ، وإذا دق وعمل منه ضماد على نهش الحيات ، أو على لسع العقارب ، نفعها وجذب السموم منها ، ويسخن البدن ، ويزيد فى حرارته ، ويقطع البلغم ، ويحلل النفخ ، ويصفى الحلق ، ويحفظ صحة أكثر الأبدان،وينفع من تغير المياه ، والسعال المزمن ، ويؤكل نيئًا ومطبوخًا ومشويًا ، وينفع من وجع الصدر من البرد ، ويخرج العلق من الحلق ، وإذا دق مع الخل والملح والعسل ، ثم وضع على الضرس المتآكل ، فتته وأسقطه ، وعلى الضرس الوجع سكن وجعه ، وإن دق منه مقدار درهمين ، وأخذ مع ماء العسل ، أخرج البلغم والدود ، وإذا طلى بالعسل على البهق ، نفع .

ومن مضاره :أنه يصدع ، ويضر الدماغ والعينين ، ويضعف البصر والباه ، ويعطش ، ويهيج الصفراء ، ويجيف رائحة الفم ، ويذهب رائحته أن يمضغ عليه ورق السذاب .

ثريد :

ثبت فى « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » (٢) .

والثريد وإن كان مركبًا ، فإنه مركب من خبز ولحم ، فالخبز أفضل الأقوات ، واللحم سيد الإدام ، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية .

وتنازع الناس أيهما أفضل ؟ والصواب أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم ، واللحم أجل وأفضل ، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه ، وهو طعام أهل الجنة ، وقد قال تعالى لمن طلب البقل ، والقثاء ، والفوم ، والعدس ، والبصل : ﴿**قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ [البقرة : ٦١] ، وكثير من السلف على أن الفوم الحنطة ، وعلى هذا فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة (٣) .

(١) البخارى (٨٥٥) فى الأذان ، باب : ما جاء فى الثوم النئ والبصل والكراث ، ومسلم (٥٦٤ / ٧٣) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : نهى من أكل ثوما أو بصلاً .

(٢) البخارى (٣٧٧٠) فى فضائل الصحابة ، باب : فى فضل عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٤٤٦ / ٨٩) فى فضائل الصحابة ، باب : فى فضل عائشة رضي الله عنها .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٩٣ ـ ٢٩٦) .

(حرف الجيم)

جمار :

قلب النخل ، ثبت فى « الصحيحين » : عن عبد الله بن عمر قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس ، إذ أتى بجمار نخلة فقال النبى ﷺ : « إن من الشجر شجرة مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها . . . » الحديث (١) ، والجمار : بارد يابس فى الأولى ، يختم القروح ،وينفع من نفث الدم،واستطلاق البطن ، وغلبة المرة الصفراء وثائرة الدم ، وليس برديء الكينوس ويغذو غذاء يسيرًا يسيرًا ،وهو بطيء الهضم ، وشجرته كلها منافع ، ولهذا مثلها النبى ﷺ بالرجل المسلم لكثرة خيره ومنافعه .

جبن :

فى « السنن » عن عبد الله بن عمر قال:« أتى النبى ﷺ بجبنة فى تبوك فدعا بسكين، وسمى وقطع » . رواه أبو داود (٢) ، وأكله الصحابة رضي الله عنهم بالشام ، والعراق ، والرطب منه غير المملوح جيد للمعدة ، هين السلوك فى الأعضاء ، يزيد فى اللحم ، ويلين البطن تليينًا معتدلاً والمملوح أقل غذاء من الرطب ، وهو رديء للمعدة مؤذ للأمعاء والعتيق يعقل البطن ، وكذا المشوى ، وينفع القروح ، ويمنع الإسهال .

وهو بارد رطب،فإن استعمل مشويًا ، كان أصلح لمزاجه ، فإن النار تصلحه وتعدله ، وتلطف جوهره ، وتطيب طعمه ورائحته ، والعتيق المالح ، حار يابس ، وشيه يصلحه أيضًا بتلطيف جوهره ، وكسر حرافته لما تجذبه النار منه من الأجزاء الحارة اليابسة المناسبة لها ، والمملح منه يهزل ، ويولد حصاة الكلى والمثانة ، وهو رديء للمعدة ، وخلطه بالملطفات أردأ بسبب تنفيذها له إلى المعدة (٣) .

(حرف الحاء)

حناء :

قد تقدمت الأحاديث فى فضله ، وذكر منافعه ، فأغنى عن إعادته (٤).

---

(١) البخارى (٥٤٤٤) فى الأطعمة ، باب : أكل الجمار ، ومسلم (٢٨١١) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة .

(٢) أبو داود (٣٨١٩) فى الأطعمة ، باب : فى أكل الجبن .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧) .

(٤) انظر ص ١٨٩ .

الحبة السوداء :

ثبت فى « الصحيحين » : من حديث أبى سلمة ، عن أبى هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بهذه الحبة السوداء ، فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام »[(١)] . والسام : الموت .

الحبة السوداء : هى الشونيز فى لغة الفرس ، وهى الكمون الأسود وتسمى الكمون الهندى ، قال الحربى عن الحسن : إنها الخردل ، وحكى الهروى : أنها الحبة الخضراء ثمرة البطم ، وكلاهما وهم والصواب : أنها الشونيز .

وهى كثيرة المنافع جدًا ، وقوله : « شفاء من كل داء » ، مثل قوله تعالى : ﴿ **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ [الأحقاف : ٢٥] أى : كل شىء يقبل التدمير ونظائره ، وهى نافعة من جميع الأمراض الباردة ، وتدخل فى الأمراض الحارة اليابسة بالعرض ، فتوصل قوى الأدوية الباردة الرطبة إليها بسرعة تنفيذها إذا أخذ يسيرها .

وقد نص صاحب « القانون » وغيره ، على الزعفران فى قرص الكافور لسرعة تنفييذه وإيصاله قوته ، وله نظائر يعرفها حذاق الصناعة ، ولا تستبعد منفعة الحار فى أمراض حارة بالخصية ، فإنك تجد ذلك فى أدوية كثيرة ، منها : الأنزروت وما يركب معه من أدوية الرمد ، كالسكر وغيره من المفردات الحارة ، والرمد ورم حار باتفاق الأطباء ، وكذلك نفع الكبريت الحار جدًا من الجرب .

والشونيز حار يابس فى الثالثة ، مذهب للنفخ ، مخرج لحب القرع ، نافع من البرص وحمى الربع والبلغمية مفتح للسدد ، ومحلل للرياح ،مجفف لبلة المعدة ورطوبتها ، وإن دق وعجن بالعسل ، وشرب بالماء الحار ، أذاب الحصاة التى تكون فى الكليتين والمثانة ، ويدر البول والحيض واللبن إذا أديم شربه أيامًا ، وإن سخن بالخل ، وطلى على البطن ، قتل حب القرع ، فإن عجن بماء الحنظل الرطب ، أو المطبوخ ، كان فعله فى إخراج الدود أقوى ، ويجلو ويقطع ، ويحلل ، ويشفى من الزكام البارد إذا دق وصير فى خرقة ، واشتم دائمًا ، أذهبه .

ودهنه نافع لداء الحية ، ومن الثآليل والخيلان ، وإذا شرب منه مثقال بماء ، نفع من البهر وضيق النفس ، والضماد به ينفع من الصداع البارد ، وإذا نقع منه سبع حبات عددًا فى لبن امرأة ، وسعط به صاحب اليرقان ، نفعه نفعًا بليغًا .

---

(١) البخارى (٥٦٨٨) فى الطب ، باب : الحبة السوداء ، ومسلم (٢٢١٥ / ٨٨) فى السلام ، باب : التداوى بالحبة السوداء .

وإذا طبخ بخل ، وتمضمض به ، نفع من وجع الأسنان عن برد ، وإذا استعط به مسحوقًا ، نفع من ابتداء الماء العارض فى العين ، وإن ضمد به مع الخل ، قلع البثور والجرب المتقرح ، وحلل الأورام البلغمية المزمنة ، والأورام الصلبة ، وينفع من اللقوة إذا تسعط بدهنه ، وإذا شرب منه مقدار نصف مقال إلى مثقال ، نفع من لسع الرتيلاء ، وإن سحق ناعمًا وخلط بدهن الحبة الخضراء ، وقطر منه فى الأذن ثلاث قطرات ، نفع من البرد العارض فيها والريح والسدد .

وإن قلى ،ثم دق ناعمًا ، ثم نقع فى زيت ، وقطر فى الأنف ثلاث قطرات أو أربع ، نفع من الزكام العارض معه عطاس كثير .

وإذا أحرق وخلط بشمع مذاب بدهن السوسن ، أو دهن الحناء ، وطلى به القروح الخارجة من الساقين بعد غسلها بالخل ، نفعها وأزال القروح .

وإذا سحق بخل،وطلى به البرص والبهق الأسود ، والحزاز الغليظ ، نفعها وأبرأها .

وإذا سحق ناعمًا ، واستف منه كل يوم درهمين بماء بارد من عضه كَلْبٌ كَلِبٌ قبل أن يفرغ من الماء ، نفعه نفعًا بليغًا ، وأمن على نفسه من الهلاك . وإذا استعط بدهنه ، نفع من الفالج والكزاز ، وقطع موادهما ، وإذا دخن به ، طرد الهوام .

وإذا أذيب الأنزروت بماء ، ولطخ على داخل الحلقة ، ثم ذر عليها الشونيز ، كان من الذرورات الجيدة العجيبة النفع من البواسير ، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا ، والشربة منه درهمان ، وزعم قوم أن الإكثار منه قاتل .

حرير :

قد تقدم أن النبى ﷺ أباحه للزبير ، ولعبد الرحمن بن عوف من حكة كانت بهما ، وتقدم منافعه ومزاجه ، فلا حاجة إلى إعادته (١) .

حرف :

قال أبو حنيفة الدينورى : هذا هو الحب الذى يتداوى به وهو الشفاء الذى جاء فيه الخبر عن النبى ﷺ ، ونباته يقال له :الحرف ، وتسميه العامة : الرشاد ، وقال أبو عبيد : الثُّفَّاء : هو الحرف .

قلت : والحديث الذى أشار إليه ، ما رواه أبو عبيد وغيره ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ماذا فى الأمرين من الشفاء ؟ الصبر والثُّفَّاء » (٢) رواه

(١) انظر : ص ١٨٤ وما بعدها .

(٢) البيهقى فى الكبرى (٣٤٦) فى الضحايا ، باب : أدوية النبى ﷺ ، وعزاه لأبى داود فى المراسيل .

أبو داود فى المراسيل .

وقوته فى الحرارة واليبوسة فى الدرجة الثالثة ، وهو يسخن ، ويلين البطن ، ويخرج الدود وحب القرع ، ويحلل أورام الطحال ، ويحرك شهوة الجماع ، ويجلو الجرب المتقرح والقوباء .

وإذا ضمد به مع العسل ، حلل ورم الطحال ، وإذا طبخ مع الحناء أخرج الفضول التى فى الصدر ، وشربه ينفع من نهش الهوام ولسعها ، وإذا دخن به فى موضع ، طرد الهواء عنه ، ويمسك الشعر المتساقط ، وإذا خلط بسويق الشعير والخل ، وتضمد به ، نفع من عرق النسا ، وحلل الأورام الحارة فى آخرها .

وإذا تضمد به مع الماء والملح أنضج الدماميل ، وينفع من الاسترخاء فى جميع الأعضاء ،ويزيد فى الباه،ويشهى الطعام ، وينفع الربو ، وعسر التنفس ، وغلظ الطحال ، وينقى الرئة ، ويدر الطمث ، وينفع من عرق النسا ، ووجع حُقٍّ الورك مما يخرج من الفضول ، إذا شرب أو احتقن به ، ويجلو ما فى الصدر والرئة من البلغم اللزج .

وإن شرب منه بعد سحقه وزن خمسة دراهم بالماء الحار ، أسهل الطبيعة ، وحلل الرياح ، ونفع من وجع القولنج البارد السبب ، وإذا سحق وشرب ، نفع من البرص .

وإن لطخ عليه وعلى البهق الأبيض بالخل ، نفع منهما ، وينفع من الصداع الحاد من البرد والبلغم ، وإن قلى ، وشرب ، عقل الطبع لا سيما إذا لم يسحق لتحلل لزوجته بالقلى ، وإذا غسل بمائه الرأس ، نقاه من الأوساخ والرطوبات اللزجة .

قال جالينوس : قوته مثل قوة بزر الخردل ، ولذلك قد يسخن به أوجاع الورك المعروفة بالنسا ، وأوجاع الرأس ، وكل واحد من العلل التى تحتاج إلى التسخين ، كما يسخن بزر الخردل ، وقد يخلط أيضًا فى أدوية يسقاها أصحاب الربو من طريق أن الأمر فيه معلوم أنه يقطع الأخلاط الغليظة تقطيعًا قويًا ، كما يقطعها بزر الخردل ، لأنه شبيه به فى كل شىء .

حلبة :

يذكر عن النبى ﷺ ، أنه عاد سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه بمكة ، فقال : ادعوا له طبيبًا ، فدعى الحارث بن كلدة ، فنظر إليه ، فقال : ليس عليه بأس ، فاتخذوا له فريقة ، وهى الحلبة مع تمر عجوة رطب يطبخان ، فيحساهما ، ففعل ذلك ، فبرئ .

وقوة الحلبة من الحرارة فى الدرجة الثانية ، ومن اليبوسة فى الأولى ، وإذا طبخت

بالماء ، لينت الحلق والصدر والبطن ، وتسكن السعال والخشونة والربو ، وعسر النفس ، وتزيد فى الباه ، وهى جيدة للريح والبلغم والبواسير ، محدرة الكيموسات المرتبكة فى الأمعاء ، وتحلل البلغم اللزج من الصدر ، وتنفع من الدبيلات وأمراض الرئة ، وتستعمل لهذه الأدواء فى الأحشاء مع السمن والفانيذ .

وإذا شربت مع وزن خمسة دراهم فُوَّة [١] ،أدرت الحيض ، وإذا طبخت ، وغسل بها الشعر جعدته ، وأذهبت الحزاز . ودقيقها إذا خلط بالنطرون والخل ، وضمد به ، حلل ورم الطحال ، وقد تجلس المرأة فى الماء الذى طبخت فيه الحلبة ، فتنتفع به من وجع الرحم العارض مع ورم فيه ، وإذا ضمد به الأورام الصلبة القليلة الحرارة ، نفعتها وحللتها ، وإذا شرب ماؤها ، نفع من المغص العارض من الريح ، وأزلق الأمعاء .

وإذا أكلت مطبوخة بالتمر ، أو العسل ، أو التين على الريق ، حللت البلغم اللزج العارض فى الصدر والمعدة ، ونفعت من السعال المتطاول منه . وهى نافعة من الحصر ، مطلقة للبطن ، وإذا وضعت على الظفر المتشنج أصلحته ، ودهنها ينفع إذا خلط بالشمع من الشقاق العارض من البرد ، ومنافعها أضعاف ما ذكرنا .

وذكر عن القاسم بن عبد الرحمن ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استشفوا بالحلبة » [٢] . وقال بعض الأطباء : لو علم الناس منافعها ، لاشتروها بوزنها ذهبًا [٣] .

(حرف الخاء)

خبز :

ثبت فى « الصحيحين » ، عن النبى ﷺ أنه قال : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفؤ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة » [٤] .

وروى أبو داود فى « سننه » : من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ الثريد من الخبز ، والثريد من الحيس [٥] .

---

(١) هو نبات له عروق دقاق طوال حمر يصبغ ويداوى بها .

(٢) الفوائد المجموعة للشوكانى (٣١) فى الأطعمة والأشربة ، والمنار المنيف (٦٣) .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٩٧ ـ ٣٠٣) .

(٤) البخارى (٦٥٢٠) فى الرقاق ، باب : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ومسلم (٢٧٩٢ / ٣٠) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : نزل أهل الجنة .

(٥) أبو داود (٣٧٨٣) فى الأطعمة ، باب : فى أكل الثريد .

وروى أبو داود فى « سننه » أيضًا ، من حديث ابن عمر ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وددت أن عندى خبزة بيضاء من برة سمراء ملبقة بسمن ولبن » ، فقام رجل من القوم فاتخذه ، فجاء به ، فقال : « فى أى شىء كان هذا السمن ؟» فقال : فى عكة ضب ، فقال : « ارفعه » (١) .

وذكر البيهقى من حديث عائشة ﷺ ترفعه : « أكرموا الخبز ، ومن كرامته ألا ينتظر به الإدام » (٢) ، والموقوف أشبه ، فلا يثبت رفعه ، ولا رفع ما قبله .

وأما حديث النهى عن قطع الخبز بالسكين ، فباطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ ، وإنما المروى : النهى عن قطع اللحم بالسكين ، ولا يصح أيضًا .

قال مهنا :سألت أحمد عن حديث أبى معشر،عن هشام بن عروة،عن أبيه،عن عائشة ﷺ ، عن النبى ﷺ:« لا تقطعوا اللحم بالسكين،فإن ذلك من فعل الأعاجم » (٣) . فقال : ليس بصحيح ، ولا يعرف هذا ، وحديث عمرو بن أمية خلاف هذا ، وحديث المغيرة ـ يعنى بحديث عمرو بن أمية : كان النبى ﷺ يختز من لحم الشاة (٤) ، وبحديث المغيرة : أنه لما أضافه أمر بجنبٍ فشوى ، ثم أخذ الشفرة ، فجعل يحز (٥) .

وأحمد أنواع الخبز أجودها اختماراً وعجنًا ، ثم خبز التنور أجود أصنافه ، وبعده خبز الفرن ، ثم خبز الملَّة فى المرتبة الثالثة ، وأجوده ما اتخذ من الحنطة الحديثة .

وأكثر أنواعه تغذية خبز السميذ ، وهو أبطؤها هضمًا لقلة نخالته ، ويتلوه خبز الحوارى ، ثم الخشكار .

وأحمد أوقات أكله فى آخر اليوم الذى خبز فيه ، واللين منه أكثر تليينًا وغذاء وترطيبًا وأسرع انحداراً ، واليابس بخلافه .

ومزاج الخبز من البر حار فى وسط الدرجة الثانية ، وقريب من الاعتدال فى الرطوبة واليبوسة ، واليبس يغلب على ما جففته النار منه ، والرطوبة على ضده .

---

(١) أبو داود (٣٨١٨) فى الأطعمة ، باب : فى الجمع بين لونين من الطعام .

(٢) الطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٣٣٥) (٨٤٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٣٧) : « فيه خلف بن يحيى قاض الرى ، وهو ضعيف وأبو سكينة قال ابن المدينى : لاصحبة له » .

(٣) أبو داود (٣٧٧٨) فى الأطعمة ، باب : فى أكل اللحم ، وضعفه الألبانى .

(٤) البخارى (٥٤٠٨) فى الأطعمة ، باب : قطع اللحم بالسكين ، ومسلم (٣٥٥/ ٩٣) فى الطهارة ، باب : نسخ الوضوء مما مست النار .

(٥) أبو داود (١٨٨) فى الطهارة ، باب : فى ترك الوضوء مما مست النار .

وفى خبز الحنطة خاصية ، وهو أنه يسمن سريعًا ، وخبز القطائف يولد خلطًا غليظًا ، والفتيت نفاخ بطىء الهضم ، والمعمول باللبن مسدد كثير الغذاء ، بطىء الانحدار .

وخبز الشعير بارد يابس فى الأولى ، وهو أقل غذاء من خبز الحنطة .

خل :

روى مسلم فى « صحيحه » : عن جابر بن عبد الله ﵄ ، أن رسول الله ﷺ سأل أهله الإدام ، فقالوا : ما عندنا إلا الخل ، فدعا به ، وجعل يأكل ويقول :« نعم الإدام الخل ،نعم الإدام الخل » (١) ، وفى « سنن ابن ماجه » عن أم سعد ﵄ عن النبى ﷺ : « نعم الإدام الخل ، اللهم بارك فى الخل ، فإنه كان إدام الأنبياء قبلى ، ولم يفتقر بيت فيه الخل » (٢) .

والخل مركب من الحرارة ، والبرودة أغلب عليه ، وهو يابس فى الثالثة ، قوى التجفيف ، ويمنع من انصباب المواد ، ويلطف الطبيعة ، وخل الخمر ينفع المعدة الملتهبة ، ويقمع الصفراء ، ويدفع ضرر الأدوية القتالة ، ويحلل اللبن والدم إذا جمدا فى الجوف ، وينفع الطحال،ويدبغ المعدة ، ويعقل البطن ،ويقطع العطش ،ويمنع الورم حيث يريد أن يحدث ، ويعين على الهضم ، ويضاد البلغم ، ويلطف الأغذية الغليظة ، ويرق الدم .

وإذا شرب بالملح ، نفع من أكل الفطر القتال ، وإذا احتسى ، قطع العلق المتعلق بأصل الحنك ، وإذا تمضمض به مسخنًا ، نفع من وجع الأسنان ، وقوى اللثة .

وهو نافع للداحس ، إذا طلى به ، والنملة والأورام الحارة ، وحرق النار ، وهو مشهٍ للأكل ، مطيب للمعدة ، صالح للشباب ، وفى الصيف لسكان البلاد الحارة .

خلال :

فيه حديثان لا يثبتان :

أحدهما : يروى من حديث أبى أيوب الأنصارى يرفعه : « يا حبذا المتخللون من الطعام ، إنه ليس شىء أشد على الملك من بقية تبقى فى الفم من الطعام » (٣) وفيه واصل ابن السائب،قال البخارى والرازى: منكر الحديث،وقال النسائى والأزدى: متروك الحديث .

---

(١) مسلم (٢٠٥٢ / ١٦٦) فى الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به .

(٢) ابن ماجه (٣٣١٨) فى الأطعمة ، باب : الائتدام بالخل ، وقال الألبانى : « موضوع » .

(٣) أحمد (٥ / ٤١٦) ، والطبرانى فى الكبير (٤ / ١٧٧) (٤٠٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ٢٤٠) :« فى إسنادهما واصل الرقاشى ، وهو ضعيف » .

الثانى : يروى من حديث ابن عباس ، قال عبد الله بن أحمد : سألت أبى عن شيخ روى عنه صالح الوحاظى يقال له : محمد بن عبد الملك الأنصارى ، حدثنا عطاء ، عن ابن عباس ، قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتخلل بالليط والآس ، وقال : « إنهما يسقيان عروق الجذام » ، فقال أبى : رأيت محمد بن عبد الملك ـ وكان أعمى ـ يضع الحديث ويكذب .

وبعد ، فالخلال نافع للثة والأسنان ، حافظ لصحتها ، نافع من تغير النكهة ، وأجوده ما اتخذ من عيدان الأخلة ، وخشب الزيتون والخلاف ، والتخلل بالقصب والآس والريحان ، والبزروج مضر [١] .

(حرف الدال)

دهن :

روى الترمذى فى كتاب « الشمائل » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته ، ويكثر القناع كأنه ثوبه ثوب زيات [٢] .

الدهن يسد مسام البدن ، ويمنع ما يتحلل منه ، وإذا استعمل بعد الاغتسال بالماء الحار ، حسن البدن ورطبه ، وإن دهن به الشعر حسنه وطوله ، ونفع من الحصبة ، ودفع أكثر الآفات عنه .

وفى الترمذى : من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « كلوا الزيت وادهنوا به » [٣].

والدهن فى البلاد الحارة ، كالحجاز ونحوه من آكد أسباب حفظ الصحة وإصلاح البدن ، وهو كالضرورى لهم ، وأما البلاد الباردة ، فلا يحتاج إليه أهلها ، والإلحاح به فى الرأس فيه خطر بالبصر .

وأنفع الأدهان البسيطة : الزيت ، ثم السمن ، ثم الشيرج .

وأما المركبة : فمنها بارد ورطب ، كدهن البنفسج ينفع من الصداع الحار ، وينوم أصحاب السهر ، ويرطب الدماغ ، وينفع من الشقاق ، وغلبة اليبس ، والجفاف ، ويطلى به الجرب ، والحكة اليابسة ، فينفعها ويسهل حركة المفاصل ، ويصلح لأصحاب الأمزجة الحارة فى زمن الصيف ، وفيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ ، أحدهما :

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٠٣ ـ ٣٠٧) .

(٢) الشمائل المحمدية ص ٤٤ . بشرح محمد خليل الخطيب .

(٣) الترمذى (١٨٥١ ، ١٨٥٢) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل الزيت ، وقال : « حديث غريب » .

« فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان ، كفضلى على سائر الناس » ،والثانى : « فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان ، كفضل الإسلام على سائر الأديان » .

ومنها : حار رطب ، كدهن البان ، وليس دهن زهره ، بل دهن يستخرج من حب أبيض أغبر نحو الفستق ، كثير الدهنية والدسم ، وينفع من صلابة العصب ، ويلينه ، وينفع من البرش والنمش ،والكلف والبهق ،ويسهل بلغمًا غليظًا ، ويلين الأوتار اليابسة ، ويسخن العصب ، وقد روى فيه حديث باطل مختلق لا أصل له : « ادهنوا بالبان ، فإنه أحظى لكم عند نسائكم » . ومن منافعه أنه يجلو الأسنان ، ويكسبها بهجة ، وينقيها من الصدأ ، ومن مسح به وجهه وأطرافه لم يصبه حصى ولا شقاق ، وإذا دهن به حقوه ومذاكيره وما والاها ، نفع من برد الكليتين ، وتقطير البول [١] .

(حرف الذال)

ذريرة :

ثبت فى « الصحيحين » : عن عائشة رضي الله عنها قالت : طيبت رسول الله ﷺ بيدى ، بذريرة فى حجة الوداع لحله وإحرامه [٢] . تقدم الكلام فى الذريرة ومنافعها وماهيتها ، فلا حاجة لإعادته [٣] .

ذباب :

تقدم فى حديث أبى هريرة المتفق عليه فى أمره ﷺ بغمس الذباب فى الطعام إذا سقط فيه لأجل الشفاء الذى فى جناحه ، وهو كالترياق للسم الذى فى الجناح الآخر ، وذكرنا منافع الذباب هناك [٤] .

ذهب :

روى أبو داود ، والترمذى : « أن النبى ﷺ رخص لعرفجة بن أسعد لما قطع أنفه يوم الكلاب، واتخذ أنفًا من ورق ، فأنتن عليه، فأمره النبى ﷺ أن يتخذ أنفًا من ذهب » [٥] ، وليس لعرفجة عندهم غير هذا الحديث الواحد .

الذهب : زينة الدنيا ، وطلسم الوجود ، ومفرح النفوس ، ومقوى الظهور ، وسر

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٠٧ ـ ٣٠٩) .

(٢) البخارى (٥٩٣٠) فى اللباس ، باب : الذريرة ، ومسلم (١١٨٩ / ٣٥) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام .

(٣) انظر : ص ١٩٩ .

(٤) انظر : ص ١٠٥ .

(٥) أبو داود (٤٢٣٢ ـ ٤٢٣٤) فى الخاتم، باب :ما جاء فى ربط الأسنان بالذهب، والترمذى (١٧٧٠) فى اللباس ، باب : ما جاء فى شد الأسنان بالذهب ، وقال : « حسن غريب » .

الله فى أرضه ، ومزاجه فى سائر الكيفيات ، وفيه حرارة لطيفة تدخل فى سائر المعجونات اللطيفة والمفرحات ، وهو أعدل المعادن على الإطلاق وأشرفها .

ومن خواصه أنه إذا دفن فى الأرض ، لم يضره التراب ، ولم ينقصه شيئًا ، وبرادته إذا خلطت بالأدوية ، نفعت من ضعف القلب ، والرجفان العارض من السوداء ، وينفع من حديث النفس ، والحزن ، والغم ، والفزع ، والعشق ، ويسمن البدن ، ويقويه ، ويذهب الصفار ، ويحسن اللون ، وينفع من الجذام ، وجميع الأوجاع والأمراض السوداوية ، ويدخل بخاصية فى أدوية داء الثعلب ، وداء الحية شربًا وطلاءً ، ويجلو العين ويقويها ، وينفع من كثير من أمراضها ، ويقوى جميع الأعضاء .

وإمساكه فى الفم يزيل البخر ، ومن كان به مرض يحتاج إلى الكى ، وكوى به ، لم يتنفط موضعه ، ويبرأ سريعًا ، وإن اتخذ منه ميلاً واكتحل به ، قوى العين وجلاها ، وإذا اتخذ منه خاتم فصه منه وأحمى ، وكوى به قوادم أجنحة الحمام ، ألفت أبراجها ، ولم تنتقل عنها .

وله خاصية عجيبة فى تقوية النفوس ، لأجلها أبيح فى الحرب والسلاح منه ما أبيح ، وقد روى الترمذى من حديث مزيدة العصرى ﷺ ، قال : دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح ، وعلى سيفه ذهب وفضة (١) .

وهو معشوق النفوس التى متى ظفرت به ، سلاها عن غيره من محبوبات الدنيا ، قال تعالى : **﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾** [آل عمران : ١٤] .

وفى « الصحيحين » : عن النبى ﷺ : « لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لابتغى إليه ثانيًا ، ولو كان له ثان ، لابتغى إليه ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » (٢) .

هذا وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها ، وأعظم شىء عصى الله به ، وبه قطعت الأرحام ، وأريقت الدماء ، واستحلت المحارم ، ومنعت الحقوق ، وتظالم العباد ، وهو المرغب فى الدنيا وعاجلها ، والمزهد فى الآخرة وما أعده الله لأوليائه

---

(١) الترمذى (١٦٩٠) فى الجهاد ، باب : ما جاء فى السيوف وحليتها ، وقال: « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى ، انظر : الإرواء (٨٢٢) .

(٢) البخارى (٦٤٣٧ ، ٦٤٣٩) فى الرقاق ، باب : ما يتقى من فتنة المال ، ومسلم (١٠٤٨ / ١١٦، ١٠٤٩ / ١١٨) فى الزكاة ، باب : لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى ثالثا .

فيها ، فكم أميت به من حق ، وأحيى به من باطل ، ونصر به ظالم ، وقهر به مظلوم ، وما أحسن ما قال فيه الحريرى :

تبـًا لـه مـن خـادع ممـاذق أصفـر ذى وجهيـن كالمنافـق
يبـدو بوصفيـن لعيـن الرامـق زينـة معشـوق ولـون عاشـق
وحبـه عنـد ذوى الحقائـق يدعـو إلـى ارتكـاب سخـط الخالـق
لـولاه لـم تقطـع يميـن السـارق ولا بـدت مظلمـة مـن فاسـق
ولا اشمـأز باخـل مـن طـارق ولا اشتكـى المطـول مطـل العائـق
ولا استعيـذ مـن حسـود راشـق وشـر مـا فيـه مـن الخلائـق
أن ليـس يغنـى عنـك فـى المضايـق إلا إذا فـر فـرار الآبـق[1]

(حرف الراء)

رطب :

قال الله تعالى لمريم : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم : ٢٥] .

وفى « الصحيحين » عن عبد الله بن جعفر ، قال : رأيت رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب [2] .

وفى « سنن أبى داود » عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن رطبات فتمرات ، فإن لم تكن تمرات ، حسا حسوات من ماء [3] .

طبع الرطب طبع المياه حار رطب ، يقوى المعدة الباردة ويوافقها ، ويزيد فى الباه ، ويخصب البدن ، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة ، ويغذو عذاء كثيراً .

وهو من أعظم الفاكهة موافقة لأهل المدينة وغيرها من البلاد التى هو فاكهتهم فيها ، وأنفعها للبدن،وإن كان من لم يعتده يسرع التعفن فى جسده ،ويتولد عنه دم ليس بمحمود ، ويحدث فى إكثاره منه صداع وسوداء ، ويؤذى أسنانه ، وإصلاحه بالسكذجين ونحوه .

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٠٩ ـ ٣١٢) .

(٢) البخارى (٥٤٤٠) فى الأطعمة ، باب : القثاء بالرطب ، ومسلم (٢٠٤٣/١٤٧) فى الأشربة ، باب : أكل القثاء بالرطب .

(٣) أبو داود (٢٣٥٦) فى الصوم ، باب : ما يفطر عليه .

وفى فطر النبى ﷺ فى الصوم عليه ، أو على التمر ، أو الماء تدبير لطيف جدًا ، فإن الصوم يخلى المعدة من الغذاء ، فلا تجد الكبد فيها ما تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء ، والحلو أسرع شىء وصولاً إلى الكبد ، وأحبه إليها ، ولا سيما إن كان رطبًا ، فيشتد قبولها له ، فتنتفع به هى والقوى ، فإن لم يكن ، فالتمر لحلاوته وتغذيته ، فإن لم يكن ، فحسوات الماء تطفىء لهيب المعدة ، وحرارة الصوم ، فتنتبه بعده للطعام ، وتأخذه بشهوة .

ريحان :

قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)** ﴾ [الواقعة] ، وقال تعالى : ﴿ **وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢)** ﴾ [الرحمن] .

وفى « صحيح مسلم » عن النبى ﷺ : « من عرض عليه ريحان ، فلا يرده ، فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة » (١) .

وفى « سنن ابن ماجه » : من حديث أسامة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ألا مشمر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هى ورب الكعبة ،نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة فى مقام أبدًا ، فى حبرة ونضرة ، فى دور عالية سليمة بهية » ، قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها قال : « قولوا : إن شاء الله تعالى » ، فقال القوم : إن شاء الله (٢) .

الريحان كل نبت طيب الريح ، فكل أهل بلد يخصونه بشىء من ذلك ، فأهل الغرب يخصونه بالآس ، وهو الذى يعرفه العرب من الريحان ، وأهل العراق والشام يخصونه بالحبق .

فأما الآس ، فمزاجه بارد فى الأولى ، يابس فى الثانية ، وهو مع ذلك مركب من قوى متضادة ، والأكثر فيه الجوهر الأرضى البارد ، وفيه شىء حار لطيف ، وهو يجفف تجفيفًا قويًا ، وأجزاؤه متقاربة القوة ، وهى قوة قابضة حابسة من داخل وخارج معًا .

وهو قاطع للإسهال الصفراوى ، دافع للبخار الحار الرطب إذا شم ، مفرح للقلب تفريحًا شديدًا ، وشمه مانع للوباء ، وكذلك افتراشه فى البيت .

---

(١) مسلم (٢٢٣٥ / ٢٠) فى الألفاظ من الأدب ، باب : استعمال الطيب ، وأنه أطيب الطيب ، وكراهة رد الريحان والطيب .

(٢) ابن ماجه (٤٣٣٢) فى الزهد ، باب : صفة الجنة ، وفى الزوائد : « فى إسناده مقال ، والضحاك المغافرى الدمشقى ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول ، وسليمان بن موسى مختلف فيه ، وباقى رجال الإسناد ثقات » ، وضعفه الألبانى .

ويبرئ الأورام الحادثة فى الحالبين إذا وضع عليها ، وإذا دق ورقه وهو غض وضرب بالخل ، ووضع على الرأس ، قطع الرعاف ، وإذا سحق ورقه اليابس ، وذر على القروح ذوات الرطوبة نفعها ، ويقوى الأعضاء الواهية إذا ضمد به ، وينفع داء الداحس ، وإذا ذر على البثور والقروح التى فى اليدين والرجلين ، نفعها .

وإذا دلك به البدن قطع العرق ، ونشف الرطوبات الفضلية ، وأذهب نتن الإبط ، وإذا جلس فى طبيخه ، نفع من خراريج المقعدة والرحم ، ومن استرخاء المفاصل ، وإذا صب على كسور العظام التى لم تلتحم ، نفعها .

ويجلو قشور الرأس وقروحه الرطبة ، وبثوره ، ويمسك الشعر المتساقط ويسوده ، وإذا دق ورقه ، وصب عليه ماء يسير ، وخلط به شىء من زيت أو دهن الورد ، وضمد به وافق القروح الرطبة والنملة والحمرة ، والأورام الحادة ، والشرى والبواسير .

وحبه نافع من نفث الدم العارض فى الصدر والرئة ، دابغ للمعدة وليس بضار للصدر ولا الرئة لجلاوته ، وخاصيته النفع من استطلاق البطن مع السعال ، وذلك نادر فى الأدوية ، وهو مدر للبول ، نافع من لدغ المثانة ، وعض الرتيلاء ، ولسع العقارب ، والتخلل بعرقه مضر ، فليحذر .

وأما الريحان الفارسى الذى يسمى الحبق ، فحار فى أحد القولين ، وينفع شمه من الصداع الحار إذا رش عليه الماء ، ويبرد ، ويرطب بالعرض ، وبارد فى الآخر ، وهل هو رطب أو يابس ؟ على قولين ، والصحيح : أنه فيه من الطبائع الأربع ، ويجلب النوم ، وبزره حابس للإسهال الصفراوى ، ومسكن للمغص ، مقو للقلب ، نافع للأمراض السوداوية .

رمان :

قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الرحمن] .

ويذكر عن ابن عباس موقوفًا ومرفوعًا : « ما من رمان من رمانكم هذا إلا وهو ملقح بحبة من رمان الجنة » والموقوف أشبه ، وذكر حرب وغيره عن على أنه قال : « كلوا الرمان بشحمه ، فإنه دباغ المعدة » .

حلو الرمان حار رطب ، جيد للمعدة ، مقو لها بما فيه من قبض لطيف ، نافع للحلق والصدر والرئة ، جيد للسعال ، وماؤه ملين للبطن ، يغذو البدن غذاء فاضلا يسيرًا ، سريع التحلل لرقته ولطافته ، ويولد حرارة يسيرة فى المعدة وريحًا ، ولذلك يعين على الباه ،

ولا يصلح للمحمومين ، وله خاصة عجيبة إذا أكل الخبز يمنعه من الفساد فى المعدة .

وحامضه بارد يابس ، قابض لطيف ، ينفع المعدة الملتهبة ، ويدر البول أكثر من غيره من الرمان ، ويسكن الصفراء ، ويقطع الإسهال ، ويمنع القىء ، ويلطف الفضول .

ويطفئ حرارة الكبد ، ويقوى الأعضاء ، نافع من الخفقان الصفراوى ، والآلام العارضة للقلب ، وفم المعدة ،ويقوى المعدة ، ويدفع الفضول عنها ويطفئ المرة الصفراء والدم .

وإذا استخرج ماؤه بشحمه،وطبخ بيسير من العسل حتى يصير كالمرهم ، واكتحل به ، قطع الصفرة من العين ، ونقاها من الرطوبات الغليظة ،وإذا لطخ على اللثة ، نفع من الأكلة العارضة لها ، وإن استخرج ماؤهما بشحمهما ، أطلق البطن ، وأحدر الرطوبات العفنة المرية ، ونفع من حميات الغب المتطاولة .

وأما الرمان المز ، فمتوسط طبعًا وفعلاً بين النوعين ، وهذا أميل إلى لطافة الحامض قليلاً ، وحب الرمان مع العسل طلاء للداحس والقروح الخبيثة ، وأقماعه للجراحات ، قالوا : ومن ابتلع ثلاثة من جنبذ الرمان فى كل سنة ، أمن من الرمد سنته كلها [1] .

(حرف الزاى)

زيت :

قال تعالى : ﴿ **يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ [النور : ٣٥] .

وفى الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال: « كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » [2] .

وللبيهقى وابن ماجه أيضًا :عن ابن عمر رضي الله عنهما ،قال:قال رسول الله ﷺ : « ائتدموا بالزيت ، وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » [3] .

الزيت حار رطب فى الأولى ، وغلط من قال : يابس ، والزيت بحسب زيتونه ، فالمعتصر من النضيج أعدله وأجوده ، ومن الفج فيه برودة ويبوسة ، ومن الزيتون الأحمر

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣١٢ ـ ٣١٦) .

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٣ ، وابن ماجه (٣٣٢٠) فى الأطعمة ، باب الزيت ، وفى الزوائد : « فى إسناده عبد الله ابن سعيد المقبرى ، قال فى تقريب التهذيب : متروك » .

(٣) ابن ماجه (٣٣١٩) فى الأطعمة ، باب : الزيت .

متوسط بين الزيتين ، ومن الأسود يسخن ويرطب باعتدال ، وينفع من السموم ، ويطلق البطن ، ويخرج الدود ، والعتيق منه أشد تسخينًا وتحليلاً ، وما استخرج منه بالماء ، فهو أقل حرارة ، وألطف وأبلغ فى النفع ، وجميع أصنافه ملينة للبشرة ، وتبطئ الشيب .

وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار ، ويشد اللثة ، وورقه ينفع من الحمرة ، والنملة ، والقروح الوسخة ، والشرى ، ويمنع العرق ، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا .

زبد :

روى أبو داود فى « سننه » ، عن ابنى بسر السلميين رضي الله عنهما قالا : دخل علينا رسول الله ﷺ، فقدمنا له زبدًا وتمرًا ، وكان يحب الزبد والتمر (١) .

الزبد حار رطب ، فيه منافع كثيرة ، منها الإنضاج والتحليل ، ويبرئ الأورام التى تكون إلى جانب الأذنين والحالبين ، وأورام الفم ، وسائر الأورام التى تعرض فى أبدان النساء والصبيان إذا استعمل وحده ، وإذا لعق منه ، نفع من نفث الدم الذى يكون من الرئة ، وأنضج الأورام العارضة فيها .

وهو ملين للطبيعة والعصب والأورام الصلبة العارضة من المرة السوداء والبلغم ، نافع من اليبس العارض فى البدن ، وإذا طلى به على منابت أسنان الطفل ، كان معينًا على نباتها وطلوعها ، وهو نافع من السعال العارض من البرد واليبس ، ويذهب القوباء والخشونة التى فى البدن، ويلين الطبيعة ، ولكنه يضعف شهوة الطعام ، ويذهب بوخامته الحلو ، كالعسل والتمر ، وفى جمعه ﷺ بين التمر وبينه من الحكمة إصلاح كل منهما بالآخر .

زبيب :

روى فيه حديثان لا يصحان . أحدهما : « نعم الطعام الزبيب يطيب النكهة ، ويذيب البلغم » . والثانى : « نعم الطعام الزبيب يذهب النصب ، ويشد العصب ، ويطفئ الغضب ، ويصفى اللون ، ويطيب النكهة » . وهذا أيضًا لا يصح فيه شىء عن رسول الله ﷺ .

وبعد : فأجود الزبيب ما كبر جسمه ، وسمن شحمه ولحمه ، ورق قشره ، ونزع عجمه ، وصغر حبه .

وجرم الزبيب حار رطب فى الأولى ، وحبه بارد يابس ، وهو كالعنب المتخذ منه :

(١) أبو داود (٣٨٣٧) فى الأطعمة ، باب : فى الجمع بين لونين فى الأكل .

الحلو منه حار ، والحامض قابض بارد ، والأبيض أشد قبضًا من غيره ، وإذا أكل لحمه ، وافق قصبة الرئة ، ونفع من السعال ، ووجع الكلى ، والمثانة ، ويقوى المعدة ، ويلين البطن .

والحلو اللحم أكثر غذاء من العنب ، وأقل غذاء من التين اليابس ، وله قوة منضجة هاضمة قابضة محللة باعتدال ، وهو بالجملة يقوى المعدة والكبد والطحال ، نافع من وجع الحلق والصدر والرئة والكلى والمثانة ، وأعدله أن يؤكل بغير عجمه .

وهو يغذى غذاء صالحًا ، ولا يسدد كما يفعل التمر ، وإذا أكل منه بعجمه كان أكثر نفعًا للمعدة والكبد والطحال ، وإذا لصق لحمه على الأظافير المتحركة أسرع قلعها ، والحلو منه وما لا عجم له نافع لأصحاب الرطوبات والبلغم ، وهو يخصب الكبد ، وينفعها بخاصيته .

وفيه نفع للحفظ : قال الزهرى : من أحب أن يحفظ الحديث ، فليأكل الزبيب . وكان المنصور يذكر عن جده عبد الله بن عباس : عجمه داء ، ولحمه دواء .

زنجبيل :

قال تعالى : ﴿ **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً** (١٧) ﴾ [الإنسان :] . وذكر أبو نعيم فى كتاب « الطب النبوى » من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : أهدى ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جرة زنجبيل ، فأطعم كل إنسان قطعة ، وأطعمنى قطعة .

الزنجبيل حار فى الثانية ، رطب فى الأولى ، مسخن معين على هضم الطعام ، ملين للبطن تليينًا معتدلاً ، نافع من سدد الكبد العارضة عن البرد والرطوبة ، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة أكلاً واكتحالاً ، معين على الجماع ، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة فى الأمعاء والمعدة .

وبالجملة فهو صالح للكبد والمعدة الباردتى المزاج ، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار ، أسهل فضولاً لزجة لعابية ، ويقع فى المعجونات التى تحلل البلغم وتذيبه .

والمزى منه حار يابس يهيج الجماع ، ويزيد فى المنى ، ويسخن المعدة والكبد ، ويعين على الاستمراء ، وينشف البلغم الغالب على البدن ، ويزيد فى الحفظ ، ويوافق برد الكبد والمعدة ،ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة ، ويطيب النكهة ، ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣١٦ ـ ٣٢٠) .

(حرف السين)

سنا :

قد تقدم [١] ، وتقدم سنوت أيضًا [٢]،وفيه سبعة أقوال ، أحدها:أنه العسل . الثانى : أنه رب عكة السمن يخرج خططًا سوداء على السمن .الثالث : أنه حب يشبه الكمون ، وليس بكمون . الرابع:الكمون الكرمانى . الخامس : أنه الشبت ، السادس : أنه التمر . السابع : أنه الرازيانج .

سفرجل :

روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث إسماعيل بن محمد الطلحى ، عن نقيب بن حاجب ، عن أبى سعيد ، عن عبد الملك الزبيرى ، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال : دخلت على النبى ﷺ وبيده سفرجلة ،فقال :« دونكها يا طلحة ، فإنها تجم الفؤاد » [٣] .

ورواه النسائى من طريق آخر،وقال : أتيت النبى ﷺ وهو فى جماعة من أصحابه ، وبيده سفرجلة يقلبها ، فلما جلست إليه ، دحا بها إلى ثم قال : « دونكها أبا ذر ، فإنها تشد القلب ، وتطيب النفس ، وتذهب بطخاء الصدر » .

وقد روى فى السفرجل أحاديث أخر ، هذا أمثلها ، ولا تصح .

والسفرجل بارد يابس ، ويختلف فى ذلك باختلاف طعمه ، وكله بارد قابض ، جيد للمعدة ، والحلو منه أقل برودة ويبسا ، وأميل إلى الاعتدال ، والحامض أشد قبضًا ويبسًا وبرودة ، وكله يسكن العطش والقىء ، ويدر البول ، ويعقل الطبع ، وينفع من قرحة الأمعاء ، ونفث الدم ، والهيضة ، وينفع من الغثيان ، ويمنع من تصاعد الأبخرة إذا استعمل بعد الطعام ، وحراقة أغصانه وورقه المغسولة كالتوتياء فى فعلها .

وهو قبل الطعام يقبض ، وبعده يلين الطبع ، ويسرع بانحدار الثفل ، والإكثار منه مضر بالعصب ، ومولد للقولنج ، ويطفئ المرة الصفراء المتولدة فى المعدة .

وإن شوى كان أقل لخشونته ، وأخف ، وإذا قور وسطه ، ونزع حبه ، وجعل فيه العسل ، وطين جرمه بالعجين ، وأودع الرماد الحار ، نفع نفعًا حسنًا .

---

(١) انظر : ص ١٨٠ ، ١٨١ . (٢) انظر : ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(١) ابن ماجه (٣٣٦٩) فى الأطعمة ، باب : أكل الثمار ، وفى الزوائد : « فى إسناده عبد الملك الزبيرى مجهول ، وقال المزى فى الأطراف ، والذهبى فى الكاشف ، وأبو سعيد : يكره ، قاله فى الكاشف » .

وأجود ما أكل مشويًا أو مطبوخًا بالعسل ، وحبه ينفع من خشونة الحلق ، وقصبة الرئة ، وكثير من الأمراض ، ودهنه يمنع العرق ، ويقوى المعدة ، والمربى منه يقوى المعدة والكبد ، ويشد القلب ، ويطيب النفس .

ومعنى تجم الفؤاد : تريحه ، وقيل : تفتحه وتوسعه ، من جمام الماء ، وهو اتساعه وكثرته ، والطخاء للقلب مثل الغيم على السماء ، قال أبو عبيد : الطخاء ثقل وغشى ، تقول : ما فى السماء طخاء ، أى : سحاب وظلمة .

سواك :

فى « الصحيحين » عنه ﷺ : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » (١) .

وفيهما : أنه ﷺ ، كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك (٢) .

وفى « صحيح البخارى » تعليقًا عنه ﷺ: « السواك مطهرة للفهم مرضاة للرب » (٣) .

وفى « صحيح مسلم » : أنه ﷺ كان إذا دخل بيته ، بدأ بالسواك (٤) .

والأحاديث فيه كثيرة ، وصح عنه من حديث أنه استاك عند موته بسواك عبد الرحمن ابن أبى بكر (٥) ، وصح عنه أنه قال : « أكثرت عليكم فى السواك» (٦) .

وأصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه ، ولا ينبغى أن يؤخذ من شجرة مجهولة ، فربما كانت سمًا ، وينبغى القصد فى استعماله ، فإن بالغ فيه ، فربما أذهب طلاوة الأسنان وصقالتها ، وهيأها لقبول الأبخرة المتصاعدة من المعدة والأوساخ ، ومتى استعمل باعتدال ، جلا الأسنان ، وقوى العمود ، وأطلق اللسان ، ومنع الحفر ، وطيب النكهة ، ونقى الدماغ ، وشهى الطعام .

وأجود ما استعمل مبلولاً بماء الورد،ومن أنفعه أصول الجوز. قال صاحب « التيسير »: زعموا أنه إذا استاك به المستاك كل خامس من الأيام ، نقى الرأس ، وصفى الحواس ، وأحد الذهن .

---

(١) البخارى (٨٨٧) فى الجمعة ، باب : السواك يوم الجمعة ، ومسلم (٢٥٢ / ٤٢) فى الطهارة ، باب : السواك .
(٢) البخارى (٨٨٩) فى الجمعة ، باب : السواك يوم الجمعة ، ومسلم (٢٥٥ / ٤٦) فى الطهارة ، باب : السواك .
(٣) البخارى معلقًا (الفتح ٤ / ١٥٨) فى الصيام ، باب : سواك الرطب واليابس للصائم .
(٤) مسلم (٢٥٣ / ٤٤) فى الطهارة ، باب : السواك .
(٥) البخارى (٤٤٣٨) فى المغازى ، باب : مرض النبى ﷺ ووفاته .
(٦) البخارى (٨٨٨) فى الجمعة ، باب : السواك يوم الجمعة .

وفى السواك عدة منافع : يطيب الفم ،ويشد اللثة ، ويقطع البلغم ، ويجلو البصر ، ويذهب بالحفر ، ويصح المعدة ، ويصفى الصوت ، ويعين على هضم الطعام ، ويسهل مجارى الكلام ، وينشط للقراءة ، والذكر والصلاة ، ويطرد النوم ، ويرضى الرب ، ويعجب الملائكة ، ويكثر الحسنات .

ويستحب كل وقت ، ويتأكد عند الصلاة والوضوء ، والانتباه من النوم ، وتغيير رائحة الفم ، ويستحب للمفطر والصائم فى كل وقت لعموم الأحاديث فيه ، ولحاجة الصائم إليه ، ولأنه مرضاة الرب ، ومرضاته مطلوبة فى الصوم أشد من طلبها فى الفطر ، ولأنه مطهرة للفم ، والطهور للصائم من أفضل أعماله .

وفى « السنن » : عن عامر بن ربيعة رضى الله عنه ، قال : رأيت رسول الله ﷺ ما لا أحصى يستاك ،وهو صائم [1] وقال البخارى : قال ابن عمر: يستاك أول النهار وآخره .

وأجمع الناس على أن الصائم يتمضمض وجوبًا واستحبابًا ، والمضمضة أبلغ من السواك ، وليس لله غرض فى التقرب إليه بالرائحة الكريهة ، ولا هى من جنس ما شرع التعبد به ، وإنما ذكر طيب الخلوف عند الله يوم القيامة حثًا منه على الصوم ، لا حثًا على إبقاء الرائحة ، بل الصائم أحوج إلى السواك من المفطر .

وأيضًا ، فإن رضوان الله أكبر من استطابته لخلوف فم الصائم .

وأيضًا ، فإن محبته للسواك أعظم من محبته لبقاء خلوف فم الصائم .

وأيضًا ، فإن السواك لا يمنع طيب الخلوف الذى يزيله السواك عند الله يوم القيامة ، بل يأتى الصائم يوم القيامة ، وخلوف فمه أطيب من المسك علامة على صيامه ، ولو أزاله بالسواك ، كما أن الجريح يأتى يوم القيامة ، ولون دم جرحه لون الدم ، وريحه ريح المسك ، وهو مأمور بإزالته فى الدنيا .

وأيضًا ، فإن الخلوف لا يزول بالسواك،فإن سببه قائم ، وهو خلو المعدة عن الطعام ، وإنما يزول أمره ، وهو المنعقد على الأسنان واللثة .

وأيضًا ، فإن النبى ﷺ علم أمته ما يستحب لهم فى الصيام ، وما يكره لهم ، ولم يجعل السواك من القسم المكروه ، وهو يعلم أنهم يفعلونه ، وقد حضهم عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول ، وهم يشاهدونه يستاك وهو صائم مرارًا كثيرة تفوت الإحصاء ، ويعلم أنهم يقتدون به ، ولم يقل لهم يومًا من الدهر : لا تستاكوا بعد الزوال ، وتأخير البيان عن

(١) أبو داود (٢٣٦٤) فى الصوم ، باب السواك للصائم ، وضعفه الألبانى .

وقت الحاجة ممتنع ، والله أعلم .

سمن :

روى محمل بن جرير الطبرى بإسناده ، من حديث صهيب يرفعه : « عليكم بألبان البقر ، فإنها شفاء ، وسمنها دواء ، ولحومها داء » رواه عن أحمد بن الحسن الترمذى ، حدثنا محمد بن موسى النسائى ، حدثنا دفاع بن دغفل السدوسى ، عن عبد الحميد بن صيفى بن صهيب ، عن أبيه عن جده ، ولا يثبت ما فى هذا الإسناد (١) .

والسمن حار رطب فى الأولى ، وفيه جلاء يسير ، ولطافة وتفشية الأورام الحادثة من الأبدان الناعمة ، وهو أقوى من الزبد فى الإنضاج والتليين ، وذكر جالينوس : أنه أبرأ به الأورام الحادثة فى الأذن ، وفى الأرنبة ، وإذا دلك به موضع الأسنان ، نبتت سريعًا ، وإذا خلط مع عسل ولوز مر ، جلا ما فى الصدر والرئة ، والكيموسات الغليظة اللزجة ، إلا أنه ضار بالمعدة ، سيما إذا كان مزاج صاحبها بلغميا .

وأما سمن البقر والمعز ، فإنه إذا شرب مع العسل نفع من شرب السم القاتل ، ومن لدغ الحيات والعقارب ، وفى كتاب ابن السنى : عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : لم يستشف الناس بشىء أفضل من السمن .

سمك :

روى الإمام أحمد بن حنبل ، وابن ماجه فى « سننه » : من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: « أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد ، والكبد والطحال » (٢) .

أصناف السمك كثيرة ، وأجوده ما لذ طعمه ، وطاب ريحه ، وتوسط مقداره ، وكان رقيق القشر ، ولم يكن صلب اللحم ولا يابسه ، وكان فى ماء عذب جار على الحصباء ، ويغتذى بالنبات لا الأقذار ، وأصلح أماكنه ما كان فى نهر جيد الماء ، وكان يأوى إلى الأماكن الصخرية ، ثم الرملية ، والمياه الجارية العذبة التى لا قذر فيها ، ولا حمأة ، الكثير الاضطراب والتموج ، المكشوفة للشمس والرياح .

والسمك البحرى فاضل ، محمود ، لطيف، الطرى منه بارد رطب ، عسر الانهضام ، يولد بلغمًا كثيرًا ، إلا البحرى وما جرى مجراه ، فإنه يولد خلطًا محمودًا ، وهو يخصب

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٤٠٤) ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبى : سيف وهاه ابن حبان .

(٢) ابن ماجه (٣٢١٨) فى الصيد ، باب : صيد الحيتان والجراد ، وفى الزوائد : فى إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف ، وأحمد (٢ / ٩٧) ، وقال : الشيخ أحمد شاكر (٥٧٢٣) : « إسناده ضعيف » .

البدن ، ويزيد المنى ، ويصلح الأمزجة الحارة .

وأما المالح ، فأجوده ما كان قريب العهد بالتملح ، وهو حار يابس ، وكلما تقادم عهده ازداد حره ويبسه ، والسلور منه كثير اللزوجة ، ويسمى الجرى ، واليهود لا تأكله ، وإذا أكل طريًا ، كان مليئًا للبطن ، وإذا ملح وعتق وأكل ، صفى قصبة الرئة ، وجود الصوت ، وإذا دق ووضع من خارج ، أخرج السلى والفضول من عمق البدن من طريق أن له قوة جاذبة .

وماء ملح الجرى المالح إذا جلس فيه من كانت به قرحة الأمعاء فى ابتداء العلة ، وافقه بجذبه المواد إلى ظاهر البدن ، وإذا احتقن به ، أبرأ من عرق النسا .

وأجود ما فى السمك ما قرب من مؤخرها ، والطرى السمين منه يخصب البدن لحمه وودكه ، وفى « الصحيحين » : من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : بعثنا النبى ﷺ فى ثلاثمائة راكب ، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، فأتينا الساحل ، فأصابنا جوع شديد ، حتى أكلنا الخبط ، فألقى لنا البحر حوتًا يقال لها : عنبر ، فأكلنا منه نصف شهر ، وائتدمنا بودكة حتى ثابت أجسامنا ، فأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه ، وحمل رجلاً على بعيره ، ونصبه ، فمر تحته [(١)] .

سلق :

روى الترمذى وأبو داود ، عن أم المنذر ، قالت : دخل على رسول الله ﷺ ومعه على ﷺ ، ولنا دوال معلقة ، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يأكل وعلى معه يأكل ، فقال رسول الله ﷺ: « مه يا على فإنك ناقه »، قالت : فجعلت لهم سلقًا وشعيرًا ، فقال النبى ﷺ : « يا على فأصب من هذا ،فإنه أوفق لك »،قال الترمذى :حديث حسن غريب [(٢)].

السلق حار يابس فى الأولى ، وقيل : رطب فيها ، وقيل : مركب منهما ، وفيه برودة ملطفة،وتحليل ، وتفتيح ،وفى الأسود منه قبض ونفع من داء الثعلب ، والكلف ، والحزاز ، والثآليل إذا طلى بمائه ، ويقتل القمل ، ويطلى به القوباء مع العسل ، ويفتح سدد الكبد والطحال ، وأسوده يعقل البطن ، ولا سيما مع العدس ، وهما رديئان ، والأبيض ، يلين مع العدس ، ويحقن بمائه للإسهال ، وينفع من القولنج مع المرى والتوابل ، وهو قليل الغذاء ، ردىء الكيموس ، يحرق الدم ، ويصلحه الخل والخردل ، والإكثار منه يولد القبض والنفخ [(٣)] .

---

(١) البخارى (٥٤٩٤) فى الذبائح والصيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ ، ومسلم (١٩٣٥ / ١٨) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة ميتات البحر .

(٢) أبو داود (٣٨٥٦) فى الطب ، باب : فى الحمية ، والترمذى (٢٠٣٧) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحمية .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٣٢٠ ـ ٣٢٧) .

(حرف الشين)

شونيز :

هو الحبة السوداء ، وقد تقدم فى حرف الحاء .

شبرم :

روى الترمذى ، وابن ماجه فى « سننهما » : من حديث أسماء بنت عميس ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « بماذا كنت تستمشين ؟ » قالت :بالشبرم ، قال :« حار جار » (١) .

الشبرم شجر صغير وكبير ، كقامة الرجل وأرجح ، له قضبان حمر ملمعة ببياض ، وفى رؤوس قضبانه جمة من ورق ، وله نور صغار أصفر إلى البياض ، يسقط ويخلفه مراود صغار فيها حب صغير مثل البطم ،فى قدره ، أحمر اللون ، ولها عروق عليها قشور حمر ، والمستعمل منه قشر عروقه ، ولبن قضبانه .

وهو حار يابس فى الدرجة الرابعة ، ويسهل السوداء ، والكيموسات الغليظة ، والماء الأصفر ، والبلغم ، مكرب ، مغث ، والإكثار منه يقتل ، وينبغى إذا استعمل أن ينقع فى اللبن الحليب يومًا وليلة ، ويغير عليه اللبن فى اليوم مرتين أو ثلاثًا ، ويخرج ، ويجفف فى الظل ، ويخلط معه الورود والكثيراء ، ويشرب بماء العسل ، أو عصير العنب ، والشربة منه ما بين أربع دوانق إلى دانقين على حسب القوة، قال حنين : أما لبن الشبرم ، فلا خير فيه ، ولا أرى شربه البتة ، فقد قتل به أطباء الطرقات كثيرًا من الناس .

شعير :

روى ابن ماجه : من حديث عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أحدًا من أهله الوعك ، أمر بالحساء من الشعير ، فصنع ، ثم أمرهم فحسوا منه ، ثم يقول : « إنه ليرتو فؤاد الحزين ، ويسرو فؤاد السقيم كما تسرو إحداكن الوسخ بالماء على وجهها » (٢) ، ومعنى يرتوه : يشده ويقويه ، ويسرو : يكشف ، ويزيل .

وهذا هو ماء الشعير المغلى ، وهو أكثر غذاء من سويقه ، وهو نافع للسعال ، وخشونه الحلق ، صالح لقمع حدة الفضول ، مدر للبول ، جلاء لما فى المعدة ، قاطع

---

(١) الترمذى (٢٠٨١) فى الطب ، باب : ما جاء فى السنا ، وابن ماجه (٣٤٦١) فى الطب ، باب : دواء المشى ، وضعفه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (٣٤٤٥) فى الطب ، باب : التلبينة ، وضعفه الألبانى.

للعطش ، مطفئ للحرارة ، وفيه قوة يجلو بها ويلطف ويحلل .

وصفته : أن يؤخذ من الشعير الجيد المرضوض مقدار ، ومن الماء الصافى العذب خمسة أمثاله ، ويلقى فى قدر نظيف ، ويطبخ بنار معتدلة إلى أن يبقى منه خمساه ، ويصفى ، ويستعمل منه مقدار الحاجة محلا .

شواء :

قال الله تعالى : فى ضيافة خليله إبراهيم عليه السلام لأضيافه : ﴿ **فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** (٦٩) ﴾ [هود : ٦٩] والحنيذ : المشوى على الرضف ، وهى الحجارة المحماة .

وفى الترمذى : عن أم سلمة رضي الله عنها ، أنها قربت إلى رسول الله ﷺ جنبًا مشويًا ، فأكل منه ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ ، قال الترمذى : حديث صحيح [(١)] .

وفيه أيضًا : عن عبد الله بن الحارث قال : أكلنا مع رسول الله ﷺ شواء فى المسجد [(٢)] . وفيه أيضًا : عن المغيرة بن شعبة قال : ضفت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فأمر بجنب ، فشوى ، ثم أخذ الشفرة فجعل يحز لى بها منه قال : وجاء بلال يؤذن للصلاة فألقى الشفرة فقال : « ما له تربت يداه » [(٣)] .

أنفع الشواء شواء الضأن الحولى ، ثم العجل اللطيف السمين ، وهو حار رطب إلى اليبوسة ، كثير التوليد للسوداء ، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء والمرتاضين ، والمطبوخ أنفع وأخف على المعدة ، وأرطب منه ، ومن المطجن .وأردؤه المشوى فى الشمس ، والمشوى على الجمر خير من المشوى باللهب، وهو الحنيذ .

شحم :

ثبت فى « المسند » : عن أنس ، أن يهوديًا أضاف رسول الله ﷺ ، فقدم له خبز شعير وإهالة سنخة [(٤)] ، والإهالة : الشحم المذاب والألية ، والسنخة : المتغيرة .

وثبت فى « الصحيح » : عن عبد الله بن مغفل ، قال : دلى جراب من شحم يوم خيبر ، فالتزمته وقلت : والله لا أعطى أحدًا منه شيئًا ، فالتفت ، فإذا رسول الله ﷺ يضحك ، ولم يقل شيئًا [(٥)] .

---

(١) الترمذى (١٨٢٩) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل الشواء ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) أحمد (٤ / ١٩٠) وفى إسناده ابن لهيعة وهو سئ الحفظ .

(٣) أحمد (٤ / ٢٥٢) ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٨٨) .

(٤) أحمد (٣ / ٢١١ ، ٢٧٠) ، والترمذى (١٢١٥) فى البيوع ، باب : ما جاء فى الرخصة فى الشراء إلى أجل ، وقال : « حسن صحيح » .

(٥) البخارى (٣١٥٣) فى فرض الخمس ، باب : ما يصيب من الطعام فى أرض الحرب ، ومسلم (١٧٧٢ / ٧٢) فى الجهاد والسير ، باب : جواز الأكل من الغنيمة فى دار الحرب .

أجود الشحم ما كان من حيوان مكتمل ، وهو حار رطب ، وهو أقل رطوبة من السمن ، ولهذا لو أذيب الشحم والسمن كان الشحم أسرع جمودًا ، وهو ينفع من خشونة الحلق ، ويرخى ويعفن ، ويدفع ضرره بالليمون المملوح ، والزنجبيل ، وشحم المعز أقبض الشحوم ، وشحم التيوس أشد تحليلاً ، وينفع من قروح الأمعاء ، وشحم العنز أقوى فى ذلك ، ويحتقن به للسحج والزحير (١) .

(حرف الصاد)

صلاة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)** ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)** ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)** ﴾ [طه] .

وفى « السنن » كان رسول الله ﷺ ، إذا حزبه أمر ، فزع إلى الصلاة (٢) .

وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها (٣) .

والصلاة مجلبة للرزق ، حافظة للصحة ، دافعة للأذى مطردة للأدواء ، مقوية للقلب ، مبيضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، ممدة للقوى ، شارحة للصدر ، مغذية للروح ، منورة للقلب ، حافظة للنعمة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن .

وبالجملة : فلها تأثير عجيب فى حفظ صحة البدن والقلب ، وقواهما ، ودفع المواد الرديئة عنهما ، وما ابتلى رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية إلا كان حظ المصلى منهما أقل ، وعاقبته أسلم .

وللصلاة تأثير عجب فى دفع شرور الدنيا ، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا ، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة ، ولا استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة ، وسر ذلك أن الصلاة صلة بالله عز وجل ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٢٨ ـ ٣٣١) .

(٢) أبو داود (١٣١٩) فى الصلاة ، باب : وقت قيام النبى ﷺ من الليل عن حذيفة والنسائى (٥٩٩) فى المواقيت ، باب : الحال التى نجمع فيها بين الصلاتين عن ابن عمر .

(٣) انظر : ص ٢٤٤ .

من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل ، والعافية والصحة ، والغنيمة والغنى ، والراحة والنعيم ، والأفراح والمسرات ، كلها محضرة لديه ، ومسارعة إليه .

صَبْر :

« الصبر نصف الإيمان » (١) ، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر ، كما قال بعض السلف : الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ⓹ ﴾ [إبراهيم] .

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ،وهو ثلاثة أنواع :صبر على فرائض الله ، فلا يضيعها،وصبر عن محارمه فلا يرتكبها ،وصبر على أقضيته وأقداره ، فلا يتسخطها ، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث ، استكمل الصبر ، ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها ، والفوز والظفر فيهما ، لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر ، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خير عيش أدركناه بالصبر ، وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب فى العالم ، رأيتها كلها منوطة بالصبر ، وإذا تأملت النقصان الذى يذم صاحبه عليه ، ويدخل تحت قدرته ، رأيته كله من عدم الصبر ، فالشجاعة والعفة ، والجود والإيثار ، كله صبر ساعة .

فالصبر طلسم على كنز العلى ... من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

وأكثر أسقام البدن والقلب ، إنما تنشأ عن عدم الصبر ، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر ، فهو الفاروق الأكبر ، والترياق الأعظم ، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله،فإن الله مع الصابرين ومحبته لهم،فإن الله يحب الصابرين ، ونصره لأهله ، فإن النصر مع الصبر ، وإنه خير لأهله ، ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ⓵⓶⓺ ﴾ [النحل] ، وإنه سبب الفلاح : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٢٠٠) ﴾ [آل عمران] .

صَبِر :

روى أبو داود فى كتاب المراسيل ، من حديث قيس بن رافع القيسى ، أن رسول الله ﷺ قال : ماذا فى الأمرين من الشفاء ؟ الصبر والثفاء » (٢) ، وفى « السنن لأبى داود :

---

(١) أبو نعيم فى الحلية (١ / ٣٤) ، وضعفه الحافظ ابن حجر فى الفتح (١ / ٤٥) .

(٢) البيهقى فى الكبرى (٩ / ٣٤٦) ، وعزاه إلى أبى داود فى المراسيل .

من حديث أم سلمة ، قالت : دخل على رسول الله ﷺ حين توفى أبو سلمة ، وقد جعلت عليه صبرًا ، فقال : « ماذا يا أم سلمة ؟ » فقلت : إنما هو صبر يا رسول الله ، ليس فيه طيب ، قال : « إنه يشب الوجه ، فلا تجعليه إلا بالليل » ونهى عنه بالنهار (١) .

الصبر كثير المنافع ، لاسيما الهندى منه ، ينقى الفضول الصفراوية التى فى الدماغ وأعصاب البصر ، وإذا طلى على الجبهة والصدغ بدهن الورد ، نفع من الصداع ، وينفع من قروح الأنف والفم ، ويسهل السوداء والماليخوليا .

والصبر الفارسى يذكى العقل ، ويمد الفؤاد ، وينقى الفضول الصفراوية والبلغمية من المعدة إذا شرب منه ملعقتان بماء ، ويرد الشهوة الباطلة والفاسدة ، وإذا شرب فى البرد ، خيف أن يسهل دمًا .

صوم :

الصوم جنة من أدواء الروح والقلب والبدن ، منافعه تفوت الإحصاء ، وله تأثير عجيب فى حفظ الصحة ، وإذابة الفضلات ، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها ، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد فى أفضل أوقاته شرعًا ، وحاجة البدن إليه طبعًا .

ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظ عليها قواها ، وفيه خاصية تقتضى إيثاره ، وهى تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً ، وهو أنفع شىء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة ، وله تأثير عظيم فى حفظ صحتهم .

وهو يدخل فى الأدوية الروحانية والطبيعية ، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغى مراعاته طبعًا وشرعًا ، عظم انتفاع قلبه وبدنه به ، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التى هو مستعد لها ، وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه ، ويحفظ الصائم مما ينبغى أن يتحفظ منه ،ويعينه على قيامه بمقصود الصوم وسره وعلته الغائية ، فإن القصد منه أمر آخر وراء ترك الطعام والشراب ، وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه ، ولما كان وقاية وجنة بين العبد وبين ما يؤذى قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً ، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٨٣) ﴾ [البقرة]، فأحد مقصودى الصيام الجنة والوقاية ، وهى حمية عظيمة النفع ، والمقصود الآخر : اجتماع القلب والهم على الله تعالى ، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته (٢) .

---

(١) أبو داود (٢٣٠٥) فى الطلاق ، باب : فيما تجتنبه المعتدة فى عدتها ، وضعفه الألبانى .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٣١ ـ ٣٣٥) .

(حرف الضاد)

ضب :

ثبت فى « الصحيحين » : من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ سئل عنه لما قدم إليه ، وامتنع من أكله : أحرام هو ؟ فقال : « لا ولكن لم يكن بأرض قومى ، فأجدنى أعافه ، وأكل بين يديه وعلى مائدته وهو ينظر » (١) .

وفى « الصحيحين » : من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عنه ﷺ أنه قال : « لا أحله ولا أحرمه » (٢) .

وهو حار يابس،يقوى شهوة الجماع،وإذا دق ، ووضع على موضع الشوكة اجتذبها .

ضفدع :

قال الإمام أحمد : الضفدع لا يحل فى الدواء ، نهى رسول الله ﷺ عن قتلها ، يريد الحديث الذى رواه فى « مسند » من حديث عثمان بن عبد الرحمن رضي الله عنه ، أن طبيبًا ذكر ضفدعًا فى دواء عند رسول الله ﷺ فنهاه عن قتلها (٣) .

قال صاحب القانون : من أكل من دم الضفدع أو جرمه ، ورم بدنه وكمد لونه ، وقذف المنى حتى يموت ، ولذلك ترك الأطباء استعماله خوفًا من ضرره ، وهى نوعان : مائية وترابية ، والترابية يقتل أكلها (٤) .

(حرف الطاء)

طيب :

ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حبب إلى من دنياكم : النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » (٥) .

---

(١) البخارى (٥٥٣٧) فى الذبائح والصيد ، باب : الضب ، ومسلم (١٩٤٦ / ٤٤) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الضب .

(٢) البخارى (٥٥٣٦) فى الذبائح والصيد ، باب : الضب ، ومسلم (١٩٤٣/٣٩) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الضب .

(٣) أحمد (٣ / ٤٥٣) ، وأبو داود (٥٢٦٩) ، فى الأدب ، باب : فى قتل الضفدع ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

(٤) زاد المعاد (٤ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦) .

(٥) النسائى (٣٩٤٠) فى عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر فى التلخيص الحبير (١٥٣٠) انظره مفصلا .

وكان ﷺ يكثر التطيب ، وتشتد عليه الرائحة الكريهة ، وتشق عليه ، والطيب غذاء الروح التى هى مطية القوى تتضاعف وتزيد بالطيب ، كما تزيد بالغذاء والشراب ، والدعة والسرور ، ومعاشرة الأحبة ، وحدوث الأمور المحبوبة ، وغيبة من تسر غيبته ، ويثقل على الروح مشاهدته ، كالثقلاء والبغضاء ، فإن معاشرتهم توهن القوى ، وتجلب الهم والغم ، وهى للروح بمنزلة الحمى للبدن ، وبمنزلة الرائحة الكريهة ، ولهذا كان مما حبب الله ـ سبحانه ـ الصحابة بنهيهم عن التخلق بهذا الخلق فى معاشرة رسول الله ﷺ لتأذيه بذلك ، فقال : ﴿ **إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

والمقصود أن الطيب كل من أحب الأشياء إلى رسول الله ﷺ ، وله تأثير فى حفظ الصحة ، ودفع كثير من الآلام ، وأسبابها بسبب قوة الطبيعة به .

طين :

ورد فيه أحاديث موضوعة لا يصح منها شىء مثل حديث « من أكل الطين ، فقد أعان على قتل نفسه » ومثل حديث « يا حميراء لا تأكلى الطين فإنه يعصم البطن،ويصفر اللون، ويذهب بهاء الوجه » (١) .

وكل حديث فى الطين فإنه لا يصح ، ولا أصل له عن رسول الله ﷺ ، إلا أنه ردىء مؤذ ، يسد مجارى العروق ، وهو بارد يابس ، قوى التجفيف ، ويمنع استطلاق البطن ، ويوجب نفث الدم وقروح الفم .

طلح :

قال تعالى : ﴿ **وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] ، قال أكثر المفسرين : هو الموز ، والمنضود : هو الذى قد نضد بعضه على بعض ، كالمشط ، وقيل : الطلح : الشجر ذو الشوك ، نضد مكان كل شوكه ثمرة ، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض ، فهو مثل الموز ، وهذا القول أصح،ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص والله أعلم .

وهو حار رطب ، أجوده النضيج الحلو ، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال ، وقروح الكليتين ، والمثانة ، ويدر البول ، ويزيد فى المنى ، ويحرك الشهوة للجماع ، ويلين البطن ، ويؤكل قبل الطعام ، ويضر المعدة ، ويزيد فى الصفراء والبلغم ، ودفع

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى (٣ / ٣١ ، ٣٣) .

ضرره بالسكر أو العسل .

طلع :

قال تعالى : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠)﴾ [ق] وقال تعالى : ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) ﴾ [الشعراء] .

طلع النخل : ما يبدو من ثمرته فى أول ظهوره ، وقشره يسمى الكفرى ، والنضيد : المنضود الذى قد نضد بعضه على بعض ، وإنما يقال له : نضيد ما دام فى كفراه ، فإذا انفتح فليس بنضيد .

وأما الهضيم : فهو المنضم بعضه إلى بعض ، فهو كالنضيد أيضًا ، وذلك يكون قبل تشقق الكفرى عنه .

والطلع نوعان : ذكر وأنثى ، والتلقيح هو أن يؤخذ من الذكر ، وهو مثل دقيق الحنطة ، فيجعل فى الأنثى ، وهو التأبير ، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثى ، وقد روى مسلم فى « صحيحه » : عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، قال : مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل ، فرأى قومًا يلقحون ، فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى ، قال : « ما أظن ذلك يغنى شيئًا » ، فبلغهم ، فتركوه ، فلم يصلح ، فقال النبى ﷺ : « إنما هو ظن ، فإن كان يغنى شيئًا ، فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم عن الله عز وجل ، فلن أكذب على الله » (١) . انتهى .

طلع النخل ينفع من الباه ، ويزيد فى المباضعة ، ودقيق طلعه إذا تحملت به المرأة قبل الجماع أعان على الحبل إعانة بالغة ، وهو فى البرودة واليبوسة فى الدرجة الثانية ، يقوى المعدة ويجففها ، ويسكن ثائرة الدم مع غلظة وبطء هضم .

ولا يحتمله إلا أصحاب الأمزجة الحارة ، ومن أكثر منه فإنه ينبغى أن يأخذ عليه شيئًا من الجوارشات الحارة ، وهو يعقل الطبع ، ويقوى الأحشاء ،والجمار يجرى مجراه ، وكذلك البلح ، والبسر ، والإكثار منه يضر بالمعدة والصدر ، وربما أورث القولنج ، وإصلاحه بالسمن ، أو بما تقدم ذكره (٢) .

---

(١) مسلم (٢٣٦١ / ١٣٩) فى الفضائل ، باب : وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره النبى ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأى .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٣٦ ـ ٣٣٩) .

(حرف العين)

عنب :

فى « الغيلانيات » من حديث حبيب بن يسار ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ يأكل العنب خرطًا . قال أبو جعفر العقيلى : لا أصل لهذا الحديث، قلت : وفيه داود بن عبد الجبار أبو سليم الكوفى ، قال يحيى بن معين : كان يكذب .

ويذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب العنب والبطيخ .

وقد ذكر الله سبحانه العنب فى ستة مواضع من كتابه فى جملة نعمه التى أنعم بها على عباده فى هذه الدار وفى الجنة ، وهو من أفضل الفواكه وأكثرها منافع ، وهو يؤكل رطبًا ويابسًا ، وأخضر ويانعًا ، وهو فاكهة مع الفواكه ، وقوت مع الأقوات ، وأدم مع الإدام ،ودواء مع الأدوية،وشراب مع الأشربة ، وطبعه طبع الحبات : الحرارة والرطوبة ، وجيده الكبار المائى ، والأبيض أحمد من الأسود إذا تساويا فى الحلاوة ، والمتروك بعد قطفه يومين أو ثلاثة أحمد من المقطوف فى يومه ، فإنه منفخ مطلق للبطن ، والمعلق حتى يضمر قشره جيد للغذاء ، مقو للبدن ، وغذاؤه كغذاء التين والزبيب ، وإذا ألقى عجم العنب كان أكثر تليينًا للطبيعة ، والإكثار منه مصدع للرأس ، ودفع مضرته بالرمان المز .

ومنفعة العنب يسهل الطبع ، ويسمن ، ويغذو جيده غذاء حسنًا ، وهو أحد الفواكه الثلاث التى هى ملوك الفواكه ، هو والرطب والتين .

عسل :

قد تقدم ذكر منافعه (١) . قال ابن جريج : قال الزهرى : عليك بالعسل ، فإنه جيد للحفظ ، وأجوده أصفاه وأبيضه ، وألينه حدة ،وأصدقه حلاوة ، وما يؤخذ من الجبال والشجر له فضل على ما يؤخذ من الخلايا ، وهو بحسب مرعى نحله .

عجوة :

فى « الصحيحين » : من حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من تصبح بسبع تمرات عجوة ، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » (٢) .

---

(١) انظر : ص ١٦٥ .

(٢) البخارى (٥٤٤٥) فى الأطعمة ، باب : العجوة ، ومسلم (٢٠٤٧ / ١٥٤) فى الأشربة ، باب : فضل تمر المدينة .

وفى « سنن النسائى » وابن ماجه : من حديث جابر ، وأبى سعيد رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ: « العجوة من الجنة، وهى شفاء من السم، والكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين » (١) .

وقد قيل : إن هذا فى عجوة المدينة ، وهى أحد أصناف التمر بها ، ومن أنفع تمر الحجاز على الإطلاق ، وهو صنف كريم ، ملذذ ، متين للجسم والقوة ، من ألين التمر وأطيبه وألذه ، وقد تقدم ذكر التمر وطبعه ومنافعه فى حرف التاء ، والكلام على دفع العجوة للسم والسحر ، فلا حاجة لإعادته .

عنبر :

تقدم فى « الصحيحين » من حديث جابر ، فى قصة أبى عبيدة ، وأكلهم من العنبر شهرًا ، وأنهم تزودوا من لحمه وشائق إلى المدينة ، وأرسلوا منه إلى النبى ﷺ (٢) ، وهو أحد ما يدل على أن إباحة ما فى البحر لا يختص بالسمك ، وعلى أن ميتته حلال ، واعترض على ذلك بأن البحر ألقاه حيًا ، ثم جزر عنه الماء ، فمات ، وهذا حلال ، فإن موته بسبب مفارقته للماء ، وهذا لا يصح ، فإنهم إنما وجدوه ميتًا بالساحل ، ولم يشاهدوه قد خرج عنه حيًا ، ثم جزر عنه الماء .

وأيضًا : فلو كان حيًا لما ألقاه البحر إلى ساحله ، فإنه من المعلوم أن البحر إنما يقذف إلى ساحله الميت من حيواناته لا الحى منها .

وأيضًا : فلو قدر احتمال ما ذكروه لم يجز أن يكون شرطًا فى الإباحة ، فإنه لا يباح الشىء مع الشك فى سبب إباحته ، ولهذا منع النبى ﷺ من أكل الصيد إذا وجده الصائد غريقًا فى الماء للشك فى سبب موته ، هل هو الآلة أم الماء ؟وأما العنبر الذى هو أحد أنواع الطيب ، فهو من أفخر أنواعه بعد المسك ، و أخطأ من قدمه على المسك ، وجعله سيد أنواع الطيب ، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال فى المسك : « هو أطيب الطيب » (٣) ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر الخصائص والمنافع التي خص بها المسك ، حتى إنه طيب الجنة ، والكثبان التى هى مقاعد الصديقين هناك من مسك لا من عنبر . والذى غر هذا القائل أنه لا يدخله التغير على طول الزمان ، فهو كالذهب ،وهذا لا يدل على أنه أفضل من المسك،فإنه بهذه الخاصية الواحدة لا يقاوم ما فى المسك من الخواص.

---

(١) النسائى فى الكبرى (٦٦٧٦ ، ٦٦٧٧) فى الأطعمة ، باب : الكمأة ،وابن ماجه (٣٤٥٣) فى الطب ، باب : الكمأة والعجوة .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٥ .

(٣) مسلم (٢٢٥٢ / ١٩) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .

وبعد فضروبه كثيرة وألوانه مختلفة ، فمنه الأبيض ، والأشهب ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والأسود ، وذو الألوان . وأجوده : الأشهب ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر ، وأردؤه : الأسود وقد اختلف الناس فى عنصره ، فقالت طائفة : هو نبات ينبت فى قعر البحر ، ، فيبتلعه بعض دوابه ، فإذا ثملت منه قذفته رجيعًا ، فيقذفه البحر إلى ساحله ، وقيل : طل ينزل من السماء فى جزائر البحر ، فتلقيه الأمواج إلى الساحل ، وقيل : روث دابة بحرية تشبه البقرة . وقيل: بل هو جفاء من جفاء البحر ، أى : زبد .

وقال صاحب « القانون » : هو فيما يظن ينبع من عين فى البحر ، والذى يقال : إنه زبد البحر ، أو روث دابة بعيد ، انتهى .

ومزاجه حار يابس ، مقو للقلب ،والدماغ ، والحواس ، وأعضاء البدن نافع من الفالج ، واللقوة ، والأمراض البلغمية ، وأوجاع المعدة الباردة ، والرياح الغليظة ، ومن السدد إذا شرب ، أو طلى به من خارج ، وإذا تبخر به ، نفع من الزكام والصداع ، والشقيقة الباردة .

عود:

العود الهندى نوعان ، أحدهما : يستعمل فى الأدوية وهو الكست ، ويقال له : القسط ، وسيأتى فى حرف القاف . الثانى : يستعمل فى الطيب ، ويقال له : الألوة ، وقد روى مسلم فى « صحيحه »: عن ابن عمر رضي الله عنهما ،أنه كان يستجمر بالألوة غير مطراة ، وبكافور يطرح معها ، ويقول : هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ [١] ، وثبت عنه فى صفة نعيم أهل الجنة « مجامرهم الألوة [٢] والمجامر : جمع مجمر وهو ما يتجمر به من عود وغيره ، وهو أنواع . أجودها : الهندى ، ثم الصينى ، ثم القمارى ، ثم المندلى ، وأجوده: الأسود والأزرق الصلب الرزين الدسم ، وأقله جودة : ما خف وطفا على الماء ، ويقال : إنه شجر يقطع ويدفن فى الأرض سنة ، فتأكل الأرض منه ما لا ينفع ، ويبقى عود الطيب ، لا تعمل فيه الأرض شيئًا ، ويتعفن منه قشره وما لا طيب فيه .

وهو حار يابس فى الثالثة ، يفتح السدد ، ويكسر الرياح ، ويذهب بفضل الرطوبة ، ويقوى الأحشاء والقلب ويفرحه ، وينفع الدماغ ، ويقوى الحواس ، ويحبس البطن ،

(١) مسلم (٢٢٥٤ / ٢١) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .

(٢) البخارى (٣٣٢٧) فى الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٨٣٤/ ١٤) فى الجنة ،صفة نعيمها وأهلها ، باب : أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، وصفاتهم وأزواجهم .

وينفع من سلس البول الحادث عن برد المثانة .

قال ابن سمجون : العود ضروب كثيرة يجمعها اسم الألوة ، ويستعمل من داخل وخارج ، ويتجمر به مفردًا ومع غيره ، وفى الخلط للكافور به عند التجمير معنى طبى ، وهو إصلاح كل منهما بالآخر ، وفى التجمر مراعاة جوهر الهواء وإصلاحه ، فإنه أحد الأشياء الستة الضرورية التى فى صلاحها صلاح الأبدان .

عدس :

قد ورد فيه أحاديث كلها باطلة على رسول الله ﷺ ، لم يقل شيئًا منها ، كحديث : « إنه قدس على لسان سبعين نبيًا » وحديث « إنه يرق القلب ، ويغزر الدمعة ، وإنه مأكول الصالحين » ، وأرفع شىء جاء فيه ، وأصحه أنه شهوة اليهود التى قدموها على المن والسلوى ، وهو قرين الثوم والبصل فى الذكر .

وطبعه طبع المؤنث ، بارد يابس ، وفيه قوتان متضادتان . إحداهما : يعقل الطبيعة ، والأخرى : يطلقها وقشره حر يابس فى الثالثة ، حريف مطلق للبطن ، وترياقه فى قشره ، ولهذا كان صحاحه أنفع من مطحونه ، وأخف على المعدة ، وأقل ضررًا ، فإن لبه بطىء الهضم لبرودته ويبوسته ، وهو مولد للسوداء ، ويضر بالماليخوليا ضررًا بينًا ، ويضر بالأعصاب والبصر .

وهو غليظ الدم ، وينبغى أن يتجنبه أصحاب السوداء ، وإكثارهم منه يولد لهم أدواء رديئة ، كالوسواس والجذام ، وحمى الربع ، ويقلل ضرره السلق والإسفاناخ ، وإكثار الدهن ، وأردأ ما أكل بالنمكسود وليتجنب خلط الحلاوة به ، فإنه يورث سددًا كبدية ، وإدمانه يظلم البصر لشدة تجفيفه ، ويعسر البول ، ويوجب الأورام الباردة ، والرياح الغليظة وأجوده الأبيض السمين ، السريع النضج .

وأما ما يظنه الجهال أنه كان سماط الخليل الذى يقدمه لأضيافه ، فكذب مفترى ، وإنما حكى الله عنه الضيافة بالشواء ، وهو العجل الحنيذ .

وذكر البيهقى ،عن إسحاق قال :سئل ابن المبارك عن الحديث الذى جاء فى العدس ، أنه قدس على لسان سبعين نبيًا ، فقال : ولا على لسان نبى واحد ، وإنه لمؤذ منفخ ، من حدثكم به ؟ قالوا: سلم بن سالم ،فقال: عمن ؟ قالوا: عنك . قال: وعنى أيضًا ؟! (١).

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٣٩ ـ ٣٤٥) .

(حرف الغين)

غيث :

مذكور فى القرآن فى عدة مواضع ، وهو لذيذ الاسم على السمع ، والمسمى على الروح والبدن ، تبتهج الأسماع بذكره ، والقلوب بوروده ، وماؤه أفضل المياه ، وألطفها وأنفعها وأعظمها بركة ،ولاسيما إذا كان من سحاب راعد ،واجتمع فى مستنقعات الجبال ، وهو أرطب من سائر المياه ، لأنه لم تطل مدته على الأرض ، فيكتسب من يبوستها ،ولم يخالطه جوهر يابس ، ولذلك يتغير ويتعفن سريعًا للطافته وسرعة انفعاله ، وهل الغيث الربيعى ألطف من الشتوى أو بالعكس فيه قولان .

قال من رجح الغيث الشتوى : حرارة الشمس تكون حينئذ أقل ، فلا تجتذب من ماء البحر إلا ألطفه ، والجو صاف وهو خال من الأبخرة الدخانية ، والغبار المخال للماء ، وكل هذا يوجب لطفه وصفاءه ، وخلوه من مخالط .

قال من رجح الربيعى : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة ، وتوجب رقة الهواء ولطافته ، فيخف بذلك الماء ، وتقل أجزاؤه الأرضية ، وتصادف وقت حياة النبات والأشجار وطيب الهواء .

وذكر الشافعى رحمه الله عن أنس بن مالك ﷺ ، قال:كنا مع رسول الله ﷺ ، فأصابنا مطر ، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه ، وقال : « إنه حديث عهد بربه » [١] [٢] .

(حرف الفاء)

فاتحة الكتاب :

وأم القرآن ، والسبع المثانى ، والشفاء التام ، والدواء النافع ، والرقية التامة ، ومفتاح الغنى والفلاح ، وحافة القوة ، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها ،وأحسن تنزيلها على دائه ، وعرف وجه الاستشفاء والتداوى بها ، والسر الذى لأجله كانت كذلك ولما وقع بعض الصحابة على ذلك ، رقى بها اللديغ ، فبرأ

---

(١) مسلم (٨٩٨ / ١٣) فى صلاة الاستسقاء ، باب : الدعاء فى الاستسقاء .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٤٦) .

لوقته ، فقال له النبى ﷺ : « وما أدراك أنها رقية » (١) .

ومن ساعده التوفيق ، وأعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة ، وما اشتملت عليه من التوحيد ، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال ، وإثبات الشرع والقدر والمعاد ، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية ، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، والافتقار إليه فى طلب الهداية التى هى أصل سعادة الدارين ، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما ، ودفع مفاسدهما ، وأن العاقبة المطلقة التامة ، والنعمة الكاملة منوطة بها ، موقوفة على التحقيق بها ، أغنته عن كير من الأدوية والرقى ، واستفتح بها من الخير أبوابه ، ودفع بها من الشر أسبابه .

وهذا أمر يحتاج استحداث فطرة أخرى ، وعقل آخر ، وإيمان آخر ، وتالله لا تجد مقالة فاسدة ، ولا بدعة باطلة إلا وفاتحة الكتاب متضمنه لردها وإبطالها بأقرب الطرق ، وأصحها وأوضحها ، ولا تجد بابًا من أبواب المعارف الإلهية ، وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلا وفى فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدلالة عليه ، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى رب العالمين إلا وبدايته ونهايته فيها .

ولعمر الله إن شأنها لأعظم من ذلك ، وهى فوق ذلك . وما تحقق عبد بها ، واعتصم بها ، وعقل عمن تكلم بها ، وأنزلها شفاء تامًا ، وعصمة بالغة ، ونوراً مبينًا ، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغى ووقع فى بدعة ولا شرك ، ولا أصابه مرض من أمراض القلوب إلا لمامًا ، غير مستقر .

هذا ، وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض ، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة ، ولكن ليس كل واحد يحسن الفتح بهذا المفتاح ، ولو أن طلاب الكنوز وقفوا على سر هذه السورة ، وتحققوا بمعانيها ، وركبوا لهذا المفتاح أسنانًا ، وأحسنوا الفتح به ، لوصلوا إلى تناول الكنوز من غير معاوق ، ولا ممانع .

ولم نقل هذا مجازفة ولا استعارة، بل حقيقة ، ولكن لله تعالى حكمة بالغة فى إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين ، كما له حكمة بالغة فى إخفاء كنوز الأرض عنهم ، والكنوز المحجوبة قد استخدم عليها أرواح خبيثة شيطانية تحول بين الإنس وبينها ، ولا تقهرها إلا أرواح علوية شريفة غالبة لها بحالها الإيمانى ، معها منه أسلحة لا تقوم لها الشياطين ، وأكثر نفوس الناس ليست بهذه المثابة ، فلا يقاوم تلك الأرواح ولا يقهرها ،

(١) البخارى (٥٧٢٦) فى الطب ، باب : الرقى بفاتحة الكتاب .

ولا ينال من سلبها شيئًا ، فإن من قتل قتيلاً فله سلبه .

فاغية :

هو نور الحناء ، وهى من أطيب الرياحين ،وقد روى البيهقى فى كتابه « شعب الإيمان » من حديث عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ﷺ يرفعه : « سيد الرياحين فى الدنيا والآخرة الفاغية » [١] وروى فيه أيضًا ، عن أنس بن مالك ﷺ قال : « كان أحب الرياحين إلى رسول الله ﷺ الفاغية » [٢] . والله أعلم بحال هذين الحديثين ، فلا نشهد على رسول الله ﷺ بما لا نعلم صحته .

وهى معتدلة فى الحر واليبس ، فيها بعض القبض ، وإذا وضعت بين طى ثياب الصوف حفظتها من السوس ،وتدخل فى مراهم الفالج والتمدد ، ودهنها يحلل الأعضاء ، ويلين العصب .

فضة :

ثبت أن رسول الله ﷺ كان خاتمه من فضة ، وفصه منه [٣] ، وكانت قبيعة سيفه فضة [٤] ، ولم يصح عنه فى المنع من لباس الفضة والتحلى بها شىء البتة ، كما صح عنه المنع من الشرب فى آنيتها ، وباب الآنية أضيق من باب اللباس والتحلى ، ولهذا يباح للنساء لباسًا ، وحلية ما يحرم عليهن استعماله آنية ، فلا يلزم من تحريم الآنية تحريم اللباس والحلية .

وفى « السنن » عنه :« وأما الفضة فالعبوا بها لعبًا » [٥] . فالمنع يحتاج إلى دليل يبينه ، إما نص أو إجماع،فإن ثبت أحدهما ، وإلا ففى القلب من تحريم ذلك على الرجال شىء ، والنبى ﷺ أمسك بيده ذهبًا ، وبالأخرى حريرًا ، وقال : « هذان حرام على ذكور أمتى ، حل لإناثهم » [٦] .

والفضة سر من أسرار الله فى الأرض،وطلسم الحاجات ،وإحسان أهل الدنيا بينهم ، وصاحبها مرموق بالعيون بينهم ، معظم فى النفوس ، مصدر فى المجالس ، لا تغلق دونه الأبواب ، ولا تمل مجالسته ، ولا معاشرته ، ولا يستثقل مكانه ، تشير الأصابع إليه ،

---

(١) البيهقى فى شعب الإيمان (٦٠٧٦) . (٢) البيهقى فى شعب الإيمان (٦٠٧٤) .

(٣) البخارى (٥٨٧٠) فى اللباس ، باب : فص الخاتم .

(٤) أبو داود (٢٥٨٣) فى الجهاد ، باب : فى السيف يحلى ، والترمذى (١٦٩١) فى الجهاد ، باب : ما جاء فى السيوف وحليتها .

(٥) أبو داود (٤٢٣٦) فى الفتن والملاحم ، باب : ما جاء فى الذهب للنساء ، وأحمد (٢ / ٣٣٤) .

(٦) الترمذى (١٧٢٠) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الحرير والذهب ، وقال « حسن صحيح » ، والنسائى (٥١٤٨) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال ، وأحمد (٤ / ٣٩٢ ، ٣٩٣) .

وتعقد العيون نطاقها عليه ،إن قال سمع قوله ، وإن شفع قبلت شفاعته ، وإن شهد زكيت شهادته ، وإن خطب فكفء لا يعاب ، وإن كان ذا شيبة بيضاء فهى أجمل عليه من حلة الشباب .

وهى من الأدوية المفرحة النافعة من الهم والغم والحزن ، وضعف القلب وخفقانه ، وتدخل فى المعاجين الكبار ، وتجتذب بخاصيتها ما يتولد فى القلب من الأخلاط الفاسدة ، خصوصًا إذا أضيفت إلى العسل المصفى والزعفران .

ومزاجها إلى اليبوسة والبرودة ، ويتولد عنها من الحرارة والرطوبة ما يتولد ، والجنان التى أعدها الله عز وجل لأوليائه يوم يلقونه أربع : جنتان من ذهب ، وجنتان من فضة ، آنيتهما وحليتهما وما فيهما . وقد ثبت عنه ﷺ فى « الصحيح » من حديث أم سلمة أنه قال: « الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » (١) .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافهما ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » (٢) .

فقيل : علة التحريم تضييق النقود ، فإنها إذا اتخذت أوانى فاتت الحكمة التى وضعت لأجلها من قيام مصالح بنى آدم ، وقيل : العلة الفخر والخيلاء ، وقيل : العلة كسر قلوب الفقراء والمساكين إذا رأوها وعاينوها .

وهذه العلل فيها ما فيها ، فإن التعليل بتضييق النقود يمنع من التحلى بها وجعلها سبائك ونحوها مما ليس بآنية ولا نقد ، والفخر والخيلاء حرام بأى شىء كان ، وكسر قلوب المساكين لا ضابط له ، فإن قلوبهم تنكسر بالدور الواسعة ، والحدائق المعجبة ، والمراكب الفارهة ، والملابس الفاخرة ، والأطعمة اللذيذة ، وغير ذلك من المباحات ، وكل هذه علل منتقضة ، إذ توجد العلة ، ويتخلف معلولها .

فالصواب أن العلة ـ والله أعلم ـ ما يكسب استعمالها القلب من الهيئة ، والحالة المنافية للعبودية منافاة ظاهرة ، ولهذا علل النبى ﷺ بأنها للكفار فى الدنيا ، إذ ليس لهم نصيب من العبودية التى ينالون بها فى الآخرة نعيمها ، فلا يصلح استعمالها لعبيد الله فى الدنيا ، وإنما يستعملها من خرج عن عبوديته ، ورضى بالدنيا وعاجلها من الآخرة (٣) .

---

(١) البخارى (٥٦٣٤) فى الأشربة ، باب : آنية الفضة ، ومسلم (٢٠٦٥ / ١) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة .

(٢) البخارى (٥٦٣٣) فى الأشربة ، باب : آنية الفضة ، ومسلم (٢٠٦٧ / ٤) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم استعمال إناء الذهب والفضة .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٣٤٧ ـ ٣٥١) .

(حرف القاف)

قرآن :

قال الله تعالى : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، والصحيح : أن « من » هاهنا ، لبيان الجنس لا للتبعيض ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ** ﴾ [يونس : ٥٧] .

فالقرآن هو شفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية ، وأدواء الدنيا والآخرة ، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به ، وإذا أحسن العليل التداوى به ، ووضعه على دائه بصدق وإيمان ، وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه ، لم يقاومه الداء أبدًا .

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذى لو نزل على الجبال ، لصدعها ، أو على الأرض ، لقطعها ، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفى القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه ، والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا فى كتابه ، وقد تقدم فى أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التى هى حفظ الصحة والحمية ، واستفراغ المؤذى ، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع .

وأما الأدوية القلبية ، فإنه يذكرها مفصلة ، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها . قال : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ [العنكبوت : ٥١] ، فمن لم يشفه القرآن ، فلا شفاه الله ، ومن لم يكفه ، فلا كفاه الله .

قثاء :

فى « السنن » : من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يأكل القثاء بالرطب ، ورواه الترمذى وغيره [١] .

القثاء بارد رطب فى الدرجة الثانية ،مطفئ لحرارة المعدة الملتهبة ، بطىء الفساد فيها ، نافع من وجع المثانة ، ورائحته تنفع من الغشى ، وبزره يدر البول ، وورقه إذا اتخذ ضمادًا ، نفع من عضة الكلب ، وهو بطىء الانحدار عن المعدة ، وبرده مضر ببعضها ، فينبغى أن يستعمل معه ما يصلحه ويكسر برودته ورطوبته ، كما فعل رسول الله ﷺ إذ

---

(١) أبو داود (٣٨٣٥) فى الأطعمة ،باب:فى الجمع بين لونين فى الأكل ، والترمذى (١٨٤٤) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل القثاء بالرطب ، وابن ماجه (٣٣٢٥) فى الأطعمة ، باب : القثاء والرطب يجمعان .

أكله بالرطب ، فإذا أكل بتمر أو زبيب أو عسل عدله .

قسط وكست :

بمعنى واحد . وفى « الصحيحين » : من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ « خير ما تداويتم به الحجامة والقسط البحرى » (١) .

وفى « المسند » : من حديث أم قيس ، عن النبى ﷺ : « عليك بهذا العود الهندى ، فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب » (٢) .

القسط : نوعان . أحدهما : الأبيض الذى يقال له : البحرى . والآخر : الهندى ، وهو أشدهما حرًا ، والأبيض ألينهما ، ومنافعهما كثيرة جدًا .

وهما حاران يابسان فى الثالثة ، ينشفان البلغم ، قاطعان للزكام ، وإذا شربا ، نفعا من ضعف الكبد والمعدة ومن بردهما ، ومن حمى الدور والربع ، وقطعا وجع الجنب ، ونفعا من السموم ، وإذا طلى به الوجة معجونًا بالماء والعسل ، قلع الكلف . وقال جالينوس : ينفع من الكزاز ، ووجع الجنبين ، ويقتل حب القرع .

وقد خفى على جهال الأطباء نفعه من وجع ذات الجنب ، فأنكروه ، ولو ظفر هذا الجاهل بهذا النقل عن جالينوس لنزله منزلة النص ، كيف وقد نص كثير من الأطباء المتقدمين على أن القسط يصلح للنوع البلغمى من ذات الجنب ، ذكره الخطابى عن محمد ابن الجهم .

وقد تقدم (٣) أن طب الأطباء بالنسبة إلى طب الأنبياء أقل من نسبة طب الطرقية والعجائز إلى طب الأطباء ، وأن بين ما يلقى بالوحى ، وبين ما يلقى بالتجربة ، والقياس من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق .

ولو أن هؤلاء الجهال وجدوا دواء منصوصًا عن بعض اليهود والنصارى والمشركين من الأطباء ، لتلقوه بالقبول والتسليم ، ولم يتوقفوا على تجربته .

نعم نحن لا ننكر أن للعادة تأثيرًا فى الانتفاع بالدواء وعدمه،فمن اعتاد دواء وغذاء ، كان أنفع له ، وأوفق ممن لم يعتده ، بل ربما لم ينتفع به من لم يعتده .

وكلام فضلاء الأطباء وإن كان مطلقًا ، فهو بحسب الأمزجة والأزمنة ، والأماكن والعوائد ، وإذا كان التقييد بذلك لا يقدح فى كلامهم ومعارفهم ، فكيف يقدح فى كلام

---

(١) البخارى (٥٦٩٦) فى الطب ، باب : الحجامة من الداء ، وأحمد (٣ / ١٠٧) .

(٢) البخارى (٥٦٩٢) فى الطب ، باب : السعوط بالقسط الهندى والبحرى ، وأحمد (٦ / ٣٥٦) .

(٣) انظر : ص ١٦٩ .

الصادق المصدوق ، ولكن نفوس البشر مركبة على الجهل والظلم ، إلا من أيده الله بروح الإيمان ، ونور بصيرته بنور الهدى .

قصب السكر :

جاء فى بعض ألفاظ السنة الصحيحة فى الحوض « ماؤه ، أحلى من السكر » (١) ، ولا أعرف السكر فى الحديث إلا فى هذا الموضع .

والسكر حادث لم يتكلم فيه متقدمو الأطباء ، ولا كانوا يعرفونه ، ولا يصفونه فى الأشربة ، وإنما يعرفون العسل ، ويدخلونه فى الأدوية ، وقصب السكر حار رطب ينفع من السعال ، ويجلو الرطوبة والمثانة ، وقصبة الرئة ، وهو أشد تليينًا من السكر ، وفيه معونة على القىء ، ويدر البول ، ويزيد فى الباه ، قال عفان بن مسلم الصفار ، من مص قصب السكر بعد طعامه ، لم يزل يومه أجمع فى سرور ، انتهى . وهو ينفع من خشونة الصدر والحلق إذا شوى ، ويولد رياحًا دفعها بأن يقشر ، ويغسل بماء حار ، والسكر حار رطب على الأصح ، وقيل : بارد ، وأجوده : الأبيض الشفاف الطبرزد ، وعتيقه ألطف من جديده ، وإذا طبخ ونزعت رغوته ، سكن العطش والسعال ، وهو يضر المعدة التى تولد فيها الصفراء لاستحالته إليه ، ودفع ضرره بماء الليمون أو النارنج ، أو الرمان اللفان .

وبعض الناس يفضله على العسل لقلة حرارته ولينه ، وهذا تحامل منه على العسل ، فإن منافع العسل أضعاف منافع السكر ، وقد جعله الله شفاء ودواء ، وإدامًا وحلاوة ، وأين نفع السكر من العسل : من تقوية المعدة ، وتليين الطبع ، وإحداد البصر ، وجلاء ظلمته ، ودفع الخوانيق بالغرغرة به ، وإبرائه من الفالج واللقوة ، ومن جميع العلل الباردة التى تحدث فى جميع البدن من الرطوبات ، فيجذبها من قعر البدن ، ومن جميع البدن ، وحفظ صحته وتسمينه وتسخينه ،و الزيادة فى الباه ، والتحليل والجلاء ، وفتح أفواه العروق ، وتنقية المعى و إحدار الدود ، ومنع التخم وغيره من العفن ، والأدم النافع ، وموافقة من غلب عليه البلغم والمشايخ وأهل الأمزجة الباردة ، وبالجملة : فلا شىء أنفع منه للبدن ، وفى العلاج وعجز الأدوية ، وحفظ قواها ، وتقوية المعدة إلى أضعاف هذه المنافع ، فأين للسكر مثل هذه المنافع والخصائص أو قريب منها ؟ (٢) .

---

(١) مسلم (٢٤٧ / ٣٦) فى الطهارة ، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء ، بلفظ : « وأحلى من العسل باللبن » .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٥٢ ـ ٣٥٦) .

(حرف الكاف)

كتاب للحمى :

قال المروزى : بلغ أبا عبد الله أنى حممت ، فكتب لى من الحمى رقعة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله ، وبالله ، محمد رسول الله ، قلنا : يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وأرادوا به كيدًا ، فجعلناهم الأخسرين ، اللهم رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك ، إله الحق آمين .

قال المروزى : وقرأ على أبى عبد الله ـ وأنا أسمع ـ أبو المنذر عمرو بن مجمع ، حدثنا يونس بن حبان ، قال : سألت أبا جعفر محمد بن على أن أعلق التعويذ ، فقال : إن كان من كتاب الله أو كلام عن نبى الله فعلقه واسشف به ما استطعت . قلت : أكتب هذه من حمى الربع : باسم الله ، وبالله ، ومحمد رسول الله إلى آخره ؟ قال : أى نعم .

وذكر أحمد عن عائشة ﷺ وغيرها ، أنهم سهلوا فى ذلك .

قال حرب : ولم يشدد فيه أحمد بن حنبل . قال أحمد : وكان ابن مسعود يكرهه كراهة شديدة جدًا . وقال أحمد وقد سئل عن التمائم تعلق بعد نزول البلاء ؟ قال : أرجو أن لا يكون به بأس .

قال الخلال : وحدثنا عبد الله بن أحمد ، قال : رأيت أبى يكتب التعويذ للذى يفزع ، وللحمى بعد وقوع البلاء .

كتاب لعسر الولادة :

قال الخلال : حدثنى عبد الله بن أحمد ، قال : رأيت أبى يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها فى جام أبيض ، أو شىء نظيف ، يكتب حديث ابن عباس ﷺ : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين : ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ** ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** (٤٦) ﴾ [النازعات : ٤٦] .

قال الخلال : أنبأنا أبو بكر المروزى ، أن أبا عبد الله جاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، تكتب لامرأة قد عسر عليها ولدها منذ يومين ؟ فقال : قل له : يجىء بجام واسع ، وزعفران ، ورأيته يكتب لغير واحد . ويذكر عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : مر عيسى

صلى الله على نبينا وعليه وسلم على بقرة قد اعترض ولدها فى بطنها ، فقالت : يا كلمة الله ، ادع الله لى أن يخلصنى مما أنا فيه ، فقال : يا خالق النفس من النفس ، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس ، خلصها . قال : فرمت بولدها ، فإذا هى قائمة تشمه . قال : فإذا عسر على المرأة ولدها ، فاكتبه لها . وكل ما تقدم من الرقى ، فإن كتابته نافعة .

ورخص جماعة من السلف فى كتابة بعض القرآن وشربه ، وجعل ذلك من الشفاء الذى جعل الله فيه .

كتاب آخر لذلك : يكتب فى إناء نظيف : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)** ﴾ [الانشقاق] ،وتشرب منه الحامل ، ويرش على بطنها .

كتاب للرعاف :

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يكتب على جبهته : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ [هود : ٤٤] . وسمعته يقول : كتبتها لغير واحد فبرأ ، فقال : ولا يجوز كتابتها بدم الراعف كما يفعله الجهال ؛ فإن الدم نجس ، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله تعالى .

كتاب آخر له : خرج موسى عليه السلام برداء ، فوجد شَعيبًا ، فشده بردائه : ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)** ﴾ [الرعد] .

كتاب آخر للحزاز.

يكتب عليه : ﴿ **فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ** ﴾ [البقرة : ٢٦٦] بحول الله وقوته .

كتاب آخر له : عند اصفرار الشمس يكتب عليه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)** ﴾ [الحديد : ٢٨]

كتاب آخر للحمى المثلثة :

يكتب على ثلاث ورقات لطاف : بسم الله فرت ، بسم الله مرت ، بسم الله قلت ، ويأخذ كل يوم ورقة ، ويجعلها فى فمه ، ويبتلعها بماء .

كتاب آخر لعرق النسا :

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء ، ومليك كل شيء ، وخالق كل شيء، أنت خلقتنى ، وأنت خلقت النسا ، فلا تسلطه على بأذى ، ولا تسلطنى عليه بقطع ، واشفنى شفاء لا يغادر سقمًا ، لا شافى إلا أنت .

كتاب للعرق الضارب :

روى الترمذى فى « جامعه » : من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الحمى ، ومن الأوجاع كلها أن يقولوا : « بسم الله الكبير ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار » (١) .

كتاب لوجع الضرس :

يكتب على الخد الذى يلى الوجع : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣)** ﴾ [الملك] ، وإن شاء كتب : ﴿ **وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)** ﴾ [الأنعام] .

كتاب للخراج :

يكتب عليه : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)** ﴾ [طه] .

كمأة :

ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين » ، أخرجاه فى « الصحيحين » (٢) .

قال ابن الأعرابى: « الكمأة »: جمع ، واحده « كمء » . وهذا خلاف قياس العربية ، فإن ما بينه وبين واحده التاء ، فالواحد منه بالتاء ، وإذا حذفت كان للجمع ، وهل هو جمع ، أو اسم جمع ؟ على قولين مشهورين ، قالوا : ولم يخرج عن هذا إلا حرفان : كمأة وكمء ، وجبأة وجبء، وقال غير ابن الأعرابى: بل هى على القياس ، « الكمأة »

---

(١) الترمذى (٢٠٧٥) فى الطب ، باب : (٢٦) ، وقال : « غريب ، لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن إسماعيل ابن أبى حبيبة ، وإبراهيم يضعف فى الحديث » .

(٢) البخارى (٥٧٠٨) فى الطب ، باب : المن شفاء للعين ، ومسلم (٢٠٤٩ / ١٥٧) فى الأشربة ، باب : فضل الكمأة .

للواحد ، « والكمء » للكثير ، وقال غيرهما : « الكمأة » تكون واحدًا وجمعًا .

واحتج أصحاب القول الأول بأنهم قد جمعوا كمئًا على أكمؤ ، قال الشاعر :

ولقد جنيتك أكمؤًا وعساقلاً ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

وهذا يدل على أن « كمء » مفرد ، « وكمأة » جمع .

والكمأة تكون فى الأرض من غير أن تزرع ، وسميت كمأة لاستتارها ، ومنه كمأ الشهادة : إذا سترها وأخفاها ، والكمأة مخفية تحت الأرض ، لا ورق لها ولا ساق ، ومادتها من جوهر أرضى بخارى محتقن فى الأرض نحو سطحها ، يحتقن ببرد الشتاء ، وتنميه أمطار الربيع ، فيتولد ويندفع نحو سطح الأرض متجسداً ؛ ولذلك يقال لها : جدرى الأرض ، تشبيهًا بالجدرى فى صورته ومادته ؛ لأن مادته رطوبة دموية ، فتندفع عند سن الترعرع فى الغالب ، وفى ابتداء استيلاء الحرارة ونماء القوة .

وهى مما يوجد فى الربيع ، ويؤكل نيئًا ومطبوخًا ، وتسميها العرب : نبات الرعد ؛ لأنها تكثر بكثرته ، وتنفطر عنها الأرض ،وهى من أطعمة أهل البوادى ، وتكثر بأرض العرب ، وأجودها ما كانت أرضها رملية قليلة الماء .

وهى أصناف: منها صنف قتال يضرب لونه إلى الحمرة يحدث الاختناق .

وهى باردة ورطبة فى الدرجة الثالثة ، رديئة للمعدة ، بطيئة الهضم ، وإذا أدمنت أورثت القولنج والسكتة والفالج ، ووجع المعدة ، وعسر البول ، والرطبة أقل ضرراً من اليابسة ، ومن أكلها فليدفنها فى الطين الرطب ، ويسلقها بالماء والملح والصعتر ، ويأكلها بالزيت والتوابل الحارة ، لأن جوهرها أرضى غليظ ، وغذاؤها ردىء ، لكن فيها جوهر مائى لطيف يدل على خفتها ، والاكتحال بها نافع من ظلمة البصر والرمد الحار ، وقد اعترف فضلاء الأطباء بأن ماءها يجلو العين ، وممن ذكره المسيحى ، وصاحب القانون وغيرهما .

وقوله ﷺ : « الكمأة من المن » ، فيه قولان :

أحدهما : أن المن الذى أنزل على بنى إسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط ، بل أشياء كثيرة منَّ الله عليهم بها من النبات الذى يوجد عفواً من غير صنعة ولا علاج ولا حرث ، فإن « المنَّ » مصدر بمعنى المفعول ، أى : « ممنون » به ، فكل ما رزقه الله العبد عفواً بغير كسب منه ولا علاج فهو مَنٌّ محض ، وإن كانت سائر نعمه منًا منه على عبده ، فخص منها ما لا كسب له فيه ولا صنع باسم المن ، فإنه « منٌّ » بلا واسطة العبد ، وجعل

سبحانه قوتهم بالتيه الكمأة ، وهى تقوم مقام الخبز ، وجعل أدمهم السلوى ، وهو يقوم مقام اللحم ، وجعل حلواهم الطل الذى ينزل على الأشجار يقوم لهم مقام الحلوى ، فكمل عيشهم .

وتأمل قوله ﷺ : « الكمأة من المن الذى أنزله الله على بنى إسرائيل » ، فجعلها من جملته ، وفردًا من أفراده ، والترنجبين الذى يسقط على الأشجار نوع من المن ، ثم غلب استعمال المن عليه عرفًا حادثًا .

والقول الثانى : أنه شبَّه الكمأة بالمن المنزل من السماء ؛ لأنه يجمع من غير تعب ولا كلفة ولا زرع بزر ولا سقى .

فإن قلت : فإن كان هذا شأن الكمأة،فما بال هذا الضرر فيها ، ومن أين أتاها ذلك ؟ فاعلم أن الله سبحانه أتقن كل شىء صنعه ، وأحسن كل شىء خلقه ، فهو عند مبدأ خلقه برىء من الآفات والعلل ، تام المنفعة لما هيئ وخلق له ، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور أخر من مجاورة ، أو امتزاج واختلاط ، أو أسباب أخر تقتضى فساده ، فلو ترك على خلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به لم يفسد .

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد؛فى جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه ، ولم تزل أعمال بنى آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام ، والأمراض ، والأسقام ، والطواعين ، والقحوط ، والجدوب ، وسلب بركات الأرض ، وثمارها ، ونباتها ، وسلب منافعها أو نقصانها ،أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضًا ، فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾ [الروم : ٤١] ونزِّل هذه الآية على أحوال العالم ، وطابق بين الواقع وبينها ، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت فى الثمار والزرع والحيوان ، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا ، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل فى أغذيتهم وفواكههم ، وأهويتهم ومياههم ، وأبدانهم وخلقهم ، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم .

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هى اليوم،كما كانت البركة فيها أعظم ، وقد روى الإمام أحمد بإسناده : أنه وجد فى خزائن بعض بنى أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها : هذا كان ينبت أيام العدل ، وهذه القصة ذكرها فى « مسنده » على أثر حديث رواه .

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم ،حكمًا قسطًا ، وقضاء عدلاً ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله فى الطاعون:« إنه بقية رجز ـ أو عذاب ـ أرسل على بنى إسرائيل » .

وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليالٍ وثمانية أيام ، ثم أبقى فى العالم منها بقية فى تلك الأيام ، وفى نظيرها عظة وعبرة .

وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها فى هذا العالم اقتضاء لابد منه ، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء ، والقحط والجدب ، وجعل ظلم المساكين ، والبخس فى المكاييل والموازين ، وتعدى القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ، ولا يعطفون إن استعطفوا ، وهم فى الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت فى صور ولاتهم ، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم فى قوالب وصور تناسبها ، فتارة بقحط وجدب ، وتارة بعدو ، وتارة بولاة جائرين ، وتارة بأمراض عامة ، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها ، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنها ، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًا ، لتحق عليهم الكلمة ، وليصير كل منهم إلى ما خلق له ، والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده ، وينظر مواقع عدل الله وحكمته ، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة ، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون،وإلى دار البوار صائرون ، والله بالغ أمره ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، وبالله التوفيق .

وقوله ﷺ فى الكمأة : « وماؤها شفاء للعين » ، فيه ثلاث أقوال :

أحدها : أن ماءها يخلط فى الأدوية التى يعالج بها العين ، لا أنه يستعمل وحده . ذكره أبو عبيد .

الثانى : أنه يستعمل بحتًا بعد شيها ، واستقطار مائها ؛ لأن النار تلطفه وتنضجه ، وتذيب فضلاته ورطوبته المؤذية ، وتبقى المنافع .

الثالث :أن المراد بمائها الماء الذى يحدث به من المطر،وهو أول قطر ينزل إلى الأرض ، فتكون الإضافة إضافة اقتران ، لا إضافة جزء . ذكره ابن الجوزى ، وهو أبعد الوجوه وأضعفها .

وقيل : إن استعمل ماؤها لتبريد ما فى العين ، فماؤها مجردًا شفاء ، وإن كان لغير

ذلك ، فمركب مع غيره .

وقال الغافقى : ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عجن به الإثمد واكتحل به ، ويقوى أجفانها ، ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة ، ويدفع عنها نزول النوازل .

كباث :

فى « الصحيحين » : من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ نجنى الكباث ، فقال : « عليكم بالأسود منه ، فإنه أطيبه » (١) .

الكباث ـ بفتح الكاف ، والباء الموحدة المخففة ، والثاء المثلثة : ثمر الأراك ، وهو بأرض الحجاز ، وطبعه حار يابس، ومنافعه كمنافع الأراك ؛ يقوى المعدة ، ويجيد الهضم ، ويجلو البلغم ، وينفع من أوجاع الظهر ، وكثير من الأدواء . قال ابن جلجل : إذا شرب طحينه أدر البول ، ونقى المثانة ، وقال ابن رضوان : يقوى المعدة ، ويمسك الطبيعة .

كتم :

روى البخارى فى « صحيحه » عن عثمان بن عبد الله بن موهب ، قال : دخلنا على أم سلمة رضي الله عنها ، فأخرجت إلينا شعرًا من شعر رسول الله ﷺ ، فإذا هو مخضوب بالحناء والكتم (٢).

وفى « السنن الأربعة » عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم » (٣) .

وفى « الصحيحين » عن أنس رضي الله عنه ،أن أبا بكر رضي الله عنه اختضب بالحناء والكتم (٤) .

وفى سنن أبى داود عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : مر على النبى ﷺ رجل قد خضب بالحناء فقال : « ما أحسن هذا ؟ » فمر آخر قد خضب بالحناء والكتم ، فقال : « هذا أحسن من هذا » ،فمر آخر قد خضب بالصفرة ، فقال : « هذا أحسن من هذا كله » (٥) .

---

(١) البخارى (٥٤٥٣) فى الأطعمة ، باب : الكباث وهو ورق الأراك ، ومسلم (٢٠٥٠ / ١٦٣) فى الأشربة ، باب : فضيلة الأسود من الكباث

(٢) البخارى (٥٨٩٧) فى اللباس ، باب : ما يذكر فى الشيب .

(٣) أبو داود (٤٢٠٥) فى الترجل ، باب : فى الخضاب ، والترمذى (١٧٥٣) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الخضاب ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٠٧٨) فى الزينة ، باب : الخضاب بالحناء والكتم ، وابن ماجه (٣٦٢٢) فى اللباس ، باب : الخضاب بالحناء .

(٤) البخارى (٥٨٩٤) فى اللباس ، باب : ما يذكر فى الشيب ، ومسلم (٢٣٤١ / ١٠١) فى الفضائل ، باب : شيبه ﷺ .

(٥) أبو داود (٤٢١١) فى الخاتم ، باب : ما جاء فى خضاب الصفرة ، وضعفه الألبانى .

قال الغافقى : « الكتم » نبت ينبت بالسهول ، ورقه قريب من ورق الزيتون ، يعلو فوق القامة ، وله ثمر قدر حب الفلفل ، فى داخله نوى ، إذا رضخ اسودَّ ، وإذا استخرجت عصارة ورقه، وشرب منها قدر أوقية قيَّـأ قيئًا شديدًا ، وينفع عن عضة الكلب ، وأصله إذا طبخ بالماء كان منه مداد يكتب به .

وقال الكندى : بزر الكتم إذا اكتحل به ، حلل الماء النازل فى العين وأبرأها .

وقد ظن بعض الناس أن الكتم هو الوسمة ، وهى ورق النيل ، وهذا وهم ، فإن الوسمة غير الكتم ، قال صاحب « الصحاح » : « الكتم » بالتحريك : نبت يخلط بالوسمة يختضب به . قيل : والوسمة نبات له ورق طويل يضرب لونه إلى الزرقة ، أكبر من ورق الخلاف ، يشبه ورق اللوبيا ، وأكبر منه ، يؤتى به من الحجاز واليمن .

فإن قيل: قد ثبت فى « الصحيح » عن أنس ﷺ، أنه قال: لم يختضب النبى ﷺ .

قيل : قد أجاب أحمد بن حنبل عن هذا وقال : قد شهد به غير أنس ﷺ على النبى ﷺ أنه خضب ، وليس من شهد بمنزلة من لم يشهد ، فأحمد أثبت خضاب النبى ﷺ ، ومعه جماعة من المحدثين ، ومالك أنكره .

فإن قيل: فقد ثبت فى «صحيح مسلم » النهى عن الخضاب بالسواد؛ فى شأن أبى قحافة لما أتى به ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا، فقال: « غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » (١) . والكتم يسود الشعر .

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن النهى عن التسويد البحت ، فأما إذا أضيف إلى الحناء شىء آخر ؛ كالكتم ونحوه ، فلا بأس به، فإن الكتم والحناء يجعل الشعر بين الأحمر والأسود ، بخلاف الوسمة فإنها تجعله أسود فاحمًا ، وهذا أصح الجوابين .

الجواب الثانى : أن الخضاب بالسواد المنهى عنه خضاب التدليس ؛ كخضاب شعر الجارية ، والمرأة الكبيرة ، تغر الزوج ، والسيد بذلك ، وخضاب الشيخ يغر المرأة بذلك ، فإنه من الغش والخداع ، فأما إذا لم يتضمن تدليسًا ولا خداعًا فقد صح عن الحسن والحسين ﷺ أنهما كان يخضبان بالسواد ، ذكر ذلك ابن جرير عنهما فى كتاب « تهذيب الآثار » ، وذكره عن عثمان بن عفان ، وعبد الله بن جعفر ، وسعد بن أبى وقاص ،

---

(١) مسلم (٢١٠٢ / ٧٨) فى اللباس والزينة ، باب : استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه بالسواد .

وعقبة بن عامر ، والمغيرة بن شعبة ، وجرير بن عبد الله ، وعمرو بن العاص ، وحكاه عن جماعة من التابعين ، منهم : عمرو بن عثمان ، وعلى بن عبد الله بن عباس ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن بن الأسود، وموسى بن طلحة ، والزهرى ، وأيوب ، وإسماعيل بن معدى كرب ، وحكاه ابن الجوزى عن محارب بن دثار ، ويزيد ، وابن جريج، وأبى يوسف ، وأبى إسحاق ، وابن أبى ليلى ، وزياد بن علاقة ، وغيلان ابن جامع ، ونافع بن جبير ، وعمرو بن على المقدمى ، والقاسم بن سلام .

كرم :

شجرة العنب ، وهى الحبلة ، ويكره تسميتها كرمًا ؛ لما روى مسلم فى « صحيحه » عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يقولن أحدكم للعنب الكرم ، الكرم الرجل المسلم » (١) . وفى رواية : « إنما الكرم قلب المؤمن » (٢) ، فى أخرى : « لا تقولوا : الكرم ، وقولوا : العنب والحبلة » (٣) .

وفى هذا معنيان :

أحدهما : أن العرب كانت تسمى شجرة العنب الكرم ؛ لكثرة منافعها وخيرها ، فكره النبى ﷺ تسميتها باسم يهيج النفوس على محبتها ومحبة ما يتخذ منها من المسكر ، وهو أم الخبائث ، فكره أن يسمى أصله بأحسن الأسماء وأجمعها للخير .

والثانى : أنه من باب قوله: « ليس الشديد بالصرعة » (٤) ، و« ليس المسكين بالطواف » (٥)، أى : أنكم تسمون شجرة العنب كرمًا لكثرة منافعه ، وقلب المؤمن أو الرجل المسلم أولى بهذا الاسم منه ، فإن المؤمن خير كله ونفع ، فهو من باب التنبيه والتعريف لما فى قلب المؤمن من الخير، والجود ، والإيمان ، والنور ، والهدى ، والتقوى ، والصفات التى يستحق بها هذا الاسم أكثر من استحقاق الحبلة له .

وبعد : فقوة الحبلة باردة يابسة ، وورقها وعلائقها وعرموشها مبرد فى آخر الدرجة الأولى ، وإذا دقت وضمد بها من الصداع سكنته ، ومن الأورام الحارة والتهاب المعدة ، وعصارة قضبانه إذا شربت سكنت القىء ، وعقلت البطن ، وكذلك إذا مضغت قلوبها

---

(١) مسلم (٢٢٤٧ / ٦) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

(٢) مسلم (٢٢٤٧ / ٧) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) مسلم (٢٢٤٨ / ١٢) فى الكتاب والباب السابقين .

(٤) البخارى (٦١١٤) فى الأدب، باب : الحذر من الغضب ، ومسلم (٢٦٠٩ / ١٠٧) فى البر والصلة والآداب ، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأى شىء يذهب الغضب .

(٥) مسلم (١٠٣٩ / ١٠١) فى الزكاة ، باب : المسكين الذى لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه .

الرطبة ، وعصارة ورقها ، تنفع من قروح الأمعاء ، ونفث الدم وقيئه ، ووجع المعدة ، ودمع شجره الذى يحمل على القضبان ،كالصمغ إذا شرب أخرج الحصاة ، وإذا لطخ به ، أبرأ القوب والجرب المتقرح وغيره ، وينبغى غسل العضو قبل استعمالها بالماء والنطرون ، وإذا تمسح بها مع الزيت حلق الشعر ، ورماد قضبانه إذا تضمد به مع الخل ودهن الورد والسذاب نفع من الورم العارض فى الطحال ، وقوة دهن زهرة الكرم قابضة شبيهة بقوة دهن الورد ، ومنافعها كثيرة قريبة من منافع النخلة .

كرفس :

روِي فى حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكله ثم نام عليه ، نام ونكهته طيبة ، وينام آمناً من وجع الأضراس والأسنان » ، وهذا باطل على رسول الله ﷺ ، ولكن البستانى منه يطيب النكهة جدًا ، وإذا علق أصله فى الرقبه نفع من وجع الأسنان .

وهو حار يابس ، وقيل : رطب مفتح لسداد الكبد والطحال ، وورقه رطبًا ينفع المعدة والكبد الباردة ، ويدر البول ، والطمث ، ويفتت الحصاة ، وحبه أقوى فى ذلك ، ويهيج الباه ،وينفع من البخر . قال الرازى : وينبغى أن يجتنب أكله إذا خيف من لدغ العقارب.

كراث :

فيه حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، بل هو باطل موضوع : « من أكل الكراث ثم نام عليه نام آمنًا من ريح البواسير ، واعتزله الملك لنتن نكهته حتى يصبح » [١] .

وهو نوعان : نبطى وشامى ، فالنبطى : البقل الذى يوضع على المائدة ، والشامى : الذى له رؤوس ، وهو حار يابس مصدع ، وإذا طبخ وأكل ، أو شرب ماؤه ، نفع من البواسير الباردة ، وإن سحق بزره وعجن بقطران ، وبخرت به الأضراس التى فيها الدود نثرها وأخرجها ، ويسكن الوجع العارض فيها ، وإذا دخنت المقعدة ببزره خفت البواسير ، هذا كله فى الكراث النبطى .

وفيه مع ذلك فساد الأسنان واللثة ، ويصدع ، ويرى أحلامًا رديئة ، ويظلم البصر ، وينتن النكهة ، وفيه إدرار للبول والطمث ، وتحريك للباه ، وهو بطىء الهضم [٢] .

---

(١) تنزيه الشريعه المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة (٢ / ٢٦٦) .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٥٦ ـ ٣٧١) .

(حرف اللام)

لحم :

قال الله تعالى: ﴿ **وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴿٢٢﴾ ﴾ [الطور] . وقال: ﴿ **وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴿٢١﴾ ﴾ [الواقعة : ٢١] .

وفى « سنن ابن ماجه » من حديث أبى الدرداء ، عن رسول الله ﷺ : « سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم » [١] ، ومن حديث بريدة يرفعه : « خير الإدام فى الدنيا والآخرة اللحم » [٢] .

وفى « الصحيح » عنه ﷺ : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » [٣]. والثريد : الخبز واللحم ، قال الشاعر :

إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك ـ أمانة الله ـ الثريد

وقال الزهرى : أكل اللحم يزيد سبعين قوة . وقال محمد بن واسع : اللحم يزيد فى البصر ، ويروى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه : كلوا اللحم ؛ فإنه يصفى اللون ويخمص البطن ، ويحسن الخلق ، وقال نافع : كان ابن عمر إذا كان رمضان لم يفته اللحم ، وإذا سافر لم يفته اللحم ، ويذكر عن على : من تركه أربعين ليلة ساء خلقه .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها ، الذى رواه أبو داود مرفوعًا: « لا تقطعوا اللحم بالسكين ؛ فإنه من صنيع الأعاجم ، وانهسوه فإنه أهنأ وأمرأ » [٤] .فردَّه الإمام أحمد بما صح عنه ﷺ من قطعه بالسكين فى حديثين ، وقد تقدما .

واللحم أجناس ، يختلف باختلاف أصوله وطبائعه ، فنذكر حكم كل جنس وطبعه ومنفعته ومضرته .

---

(١) ابن ماجه (٣٣٠٥) فى الأطعمة ، باب : اللحم ، وفى الزوائد : « فى إسناده أبو مشجعة وابن أخيه مسلمة بن عبد الله ، لم أر من جرحهما ولا من وثقهما ، وسليمان بن عطاء ضعيف » ، قال السندى : قلت : قال الترمذى : « وقد اتهم بالوضع » .

(٢) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للشوكانى ص ١٦٨ .

(٣) البخارى (٣٧٦٩) فى فضائل الصحابة ،باب:فضل عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٤٣١/ ٧٠) فى فضائل الصحابة ، باب : فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٤) أبو داود (٣٧٧٨) فى الأطعمة ، باب : فى أكل اللحم ، وضعفه الألبانى .

لحم الضأن :

حار فى الثانية ، رطب فى الأولى ، جيده الحولى ، يولد الدم المحمود القوى لمن جاد هضمه ، يصلح لأصحاب الأمزجة الباردة والمعتدلة ، ولأهل الرياضات التامة فى المواضع والفصول الباردة ، نافع لأصحاب المرة السوداء ، يقوى الذهن والحفظ ، ولحم الهرم والعجيف ردىء ، وكذلك لحم النعاج ، وأجوده لحم الذكر الأسود منه ، فإنه أخف وألذ وأنفع ، والخصى أنفع وأجود ، والأحمر من الحيوان السمين أخف وأجود غذاء ، والجذع من المعز أقل تغذية ، ويطفو فى المعدة .

وأفضل اللحم عائذه بالعظم ، والأيمن أخف وأجود من الأيسر ، والمقدم أفضل من المؤخر ، وكان أحب الشاة إلى رسول الله ﷺ مقدمها ، وكل ما علا منه سوى الرأس كان أخف وأجود مما سفل ، وأعطى الفرزدق رجلاً يشترى له لحمًا وقال له : خذ المقدم ، وإياك والرأس والبطن ، فإن الداء فيهما ، ولحم العنق جيد لذيذ ، سريع الهضم خفيف ، ولحم الذراع أخف اللحم وألذه وألطفه وأبعده من الأذى ، وأسرعه انهضامًا .

وفى « الصحيحين » : أنه كان يعجب رسول الله ﷺ (١) ، ولحم الظهر كثير الغذاء ، يولد دمًا محمودًا ، وفى « سنن ابن ماجه » مرفوعًا : « أطيب اللحم لحم الظهر » (٢) .

لحم المعز :

قليل الحرارة ، يابس ، وخلطه المتولد منه ليس بفاضل وليس بجيد الهضم ، ولا محمود الغذاء ، ولحم التيس ردىء مطلقًا ، شديد اليبس ، عسر الانهضام ، مولد للخلط السوداوى .

قال الجاحظ : قال لى فاضل من الأطباء: يا أبا عثمان ، إياك ولحم المعز ، فإنه يورث الغم ، ويحرك السوداء ، ويورث النسيان ، ويفسد الدم ، وهو والله يخبل الأولاد .

وقال بعض الأطباء : إنما المذموم منه المسن ، ولا سيما للمسنين ، ولا رداءة فيه لمن اعتاده ، وجالينوس جعل الحولى منه من الأغذية المعتدلة المعدِّلة للكيموس المحمود ، وإناثه أنفع من ذكوره .

وقد روى النسائى فى « سننه » : عن النبى ﷺ : « أحسنوا إلى الماعز وأميطوا عنها

---

(١) البخارى (٣٣٤٠) فى الأنبياء ، باب : قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ، ومسلم (١٩٤ / ٣٢٧) فى الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

(٢) ابن ماجه (٣٣٠٨) فى الأطعمة ، باب : أطايب اللحم ، وضعفه الألبانى .

الأذى فإنها من دواب الجنة » (١) ، وفى ثبوت هذا الحديث نظر ، وحكم الأطباء عليه بالمضرة حكم جزئى ليس بكلى عام ، وهو بحسب المعدة الضعيفة ، والأمزجة الضعيفة التى لم تعتده ، واعتادت المأكولات اللطيفة ، وهؤلاء أهل الرفاهية من أهل المدن ، وهم القليلون من الناس .

لحم الجدى :

قريب إلى الاعتدال ، خاصة ما دام رضيعًا ، ولم يكن قريب العهد بالولادة ، وهو أسرع هضمًا لما فيه من قوة اللبن ، ملين للطبع ، موافق لأكثر الناس فى أكثر الأحوال ، وهو ألطف من لحم الجمل ، والدم المتولد عنه معتدل .

لحم البقر :

بارد يابس ، عسر الانهضام ، بطىء الانحدار ، يولد دمًا سوداويًا ، لا يصلح إلا لأهل الكدِّ والتعب الشديد ، ويورث إدمانه الأمراض السوداوية ؛ كالبهق والجرب ، والقوباء والجذام ، وداء الفيل ، والسرطان ، والوسواس ، وحمى الربع ، وكثير من الأورام ، وهذا لمن لم يعتده ، أو لم يدفع ضرره بالفلفل والثوم والدارصينى ، والزنجبيل ونحوه ، وذكره أقل برودة ، وأنثاه أقل يبسًا ، ولحم العجل ـ ولا سيما السمين ـ من أعدل الأغذية وأطيبها وألذها وأحمدها ، وهو حار رطب ، وإذا انهضم غذى غذاء قويًا .

لحم الفرس :

ثبت فى « الصحيح » عن أسماء رضي الله عنها قالت : نحرنا فرسًا فأكلناه على عهد رسول الله ﷺ (٢) ، وثبت عنه ﷺ أنه أذن فى لحوم الخيل ، ونهى عن لحوم الحمر . أخرجاه فى « الصحيحين » (٣) .

ولا يثبت عنه حديث المقدام بن معدى كرب رضي الله عنه أنه نهى عنه ، قاله أبو داود وغيره من أهل الحديث (٤) .

واقترانه بالبغال والحمير فى القرآن لا يدل على أن حكم لحمه حكم لحومها بوجه من

(١) مسند البزار (١٣٢٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٦٩) : « وأعله بسعيد بن محمد ، ولعله الوراق ، فإن كان هو الوراق فهو ضعيف » ، ولم نقف عليه فى النسائى .

(٢) البخارى (٥٥١٩) فى الذبائح والصيد ، باب: لحوم الخيل ، ومسلم (١٩٤٢ / ٣٨) فى الصيد والذبائح ، باب : فى أكل لحوم الخيل .

(٣) البخارى (٥٥٢٠) فى الذبائح والصيد ، باب: لحوم الخيل ،ومسلم (١٩٤١ / ٣٦) فى الصيد والذبائح ، باب : فى أكل لحوم الخيل .

(٤) أبو داود (٣٧٩٠) فى الأطعمة، باب : فى أكل لحوم الخيل ، وضعفه الألبانى .

الوجوه، كما لا يدل على أن حكمها فى السهم فى الغنيمة حكم الفرس ، والله سبحانه يقرن فى الذكر بين المتماثلات تارة ، وبين المختلفات ، وبين المتضادات ، وليس فى قوله : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل : ٨] ما يمنع من أكلها، كما ليس فيه ما يمنع من غير الركوب من وجوه الانتفاع، وإنما نص على أجلِّ منافعها؛ وهو الركوب، والحديثان فى حلها صحيحان لا معارض لهما ، وبعد : فلحمها حار يابس ، غليظ سوداوى مضر لا يصلح للأبدان اللطيفة .

لحم الجمل :

فرق ما بين الرافضة وأهل السنة ، كما أنه أحد الفروق بين اليهود وأهل الإسلام ، فاليهود والرافضة تذمه ولا تأكله ، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام حله ، وطالما أكله رسول الله ﷺ وأصحابه حضرًا وسفرًا .

ولحم الفصيل منه من ألذ اللحوم وأطيبها وأقواها غذاء ، وهو لمن اعتاده بمنزلة لحم الضأن لا يضرهم البتة ، ولا يولد لهم داء ، وإنما ذمه بعض الأطباء بالنسبة إلى أهل الرفاهية من أهل الحضر الذين لم يعتادوه ، فإن فيه حرارة ويبسًا ، وتوليدًا للسوداء ، وهو عسر الانهضام ، وفيه قوة غير محمودة ؛ لأجلها أمر النبى ﷺ بالوضوء من أكله فى حديثين صحيحين لا معارض لهما ، ولا يصح تأويلهما بغسل اليد ؛ لأنه خلاف المعهود من الوضوء فى كلامه ﷺ ، لتفريقه بينه وبين لحم الغنم ، فخير بين الوضوء وتركه منها ، وحتم الوضوء من لحوم الإبل ، ولو حمل الوضوء على غسل اليد فقط ، لحمل على ذلك فى قوله : « من مس فرجه فليتوضأ » (١) .

وأيضًا : فإن آكلها قد لا يباشر أكلها بيده بأن يوضع فى فمه ، فإن كان وضؤوه غسل يده فهو عبث ، وحَمْلٌ لكلام الشارع على غير معهوده وعرفه ، ولا يصح معارضته بحديث: « كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار »؛ لعدة أوجه :

أحدها : أن هذا عام ، والأمر بالوضوء ، منها خاص .

الثانى : أن الجهة مختلفة ، فالأمر بالوضوء منها بجهة كونها لحم إبل سواء كان نيئًا ، أو مطبوخًا ، أو قديدًا ، ولا تأثير للنار فى الوضوء ، وأما ترك الوضوء مما مست النار ففيه بيان أن مس النار ليس بسبب للوضوء ، فأين أحدهما من الآخر ؟ هذا فيه إثبات سبب الوضوء ، وهو كونه لحم إبل ، وهذا فيه نفى لسبب الوضوء ، وهو كونه ممسوس النار،

---

(١) أبو داود (١٨١) فى الطهارة ، باب : الوضوء من مس الذكر ، والترمذى (٨٢) فى الطهارة ، باب : الوضوء من مس الذكر ، وقال : « حسن صحيح » .

فلا تعارض بينهما بوجه .

الثالث : أن هذا ليس فيه حكاية لفظ عام عن صاحب الشرع ، وإنما هو إخبار عن واقعة فعل فى أمرين،أحدهما :متقدم على الآخر ، كما جاء ذلك مبينًا فى نفس الحديث ، أنهم قربوا إلى النبى ﷺ لحمًا فأكل ، ثم حضرت الصلاة فتوضأ فصلى ، ثم قربوا إليه فأكل ، ثم صلى ولم يتوضأ ، فكان آخر الأمرين منه ترك الوضوء مما مست النار ، هكذا جاء الحديث ، فاختصره الراوى لمكان الاستدلال ، فأين فى هذا ما يصلح لنسخ الأمر بالوضوء منه ، حتى لو كان لفظًا عامًا متأخرًا مقاومًا لم يصلح للنسخ ، ووجب تقديم الخاص عليه ، وهذا فى غاية الظهور .

لحم الضبِّ :

تقدم الحديث فى حله ، ولحمه حار يابس ، يقوى شهوة الجماع .

لحم الغزال :

الغزال أصلح الصيد وأحمده لحمًا ، وهو حار يابس ، وقيل : معتدل جدًا ، نافع للأبدان المعتدلة الصحيحة ، وجيده الخشف .

لحم الظبى :

حار يابس فى الألوى،مجفف للبدن،صالح للأبدان الرطبة،قال صاحب « القانون » : وأفضل لحوم الوحش لحم الظبى مع ميله إلى السوداوية .

لحم الأرنب :

ثبت فى « الصحيحين » عن أنس بن مالك قال : أنفجنا أرنبًا فسعوا فى طلبها ، فأخذوها ، فبعث أبو طلحة بوركها إلى رسول الله ﷺ فقبله (١) .

لحم الأرنب : معتدل إلى الحرارة واليبوسة ، وأطيبها وركها ، وأحمده أكل لحمها مشويًا ، وهو يعقل البطن ، ويدر البول ، ويفتت الحصى ، وأكل رؤوسها ينفع من الرعشة .

لحم حمار الوحش :

ثبت فى « الصحيحين » من حديث أبى قتادة رضي الله عنه ، أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ

---

(١) البخارى (٥٥٣٥) فى الذبائح والصيد ، باب : الأرنب ، ومسلم (١٩٥٣/ ٥٣) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الأرنب .

فى بعض عمره ، وأنه صاد حمار وحش ، فأمرهم النبى ﷺ بأكله وكانوا محرمين ، ولم يكن أبو قتادة محرمًا [(١)] .

وفى « سنن ابن ماجه » عن جابر قال : أكلنا زمن خيبر الخيل وحمر الوحش [(٢)] .

لحمه حار يابس ، كثير التغذية ، مولد دمًا غليظًا سوداويًا ، إلا أن شحمه نافع مع دهن القسط لوجع الظهر والريح الغليظة المرخية للكلى ، وشحمه جيد للكلف طلاء ، وبالجملة فلحوم الوحوش كلها تولد دمًا غليظًا سوداويًا ،وأحمده الغزال ، وبعده الأرنب .

لحوم الأجنة :

غير محمودة لاحتقان الدم فيها ، وليست بحرام ؛ لقوله ﷺ : « ذكاة الجنين ذكاة أمه » [(٣)] .

ومنع أهل العراق من أكله إلا أن يدركه حيًا فيذكيه ، وأوّلو الحديث على أن المراد به أن ذكاته كذكاة أمه . قالوا : فهو حجة على التحريم ، وهذا فاسد ، فإن أول الحديث أنهم سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، نذبح الشاة فنجد فى بطنها جنينًا ،أفنأكله ؟ فقال : « كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه » .

وأيضًا ، فالقياس يقتضى حله ، فإنه ما دام حملا فهو جزء من أجزاء الأم ، فذكاتها ذكاة لجميع أجزائها ، وهذا هو الذى أشار إليه صاحب الشرع بقوله : « ذكاته ذكاة أمه » ، كما تكون ذكاتها ذكاة سائر أجزائها ، فلو لم تأت عنه السنة الصريحة بأكله ، لكان القياس الصحيح يقتضى حله .

لحم القديد :

فى « السنن » من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون ، فقال : « أصلح لحمها » فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة [(٤)] .

القديد : أنفع من النمكسود ، ويقوى الأبدان، ويحدث حكة ، ودفع ضرره بالأبازير الباردة الرطبة، ويصلح الأمزجة الحارة والنمكسود : حار يابس مجفف ، جيده من السمين

---

(١) البخارى (٥٤٩٠) فى الذبائح والصيد ، باب : ما جاء فى التصيد ، ومسلم (١١٩٦ / ٥٧) فى الحج ، باب : تحريم الصيد للمحرم .

(٢) ابن ماجه (٣١٩١) فى الذبائح ، باب : لحوم الخيل .

(٣) أبو داود (٢٨٢٧) فى الضحايا ، باب : ما جاء فى ذكاة الجنين .

(٤) أبو داود (٢٨١٤) فى الضحايا ، باب: فى المسافر يضحى ،والحديث رواه مسلم (١٩٧٥ / ٣٥) فى الأضاحى ، باب : بيان ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى .

الرطب ، يضر بالقولنج ، ودفع مضرته طبخه باللبن والدهن ، ويصلح للمزاج الحار الرطب .

لحوم الطير :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الواقعة] .

وفي « مسند البزار » وغيره مرفوعًا : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه ، فيخر مشويًا بين يديك » (١) .

ومنه حلال ، ومنه حرام ، فالحرام ذو المخلب ؛ كالصقر والبازي والشاهين ، وما يأكل الجيف؛ كالنسر والرخم واللقلق ، والعقعق ، والغراب الأبقع والأسود الكبير ، وما نهى عن قتله كالهدهد والصرد ، وما أمر بقتله كالحدأة والغراب .

والحلال أصناف كثيرة ، فمنه :

الدجاج : ففي « الصحيحين » من حديث أبي موسى ، أن النبي ﷺ أكل لحم الدجاج (٢) .

وهو حار رطب في الأولى ، خفيف على المعدة ، سريع الهضم ، جيد الخلط ، يزيد في الدماغ والمني ، ويصفي الصوت ، ويحسن اللون ، ويقوي العقل ، ويولد دمًا جيدًا ، وهو مائل إلى الرطوبة ، ويقال : إن مداومة أكله تورث النقرس ، ولا يثبت ذلك .

ولحم الديك أسخن مزاجًا ، وأقل رطوبة ، والعتيق منه دواء ينفع القولنج والربو والرياح الغليظة إذا طبخ بماء القرطم والشبت ، وخصيها محمود الغذاء ، سريع الانهضام ، والفراريج سريعة الهضم ، ملينة للطبع ، والدم المتولد منها دم لطيف جيد .

لحم الدراج : حار يابس في الثانية ، خفيف لطيف ، سريع الانهضام ، مولد للدم المعتدل ، والإكثار منه يحد البصر .

لحم الحجل : يولد الدم الجيد ، سريع الانهضام .

لحم الإوز : حار يابس رديء الغذاء إذا اعتيد ، وليس بكثير الفضول .

لحم البط : حار رطب ، كير الفضول ، عسر الانهضام ، غير موافق للمعدة .

لحم الحبارى : في «السنن » من حديث بريه بن عمر بن سفينة ، عن أبيه ، عن جده رضي الله عنه

---

(١) مسند البزار (٣٥٣٢) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٧) : « فيه حميد بن عطاء الأعرج ، وهو ضعيف » .

(٢) البخاري (٥٥١٨) في الذبائح والصيد ، باب : لحم الدجاج ، ومسلم (١٦٤٩/ ٩) في الأيمان ، باب : ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفّر عن يمينه .

قال : أكلت مع رسول الله ﷺ لحم حبارى [١] .

وهو حار يابس ، عسر الانهضام ، نافع لأصحاب الرياضة والتعب .

لحم الكركى : يابس خفيف ، وفى حره وبرده خلاف ، يولد دمًا سوداويًا ، ويصلح لأصحاب الكد والتعب ، وينبغى أن يترك بعد ذبحه يومًا أو يومين ، ثم يؤكل .

لحم العصافير والقنابر : روى النسائى فى « سننه » من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقه بغير حقه إلا سأله الله عز وجل عنها » ، قيل : يا رسول الله ، وما حقه ؟ قال : « تذبحه فتأكله ، ولا تقطع رأسه وترمى به » [٢].

وفى « سننه » أيضًا : عن عمرو بن الشريد ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قتل عصفوراً عبثًا ، عج إلى الله يقول : يا رب إن فلانا قتلنى عبثًا ، ولم يقتلنى لمنفعة » [٣] .

ولحمه حار يابس ، عاقل للطبيعة ، يزيد فى الباه ، ومرقه يلين الطبع ، وينفع المفاصل، وإذا أكلت أدمغتها بالزنجبيل والبصل هيجت شهوة الجماع، وخلطها غير محمود .

لحم الحمام : حار رطب ، وحشيه أقل رطوبة ، وفراخه أرطب خاصية ، وما ربى فى الدور وناهضه أخف لحمًا ، وأحمد غذاء ، ولحم ذكورها شفاء من الاسترخاء ، والخدر والسكتة والرعشة ، وكذلك شم رائحة أنفاسها ، وأكل فراخها معين على النساء ، وهو جيد للكلى ، يزيد فى الدم ، وقد روى فيها حديث باطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ : أن رجلا شكى إليه الوحدة ، فقال : « اتخذ زوجًا من الحمام » ، وأجود من هذا الحديث أنه ﷺ رأى رجلا يتبع حمامة ، فقال : « شيطان يتبع شيطانة » [٤] .

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه فى خطبته يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام .

لحم القطا : يابس ، يولد السوداء ، ويحبس الطبع ، وهو من شر الغذاء ، إلا أنه ينفع من الاستسقاء .

لحم السمانى : حار يابس ينفع المفاصل ، ويضر بالكبد الحار، ودفع مضرته بالخل

---

(١) أبو داود (٣٧٩٧) فى الأطعمة ، باب : فى أكل لحم الحبارى ، وضعفه الألبانى .

(٢) النسائى (٤٣٤٩) فى الصيد ، باب : إباحة أكل العصافير ، وضعفه الألبانى .

(٣) النسائى (٤٤٦) فى الصيد ، باب : من قتل عصفوراً بغير حقها .

(٤) أبو داود (٤٩٤٠) فى الأدب ، باب : فى اللعب بالحمام .

والكسفرة ، وينبغى أن يجتنب من لحوم الطير ما كان من الآجام والمواضع العفنة ، ولحوم الطير كلها أسرع انهضامًا من المواشى ، وأسرعها انهضامًا أقلها غذاء ، وهى الرقاب والأجنحة ، وأدمغتها أحمد من أدمغة المواشى .

الجراد :

فى « الصحيحين » عن عبد الله بن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد [١] .

وفى « المسند » عنه : « أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد ، والكبد والطحال » يروى مرفوعًا وموقوفًا على ابن عمر رضي الله عنه [٢] .

وهو حار يابس، قليل الغذاء ،وإدامة أكله تورث الهزال ، وإذا تبخر به نفع من تقطير البول وعسره ، وخصوصًا للنساء ، ويتبخر به للبواسير ، وسمانه يشوى ويؤكل للسع العقرب ، وهو ضار لأصحاب الصرع ، ردىء الخلط ، وفى إباحة ميتته بلا سبب قولان ، فالجمهور على حله،وحرمه مالك ، ولا خلاف فى إباحة ميتته إذا مات بسبب ؛ كالكبس ، والتحريق ونحوه .

وينبغى ألا يداوم على أكل اللحم،فإنه يورث الأمراض الدموية والامتلائية، والحميات الحادة ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم واللحم ، فإن له ضراوة كضراوة الخمر . ذكره مالك فى « الموطأ» عنه [٣] ، وقال أبقراط : لا تجعلوا أجوافكم مقبرة للحيوان .

اللبن :

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ** (٦٦) ﴾ [النحل] ،وقال فى الجنة: ﴿ **فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ** ﴾ [محمد : ١٥] .وفى « السنن » مرفوعًا: « من أطعمه الله طعامًا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيرًا منه ،ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ؛ فإنى لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن » [٤] .

---

(١) البخارى (٥٤٩٥) فى الذبائح والصيد ، باب : أكل الجراد ، ومسلم (١٩٥٢/ ٥٢) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الجراد .

(٢) أحمد (٢ / ٩٧) ، وابن ماجه (٣٣١٤) فى الأطعمة ، باب : الكبد والطحال .

(٣) مالك فى الموطأ (٢ / ٩٣٥) (٣٦) فى صفة النبى ﷺ ، باب : ما جاء فى أكل اللحم .

(٤) أبو داود (٣٧٣٠) فى الأشربة ، باب : ما يقول إذا شرب اللبن ، وابن ماجه (٣٣٢٢) فى الأطعمة ، باب : اللبن .

اللبن وإن كان بسيطًا فى الحس، إلا أنه مركب فى أصل الخلقة تركيبًا طبيعيًا من جواهر ثلاثة : الجبنية ، والسمنية ، والمائية ، فالجبنية : باردة رطبة ، مغذية للبدن ، والسمنية : معتدلة الحرارة والرطوبة ملائمة للبدن الإنسانى الصحيح ، كثيرة المنافع ، والمائية : حارة رطبة ، مطلقة للطبيعة ، مرطبة للبدن ، واللبن على الإطلاق أبرد وأرطب من المعتدل ، وقيل : قوته عند حلبه الحرارة والرطوبة ، وقيل : معتدل فى الحرارة والبرودة .

وأجود ما يكن اللبن حين يحلب ، ثم لا يزال تنقص جودته على ممر الساعات ، فيكون حين يحلب أقل برودة ، وأكثر رطوبة ، والحامض بالعكس ، يختار اللبن بعد الولادة بأربعين يومًا، وأجوده ما اشتد بياضه ، وطاب ريحه ، ولذ طعمه ، وكان فيه حلاوة يسيرة ، ودسومة معتدلة ، واعتدل قوامه فى الرقة والغلظ ، وحُلِبَ من حيوان فتى صحيح ، معتدل اللحم ، محمود المرعى والمشرب .

وهو محمود يولد دمًا جيدًا ، ويرطب البدن اليابس ، ويغذو غذاء حسنًا ، وينفع من الوسواس والغم والأمراض السوداوية ، وإذا شرب مع العسل نقى القروح الباطنة من الأخلاط العفنة،وشربه مع السكر يحسن اللون جدًا،والحليب يتدارك ضرر الجماع، ويوافق الصدر والرئة ، جيد لأصحاب السل ،ردىء للرأس والمعدة ، والكبد والطحال ، والإكثار منه مضر بالأسنان واللثة ؛ ولذلك ينبغى أن يتمضمض بعده بالماء ، وفى « الصحيحين » : أن النبى ﷺ شرب لبنًا ، ثم دعا بماء فتمضمض وقال : « إن له دسمًا » (١) .

وهو ردىء للمحمومين ، وأصحاب الصداع ، ومؤذ للدماغ ، والرأس الضعيف ، والمداومة عليه تحدث ظلمة البصر والغشاء ، ووجع المفاصل ، وسدة الكبد ، والنفخ فى المعدة والأحشاء ، وإصلاحه بالعسل والزنجبيل المربى ونحوه ، وهذا كله لمن لم يعتده .

لبن الضأن : أغلظ الألبان وأرطبها ، وفيه من الدسومة والزهومة ما ليس فى لبن الماعز والبقر ، يولد فضولاً بلغميًا ، ويحدث فى الجلد بياضًا إذا أدمن استعماله ؛ ولذلك ينبغى أن يشاب هذا اللبن بالماء ليكون ما نال البدن منه أقل ، وتسكينه للعطش أسرع ، وتبريده أكثر .

لبن المعز : لطيف معتدل ، مطلق للبطن ، مرطب للبدن اليابس ، نافع من قروح الحلق ، والسعال اليابس ، ونفث الدم .

واللبن المطلق أنفع المشروبات للبدن الإنسانى؛ لما اجتمع فيه من التغذية والدموية ،

---

(١) البخارى (٢١١) فى الوضوء ، باب : هل يمضمض من اللبن ؟ ومسلم (٣٥٨ / ٩٥) فى الحيض، باب : نسخ الوضوء مما مست النار .

ولاعتياده حال الطفولية ، وموافقته للفطرة الأصلية ، وفى « الصحيحين » : أن رسول الله ﷺ أتى ليلة أسرى به بقدح من خمر ، وقدح من لبن ، فنظر إليهما ،ثم أخذ اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذى هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر ، غوت أمتك » [1] ، والحامض منه بطىء الاستمراء ، خام الخلط ، والمعدة الحارة تهضمه وتنتفع به .

لبن البقر : يغذو البدن ويخصبه ، ويطلق البطن باعتدال ، وهو من أعدل الألبان وأفضلها وبين لبن الضأن ولبن المعز فى الرقة والغلظ والدسم ، وفى السنن من حديث عبد الله بن مسعود يرفعه : « عليكم بألبان البقر ، فإنها تَرُمُّ من كل الشجر » [2] .

لبن الإبل : تقدم ذكره فى أول الفصل ، وذكره منافعه ، فلا حاجة لإعادته .

لبان :

هو الكندر ، قد ورد فيه عن النبى ﷺ : « بخروا بيوتكم باللبان والصعتر » ،ولا يصح عنه ، ولكن يروى عن علىٍّ أنه قال لرجل شكا إليه النسيان : عليك باللبان ، فإنه يشجع القلب ، ويذهب بالنسيان ، ويذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن شربه مع السكر على الريق جيد للبول والنسيان ، ويذكر عن أنس رضي الله عنه أنه شكا إليه رجلٌ النسيانَ ، فقال : عليك بالكندر وانقعه من الليل ، فإذا أصبحت فخذ منه شربة على الريق ، فإنه جيد للنسيان.

ولهذا سبب طبيعى ظاهر ، فإن النسيان إذا كان لسوء مزاج بارد رطب يغلب على الدماغ فلا يحفظ ما ينطبع فيه ،نفع منه اللبان ، وأما إذا كان النسيان لغلبة شىء عارض أمكن زواله سريعًا بالمرطبات . والفرق بينهما أن اليبوسى يتبعه سهر ، وحفظ الأمور الماضية دون الحالية ، والرطوبى بالعكس .

وقد يحدث النسيان أشياء بالخاصية ، كحجامة نقرة القفا ، وإدمان أكل الكسفرة الرطبة ، والتفاح الحامض ، وكثرة الهم والغم ، والنظر فى الماء الواقف والبول فيه ، والنظر إلى المصلوب ، والإكثار من قراءة ألواح القبور ، والمشى بين جملين مقطورين ، وإلقاء القمل فى الحياض ، وأكل سؤر الفأر ، وأكثر هذا معروف بالتجربة .

والمقصود: أن اللبان مسخن فى الدرجة الثانية،ومجفف فى الأولى ، وفيه قبض يسير،

---

(١) البخارى (٥٥٧٦) فى الأشربة ، باب : قوله تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر ... ﴾ ، ومسلم (١٦٨ / ٩٢) فى الأشربة ، باب : جواز شرب اللبن .

(٢) أحمد (٤ / ٣١٥) ، والحاكم فى المستدرك (١٩٧١٤) .

وهو كثير المنافع ، قليل المضار، فمن منافعه : أن ينفع من قذف الدم ونزفه ، ووجع المعدة ، واستطلاق البطن ، ويهضم الطعام ، ويطرد الرياح ، ويجلو قروح العين ، وينبت اللحم فى سائر القروح ، ويقوى المعدة الضعيفة ويسخنها ، ويجفف البلغم ، وينشف رطوبات الصدر ، ويجلو ظلمة البصر ، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار ، وإذا مضغ وحده ، أو مع الصعتر الفارسى جلب البلغم ، ونفع من اعتقال اللسان ، ويزيد فى الذهن ويذكيه ، وإن بخر به ماء ، نفع من الوباء ، وطيب رائحة الهواء (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٧١ ـ ٣٨٨) .

(حرف الميم)

ماء :

مادة الحياة ، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم ، بل ركنه الأصلى ، فإن السماوات خلقت من بخاره ، والأرض من زبده ، وقد جعل الله منه كل شىء حى .

وقد اختلف فيه : هل يغذو ، أو ينفذ الغذاء فقط ؟ على قولين ، وقد تقدما ، وذكرنا القول الراجح ودليله .

وهو بارد رطب ، يقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباته ، ويرد عليه بدل ما تحلل منه ، ويرقق الغذاء ، وينفذه فى العروق .

وتعتبر جودة الماء من عشرة طرق :

أحدها : من لونه ، بأن يكون صافيًا .

الثانى : من رائحته ، بألا تكون له رائحة البتة .

الثالث : من طعمه ، بأن يكون عذب الطعم حلوه ، كماء النيل والفرات .

الرابع : من وزنه ، بأن يكون خفيفًا رقيق القوام .

الخامس : من مجراه ، بأن يكون طيب المجرى والمسلك .

السادس : من منبعه ، بأن يكون بعيد المنبع .

السابع : من بروزه للشمس والريح ، بألا يكون مختفيًا تحت الأرض فلا تتمكن الشمس والريح من قصارته .

الثامن : من حركته ، بأن يكون سريع الجرى والحركة .

التاسع : من كثرته ، بأن يكون له كثرة يدفع الفضلات المخالطة له .

العاشر : من مصبه ، بأن يكون آخذًا من الشمال إلى الجنوب ، أو من المغرب إلى المشرق .

وإذا اعتبرت هذه الأوصاف ، لم تجدها بكمالها إلا فى الأنهار الأربعة : النيل ، والفرات ، وسيحون ، وجيحون .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « سيحان ،

وجيحان ، والنيل ، والفرات ، كل من أنهار الجنة » (١) .

وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه ، أحدها : سرعة قبوله للحر والبرد ، قال أبقراط : الماء الذى يسخن سريعًا ، ويبرد سريعًا أخف المياه ، الثانى : بالميزان ، الثالث : أن تبل قطنتان متساويتا الوزن بماءين مختلفين ، ثم يجففا بالغًا ، ثم توزنا ، فأيتهما كانت أخف فماؤها كذلك .

والماء وإن كان فى الأصل باردًا رطبًا ، فإن قوته تنتقل وتتغير لأسباب عارضة توجب انتقالها ، فإن الماء المكشوف للشمال المستور عن الجهات الأخر يكون باردًا ، وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال ، وكذلك الحكم على سائر الجهات الأخر .

والماء الذى ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المعدن، ويؤثر فى البدن تأثيره ، والماء العذب نافع للمرضى والأصحاء، والبارد منه أنفع وألذ، ولا ينبغى شربه على الريق ، ولا عقيب الجماع ، ولا الانتباه من النوم ، ولا عقيب الحمام ، ولا عقيب أكل الفاكهة ، وقد تقدم ، وأما على الطعام فلا بأس به إذا اضطر إليه ، بل يتعين ولا يكثر منه ، بل يتمصصه مصًا ، فإنه لا يضره البتة ، بل يقوى المعدة ، وينهض الشهوة ، ويزيل العطش .

والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه ، وبائته أجود من طريه وقد تقدم، والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه من خارج، والحار بالعكس، وينفع البارد من عفونة الدم، وصعود الأبخرة إلى الرأس،ويدفع العفونات، ويوافق الأمزجة والأسنان والأزمان والأماكن الحارة، ويضر على كل حالة تحتاج إلى نضج وتحليل ، كالزكام والأورام ، والشديد البرودة منه يؤذى الأسنان ، والإدمان عليه يحدث انفجار الدم والنزلات وأوجاع الصدر .

والبارد والحار بإفراط ضاران للعصب ولأكثر الأعضاء ؛ لأن أحدها محلل ، والآخر مكثف ، والماء الحار يسكن لذع الأخلاط الحادة ، ويحلل وينضج ، ويخرج الفضول ، ويرطب ويسخن ، ويفسد الهضم شربه ، ويطفو بالطعام إلى أعلى المعدة ويرخيها ، ولا يسرع فى تسكين العطش ، ويذبل البدن ، ويؤدى إلى أمراض رديئة ، ويضر فى أكثر الأمراض ، على أنه صالح للشيوخ ، وأصحاب الصرع ، والصداع البارد ، والرمد ، وأنفع ما استعمل من خارج .

ولا يصح فى الماء المسخن بالشمس حديث ولا أثر، ولا كرهه أحد من قدماء الأطباء ، ولا عابوه ، والشديد السخونة يذيب شحم الكلى ، وقد تقدم الكلام على ماء الأمطار فى

(١) مسلم (٢٨٣٩ / ٢٦) فى الجنة وصفة نعيمها ، باب : ما جاء فى الدنيا من أنهار الجنة ، ولم يعزه صاحب التحفة (٩/ ٤٣٤) إلا لمسلم ، وقد وهم المصنف فى عزوه للبخارى .

حرف العين .

ماء الثلج والبرد :

ثبت فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ أنه كان يدعو فى الاستفتاح وغيره : « اللهم اغسلنى من خطاياى بماء الثلج والبرد » (١) .

الثلج له فى نفسه كيفية حادة دخانية ، فماؤه كذلك ، وقد تقدم وجه الحكمة فى طلب الغسل من الخطايا بمائه لما يحتاج إليه القلب من التبريد والتصليب والتقوية ، ويستفاد من هذا أصل طب الأبدان والقلوب ، ومعالجة أدوائها بضدها .

وماء البرد ألطف وألذ من ماء الثلج ، وأما ماء الجمد وهو الجليد ، فبحسب أصله .

والثلج يكتسب كيفية الجبال والأرض التى يسقط عليها فى الجودة والرداءة ، وينبغى تجنب شرب الماء المثلوج عقيب الحمام والجماع والرياضة والطعام الحار، ولأصحاب السعال، ووجع الصدر ، وضعف الكبد ، وأصحاب الأمزجة الباردة .

ماء الآبار والقنى :

مياه الآبار قليلة اللطافة ، وماء القنى المدفونة تحت الأرض ثقيل ؛ لأن أحدهما محتقن لا يخلو عن تعفن ، والآخر محجوب عن الهواء، وينبغى ألا يشرب على الفور حتى يصمد للهواء ، وتأتى عليه ليلة، وأردؤه ما كانت مجاريه من رصاص ، أو كانت بئره معطلة ، ولا سيما إذا كانت تربتها رديئة ، فهذا الماء وبىء وخيم .

ماء زمزم :

سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرًا ، وأحبها إلى النفوس وأغلاها ثمنًا ، وأنفسها عند الناس ، وهو هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل (٢).

وثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ،أنه قال لأبى ذر وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة،ليس له طعام غيره؛ فقال النبى ﷺ : « إنها طعام طعم » (٣) وزاد غير مسلم بإسناده : « وشفاء سقم » (٤) .

---

(١) البخارى (٧٧٤) فى الأذان ، باب:ما يقول بعد التكبير ، ومسلم (٥٩٨ / ١٤٧) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة .

(٢) الدارقطنى (٢ / ٢٨٩) (٢٣٨) ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٤٧٣) وقال : « صحيح الإسناد إن سلم من الجارودى ولم يخرجاه ووافقه الذهبى » .

(٣) مسلم (٢٤٧٣) / ١٣٢) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبى ذر .

(٤) البيهقى فى الكبرى (١٤٨١٥) ، والهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٨٩) وقال : « رواه البزار والطبرانى فى الصغير ، ورجال البزار رجال الصحيح » .

وفى « سنن ابن ماجه » من حديث جابر بن عبد الله،عن النبى ﷺ أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له » (١)، وقد ضعف هذا الحديث طائفة بعبد الله بن المؤمل راويه عن محمد ابن المنكدر ، وقد روينا عن عبد الله بن المبارك ، أنه لما حج أتى زمزم ، فقال : اللهم إن ابن أبى الموالى حدثنا عن محمد بن المنكدر ،عن جابر رضي الله عنه ، عن نبيك ﷺ أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له » ، وإنى أشربه لظمأ يوم القيامة . وابن أبى الموالى ثقة ، فالحديث إذا حسنٌ ، وقد صححه بعضه ، وجعله بعضه موضوعًا ، وكلا القولين فيه مجازفة .

وقد جربت أنا وغيرى من الاستشفاء بماء زمزم أمورًا عجيبة ، واستشفيت به من عدة أمراض فبرأت بإذن الله، وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبًا من نصف الشهر، أو أكثر ، ولا يجد جوعًا ، ويطوف مع الناس كأحدهم ، وأخبرنى أنه ربما بقى عليه أربعين يومًا وكان له قوة يجامع بها أهله ، ويصوم ويطوف مرارًا .

ماء النيل :

أحد أنهار الجنة ، أصله من وراء جبال القمر فى أقصى بلاد الحبشة ،من أمطار تجتمع هناك ، وسيول يمد بعضها بعضًا ، فيسوقه الله تعالى إلى الأرض الجرز التى لا نبات لها ، فيخرج به زرعًا،تأكل منه الأنعام والأنام ، ولما كانت الأرض التى يسوقه إليها إبليزًا صلبة ، إن أمطرت مطر العادة لم ترو ، ولم تتهيأ للنبات ، وإن أمطرت فوق العادة ضرت المساكن والساكن ، وعطلت المعايش والمصالح ، فأمطر البلاد البعيدة ، ثم ساق تلك الأمطار إلى هذه الأرض فى نهر عظيم ، وجعل سبحانه زيادته فى أوقات معلومة على قدر رى البلاد وكفايتها ، فإذا أروى البلاد وعمها ، أذن ـ سبحانه ـ بتناقصه وهبوطه لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع ، واجتمع فى هذا الماء الأمور العشرة التى تقدم ذكرها ، وكان من ألطف المياه وأخفها وأعذبها وأحلاها .

ماء البحر :

ثبت عن النبى ﷺ أنه قال فى البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (٢) ، وقد جعله الله سبحانه ملحًا أجاجًا ، مرًا زعاقًا ، لتمام مصالح من هو على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، فإنه دائم راكد كثير الحيوان ، وهو يموت فيه كثيرًا ولا يقبر ، فلو كان

---

(١) ابن ماجه (٣٠٦٢) فى المناسك ، باب : الشرب من زمزم ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ؛لضعف عبد الله ابن المؤمل ، وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك من طريق ابن عباس ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد » .

(٢) أبو داود (٨٣) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والترمذى (٦٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى ماء البحر أنه طهور ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٩) فى الطهارة ، باب : ماء البحر ، وابن ماجه (٣٨٦) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر .

حلوًا لأنتن من إقامته وموت حيواناته فيه وأجاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك ، وينتن ويجيف ، فيفسد العالم ، فاقتضت حكمة الرب سبحانه وتعالى أن جعله كالملاحة التى لو ألقى فيه جيف العالم كلها وأنتانه وأمواته لم تغيره شيئًا ، ولا يتغير على مكثه من حين خلق،وإلى أن يطوى الله العالم ، فهذا هو السبب الغائى الموجب لملوحته ، وأما الفاعلى ، فكون أرضه سبخة مالحة .

وبعد ، فالاغتسال به نافع من آفات عديدة فى ظاهر الجلد ، وشربه مضر بداخله وخارجه، فإنه يطلق البطن ، ويهزل ، ويحدث حكة وجربًا ، ونفخًا وعطشًا ، ومن اضطر إلى شربه فله طرق من العلاج يدفع بها مضرته .

منها : أن يجعل فى قدر ، ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ، ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف، فإذا كثر عصره ، ولا يزال يفعل ذلك حتى يجتمع له ما يريد،فيحصل فى الصوف من البخار ما عذب ، ويبقى فى القدر الزعاق.

ومنها : أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها ،ثم إلى جانبها قريبًا منها أخرى ترشح هى إليها ، ثم ثالثة إلى أن يعذب الماء ، وإذا ألجأته الضرورة إلى شرب الماء الكدر فعلاجه أن يلقى فيه نوى المشمش ، أو قطعة من خشب الساج ، أو جمرًا متلهبًا يطفأ فيه ، أو طينًا أرمنيًا ، أو سويق حنطة ، فإن كدرته ترسب إلى أسفل .

مسك :

ثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ﵁ ،عن النبى ﷺ أنه قال:« أطيب الطيب المسك » (١) .

وفى « الصحيحين » عن عائشة ﵂ : كنت أطيب النبى ﷺ قبل أن يحرم ويوم النحر قبل أن يطوف بالبيت بطيب فيه مسك (٢) .

المسك : ملك أنواع الطيب ، وأشرفها وأطيبها ، وهو الذى تضرب به الأمثال ، ويشبه به غيره ، ولا يشبه بغيره ، وهو كثبان الجنة ، وهو حار يابس فى الثانية ، يسر النفس ويقويها ، ويقوى الأعضاء الباطنة جميعها شربًا وشمًا ، والظاهرة إذا وضع عليها . نافع للمشايخ والمبرودين ، لا سيما زمن الشتاء ، جيد للغشى والخفقان ، وضعف القوة

---

(١) مسلم (٢٢٥٢ / ١٩) فى الألفاظ ، باب : استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .

(٢) البخارى (١٥٣٩) فى الحج ، باب : الطيب عند الإحرام ، ومسلم (١١٧٩ / ٣٣) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام .

بإنعاشه للحرارة الغريزية ، ويجلو بياض العين ، وينشف رطوبتها ، ويفش الرياح منها ومن جميع الأعضاء ، ويبطل عمل السموم ، وينفع من نهش الأفاعى ، ومنافعه كثيرة جداً ، وهو من أقوى المفرحات .

مرزنجوش : ورد فيه حديث لا نعلم صحته : « عليك بالمرزنجوش فإنه جيد للخشام » (١) ، والخشام : الزكام .

وهو حار فى الثالثة يابس فى الثانية ، ينفع شمه من الصداع البارد ، والكائن عن البلغم،والسوداء، والزكام ، والرياح الغليظة ، ويفتح السدد الحادثة فى الرأس والمنخرين ، ويحل أكثر الأورام الباردة ،فينفع من أكثر الأورام والأوجاع الباردة الرطبة ، وإذا احتمل ، أدر الطمث ، وأعان على الحبل ، وإذا دق ورقه اليابس وكمد به ، أذهب آثار الدم العارض تحت العين ، وإذا ضمد به مع الخل نفع لسعة العقرب .

ودهنه نافع لوجع الظهر والركبتين، ويذهب بالإعياء ، ومن أدمن شمه لم ينزل فى عينيه الماء ، وإذا استعط بمائه مع دهن اللوز المر ، نفع سدد المنخرين ، ونفع من الريح العارضة فيها ، وفى الرأس .

ملح :

روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث أنس يرفعه : « سيد إدامكم الملح » (٢) ، وسيد الشىء : هو الذى يصلحه ويقوم عليه،وغالب الإدام إنما يصلح بالملح ،وفى « مسند البزار » مرفوعًا : « سيوشك أن تكونوا فى الناس مثل الملح فى الطعام ، ولا يصلح الطعام إلا بالملح » (٣) .

وذكر البغوى فى « تفسيره » عن عبد الله بن عمر ﵄ مرفوعًا : « إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : الحديد ،والنار ، والماء ، والملح » ، والموقوف أشبه .

الملح يصلح أجسام الناس وأطعمتهم،ويصلح كل شىء يخالطه حتى الذهب والفضة ، وذلك أن فيه قوة تزيد الذهب صفرة ، والفضة بياضًا ، وفيه جلاء وتحليل ، وإذهاب للرطوبات الغليظة ، وتنشيف لها ، وتقوية للأبدان ، ومنع من عفونتها وفسادها ، ونفع

---

(١) كنز العمال (١٧٣٤٥) ، وعزاه لابن السنى ، وأبى نعيم فى الطب .

(٢) ابن ماجه (٣٣١٥) فى الأطعمة ، باب : الملح ، وفى الزوائد : « فى إسناده عيسى بن أبى عيسى الخياط ، قال فى تهذيب التهذيب : متروك » .

(٣) الطبرانى فى الكبير (٧/٢٦٨) (٧٠٩٨)، ومسند البزار (٢٧٧٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢١) : « إسناد الطبرانى حسن » ، وانظره مفصلاً فى السلسلة الضعيفة للألبانى (١٧٦٢) .

من الجرب المتقرح .

وإذا اكتحل به قلع اللحم الزائد من العين ، ومحق الظفرة ، والأندارانى أبلغ فى ذلك، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار ، ويحدر البراز ، وإذا دلك به بطون أصحاب الاستسقاء نفعهم ، وينقى الأسنان،ويدفع عنها العفونة ، ويشد اللثة ويقويها ، ومنافعه كثيرة جداً .

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٨٨ ـ ٣٩٧) .

(حرف النون)

نخل :

مذكور فى القرآن فى غير موضع ،وفى « الصحيحين » عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أتى بجمار نخلة ، فقال النبى ﷺ : « إن من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها ، أخبرونى ما هى ؟ » فوقع الناس فى شجر البوادى ، فوقع فى نفسى أنها النخلة ، فأردت أن أقول : هى النخلة ، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنًا فسكتُّ ، فقال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » ، فذكرت ذلك لعمر، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا (١) .

ففى هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه ، وتمرينهم ، واختبار ما عندهم .

وفيه ضرب الأمثال والتشبيه .

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلالهم ، وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم .

وفيه فرح الرجل بإصابة ولده ، وتوفيقه للصواب .

وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما يعرف بحضرة أبيه ، وإن لم يعرفه الأب ، وليس فى ذلك إساءة أدب عليه .

وفيه ما تضمنه تشبيه المسلم بالنخلة من كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام .

وثمرها يؤكل رطبًا ويابسًا ، وبلحًا ويانعًا ، وهو غذاء ودواء وقوت وحلوى ، وشراب وفاكهة ، وجذوعها للبناء والآلات والأوانى، ويتخذ من خوصها الحصر والمكاتل والأوانى والمراوح ، وغير ذلك ، ومن ليفها الحبال والحشايا وغيرها ، ثم آخر شىء نواها علف للإبل ، ويدخل فى الأدوية والأكحال ، ثم جمال ثمرتها ونباتها وحسن هيئتها ، وبهجة منظرها ، وحسن نضد ثمرها ، وصنعته وبهجته ، ومسرة النفوس عند رؤيته ، فرؤيتها مذكرة لفاطرها وخالقها ، وبديع صنعته ، وكمال قدرته ، وتمام حكمته ، ولا شىء أشبه بها من الرجل المؤمن ، إذ هو خير كله ، ونفع ظاهر وباطن .

---

(١) البخارى (٥٤٤٨) فى الأطعمة ، باب : بركة النخلة ، ومسلم (٢٨١١ / ٦٣) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة .

وهى الشجرة التى حن جذعها إلى رسول الله ﷺ لما فارقه شوقًا إلى قربه ، وسماع كلامه ، هى التى نزلت تحتها مريم لما ولدت عيسى عليه السلام ، وقد ورد فى حديث فى إسناده نظر : « أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم » (١) .

وقد اختلف الناس فى تفضيلها على الحبلة أو بالعكس على قولين ، وقد قرن الله بينهما فى كتابه فى غير موضع ، وما أقرب أحدهما من صاحبه ، وإن كان كل واحد منهما فى محل سلطانه ومنبته ، والأرض التى توافقه أفضل وأنفع .

نرجس :

فيه حديث لا يصح : « عليكم بشم النرجس ، فإن فى القلب حبة الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شم النرجس » (٢) .

وهو حار يابس فى الثانية ، وأصله يدمل القروح الغائرة إلى العصب ، وله قوة غسالة جالية جابذة ، وإذا طبخ وشرب ماؤه أو أكل مسلوقًا ، هيج القىء ، وجذب الرطوبة من قعر المعدة ، وإذا طبخ مع الكرسنة والعسل نقى أوساخ القروح ، وفجر الدبيلات العسرة النضج .

وزهره معتدل الحرارة لطيف ينفع الزكام البارد ، وفيه تحليل قوى ، ويفتح سدد الدماغ والمنخرين ، وينفع من الصداع الرطب والسوداوى ، ويصدع الرؤوس الحارة ، والمحرق منه إذا شق بصله صليبًا ، وغرس ، صار مضاعفًا ، ومن أدمن شمه فى الشتاء أمن من البرسام فى الصيف ، وينفع من أوجاع الرأس الكائنة من البلغم والمرة السوداء ، وفيه من العطرية ما يقوى القلب والدماغ ،وينفع من كثير من أمراضها ، وقال صاحب التيسير : شمه يذهب بصرع الصبيان .

نورة :

روى ابن ماجه من حديث أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبى ﷺ كان إذا اطلى بدأ بعورته ، فطلاها بالنورة ، وسائرَ جسده ، أهلُه (٣) ، وقد ورد فيها عدة أحاديث هذا أمثلها .

قيل : إن أول من دخل الحمام وصنعت له النورة ؛ سليمان بن داود ، وأصلها :

---

(١) الجامع الصغير (١٤٣٢) وعزاه لابن أبى حاتم وابن السنى وأبى نعيم ، وقال :« ضعيف » ، وأبو يعلى (٤٥٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٩٢) : « فيه مسرور بن سعيد التميمى وهو ضعيف » .

(٢) الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية للكحال (٢ / ١١٣) ، والطب النبوى للذهبى (٩٢) .

(٣) ابن ماجه (٣٧٥١) فى الأدب ، باب : الاطلاء بالنورة ، وفى الزوائد : « هذا حديث رجاله ثقات ، وهو منقطع ، وحبيب بن أبى ثابت لم يسمع من أم سلمة ، قاله أبو زرعة » .

كلس جزآن، وزرنيخ جزء ، يخلطان بالماء، ويتركان فى الشمس أو الحمام بقدر ما تنضج ، وتشتد زرقته ، ثم يصلى به ، ويجلس ساعة ريثما يعمل ، ولا يمس بماء ، ثم يغسل ، ويطلى مكانها بالحناء لإذهاب ناريتها .

نبق :

ذكر أبو نعيم فى كتابه « الطب النبوى » مرفوعًا : « إن آدم لما أهبط إلى الأرض كان أول شى أكل من ثمارها النبق » ،وقد ذكر النبى ﷺ النبق فى الحديث المتفق على صحته : أنه رأى سدرة المنتهى ليلة أسرى به ، وإذا نبقها مثل قلال هجر [١] .

والنبق ثمر شجر السدر يعقل الطبيعة ، وينفع من الإسهال ، ويدبغ المعدة ، ويسكن الصفراء ، ويغذو البدن ، ويشهى الطعام ، ويولد بلغمًا ، وينفع الذرب الصفراوى ، وهو بطىء الهضم ، وسويقه يقوى الحشا ، وهو يصلح الأمزجة الصفراوية ، وتدفع مضرته بالشهد . واختلف فيه ، هل هو رطب أو يابس ؟ على قولين . والصحيح : أن رطبه بارد رطب ، ويابسه بارد يابس [٢] .

(١) البخارى (٣٢٠٧) فى بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة ، ومسلم (١٦٤ / ٢٦٤) فى الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة .
(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٩٧ ـ ٤٠٠) .

(حرف الهاء)

هندبا :

ورد فيها ثلاثة أحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ ، ولا يثبت مثلها ، بل هى موضوعة أحدها: « كلوا الهندباء ولا تنفضوه؛ فإنه ليس يوم من الأيام إلا وقطرات من الجنة تقطر عليه » ، الثانى : « من أكل الهندباء ثم نام عليها لم يحل فيه سم ولا سحر » ، الثالث : « ما من ورقة من ورق الهندباء إلا وعليها قطرة من الجنة » (١) .

وبعد فهي مستحيلة المزاج ،منقلبة بانقلاب فصول السنة ، فهى فى الشتاء باردة رطبة ، وفى الصيف حارة يابسة ، وفى الربيع والخريف معتدلة ، وفى غالب أحوالها تميل إلى البرودة واليبس ، وهى قابضة مبردة ، جيدة للمعدة ، وإذا طبخت وأكلت بِخَلٍ عقلت البطن وخاصة البرى منها ، فهى أجود للمعدة ، وأشد قبضًا ، وتنفع من ضعفها .

وإذا تضمد بها سلبت الالتهاب العارض فى المعدة ، وتنفع من النقرس ، ومن أورام العين الحارة ، وإذا تضمد بورقها وأصولها نفعت من لسع العقرب ، وهى تقوى المعدة ، وتفتح السدد العارضة فى الكبد ، وتنفع من أوجاعها ؛ حارها وباردها ، وتفتح سدد الطحال والعروق والأحشاء ، وتنقى مجارى الكلى .

وأنفعها للكبد أمرُّها ، وماؤها المعتصر ينفع من اليرقان السددى ، ولا سيما إذا خلط به ماء الرازيانج الرطب ، وإذا دق ورقها ، ووضع على الأورام الحارة بردها وحللها ، ويجلو ما فى المعدة ، ويطفئ حرارة الدم والصفراء ، وأصلح ما أكلت غير مغسولة ولا منفوضة ؛ لأنها متى غسلت أو نفضت فارقتها قوتها، وفيها مع ذلك قوة ترياقية تنفع من جميع السموم .

وإذا اكتحل بمائها نفع من العشا ، ويدخل ورقها فى الترياق، وينفع من لدغ العقرب ، ويقاوم أكثر السموم ،وإذا اعتصر ماؤها ،وصب عليه الزيت ، خلص من الأدوية القتالة ، وإذا اعتصر أصلها ، وشرب ماؤه،نفع من لسع الأفاعى ، ولسع العقرب، ولسع الزنبور ، ولبن أصلها يجلو بياض العين (٢) .

---

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للشوكانى (ص ١٦٥ ، ١٦٦) .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٤٠٠ ـ ٤٠٢) .

(حرف الواو)

ورس :

ذكر الترمذى فى « جامعه » من حديث زيد بن أرقم ، عن النبى ﷺ ، أنه كان ينعت الزيت والورس من ذات الجنب ، قال قتادة : يلد به ، ويلدُّ من الجانب الذى يشتكيه (١) .

وروى ابن ماجه فى « سننه » من حديث زيد بن أرقم أيضًا ، قال : نعت رسول الله ﷺ من ذات الجنب ورسًا وقسطًا وزيتًا يلد به (٢) .

وصح عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كانت النفساء تقعد بعد نفاسها أربعين يومًا ، وكانت إحدانا تطلى الورس على وجهها من الكلف (٣) .

قال أبو حنيفة اللغوى : الورس يزرع زرعًا ، وليس ببرى ، ولست أعرفه بغير أرض العرب ، ولا من أرض العرب بغير بلاد اليمن .

وقوته فى الحرارة واليبوسة فى أول الدرجة الثانية ، وأجوده الأحمر اللين فى اليد ، القليل النخالة ، ينفع من الكلف والحكة ، والبثور الكائنة فى سطح البدن إذا طلى به ، وله قوة قابضة صابغة ، وإذا شرب نفع من الوضح ، ومقدار الشربة منه وزن درهم .

وهو فى مزاجه ومنافعه قريب من منافع القسط البحرى ، وإذا لطخ به على البهق والحكة والبثور والسفعة نفع منها ، والثوب المصبوغ بالورس يقوى على الباه .

وسمة :

هى ورق النيل ، وهى تسود الشعر ، وقد تقدم قريبًا ذكر الخلاف فى جواز الصبغ بالسواد ومن فعله (٤) .

---

(١) الترمذى (٢٠٧٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى دواء ذات الجنب ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) ابن ماجه (٣٤٦٧) فى الطب ، باب : دواء ذات الجنب ، وضعفه الألبانى .

(٣) أبو داود (٣١١) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى وقت النفساء ، والترمذى (١٣٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى كم تمكث النفساء ، وقال : « غريب » .

(٤) زاد المعاد (٤ / ٤٠٢ ، ٤٠٣) .

(حرف الياء)

يقطين :

وهو الدباء والقرع، وإن كان اليقطين أعم، فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق ؛ كالبطيخ والقثاء والخيار ، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات] .

فإن قيل : ما لا يقوم على ساق يسمى نجمًا لا شجرًا ، والشجر : ما له ساق . قاله أهل اللغة . فكيف قال : ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ ؟

فالجواب : أن الشجر إذا أطلق ، كان ما له ساق يقوم عليه ، وإذا قيد بشيء تقيد به ، فالفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء باب مهم عظيم النفع في الفهم ، ومراتب اللغة .

واليقطين المذكور في القرآن هو نبات الدباء ، وثمره يسمى الدباء والقرع ، وشجرة اليقطين ، وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك ، أن خياطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه ، قال أنس رضي الله عنه : فذهبت مع رسول الله ﷺ ، فقرب إليه خبزًا من شعير ، ومرقًا فيه دباء وقديد ، قال أنس : فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حوالي الصحفة ، فلم أزل أحب الدباء من ذلك اليوم [(١)] .

وقال أبو طالوت : دخلت على أنس بن مالك رضي الله عنه وهو يأكل القرع ، ويقول : يا لك من شجرة ما أحبك إلي لحب رسول الله ﷺ إياك .

وفي « الغيلانيات » من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشة إذا طبخت قدرًا ، فأكثروا فيها من الدباء ، فإنها تشد قلب الحزين » [(٢)] .

اليقطين بارد رطب ، يغذو غذاء يسيرًا ، وهو سريع الانحدار ، وإن لم يفسد قبل الهضم ، تولد منه خلط محمود ، ومن خاصيته أنه يتولد منه خلط محمود مجانس لما يصحبه ، فإن أكل بالخردل تولد منه خلط حريف ، وبالملح خلط مالح ، ومع القابض قابض ، وإن طبخ بالسفرجل غذا البدن جيدًا .

وهو لطيف مائي يغذو غذاء رطبًا بلغميًا ، وينفع المحرورين ، ولا يلائم المبرودين ،

(١) البخاري (٥٤٣٦) في الأطعمة ، باب المرق ، ومسلم (٢٠٤١ / ١٤٤) في الأشربة ، باب : جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين .

(٢) الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال (٢ / ٨١) .

ومن الغالب عليه البلغم ، وماؤه يقطع العطش ، ويذهب الصداع الحار إذا شرب أو غسل به الرأس ، وهو ملين للبطن كيف استعمل ، ولا يتداوى المحرورون بمثله ، ولا أعجل منه نفعًا .

ومن منافعه : أنه إذا لطخ بعجين ، وشوى فى الفرن أو التنور ، واستخرج ماؤه وشرب ببعض الأشربة اللطيفة ، سكن حرارة الحمى الملتهبة ، وقطع العطش ، وغذى غذاء حسنًا ، وإذا شرب بترنجبين وسفرجل مربى أسهل صفراء محضة .

وإذا طبخ القرع ، وشرب ماؤه بشىء من عسل ، وشىء من نطرون ، أحدر بلغمًا ومرة معًا ، وإذا دق وعمل منه ضماد على اليافوخ نفع من الأورام الحارة فى الدماغ .

وإذا عصرت جرادته ، وخلط ماؤها بدهن الورد ، وقطر منها فى الأذن ، نفعت من الأورام الحارة ، وجرادته نافعة من أورام العين الحارة ، ومن النقرس الحار ، وهو شديد النفع لأصحاب الأمزجة الحارة والمحمومين ، ومتى صادف فى المعدة خلطًا رديئًا استحال إلى طبيعته وفسد ، وولد فى البدن خلطًا رديئًا ، ودفع مضرته بالخل والمرى .

وبالجملة فهو من ألطف الأغذية ، وأسرعها انفعالاً ، ويذكر عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يكثر من أكله (١) .

فصل
فى المحاذر والوصايا الكلية النافعة للبدن

وقد رأيت أن أختم الكلام فى هذا الباب بفصل مختصر عظيم النفع فى المحاذر ، والوصايا الكلية النافعة ، ورأيت لابن ماسويه فصلاً فى كتاب « المحاذير » نقلته بلفظه ، قال :

من أكل البصل أربعين يومًا وكلف ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن افتصد ، فأكل مالحًا فأصابه بهق أو جرب ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن جمع فى معدته البيض والسمك ، فأصابه فالج أو لقوة ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن دخل الحمام وهو ممتلئ فأصابه فالج ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن جمع فى معدته اللبن والسمك فأصابه جذام ، أو برص أو نقرس ، فلا يلومن إلا نفسه .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٤٠٣ ـ ٤٠٥) .

ومن جمع فى معدته اللبن والنبيذ فأصابه برص أو نقرس ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن احتلم فلم يغتسل حتى وطئ أهله فولدت مجنونًا أو مخبلاً ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن أكل بيضًا مسلوقًا باردًا وامتلأ منه ، فأصابه ربو ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن جامع ، فلم يصبر حتى يفرغ فأصابه حصاة ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن نظر فى المرآة ليلاً فأصابه لقوة أو أصابه داء ، فلا يلومن إلا نفسه .

وقال ابن بختيشوع : احذر أن تجمع البيض والسمك ؛ فإنهما يورثان القولنج ، والبواسير ، ووجع الأضراس .

وإدامة أكل البيض يولد الكلف فى الوجه ، وأكل المملوحة والسمك المالح ، والافتصاد بعد الحمام يولد البهق والجرب .

إدامة أكل كلى الغنم يعقر المثانة ، الاغتسال بالماء البارد بعد أكل السمك الطرى يولد الفالج .

وطء المرأة الحائض يولد الجذام ، الجماع من غير أن يهريق الماء عقيبه يولد الحصاة ، طول المكث فى المخرج يولد الداء الدوى .

قال أبقراط : الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع .

وقال : استديموا الصحة بترك التكاسل عن التعب ، وبترك الامتلاء من الطعام والشراب .

وقال بعض الحكماء : من أراد الصحة ، فليجود الغذاء ، وليأكل على نقاء ، وليشرب على ظمأ ، وليقلل من شرب الماء ، ويتمدد بعد الغذاء ، ويتمش بعد العشاء ، ولا ينم حتى يعرض نفسه على الخلاء ، وليحذر دخول الحمام عقيب الامتلاء ، ومرة فى الصيف خير من عشر فى الشتاء ، وأكل القديد اليابس معين على الفناء ، ومجامعة العجائز تهرم أعمار الأحياء ، وتسقم أبدان الأصحاء ، ويروى هذا عن على رضي الله عنه ، ولا يصح عنه ، وإنما بعضه من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، وكلام غيره .

وقال الحارث : من سرة البقاء ـ ولا بقاء ـ فليباكر الغداء ، وليعجل العشاء ، وليخفف الرداء ، وليقل غشيان النساء .

وقال الحارث : أربعة أشياء تهدم البدن : الجماع على البطنة ، ودخول الحمام على

الامتلاء ، وأكل القديد ، وجماع العجوز .

ولما احتضر الحارث اجتمع إليه الناس ، فقالوا: مرنا بأمر ننتهى إليه من بعدك ، فقال : لا تتزوجوا من النساء إلا شابة ، ولا تأكلوا من الفاكهة إلا فى أوان نضجها ، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء ، وعليكم بتنظيف المعدة فى كل شهر ؛ فإنها مذيبة للبلغم ، مهلكة للمرة ، منبتة للحم ، وإذا تغدى أحدكم فلينم على إثر غدائه ساعة ، وإذا تعشى فليمش أربعين خطوة .

وقال بعض الملوك لطبيبه : لعلك لا تبقى لى ، فصف لى صفة آخذها عنك ، فقال : لا تنكح إلا شابة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتيًا ، ولا تشرب الدواء إلا من علة ، ولا تأكل الفاكهة إلا فى نضجها ، وأجد مضغ الطعام ، وإذا أكلت نهارًا فلا بأس أن تنام ، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشى ولو خمسين خطوة ، ولا تأكلن حتى تجوع ، ولا تتكارهن على الجماع ، ولا تحبس البول ، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك ، ولا تأكلن طعامًا وفى معدتك طعام،وإياك أن تأكل ما تعجز أسنانك عن مضغه فتعجز معدتك عن هضمه ، وعليك فى كل أسبوع بقيئة تنقى جسمك ، ونعم الكنز الدم فى جسدك ، فلا تخرجه إلا عند الحاجة إليه ، وعليك بدخول الحمام ؛ فإنه يخرج من الأطباق ما لا تصل الأدوية إلى إخراجه .

وقال الشافعى :

أربعة تقوى البدن : أكل اللحم ، وشم الطيب ، وكثرة الغسل من غير جماع ، ولبس الكتان .

وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع ، وكثرة الهم ، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة أكل الحامض .

وأربعة تقوى البصر : الجلوس حيال الكعبة ، والكحل عند النوم ، والنظر إلى الخضرة ، وتنظيف المجلس .

وأربعة توهن البصر : النظر إلى القذر ، وإلى المصلوب ، وإلى فرج المرأة ، والقعود مستدبر القبلة .

وأربعة تزيد فى الجماع : أكل العصافير ، والإطريفل ، والفستق ، والخروب .

وأربعة تزيد فى العقل : ترك الفضول من الكلام ، والسواك ، ومجالسة الصالحين ، ومجالسة العلماء .

وقال أفلاطون : خمس يذبن البدن وربما قتلن : قصر ذات اليد ، وفراق الأحبة ، وتجرع المغايظ ، ورد النصح ، وضحك ذوى الجهل بالعقلاء .

وقال طبيب المأمون: عليك بخصال ، مَنْ حفظها فهو جدير ألا يعتل إلا علة الموت : لا تأكل طعامًا وفى معدتك طعام، وإياك أن تأكل طعامًا تتعب أضراسك فى مضغه ، فتعجز معدتك عن هضمه، وإياك وكثرة الجماع ؛ فإنه يطفئ نور الحياة ، وإياك ومجامعة العجوز ؛ فإنه يورث موت الفجأة ، وإياك والفصد إلا عند الحاجة إليه ، وعليك بالقىء فى الصيف .

ومن جوامع كلمات أبقراط قوله : كل كثير فهو معاد للطبيعة .

وقيل لجالينوس : مالك لا تمرض ؟ فقال : لأنى لم أجمع بين طعامين رديئين ، ولم أدخل طعامًا على طعام ، ولم أحبس فى المعدة طعامًا تأذيت به .

وأربعة أشياء تمرض الجسم : الكلام الكثير ، والنوم الكثير ، والأكل الكثير ، والجماع الكثير .

فالكلام الكثير : يقلل مخ الدماغ ويضعفه ، ويعجل الشيب .

والنوم الكثير : يصفر الوجه ، ويعمى القلب ، ويهيج العين ، ويكسل عن العمل ، ويولد الرطوبات فى البدن .

والأكل الكثير يفسد فم المعدة ، ويضعف الجسم ، ويولد الرياح الغليظة ، والأدواء العسرة .

والجماع الكثير : يهدُّ البدن ، ويضعف القوى ، ويجفف رطوبات البدن ، ويرخى العصب ، ويورث السدد ، ويعم ضرره جميع البدن ، ويخص الدماغ لكثرة ما يتحلل به من الروح النفسانى ، وإضعافه أكثر من إضعاف جميع المستفرغات ، ويستفرغ من جوهر الروح شيئًا كثيرًا .

وأنفع ما يكون إذا صادف شهوة صادقة من صورة جميلة حديثة السن حلالا مع سن الشبوبية ،وحرارة المزاج ورطوبته ، وبعد العهد به، وخلاء القلب من الشواغل النفسانية ، ولم يفرط فيه ، ولم يقارنه ما ينبغى تركه معه من امتلاء مفرط ، أو خواء ، أو استفراغ ، أو رياضة تامة ، أو حر مفرط ، أو برد مفرط ، فإذا راعى فيه هذه الأمور العشرة ، انتفع به جدًا ، وأيها فُقِدَ فَقَدْ حصل له من الضرر بحسبه ، وإن فقدت كلها أو أكثرها ، فهو الهلاك المعجل .

والحمية المفرطة فى الصحة كالتخليط فى المرض ، والحمية المعتدلة نافعة ، وقال

جالينوس لأصحابه : اجتنبوا ثلاثًا ، وعليكم بأربع ، ولا حاجة بكم إلى طبيب : اجتنبوا الغبار ، والدخان ، والنتن ، وعليكم بالدسم ، والطيب ، والحلوى ، والحمام ، ولا تأكلوا فوق شبعكم ، ولا تتخللوا بالباذروج ، والريحان ، ولا تأكلوا الجوز عند المساء ، ولا ينم من به زكمة على قفاه ،ولا يأكل من به غم حامضًا ، ولا يسرع المشى من افتصد ، فإنه مخاطرة الموت ، ولا يتقيأ من تؤلمه عينه ، ولا تأكلوا فى الصيف لحمًا كثيرًا ، ولا ينم صاحب الحمى الباردة فى الشمس ، ولا تقربوا الباذنجان العتيق المبزر ، ومن شرب كل يوم فى الشتاء قدحًا من ماء حار ، أمن من الأعلال ، ومن دلك جسمه فى الحمام بقشور الرمان أمن من الجرب والحكة ، ومن أكل خمس سوسنات مع قليل مصطكى رومى ، وعود خام ، ومسك ، بقى طول عمره لا تضعف معدته ولا تفسد ، ومن أكل بزر البطيخ مع السكر نظف الحصى من معدته ، وزالت عنه حرقة البول (١) .

فصل

أربعة تهدم البدن : الهم ، والحزن ، والجوع ، والسهر .

وأربعة تفرح : النظر إلى الخضرة ، وإلى الماء الجارى ، والمحبوب ، والثمار .

وأربعة تظلم البصر : المشى حافيًا ، والتصبح والتمسى بوجه البغيض والثقيل ، والعدو ، وكرة البكاء ، وكثرة النظر فى الخط الدقيق .

وأربعة تقوى الجسم : لبس الثوب الناعم ، ودخول الحمام المعتدل ، وأكل الطعام الحلو والدسم ، وشم الروائح الطيبة .

وأربعة تيبس الوجه ، وتذهب ماءه وبهجته وطلاوته : الكذب ، والوقاحة ، وكثرة السؤال عن غير علم ، وكثرة الفجور .

وأربعة تزيد فى ماء الوجه وبهجته : المروءة ، والوفاء ، والكرم ، والتقوى .

وأربعة تجلب البغضاء والمقت : الكبر ، والحسد ، والكذب ، والنميمة .

وأربعة تجلب الرزق : قيام الليل ، وكثرة الاستغفار بالأسحار ، وتعاهد الصدقة ، والذكر أول النهار وآخره .

وأربعة تمنع الرزق : نوم الصبحة ، وقلة الصلاة ، والكسل ، والخيانة .

وأربعة تضر بالفهم والذهن : إدمان أكل الحامض والفواكه ، والنوم على القفا ، والهم ، والغم .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٤٠٥ ـ ٤٠٨) .

وأربعة تزيد فى الفهم : فراغ القلب ، وقلة التملى من الطعام والشراب ، وحسن تدبير الغذاء بالأشياء الحلوة والدسمة ، وإخراج الفضلات المثقلة للبدن .

ومما يضر بالعقل: إدمان أكل البصل ، والباقلا ، والزيتون ،والباذنجان،وكثرة الجماع ، والوحدة ، والأفكار ،والسكر ، وكثرة الضحك ، والغم .

قال بعض أهل النظر : قطعت فى ثلاث مجالس ، فلم أجد لذلك علة إلا أنى أكثرت من أكل الباذنجان فى أحد تلك الأيام،ومن الزيتون فى الآخر، ومن الباقلا فى الثالث [١] .

فصل

قد أتينا على جملة نافعة من أجزاء الطب العلمى والعملى ، لعل الناظر لا يظفر بكثير منها إلا فى هذا الكتاب ، وأريناك قرب ما بينها وبين الشريعة ، وأن الطب النبوى نسبة طب الطبائعيين إليه أقل من نسبة طب العجائز إلى طبهم .

والأمر فوق ما ذكرناه ، وأعظم مما وصفناه بكثير ، ولكن فيما ذكرناه تنبيه باليسير على ما وراءه ، ومن لم يرزقه الله بصيرة على التفصيل ، فليعلم ما بين القوة المؤيدة بالوحى من عند الله ، والعلوم التى رزقها الله الأنبياء ، والعقول والبصائر التى منحهم الله إياها ، وبين ما عند غيرهم .

ولعل قائلاً يقول : ما لهدى الرسول ﷺ ، وما لهذا الباب ، وذكر قوى الأدوية ، وقوانين العلاج، وتدبير أمر الصحة ؟

وهذا من تقصير هذا القائل فى فهم ما جاء به الرسول ﷺ ، فإن هذا وأضعافه وأضعاف أضعافه من فهم بعض ما جاء به ، وإرشاده إليه ، ودلالته عليه ، وحسن الفهم عن الله ورسوله مَنٌّ يمن الله به على من يشاء من عباده .

فقد أوجدناك أصول الطب الثلاثة فى القرآن ، وكيف تنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملة على صلاح الأبدان ، كاشتمالها على صلاح القلوب ، وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها ، ودفع آفاتها بطرق كلية قد وكل تفصيلها إلى العقل الصحيح ، والفطرة السليمة بطريق القياس والتنبيه والإيماء ، كما هو فى كثير من مسائل فروع الفقه ، ولا تكن ممن إذا جهل شيئًا عاداه .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٤١٢ ، ٤١٣) .

ولو رزق العبد تضلعًا من كتاب الله وسنة رسوله ،وفهمًا تامًا فى النصوص ولوازمها ، لاستغنى بذلك عن كل كلام سواه ، ولاستنبط جميع العلوم الصحيحة منه.

فمدار العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه ، وذلك مسلم إلى الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فهم أعلم الخلق بالله وأمره وخلقه وحكمته فى خلقه وأمره . وطب أتباعهم أصح وأنفع من طب غيره ، وطب أتباع خاتمهم وسيدهم ، وإمامهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أكمل الطب وأصحه وأنفعه ، ولا يعرف هذا إلا من عرف طب الناس سواهم وطبهم ، ثم وازن بينهما ، فحينئذ يظهر له التفاوت ، وهم أصح الأمم عقولاً وفطرًا ، وأعظمهم علمًا ، وأقربهم فى كل شىء إلى الحق ؛ لأنهم خيرة الله من الأمم ، كما أن رسولهم خيرته من الرسل ، والعلم الذى وهبهم إياه والحلم والحكمة أمر لايدانيهم فيه غيرهم ،وقد روى الإمام أحمد فى « مسنده » من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ﷺ ، قال :قال رسول الله ﷺ:« أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله » (١) ،فظهر أثر كرامتها على الله سبحانه فى علومهم وعقولهم ، وأحلامهم وفطرهم ، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم ، وأعمالهم ودرجاتهم ، فازدادوا بذلك علمًا وحلمًا وعقولاً إلى ما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه .

ولذلك كانت الطبيعة الدموية لهم ، والصفراوية لليهود ، والبلغمية للنصارى ؛ ولذلك غلب على النصارى البلادة ، وقلة الفهم والفطنة ، وغلب على اليهود الحزن والهم والغم والصغار،وغلب على المسلمين العقل والشجاعة،والفهم والنجدة، والفرح والسرور.

وهذه أسرار وحقائق إنما يعرف مقدارها من حسن فهمه ،ولطف ذهنه ، وغزر علمه ، وعرف ما عند الناس ، وبالله التوفيق (٢) .

فصل
فى ذكر طرف من فتاويه ﷺ فى الطب

. سأله ﷺ أعرابى ، فقال : يا رسول الله ، أنتداوى ؟ قال : « نعم ، فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ؛ علمه من علمه ، وجهله من جهله » ، ذكره أحمد .

---

(١) أحمد (٥ / ٥) ، وحسَّنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٤٢٨٨) .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٨٣ ـ ٤١٥) .

وفى السنن أن الأعراب قالت : يا رسول الله ، ألا نتداوى ؟ قال : « نعم ، عباد الله تداووا ؛ فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ؛ أو دواء ؛ إلا داء واحدًا » قالوا : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : « الهرم » (١) .

وسئل ﷺ فقيل له : أرأيت رقى نسترقيها ؛ ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ؛ هل ترد من قدر الله شيئًا ؟ قال : « هى من قدر الله » ذكره الترمذى .

وسئل ﷺ : هل يغنى الدواء شيئًا ؟ فقال : « سبحان الله ! وهل أنزل الله تبارك وتعالى من داء فى الأرض إلا جعل له شفاء » ذكره أحمد (٢) .

وسئل ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب من أمته ، فقال : « هم الذين لا يسترقون ،ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » متفق عليه (٣) .

وسأله ﷺ آل عمرو بن حزم ، فقالوا : إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرقى ،قال:« اعرضوا على رقاكم » ، قال : فعرضوا عليه ، فقال : « ما أرى بأسًا ، من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل » . ذكره مسلم (٤) .

واستفتاه عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه ، وشكا إليه وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال : « ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل :باسم الله ثلاثًا ، وقل :سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » ذكره مسلم (٥) .

وسئل ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، الرجل يبتلى على حسب دينه ، فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلى على حسب ذلك ؛ فما يزال البلاء بالرجل حتى يمشى على وجه الأرض ، وما عليه » . ذكره أحمد ، وصححه الترمذى (٦) .

وذكر ابن ماجه أنه سئل: أى الناس أشد بلاء ؟ قال: «الأنبياء»، قلت: يا رسول الله،

---

(١) أبو داود (٣٨٥٥) فى الطب ، باب : فى الرجل يتداوى .

(٢) أحمد (٥ / ٣٧١) .

(٣) البخارى (٥٧٥٢) فى الطب ، باب : من لم يرق ، ومسلم (٢٢٠ / ٣٧٤) فى الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب .

(٤) مسلم (٢٢٠٠ / ٦٤) فى السلام ، باب : لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك .

(٥) مسلم (٢٢٠٢ / ٦٧) فى السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء .

(٦) أحمد (١ / ١٧٢) ، والترمذى (٢٣٩٨) فى الزهد ، باب : ما جاء فى الصبر على البلاء ، وقال : « حسن صحيح » .

ثم من ؟ قال : « ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة تحويه ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالعافية » (١) .

وسأله ﷺ رجل : أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا ما لنا بها ؟

قال : « كفارات » ، قال أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه : وإن قلت ؟ قال : « وإن شوكة فما فوقها » ، فدعا أبو سعيد على نفسه ألا يفارقه الوعك حتى يموت ، وألا يشغله عن حج ، ولا عن عمرة ، ولا جهاد فى سبيل الله ، ولا صلاة مكتوبة فى جماعة ، فما مسه إنسان إلا وجد حره حتى مات ، ذكره أحمد (٢) .

وقال أسامة رضي الله عنه : شهدت الأعراب يسألون النبى ﷺ أعلينا حرج فى كذا ؟ أعلينا حرج فى كذا ؟ فقال: « عباد الله ، وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئًا ، فذلك هو الحرج »، فقالوا: يا رسول الله ، هل علينا من جناح أن نتداوى ؟ قال : « تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع معه شفاء ، إلا الهرم » ، قالوا : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى العبد ؟ قال : « حسن الخلق » ، ذكره ابن ماجه (٣) .

وسئل ﷺ عن الرقى ، فقال : « اعرضوا على من رقاكم » ، ثم قال : « لا بأس بما ليس فيه شرك » ، ذكره مسلم .

وسأله ﷺ طبيب عن ضفدع يجعلها فى دواء ، فنهى النبى ﷺ عن قتلها ، ذكره أهل السنن (٤) .

وشكا إليه ﷺ الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف القمل ، فأفتاهم بلبس قميص الحرير ، ذكره البخارى فى صحيحه (٥) .

وأفتى ﷺ أن من تطبب ، ولم يعرف منه طب ، فهو ضامن (٦) ، وهو يدل بمفهومه على أنه إذا كان طبيبًا ، وأخطأ فى تطبيبه ، فلا ضمان عليه .

وشكا إليه ﷺ المشاة فى طريق الحج تعبه وضعفهم عن المشى، فقال لهم : « استعينوا

---

(١) ابن ماجه (٤٠٢٤) فى الفتن ، باب : الصبر على البلاء ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٢) أحمد (٣ / ٢٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٣٠٤ ، ٣٠٥) : « رجاله ثقات » .

(٣) ابن ماجه (٣٤٣٦) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات ، وقد روى بعضه أبو داود والترمذى أيضًا » .

(٤) أبو داود (٣٨٧١) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة .

(٥) البخارى (٥٨٣٩) فى اللباس ، باب : ما يرخص للرجال من الحرير للحكة .

(٦) ابن ماجه (٣٤٦٦) فى الطب ، باب : من تطبب ولم يعلم منه طب .

بالنسل ، فإنه يقطع عنك الأرض وتخفون له » ، قالوا : ففعلنا ، فخففنا له ، والنسل : العدو مع تقارب الخطا، ذكر ابن مسعود الدمشقى أن هذا الحديث فى مسلم ، وليس فيه ، وإنما هو زيادة فى حديث جابر الطويل الذى رواه مسلم فى صفة حج النبى ﷺ ، وإسناده حسن (١) .

وسألته ﷺ أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، فقالت : يا رسول الله ، إن ولد جعفر تسرع إليهم العين،أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فإنه لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » ، ذكره أحمد (٢) .

وعند مالك عن حميد بن قيس المكى قال : دخل على رسول الله ﷺ بابنى جعفر بن أبى طالب،فقال لحاضنتهما :« ما لى أراهما ضارعين ؟ » فقالت : إنه لتسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نسترقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ، فقال : « استرقوا لهما ، فإنه لو سبق شىء القدر لسبقته العين » (٣) .

وسئل ﷺ عن النشرة ، فقال :« هى من عمل الشيطان » ذكره أحمد وأبو داود (٤) ، والنشرة : حسل السحر عن المسحور .

وهى نوعان : حل سحر بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان ؛ فإن السحر من عمله ، فيتقرب إليه الناشر المنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور ، والثانى : النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة ، فهذا جائز ، بل مستحب ، وعلى النوع المذموم يحمل قول الحسن : لا يحل السحر إلا ساحر .

وسئل ﷺ عن الطاعون ، فقال : « عذابًا كان يبعثه الله على من كان قبلكم ، فجعله الله رحمة للمؤمنين ، ما من عبد يكون فى بلد ويكون فيه،فيمكث لا يخرج صابرًا محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد » ذكره البخارى (٥) .

وسأله ﷺ فروة بن مسيك رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ، إنا بأرض يقال لها إبين ، وهى ريفنا وميرتنا ، وهى وبية أو قال : وباها شديد ، فقال رسول الله ﷺ : « دعها عنك ، فإن من القرف التلف » (٦) .

---

(١) مسلم (١٢١٨/٤٧) فى الحج ، باب : حجة النبى ﷺ .
(٢) أحمد (٦/٤٣٨) .
(٣) مالك فى الموطأ (٢ / ٩٣٩) (٣) فى العين ، باب : الرقية من العين .
(٤) أبو داود (٣٨٦٨) فى الطب ، باب : فى النشرة ، وأحمد (٣ / ٢٩٤) .
(٥) البخارى (٥٧٣٤) فى الطب ، باب : أجر الصابر على الطاعون .
(٦) أبو داود (٣٩٢٣) فى الطب ، باب : فى الطيرة ، وأحمد (٣ / ٤٥١) ، وضعفه الألبانى .

وفيه دليل على نوع شريف من أنواع الطب ، وهو استصلاح التربة والهواء ، كما ينبغي استصلاح الماء ، والغذاء ، فإن بصلاح هذه الأربعة يكون صلاح البدن واعتداله .

وقال ﷺ : « لا طيرة ، وخيرها الفأل » ، قيل : يا رسول الله ، وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » . متفق عليه (١).

وفى لفظ لهما: « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبنى الفأل ». قالوا : وما الفأل ؟ قال : « كلمة طيبة » (٢) .

ولما قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة » . قال له رجل : أرأيت البعير يكون به الجرب ، فتجرب الإبل ؟ قال : « ذاك القدر ، فمن أجرب الأول ؟ » ذكره أحمد (٣) .

ولا حجة فى هذا لمن أنكر الأسباب ، بل فيه إثبات القدر ، ورد الأسباب كلها إلى الفاعل الأول ، إذ لو كان كل سبب مستندًا إلى سبب قبله ، لا إلى غاية لزم التسلسل فى الأسباب ، وهو ممتنع ، فقطع النبى ﷺ التسلسل بقوله : « فمن أعدى الأول » ، إذ لو كان الأول قد جرب بالعدوى والذى قبله كذلك ، لا إلى غاية لزم التسلسل الممتنع .

وسألته ﷺ امرأة ، فقالت : يا رسول الله ، دار سكناها والعدد كثير ، والمال وافر ، فقل العدد وذهب المال ، فقال : « دعوها ذميمة » ذكره مالك مرسلا (٤) .

وهذا موافق لقوله ﷺ : « إن كان الشؤم فى شىء فهو فى ثلاثة : فى الفرس ، وفى الدار ، والمرأة » (٥). وهو إثبات لنوع خفى من الأسباب ، ولا يطلع عليه أكثر الناس ، ولا يعلم إلا بعد وقوع مسببه ، فإن من الأسباب ما يعلم سببيته قبل وقوع مسببه ، وهى الأسباب الظاهرة ، ومنها ما لا يعلم سببيته إلا بعد وقوع مسببه وهى الأسباب الخفية ، ومنه قول الناس : فلان مشؤوم الطلعة ، ومدور الكعب ، ونحوه ، فالنبى ﷺ أشار إلى هذا النوع ولم يبطله ، وقوله : « إن كان الشؤم فى شىء فهو فى ثلاثة » ، تحقيق لحصول الشؤم فيها ،وليس نفيًا لحصوله من غيرها ، كقوله: « إن كان فى شىء تتداوون به شفاء ،

---

(١) البخارى (٥٧٥٤) فى الطب ، باب : الطيرة ، ومسلم (٢٢٢٣/ ١١٠) فى السلام ، باب :الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

(٢) البخارى (٥٦٧٦) فى الطب ، باب : لا عدوى ، ومسلم (٢٢٢٤ / ١١١) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

(٣) أحمد (٢ / ٤٣٤) والبخارى (٥٧٧٥) فى الطب ، باب : لا عدوى .

(٤) مالك فى الموطأ (٢ / ٩٧٢) (٢٣) فى الاستئذان ، باب : ما ينفى من الشؤم ، وقال ابن عبد البر : « هذا حديث محفوظ عن أنس وغيره » .

(٥) مسلم (٢٢٢٣ / ١١٥) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار ،ولا أحب الكى » ذكره البخارى [١] .

وقال : « من ردته الطيرة من حاجته فقد أشرك » ، قالوا : يا رسول الله ، وما كفارة ذلك ؟ قال :« أن يقول :اللهم لا طير إلا طيرك،ولا خير إلا خيرك » ذكره أحمد [٢] [٣] .

(١) البخارى (٥٦٨٠) فى الطب ، باب : الشفاء فى ثلاث .

(٢) أحمد (٢ / ٢٢٠) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٠٤٥) : « إسناده صحيح » .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٤٨٥ ـ ٤٩١) .



كتاب

المفاضلات



فصل
فى التخيير بين الأنبياء

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ ، قال : « ما ينبغى لعبد أن يقول : إنى خير من يونس بن متى ». وأخرجه البخارى ومسلم (١).

وفى حديث ابن عباس - فى بعض طرق البخارى فيه عن النبى ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل : « لا ينبغى لعبد . . . » الحديث (٢). ورواه مسلم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال - يعنى الله عز وجل : « لا ينبغى لعبد لى أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (٣) .

وفى رواية: « لعبدى » (٤).

وفى حديث ابن عباس نسبه إلى أبيه.

وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: « لا يقولن أحدكم : إنى خير من يونس بن متى » (٥).

وعنه أيضا عن النبى ﷺ قال: « ما ينبغى لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى» (٦).

وفى لفظ آخر: « أن يقول: أنا خير من يونس بن متى » ذكره البخارى أيضاً (٧).

وفى صحيح البخارى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ، ونحوه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٨).

وأخرج البخارى أيضاً عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل

---

(١) البخارى (٣٤١٣) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ومسلم (٢٣٧٧/ ١٦٧) فى الفضائل ، باب : فى ذكر يونس عليه السلام ، وقول النبى ﷺ: « لا ينبغى لعبد أن يقول . . . » .

(٢) البخارى (٣٤١٦) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٣، ٤) مسلم (٢٣٧٦/ ١٦٦) فى الفضائل ،باب: فى ذكر يونس عليه السلام،وقول النبى ﷺ: « لا ينبغى لعبد . . . » .

(٥) البخارى (٤٨٠٤) فى الأنبياء ، باب: قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٦) البخارى (٤٨٠٤) فى التفسير ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٧) البخارى (٣٤١٣) فى الأنبياء، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٨) البخارى (٣٣٨٢) فى الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ﴾، ومسلم (٢٣٧٨/ ١٦٨) فى الفضائل ، باب: من فضائل يوسف عليه السلام .

يده » (١) .

والمراد بالقرآن هاهنا: الزبور. كما أريد بالزبور القرآن فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥] ، وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع، وأول مشفع » وأخرجه مسلم (٢).

قد يتوهم كثير من الناس أن بين الحديثين خلافا.

وذلك أنه قد أخبر فى حديث أبى هريرة أنه « سيد ولد آدم »،والسيد أفضل من المسود،وقال فى حديث ابن عباس ﷺ :« ما ينبغى لعبد أن يقول:أنا خير من يونس بن متى».

والأمر فى ذلك بين ،ووجه التوفيق بين الحديثين واضح.

وذلك أن قوله ﷺ:« أنا سيد ولد آدم »إنما هو إخبار عما أكرمه الله به من الفضل والسؤدد ،وتحدث بنعمة الله عليه،وإعلام لأمته وأهل دعوته مكانه عند ربه ،ومحله من خصوصيته ،ليكون إيمانهم بنبوته واعتقادهم لطاعته على حسب ذلك ،وكان بيان هذا لأمته،وإظهاره لهم:من اللازم له ،والمفروض عليه.

فأما قوله فى يونس صلوات الله عليه وسلامه:فقد يتأول على وجهين:

أحدهما:أن يكون قوله:« ما ينبغى لعبد » إنما أراد به من سواه من الناس،دون نفسه.

والوجه الآخر:أن يكون ذلك عاماً مطلقاً فيه،وفى غيره من الناس ،ويكون هذا القول منه على الهضم من نفسه ، وإظهار التواضع لربه.

يقول : لا ينبغى لى أن أقول : أنا خير منه ؛ لأن الفضيلة التى نلتها كرامة من الله سبحانه ، وخصوصية منه:لم أنلها من قبل نفسى ،ولا بلغتها بحولى وقوتى ،فليس لى أن أفتخر بها ، إنما يجب على أن أشكر عليها ربى.

وإنما خص يونس بالذكر ـ فيما نرى والله أعلم ـ لما قصه الله تعالى علينا من شأنه،وما كان من قلة صبره على أذى قومه،فخرج مغاضباً لهم، ولم يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

قلت: وهذا أولى الوجهين وأشبههما بمعنى الحديث ، فقد جاء من غير هذا الطريق أنه ﷺ قال : « ما ينبغى لنبى أن يقول : إنى خير من يونس بن متى » (٣) ، فعمَّ به الأنبياء

---

(١) البخارى (٣٤١٧) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ .

(٢) مسلم (٣/٢٢٧٨) فى الفضائل ، باب : تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق.

(٢) أبو داود (٤٦٧٠) فى السنة ،باب:فى التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

كلهم، فدخل هو فى جملتهم [١].

فصل

فى المفاضلة بين عائشة وفاطمة رضي الله عنهما وغير ذلك

الخلاف فى كون عائشة أفضل من فاطمة أو فاطمة أفضل : إذا حرر محل التفضيل صار وفاقا، فالتفضيل بدون التفصيل لا يستقيم. فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله عز وجل فذلك أمر لا يطلع عليه إلا بالنص ؛ لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح ،وكم من عاملين أحدهما أكثر عملا بجوارحه، والآخر أرفع درجة منه فى الجنة .وإن أريد بالتفضيل التفضل بالعلم ، فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة ، وأدت إلى الأمة من العلم مالم يؤد غيرها ، واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها وإن أريد بالتفضيل شرف الأصل وجلالة النسب ،فلا ريب أن فاطمة أفضل ، فإنها بضعة من النبى ﷺ، وذلك اختصاص لم يشركها فيه غير إخوتها. وإن أريد السيادة ، ففاطمة سيدة نساء الأمة. وإذا ثبتت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه صار الكلام بعلم وعدل.

وأكثر الناس إذا تكلم فى التفضيل لم يفصل جهات الفضل ولم يوازن بينهما، فيبخس الحق. وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصيب وهوى لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم .وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل،فأجاب فيها بالتفصيل الشافى. فمنها أنه سئل عن تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر أو العكس ، فأجاب بما يشفى الصدور، فقال: أفضلهما أتقاهما لله، فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة.

ومنها: أنه سئل عن عشر ذى الحجة والعشر الأواخر من رمضان أيهما أفضل ؟ فقال : أيام عشر ذى الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان، والليالى العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالى عشر ذى الحجة. وإذا تأمل الفاضل اللبيب هذا الجواب وجده شافيا كافيا، فإنه ليس من أيام العمل فيها أحب إلى الله من أيام عشر ذى الحجة ، وفيها يوم عرفة ويوم النحر ويوم التروية . وأما ليالى عشر رمضان فهى ليالى الإحياء التى كان رسول الله ﷺ يحييها كلها، وفيها ليلة خير من ألف شهر. فمن أجاب بغير هذا التفصيل لم يمكنه أن يدلى بحجة صحيحة.

ومنها :أنه سئل عن ليلة القدر وليلة الإسراء بالنبى ﷺ أيهما أفضل؟ فأجاب بأن ليلة الإسراء أفضل فى حق النبى ﷺ، وليلة القدر أفضل بالنسبة إلى الأمة ، فحظ النبى الذى اختص به ليلة المعراج منها أكمل من حظه من ليلة القدر، وحظ الأمة من ليلة القدر أكمل

(١) تهذيب السنن (٧/ ٣٩ ـ ٤٢) .

من حظهم من ليلة المعراج وإن كان لهم أعظم حظ ، لكن الفضل والشرف والرتبة العليا إنما حصلت فيها لمن أسرى به ﷺ.

ومنها: أنه سئل عن يوم الجمعة ويوم النحر، فقال: يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع ، ويوم النحر أفضل أيام العام، وغير هذا الجواب لا يسلم صاحبه من الاعتراض الذى لا حيلة له فى دفعه.

ومنها: أنه سئل عن خديجة وعائشة أمَّى المؤمنين ، أيهما أفضل؟ فأجاب بأن سبق خديجه وتأثيرها فى أول الإسلام ونصرها وقيامها فى الدين ، لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة فى آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من العلم ، مالم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها . فتأمل هذا الجواب الذى لوجئت بغيره من التفضيل مطلقا لم تخلص من المعارضة.

ومنها: أنه سئل عن صالحى بنى آدم والملائكة أيهما أفضل ؟ فأجاب بأن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن فى الرفيق الأعلى، منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون فى عبادة الرب. ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحى البشر أكمل من حال الملائكة ، بهذا التفصيل يتبين سر التفضيل ، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه.

فعلى المتكلم فى هذا الباب أن يعرف أسباب الفضل أولا، ثم درجاتها ونسبة بعضها إلى بعض والموازنة بينها ثانيا، ثم نسبتها إلى من قامت به ثالثا ، كثرة وقوة ، ثم اعتبار تفاوتها بتفاوت محلها رابعا. فرب صفة هى كمال لشخص وليست كمالا لغيره ، بل كمال غيره بسواها، فكمال خالد بن الوليد بشجاعته وحروبه ، وكمال ابن عباس بفقهه وعلمه ، وكمال أبى ذر بزهده وتجرده عن الدنيا ، فهذه أربع مقامات يضطر إليها المتكلم فى درجات التفضيل . وتفضيل الأنواع على الأنواع أسهل من تفضيل الأشخاص على الأشخاص، وأبعد من الهوى والغرض. وهاهنا نكتة خفية لا ينتبه لها إلا من بصره الله، وهى أن كثيرا ممن يتكلم فى التفضيل يستشعر نسبته وتعلقه بمن يفضله ولو على بعد ، ثم يأخذ فى تقريظه وتفضيله ، وتكون تلك النسبة والتعلق مهيجة له على التفضيل والمبالغة فيه، واستقصاء محاسن المفضل ، والإغضاء عما سواها ويكون نظره فى المفضل عليه بالعكس. ومن تأمل كلام أكثر الناس فى هذا الباب رأى غالبه غير سالم من هذا وهذا، مناف لطريقة العلم والعدل التى لا يقبل الله سواها ، ولا يرضى غيرها. ومن هذا تفضيل كثير من أصحاب المذاهب والطرائق وأتباع الشيوخ ، كل منهم لمذهبه وطريقته أو شيخه ، وكذلك الأنساب والقبائل والمدائن والحرف والصناعات ، فإن كان الرجل ممن لايشك فى

علمه وورعه خيف عليه من جهة أخرى،وهو أنه يشهد حظه ونفعه المتعلق بتلك الجهة ، ويغيب عن نفع غيره بسواها ؛ لأن نفعه مشاهد له أقرب إليه من علمه بنفع غيره ، فيفضل ما كان نفعه وحظه من جهته باعتبار شهوده ذلك وغيبته عن سواه ، فهذه نكت جامعة مختصرة إذا تأملها المنصف عظم انتفاعه بها، واستقام له نظره ومناظرته ،والله الموفق [١].

فصل
فى فضل بعض الأزمنة والأمكنة

وأما قوله[٢]: وخص بعض الأزمنة والأمكنة وفضل بعضها على بعض مع تساويها. . . إلخ،فالمقدمة الأولى صادقة،والثانية كاذبة ، وما فضل بعضها على بعض إلا لخصائص قامت بها اقتضت التخصيص ،وما خص ـ سبحانه ـ شيئاً إلا بمخصص ،ولكنه قد يكون ظاهراً ،وقد يكون خفياً ،واشتراك الأزمنة والأمكنة فى مسمى الزمان والمكان كاشتراك الحيوان فى مسمى الحيوانية والإنسان فى مسمى الإنسانية،بل وسائر الأجناس فى المعنى الذى يعمها ،وذلك لا يوجب استوائها فى أنفسها .والمختلفات تشترك فى أمور كثيرة،والمتفقات تتباين فى أمور كثيرة ،والله ـ سبحانه ـ أحكم وأعلم من أن يفضل مثلا على مثل من كل وجه بلا صفة تقتضى ترجيحه ، هذا مستحيل فى خلقه وأمره.

كما أنه ـ سبحانه ـ لا يفرق بين المماثلين من كل وجه ، فحكمته وعدله تأبى هذا وهذا،وقد نزه ـ سبحانه ـ نفسه عمن يظن به ذلك ،وأنكر عليه زعمه الباطل،وجعله حكماً منكراً ،ولو جاز عليه ما يقول هؤلاء لبطلت حججه وأدلته ، فإن مبناها على أن حكم الشىء حكم مثله ،وعلى ألا يسوى بين المختلفين ،فلا يجعل الأبرار كالفجار ،ولا المؤمنين كالكفار ،ولا من أطاعه كمن عصاه ،ولا العالم كالجاهل ،وعلى هذا مبنى الجزاء ، فهو حكمه الكونى والدينى ، وجزاؤه الذى هو ثوابه وعقابه ، وبذلك حصل الاعتبار ،ولأجله ضربت الأمثال ،وقصت علينا أخبار الأنبياء وأممهم ، ويكفى فى بطلان هذا المذهب المتروك الذى هو من أفسد مذاهب العالم أنه يتضمن مساواة ذات جبريل لذات إبليس ،وذات الأنبياء لذات أعدائهم ، ومكان البيت العتيق بمكان الحشوش وبيوت الشياطين ،وأنه لافرق بين هذه الذوات فى الحقيقة،وإنما خصت به هذه الذات عن هذه الذات بما خصت به لمحض المشيئة المرجحة مثلا على مثل بلا موجب،بل قالوا ذلك فى جميع الأجسام،وأنها متماثلة ، فجسم المسك عندهم مساو لجسم البول والعذرة ، وإنما امتاز عنه بصفة عرضية.وجسم الثلج عندهم مساو لجسم النار فى الحقيقة، وهذا مما خرجوا به عن صريح المعقول ،وكابروا

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٦١ ـ ١٦٤).

(٢) أى : قول نافى القياس .

فيه الحس،وخالفهم فيه جمهور العقلاء من أهل الملل والنحل ،وما سوى الله بين جسم السماء وجسم الأرض، ولا بين جسم النار وجسم الماء ، ولا بين جسم الهواء وجسم الحجر، وليس مع المنازعين فى ذلك إلا الاشتراك فى أمر عام ، وهو قبول الانقسام وقيام الأبعاد الثلاثة ، والإشارة الحسية ونحو ذلك مما لا يوجب التشابه ، فضلا عن التماثل ، وبالله التوفيق (١).

فصل
فى المفاضلة بين حجرة النبى ﷺ والكعبة

قال ابن عقيل: سألنى سائل : أيّما أفضل حجرة النبى ﷺ أو الكعبة ؟ فقلت : إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل ، وإن أردت وهو فيها فلا والله ، ولا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة ، لأن بالحجرة جسدا لو وزن بالكونين لرجح (٢) .

فصل
فى أفضل العبادة

أهل مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق ، فهم فى ذلك أربعة أصناف :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها علىٰ النفوس وأصعبها.

قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا : والأجر على قدر المشقة ، ورووا حديثًا لا أصل له : « أفضل الأعمال أحمرها » أى أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس .

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .

الصنف الثانى : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد فى الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطّراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٤٧ ـ ١٤٩) .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٥ ، ١٣٦) .

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة ، فرأوا الزهد فى الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم : رأوا هذا مقصودًا لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته . فرأوا أن أفضل العبادات فى الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

ثم هؤلاء قسمان : فالعارفون المتبعون منهم : إذا جاء الأمر والنهى بادروا إليه ولو فَرَّقهم وأذهب جمعيتهم . والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله ، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه . وربما يقول قائلهم :

يطالَب بالأوراد من كان غافلا   فكيف بقلب كل أوقاته ورد ؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان : منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته ، ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل ، وتعلم العلم النافع لجمعيته .

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا ، فقال : إذا أذن المؤذن وأنا فى جمعيتى على الله ، فإن قمت وخرجت تفرقت ، وإن بقيت على حالى بقيت على جمعيتى .

فما الأفضل فى حقى ؟

فقال : إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم ، وأجب داعى الله، ثم عد إلى موضعك . وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب ، وإجابة الداعى حق الرب ، ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد ، فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر ، فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل،فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبى ﷺ : « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » رواه أبو يعلى [1].

واحتجوا بأن عمل العباد قاصر على نفسه ، وعمل النفّاع متعد إلى الغير ، وأين أحدهما من الآخر ؟ .

---

(١) أبو يعلى (٣٣١٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ١٩٤ : « فيه يوسف بن عطيه الصفار ، وهو متروك » .

قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا : وقد قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدًا خير لك من حُمر النعم » (١) . وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى . واحتجوا بقوله ﷺ : « من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء » (٢) .

واحتجوا بقوله ﷺ : « إن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير » (٣) ، وبقوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى البحر ، والنملة فى جحرها » (٤) .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، مادام نفعه الذى نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم فى معاشهم ومعادهم ، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب ؛ ولهذا أنكر النبى ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد ، وترك مخالطة الناس ، ورأى هؤلاء التفرق فى أمر الله ، ونفع عباده ، والإحسان إليهم ، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك .

الصنف الرابع : قالوا : إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . فأفضل العبادات فى وقت الجهاد ؛ الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما فى حالة الأمن .

والأفضل فى وقت حضور الضيف ـ مثلا : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل .

---

(١) البخارى (٢٩٤٢) فى الجهاد ، باب : دعاء النبى ﷺ الناس إلى الإسلام ، ومسلم (٢٤٠٦ / ٣٤) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، وأبو داود (٤٦٠٩) فى السنة ، باب : لزوم السنة ، وأحمد (٢ / ٣٩٧) .

(٣) الترمذى (٢٦٨٥) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وقال : « غريب » .

(٤) أبو داود : (٣٦٤١) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والترمذى (٢٦٨٢) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وقال : « ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة »، وابن ماجه (٢٢٣) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم . كلهم بدون ذكر « والنملة فى جحرها » .

والأفضل فى أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل فى أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل .

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال : الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل فى وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة : الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل فى العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم فى الخير فهى خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم فى الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قَلَّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل فى كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره . فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيتهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم . فهذا هو العبد المطلق ، الذى لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه .

فهذا هو المتحقق : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ حقًا ، القائم بهما صدقًا ، مَلْبَسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولى عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله . فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها . فواهًا له ! ما أغْرَبه بين الناس ! وما أشدَّ وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه !! والله المستعان ، وعليه التكلان [١] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٨٥ ـ ٩٠) .

فصل
فى المفاضلة بين حاستى السمع والبصر

لما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء ، كانا فى أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه ، وكانا من أفضل ما فى الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع .

واختلف فى الأفضل منهما ؟ فقالت طائفة ـ منهم أبو المعالى وغيره : السمع أفضل . قالوا : لأن به تنال سعادة الدنيا والآخرة ، فإنها إنما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم، وبالسمع عرف ذلك ، فإن من لا سمع له لا يعلم ما جاؤوا به . وأيضًا ، فإن السمع يدرك به أجل شيء وأفضله ، وهو كلام الله تعالى الذى فضله على الكلام كفضل الله على خلقه ، وأيضًا ، فإن العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع . وأيضًا ، فإن مدركه أعم من مدرك البصر ، فإنه يدرك الكليات والجزئيات ، والشاهد والغائب ، والموجود والمعدوم ، والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات ، والسمع يسمع كل علم ، فأين أحدهما من الآخر ؟ ولو فرضنا شخصين : أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه ، والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه ، هل كانا سواء ؟ وأيضًا ففاقد البصر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ، ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريبًا ، وأما فاقد السمع فالذى فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو قريبًا . وأيضًا ، فإن ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع فى القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر ، بل إنما يذمهم بعدم البصر تبعًا لعدم العقل والسمع . وأيضًا ، فإن الذى يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سآمة ولا تعب مع كثرته وعظمه ، والذى يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص ، وربما خشى صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة إلى السمع .

وقالت طائفة ـ منهم ابن قتيبة : بل البصر أفضل . فإن أعلى النعيم وأفضله وأعظمه لذة هو النظر إلى الله فى الدار الآخرة ، وهذا إنما ينال بالبصر وهذه وحدها كافية فى تفضيله. قالوا : وهو مقدمة القلب وطليعته ورائده ، فمنزلته منه أقرب من منزلة السمع ، ولهذا كثيرًا ما يقرن بينهما فى الذكر بقوله: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ②﴾ [الحشر : ٢١]، فالاعتبار بالقلب والبصر بالعين ، وقال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ [الأنعام : ١١٠]، ولم يقل وأسماعهم ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ㊻﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ** ⑧ **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** ⑨﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ⑲﴾

[غافر] ، وقال فى حق رسوله : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ ﴾ [النجم]، ثم قال: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ ﴾ [النجم] .

وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر ، ولهذا يقرأ الإنسان ما فى قلب الآخر من عينه وهذا كثير فى كلام الناس نظمه ونثره ، وهو أكثر من أن نذكره هنا ، ولما كان القلب أشرف الأعضاء : كان أشدها ارتباطًا به وأشرف من غيره . قالوا : ولهذا يأتمنه القلب ما لا يأتمن السمع عليه ، بل إذا ارتاب من جهة عرض ما يأتيه به على البصر ليزكيه أم يرده ، فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه . قالوا : ومن هذا ؛ الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده مرفوعًا : « ليس المخبر كالمعاين » (١) . قالوا : ولهذا أخبر الله ـ سبحانه ـ موسى أن قومه افتتنوا من بعده وعبدوا العجل ، فلم يلحقه فى ذلك ما لحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكسرها ؛ لفوت المعاينة على الخبر . قالوا : وهذا إبراهيم خليل الله ، يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، وقد علم ذلك بخبر الله له ، ولكن طلب أفضل المنازل وهى طمأنينة القلب . قالوا : ولليقين ثلاث مراتب : أولها للسمع ، وثانيها للعين ، وهى المسماة بعين اليقين وهى أفضل من المرتبة الأولى وأكمل . قالوا : وأيضًا ، فالبصر يؤدى إلى القلب ويؤدى عنه ، فإن العين مرآة القلب ، يظهر فيها ما يحبه من المحبة والبغض ، والموالاة والمعاداة ، والسرور والحزن ، وغيرها . وأما الأذن فلا تؤدى عن القلب شيئًا البتة ، وإنما مرتبتها الإيصال إليه حسب ، فالعين أشد تعلقا به .

والصواب أن كلا منهما له خاصية فضل بها الآخر ، فالمدرك بالسمع أعم وأشمل ، والمدرك بالبصر أتم وأكمل .فالسمع له العموم والشمول ، والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك ، وأما نعيم أهل الجنة فشيئان : أحدهما : النظر إلى الله ، والثانى : سماع خطابه وكلامه ، كما رواه عبد الله بن أحمد فى المسند وغيره : كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن عز وجل . ومعلوم أن سلامه عليهم وخطابه لهم ومحاضرته إياهم ـ كما فى الترمذى وغيره ـ لا يشبهها شىء قط ، ولا يكون أطيب عندهم منها ؛ ولهذا يذكر ـ سبحانه ـ فى وعيد أعدائه أنه لا يكلمهم ، كما يذكر احتجابه عنهم ولا يرونه ، فكلامه أعلى نعيم أهل الجنة ، والله أعلم (٢) .

وأيضًا

اختلف ابن قتيبة وابن الأنبارى فى السمع والبصر ، أيهما أفضل ؟ ففضل ابن قتيبة

---

(١) أحمد (١ / ٢١٥ ، ٢٧١) ، بلفظ: « ليس الخبر كالمعاينة » ، وقال الهيثمى فى المجمع: « رجاله الصحيح » .
(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٠٥، ١٠٦) .

السمع ، ووافقه طائفة ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ** (١) **إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣)** ﴾ [يونس] . قال : فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر ، كان دليلا على أن السمع أفضل . قال ابن الأنبارى : هذا غلط ، وكيف يكون السمع أفضل ؟ وبالبصر يكون الإقبال والإدبار والقرب إلى النجاة والبعد من الهلاك ، وبه جمال الوجه ، وبذهابه شينه ، وفى الحديث : « من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة » (٢) .

وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذى نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذى نفاه عن البصر ، إذ كأنه أراد إبصار القلوب ولم يرد إبصار العيون ، والذى يبصره القلب هو الذى يعقله ؛ لأنها نزلت فى قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبى ﷺ فيقفون على صحته ثم يكذبونه ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** ﴾ أى المعرضين ﴿ **وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ** ﴾ بعين نقص ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ** ﴾ أى المعرضين ﴿ **وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣)** ﴾ قال :ولا حجة فى تقديم السمع على البصر هنا ،فقد أخبر فى قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ** ﴾ [هود : ٢٤] .

قلت واحتج مفضلو السمع بأن به ينال غاية السعادة من سمع كلام الله وسماع كلام رسوله . قالوا : وبه حصلت العلوم النافعة . قالوا : وبه يدرك الحاضر والغائب ، والمحسوس والمعقول ، فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع . قالوا : ولهذا يكون فاقده أقل علما من البصر ، بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار بخلاف فاقد صفة السمع، فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم البتة .

قال مفضلو البصر : أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى وهو يكون بالبصر ، والذى يراه البصر لا يقبل الغلط ، بخلاف ما يسمع فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم ، فمدرك البصر أتم وأكمل . قالوا: وأيضًا ، فمحله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وذلك لشرفه وفضله .

قال شيخنا : والتحقيق أن السمع له مزية والبصر له مزية ، فمزية السمع العموم والشمول ، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه ، فالسمع أعم وأشمل ، والبصر أتم وأكمل. فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه ، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه (٣) .

---

(١) فى المطبوعة : « يستمع » ، والصواب ما أثبتناه .　　(٢) أحمد (٣/ ٢٨٣) .

(٣) بدائع الفوائد (٣ / ١٦٤ ، ١٦٥) .

وأيضا

إن حاسة « السمع » أفضل من حاسة « البصر » لشدة تعلقها بالقلب ، وعظم حاجته إليها، وتوقف كماله عليها ، ووصول العلوم إليه بها ، وتوقف الهدى على سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة « البصر» لكمال مدركها، وامتناع الكذب فيه ، وزوال الريب والشك به ، ولأنه عين اليقين ، وغاية مدرك حاسة « السمع » علم اليقين ، وعين اليقين أفضل وأكمل من علم اليقين ؛ ولأن متعلقها رؤية وجه الرب عز وجل فى دار النعيم ، ولا شىء أعلى وأجل من هذا التعلق .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين الطائفتين حكمًا حسنًا ، فقال: المدرك بحاسة « السمع » أعم وأشمل ، والمدرك بحاسة « البصر » أتم وأكمل ، فللسمع العموم والشمول ، والإحاطة بالموجود والمعدوم ، والحاضر والغائب ، والحسى والمعنوى ، وللبصر التمام والكمال (١) .

فصل
فى أفضل الذكر

أفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان ،وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ،ويهيج المحبة ،ويثير الحياء ،ويبعث على المخافة،ويدعو إلى المراقبة ،ويزع عن التقصير فى الطاعات ،والتهاون فى المعاصى والسيئات،وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار ،وإن أثمر شيئاً منها ،فثمرة ضعيفة (٢).

فصل
فى أن الذكر أفضل من الدعاء

الذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه،والدعاء سؤال العبد حاجته ،فأين هذا من هذا؟

ولهذا جاء فى الحديث:« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين : » (٣).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٠٩) .

(٢) الوابل الصيب (١٨١) .

(٣) الترمذى (٢٩٢٦) فى ثواب القرآن ، باب: ماجاء كيف كان قراءة النبى ﷺ ، وقال : « حديث حسن غريب »، والدارمى (٢/ ٤٤١) فى فضائل القرآن، باب: فضل كلام الله على سائر الكلام.

ولهذا كان المستحب فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله تعالى ،والثناء عليه بين يدى حاجته ، ثم يسأل حاجته ، كما فى حديث فضالة بن عبيد: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « لقد عجل هذا» ، ثم دعاه فقال له أو لغيره: « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه، ثم يصلى على النبى ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء » رواه الإمام أحمد، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم فى صحيحه (١).

وهكذا دعاء ذى النون عليه السلام الذى قال فيه النبى ﷺ : « دعوة أخى ذى النون ، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته : ﴿ **لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] » (٢). وفى الترمذى : « دعوة أخى ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : ﴿ **لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » (٣).

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام.

ومنه قوله ﷺ فى دعاء الكرب: « لا إله إلا الله العظيم الحليم ،لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » (٤).

ومنه حديث بريدة الأسلمى الذى رواه أهل السنن ،وابن حبان فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله لا إله إلا أنت ،الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : « والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى»(٥).

وروى أبو داود، والنسائى من حديث أنس أنه كان مع النبى ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ،لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم. فقال النبى ﷺ: « لقد دعا الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (٦).

---

(١) الترمذى (٣٤٧٧) فى الدعوات ،باب: جامع الدعوات عن النبى ﷺ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد (١٨/٦)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٢٣٠)، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ».

(٢، ٣) الترمذى (٣٥٠٥) فى الدعوات ، باب: (٨٢) ،وسكت عنه.

(٤) البخارى (٦٣٤٥) فى الدعوات ، باب: الدعاء عند الكرب ،ومسلم (٢٧٣٠/ ٨٣) فى الذكر والدعاء، باب: دعاء الكرب، والترمذى (٣٤٣٥) فى الدعوات ، باب : فيما جاء عند الكرب ،وقال: « هذا حديث حسن صحيح».

(٥) أبو داود (١٤٩٣) فى الصلاة ، باب: الدعاء ، والترمذى (٣٤٧٥) فى الدعوات ،باب: جامع الدعوات عند النبى ﷺ ، وقال : « حسن غريب »، وابن حبان (٢٣٨٣/ موارد).

(٦) أبو داود (١٤٩٥) فى الصلاة ، باب: الدعاء ، والنسائى (١٣٠٠) فى السهو ، باب: الذكر بعد الدعاء.

فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر ، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه ،وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء ،أنه يجعل الدعاء مستجاباً.

فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء ، أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد ، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته ، وافتقاره واعترافه ، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل ، فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله ، وعرض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته ،فهذا المقتضى منه ،وأوصاف المسؤول مقتضى من الله ، فاجتمع المقتضى من السائل ،والمقتضى من المسؤول فى الدعاء ، وكان أبلغ وألطف موقعاً ، وأتم معرفة وعبودية (١).

وأنت ترى فى الشاهد ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره،وذكر حاجته هو، وفقره ومسكنته ، كان أعطف لقلب المسؤول،وأقرب لقضاء حاجته.

فإذا قال له : أنت جودك قد سارت به الركبان ، وفضلك كالشمس لا تنكر ، ونحو ذلك ، وقد بلغت بى الحاجة والضرورة مبلغاً لا صبر معه ونحو ذلك،كان أبلغ فى قضاء حاجته من أن يقول ابتداء:أعطنى كذا وكذا.

فصل
فى بيان أن قراءة القرآن أفضل من الذكر

. قراءة القرآن أفضل من الذكر ،والذكر أفضل من الدعاء ،هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجرداً.

وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل،بل يعينه ،فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل،وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهى عنها نهى تحريم أو كراهة ،وكذلك التسميع والتحميد فى محلهما أفضل من القراءة ،وكذلك التشهد ،وكذلك:« رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى» بين السجدتين أفضل من القراءة ،وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل،والتسبيح والتكبير ،والتحميد ـ أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة ،وكذلك إجابة المؤذن،والقول كما يقول أفضل من القراءة ،وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل

(١) الوابل الصيب (١٨٢ ـ ١٨٥) .

الله تعالى على خلقه ، لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ، اختلت الحكمة ،وفاتت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة ،والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ،اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن ، مثاله: أن يتفكر فى ذنوبه ،فيحدث ذلك له توبة واستغفاراً ،أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه.

وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما ، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها ، اجتمع قلبه كله على الله تعالى،وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء ـ والحالة هذه ـ أنفع ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً.

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس ، وفرقان بين فضيلة الشىء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويوضع كل شىء موضعه.

فللعين موضع ،وللرجل موضع ،وللماء موضع ،وللحم موضع ،وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ،والله تعالى الموفق.

وهكذا الصابون والأشنان ،أنفع للثوب فى وقت ،والتجمير وماء الورد وكيّه أنفع له فى وقت.

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوماً: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد ، التسبيح أو الاستغفار ؟فقال: إذا كان الثوب نقياً ، فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له، فقال لى رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟

ومن هذا الباب: أن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن ،ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث ،والطلاق،والخلع ،والعدد ونحوها ،بل هذه الآيات فى وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص.

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء ،وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه ، كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده ، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

فهذا أصل نافع جداً، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ،لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها ، فيربح إبليس الفضل الذى بينهما ، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحة بالكلية ، لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثواباً وأعظم أجراً.

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها ، وفقه فى إعطاء كل عمل

منها حقه ، وتنزيله فى مرتبته ، وتفويته لما هو أهم منه ، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل ، لإمكان تداركه والعود إليه ، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه ، فالاشتغال به أولى ـ وهذا كترك القراءة لردّ السلام ، وتشميت العاطس ـ وإن كان القرآن أفضل ؛ لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل ، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس ، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت .والله تعالى الموفق (١).

فصل
فى المفاضلة بين الذاكر والمجاهد

فى الترمذى أيضاً عن النبى ﷺ ، عن الله عز وجل أنه يقول: « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه » (٢) وهذا الحديث هو فصل الخطاب فى التفضيل بين الذاكر والمجاهد ، فإن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل ، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى. فأفضل الذاكرين المجاهدون ، وأفضل المجاهدين الذاكرون (٣).

فصل
فى المفاضلة بين العنب والنخل

وقد اختلف الناس فى العنب والنخل: أيهما أفضل وأنفع؟واحتجت كل طائفة بما فى أحدهما من المنافع.

والقرآن قد قدم النخيل على الأعناب فى موضع، وقدم الأعناب عليها فى موضع، وأفرد النخيل عن الأعناب،ولم يفرد العنب عن النخيل.

وفصل الخطاب فى المسألة: أن كل واحد منهما فى الموضع الذى يكثر فيه ويقل وجود الآخر، أفضل وأنفع.

فالنخيل بالمدينة والعراق وغيرهما أفضل وأنفع من الأعناب فيها .

والأعناب فى الشام ونحوها أفضل وأنفع من النخيل بها.

ولا يقال: فما تقولون إذا استويا فى بلدة ؟ فإن هذا لا يوجد؛ لأن الأرض التى يطيب النخيل فيها ويكون سلطانه ووجوده غالبا ، لا يكون للعنب بها سلطان، ولا تقبله تلك الأرض. وكذلك أرض العنب لا تقبل النخيل ،ولا يطيب فيها.

والله ـ سبحانه ـ قد خص كل أرض بخاصية من النبات والمعدن، والفواكه وغيرها، فهذا فى موضعه أفضل وأطيب وأنفع ،وهذا فى موضعه كذلك (٤).

---

(١) الوابل الصيب (١٨٧ ـ ١٨٩).

(٢) الترمذى (٣٥٨٠) فى الدعوات ، باب: (١١٩) ،وقال: « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ».

(٣) الوابل الصيب (٧٨ ـ ٧٩).

(٤) تهذيب السنن (٧/ ٢٧٢).

وأيضا

قد اختلف الناس فى أيهما أنفع وأفضل، وصنف الجاحظ فى المحاكمة بينهما مجلداً، فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين.

وفصل النزاع فى ذلك: أن النخل فى معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعا وأجدى على أهله، كالمدينة والحجاز والعراق. والعنب فى معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعا وأجدى على أهله، كالشام والجبال والمواضع الباردة التى لا تقبل النخيل، وحضرت مرة فى مجلس بمكة فيه من أكابر البلد، فجرت هذه المسألة، وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب فى تفضيل النخل وفوائده، وقال فى أثناء كلامه: ويكفى فى تفضيله أنا نشترى بنواه العنب، فكيف يفضل عليه ثمر يكون نواه ثمنا له؟ وقال آخر من الجماعة: قد فصل النبى ﷺ النزاع فى هذه المسألة، وشفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب ـ كرما، وقال: « الكرم قلب المؤمن » [1]، فأى دليل أبين من هذا؟ وأخذوا يبالغون فى تقرير ذلك.

فقلت للأول: ما ذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب فليس بدليل، فإن هذا له أسباب: أحدها: حاجتكم إلى النوى للعلف، فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته. الثانى: أن نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع. الثالث: أن الأعناب عندكم قليلة جداً، والتمر أكثر شىء عندكم، فيكثر نواه فيشترى به الشىء اليسير من العنب، وأما فى بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شىء، ولا قيمة لنوى التمر فيها.

وقلت لمن احتج بالحديث: هذا الحديث من حجج فضل العنب؛ لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره، فإنه يؤكل رطبا ويابساً، وحلوا وحامضاً، وتجنى منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك، فسموه كرما لكثرة خيره، فأخبرهم النبى ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية؛ لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة، والرحمة واللين، والعدل والإحسان، والنصح وسائر أنواع البر والخير التى وضعها الله فى قلب المؤمن، فهو أحق بأن يسمى كرما من شجر العنب، ولم يرد النبى ﷺ إبطال ما فى شجر العنب من المنافع والفوائد، وأن تسميته كرماً كذب، وأنها لفظة لا معنى تحتها، كتسمية الجاهل عالماً، والفاجر براً، والبخيل سخيا، ألا ترى أنه لم ينف فوائد شجر العنب، وإنما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائد وأعظم منافع منها.

هذا الكلام أو قريب منه جرى فى ذلك المجلس، وأنت إذا تدبرت قول النبى ﷺ: «الكرم قلب المؤمن» وجدته مطابقا لقوله فى النخلة: « مثلها مثل المسلم » فشبه النخلة

---

(١) البخارى (٦١٨٣) فى الأدب، باب: قول النبى ﷺ: « إنما الكرم قلب المؤمن »، ومسلم (٧/٢٢٤٧) فى الألفاظ باب: كراهة تسمية العنب كرما.

بالمسلم فى حديث ابن عمر (١) وشبه المسلم بالكرم فى الحديث الآخر، ونهاهم أن يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن. وقد قال بعض الناس: فى هذا معنى آخر، وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرما ؛ لأنه يقتنى منه أم الخبائث، فيكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها، ويحضهم عليها من باب سد الذرائع فى الألفاظ. وهذا لا بأس به، لولا أن قوله: « فإن الكرم قلب المؤمن » كالتعليل لهذا النهى ، والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب، ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من كلامه، فالذى قصده هو الحق.

وبالجملة، فالله ـ سبحانه ـ عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والأعناب ، فساقها فيما عدده عليهم من نعمه. والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله، فإن أم الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ﴾ [النحل: ٦٧] . وقال أنس : نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شىء ، وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر ، فلو كان نهيه ﷺ عن تسمية شجر العنب كرما لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن ؛ لأن المسكر يتخذ منها، والله أعلم (٢).

فصل
فى المفاضلة بين مداد العلماء ودم الشهداء

وقد اختلف فى تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه ،وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة. ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته، فإن الحاكم فى هذه المسألة هو العلم فيه وإليه، وعنده يقع التحاكم والتخاصم ، والمفضل منهما من حكم له بالفضل.

فإن قيل: فكيف يقبل حكمه لنفسه؟ قيل: وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه ، فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه لأجل مظنة التهمة ، والعلم لا تلحقه تهمة فى حكمه لنفسه ، فإنه إذا حكم ، حكم بما تشهد العقول والنظر بصحته وتتلقاه بالقبول ، ويستحيل حكمه لتهمة ، فإنه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته وانحط عن درجته ، فهو الشاهد المزكى العدل، والحاكم الذى لا يجور ولا يعزل.

فإن قيل: فماذا حكمه فى هذه المسألة التى ذكرتموها ؟ قيل : « هذه المسألة كثر فيها الجدال ، واتسع المجال ، وأدلى كل منهما بحجته ، واستعلى بمرتبته . والذى يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع الكلام فى أنواع مراتب الكمال ، وذكر الأفضل منهما،

---

(١) البخارى (٧٢) فى العلم ، باب :الفهم فى العلم ، ومسلم (٢٨١١/ ٦٤) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب: مثل المؤمن مثل النخلة.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠، ٢٣٢).

والنظر فى أى هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه. فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب، ويقع بها فصل الخطاب. فأما مراتب الكمال فأربع ؛ النبوة والصديقية والشهادة والولاية ، وقد ذكرها الله سبحانه فى قوله: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)** ﴾ [النساء] ،وذكر تعالى هؤلاء الأربع فى سورة الحديد،فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله،ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه،ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم ، فقال: ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)** ﴾ [الحديد] ، وذكر المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم.

والمقصود: أنه ذكر فيها المراتب الأربعة؛ الرسالة والصديقية والشهادة والولاية ، فأعلى هذه المراتب النبوة والرسالة،ويليها الصديقية ،فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل،ودرجتهم أعلى الدرجات بعد النبوة ،فإن جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذى لم يلحقه فى رتبة الصديقية،وإن سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذى قصر عنها، فأفضلهما صديقهما ، فإن استويا فى الصديقية استويا فى المرتبة ،والله أعلم. والصديقية هى كمال الإيمان بما جاء به الرسول ، علماً وتصديقا وقياما به ، فهى راجعة إلى نفس العلم،فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقا له كان أتم صديقية، فالصديقية شجرة أصولها العلم،وفروعها التصديق ، وثمرتها العمل ، فهذه كلمات جامعة فى مسألة العالم والشهيد وأيهما أفضل [١].

فصل
فى المفاضلة بين العلم والمال

وفضل العلم على المال يعلم من وجوه:

أحدها: أن العلم ميراث الأنبياء ،والمال ميراث الملوك والأغنياء.

والثانى: أن العلم يحرس صاحبه،وصاحب المال يحرس ماله.

والثالث: أن المال تذهبه النفقات ،والعلم يزكو على النفقة.

الرابع: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله،والعلم يدخل معه قبره.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٠ ، ٨١).

الخامس: أن العلم حاكم على المال، والمال لا يحكم على العلم.

السادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن.

السابع: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم ، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.

الثامن: أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها ، والمال يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال، بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه، فحرصها على العلم عين كمالها، وحرصها على المال عين نقصها.

التاسع: أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية، فالمال يدعوها إلى صفات الملوك، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد.

العاشر: أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التى خلقت لها، والمال حجاب بينها وبينها.

الحادى عشر: أن غنى العلم أجلّ من غنى المال، فإن غنى المال غنى بأمر خارجى عن حقيقة الإنسان، لو ذهب فى ليلة أصبح فقيرا معدما ، وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر، بل هو فى زيادة أبداً ، فهو الغنى العالى حقيقة ، كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالى عن الشىء لا به

الثانى عشر: أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له ، كما قال النبى ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم...» الحديث [١] ، والعلم يستعبده لربه وخالقه ، فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده.

الثالث عشر : أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة ، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

الرابع عشر: أن قيمة الغنى ماله، وقيمة العالم علمه. فهذا متقوم بماله، فإذا عدم ماله عدمت قيمته ، وبقى بلا قيمة ، والعالم لا تزول قيمته بل هى فى تضاعف وزيادة دائما.

والخامس عشر: أن جوهر المال من جنس جوهر البدن، وجوهر العلم من جنس جوهر الروح ، كما قال يونس بن حبيب : علمك من روحك ، ومالك من بدنك، والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن.

السادس عشر: أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً

---

(١) البخارى (٢٨٨٦) فى الجهاد: ، باب: الحراسة فى الغزو فى سبيل الله، وابن ماجه(٤١٣٥) فى الزهد، باب: فى المكثرين.

من علمه، والغنى العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع.

السابع عشر: أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الثامن عشر: أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله ، وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله.

التاسع عشر: أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً، فإنه معشوق النفوس ، فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت فى هلاكه كما هو الواقع، وأماغنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به، والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه.

العشرون: أن اللذة الحاصلة من غنى ، إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية، فإن صاحبه التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية، وإن التذ بإنفاقه فى شهواته فهى لذة بهيمية، وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية، وهى تشبه لذة الملائكة وبهجتها، وفرق ما بين اللذتين.

الحادى والعشرون: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره فى جمع المال الحريص عليه، وتنقصه والإزراء به، ومطبقون على تعظيم الشره فى جمع العلم وتحصيله ، ومدحه ومحبته ، ورؤيته بعين الكمال.

الثانى والعشرون: أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد فى المال، المعرض عن جمعه ؛الذى لا يلتفت إليه، ولا يجعل قلبه عبداً له، ومطبقون على ذم الزاهد فى العلم الذى لا يلتفت إليه، ولا يحرص عليه.

الثالث والعشرون: أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه، والعلم إنما يمدح بتخليه به واتصافه به.

الرابع والعشرون: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن، فهو حزين قبل حصوله، خائف بعد حصوله، وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى، وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور.

الخامس والعشرون : أن الغنى بماله لابد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته ، والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم ، فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم ، ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

السادس والعشرون: أن استلذاذ النفس وكمالها بالغنى استكمال بعارية مؤداة ، فتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار ، لابد أن يرجع إلى مالكه يوما ما، وأما تجملها بالعلم

وكمالها به فتجمل بصفة ثابتة لها ،راسخة فيها لا تفارقها.

السابع والعشرون: أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس ، والغنى بالعلم هو غناها الحقيقى، فغناها بعلمها هو الغنى ،وغناها بمالها هو الفقر.

الثامن والعشرون: أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه،ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد إلا تقديما وإكراما.

التاسع والعشرون: أن تقديم الرجل لماله هو عين ذمه، فإنه نداء عليه بنقصه،وأنه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والإهانة،وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فإنه عين كماله، إذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به ،لا بأمر خارج عن ذاته.

الوجه الثلاثون: أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين،فهو طالب ما لاسبيل له إليه ، وبيان ذلك: أن القدرة صفة كمال ، وصفة الكمال محبوبة بالذات ، والاستغناء عن الغير أيضا صفة كمال محبوبة بالذات ،فإذا مال الرجل بطبعه إلى السخاوة والجود وفعل المكرمات فهذا كمال مطلوب للعقلاء ، محبوب للنفوس وإذا التفت إلى أن ذلك يقتضى خروج المال من يده ، وذلك يوجب نقصه واحتياجه إلى الغير،وزوال قدرته ،نفرت نفسه عن السخاء والكرم والجود واصطناع المعروف ، وظن أن كماله فى إمساك المال،وهذه البلية أمر ثابت لعامة الخلق لا ينفكون عنها،فلأجل ميل الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم بحب الجود والسخاء والمكارم ، ولأجل فوت القدرة الحاصلة بسبب إخراجه والحاجة المنافية لكمال الغنى يحب إبقاء ماله،ويكره السخاء والكرم والجود،فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعيين ،يتجاذبانه ويعتوران عليه، فيبقى القلب فى مقام المعارضة بينهما ، فمن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود والكرم، فيؤثره على الجانب الآخر. ومنهم من يترجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة والغنى ،فيؤثره فهذان نظران للعقلاء. ومنهم من يبلغ به الجهل والحماقة إلى حيث يريد الجمع بين الوجهين ، فيعد الناس بالجود والسخاء والمكارم طمعاً منه فى فوزه بالمدح والثناء على ذلك ، وعند حضور الوقت لا يفى بما قال فيستحق الذم، ويبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده ، فيقع فى أنواع القبائح والفضائح.

وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية وهم غالباً يبكون ويشكون. وأما غنى العلم فلا يعرض له شىء من ذلك، بل كلما بذله ازداد ببذله فرحاً وسروراً وابتهاجاً،وإن فاتته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتتهم لذة أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها ، فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى وأدوم من لذة الغنى، وتعبه فى تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال،فجمعه وألمه دون ألمه، كما قال تعالى للمؤمنين ـ تسلية لهم بما ينالهم من الألم والتعب

فى طاعته ومرضاته: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾ [النساء] .

الحادى والثلاثون: أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هى حال تجدده فقط ، وأما حال دوامه فإما أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ، ويدل عليه أن الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه، فهو يحاول تحصيل الزيادة دائما، فهو فى فقر مستمر غير منقض ولو ملك خزائن الأرض ، ففقره وطلبه وحرصه باق عليه، فإنه أحد المنهومين اللذين لا يشبعان، فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب. وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان ، فإن لذته فى حال بقائه مثلها فى حال تجدده بل أزيد ، وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للمزيد حريصاً عليه ، فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل، ولذة المرجو المطلوب، ولذة الطلب وابتهاجه وفرحه به.

الثانى والثلاثون: أن غنى المال يستدعى الإنعام على الناس والإحسان إليهم ، فصاحبه إما أن يسد على نفسه هذا الباب، وإما أن يفتحه عليه، فإن سده على نفسه اشتهر عند الناس بالبعد من الخير والنفع ، فأبغضوه وذموه واحتقروه ، وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً لديهم كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار فى الحطب اليابس ، ومن السيل فى منحدره. وإذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً، تألم قلبه غاية التألم، وأحضر الهموم والغموم والأحزان، وإن فتح باب الإحسان والعطاء ، فإنه لا يمكنه إيصال الخير والإحسان إلى كل أحد، فلا بد من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض، وهذا يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم . أما المحروم فيقول: كيف جاد على غيرى وبخل على، وأما المرحوم فإنه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع، فيبقى طامعاً مستشرفاً لنظيره على الدوام ، وهذا قد يتعذر غالباً فيفضى ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة؛ ولهذا قيل: اتق شر من أحسنت إليه. وهذه الآفات لا تعرض فى غنى العلم، فإن صاحبه يمكنه بذله للعالم كلهم، واشتراكهم فيه، والقدر المبذول منه باق لآخذه لا يزول، بل يتجر به، فهو كالغنى إذا أعطى الفقير رأس مال يتجر به حتى يصير غنياً مثله.

الوجه الثالث والثلاثون: أن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن: نوع قبله، ونوع عند حصوله ، ونوع بعد مفارقته.

فأما النوع الأول: فهو المشاق والأنكاد والآلام التى لا يحصل إلا بها.

وأما النوع الثانى: فمشقة حفظه وحراسته، وتعلق القلب به، فلا يصبح إلا مهموماً، ولا يمسى إلا مغموما ، فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه، والعيون من كل جانب ترمقه، والألسن والقلوب ترشقه، فأى عيش ولذة لمن هذه حاله، وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم فى التفريق بينه وبين معشوقه، وإن لم يظفروا هم به دونه، ولكن

مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم،فإن فازوا به وإلا استووا فى الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس،ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه،ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه عمدوا إلى جحده وإنكاره ؛ ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه،فإن بهر علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والإنكار رموه بالعظائم ،ونسبوه إلى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ،ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه،وهذا شغل السحرة بعينه ،فهؤلاء سحرة بألسنتهم ، فإن عجزوا له عن شيء من القبائح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس،والدوكرة والرياء،وحب الترفع وطلب الجاه، وهذا القدر من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه، فلا ينبغى لمن له مسكة عقل أن يتأذى به ،إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه،كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف.

والنوع الثالث من آفات الغنى :ما يحصل للعبد مفارقته من تعلق قلبه به،وكونه قد حيل بينه وبينه ،والمطالبة بحقوقه،والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من أين اكتسبه وفى ماذا أنفقه؟وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور، ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة.

الرابع والثلاثون:أن لذة الغنى بالمال مقرونة بخلطة الناس،ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه ، إذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به،وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفا على اتصاله بالغير ، فذلك منشأ الآفات والآلام ولو لم يكن الا اختلاف الناس وطبائعهم وإرادتهم فقبيح هذا حسن ذاك، ومصلحة ذاك مفسدة هذا ، ومنفعة هذا مضرة ذاك وبالعكس ، فهو مبتلى بهم، فلابد من وقوع النفرة والتباغض والتعادى بينهم وبينه،فإن إرضاءهم كلهم محال،وهو جمع بين الضدين،وإرضاء بعضهم وإسخاط غيره سبب الشر والمعاداة ، وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت ، وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الأجانب والبعداء،وهذه المخالطة إنما حصلت من جانب الغنى بالمال،أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فإنهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته،فيستريح من أذى الخلطة والعشرة،وهذه الآفات معدودة فى الغنى بالعلم.

الخامس والثلاثون:أن المال لا يراد لذاته وعينه ،فإنه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلا، فإنه لا يشبع ولايروى ولا يدفئ ولا يمتع ، وإنما يراد لهذا الأشياء،فإنه لما كان طريقا إليها أريد إرادة الوسائل ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل،فهذه الغايات إذا أشرف منه،وهى مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيئة. ،وقد ذهب كثير من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها،وإنما هى دفع الألم فقط،فإن لبس الثياب مثلا إنما فائدته دفع التألم بالحر والبرد والريح

وليس فيها لذة زائدة على ذلك، وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع، ولهذا لو لم يجد ألم الجوع لم يستطب الأكل، وكذلك الشرب مع العطش، والراحة مع التعب. ومعلوم أن فى مزاولة ذلك وتحصيله ألما وضرراً، ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر ما يدفع به وألمه، فيحتمل الإنسان أخف الضررين دفعا لأعظمهما. وحكى عن بعض العقلاء أنه قيل له ـ وقد تناول قدحا كريها من الدواء: كيف حالك معه؟ قال: أصبحت فى دار بليات ، أدافع آفات بآفات.

وفى الحقيقة، فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس، واللذة التى يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهى الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمأكل شهوتى البطن والفرج، ليس لهما ثالث البتة إلا ماكان وسيلة إليهما وطريقا إلى تحصيلهما ،وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة، منها: أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها ، ومنها: أنها ممزوجة بالآفات ، ومعجونة بالآلام، محتاطة بالمخاوف. وفى الغالب تفى آلامها بطيبها، كما قيل:

قايست بين جمالها وفعالها ... فإذا الملاحة بالقباحة لا تفى

ومنها: الأراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراءهم وعقلاءهم، بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأفحشها، فنسبتهم فيها إلى الأفاضل كنسبة الحيوانات البهيمية إليهم، فمشاركة الأراذل وأهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والإعراض عنها، وكثير من الناس حصل له الزهد فى المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق ،وهذا كثير فى أشعار الناس ونثرهم، كما قيل:

سأترك حبها من غير بغض ... ولـكن لكثرة الشركاء فيـه
إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب يلغن فيه

وقيل لزاهد: ما الذى زهدك فى الدنيا؟ فقال: خسة شركائها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها. وقيل لآخر فى ذلك، فقال: مامددت يدى إلى شىء منها إلا وجدت غيرى قد سبقنى إليه، فأتركه له.

ومنها: أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة إليها والتألم بمطالبة النفس لتناولها، وكلما كانت شهوة الظفر بالشىء أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل، فلما لم تحصل تلك الشهوة لم تحصل تلك اللذة، فمقدار اللذة الحاصلة فى الحال مساو لمقدار الحاجة والألم والمضرة فى الماضى، وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والألم المتقدم فيتساقطان، فتصير اللذة كأنها لم توجد، ويصير بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمراهم، أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواط وأعطاه عشرة دراهم، ولاتخرج لذات الدنيا غالبا عن ذلك، ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كمالا ،بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط ، فإن الإنسان

يتضرر بثقله، فإذا قضى حاجته استراح منه، فأما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة مطلوبة فلا.

ومنها: أن هاتين اللذتين اللتين هما آثر اللذات عند الناس، ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة القاذورات، والتألم الحاصل عقيبهما. مثال لذة الأكل، فإن العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته ريقه وعجنه به لنفرت نفسه منه، ولو سقطت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من إعادتها إليه ، ثم إن لذته به إنما تحصل فى مجرى نحو الأربع الأصابع، فإذا فصل عن ذلك المجرى زال تلذذه به، فإذا استقر فى معدته وخالطه الشراب وما فى المعدة من الأجزاء الفضلية فإنه حينئذ يصير فى غاية الخسة، فإن زاد على مقدار الحاجة أورث الأدواء المختلفة على تنوعها، ولولا أن بقاءه موقوف على تناوله لكان تركه ـ والحالة هذه ـ أليق به، كما قال بعضهم:

لولا قضاء جرى نزهت أنملتى عن أن تلم بمأكول ومشروب

وأما لذة الوقاع فقدرها أبين من أن نذكر آفاته، ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هى عورة الإنسان التى يستحيا من رؤيتها وذكرها ، وسترها أمر فطر الله عليه عباده، ولا تتم لذة المواقعة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها، والتلطخ بالرطوبات المستقذرة المتولدة منها، ثم إن تمامها إنما يحصل بانفصال النطفة وهى اللذة المقصودة من الوقاع، وزمنها يشبه الآن الذى لا ينقسم ، فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراوضة والتعب لأجل لذة لحظة كمد الطرف، فأين مقايسة بين هذه اللذة وبين التعب فى طريق تحصيلها. وهذا يدل على أن هذه اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذى خلق له العبد ولا كمال له بدونه، بل ثم أمر وراء ذلك كله قد هيئ له العبد وهو لا يفعلن له، لغفلته عنه، وإعراضه عن التفتيش على طريقه حتى يصل إليه ، يسوم نفسه مع الأنعام السائمة:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وموقع هذه اللذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس فى موضع لايمكنه القيام إلى الخلاء ، وصار مضطراً إليه ، فإنه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيما ، فإذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذى ، وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ، ولا لذة هناك إلا راحته من حمل ما يؤذيه حمله .فعلم أن هذه اللذات إما أن تكون دفع آلام، وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيسة مقترنة بآفات ترى مضرتها عليه، وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب، وخفقان الفؤاد، وضعف القوى البدنية والقلبية، وضعف الأرواح، واستيلاء العفونة على كل البدن وإسراع الضعف والخور إليه، واستيلاء الأخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها.

ومما يدل على أن هذه اللذات ليست خيرات وسعادات وكمالا: أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هى نهمته وشغله، ومصرف همته وإرادته، والإزراء به

وتحقير شأنه، وإلحاقه بالبهائم، ولا يقيمون له وزنا ، ولو كانت خيرات وكمالا لكان من صرف إليها همته أكمل الناس. ومما يدل على ذلك أن القلب الذى قد وجه قصده وإرادته إلى هذه اللذات لا يزال مستغرقًا فى الهموم والأحزان، وما يناله من اللذات فى جنب هذه الآلام كقطرة فى بحر، كما قيل: سروره وزن حبة وحزنه قنطار، فإن القلب يجرى مجرى مرآة منصوبة على جدار، وذلك الجدار ممر لأنواع المشتهيات والملذوذات والمكروهات، وكلما مر به شىء من ذلك ظهر فيه أثره، فإن كان محبوبا مشتهيا مال طبعه إليه، فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده ، وإن قدر على تحصيله تألم فى طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له، ويتألم حال حصوله خوفاً من فراقه، وبعد فراقه خوفا على ذهابه. وإن كان مكروها له ولم يقدر على دفعه، تألم بوجوده ، وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاتته مصلحة راجحة الحصول ، فيتألم لفواتها. فعلم أن هذا القلب أبداً مستغرق فى بحار الهموم والغموم والأحزان، وأن نفسه تضحك عليه وترضيه بوزن ذرة من لذته فيغيب بها عن شهوده القناطير من ألمه وعذابه، فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يبق له إليها سبيل، تجرد ذلك الألم وأحاط به، واستولى عليه من كل جهاته، فقل ماشئت فى حال عبد قد غيب عنه سعده وحظوظه وأفراحه، وأحضر شقوته وهمومه وغمومه وأحزانه، وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء، ويرفع الستر ، وينجلى الغبار، ويحصل ما فى الصدور، فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التى هى غاية جمع الأموال وطلبها، فما الظن بقدر الوسيلة؟

وأما غنى العلم والإيمان فدائم اللذة، متصل الفرحة، مقتض لأنواع المسرة والبهجة، لايزول فيحزن، ولا يفارق فيؤلم ، بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) ﴾ [يونس] .

السادس والثلاثون: أن غنى المال يبغض الموت ولقاء الله فإنه لحبه لماله يكره مفارقته ويحب بقاءه ليتمتع به، كما شهد به الواقع. وأما العلم فإنه يحبب للعبد لقاء ربه ، ويزهده فى هذه الحياة النكدة الفانية.

السابع والثلاثون: أن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم ، والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم، كما قال أمير المؤمنين فى هذا الحديث: مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون مابقى الدهر. فخزان الأموال أحياء كأموات، والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء.

الثامن والثلاثون: أن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فالروح ميتة حياتها بالعلم، كما أن الجسد ميت حياته بالروح، فالغنى بالمال غايته أن يزيد فى حياة البدن، وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح ، كما تقدم تقريره.

التاسع والثلاثون: أن القلب ملك البدن، والعلم زينته وعدته وماله، وبه قوام ملكه، والملك لابد له من عدد وعدة ومال وزينة، فالعلم هو مركبه وعدته وجماله. وأما المال

فغايته أن يكون زينة وجمالا للبدن إذا أنفقه فى ذلك، فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالا بل نقصاً ووبالا. ومن المعلوم أن زينة الملك به وما به قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم، فقوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء.

الوجه الأربعون: أن القدر المقصود من المال هو ما يكفى العبد ويقيمه، ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل، فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده، فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته، وكلما ازداد غناه به ازداد تثبيطا وتخلفا عن التجهز لما أمامه. وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد فى تعبية الزاد، وقضاء الجهاز، وإعداد عدة المسير. والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به، فعدة هذا السفر هو العلم والعمل، وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار، ومن أراد شيئا هيأ له عدته، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)**﴾ [التوبه] (١).

فصل
فى تفضيل العمل بالرماح عن الصلاة النافلة

الرماح للمقاتلة بمنزلة الصياصى للوحوش، تدفع بها من يقصدها وتحارب بها، وقد نص الإمام أحمد على أن العمل بالرمح أفضل من الصلاة النافلة فى الأمكنة التى يحتاج فيها إلى الجهاد (٢).

فصل
فى المفاضلة بين السماء والأرض

اختلف الناس: هل السماء أشرف من الأرض أم الأرض أشرف من السماء ؟ فالأكثرون على الأول واحتج من فضل الأرض بأن الله أنشأ منها أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين، وبأنها مساكنهم ومحلهم أحياء وأمواتا، وبأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما أراد إظهار فضل آدم للملائكة قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠]، فأظهر فضله عليهم بعلمه واستخلافه فى الأرض، وبأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وضعها بأن جعلها محل بركاته عموما وخصوصاً، فقال: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ**﴾ [فصلت: ١٠]، ووصف الشام بالبركة فى ست آيات ووصف بعضها بأنها مقدسة، ففيها الأرض المباركة والمقدسة والوادى المقدس، وفيها بيته الحرام ومشاعر الحج والمساجد التى هى بيوته ـ سبحانه ـ والطور الذى كلم عليه كليمه ونجيه، وبإقسامه ـ سبحانه ـ بالأرض عموما وخصوصا أكثر

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٩ ـ ١٣٦).

(٢) الفروسية (ص ٦٩).

من إقسامه بالسماء، فإنه أقسم بالطور، والبلد الأمين، والتين والزيتون. ولما أقسم بالسماء أقسم بالأرض معها، وبأنه ـ سبحانه ـ خلقها قبل خلق السماء، كما دلت عليه سورة **﴿حم السجدة﴾**، وبأنها مهبط وحيه، ومستقر كتبه ورسله، ومحل أحب الأعمال إليه وهو الجهاد، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومغايظة أعدائه، ونصر أوليائه، وليس فى السماء من ذلك شيء، وبأن ساكنيها من الرسل والأنبياء والمتقين أفضل من سكان السماء من الملائكة، كما هو مذهب أهل السنة، فمسكنهم أشرف من مسكن الملائكة، وبأن ما أودع فيها من المنافع والأنهار والثمار والمعارف والأقوات والحيوان والنبات ماهو من بركاتهم، لم يودع فى السماء مثله، وبأن الله ـ سبحانه ـ قال: **﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾** [الذاريات]. ثم قال: **﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾** [الذاريات]، فجعل الأرض محل آياته والسماء محل رزقه، ولو لم يكن له فيها إلا بيته وبيت خاتم أنبيائه ورسله حيا وميتا، وبأن الأرض جعلها الله قرارا، وبساطا، ومهادا، وفراشا، وكفاتا، ومادة للساكن؛ لملابسه وطعامه وشرابه ومراكبه وجميع آلاته، ولا سيما إذا أخرجت بركتها وازينت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

قال المفضلون للسماء يكفى فى فضلها: أن رب العالمين ـ سبحانه ـ فيها، وأن عرشه وكرسيه فيها، وأن الرفيق الأعلى الذى أنعم الله عليه فيها، وأن دار كرامته فيها، وأنها مستقر أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين يوم الحشر، وأنها مطهرة مبرأة من كل شر وخبث ودنس يكون فى الأرض؛ ولهذا لاتفتح أبوابها للأرواح الخبيثة، ولا يلج ملكوتها، ولأنها مسكن من لا يعصون الله طرفة عين، فليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أوقائم، وبأنها أشرف مادة من الأرض وأوسع وأنور وأصفى وأحسن خلقة وأعظم آيات، وبأن الأرض محتاجة فى كمالها إليها ولا تحتاج هى إلى الأرض؛ ولهذا جاءت فى كتاب الله فى غالب المواضع مقدمة على الأرض، وجمعت وأفردت الأرض، فبشرفها وفضلها أتى بها مجموعة، وأما الأرض فلم يأت بها إلا مفردة، وحيث أريد تعدادها قال: **﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾** [الطلاق: ١٢]، وهذا القول هو الصواب، والله سبحانه وتعالى أعلم [١].

فصل
فى أفضل الصبر

كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على ما نالهم فى الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم أكمل من صبر أيوب على ما ناله فى الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/٢٣، ٢٤).

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح ،وصبر أبيه إبراهيم ـ عليهما السلام ـ على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف (١).

فصل
فى المفاضلة بين اليقين والحضور

قد اختلف فى تفضيل اليقين على الحضور،والحضور على اليقين. فقيل:الحضور أفضل لأنه وطنات،واليقين خطرات،وبعضهم رجح اليقين وقال:هو غاية الإيمان.والأول رأى أن اليقين ابتداء الحضور ، فكأنه جعل اليقين ابتداء والحضور دواماً.

وهذا الخلاف لايتبين ، فإن اليقين لا ينفك عن الحضور،ولا الحضور عن اليقين ، بل فى اليقين من زيادة الإيمان ومعرفة تفاصيله وشعبه وتنزيلها منازلها ،ماليس فى الحضور،فهو أكمل منه من هذا الوجه،وفى الحضور من الجمعية وعدم التفرقة والدخول فى الفناء ماقد ينفك عنه اليقين ، فاليقين أخص بالمعرفة،والحضور أخص بالإرادة ،والله أعلم (٢).

فصل
فى تفاضل العقول

العقل عقلان؛ عقل غريزة:وهو أب العلم ومربيه ومثمره،وعقل مكتسب مستفاد:وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته. فإذا اجتمعا فى العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء،واستقام له أمره،وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب،وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه،وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما.

ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزى،ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب . والتحقيق:أن صاحب العقل الغريزى الذى لاعلم ولاتجربة عنده آفته التى يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة؛لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها،وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام،فإن علمه بالفرص وطرفها يلقيه على المبادرة إليها،وعقله الغريزى لا يطيق رده عنه ،فهو غالباً يؤتى من إقدامه،والأول من إحجامه،فإذا رزق العقل الغريزى عقلاً إيمانياً مستفاداً من مشكاة النبوة لا عقلاً معيشياً نفاقياً يظن أربابه أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم،ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم،وهذا مع أنه لاسبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة ومؤنة الأذى فى الله والموالاة فيه والمعاداة فيه،وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك فى الآجلة،فإنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال فى الله ويعاد فيه،فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله، والله الموفق المعين (٣).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٩٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٧).

فصل
فى المفاضلة بين الصبر والشكر

حكى أبو الفرج بن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الصبر أفضل.

والثانى: أن الشكر أفضل.

والثالث: أنهما سواء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت.

ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة، وما لها وعليها فى احتجاجها، بعون الله وتوفيقه.

قال الصابرون: قد أثنى الله ـ سبحانه ـ على الصبر وأهله، ومدحه، وأمر به، وعلق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره الله فى كتابه فى نحو تسعين موضعاً.

ويكفى فى فضله قوله ﷺ: « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »[1]، فذكر ذلك فى معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر؛ فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه. وهذا كقوله: « مدمن الخمر كعابد وثن »[2]، ونظائر ذلك.

قالوا: وإذا وازنا بين النصوص الواردة فى الصبر والواردة فى الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها. ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما فى سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية فى باب أكثر منها فى باب الصلاة والجهاد.

قالوا: وأيضاً، فالصبر يدخل فى كل باب، بل فى كل مسألة من مسائل الدين؛ ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قالوا: وأيضاً، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ علق على الشكر الزيادة، فقال: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾** [ابراهيم:٧]. وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب. وأيضاً، فإنه ـ سبحانه ـ أطلق جزاء الشاكرين، فقال: **﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾** [آل عمران]، وقيد جزاء الصابرين بالإحسان، فقال: **﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾** [النحل].

---

(١) الترمذى (٢٤٨٦) فى صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٤٣)، وقال « هذا حديث حسن غريب »، وأحمد (٣٤٣/٤).

(٢) النسائى (٢٥٦٢) فى الزكاة، باب: المنان بما أعطى، وابن ماجه (٣٣٧٥) فى الأشربة، باب: مدمن الخمر، وفى الزوائد: « محمد بن سليمان ضعفه النسائى وابن عدى... إلخ »، وأحمد (٢٧٢/١).

قالوا: وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لى وأنا أجزى به » (١). وفى لفظ: « كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به». وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها، كما فى الحديث نفسه: « يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلى» (٢). ولهذا قال النبى ﷺ ـ لمن سأله عن أفضل الأعمال: « عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له» (٣).

ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم، فإنه حبس النفس عن إجابة داعى شهوة الطعام والشراب والجماع، فسر الصبر فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم. وسمى رمضان شهر الصبر. وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر. وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الشهوة والغضب؛ فإن النفس تشتهى الشىء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب. ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعى الأمرين. وقد أشار إلى ذلك النبى ﷺ فى الحديث الصحيح، وهو قوله: « إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يجهل، ولا يصخب، فإن أحداً سابه أو شاتمه، فليقل: إنى صائم » (٤)، فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغى له أن يحتمى من إفسادهما لصومه، فهذه تفسد صومه، وهذه تحبط أجره، كما قال فى الحديث الآخر: « من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » (٥).

قالوا: ويكفى فى فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون] ؛ فجعل فوزهم جزاء صبرهم، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة] ، لا شىء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة؛ لأنهم نالوا معية الله. وقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ

---

(١) البخارى (٥٩٢٧) فى اللباس، باب: مايذكر فى المسك، ومسلم (١١٥١/ ١٦١) فى الصيام، باب: حفظ اللسان للصائم.

(٢) ابن ماجه (١٦٣٨) فى الصيام، باب: ماجاء فى فضل الصيام، وأحمد (٢/ ٤٤٣).

(٣) النسائى (٢٢٢٢) فى فضل الصيام، باب: ذكر الاختلاف على محمد بن أبى يعقوب، وأحمد (٥/ ٢٤٩).

(٤) مسلم (١١٥١/ ١٦٣) فى الصيام، باب: فضل الصيام، وابن ماجه (١٦٩١) فى الصيام، باب: ماجاء فى الغيبة والرفث للصائم، وأحمد (٢/ ٣٥٦).

(٥) البخارى (١٩٠٣) فى الصوم، باب: من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم، والترمذى (٧٠٧) فى الصوم، باب: ماجاء فى التشديد فى الغيبة للصائم، وقال: « حسن صحيح »، وأحمد (٢/ ٤٥٢).

بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨] ، وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ ؛ للصبر لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها ، وهى صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة] ، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور فى آيتين من كتابه ، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل، وقد تقدم ذكر ذلك.

قالوا: وقد دل الدليل على أن الزهد فى الدنيا والتقلل منها مهما أمكن أفضل من الاستكثار منها، والزهد فيها حال الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر، قالوا: وقد سئل المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن رجلين مرا بكنز ، فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه، وأخذه الآخر وأنفقه فى طاعة الله تعالى ، أيهما أفضل؟ فقال: الذى لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبى ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها، وقال: « بل أجوع يوماً وأشبع يوماً » (١)، ولو أخذها لأنفقها فى مرضاة الله وطاعته، فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها.

قالوا: وقد علم أن الكمال الإنسانى فى ثلاثة أمور: علوم يعرفها، وأعمال يعمل بها، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله . وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعمل بمرضاته ، وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء. فهذا أشرف ما فى الدنيا، وجزاؤه أشرف ما فى الآخرة، وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره. وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها، وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو فى الدنيا. وإن شعر بذلك بعض الشعور. فليس شعوره به كاملاً ؛ للمعارضات التى عليه، والمحن التى امتحن بها، وإلا فليست السعادة فى الحقيقة سوى ذلك. وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها ، وتفاوت العلوم فى فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها؛ فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته، فهو أعلى مما دونه وكذلك حال القلب، فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذى خلق له ، فهو أشرف مما دونه ، وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره. ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال لقرب إفضائها إلى المقصود. وهكذا يجب أن يكون؛ فإن كلما كان الشىء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها. فالعمل المعد للقلب المهيئ له لمعرفة الله وأسمائه

---

(١) الترمذى (٢٣٤٧) فى الزهد، باب: ماجاء فى الكفاف والصبر عليه، وقال: « حسن ».

وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك. وإذا اشتركت عدة أعمال فى هذا الإفضاء، فأفضلها أقربها إلى هذا المفضى. ولهذا اشتركت الطاعات فى هذا الإفضاء، فكانت مطلوبة لله. واشتركت المعاصى فى حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية، فكانت منهياً عنها. وتأثير الطاعات والمعاصى بحسب درجاتها.

وها هنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه فى حق غيره؛ فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شىء منه، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة. والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته، وقوفه فى الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع. والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر، مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح. وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده، جلوسه ساعة للنظر فى المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإقامة الحدود، ونصر المحق، وقمع المبطل، أفضل من عبادة سنين من غيره. ومن غلبت عليه شهوة النساء، فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته. وتأمل تولية النبى ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله، وترك تولية أبى ذر، بل قال له: «إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تؤمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»[(١)]، وأمره وغيره بالصيام، وقال: «عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له»[(٢)]، وأمر آخر بألا يغضب[(٣)]، وأمر ثالثاً بألا يزال لسانه رطباً من ذكر الله[(٤)]. ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيئ له؛ فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه، كما قيل:

ما زال يسبق حتى قال حاسده   هذا طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلاً، إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه. فالشح المطاع مثلاً من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها. وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس، لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع فى العلم والذكر والزهد، وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده. ولو

---

(١) مسلم (١٨٢٦/ ١٧) فى الإدارة، باب: كراهة الإمارة لغير ضرورة، وأبو داود (٢٨٦٨) فى الوصايا، باب: ماجاء فى الدخول فى الوصايا، والنسائى (٣٦٦٧) فى الوصايا، باب: النهى عن الولاية على مال اليتيم.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٨٨.

(٣) البخارى (٦١١٦) فى الأدب، باب: وقال الله تعالى: ﴿ **جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾، والترمذى (٢٠٢٠) فى البر والصلة، باب: ماجاء فى كثرة الغضب، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وأحمد (٢/ ٣٦٢).

(٤) الترمذى (٣٣٧٥) فى الدعوات، باب: ماجاء فى فضل الذكر، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه»، وأحمد (٤/ ١٨٨).

قيل: أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب: أن هذا فى موضعه أفضل ،وهذا فى موضعه أفضل.

وإذا عرفت هذه القاعدة، فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه؛ فتهيىء لمعرفة الله ومحبته. فهو دواء للداء الذى فى القلب يمنعه من المقصود. وأما الفقير الزاهد، فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفرت قوته على استفراغ الوسع فى حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً، فقالوا: فإن قيل: فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه بأن قالوا الطبيب: إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه، ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به. ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً ؛فوقع الحث على العمل المقصود ، وهو شفاء القلب .فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل ،كالحجام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: وإذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة ، حال الشاكر وحال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

فصل

قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم ،وفضلتم مقاماً غيره أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية ،والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه ،والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل ،ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا وفيتموه مرتبته ، وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره ، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر ،والصبر خادم لهما ، ووسيلة إليهما، وعوناً عليهما، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان ،وأخبر أنه لا غرض له فى عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به ،فقال : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، أى إن وفيتم ما خلقتم له، وهو الشكر والإيمان ،فما أصنع بعذابكم ؟!.

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ [الأنعام].

وقسم الناس إلى شكور وكفور ،فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله ،وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى فى الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان].

وقال نبيه سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ⑦﴾ [إبراهيم]

وقال تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر:٧].

وهذا كثير في القرآن، يقابل ـ سبحانه ـ بين الشكر والكفر فهو ضده ، قال تعالى ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**⑭④﴾ [آل عمران]. الشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ، فلم ينقلبوا على أعقابهم.

وعلق ـ سبحانه ـ المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف ـ سبحانه ـ كثيراً من الجزاء على المشيئة، كقوله: ﴿**فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ**﴾ [التوبة:٢٨] ، وقوله في الإجابة: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ**﴾ [الأنعام:٤١] ، وقوله في الرزق: ﴿ **يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة: ٢١٢] ، وفي المغفرة: ﴿ **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، والتوبة: ﴿**وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ**﴾ [التوبة:١٥]، وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر ، كقوله: ﴿**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ⑭⑤﴾ [آل عمران:١٤٥] ، ﴿ **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**⑭④ ﴾ [آل عمران] .

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر ، أنه من أجل المقامات وأعلاها ، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه؛ فقال: ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**⑰﴾ [الأعراف].

ووصف الله ـ سبحانه ـ الشاكرين بأنهم قليل من عباده ، فقال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**⑬﴾ [سبأ].

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ، أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال: ما هذا ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قال: ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**④⓪﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**⑬﴾ [سبأ]، وقال: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ [ص:٢٤] ؛ فقال عمر: صدقت.

وقد أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**③﴾ [الإسراء]. وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر ، وخطاب العباد بأنهم ذريته ، إشارة إلى الاقتداء به ؛ فإنه أبوهم الثاني؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**⑦⑦﴾ [الصافات]. فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر ؛ فإنه كان عبداً شكوراً.

وقد أخبر ـ سبحانه ـ إنما يعبده من شكره ؛ فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته ؛ فقال : ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾ [البقرة].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [الإعراف].

وأول وصية وصى بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين ، فقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان].

وأخبر أن رضاه فى شكره، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وأثنى ـ سبحانه ـ على خليله إبراهيم بشكر نعمه ، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ [النحل]، فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة ،أى قدوة يؤتم به فى الخير،وأنه قانتاً لله ، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته ،والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر ـ سبحانه ـ أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ، بل هو الغاية التى خلق عبيده لأجلها : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]؛فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾ [آل عمران]. ويجوز أن يكون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ،ولأمره لهم بالتقوى ،ولهما معاً،وهو الظاهر؛فالشكر غاية الخلق والأمر. وقد صرح ـ سبحانه ـ بأنه غاية أمره وإرساله الرسول فى قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة].

قالوا: فالشكر مراد لنفسه ،والصبر مراد لغيره. والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر ؛فهو خادم الشكر.

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ:أنه قام حتى تفطرت قدماه ،فقيل له:أتفعل

هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: « أفلا أكون عبداً شكوراً » (١).

وثبت فى المسند والترمذى: أن النبى ﷺ قال لمعاذ: « والله إنى لأحبك ، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٢).

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة ، قال: كان من دعاء النبى ﷺ: « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٣).

قال: وحدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا حميد الطويل ، عن طلق بن حبيب ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من أعطيهن ، فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغيه خوناً فى نفسها ولا فى مال » (٤).

وذكر أيضاً ، من حديث القاسم بن محمد ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ، قال: « ما أنعم الله على عبد نعمة ، فعلم أنها من عند الله، إلا كتب الله له شكرها. وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وإن الرجل يشترى الثوب بالدينار ، فيلبسه، فيحمد الله ، فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له » (٥).

وقد ثبت فى صحيح مسلم، عنه ﷺ أنه قال: « إن الله ليرضى عن العبد: يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » (٦) . فكان هذا الجزاء العظيم، الذى هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] ، فى مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبى الدنيا، من حديث عبدالله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشى، عن أبيه ، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة»(٧)؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الحسن البصرى: « إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً». ولهذا كانوا يسمون الشكر « الحافظ »؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة ، و« الجالب »؛

---

(١) البخارى (١١٣٠) فى التهجد ، باب: قيام النبى ﷺ الليل ، ومسلم (٢٨١٩/٧٩) فى صفات المنافقين وأحكامهم، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة.

(٢) أبو داود (١٥٢٢) فى الصلاة ، باب: فى الاستغفار ولم يعزه صاحب التحفة (٨/٤٠٦) إلا لأبى داود والنسائى، وأحمد (٥/ ٢٤٥).

(٣) ابن أبى الدنيا ، فى كتاب الشكر رقم (٤).

(٤) ابن أبى الدنيا ، فى كتاب الشكر رقم (٣٥).

(٥) ابن أبى الدينا، فى كتاب الشكر رقم (٤٧).

(٦) مسلم (٢٧٣٤/ ٨٩) فى الذكر والدعاء والاستغفار ، باب: استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب.

(٧) ابن أبى الدنيا ، فى كتاب الشكر رقم (٣).

لأنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب ﷺ: أنه قال لرجل من همذان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان فى قرن؛ فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.

وقال عمر بن عبدالعزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله.

وكان يقال: الشكر قيد النعم.

وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر. وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى]. والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته؛ فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال على بن الجعدى: سمعت سفيان الثورى يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمداً كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة.

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبى رجاء العطاردى، قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: « إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (١).

وفى صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال: « كلوا واشربوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (٢).

وذكر شعبة، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة، فقال: « هل لك من مال؟» قال: قلت: نعم. قال: « من أى المال؟» قلت: من كل المال قد آتانى الله؛ من الإبل والخيل والرقيق والغنم، قال: « فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك » (٣).

وفى بعض المراسيل: « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه ».

---

(١) الترمذى (٢٨١٩) فى الأدب، باب: ماجاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقال: « حديث حسن ».

(٢) النسائى (٢٥٥٩) فى الزكاة، باب: الاختيال فى الصدقة، وابن ماجه (٣٦٠٥) فى اللباس، باب: البس ما شئت.

(٣) الترمذى (٢٠٠٦) فى البر والصلة، باب: ماجاء فى الإحسان، وقال: « حديث حسن صحيح »، وأحمد (١٣٧/٤).

وروى عبد الله بن يزيد المقرى ،عن أبى معمر ،عن بكير بن عبدالله رفعه: « من أعطى خيراً فرؤى عليه سمى حبيب الله محدثاً بنعمة الله ،ومن أعطى خيراً ولم ير عليه سمى بغيض الله معادياً لنعمة الله » (١).

وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه ،وحمده بلسانه ،لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة ؛لقول الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾ [إبراهيم:٧] . وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها.

وقد قال تعالى: « يا بن آدم ،إذا كنت تتقلب فى نعمتى ،وأنت تتقلب فى معصيتى، فاحذرنى لأصرعك بين معاصى ،يا بن آدم اتقنى ونم حيث شئت ».

وقال الشعبى: الشكر نصف الإيمان ،واليقين الإيمان كله.

وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها.

وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر ،فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم ،وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً.

وقد ذم الله ـ سبحانه ـ الكنود ،وهو الذى لا يشكر نعمه ؛قال الحسن: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ۝٦ ﴾ [العاديات]، يعد المصائب وينسى النعم . وقد أخبر النبى ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب. قال: « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ،ثم رأت منك شيئاً، قالت: مارأيت منك خيراً قط » (٢). فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهى فى الحقيقة من الله ،فكيف بمن ترك شكر نعمة الله ؟!

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى عبد الرحمن السلمى، عن الشعبى ،عن النعمان بن بشير ،قال: قال رسول الله ﷺ : « التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ،ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ،ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ،والجماعة بركة ،والفرقة عذاب» (٣).

وقال مطرف بن عبد الله :نظرت فى العافية والشكر ،فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة، ولأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

ورأى بكر بن عبد الله المزنى حمالاً عليه حمله ، وهو يقول: الحمد لله ، أستغفر

---

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (٥٤).

(٢) البخارى (٢٩) فى الإيمان ،باب: كفران العشر ، ومسلم (٩٠٧/ ١٧) فى الكسوف ،باب: ما عرض على النبى (ﷺ) فى صلاة الكسوف .

(٣) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (٦٣).

الله، قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره ، وقلت له : أما تحسن غير هذا ؟ قال: بلى أحسن خيراً كثيراً ؛ أقرأ كتاب الله ، غير أن العبد بين نعمة وذنب ؛ فأحمد الله على نعمه السابغة ، وأستغفره لذنوبى . فقلت: الحمال أفقه من بكر .

وذكر الترمذى ، من حديث جابر بن عبدالله ﷺ ، قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا. فقال: « قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن رداً منكم ؛ كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن] ، قالوا: لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » (١).

وقال مشعر: لما قيل لآل داود: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصل.

وقال عون بن عبدالله: قال بعض الفقهاء: إنى رأيت فى أمرى ، لم أر خيراً إلا شر معه إلا المعافاة والشكر؛ فرب شاكر فى بلائه ؛ ورب معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جيمعاً.

وقال أبو معاوية: لبس عمر بن الخطاب قميصاً ، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى. ثم مد يديه، فنظر شيئاً يزيد على يديه فقطعه، ثم أنشأ يحدث ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من لبس ثوباً (أحسبه جديداً) فقال حين يبلغ ترقوته ، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسا به مسكيناً ، لم يزل فى جوار الله، وفى ذمة الله ، وفى كنف الله ، حياً وميتاً، ما بقى من ذلك الثوب سلك» (٢).

وقال عون بن عبدالله : لبس رجل قميصاً جديداً ، فحمد الله ، فغفر له. فقال رجل: ارجع حتى أشترى قميصاً فألبسه وأحمد الله.

وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت فى دينه، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لابد كائنة فقد كانت.

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً ، وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثنى بها.

وقال روح بن القاسم : تنسك رجل فقال لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره . فقال

(١) الترمذى (٣٢٩١) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الرحمن.

(٢) أبو داود (٤٠٢٠) فى أول كتاب اللباس ، والترمذى (٣٥٦٠) فى الدعوات ، باب: فى دعاء النبى (ﷺ) وقال: « غريب » ، وابن ماجه (٣٥٥٧) فى اللباس ، باب: ما يقول الرجل إذا لبس ثوبا جديدا وصعفه الألبانى .

الحسن: هذا أحمق ،وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟

وفى بعض الآثار الإلهية ، يقول الله عز وجل: « ابن آدم ،خيرى إليك نازل ،وشرك إلى صاعد ،أتحبب إليك بالنعم ،وتتبغض إلى بالمعاصى،ولا يزال ملك كريم قد عرج إلى منك بعمل قبيح ».

قال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو على ،قال: كنت أسمع جاراً لى يقول فى الليل: يا إلهى،خيرك على نازل وشرى إليك صاعد،كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح ،وأنت مع غناك عنى تتحبب إلىَّ بالنعم ،وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتمقت إليك بالمعاصى ،وأنت فى ذلك تخبرنى وتسترنى وترزقنى.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟قال: أصبحنا مغرقين فى النعم،عاجزين عن الشكر،يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا،ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون.

وقال عبدالله بن ثعلبة: إلهى من كرمك أنك تطاع ولا تعصى ،ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى،وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد.

وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوباً جديداً قال: بسم الله والحمد لله.

وقال أنس بن مالك: ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموت والأرض تعبر رزقه ،فجعله فى أيدى بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه. فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر ،وإن أباه وجد الغنى الحميد عباداً فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له .

وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبى تميمة : كيف أصبحت؟قال: أصبحت بين نعمتين،ولا أدرى أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد،ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لا يبلغها عملى.

وروى ابن أبى الدنيا : عن سعيد المقبرى،عن أبيه ، عن عبدالله بن سلام : أن موسى عليه السلام قال: يا رب،ما الشكر الذى ينبغى لك؟قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكرى.

وروى سهيل بن أبى صالح،عن أبيه ،عن أبى هريرة رضي الله عنه ،قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى ﷺ ،فانطلقنا معه ،فلما طعم وغسل يديه ،قال: « الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ،من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا ،وكل بلاء حسن أبلانا ،الحمد لله غير مودع ربى ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ،الحمد الذى أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب وكسى من العرى ،وهدى من الضلالة ،وبصر من العمى ،وفضل على كثير من خلقه تفضيلاً؛الحمد لله رب العالمين » (١).

---

(١) النسائى فى السنن الكبرى (١٠١٣٣) فى عمل اليوم والليلة ،باب: مايقول إذا غسل يديه ،والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤٦) وقال: « صحيح على شرط مسلم،ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى وابن حبان (٥١٩٦) ،وابن أبى الدنيا،فى كتاب الشكر رقم (١٥).

وفى مسند الحسن بن الصلاح ،من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال:قال رسول الله ﷺ:« ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد،فيقول :ما شاء الله لا قوة إلا بالله ،فيرى فيه آفة دون الموت » (١).

ويذكر عن عائشة :أن النبى ﷺ دخل عليها ،فرأى كسرة ملقاة فمسحها ،وقال:« يا عائشة،أحسنى جوار نعم الله؛فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم »،ذكره ابن أبى الدنيا (٢).

وقال الإمام أحمد :حدثنا هاشم بن القاسم،حدثنا صالح ،عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الخلد ،قال:قرأت فى مسألة داود أنه قال:« يا رب ،كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك؟.قال:فأتاه الوحى:يا داود ألیس تعلم أن الذى بك من النعم منى؟ قال:بلى يا رب.قال:فإنى أرضى بذلك منك شكراً » (٣).

وقال عبد الله بن أحمد:حدثنا أبو موسى الأنصارى ،حدثنا أبو الوليد ،عن سعيد بن عبد العزيز ، قال:كان دعاء داود:«سبحان مستخرج الشكر بالعطاء،ومستخرج الدعاء بالبلاء».

وقال الإمام أحمد:حدثنا أبو معاوية ،حدثنى الأعمش ،عن المنهال ،عن عبد الله بن الحارث ، قال : أوحى الله إلى داود : « أحبنى ، وأحب عبادتى ، وحببنى إلى عبادى. قال : يارب هذا حبك وحب عبادتك.فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال:تذكرنى عندهم؛فإنهم لا يذكرون منى إلا الحسن؛فجل جلال ربنا ،وتبارك اسمه ،وتعالى جده،وتقدست أسماؤه ،وجل ثناؤه،ولا إله غيره ».

وقال أحمد:حدثنا عبدالرزاق بن عمران ،قال:سمعت وهبا يقول:وجدت فى كتاب آل داود:« بعزتى ، إن من اعتصم بى ،فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن ، فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجاً.ومن لم يعتصم بى ،فإنى أقطع يديه من أسباب السماء،وأخسف به من تحت قدميه الأرض ،فأجعله فى الهواء ،ثم أكله إلى نفسه.كفى بى لعبدى مالاً؛إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى ،وأجبته قبل أن يدعونى ،وإنى أعلم بحاجته التى ترفق به نفسه ».

وقال أحمد:حدثنا يسار،حدثنا حفص،حدثنا ثابت ،قال:كان داود عليه السلام قد جزأ

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٤٢٦١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٤٣) : « فيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » ، والبيهقى فى االشعب (٤٣٦٩) ،وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (١).

(٢) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (٢).

(٣) البيهقى فى الشعب (٤٤١٤)،وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (٥).

ساعات الليل والنهار على أهله ،فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فيها. قال: فعمهم تبارك وتعالى فى هذه الآية: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**(١٣)﴾ [سبأ].

قال أحمد: وحدثنا جابر بن زيد ،عن المغيرة بن عيينة ،قال داود: يارب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك منى؟ فأوحى الله إليه: نعم ،الضفدع. وأنزل الله عليه: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**(١٣)﴾ [سبأ]. قال: يارب ،كيف أطيق شكرك ، وأنت الذى تنعم على ، ثم ترزقنى على النعمة الشكر ، ثم تزيدنى نعمة بعد نعمة؛ فالنعم منك ،والشكر منك؛ فكيف أطيق شكرك ؟ قال: الآن عرفتنى يا داود.

قال أحمد :وحدثنا عبد الربيع بن صبيح ،عن الحسن ،قال: نبى الله داود: إلهى ،لو أن لكل شعرة منى لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة.

وذكر ابن أبى الدنيا ، عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الخلد ، قال : قال موسى: يارب، كيف لى أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى ؟ قال: فأتاه الوحى :يا موسى الآن شكرتنى.

قال بكر بن عبد الله: ما قال عبد قط :الحمد لله ، إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله ، فجزاء تلك النعمة أن يقول: الحمد لله ، فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله.

وقال الحسن: سمع نبى الله رجلاً يقول: « الحمد لله بالإسلام ، فقال: « إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة »(١).

وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ فى الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا للإسلام .

وقال سليمان التيمى: إن الله ـ سبحانه ـ أنعم على عبده على قدره ،وكلفهم الشكر على قدرتهم.

وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول الحمد لله ، اللهم ربنا لك الحمد ، بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا؛ لك الحمد بالإسلام والقرآن ،ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ،كبت عدونا وبسطت رزقنا ،وأظهرت أمننا ،وجمعت فرقتنا ، وأحسنت معافاتنا؛ ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا ؛ فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً ،لك

---

(١) ابن أبى الدنيا ،فى كتاب الشكر رقم (٩).

الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا فى قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، أو حى أو ميت، أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وقال الحسن: قال موسى: يا رب، كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه؛ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى، علم أن ذلك منى فحمدنى عليه؛ فكان ذلك شكر ما صنعت إليه.

وقال سعد بن مسعود الثقفى: إنما سمى نوح عبداً شكوراً، لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاماً إلا حمد الله.

وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده، وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها.

وقال مخلد بن الحسين: كان يقال: الشكر ترك المعاصى.

وقال أبو حازم: كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية.

وقال سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله.

وقال حماد بن زيد: حدثنا ليث، عن أبى بردة، قال: قدمت المدينة، فلقيت عبدالله بن سلام، فقال لى: ألا تدخل بيتاً دخله النبى ﷺ ونطعمك سويقاً وتمراً؟ ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غدا، ذكرهم بما أنعم عليهم. فيقول العبد: ما آية ذلك؟ فيقول: آية ذلك أنك كنت فى كربة كذا وكذا قد دعوتنى فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت فى سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبتك. قال: يذكره حتى يذكر. فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة ابنة فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم. يقف عبده بين يديه، فيعدد عليه نعمه، فبكى، ثم بكى، ثم قال: إنى لأرجوالله ألا يقعد عبداً بين يديه فيعذبه.

وروى ليث بن أبى سليم، عن عثمان، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات، فيقول عز وجل لنعمة من نعمه: خذى حقك من حسناته، فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها» (١).

وقال بكر بن عبدالله المزنى: ينزل بالعبد الأمر، فيدعو الله، فيصرف عنه، فيأتيه الشيطان، فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه. قال: أو لا يقول العبد: كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله صرفه عنى.

---

(١) ابن أبى الدنيا، فى كتاب الشكر رقم (٢٤).

وذكر ابن أبى الدنيا، عن صدقة بن يسار، قال: بينما داود عليه السلام فى محرابه، إذ مرت به ذرة، فنظر إليها وفكر فى خلقها وعجب منها، وقال: ما يعبؤ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود، أتعجبك نفسك؛ فوالذى بيده لأنا على ما آتانى الله من فضل أشكر منك على ما آتاك من فضله.

وقال أيوب: إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونا على ما جاء به النبى ﷺ.

وقال سفيان الثورى: كان يقال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

وقال زاذان: ما يجب لله على ذى النعمة بحق، ألا يتوصل بها إلى معصية.

قال ابن أبى الدنيا: أنشدنى محمود الوراق:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر

فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وما منهما إلا له فيه منة ... تضيق بها الأوهام والبر والبحر

وقد روى الدراوردى، عن عمرو بن أبى عمرو، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إن المؤمن عندى بمنزلة كل خير، يحمدنى وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه» (١).

ومر محمد بن النكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا فتى، ما هذا جزاء نعم الله عليك.

وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية: إنى لأرجو ألا يهلك عبد بين اثنتين: نعم يحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه.

وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها؛ فإن فى النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بهافالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها. فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق.

ومر الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة، فجلس يحمد الله ويبكى، قيل له: ما

(١) ابن أبى الدنيا، فى كتاب الشكر رقم (٨٣).

يبكيك؟قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار ،فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء. فذلك الذى أبكانى.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: « إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ،ولا ينظر إلى من فوقه » (١). قال عبد الله بن المبارك: أخبرنى يحيى بن عبدالله ،قال: سمعت أبى قال: سمعت أبا هريرة فذكره.

وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم ،عن الحسن،قال :قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه ،فقد قل عمله وحضر عذابه.

قال ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس ،عن اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ،عن أنس رضي الله عنه ،قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلم على رجل ،فرد عليه السلام ،فقال عمر للرجل: كيف أنت؟قال الرجل: أحمد إليك الله ،قال: هذا أردت الذى منك.

قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد ،عن ابن عمر رضي الله عنهما ،قال: لعلنا نلتقى فى يوم مرارا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل.

وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا.

وقال بعض السلف فى خطبته يوم عيد: أصبحتم زهرا وأصبح الناس غبراً ،أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون ،وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون؛ فبكى وأبكاهم.

وقال عبدالله بن قرط الأزدى ـ وكان من الصحابة ـ على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يا لها من نعم ما أشبعها ،ومن كرامة ما أظهرها ،ما زال عن قوم شيئا أشد من نعمة لا يستطيعون ردها ،وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم.

وقال سلمان الفارسى رضي الله عنه: إن رجلا بسط له من الدنيا، فانتزع ما فى يديه ،فجعل يحمد الله ويثنى عليه، حتى لم يكن له فراش إلا بارية. قال: فجعل يحمد الله ويثنى عليه، وبسط لآخر من الدنيا ،فقال لصاحب البارية: أرأيتك أنت على ما نحمد الله؟

---

(١) مسلم (٢٩٦٣/٩) فى أول الزهد والرقائق ،والترمذى (٢٥١٣) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب: (٥٨) ، وقال: « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه (٤١٤٢) فى الزهد ،باب: القناعة.

قال: أحمده على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك لسانك، أرأيتك يديك، أرأيتك رجليك.

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد، يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة.

وكان أبو الدرداء يقول: الصحة الملك.

وقال جعفر بن محمد ﷺ: فقد أبى بغلة له، فقال: إن ردها الله لأحمدنه بمحامد يرضاها. فما لبث أن أتى بسرجها ولجامها، فركبها فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله لم يزد عليها، فقيل له في ذلك، فقال: هل تركت وأبقيت شيئا جعلت الحمد كله لله.

وروى ابن أبى الدنيا، من حديث سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبيه، عن جده، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً من الأنصار، وقال: « إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكراً »، قال: فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا، فقال بعض أصحابه: سمعناك تقول: « إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكراً؟ »، قال: « قد فعلت؛ اللهم لك الحمد شكراً، ولك المن فضلاً »(١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال محمد بن المنكدر لأبى حازم: يا أبا حازم، ما أكثر من يلقانى فيدعو لى بالخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيراً قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذى ذلك من قبله فاشكره، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم].

وقال على بن الجعد: حدثنا عبدالعزيز بن أبى سلمة الماجشون، حدثنى من أصدقه: أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يقول فى دعائه: أسألك تمام النعمة فى الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة فى جميع ما تكون فيه الخيرة، بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها كريم.

وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ. قال ابن أبى الدنيا: وبلغنى عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ لا يكون فعل العبد

---

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (١٠٤).

أفضل من فعل الله ،ثم قال: وقال بعض أهل العلم: إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغى له أن يشكره ،فكان الحمد له أفضل.

قلت: لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة،فإن قوله: الحمد لله ، نعمة من نعم الله، والنعمة التى حمد الله عليها أيضاً نعمة من نعم الله ، وبعض النعم أجل من بعض؛فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها،والله أعلم. وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ،وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله ،وفعل العبد هو مفعول الله ،ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم: لنعم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها ؛وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا؛فإن أكون فيما رضى الله لنبيه وأحب له ، أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه.

وقال ابن أبى الدنيا: بلغنى عن بعض العلماء أنه قال: ينبغى للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا ،كما يحمده على ما أعطاه ،وأين يقع ما أعطاه الله، والحساب يأتى عليه ، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به ، فيشغل قلبه ويتعب جوارحه ، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

وحدث عن ابن أبى الحوارى قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم ،فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا فى كذا وكذا ،أنعم الله علينا فى كذا فعل بنا كذا.

وحدثنا عبدالله بن داود عن سفيان فى قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الأعراف] ،قال: يسبغ عليهم النعم ،ويمنعهم الشكر. وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة .وسئل ثابت البنانى عن الاستدراج ،فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين. وقال يونس فى تفسيرها :إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة ،فحفظها وبقى عليها،ثم شكر الله بما أعطاه ،أعطاه أشرف منها. وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله ،وكان تضييعه الشكر استدراجاً. وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها ،إنى رأيته أعطاها أقواماً فحصكلوا،وكل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية. وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث ، عن هقل ،عن الأوزاعى ، أنه وعظهم ، فقال فى موعظته: أيها الناس، تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها ،على الهرب من نار الله الموقدة التى تتطلع على الأفئدة ،فإنكم فى دار الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها؛فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً، فقطعوا الجبال،وجابوا الصخور ،ونقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم ،وعفت آثارهم ،وأخوت منازلهم،وأنست ذكرهم ، فما تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم ركزاً.كانوا يلهون آمنين،لبيات قوم غافلين،أو لصباح قوم نادمين.ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم فى دارهم جاثمين ،وأصبح الباقون ينظرون فى آثارهم نقمة ،وزوال نعمة ،ومساكن خاوية ، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ،وعبرة لمن يخشى . وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص ، ودنيا مقبوضة ، وزمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه؛فلم يبق منه إلا حمأة شر ،وصبابة كدر ،وأهاويل عبر ،وعقوبات غير ، وإرسال فتن ، وتتابع زلازل ،ورذلة خلف.بهم ظهر الفساد فى البر والبحر.ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل،وغره طول الأجل ،وتبلغ بطول الأمانى ،نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشراه فمهد لنفسه.

وكان يقال:الشكر ترك المعصية.

وقال ابن المبارك:قال سفيان:ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

وكان مروان بن الحكم إذ ذكر الإسلام قال:بنعمة ربى وصلت إليه ،لا بما قدمت يداى،ولا بإرادتى إنى كنت خاطئاً.

وكم من مدخل لو مت فيه ... لكنت فيه نكالاً فى العشيرة
وقيت السوء والمكروه فيه ... وظفرت بنعمة منه كبيرة
وكم من نعمة لله تمسى ... وتصبح فى العيان وفى السريرة

ودعى عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة ،فانطلق ليأخذهم ،فتفرقوا قبل أن يبلغهم،فأعتق رقبة شكراً لله ألا يكون جرى على يديه خزى مسلم.

قال يزيد بن هارون:أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحاً ﷺ كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذى أذاقنى لذته ،وأبقى منفعته فى جسدى ، وأذهب عنى أذاه؛ فسمى عبداً شكوراً.

وقال ابن أبى الدنيا:حدثنى العباس بن جعفر ، عن الحارث بن شبل ، قال : حدثتنا أم النعمان:أن عائشة حدثتها عن النبى ﷺ:أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله (١).

---

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (١٢٤).

وقال رجل لأبى حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم ؟قال: إنى رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته. قال: فما شكر الأذنين؟قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته. قال: فما شكر اليدين ؟قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما. قال: فما شكر البطن؟قال: أن يكون أسفله طعاماً، وأعلاه علماً. قال: فما شكر الفرج ؟قال: قال الله: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ۝ ﴾ [المؤمنون] .

قال: فما شكر الرجلين ؟ قال : إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله ، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله .

وأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه ، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

وذكر عبد الله بن المبارك: أن النجاشى أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو فى بيت عليه خلقان جالس على التراب ، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما فى وجوهنا قال: إنى أبشركم بما يسركم ؛ إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله قد نصر نبيه ﷺ، وأهلك عدوه ، وأسر فلان وفلان، وقتل فلان وفلان. التقوا بواد يقال له بدر ، كثير الأراك ، كأنى أنظر إليه كنت أرعى به لسيدى رجل من بنى ضمرة. فقال له جعفر: ما بالك جالساً على التراب ، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق ، قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ أن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً عندما أحدث الله لهم من نعمه ، فلما أحدث الله لى نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع.

وقال حبيب بن عبيد: ما ابتلى الله عبداً ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة ألا يكون أشد منه.

وقال عبدالملك بن إسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

وقال سفيان الثورى: لقد أنعم الله على عبد فى حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها.

وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجداً شكراً له عز وجل ، ذكره أحمد (١).

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : خرج علينا النبى ﷺ، فتوجه نحو صدقته ، فدخل

---

(١) لم نعثر عليه عند أحمد ، وهو عند أبى داود (٢٧٧٤) فى الجهاد ، باب: فى سجود الشكر.

فاستقبل القبلة فخر ساجداً ،فأطال السجود ،فقلت: يا رسول الله، سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها، فقال: « إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكراً». ذكره أحمد (١).

وعن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال: خرجنا مع النبى ﷺ من مكة نريد المدينة ،فلما كنا قريباً من عزور ، نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ،ثم خر ساجداً فمكث طويلاً ،ثم قام فرفع يديه ساعة، ثم خر ساجداً ـ فعله ثلاثاً ـ وقال: « إنى سألت ربى وشفعت لأمتى ، فأعطانى ثلث أمتى ،فخررت ساجداً شكراً لربى ،ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى ثلث أمتى ،فخررت ساجداً لربى ،ثم رفعت رأسى فسألت ربى فأعطانى الثلث الآخر؛ فخررت ساجداً لربى ». رواه أبو داود (٢).

وذكر محمد بن إسحاق فى كتاب « الفتوح » قال: لما جاء المبشر يوم بدر بقتل أبى جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة أيمان بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً ،فحلف له؛ فخر رسول الله ﷺ ساجداً .

وذكر سعيد بن منصور: أن أبا بكر الصديق ﷺ سجد حين جاءه قتل مسيلمة.

وذكر أحمد: أن علياً ﷺ سجد حين وجد ذات الثدية فى الخوارج.

وسجد كعب بن مالك فى عهد النبى ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه ـ والقصة فى الصحيحين(٣).

فإن قيل: فنعم الله دائماً مستمرة على العبد، فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة ،وقد تكون المستدامة أعظم؟ .

قيل الجواب من وجوه:

أحدها: أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة، والإنسان موكل بالأدنى.

الثانى: أن هذه النعمة المتجددة تستدعى عبودية مجددة ،وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكراً له.

الثالث: أن المتجددة لها وقع فى النفوس، والقلوب بها أعلق؛ ولهذا يهنى بها ويعزى بفقدها.

---

(١) أحمد (١/ ١٩١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٩٠): « رجاله ثقات ».

(٢) أبو داود (٢٧٧٥) فى الجهاد ،باب: فى سجود الشكر ،وضعفه الألبانى.

(٣) البخارى (٤٤١٨) فى المغازى .باب: حديث كعب بن مالك ، وقول الله عز وجل ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] ،ومسلم (٢٧٦٩/ ٥٣) فى التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبه.

الرابع: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيراً ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر ، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع . فإذا تلقى به نعمه لسروره وفرح النفس وانبساطها ،فكان جديراً بدوام تلك النعمة. وإذا تلقاها بالفرح الذى لا يحبه الله والأشر والبطر ،كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم، كانت سريعة الزوال ،وشيكة الانتقال ،وانقلبت نقمة ،وعادت استدراجاً. وقد تقدم أمر النجاشى ،فإن الله إذا أحدث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعاً. وقال العلاء بن المغيرة: بشرت الحسن بموت الحجاج، وهو مختف ؛فخر لله ساجداً.

فصل

ومن دقيق نعم الله على العبد ،التى لا يكاد يفطن لها ،أنه يغلق عليه بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب ، يسأله شيئاً من القوت ؛ليعرفه نعمته عليه.

وقال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده ،فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم. قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكرى المطروحين فى الطريق، اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

وقال عبد الله بن أبى نوح: قال لى رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب ؟قلت: ما أحصى ذلك كثرة. قال: فهل قصدت إليه فى أمر كربك فخذلك؟قلت: لا والله ، ولكنه أحسن إلى وأعاننى قال : فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعنى شيئاً سألته؟ما سألته شيئاً قط إلا أعطانى ،ولا استعنت به إلا أعاننى. قال: أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال، ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء. قال: فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له فى أداء شكره ،وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك، والله لشكره أيسرمن مكافأة عباده ؛إنه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد شكراً.

وقال سفيان الثورى: ما كان الله لينعم على عبد فى الدنيا فيفضحه فى الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه.

وقال ابن أبى الحوارى: قلت لأبى معاوية: ما أعظم النعمة علينا فى التوحيد، نسأل الله ألا يسلبنا إياه ، قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله.

وقال ابن أبى الحوارى : قالت لى امرأة : أنا فى بيتى قد شغل قلبى ، قلت : وما هو ؟ قالت: أريد أن أعرف نعم الله على فى طرفة عين، أو أعرف تقصيرى عن شكر النعمة

على فى طرفة عين. قلت: تريدين ما لا تهتدى إليه عقولنا.

وقال ابن زيد: إنه ليكون فى المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل، فيقضى لذلك المجلس حوائجهم كلهم. قال: وفى بعض الكتب التى أنزلها الله تعالى أنه قال: سروا عبدى المؤمن؛ فكان لا يأتيه شىء إلا قال: الحمد لله ما شاء الله. قال: روعوا عبدى المؤمن ؛ فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال: الحمد لله ،الحمد لله. فقال الله تبارك وتعالى: إن عبدى يحمدنى حين روعته كما يحمدنى حين سررته ،أدخلوا عبدى دار عزى كما يحمدنى على كل حالاته.

وقال وهب: عبد الله عابد خمسين عاماً ،فأوحى الله إليه: إنى قد غفرت لك، قال: أى رب وما تغفر لى ولم أذنب؟ فأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه ،فلم ينم ولم يصل ،ثم سكن فنام ،ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق ! فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق.

وذكر ابن أبى الدنيا: أن داود قال: يا رب، أخبرنى ما أدنى نعمك على ،فأوحى الله إليه: يا داود ،تنفس فتنفس . قال: هذا أدنى نعمى عليك.

فصل

ويدل على فضل الشكر على الصبر، أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية ،وما يسأل شيئاً أحب إليه من العافية ،كما فى المسند عن أبى صالح ،عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ،ثم قال: سلوا الله العافية؛ فإنه لم يعط عبداً بعد اليقين خيراً من العافية.

وفى حديث آخر: « إن الناس لم يعطوا فى هذه الدنيا شيئاً أفضل من العفو والعافية؛ فسلوهما الله عز وجل » (١).

وقال لعمه العباس: « يا عم، أكثر من الدعاء بالعافية » (٢). وفى الترمذى ،قلت: يا رسول الله ،علمنى شيئاً أسأله الله؟ قال: « سل الله العافية »، فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: علمنى شيئاً أسأله الله ؟ فقال لى: « يا عباس، يا عم رسول الله ﷺ، سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » (٣).

وقال فى دعائه يوم الطائف: « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، غير أن عافيتك

(١) أحمد (١/٨) لفظ: « إن الناس لم يعطوا فى الدنيا خيرا من اليقين والمعافاة » وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده ضعيف ؛ لانقطاعه ».

(٢) الطبرانى فى الكبير (١١٩٨)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٧٨): « فيه هلال بن خباب وهو ثقة وقد ضعفه جماعة ،و بقية رجاله ثقات ».

(٣) الترمذى (٣٥١٤) فى الدعوات ،باب: (٨٥)، لفظ : « سلوا الله العافية » وقال: « صحيح ».

أوسع لى » (١)، فلاذ بعافيته ، كما استعاذ بها فى قوله: « أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » (٢).

وفى حديث آخر: « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة » (٣). وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى ، والعافية فى الحال ، والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها.

وكان عبد الأعلى التيمى يقول: أكثروا من سؤال الله العافية؛ فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء ، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس ، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء؛ إنه رب بلاء قد أجهد فى الدنيا وأخزى فى الآخرة ؛ فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له فى بقية عمره من البلاء ما يجهده فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة ، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذى إن نعد نعمه لا نحصيها، وإن نداب له عملاً لا نجزيها ، وإن نعمر فيها لا نبليها.

ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر ، فقال : « لقد سألت البلاء فاسأل العافية» (٤)، وفى صحيح مسلم: أنه ﷺ عاد رجلاً قد هفت - أى هزل - فصار مثل الفرخ؛ فقال ﷺ: « هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه ؟» قال: نعم ، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: « سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، فدعا الله له فشفاه (٥).

وفى الترمذى ، من حديث أبى هريرة ﷺ ، قال: دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه: « اللهم اجعلنى أعظم شكرك، وأكثر ذكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأحفظ وصيتك » (٦).

وقال شيبان: كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال؛ بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٨).

(٢) مسلم (٤٨٦/ ٢٢٢) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود ، وأبو داود (٨٧٩) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود، والترمذى (٣٤٩٣) فى الدعوات باب: (٨٦) ، وقال : « حديث حسن ».

(٣) الترمذى (٣٥٥٨) فى الدعوات ، باب: (١٠٦)، بلفظ : « اسألوا الله العفو والعافية فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية » ، وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه (٣٨٤٨) فى الدعاء ، باب: الدعاء بالعفو والعافية - بدون لفظ المعافاة ، وأحمد (١ / ٣) بلفظ : « سلوا الله العفو والعافية واليقين فى الآخرة والأولى» ، وقال الشيخ شاكر: « إسناده صحيح ».

(٤) الترمذى (٣٥٢٧) فى الدعوات ، باب: (٩٣)، وقال: « حسن ».

(٥) مسلم (٢٦٨٨/ ٢٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدنيا.

(٦) أحمد (٢/ ٣١١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٥): « رواه أحمد من طريق أبى يزيد المدنى . . . وبقية رجالهما ثقات ».

كل ما سألناك أعطيتنا ؛ فلك الحمد كثيراً كما تنعم كثيراً ؛ أعطيت خيراً كثيراً ، وصرفت شراً كثيراً ؛ فلوجهك الجليل الباقى الدايم الحمد.

وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعمة ، أو عافية ، أو كرامة فى دين ، أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جارية علينا فيما بقى ؛ فإنها منك وحدك لا شريك لك ؛ فلك الحمد بذلك علينا ، ولك المن ولك الفضل ، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت.

وقال مجاهد: إذا كان ابن عمر فى سفر ، فطلع الفجر رفع صوته ونادى: سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا ـ ثلاثاً ـ اللهم صاحبنا فأفضل علينا ، عائذ بالله من النار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ ثلاثاً ـ .

وذكر الإمام أحمد: أن الله ـ سبحانه ـ أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى ، كن يقظان مرتاداً لنفسك أخدانا ، وكل خدن لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه ؛ فإنه عدو لك ، وهو يقسى قلبك ، وأكثر من ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد.

وقال الحسن: خلق الله آدم حين خلقه ، فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم المبتلى ؛ فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدى؟ قال: يا آدم إنى أريد أن أشكر.

وفى السنن عنه ﷺ: « من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ، إلا أدى شكر ذلك اليوم. ومن قال ذلك حين يمسى ، فقد أدى شكر ليلته » (١).

ويذكر عن النبى ﷺ: « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ؛ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٢).

ويذكر عنه ﷺ: أنه أوصى رجلاً بثلاث ، فقال: « أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه ، وعليك بالدعاء فإنك لا تدرى متى يستجاب لك ، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة » (٣).

ويذكر عنه ﷺ: أنه كان إذا أكل قال: « الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى ، وكل بلاء حسن أبلانى ، الحمد لله الرازق ذى القوة المتين ؛ اللهم لا تنزع منا صالحاً أعطيتنا

---

(١) أبو داود (٥٠٧٣) فى الأدب ، باب: مايقول إذا أصبح ، وضعفه الألبانى ، وابن حبان (٢٣٦١/موارد) فى الأذكار ، باب: مايقول إذا أصبح .

(٢) البيهقى فى شعب الإيمان (٤٤٣١) ، والطبرانى فى الكبير (٦٦١٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٨٧): « فيه أبو داود الأعمى ، وهو متروك ».

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٣٠٥).

ولا صالحاً رزقتنا ، واجعلنا لك من الشاكرين » [١] . ويذكر عنه ﷺ : أنه إذا أكل قال : « الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا» [٢].

وكان عروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مخمراً حتى يقول هذه الكلمات :الحمد لله الذى هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا،الله أكبر. اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير،نسأل تمامها وشكرها ،لا خير إلا خيرك،ولا إله غيرك،إله الصالحين ورب العالمين . . . الحمد لله ،لا إله إلا الله ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . . اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار.

وقال وهب بن منبه : رؤوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الإسلام التى لا تتم نعمه إلا بها ، والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا به.

وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول:أنعم الله علينا فى سفرنا بكذا وكذا،ثم قال:تعداد النعم من الشكر.

ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم ، مقعد عريان ، به وضح،وهو يقول : الحمد لله على نعمه،فقال رجل كان مع وهب:أى شيء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها؟فقال له المبتلى:ارم ببصرك إلى أهل المدينة،فانظر إلى كثرة أهلها،أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى.

ويذكر عن النبىﷺ أنه قال:«إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها،فقد أدى شكرها» [٣].

وذكر على بن أبى طالب ﷺ:أن بختنصر أتى بدانيال،فأمر به فحبس فى جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه،ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائماً يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له؛فقال له:ما قلت حين دفع عنك؟قال: قلت:«الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ،والحمد لله الذى لا يخيب من رجاه ،والحمد لله الذى لا يكل من توكل عليه إلى غيره،والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل،والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا،والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا،والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً،والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ».

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر فى المرآة قال : «الحمد لله الذى أحسن خلقى

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤٦)،وقال:« صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه »ووافقه الذهبى ،وابن حبان (١٣٥٢/ موارد).

(٢) أبو داود (٣٨٥١) فى الأطعمة ،باب:مايقول الرجل إذا طعم،وابن حبان (١٣٥١/ موارد).

(٣) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (١٧٢).

وخلقى، وزان منى ما شان من غيرى» (١).

وقال ابن سيرين: كان ابن عمر يكثر النظر فى المرآة، وتكون معه فى الأسفار ، فقلت له: ولم ؟ قال: أنظر فما كان فى وجهى زين فهو فى وجه غيرى شين أحمد الله عليه.

وسئل أبو بكر بن أبى مريم: ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً فى الجنة.

وقال بكر بن عبد الله. يا ابن آدم، إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

وقال مقاتل فى قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قال: أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم المعاصى.

وقال ابن شوذب: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود رضي الله عنه: إن لله على أهل النار منة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم.

وقال أبو سليمان الدارانى: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالا ؛ الكرم ، والسخاء ، والحلم ، والرأفة ، والرحمة ، والشكر ، والبر ، والصبر.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : من رأى صاحب بلاء فقال: « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا » فقد أدى شكر تلك النعمة .

وقال عبد الله ابن وهب: سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذم الحمد وأصله وفرعه ، قال : ينظر فى نعم الله : فى بدنه ، وسمعه ، وبصره ، ويديه ، ورجليه ، وغير ذلك ، ليس من هذا شيء إلا فيه نعمة من الله ، حق على العبد أن يعمل فى النعمة التى هى فى بدنه لله فى طاعته ، ونعمة أخرى فى الرزق ، وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته ؛ فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه.

وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا ، فشكرها لله وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ، ورفع له بها درجة فى الأخرى. وما أنعم الله على عبد نعمة فى الدنيا ، فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها ، إلا منعه الله نفعها فى الدنيا ، وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا فى مطعم أو مشرب أو لباس ، فقد قصر عليه وحضر عذابه.

---

(١) انظر تخريجه مفصلاً فى الإرواء (١/ ١١٤) (٧٤).

وقال الحسن يوماً لبكر المزنى : هات يا أبا عبدالله دعوات لإخوانك ؛ فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، ثم قال : والله ما أدرى أى النعمتين أفضل على وعليكم : أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا ؟قال الحسن : إنها لمن نعمة الطعام.

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما من عبد يشرب الماء القراح ، فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى، إلا وجب عليه الشكر.

قال الحسن : يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرحاً ، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتى الحب فيكتال منه ثم يجرجر قائماً ، فيقول : يا ليتنى مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش ، فإذا شرب كان له فى تلك الشربة موتات يا لها من نعمة.

وكتب بعض العلماء إلى أخ له : أما بعد ، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا تحصيه مع كثرة ما تعصيه ، فما ندرى أيهما نشكر : أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر.

وقيل للحسن : ها هنا رجل لا يجالس الناس ، فجاء إليه فسأله عن ذلك ، فقال : إنى أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة ، فرأيت أن أشغل نفسى عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة ؛ فقال له الحسن :أنت عندى يا عبد الله أفقه من الحسن ، فالزم ما أنت عليه.

وقال ابن المبارك : سمعت علياً بن صالح يقول فى قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]،قال : أى من طاعتى ، والتحقيق أن الزيادة من النعم ، وطاعته من أجل نعمه.

وذكر ابن أبى الدنيا : أن محارب بن دثار ،كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحياناً : أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد ،وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد ، وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد ، وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ، وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد ، وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد ، وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد ، وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد ، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد. ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً.

وكان بعض الخطباء يقول فى خطبته : اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه ، ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة ،وبأشفار معلقة ، ونقلك من طبقة إلى طبقة ، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة ؛ فنعمه عليك مورقة ، وأياديه بك محدقة.

وكان بعض العلماء يقول فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾

[إبراهيم:٣٤]: سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها ،كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك ؛ فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً ، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً ،علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك.

وقال عبدالله بن المبارك : أخبرنا مثنى بن الصباح ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً ،ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابراً شاكراً : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه ؛ كتبه الله صابراً شاكراً. ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه ؛ لم يكتبه الله صابراً شاكراً » ،وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفاً عليه : أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتاً فى الجنة : من كان عصمة أمره لا إله إلا الله ، وإذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإذا أعطى شيئاً قال الحمد لله ،وإذا أذنب قال أستغفر الله.

وقال ابن المبارك : عن شبل ، عن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ③ ﴾ [الاسراء]،قال : لم يأكل شيئاً إلا حمد الله عليه ، ولم يشرب شراباً قط إلا حمد الله عليه ، ولم يبطش بشىء قط إلا حمد الله عليه ـ فأثنى الله عليه أنه كان عبداً شكوراً.

وقال محمد بن كعب : كان نوح إذا أكل قال الحمد لله ، وإذا شرب قال الحمد لله ، وإذا لبس قال الحمد لله ،وإذا ركب قال الحمد لله ـ فسماه الله عبداً شكوراً.

وقال ابن أبى الدنيا : بلغنى عن بعض الحكماء قال : لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى ألا يعصى لشكر نعمته.

ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما :

أحدهما : أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه.

والثانى : شكر نعمه التى أنعم بها عليه. فهو ـ سبحانه ـ يطالبه بشكر نعمه ،وبالقيام بأمره ؛ فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته ،فإن لم يداركه بذلك هلك. وكلما كان أفقه فى دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم. وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ،بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله. وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس. وأما الجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه ؛ فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم ، فضلاً عن أن

يريدوا فعلها ، وفضلاً عن أن يفعلوها ، وأقل الناس ديناً وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات ، وإن زهد فى الدنيا جميعها. وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ، ويغضب لحرماته ، ويبذل عرضه فى نصرة دينه. وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره : أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف بقرية ، فقال : يا رب إن فيهم فلاناً العابد الزاهد ، قال : به فابدأ ، وأسمعنى صوته ؛ إنه لم يتمعر وجهه فى يوما قط.

وأما شهود النعمة ، فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً ، ولو عمل أعمال الثقلين ، فإن نعم ـ سبحانه ـ أكثر من أعماله ، وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله ؛ فينبغى للعبد ألا يزال ينظر فى حق الله عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ، حدثنا جرير بن حازم ، عن وهب ، قال : بلغنى أن نبى الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع ، فقال: يارب ، ارحمه ، فإنى قد رحمته ، فأوحى الله إليه : لو دعانى حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر فى حقى عليه.

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها ؛ ولا يزال مزرياً على نفسه ذاماً لها ؛ وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما ، والله المستعان (١).

فصل
فى الفصل بين الفريقين فى أمر الصبر والشكر

كل من الصبر والشكر داخل فى حقيقة الآخر ، لا يمكن وجوده إلا به. وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه ، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل ؛ فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته ، والصبر أصل ذلك. فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر ، وإذا كان الصبر مأموراً به ، فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل : فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر ، وأنهما اسمان لمسمى واحد ، وهذا محال عقلاً ولغة وعرفاً ، وقد فرق الله سبحانه بينهما.

قيل : بل هما معنيان متغايران ، وإنما بينا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما فى وجود ماهيته إلى الآخر ، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكراً ، وإذا تجرد الصبر عن الشكر بطل كونه صبراً. أما الأول فظاهر ، وأما الثانى إذا تجرد عن الشكر كان كفوراً ، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

---

(١) عدة الصابرين (١٤٤ ـ ١٨٧).

فإن قيل : بل هاهنا قسم آخر ، وهو ألا يكون كفوراً ولا شكوراً ، بل صابراً على مضض وكراهة شديدة ، فلم يأت بحقيقة الشكر ، ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل : كلامنا فى الصبر المأمور به الذى هو طاعة ، لا فى الصبر الذى هو تجلد كصبر البهائم. وصبر الطاعة لا يأتى به إلا شاكر ، ولكن اندرج شكره فى صبره ، فكان الحكم للصبر. كما اندرج صبر الشكور فى شكره ، فكان الحكم للشكر. فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها ، بل تندرج وينطوى الأدنى فى الأعلى ، كما يندرج الإيمان فى الإحسان ، وكما يندرج الصبر فى مقامات الرضا لا أن الصبر يزول ، ويندرج الرضا فى التفويض ، ويندرج الخوف والرجاء فى الحب لا أنهما يزولان. فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر، سواء كان محبوباً أو مكروهاً ، فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر ، وهو أخص به لما فيه من الكراهة ، ويتعلق به الشكر لما فيه من نعمة. فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عده نعمة يشكر عليها. ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها ، وعكسه الغنى.

على أن الله ـ سبحانه ـ ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب ، وعد ذلك كله ابتلاء ، فقال : ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، وقال: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)** ﴾ [الفجر] وقال: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧)** ﴾ [الكهف] ، وقال: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك: ٢] ، وقال: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧)** ﴾ [هود] فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوى والسفلى ، وقدر أجل الخلق ، وخلق ما على الأرض ؛ للابتلاء والاختبار. وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء. فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة ، وتأتى الأسباب أعظم الابتلاءين. والصبر على طاعة الله أشق الصبرين ، كما قال الصحابة رضي الله عنهم : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق ، قد يكون أعظم النعمتين ، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها.

فالرب تعالى ، يبتلى بنعمه ، وينعم بابتلائه. غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد فى أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره ، لا يستغنى عنهما طرفة عين ، والسؤال عن أيهما أفضل ، كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل ، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل ، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل ، فالمأمور لا يؤدى إلا بصبر وشكر ، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر. وأما المقدور الذى يقدر على العبد من المصائب ، فمتى صبر عليه

اندرج شكره فى صبره كما يندرج صبر الشاكر فى شكره.

ومما يوضح هذا أن الله ـ سبحانه ـ امتحن العبد بنفسه وهواه ، أوجب عليه جهادهما فى الله ، فهو فى كل وقت فى مجاهدة نفسه حتى تأتى بالشكر المأمور به ، ويصبر عن الهوى المنهى عن طاعته ؛ فلا ينفك العبد عنهما أغنياً كان أو فقيراً ، معافى أو مبتلى.

وهذه هى مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر ـ أيهما أفضل ؟وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهى التى حكاها أبو الفرج بن الجوزى وغيره فى عموم الصبر والشكر ، أيهما أفضل. وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها.

والتحقيق أن يقال أفضلهما أتقاهما لله تعالى ، فإن فرض استوائهما فى التقوى استويا فى الفضل ، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى ، كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقد قال ﷺ: « لا فضل لعربى على عجمى ،ولا فضل لعجمى على عربى ، إلا بالتقوى. الناس من آدم ، وآدم من تراب » (١).

والتقوى مبنية على أصلين : الصبر والشكر. وكل من الغنى والفقير لا بد له منهما ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

فإن قيل : فإذا كان صبر الفقير أتم ، وشكر الغنى أتم ، فأيهما أفضل ؟

قيل : أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله. ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة ؛ فإن الغنى قد يكون أتقى لله فى شكره من الفقير فى صبره ، وقد يكون الفقير أتقى لله فى صبره من الغنى فى شكره ؛ فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ،ولا هذا بفقره أفضل. ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ،ولا بالعكس ؛ لأنهما مطيتان للإيمان لابد منهما. بل الواجب أن يقال: أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل ؛ فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين ، كما قال تعالى فى الأثر الإلهى:«ما تقرب إلى عبدى بمثل مدوامة ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » (٢). فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل.

فإن قيل: فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال:« يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام » (٣).

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٤٧٤٩) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٧٨):« رواه البزار بنحوه ، ورجال البزار رجال الصحيح ».

(٢) الترمذى (٢٩١١) فى فضائل القرآن،باب:(١٧) ،وقال:« غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ،وأحمد (٦/٢٥٦).

(٣) أبو داود (٣٦٦٦) فى العلم،باب:فى القصص ،وضعفه الألبانى ،والترمذى (٢٣٥٤) فى الزهد،باب:ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ،وقال « حسن صحيح»،وابن ماجه (٤١٢٢) فى الزهد ،باب:منزلة الفقراء ، وأحمد (٣/٦٣).

قيل : هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء فى الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول ؛ فقد يتأخر الغنى والسلطان العادل فى الدخول لحسابه ، فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع ، كسبق الفقير القفل فى المضائق وغيرها ، ويتأخر صاحب الأحمال بعده.

فإن قيل : فقد قال النبى ﷺ للفقراء لما شكوا إليه زيادة عمل الأغنياء عليهم بالعتق والصدقة : « ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم »، فدلهم على التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة فلما سمع الأغنياء ذلك عملوا به ، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال :« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (١). وهذا يدل على ترجيح حال الغنى الشاكر. قيل: هذا حجة للقول الذى نصرناه ،وهو أن أفضلهما أكثرهما نوافل ، فإن استويا استويا ،وها هنا قد ساوى الأغنياء الفقراء فى أعمالهم المفروضة والنافلة ، وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك ؛ فساووهم فى صبرهم على الجهاد والأذى فى الله والصبر على المقدور ،وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال. فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الأغنياء لفضلوهم بها.

فإن قيل :إن النبى ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردها ، وقال :« بل أشبع يوماً وأجوع يوماً » (٢). وقال هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ، ولم يشبع من خبز البر ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله.

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن عبادة بن القعقاع ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد ، حدثنا عباد بن عباد ،حدثنا مجالد بن سعيد ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنها ،قالت: دخلت علىّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش النبى ﷺ عباءة مثنية ، فرجعت إلى منزلها ، فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف ، فدخل على رسول الله فقال:« ما هذا؟»، فقلت: فلانة الأنصارية ، دخلت على ،فرأت فراشك ، فبعثت إلى بهذا ،فقال:« رديه »،فلم أرده ، وأعجبنى أن يكون فى بيتى ،حتى قال لى ذلك ثلاث مرات .فقال:« يا عائشة ، رديه ، فوالله لو شئت

---

(١) البخارى (٨٤٣) فى الأذان ، باب: الذكر بعد الصلاة ،ومسلم (٥٩٥/ ١٤٢) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٢) سبق تخريجه ص (٣٨٩).

(٣) البخارى (٦٤٦٠) فى الرقاق ، باب: كيف كان عيش النبى (ص)،ومسلم (١٠٥٥/ ١٩) فى أول الزهد والرقائق.

لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة »[١]، فرددته. ولم يكن الله ـ سبحانه ـ ليختار لرسوله إلا الأفضل ،هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها فى مرضاة الله ،ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

قيل :احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين. والحق أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جمع له بين كليهما على أتم الوجوه ،وكان سيد الأغنياء الشاكرين ،وسيد الفقراء الصابرين ؛ فحصل له الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه ،ومن الشكر على الغنى مالم يحصل لغنى سواه. فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك ؛ فكان ﷺ أصبر الخلق فى مواطن الصبر ، وأشكر الخلق فى مواطن الشكر ،وربه تعالى كمل له مراتب الكمال ، فجعله فى أعلى رتب الأغنياء الشاكرين ،وفى أعلى مراتب الفقراء الصابرين. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى] ، وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر ،وأعال يعيل إذا صار ذا عيال، مثل : لبن وأثمر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة، وعال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء]. وقيل: المعنى ألا تكثر عيالكم. والقول هو الأول لوجوه :

أحدها :أنه لا يعرف فى اللغة عال يعول إذا كثر عياله ،وإنما المعروف فى ذلك عال يعيل ، وأما عال يعول فهو بمعنى الجور ليس إلا. هذا الذى ذكره أهل اللغة قاطبة.

الثانى : أنه ـ سبحانه ـ قابل ذلك بالعدل ، الذى نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الواحدة والتسرى بما شاؤوا من ملك أيمانهم ،ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال.

يوضحه الوجه الثالث: أنه ـ سبحانه ـ نقلهم عند الخوف من عدم القسط فى نكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء ؛ لئلا يقعوا فى ظلم أزواجهم اليتامى ،وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع ، ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل فى القسمة إلى الواحدة ، أو النوع الذى لا قسمة عليهم فى الاستمتاع بهن ـ وهن الإماء ـ فانتظمت الآية ببيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف العدل ؛ فما لكثرة العيال مدخل هاهنا البتة.

يوضحه الوجه الرابع : أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاؤوا من كثرة الإماء بلا عدد ، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ،ولا فرق فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش.

يوضحه الوجه الخامس : أن كثرة العيال ليس أمراً محذوراً مكروهاً للرب تعالى كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساء ،وقد قال النبى ﷺ:« تزوجوا الودود الولود ؛ فإنى مكاثر

---

(١) أحمد فى الزهد رقم (١٤).

بكم الأمم » (١) ، فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنياً شاكراً بعد أن كان فقيراً صابراً ، فلا تحتج به طائفة حالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضاً لحالها.

فإن قيل : فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الشاكرين ، وقد قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا عمارة ، عن ثابت ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : بينما عائشة فى بيتها سمعت صوتاً فى المدينة ، فقالت : ما هذا ؟ فقالوا: عير لعبد الرحمن قدمت من الشام تحمل من كل شىء ، قال: وقد كانت سبعمائة بعير ، فارتجت المدينة من الصوت ، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً » ، فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: إن استطعت لأدخلها قائما، فجعلها بأحمالها وأقتابها كلها فى سبيل الله.

قيل : قد قال الإمام أحمد : هذا الحديث كذب منكر. قالوا: وعمارة يروى أحاديث مناكير ، وقال أبو حاتم الرازى: عمارة بن زاذان لا يحتج به.

قال أبو الفرج : وقد روى الجراح بن منهال بإسناده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبى ﷺ قال له: « يا ابن عوف ، إنك من الأغنياء ، وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفاً ، فأقرض ربك يطلق قدميك » ، قال أبو عبدالرحمن النسائى ، هذا حديث موضوع ، والجراح متروك الحديث. وقال يحيى : ليس حديث الجراح بشىء ، وقال ابن المدينى: لا يكتب حديثه ، وقال ابن حبان : كان يكذب ، وقال الدارقطنى : متروك.

فإن قيل : فما تصنعون بالحديث الذى رواه البيهقى من حديث أحمد بن على بن إسماعيل بن محمد : حدثنا سليمان بن عبدالرحمن : أخبرنى خالد بن يزيد بن أبى مالك، عن أبيه ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يا ابن عوف ، إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً؛ فأقرض الله يطلق قدميك » ، قال: وما الذى أقرض يا رسول الله ؟ قال: « تتبرأ مما أمسيت فيه». قال : أمن كله أجمع يا رسول الله؟ قال: « نعم ». فخرج وهو يهتم بذلك ، فأتاه جبريل فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المساكين ، وليبدأ بمن يعول ، وليعط السائل ، فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه.

قيل : هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ، فإن أحد رواته خالد بن يزيد بن أبى مالك. قال الإمام أحمد: ليس بشىء، وقال ابن معين: واه. وقال النسائى: غير ثقة ، وقال الدارقطنى: ضعيف ، وقال يحيى بن معين: لم يرض أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة.

---

(١) أبو داود (٢٠٥٠) فى النكاح ، باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء ، والنسائى (٣٢٢٧) فى النكاح ، باب: كراهية تزويج العقيم ، وأحمد (٣/ ١٥٨ ، ٢٤٥).

فإن قيل : فما تصنعون بالحديث الذى قاله الإمام أحمد : حدثنا الهذيل بن ميمون ، عن مطرح بن يزيد ، عن عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، قال: قال رسول الله ﷺ: « دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدى ، قلت: ما هذا ؟ قال: بلال. فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المسلمين . ولم أر فيها أحداً أقل من الأغنياء والنساء. قيل لى: أما الأغنياء فهم فى الباب يحاسبون ويمحصون ، وأما النساء فألهاهن الأحمران: الذهب والحرير. ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية ، فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بها ، ثم أتى بأبى بكر فوضع فى كفة وجىء بجميع أمتى فوضعوا فى كفة فرجح أبو بكر ، ثم أتى بعمر فوضع فى كفة ووضع أمتى فى كفة فرجح عمر ، وعرضت على أمتى رجلا رجلاً ؛ فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن بن عوف ، ثم جاء بعد الإياس فقلت: عبد الرحمن ، فقال: بأبى وأمى يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت إنى لا أصل إليك إلا بعد المشيبات ، قلت: وما ذاك ؟ قال من كثرة مالى أحاسب فأمحص ».

قيل : هذا حديث لا يحتج باسناده ، وقد أدخله أبو الفرج هو الذى قبله فى كتاب «الموضوعات». وقال: أما عبيد الله بن زحر ، فقال يحيى: ليس بشىء، وعلى بن يزيد متروك، وقال ابن حبان: عبيد الله يروى الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات ، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم بن عبدالرحمن لم يكن متن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم.

قال أبو الفرج: وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين ، ويرون أن المال مانع من السبق إلى الخير ، ويقولون: إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفاً لأجل ماله، كفى ذلك فى ذم المال ، والحديث لا يصح ، وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق ؛ لأن جمع المال مباح، وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع الحق الواجب فيه ، وعبدالرحمن منزه عن الحالين؛ وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب ؛ وخلف الزبير وغيره ؛ ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل. وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث يحث على الفقر ويذم الغنى ، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون الأصول . انتهى.

قلت : وقد بالغ فى رد هذا الحديث ، وتجاوز الحد فى إدخاله فى الأحاديث الموضوعة المختلفة على رسول الله ﷺ. وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف ـ وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم ـ عن السبق إليها ، ودخول الجنة حبواً ، ورأى ذلك مناقضاً لسبقه ومنزلته التى أعدها الله له فى الجنة. وهذا وهم منه رحمه الله.

وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن فى هذين الخبرين ، أفيجد سبيلاً إلى القدح فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم

بنصف يوم وهو خمسمائة عام ». قال الترمذى: حديث حسن صحيح [(١)].

وفى حديث ابن عمر الذى رواه مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ: « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً » [(٢)].

وفى مسند الإمام أحمد، عنه، عن النبى ﷺ: « هل تدرون أول من يدخل الجنة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: « فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء » [(٣)].

وفى جامع الترمذى، من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً » [(٤)].

فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح فى سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم، وهم فى السبق متفاوتون، فمنهم من يسبق خمسمائة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عاماً، ولا يقدح ذلك فى منزلة المتأخرين فى الدخول؛ فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم إلى الدخول وإن تأخروا بعدهم للحساب؛ فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئاً من أمور المسلمين إلى الجنة. فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير، بل يكون أقرب الناس من الله منزلة، كما فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: « المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » [(٥)]. وفى الترمذى، من حديث أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ: « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلساً، إمام عادل. وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً، إمام جائر» [(٦)].

فالإمام العادل والغنى، قد يتأخر دخول كل منهما للحساب، ويكون بعد الدخول أرفع منزل من الفقير السابق. ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه، ثم يلحق برسول الله ﷺ وأصحابه ـ غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهوداً له بالجنة.

وأما حديث دخوله الجنة زحفاً، فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد ـ رحمه الله: إنه كذب منكر. وكما قال النسائى: إنه موضوع. ومقامات عبد الرحمن، وجهاده، ونفقاته

---

(١) سبق تخريجه ص ٤١٩.

(٢) مسلم (٢٩٧٩/٣٧) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

(٣) أحمد (١٦٨/٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٦٢/١٠): « رجاله ثقات ».

(٤) الترمذى (٢٣٥٥) فى الزهد، باب: ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، وقال: « حسن ».

(٥) مسلم (١٨٢٧/١٨) فى الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل.

(٦) الترمذى (١٣٢٩) فى الأحكام، باب: ماجاء فى الإمام العادل، وقال: « حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

العظيمة، وصدقاته، تقتضى دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفاً. والله ـ سبحانه ـ كما هو خالق الخلق، فهو خالق ما به غناهم وفقرهم؛ فخلق الغنى والفقر ليبتلى بهما عباده أيهم أحسن عملاً، وجعلهما سبباً للطاعة والمعصية والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾ [الأنبياء]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون؛ لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون.

وقال الكلبى: بالشر: بالفقر والبلاء، والخير: بالمال والولد.

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه يبتلى عبده بإكرامه له، وبتنعيمه له، وبسط الرزق عليه؛ كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وإن كليهما إبتلاء منه وامتحان. ثم أنكر ـ سبحانه ـ على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وإن تضييقه عليه إهانة منه له؛ فقال: « كلا »، أى ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد ابتلى بنعمتى وأنعم ببلائى. وإذا تأملت ألفاظ الآية، وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهراً للمتأمل. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً.

فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن، يخبر فيها ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما، وأجل العالم، وأجل أهله، وأسباب معائشهم، التى جعلها زينة للأرض من: الذهب، والفضة، والمساكن، والملابس، والمراكب، والزروع، والثمار، والحيوان، والنساء، والبنين، وغير ذلك. كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان؛ ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى فهو الأحسن عملاً.

وهذا هو الحق، الذى خلق به وله السموات والأرض وما بينهما، وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذى نزه الله نفسه عنه، وأخبر أنه يتعالى عنه، وأن

ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ،ينفى هذا الظن الباطل والحساب الكاذب ،كما قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(١٦)** ﴾ [المؤمنون]؛فنزه ـ سبحانه ـ نفسه عن ذلك ، كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة ،وسائر العيون والنقائص من: السنة،والنوم ، واللغوب،والحاجة، واكترائه بحفظ السموات والأرض ،وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه،كما يظنه أعداؤه المشركون الذين يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها. فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه،فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه،فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته ،ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين ، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم. فمن أنكر ذلك ،فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق ،وذلك عين الجحود والكفر به ـ سبحانه ـ كما قال المؤمن لصاحبه الذى حاوره فى المعاد وأنكره: ﴿ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً(٣٧)** ﴾ [الكهف]:فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه. وقال تعالى: ﴿ **وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ** ﴾ [الرعد:٥]. وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلهيته ،كما أن تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك أيضاً ؛فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ،ونفى أن يكون رب العالمين.

والمقصود: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به ،كما فى المسند عنه ﷺ قال: « يقول الله تعالى: إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ،ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى له ثانياً ،ولو كان له ثان لابتغى له ثالثاً،ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » (١). فأخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة ،وإقامة حق عباده بالزكاة ،لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام. فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين،فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى به،فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه والإيمان به ومحبته وذكره ،وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك. فعطل الجاهل بالله،وبأمر الله ، وبتوحيد الله ، وبأسمائه وصفاته،جوفه عما خلق له،وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس ،وجمعه والاستكثار منه. ومع ذلك فلم يمتلئ ،بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه،فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو

---

(١) أحمد (٥/ ٢١٩).

وماله. ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده.

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولابد، وكذلك العلم والملك والقدرة ،كل ذلك إن لم ينفعه ضره. فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها فى الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها. فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة ،وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده. وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة، فخسر الدنيا والآخرة. فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد، ولو جعلها كذلك لكان خاسراً ،لكنه جعلها وسائل إلى ضد ماجعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها.

فالأقسام أربعة لا خامس لها:

أحدها : معطل الأسباب معرض عنها.

الثانى : مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها.

الثالث : متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده .

فهؤلاء الثلاثة فى الخسران.

الرابع :متوصل بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح.

قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦)** ﴾ [هود].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كان له إرادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد. ثم اختلفوا فى معناها، فقالت طائفة ـ منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا، فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب. قالوا: والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونبته وطلبه ،جازاه الله فى الدنيا بحسناته، ثم يفضى إلى الآخرة وليس حسنة يجازى بها. وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته، ويثاب عليها فى الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية فى الكفار بدليل قوله: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦)** ﴾ [هود]. قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه : نزلت في أهل القبلة.

وقال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا.

واختار الفراء هذا القول وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس.

وهذا القول أرجح ، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً ؛ فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملها على أن يعملا أعمال البر لله ، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته . فأما من لم يرد بعمله وجه الله ، وإنما أراد به الدنيا وزينتها ، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان.

وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال : فلان جواد ، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال: هو جريء.

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم. فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إدريس ، قال : أخبرني عبدالحميد بن صالح، حدثنا قطن بن الحباب، عن عبدالوارث ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا، وفرقة يعبدون رياء وسمعة ، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره . فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي ؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً ، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة ، بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك رياء وسمعة، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار . ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ، ما أردتم بعبادتي ؟ فيقولون : بعزتك وجلالك ـ وجهك ودارك . فيقول : صدقتم ، اذهبوا بهم إلى الجنة » (١).

---

(١) انظر :الدر المنثور (٣/ ٣٢٣) ، وعزاه للبيهقي في الشعب.

هذا حديث غنى عن الإسناد، والقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على صحة هذا القول فى الآية قوله تعالى: ﴿ **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا** ﴾ [هود: ١٥]، وذلك على أنها فى قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله ، وإنما أرادوا بها الدنيا ، ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس ، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب. وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنبارى: فعلى هذا القول المعنى فى قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين فى الآخرة ، كان جزاؤهم عليها النار، إذا لم يريدوا بها وجه الله ، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً، قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا فى النار.

وأجابوا عنه : بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ، ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا، فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة ، فلا يوافى ربه بالإيمان. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿ **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٦) ﴾ [هود]. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى: بأن الأية لا تقتضى الخلود الأبدى فى النار، وإنما تقتضى أن الذى يستحقونه فى الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة. فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد ، فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين: وهذا هو جواب ابن الأنبارى وغيره.

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله ـ سبحانه ـ ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه ، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل ، لم يبق معه ما ينجيه. فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها ، بل أراد الله به والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان فى العمل الذى حبط وبطل ، وأنجاه إيمانه من الخلود فى النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة.

والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه. وإيمان يمنع الخلود فى النار ، ، وإن كان مع المرائى شىء منه وإلا كان من أهل الخلود.

فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد ، والله الموفق . وذلك قوله : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** (٢٠) ﴾ [الشورى]، ومنه قوله: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ**

جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾ [الإسراء].

فهذه ثلاث مواضع من القرآن ،يشبه بعضها بعضاً ،ويصدق بعضها بعضاً ،وتجتمع على معنى واحد:وهو أن من كانت الدنيا مراده ،ولها يعمل فى غاية سعيه ،لم يكن له فى الآخرة نصيب.ومن كانت الآخرة مراده ،ولها عمل،وهى غاية سعيه ،فهى له.

بقى أن يقال:فما حكم من يريد الدنيا والآخرة ؛ فإنه داخل تحت حكم الإرادتين ، فبأيهما يلحق؟

قيل :من هاهنا نشأ الإشكال،وظن من ظن من المفسرين أن الآية فى حق الكافر؛فإنه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة ،وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً؛فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة ،وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا،والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة ،والشقاوة بإرادة الدنيا ، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما ، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور ، والطاعة والمعصية،والإيمان والشرك فى العبد ،وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾ [آل عمران:١٥٢]. وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة،ولم يكن فيهم منافق. ولهذا قال عبدالله مسعود ﷺ :ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا،حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية.والذين أريدوا فى هذه الآية ،هم الذين أخلوا مركزهم،الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ،وهم من خيار المسلمين ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز،والإقبال على كسب الغنائم،بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها ، فهذه الإرادة لون ، وإرادة هؤلاء لون.

وها هنا أمر يجب التنبيه له ، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً ؛فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله؛فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً ،وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك ،والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم من أكفر الخلق.فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال،قد تجامع هذه المعرفة والعلم،ولكن الإيمان الذى وراء ذلك لابد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة. والله المستعان.

فصل

والمقصود :أنه ـ سبحانه ـ جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحاناً للشكر والصبر، والصدق والكذب،والإخلاص والشرك،قال تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم**﴾ [المائدة:٤٨]،وقال تعالى:

﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ⑮﴾ [التغابن].

فجعل الدنيا عرضاً عاجلاً ومتاع غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها، كما قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ⑭﴾ [آل عمران].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن هذا الذى زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثريها على الآخرة، وهو سبعة أشياء: النساء اللاتى هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التى هى عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم فى طلبهم وهربهم، والأنعام التى منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، والحرث الذى هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى، فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ⑮﴾ [آل عمران].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ⑯ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ⑰﴾ [آل عمران].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه وهو رضوانه عليهم، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠]، فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولى البصائر، وإنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان، واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر

فيذهب ضائعاً فى غير شىء. ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس ، فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها، لأبغضتها، ولآثرت عليها الآخرة ، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذى هو خير وأبقى.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبدالله رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ، قال: « ما لى وللدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال فى ظل شجرة ، فى يوم صائف ثم راح وتركها » (١).

وفى جامع الترمذى ، من حديث سهل بن سعد ، قال: قال رسول الله ﷺ: « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء ». قال الترمذى: حديث صحيح (٢).

وفى صحيح مسلم ، من حديث المستورد بن شداد ، قال رسول الله ﷺ: « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم، فلينظر بم يرجع ـ وأشار بالسبابة» (٣).

وفى الترمذى من حديثه، قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: « أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها؟» قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: « فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها» (٤).

وفى الترمذى، أيضاً ، من حديث أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، عالماً أو متعلماً » (٥). والحديثان حسنان.

قال الإمام أحمد: حدثنا هيثم بن خارجة ، أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبدالله بن دينار النهرانى ، قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: بحق أقول لكم: إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، بحق أقول لكم: إن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة ، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم فى عمله مثله.

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، قال: أخبرنى سعيد بن عبدالعزيز ، عن مكحول، قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام : يا معشر الحواريين ، أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر

---

(١) أحمد (١/ ٤٤١) ، وصححه أحمد شاكر.

(٢) الترمذى (٢٣٢٠) فى الزهد ، باب: ماجاء فى هوان الدنيا على أهلها ، وقال: « صحيح غريب من هذا الوجه».

(٣) مسلم (٢٨٠٨/ ٥٥) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: فناء الدنيا.

(٤) الترمذى (٢٣٢١) فى الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على أهلها ، وقال : « حسن ».

(٥) الترمذى (٢٣٢٢) فى الزهد ، باب: (١٤)، وقال : « حسن غريب ».

داراً؟ قالوا: يا روح الله، ومن يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا، فلا تتخذوها قراراً.

وفى كتاب «الزهد» لأحمد بن حنبل أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: بحق أقول لكم: إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونوماً على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس.

وفى المسند عنه ﷺ: «إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وإن قزحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير» (١).

ثم أخبر - سبحانه وتعالى - عنها أنها يفاخر بعضنا بعضاً بها، فيطلبها ليفخر بها على صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئاً للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد.

والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة فى الآخرة. فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهى أن الرجل ينفس على غيره بالشىء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمى أنفه له، يقال نفست عليه لشىء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك، والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشىء النفيس.

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر فى الأموال والأولاد، فيحب كل واحد أن يكاثر بنى جنسه فى ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالاً وولداً، وأن يقال فيه ذلك. وهذا من أعظم ما يلهى النفوس عن الله والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④**﴾ [التكاثر]. والتكاثر فى كل شىء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة، فهو داخل فى حكم هذه الآية. فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثراً وتفاخراً. وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه؛ فإنه جعل أسباب الآخرة الدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

ثم أخبر - سبحانه - عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح - إن شاء الله - أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت فى كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذى يعرفون به، كما ذكرهم به فى قوله: ﴿**يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ**﴾ [الفتح:٢٩]، وإنما خص الكفار به؛ لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا؛ فإنها دارهم التى لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجاباً بزينتها وما فيها - من المؤمنين.

ثم ذكر - سبحانه - عاقبة هذا النبات، وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها

---

(١) أحمد (٣/٤٥٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٩١): «رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح».

ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك. فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه ،كما قال على بن أبى طالب: الدنيا دار صدق لمن صدقها ،ودار عافية لمن فهم عنها ،ومطلب نجح لمن سالم. فيها مساجد أنبياء الله ،ومهبط وحيه ،ومصلى ملائكته ،ومتجر أوليائه. فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية ،فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيها ، ونعت نفسها وأهلها ،فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفاً وتحذيراً وترغيباً ،فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا ووعظتهم فاتعظوا ؛ فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك ؟ بل متى غرتك ؟ .أبمنازل آبائك فى الثرى؟أم بمضاجع أمهاتك فى البلا؟كم رأيت موروثاً ؟ كم عللت بكفيك عليلاً ؟ كم مرضت مريضاً بيديك تبتغى له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك ؟ مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر ،فقال: يا أهل الغربة ،ويا أهل التربة، أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت ،وأما الأزواج فنكحت، فهذا خبر ما عندنا، فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى.

فالدنيا فى الحقيقة لا تذم ،وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهى قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها ،وهو الغالب على اسمها ،صار لها اسم الذم عند الإطلاق ،وإلا فهى مبنى الآخرة ومزرعتها ،ومنها زاد الجنة ،وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة إنما كان بما زرعوه فيها. وكفى بها مدحاً وفضلاً لأولياء الله فيها من قرة العيون ،وسرور القلوب، وبهجة النفوس ،ولذة الأرواح ،والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ،بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته ،والتوكل عليه ،والإنابة إليه، والأنس به ،والفرح بقربه ،والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه ،والاشتغال به عمن سواه وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره ،فأخبر به من شاء من عباده.

ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة ، وقالوا: هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم ،وحقه أفضل من حقهم ،قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه.

والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين فى دارين مختلفين. ولو أمكن اجتماعهما فى دار واحدة لأمكن طلب التفضيل. والإيمان والطاعة فى هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما فى الآخرة. فهذا أفضل ما فى هذه الدار ،وهذا أفضل ما فى الدار الأخرى. ولا يصح أن يقال: فأى الأمرين أفضل؟ فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

ولما وصف ـ سبحانه ـ حقيقة الدنيا ،وبين غايتها ونهايتها وانقلابها فى الآخرة إلى

عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب ـ أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفانى المنقطع المشوب بالإنكاد والتنغيص.

ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وقال تعالى: **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾** [الكهف].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات، وهى الأعمال والأقوال الصالحة التى يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه، وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾**

[يونس]

ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التى سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعم عباده بالدعوة إليها عدلاً، وخص من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

وأخبر ـ سبحانه ـ أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم، وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره. وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة، لا من قل ماله وولده فى الدنيا.

ونهى نبيه ﷺ أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختباراً. وأخبر أن رزقه الذى أعده له فى الآخرة خير وأبقى من هذا الذى متعوا به. وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا فى دنياهم، وجعل ما آتاه مانعاً له من مد عينيه إلى ذلك. فهذا العطاء فى الدنيا، وما ادخر له من رزق الآخرة، خير مما متع به أهل الدنيا؛ فلا تمدن عينيك.

فصل

وإذا عرف أن الغنى والفقر، والبلاء والعافية، فتنة وابتلاء من الله لعبده، يمتحن بها صبره وشكره ـ علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما، ولا بد لكل مؤمن منهما، وكل منهما فى موضعه أفضل، فالصبر فى مواطن الصبر أفضل، والشكر فى مواضع الشكر أفضل. هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر، وأما إذا كان الصبر جزء مسمى الشكر، والشكر جزء مسمى الصبر، وكل منها حقيقة مركبة من الأمرين معاً كما تقدم

بيانه ، فالتفضيل بينهما لا يصح إلا إذا جرد أحدهما عن الآخر. وذلك فرض ذهنى يقدره الذهن، ولا يوجد فى الخارج.

ولكن يصح على وجه ، وهو أن العبد قد يغلب صبره على شكره الذى هو قدر زائد على مجرد الصبر من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ،فلا يبقى فيه اتساع لغير صبر النفس على ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل ، فتنصرف قواه كلها إلى كف النفس وحبسها لله. وقد يغلب شكره بالأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه لنفسه وحبسها لله ، فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحبس نفسه.

واعتبر هذا بشخصين :أحدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن الشهوات ، قليل التشكى للمصيبات،وذلك جل عمله. وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير القاصر والمتعدى، سمح النفس ببذل المعروف. وآخر ضعيف النفس ، عن قوة الصبر.

فللنفس قوتان: قوة الصبر والكف وإمساك النفس ، وقوة البذل وفعل الخير والإقدام على فعل ما تكمل به. وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها.

والناس فى ذلك أربع طبقات: فأعلاهم من اجتمعت له القوتان ، وسفلتهم من عدم القوتين ، ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله ، ومنهم من هو بالعكس فى ذلك.

فإذا فضل الشكر على الصبر ،فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام ، وإما أن يكون باعتبار تجريد كل من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره. وتمام إيضاح هذا بمسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر،فلنذكر لها باباً يخصها ، ويكشف عن الصواب فيها [(١)].

فصل
فى الغنى الشاكر والفقير الصابر
أيهما أفضل؟ وما هو الصواب فى ذلك؟

هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الأغنياء والفقراء ، واحتجت كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار ، ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين؛ فإن كلا منهما أدلت بحجج لا تدفع ،والحق لا يعارض بعضه بعضاً ، بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان ، وقد أكثر الناس فى المسألة من الجانبين ،وصنفوا فيها من الطرفين ، وتكلم الفقهاء والفقراء والأغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير لشمول معناها

---

(١) عدة الصابرين (١٩١ ـ ٢١٦).

وحقيقتها للناس كلهم ، وحكوا عن الإمام أحمد فيها روايتان ،ذكرهما أبو الحسين فى كتاب « التمام » فقال : مسألة الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر فى أصح الروايتين ، وفيه رواية ثانية الغنى الشاكر أفضل . وبها جماعة منهم ابن قتيبة ، ووجه الأولى واختارها أبو إسحاق بن شاقلا والوالد السعيد.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

قال محمد بن على بن الحسين: الغرفة : الجنة بما صبروا ،قال:على الفقر فى الدنيا.

وعن أنس عن النبى ﷺ قال: « اللهم أحينى مسكيناً ،وأمتنى مسكيناً ،واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة ». قالت عائشة: ولم يا رسول الله ؟ قال : « إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً . يا عائشة ، لا تردى المسكين ولو بشق تمرة.يا عائشة ، أحبى المساكين وقربيهم؛ فإن الله يقربك يوم القيامة » [1].

قلت : لا حجة له فى واحدة من الحجتين ، أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته ، وصبره عن معصيته ، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه.ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر ؛ فإن القرآن كما دل على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ، ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. بل قد أخبر أن رضاه فى الشكر ، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها ، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزى الشاكرين الغرفة بما شكروا.

وأما الحديث فلا حجة لوجهين:

أحدهما :أنه لا يحتج بإسناده ؛ فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفى عن الحارث بن النعمان ، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح ، بل قال فيه البخارى : منكر الحديث. ولذلك لم يصحح الترمذى حديثه هذا ،ولا حسنه ،ولا سكت عنه ،بل حكم بغرابته.

الجواب الثانى :إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم ؛فإن المسكنة التى يحبها الله من عبده ليست مسكنة فقر المال ، بل مسكنة القلب ، وهى انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله ،وهذة المسكنة لا تنافى الغنى ،ولا يشترط لها الفقر؛فإن انكسار القلب لله،ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته ، أفضل وأعلى من مسكة عدم المال،كما أن صبر الواحد عن معاصى الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز. وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك،ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله.

---

(١) الترمذى (٢٣٥٢) فى الزهد ، باب:ما جاء فى فضل الفقر ،وقال: « حسن غريب ».

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا الجريرى ، عن أبى السليل ، قال: كان داود النبى ﷺ يدخل ، فينظر أغمص حلقة من بنى إسرائيل ، فيجلس إليهم ، ثم يقول: مسكين بين ظهرانى مساكين. هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة.

قال أبو الحسن : وروى أبو برزة الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فقراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفاً حتى يتمنى أغنياء المسلمين يوم القيامة أنهم كانوا فقراء فى الدنيا ».

قلت: هذا الحديث ثابت عن النبى ﷺ من رواية جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله ، وروى عن أبى سعيد وأنس بن مالك ، ولا يدل ذلك على علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء ، بل إنما يدل على السبق لعدم ما يحاسبون عليه . ولا ريب أن ولى الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب ، وكذلك الغنى الشاكر، ولا يلزم من تأخر دخولهما نزول درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم. وإنما تمنى الأغنياء أنهم كانوا فى الدنيا فقراء ، فإن صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم، كما يتمنى القاضى العادل فى بعض المواطن يوم القيامة أن لم يقض بين اثنين فى تمرة لما يرى من شدة الأمر ، فمنزلة الفقر والخمول ، ومنزلة السلامة ، ومنزلة الغنى والولاية، ومنزلة الغنيمة أو العطب .

قال أبو الحسن: وروى ابن عمر أن النبى ﷺ قام فى أصحابه فقال: « أى الناس خير؟» فقال بعضهم: غنى يعطى حق نفسه وماله ، فقال ﷺ: « نعم الرجل هذا وليس به ، ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطى على جهد »(١).

قلت : لم يذكر لهذا الحديث إسناد فينظر فيه ، وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به ، ولو صح لم يكن فيه دليل؛ لأنه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهد ، فمعه فقر الصابرين وغنى الشاكرين ؛ فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه. ولا ريب أن هذا أفضل الأقسام الثلاثة ، ودرهمه الواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره ، كما قال النبى ﷺ: « سبق درهم مائة ألف درهم »، قالوا: يا رسول الله ، كيف سبق درهم مائة ألف درهم؟ قال: « رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به ، وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها». رواه النسائى، من حديث صفوان بن عيسى ، حدثنا بن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضي الله عنه (٢).

وذكر البيهقى، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن الحارث، عن على رضي الله عنه ،

---

(١) تاريخ أصفهان (١/ ٢١٧).

(٢) النسائى (٢٥٢٧) فى الزكاة ، باب: جهد المقل.

قال : جاء ثلاثة نفر إلى النبى ﷺ ، فقال أحدهم :كانت لى مائة أوقية فتصدقت منها بعشر أواق، وقال الآخر:كانت لى مائة دينار فتصدقت منها بعشر دنانير ، وقال الآخر:كان لى عشرة دنانير فتصدقت منها بدينار ، فقال : « كلكم فى الأجر سواء؛ كلكم قد تصدق بعشر ماله » (١).

وقال أبو سعيد بن الأعرابى :حدثنا ابن أبى العوام ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو الأشهب ، عن الحسن ،قال:قال رجل لعثمان بن عفان رضي الله عنه :ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير ؛ تتصدقون ، وتعتقون ،وتحجون ، وتنفقون. فقال عثمان:وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم ،قال:فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم ؛ غيض من فيض.

وفى سنن أبى داود من حديث الليث ، عن أبى الزبير ، عن يحيى بن جعدة ، عن أبى هريرة ، أنه قال: يا رسول الله ، أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد المقل ،وابدأ بمن تعول » (٢).

وفى المسند وصحيح ابن حبان، من حديث أبى ذر رضي الله عنه ،قال:قلت: يا رسول الله، أى الصدقة أفضل ؟ قال:« جهد من مقل » (٣).

وفى سنن النسائى ، من حديث الأوزاعى ، عن عبيد بن عمير ، عن عبد الله بن حبشى:أن النبى ﷺ سئل:أى الأعمال أفضل ؟ قال:« إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة » ، قيل : فأى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القيام » ، قيل : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد من مقل » ، قيل : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « من هجر ما حرم الله عليه » ، قيل:فأى الجهاد أفضل ؟ قال: « من أهريق دمه وعقر جواده » (٤).

وهده الأحاديث كلها،تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذى لا يتبين أثر نقصانه عليه وإن كان كثيراً ؛ لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما فى القلوب لا بكثرتها وصورها ، بل بقوة الداعى وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره الله على نفسه؛فأين صدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضاً من فيض؟ فرغيف هذا درهمه فى الميزان أثقل من مائة ألف هذا . والله المستعان.

واحتجوا بما رواه ابن عدى ، من حديث سليمان بن عبدالرحمن ، حدثنا خالد بن

---

(١) البيهقى فى الكبرى (٤/ ١٨٢).

(٢) أبو داود (١٦٧٦) فى الزكاة ، باب:الرجل يخرج من ماله .

(٣) أحمد (٥/ ١٧٨) ،وابن حبان (٣٣٣٥) عن أبى هريرة.

(٤) النسائى (١٢٦٥) فى الزكاة ، باب :جهد المقل.

يزيد،عن أبيه ،عن عطاء ، سمع أبا سعيد الخدرى، يقول :سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اللهم توفنى فقيراً ،ولا توفنى غنياً ».

وهذا الحديث لا يصح ؛ فإن خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك الدمشقى أجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه ،قال أحمد : ليس بشىء وقال ابن معين: واه.ونسبه يحيى إلى الكذب ،وقد تقدم فيه.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن هذه المسألة ،فقال :قد تنازع كثير من المتأخرين فى الغنى الشاكر والفقير الصابر ، أيهما أفضل ؛فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ،ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد ،وحكى فى ذلك عن الإمام أحمد روايتان.وأما الصحابة والتابعون ﷺ ،فلم ينقل عن أحد منهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر.وقد قالت طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الأخرى فضيلة إلا بالتقوى ، فأيهما أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، فإن استويا فى ذلك استويا فى الفضيلة.قال:وهذا أصح الأقوال؛ لأن نصوص الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى ،وقد قال تعالى:﴿ **إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا**﴾ [النساء:١٣٥] . وقد كان فى الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء ، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء ، والكاملون يقومون بالمقامين فيقومون بالشكر والصبر على التمام ، كحال نبينا ﷺ وحال أبى بكر وعمر ﭫ.

ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع ،والغنى لآخرين أنفع ،كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض لبعضهم أنفع ،كما فى الحديث الذى رواه البغوى وغيره عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى :« إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ،وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك،وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ،وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ؛إنى أدبر عبادى ،إنى بهم خبير بصير» [١].

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال:« إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء» [٢]، وفى الحديث الآخر:لما علم للفقراء الذكر عقب الصلاة سمع بذلك الأغنياء ،فقالوا مثل ما قالوا؛فذكر ذلك الفقراء للنبىﷺ ،فقال:« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » [٣].فالفقراء يتقدمون فى دخول الجنة لخفة الحساب عليهم ،والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم.ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير (٢٤٨/٢).

(٢) الدارمى (٢٨٤٤) فى الرقائق ، باب فى دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء.

(٣) البخارى (٨٤٤) فى الأذان ، باب:الذكر بعد الصلاة ، ومسلم (١٤٢/٥٩٥) فى المساجد ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة . . . إلخ.

فوقه،وإن تأخر فى الدخول كما أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشة بن محصن ،قد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم فى الدرجات.لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب.فهذا فى الفقر المذكور فى الكتاب والسنة،وهو ضد الغنى الذى يبيح أخذ الزكاة أو الذى لا يوجب الزكاة.

ثم قد صار فى اصطلاح كثير من الناس الفقر عبارة عن الزهد والعبادة والأخلاق ، ويسمون من اتصف بذلك فقيراً وإن كان ذا مال ، ومن لم يتصف بذلك قالوا:ليس بفقير،وإن لم يكن له مال.وقد يسمى هذا المعنى تصوفاً ،ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير والصوفى ،ثم من هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل ،ومنهم من يجعل مسمى الصوفى أفضل.والتحقيق فى هذا الباب ،أنه لا ينظر إلى الألفاظ المحدثة ، بل ينظر إلى ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والمعانى ،والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوى ، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل ،والأغنياء بما سوى ذلك ، والله أعلم.

فصل
فى ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الفقراء :لم يذكر الله ـ سبحانه ـ الغنى والمال فى القرآن إلا على أحد وجوه:

الأول: على وجه الذم، كقوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)** ﴾ [العلق]

وقوله: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ**﴾ [الشورى:٢٧].

وقوله: ﴿**وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)**﴾ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)**﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الكهف:٤٦].

وقال: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**﴾ [آل عمران:١٤]. الآية ،ونظائر ذلك كثيرة.

الوجه الثانى: أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان ،كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ**

وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وقال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى مخبراً عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر].

وقال تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء].

الوجه الثالث :إخباره ـ سبحانه وتعالى ـ أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه شيئاً، وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح ،كما قال: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ]

الوجه الرابع :إخباره أن الدنيا والغنى والمال ،وإنما جعلها متعة لمن لا نصيب له فى الآخرة ،أن الآخرة جعلها للمتقين ،فقال تعالى :﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه] وقال تعالى :﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. وإلى هذا المعنى أشار النبى ﷺ بقوله لعمر: « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » ،وسيأتى الحديث.

الوجه الخامس:أنه ـ سبحانه ـ لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الواقعة] ،قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء : ١٦] ،وقوله تعالى : ﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء] .

الوجه السادس: أنه ـ سبحانه ـ ذم محب المال، فقال: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر] ،فذمهم بحب المال وعيرهم به.

الوجه السابع :أنه ـ سبحانه ـ ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها ،ومدح من أنكر عليهم وخالفهم ، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه :﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص] . فأخبروا

أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحاً ،ولا يلقى هذه الوصية ،وهى الكلمة التى تكلم بها الذين أوتوا العلم ،أو المثوبة والجنة التى دل عليها قوله: ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص : ٨٠] ، والسيرة والطريقة التى دل عليها قوله: ﴿ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص : ٨٠]، وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء، وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامن:أنه ـ سبحانه ـ أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذى يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة ؟ فقال: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧]. فرد الله ـ سبحانه ـ قولهم،وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه ،وأن الفضل بالعلم لا بالمال ،وقال سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]، ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن ، والذى يجمعونه هو المال وأسبابه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف].

الوجه التاسع : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أن التكاثر فى جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها ، وتوعدهم على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [التكاثر]. فأخبر ـ سبحانه ـ أن التكاثر شغل أهل الدنيا ،وألهاهم عن الله والدار الآخرة ،حتى حضرهم الموت ، فزاروا المقابر ،ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر. وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين فى القبور ،وأنهم فيها بمنزلة الزائرين ، يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها ،كما كانوا فى الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها ،ودار القرار هى الجنة أو النار ،ولم يعين سبحانه المتكاثر به ،بل ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشىء لا المتكاثر به ،كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به. وأما إرادة الإطلاق ،وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله ، فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة.

وفى صحيح مسلم، من حديث عبدالله بن الشخير ، أنه قال: انتهيت إلى النبى ﷺ ، وهو يقرأ: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) ﴾ [التكاثر]، وقال: « يقول ابن آدم: مالى مالى ، وهل لك

من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت ،أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت »[(١)].

ثم أوعد ـ سبحانه ـ من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً ،إذا عاين تكاثره هباء منثوراً ،وعلم دنياه التى كاثر بها إنما كانت خداعاً وغروراً ،فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له ، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله ،وبدا له من الله ما لم يكن فى حسابه ،وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه ،فعذب بتكاثره فى دنياه ، ثم عذب به فى البرزخ ، ثم يعذب به يوم القيامة. فكان أشقى بتكاثره ،إذا أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة ، فلم يفر من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ، ولم يحفظ به من علوه به فى الدنيا بأن حصل مع الأسفلين ؛ فيا له تكاثراً ما أقله؟! ورزءاً ما أجله؟! ومن غنى جالباً لكل فقر؟! وخيراً توصل به إلى كل شر؟! يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: يا ليتنى قدمت لحياتى ، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى: **﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾** [المؤمنون]،تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها،ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: **﴿رَبِّ﴾** استغاث بربه ،ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدى ربه تبارك وتعالى ، فقال: **﴿ ارْجِعُونِ﴾** ، ثم ذكر سبب سؤال الرجعة ،وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه ،فيقال له: **﴿كَلاَّ﴾** ،لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم ، أن يجيب من استغاث ،وأن يفسح له فى المهلة ؛ ليتذكر ما فاته ، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها ، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب ، وإنما ذلك شىء يقوله لسانه ، وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه ، وأنه من الكاذبين ؛ فحكمه أحكم الحاكمين ، وعزته وعمله وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل ؛ فإنه لا فائدة فى ذلك ، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى، كما قال تعالى : **﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾** [الأنعام].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية ،وما أوردوا ،فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عليلاً ،ولا تروى غليلاً. ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به ،ولم يتفطنوا لوجه الإضراب بـ **﴿ بَلْ ﴾** ،ولا للأمر الذى بدا لهم وكانوا يخفونه ،وظنوا أن الذى بدا لهم العذاب،فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله **﴿ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾**،فقدروا مضافاً محذوفاً

---

(١) مسلم (٢٩٥٨/٣) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

وهو خير ما كانوا يخفون من قبل ،فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه ،وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم ،بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه. ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم فى بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه ،وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين ،فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى أخفوه. قال الواحدى: وعلى هذا أهل التفسير. ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً فإن السياق والإضراب بـ ﴿ بَلْ ﴾، والإخبار عنهم بأنهم ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقولهم: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ ،لا يلتئم بهذا الذى ذكروه ،فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث.

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير ، وفيه من التكلف ما ليس بخاف ، وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال : كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم إذ خفيت عليهم مضرته . ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره. قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته فى أمر قبل: وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك ،وقد كان ظاهراً له قبل هذا. ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذى كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ، ويدعون إليه كل حاضر وباد ،بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم. ولا يقال لمن أظهروا الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى فى الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية ،والله أعلم بما أراد من كلامه ،أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها ،تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله ،فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك ،وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الإيمان ،بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب ،وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله، وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها ،تبين معنى الإضراب بـ ﴿ بَلْ ﴾، وتبين معنى الذى بدا لهم والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٢٧] .فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل ،وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ،ولكنهم أخفوه، ولم يظهروه بينهم ، بل تواصوا بكتمانه ،فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والإيمان ، معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل ؛فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه ،وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل ،وأن الرسل على الحق ،فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه ، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ،ولعادوا إلى الكفر والتكذيب ، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل ،وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله ،وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته

وهو يعلم أن حبه باطل ،وأن الرشد فى عدوله عنه ،فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هى الصواب ،فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك ، وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة ، بل بعد أن مسته وأنهكته ، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو ردَّ لعاد لما نهى عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفى قولهم لو رددنا لآمنا وصدقنا ؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق ،أى ليس كذلك ،بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه ،فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا ،بل ظهر لكم ما كان معلوماً وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه. . والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض فى أثناء هذه المسألة ،فلعله أهم منها وأنفع ،وبالله التوفيق. فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

وقوله: ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) ﴾ [التكاثر] ،جوابه محذوف دل عليه ما تقدم ، أى لما ألهاكم التكاثر. وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذى يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته ، لما ألهاه عن موجبه، ويرتب أثره عليه؛ فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه. فإذا صار له علم اليقين، كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات، كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء. وفى هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه فى أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [التكاثر]، قيل : تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) ﴾ [النبأ] ، وقيل :ليس تأكيداً ، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت ، والعلم الثانى فى القبر ـ هذا قول الحسن ومقاتل ، ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها :أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل،وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثانى :توسط (ثم) بين العلمين ،وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

الثالث : أن هذا القول مطابق للواقع ؛ فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه،ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول .

الرابع : أن علياً بن أبى طالب ﷺ وغيره من السلف ، فهموا من الآية عذاب القبر. قال الترمذى: حدثنا أبو كريب ،حدثنا حكام بن سليم الرازى ،عن عمرو بن قيس،عن الحجاج بن المنهال عمر عن زر عن على ﷺ ،قال: ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت : ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾. قال الواحدى : يعنى أن معنى قوله : ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ فى القبر.

الخامس : أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها. ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم. فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا: هل ناله من حلاله ووجهه أم لا ؟

فإذا تخلص هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا ؟ فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثانى عن محل صرفه، كما فى جامع الترمذى، من حديث عطاء بن أبى رباح، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه ،وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ،وعن ماذا عمل فيما علم » (١).

وفيه أيضاً عن أبى برزة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيما أفناه ،وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » . قال : هذا حديث صحيح (٢) .

وفيه أيضاً ،من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة - يعنى من النعيم - أن يقال له: ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد؟» (٣).

وفيه أيضاً، من حديث الزبير بن العوام ﷺ لما نزلت: ﴿**لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⁽⁸⁾**﴾، قال الزبير: يا رسول الله، فأى النعيم نسأل عنه ؟ وإنما هو الأسودان التمر والماء. قال: « أما إنه سيكون ». قال: هذا حديث حسن (٤).

وعن أبى هريرة نحوه، وقال: إنما هو الأسودان العدو حاضر، سيوفنا على عواتقنا. قال: « إن ذلك سيكون». وقوله: « إن ذلك سيكون »، إما أن يكون المراد به أن النعيم

---

(١) الترمذى (٢٤١٦) فى صفة القيامة ... إلخ ، باب : فى القيامة ،وقال: « غريب ».

(٢) الترمذى (٢٤١٧) فى صفة القيامة ... إلخ ، باب : فى القيامة.

(٣) الترمذى (٣٣٥٨) فى تفسير القرآن ، باب: ومن سورة التكاثر وقال : « غريب ».

(٤) الترمذى (٣٣٥٦) فى تفسير القرآن ، باب ومن سورة التكاثر.

سيكون ويحدث لكم ، وإما أن يرجع إلى السؤال، أى أن السؤال يقع عن ذلك. وإن كان تمراً وماء فإنه من النعيم. ويدل عليه قوله ﷺ فى الحديث الصحيح ـ وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد: « هذا من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة » (١)، فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفى الترمذى ،من حديث أنس ﷺ، عن النبى ﷺ قال: « يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج (٢)، فيوقف بين يدى الله تعالى ،فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعنى آتيك به، فإذا عبيد لم يقدم خيراً فيمضى به إلى النار » (٣).

وفيه من حديث أبى سعيد وأبى هريرة ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالعبد يوم القيامة ،فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ،وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتنى ». قال: هذا حديث صحيح (٤).

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار ،وهم المسؤولون عن النعيم. وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار الواحدى ذلك ،واحتج بحديث أبى بكر لما نزلت هذه الآية: قال لرسول الله: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب ،أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: « إنما ذلك الكفار » ثم قرأ: ﴿ **وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** ﴾ [سبأ: ١٧]. قال الواحدى: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب المشركين وتهديد لهم. والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول ،وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره ،فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم ، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم . قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت :ليس فى للفظ ،ولا فى السنة الصحيحة ،ولا فى أدلة العقل، ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار ،بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له ،فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك. ويدل

---

(١) الترمذى (٢٣٦٩) فى الزهد، باب : ماجاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وأحمد (٣/ ٣٣٨).

(٢) البذج: ولد الضأن.

(٣) الترمذى (٢٤٢٧) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب: رقم (٦)، وقال: « إسماعيل بن مسلم يضعف فى الحديث من قبل حفظه ».

(٤) الترمذى (٢٤٢٨) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب: رقم (٦).

على ذلك قول النبى ﷺ عند قراءة هذه السورة: « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ؟» الحديث،وهو فى صحيح مسلم (١).
وقائل ذلك قد يكون مسلماً، وقد يكون كافراً،ويدل عليه أيضاً الأحاديث التى تقدمت ، وسؤال الصحابة النبى ﷺ وفهمهم العموم،حتى قالوا له:وأى نعيم نسأل عنه؟وإنما هو الأسودان ، فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك ، وقال : ما لكم ولها ، إنما هى للكفار . فالصحابة فهموا النعيم ، والأحاديث صريحة فى النعيم ، والذى أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم .

وأما حديث أبى بكر الذى احتج به أرباب هذا القول ،فحديث لا يصح. والحديث الصحيح فى تلك القصة يشهد ببطلانه،ونحن نسوقه بلفظه؛ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة،قال:خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة ،فإذا هو بأبى بكر وعمر،فقال:« ما أخرجكما من بيوتكما فى هذه الساعة ؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال:« وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما .قوما»،فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته امرأته قالت:مرحباً وأهلاً ،فقال لها رسول الله ﷺ:« وأين فلان؟» قالت :ذهب يستعذب لنا من الماء ،إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ،فقال :الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى،قال:فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب ،فقال:كلوا من هذا،فأخذ المدية. فقال له رسول الله ﷺ:« إياك والحلوبة»،فذبح لهم،فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا ،فلما أن شبعوا ورووا،قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر:« والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة؛أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » (٢). فهذا الحديث الصحيح صريح فى تعميم الخطاب ،وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضاً ، فالواقع يشهد بعدم اختصاصه ، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه ،وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ ،فهو متناول لمن بعدهم. وهذا معلوم بضرورة الدين،وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين،فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ [البقرة:١٨٣]،ونظائره ،كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين ،فقوله: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ①﴾ [التكاثر] خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف ،وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لايحصيها إلا الله.

فإن قيل :فالمؤمنون لم يلههم التكاثر،ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور لمن ألهاه؟

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٤ .

(٢) مسلم (٢٠٣٨ / ١٤٠) فى الأشربة .

قيل : هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار ؛لأنه لم يمكنهم حمله على العموم،ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به.وجواب هذا:أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان،على طريقة القرآن فى تناول الذم له من حيث هو إنسان ، كقوله: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء] ، ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ﴿٦﴾ ﴾ [العاديات]، ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُور ﴿١٥﴾ ﴾ [الزخرف] ونظائره كثيرة. فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير العلم النافع والعمل الصالح،وإنما الله ـ سبحانه ـ هو الذى يكمله بذلك ويعطيه إياه،وليس له ذلك من نفسه ، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم،والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه ، فمن ربه لا من نفسه . فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التى هى له من نفسه ، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا ، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولا بد .

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار،فيقال:الوعيد المذكور مشترك ، وهو العلم عند معاينة الآخرة. فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له فى الدنيا، وليس فى قوله: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُون ﴿٢﴾ ﴾ [التكاثر]. ما يقتضى دخول النار،فضلاً عن التخليد فيها. وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها؛فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً. وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لابد أن يراها الخلق كلهم: مؤمنهم وكافرهم ،وبرهم وفاجرهم. فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابهم. وأما ما ذكره عن الحسن،أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. فباطل قطعاً إما عليه وإما منه،والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده ، وبالله التوفيق .

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها ،وما تضمنته من تحذير الملهى،وانطباق معناها على أكثر الخلق ، يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها . ويكفى فى ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها ، والله أعلم .

وتأمل ما فى هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ،ولم يستيقظ من نوم الإلهاء ،بل أرقد التكاثر قلبه،فلم يستفق منه إلا وهو فى عسكر الأموات،وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه ـ سبحانه ـ الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها. وأيضاً فإن التكاثر تفاعل،وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه،فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر،كما قيل :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحاب ، ولم تضرهم ؛ إذ لم يتكاثروا بها. وكل من كاثر إنساناً فى دنياه أو جاهه أو غير ذلك، شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

فالنفوس الشريفة العلوية ، ذات الهمم العالية ، إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه ، وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة ، فلا تحب أن يكثرها غيرها فى ذلك وينافسها فى هذه المكاثرة ويسابقها إليها. فهذا هو التكاثر الذى هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم.

فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة ، وهو صائر إلى غاية القلة ، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان. والكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه ، وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تفنى وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علماً. وإذا رأى غيره أكثر منه فى خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها. وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً فى إخلاص العبد ، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضي الله عنهم فى تصاولهم بين يدى رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض فى أسباب مرضاته ونصره . وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر رضي الله عنهما . فلما تبين له مدى سبقه له قال : والله لا أسابقك إلى شىء أبداً .

ومن تأمل حسن موقع « كلا » فى هذا الموضع ؛ فإنها تضمنت ردعاً لهم، وزجراً عن التكاثر ، ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به؛ فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً . وأخبرهم ـ سبحانه ـ أنهم لابد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم ، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التى ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية ، وأنه ـ سبحانه ـ لابد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها ؟! وفيما صرفوها ؟

فلله ما أعظمها من سورة ! وأجلها وأعظمها فائدة ! وأبلغها موعظة وتحذيراً! وأشدها ترغيباً فى الآخرة وتزهيداً فى الدنيا على غاية اختصارها ، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها! فتبارك من تكلم بها حقاً ، وبلغها رسوله عنه وحياً.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حى، زائرين غير مستوطنين ، بل هم مستودعون فى المقابر مدة ، وبين أيديهم دار القرار. فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار؟! فهم فيها عابروا سبيل إلى محل الزيارة ، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر . فهاهنا ثلاثة أمور : عبور السبيل فى هذه الدنيا ، وغايته زيارة القبور ، وبعدها النقلة إلى دار القرار .

فصل

فلنرجع إلى تمام المناظرة. قالوا: فالله تعالى حمى أولياءه، عن الدنيا وصانهم عنها، ورغب بهم عنها؛ تكريماً لهم، وتطهيراً عن أدناسها، ورفعة عن دناءتها، وذماً لهم. وأخبرهم بهوانها عليه، وسقوط قدرها عنده. وأعلمهم أن بسطها فتنة، وأنه سبب الطغيان والفساد فى الأرض، وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة، وأنها متاع الغرور. وذم محبيها ومؤثريها. وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له فى الآخرة من نصيب. وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة، وأن إمداد أهلها به ليس مسارعة لهم فى الخيرات، وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه. وأنه لولا تتابع الناس فى الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم، ووسعها عليهم أعظم التوسعة، بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة. وأخبر أنه زينها لأعدائه، ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم فى الآخرة، ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما منع به أهلها. وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها. وقال لنبيه: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (٣) ﴾ [الحجر]. وفى هذا تنزيه لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها، وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها، ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها. وذم ـ سبحانه ـ محبيها، المفتخرين بها، والمكاثرين بها، الظانين أن الفضل والكرامة فى سعتها وبسطها، فأكذبهم الله ـ سبحانه ـ وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه. ومثلهم لعباده بالأمثلة التى تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون إليها. فأحضر صورتها وحقيقتها فى قلوبهم بما ضربه لها مثلاً: كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض، فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات، أتاها أمره؛ فجعل تلك الزينة يبساً هشيماً تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شىء. وأخبر ـ سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها، وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوماً أو بعض يوم. ونهى ـ سبحانه ـ عباده أن يغتروا بها، وأخبرهم أنها لهو ولعب، وزينة وتفاخر، وتكاثر ومتاع غرور، وطريق ومعبر إلى الآخرة، وأنها عرض عاجل لا بقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط، بل حيث ذكره ذمه، وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى فى إرادته؛ فالله يريد شيئاً، ومريد الدنيا يريد خلافه؛ فهو مخالف لربه بنفس إرادته. وكفى بهذا بعداً عنه سبحانه. وأخبر ـ سبحانه ـ عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم.

قالوا: وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها، وترغيب فى التقلل منها ما أمكن.

قالوا: وقد عرضها ـ سبحانه ـ وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ، فلم يردها ولم يخترها. ولو آثرها وأرادها، لكان أشكر الخلق

بما أخذه منها ،وأنفقه كله فى مرضاة الله وسبيله قطعاً .بل اختار التقلل منها،وصبر على شدة العيش فيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد ،حدثنا عباد ـ يعنى ابن عباد ـ حدثنا مجالد بن سعيد ،عن الشعبى ،عن مسروق ،عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار ،فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية ،فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف. فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: « ما هذا؟» ،فقلت: فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك، فبعثت إليَّ بهذا ،فقال : « رديه »، فلم أرده ،وأعجبنى أن يكون فى بيتى ،حتى قال ذلك ثلاث مرات ؛فقال: « يا عائشة ،رديه والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » (١).

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا ،فلم يأخذها ،وقال :« بل أجوع يوماً وأشبع يوماً؛ فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ،وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » (٢) .

وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتاً ،كما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (٣). وفيهما عنه قال : « والذى نفس أبى هريرة بيده ما شبع نبى الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا » (٤).

وفى صحيح البخارى ،عن أنس رضي الله عنه: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً ولا شاة سميطاً قط حتى لحق بربه (٥).

وفى صحيحه أيضاً عنه ،قال: خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير (٦).

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها :ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض (٧).

---

(١) أحمد فى الزهد (١٤).

(٢) الترمذى (٢٣٤٧) فى الزهد ، باب :ما جاء فى الكفاف والصبر عليه ،وقال: « حديث حسن » ،وأحمد (٥/٢٥٤).

(٣) البخارى (٦٤٦٠) فى الرقاق ،باب :كيف كان عيش النبى ﷺ. . .إلخ ،ومسلم (١٠٥٥/١٢٦) فى الزكاة ، باب: فى الكفاف والقناعة.

(٤) البخارى (٥٣٧٤) فى الأطعمة ، باب :قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ومسلم (٢٩٧٦/ ٣٣) فى أول كتاب الزهد.

(٥) البخارى (٥٤٢١) فى الأطعمة ، باب :شاة مسموطة والكتف والجنب .

(٦) البخارى (٥٤١٤) فى الأطعمة ،باب :النفخ فى الشعير عن أبى هريرة.

(٧) البخارى (٥٤١٦) فى الأطعمة ،باب النفخ فى الشعير ،ومسلم (٢٩٧٠/ ٢٠) فى أول كتاب الزهد.

وفي صحيح مسلم عن عمر ﵁ : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه (١).

وفي المسند والترمذي،عن ابن عباس ﵄:كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ،وكان أكثر خبزهم خبز الشعير.قال الترمذي:هذا حديث حسن صحيح (٢).

وفي الترمذي،من حديث أبي أمامة : ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير (٣).

وفي المسند ، عن عائشة ﵂ : والذي بعث محمداً بالحق ما رأى منخلاً ،ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض.قال عروة:فقلت:فكيف كنتم تأكلون الشعير؟قالت:كنا نقول أف ـ أي تنفخه ـ فيطير ما طار ونعجن الباقي (٤).

وفي صحيح البخاري ،عن أنس،قال:لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير.ولقد سمعته يقول:« ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى،وإنهم لتسعة أبيات» (٥).

وفي مسند الحارث،عن أبي أسامة ،عن أنس:أن فاطمة ﵂جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ،فقال:« ما هذه الكسرة يا فاطمة؟» قالت:قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ،فقال:« أما أنه أول طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاثة أيام » (٦).

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبد الواحد بن أيمن ، عن أبيه ، عن جابر ﵁ ، قال : لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع.

وقد أسرف أبوحاتم بن حبان في تقاسيمه في رد هذا الحديث ، وبالغ في إنكاره ، وقال:المصطفى أكرم على ربه من ذلك .وهذا من وهمه،وليس في هذا ما ينقص مرتبته عند ربه ، بل ذلك رفعة له،وزيادة في كرامته ، وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم. وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث في معيشة النبي ﷺ،وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب ملك ودنيا

---

(١) مسلم (٢٩٧٨/ ٣٦) في أول كتاب الزهد.

(٢) الترمذي (٢٣٦٠) في الزهد ، باب: ماجاء في معيشة النبي ﷺ وأهله ،وأحمد (١/ ٢٥٥).

(٣) الترمذي (٢٣٥٩) في الزهد ، باب : ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله ، وقال : « حسن صحيح غريب . . .إلخ » .

(٤) أحمد (٦/ ٧١).

(٥) البخاري (٢٥٠٨) في الرهن ، باب:الرهن في الحضر. . . إلخ.

(٦) انظر:أحمد (٣/ ٢١٣).

لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم. ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله. وقد فتح الله عليه بلاد العرب، وجبيت إليه الأموال، ومات ولم يترك درهماً واحداً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد بن مطرف، عن أبى حازم، عن عروة: أنه سمع عائشة تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد فى بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة؛ فعلى أى شىء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمر والماء [١].

وقد تقدم حديث أبى هريرة فى قصة أبى الهيثم بن التيهان، وأنه خرج رسول الله ﷺ من بيته، فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: « ما أخرجكما؟» قالا: الجوع، قال: « وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما » [٢].

وذكر أحمد من حديث مسروق، قال: دخلت على عائشة، فدعت لى بطعام، وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت؟ قال: قلت: لم؟. قالت: أذكر الحال التى فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما أشبع فى يوم مرتين من خبز البر حتى قبض.

وفيه عنها: ما أشبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض [٣]. والحديثان صحيحان.

وفيه أيضاً، عنها: ما شبع آل محمد من خبز ما دون ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل [٤].

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثاً تباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا [٥].

وفى الترمذى، عن ابن عباس، قال: كان النبى ﷺ يبيت الليالى طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير [٦].

وفيه أيضاً، عن أنس، عنه ﷺ: « لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علىّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله

---

(١) أحمد (٦/ ٨٦).
(٢) سبق تخريجه ص ٤٤٩.
(٣) أحمد (٦/ ٤٢).
(٤) أحمد (٦/ ١٥٦).
(٥) سبق تخريجه ص ٤٥٣.
(٦) سبق تخريجه ص ٤٥٤.

إلا شيء يواريه إبط بلال [١]. والحديثان صحيحان.

وفيه أيضاً، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن أبي طلحة رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا حجراً حجراً، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين [٢].

وفيه أيضاً، عن علقمة، عن عبدالله رضي الله عنه، قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء. فقال: « ما لي وللدنيا، وما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » [٣]. حديث صحيح.

وفيه عن علي رضي الله عنه، قال: خرجت في يوم شات من بيت رسول الله ﷺ، وقد أخذت إهاباً معطوناً، فجوبت وسطه، وأدخلته في عنقي، فشددت به وسطي، فحزمته بخوص من النخل، وإني لشديد الجوع، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئاً، فمررت بيهودي في مال له، وهو يسقي ببكرة له، فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط، فقال: ما لك يا أعرابي وهل لك في كل دلو بثمرة؟ قلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل، ففتح فدخلت، فأعطاني دلوه، فكلما نزعت دلواً أعطاني تمرة، حتى امتلأت كفي، أرسلت دلوه، وقلت: حسبي، فأكلها، ثم جرعت من الماء فشربت، ثم جئت الماء فوجدت رسول الله ﷺ فيه.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الحبلة وهذا التمر [٤]. والحبلة: ثمر العضاة ذات الشوك. وهو حديث صحيح.

وكان ﷺ يصلي من الليل أحياناً، وعليه كساء صوف، بعضه عليه وبعضه على عائشة [٥]. قال الحسن: أثمان ستة دراهم أو سبعة.

وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا أبو زائدة، حدثنا عطاء، عن أبيه عن علي، قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف [٦]. والخميل: الكساء الذي خمل.

---

(١) الترمذي (٢٤٧٢) في صفة القيامة والرقائق والودع، باب: رقم (٣٤)، وقال: « حسن غريب ».

(٢) الترمذي (٢٣٧١) في الزهد، باب: ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ، وقال: « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ».

(٣) الترمذي (٢٣٧٧) في الزهد، باب: رقم (٤٤)، وقال: « حسن صحيح ».

(٤) البخاري (٥٤١٢) في الأطعمة، باب: ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، ومسلم (٢٩٦٦/ ١٢) في أول كتاب الزهد.

(٥) أحمد (٦/ ١٢٥).

(٦) أحمد (١/ ٨٤) وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٤٣): « إسناده صحيح ».

قال :وحدثنا بهز بن أسد ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد ،قال:قال أبو بردة:دخلت على عائشة ، فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن وكساء من هذه التى تدعونها الملبدة ،فقالت:قبض رسول الله ﷺ فى هذين الثوبين (١).

قالوا :ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر ، لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا ، ولأمره ربه أن يسأله إياه ، كما أمره أن يسأله زيادة العلم.ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له ،ولم يكن الله ليختار له إلا الأفضل ؛إذ كان أفضل خلقه وأكملهم.

قالوا :وقد أخبر النبى ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد،فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطيعه ويلهيه. قال الإمام أحمد:حدثنا ابن مهدى ، حدثنا همام،عن قتادة،عن خليد العصرى،عن أبى الدرداء ، قال:قال رسول الله ﷺ:« ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين:يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ؛ فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. ولا أبت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين:اللهم اعط منفقاً خلفاً ،واعط ممسكاً تلفاً » (٢).

وقال الإمام أحمد:حدثنا وكيع ، حدثنا أسامة بن زيد ، عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبى لبيبة ، عن سعد بن مالك رضي الله عنه،قال:قال رسول الله ﷺ :« خير الرزق ما يكفى،وخير الذكر الخفى» (٣).

وتأمل جمعه فى هذا الحديث بين رزق القلب والبدن ،ورزق الدنيا والآخرة ،وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد ؛ فيكفى من الذكر إخفاؤه ؛ فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين،وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا:وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغنى. قال الإمام أحمد:حدثنا وكيع،حدثنا على بن صالح ،عن أبى المهلب،عن عبيد الله بن زحر،عن على ابن يزيد ، عن القاسم،عن أبى أمامة رضي الله عنه،قال:قال رسول الله ﷺ:« إن أغبط أوليائى عندى:مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع ، فعجلت منيته ،وقل تراثه ،وقلت بواكيه » (٤).قال عبدالله ابن أحمد:سألت أبى:ما تراثه ؟قال:ميراثه.

---

(١) البخارى (٥٨١٨) فى اللباس ، باب :الأكسية والخمائص ، ومسلم (٢٠٨٠/ ٣٥) فى اللباس ، باب التواضع فى اللباس. . .إلخ ، وأحمد (٦/ ٣٢).

(٢) أحمد (٥/ ١٩٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٨):« رواه الطبرانى فى الكبير. . . إلخ.

(٣) أحمد (١/ ١٧٢) وقال أحمد شاكر (١٤٧٧):« إسناده ضعيف ».

(٤) أحمد (٥/ ٢٥٢).

قالوا :وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا ، إنما هو من محبته له وكرامته. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ، حدثنا سليمان بن بلال ،عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عاصم بن عمرو بن قتادة ، عن محمود بن لبيد رضي الله عنه :أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم» (١).

قالوا :وقل أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتها إلا استدراجاً من الله ، لا إكراماً ومحبة لمن أعطاه. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشد بن سعد ، عن حرملة بن عمران التجيبى ، عن عقبة بن مسلم ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ،عن النبى ﷺ قال: « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب ، فإنما هو استدراج » (٢)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

قالوا : ولهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد ،قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من أمتى لو أتى باب أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه ، ولو سأله فلساً لم يعطه إياه ، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه ، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه ،وما يمنعها إياه لهوانه عليه . . . ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (٣). وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياه لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه ؛ ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل؛ فإن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ؛ ولا يعطى الآخرة إلا من يحب.

قالوا :وقد أخبرهم النبى ﷺ: أن أقربهم منه مجلساً ذوو التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها.

قال الإمام أحمد :حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن عمرو ،قال: سمعت عراك ابن مالك ، يقول: قال أبو ذر: إنى لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة؛ وذلك إنى سمعته يقول: « إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها » (٤)، وأنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشىء غيرى.

قالوا :وقد غبط النبى ﷺ من كان عيشه كفافاً، وأخبر بفلاحه. قال الإمام أحمد، حدثنا عبدالله بن يزيد ،حدثنا حيوة ،قال: أخبرنى أبو هانئ أن أبا على الحبشى أخبره أنه سمع

---

(١) أحمد (٥/ ٤٢٨).

(٢) أحمد (٤/ ١٤٥).

(٣) انظر: كنز العمال (٥٩٤٢).

(٤) أحمد (٥/ ١٦٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٣٠): « رجاله ثقات إلا أن عراك بن مالك قال لم يسمع من أبى ذر فيما أحسب ».

فضالة بن عبيد يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع » (١).

وذكر أيضاً ، من حديث عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» (٢).

قالوا : ولو لم يكن فى التقلل إلا خفة الحساب لكفى به فضلاً عن الغنى. قال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثنا بيان بن الحكم ، حدثنا محمد بن حاتم ، قال: حدثنى بشر بن الحارث ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن هشام ، عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يحاسب بهن العبد: ظل خص يستظل به، وكسرة يشد بها صلبه ، وثوب يوارى عورته » (٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا ليث ، عن أبى عثمان ، قال: لما افتتح المسلمون جوجى ، دخلوا يمشون فيها ، وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال ، وكان رجل يمشى إلى جنب سلمان، فقال: يا أبا عبدالله ، ألا ترى إلى ما فتح الله علينا؟ ألا ترى إلى ما أعطانا الله ؟ فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل حبة مما ترى حساب !

قالوا : وقد شهد النبى ﷺ لأصحابه: أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد أبو الأشهب، عن الحسن ، قال: قال نبى الله ﷺ: « يا أهل الصفة ، كيف أنتم ؟ » ، قالوا: نحن بخير. قال: « أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى، ويغدو فى حلة ويروح فى أخرى، وتسترون فى بيوتكم مثل أستار الكعبة؟» ، قالوا: يا نبى الله ، نحن يومئذ خير ؛ يعطنا ربنا تبارك وتعالى فنشكر. قال: « بل أنتم اليوم خير »(٤). فهذا صريح فى أنهم فى وقت صبرهم على فقرهم خير منهم فى وقت غناهم مع الشكر.

وقال عبدالله بن أحمد: حدثنا ابن ذر ، حدثنا حفص بن غياث ، عن داود بن أبى هند، عن أبى حرب بن أبى الأسود ، عن طلحة البصرى، قال: قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة ، فكان يجرى علينا مد من تمر بين اثنين ، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة ، فهتف به هاتف من خلفه فقال: يا رسول الله ، وقد حرق بطوننا التمر ، وعزفت عنا الكنف ، فخطب فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكوه ، وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح، ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة » . قالوا:

---

(١) أحمد (٦/ ١٩).

(٢) أحمد (٢/ ١٦٨) وقال أحمد شاكر (٦٥٧٢): « إسناده صحيح ».

(٣) انظر : الدر المنثور (٦/ ٣٩١).

(٤) أورده الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٢٦) وقال: « رواه الطبرانى ورجاله ، رجال الصحيح غير أبى جعفر الخطمى وهو ثقة ».

يا رسول الله، نحن اليوم خير منا أو يومئذ؟ قال: «بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ؛ يضرب بعضكم رقاب بعض» (١).

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ دخل على أهل الصفة فذكر نحوه.

قالوا: ولو لم يكن فى الغنى والمال إلا أنه فتنة، وقل من سلم من إصابتها له وتأثيرها فى دينه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وفى الترمذى، من حديث كعب بن عياض، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتى المال». قال: هذا حديث حسن صحيح (٢).

قالوا: والمال يدعو إلى النار، والفقر يدعو إلى الجنة. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا أبو الأشهب، حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور، قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه، إذا رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء، فكأنه قبض من ثيابه عنه؛ فقال رسول الله: «أخشيت يا فلان أن يغدو غناك عليه أو يغدو فقره عليك؟»، قال: يا رسول الله، وشر الغنى؟ قال: «نعم، إن غناك يدعوك إلى النار، وإن فقره يدعوه إلى الجنة»، قال: فما ينجينى منه؟ قال: «تواسيه». قال: إذن أفعل، فقال لآخر: لا أرجها فيه، قال: «فاستغفر وادع لأخيك» (٣).

قالوا: وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره، وقد روى الترمذى فى جامعه، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن النبى ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى به عورته، وجلف الخبز، والماء» قال: هذا حديث حسن صحيح (٤).

وفى صحيح مسلم، عن أبى أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى» (٥).

وفى صحيحه أيضاً، من حديث أبى نضرة، عن أبى سعيد رضي الله عنه، قال: بينما نحن فى سفر مع رسول الله، إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يضرب يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له» (٦). قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى

---

(١) أحمد (٣/ ٤٨٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٢٥، ٣٢٦): «رواه الطبرانى والبزار بنحوه... ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن عثمان العقيلى وهو ثقة» ولم يعزه للإمام أحمد.

(٢) الترمذى (٢٣٣٦) فى الزهد، باب: ما جاء أن فتنة هذه الأمة فى المال، وقال: «صحيح غريب».

(٣) الزهد للإمام أحمد (٧٠).

(٤) الترمذى (٢٣٤١).

(٥) مسلم (١٠٣٦/ ٩٧) فى الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح».

(٦) مسلم (١٧٢٨/ ١٨) فى اللقطة، باب: استحباب المواساة بفضول المال.

ظننا أنه لا حق لأحد منا فى فضل.

قالوا :فهذا وضع النظر فى تفضيل الغنى الشاكر ببذل الفضل كله؛وأما غنى يمتع بأنواع الفضل ،ويشكر بالواجب وبعض المستحب ، فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله فى فقره؟!.

قالوا :وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه ، وهم أئمة الشاكرين ، أنه لا يخاف عليهم الفقر،وإنما يخاف عليهم الغنى ؛ ففى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف ـ وكان شهد بدرا ـ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها ، وكان رسول الله ﷺ صالح أهل البحرين ، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمى ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحر ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول اللهﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف ، فتعرضوا له ، فتبسم رسول اللهﷺ حين رآهم ثم قال: « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين؟»،فقالوا:أجل،يا رسول الله .قال:« أبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم،ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (١).

قال الإمام أحمد:حدثنا روح ، حدثنا هشام ، عن الحسن ،قال:قيل لأبى ثعلبة الخشنى:أين دنياكم والتى كنتم تعدون يا أصحاب محمد؟قال:ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل ،والله الذى لا إله إلا هو،الإيمان كما تأكل النار الحطب الجزل .

وقال أحمد :حدثنا يزيد ، حدثنا هشام بن حسان،قال :سمعت الحسن،يقول:والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه ، فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها ، إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه.وما أمسكها الله عن عبده،فلم يظن أنه قد خير له فيها،إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه.

قالوا:وقد مر على النبى ﷺ فقير وغنى ،فقال عن الفقير:« هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » (٢).روى البخارى فى صحيحه ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه ،قال:مر رجل على رسول الله ﷺ فقال:« ما تقولون فى هذا؟»،فقالوا :حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع ،وإن قال أن يسمع،قال :ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال:« ما تقولون فى هذ ا؟ » ، قالوا :حرى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله.فقال رسول اللهﷺ:« هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » (٣).

---

(١) البخارى (٣١٥٨) فى الجزية والموادعة ، باب:الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ،ومسلم (٦/٢٩٦١) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

(٢) أحمد (٥/١٥٧)،وابن أبى شيبة (١٦١٦٣) فى الزهد ،باب : كلام لقمان عليه السلام.

(٣) البخارى (٥٠٩١) فى النكاح ، باب:الأكفاء فى الدين . . . إلخ.

وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء ؛ ففى الترمذى من حديث فضالة بن عبيد: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة (١) ، وهم أصحاب الصفة ، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين ، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم وقال : « لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة » (٢) . قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ، وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة.

وقد اختلفت الروايات فى مدة هذا السبق؛ ففى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمر: أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا: يا أبا محمد ، والله ما نقدر على شيء: لا نفقة ، ولا دابة ، ولا متاع. فقال لهم: ما شئتم ، وإن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يسَّر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم ؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً »، قالوا: نصبر ولا نسأل شيئاً (٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام» قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٤).

وفى الترمذى أيضاً ، من حديث أبى سعيد، قال : قال رسول الله ﷺ : « فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة ». وهو حديث حسن (٥).

وفيه أيضاً، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً» (٦). وهو حديث حسن، وهو موافق لحديث عبدالله بن عمر، ولحديث أنس الذى فى الترمذى: «إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفاً»(٧).

فهؤلاء ثلاثة : جابر ، وأنس ، وعبد الله بن عمر. وقد اتفقوا على الأربعين. وهذا أبو هريرة وأبو سعيد ، قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة. ولا تعارض بين هذه الأحاديث ؛ إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى فمنهم من يسبق بأربعين ، ومنهم من يسبق بخمسمائة. ولا يتقيد السبق بهذا المقدار، بل يزيد عليه وينقص.

---

(١) خصاصة : فاقة وحاجة .

(٢) الترمذى (٢٣٦٨) فى الزهد ، باب: ما جاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ ، وقال: « صحيح ».

(٣) مسلم (٢٩٧٩/٣٧) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

(٤) الترمذى (٢٣٥٤) فى الزهد، باب : ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، وقال : « صحيح»، وأحمد (٢/٢٩٦).

(٥) الترمذى (٢٣٥١) فى الزهد ، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ».

(٦) الترمذى (٢٣٥٥) فى الزهد ، باب : ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، وقال: « حسن ».

(٧) الترمذى (٢٣٥٢) فى الزهد ، باب : ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، وقال: « غريب ».

وقد روى أبو داود فى سننه ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ :« إن أول الأمة دخولاً إلى الجنة أبو بكر الصديق رضي الله عنه »(١). ومعلوم أن المدة التى بينه وبين إخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول ،وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه ،عن النبى ﷺ أنه قال:« هل تدرون أول من يدخل الجنة؟»،قالوا:الله ورسوله أعلم.قال:« فقراء المهاجرين،الذين تتقى بهم المكاره ؛يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. تقول الملائكة:يا ربنا ، نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك ،لا تدخلهم الجنة قبلنا.فيقول:عبادى لا يشركون بى شيئاً ؛يتقى بهم المكاره،يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء.فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »(٢).

وقال الإمام أحمد:حدثنا حسين بن محمد ، ثنا دويد ، عن مسلم بن بشير ، عن عكرمة ،عن ابن عباس رضي الله عنهما ،قال :قال رسول الله ﷺ:« التقى مؤمنان على باب الجنة، مؤمن غنى ومؤمن فقير ،كانا فى الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ،وحبس الغنى ما شاء الله أن يحبس ، ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فيقول : أى أخى ، ماذا حبسك؟والله لقد احتبست حتى خفت عليك ؟! فيقول : أى أخى ، وإنى حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال منى من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلت حمصاً لصدرت عنه رواء »(٣).

وقال الطبرانى فى معجمه:حدثنا محمد بن عبدالله الحضرمى وعلى بن سعيد الرازى،قالا:حدثنا على بن بهرام العطار، حدثنا عبدالملك بن أبى كريمة ، عن الثورى ، عن محمد بن زيد ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة رضي الله عنه،قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة»،فقال رجل :أمنهم أنا يا رسول الله؟قال:« إن تغديت رجعت على عشاء ،وإذا تعشيت يبيت معك غداء ؟»،قال:نعم. قال : « لست منهم » ، فقام رجل فقال:أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال:« هل سمعت ما قلنا لهذا؟» قال:نعم ،ولست كذلك.قال:« هل تجد ثوباً ستيراً سوى ما عليك؟» قال:نعم.قال:« فلست منهم ».فقام آخر فقال:أمنهم أنا يا رسول الله ؟فقال:«هل سمعت ما قلت لهذين قبلك ؟» قال :نعم ،قال : « هل تجد قرضاً

---

(١) أبو داود (٤٦٥٢) فى السنة ، باب :فى الخلفاء ، وضعفه الألبانى.

(٢) أحمد (٢/١٦٨) ، وقال الشيخ شاكر (٦٥٧٠):« إسناده صحيح ».

(٣) أحمد (١/٣٠٤) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٦٦) : « فيه دويد غير منسوب. . . وبقية رجاله رجال الصحيح غير مسلم بن بشير وهو ثقة ».

كلما شئت أن تستقرض؟» قال: نعم قال: « فلست منهم »، فقام آخر فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: « هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟» قال: نعم، قال: « تقدر أن تكتسب؟»، قال: نعم. قال: « فلست منهم »، قال: فقام خامس فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: « سمعت ما قلت لهؤلاء؟»، قال: نعم، قال: « هل تمسى عن ربك راضياً وتصبح كذلك؟»، قال: نعم، قال: « فأنت منهم »، قال النبى ﷺ: « إن سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء، وإذا تعشى لم يبت عنده غداء، وإن استقرض لم يجد قرضاً، وليس له فضل كسوة إلا ما يوارى به ما لا يجد منه بداً، ولا يقدر على أن يكتسب ما يعيش به، ويمسى عن الله راضياً ويصبح راضياً: ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] (١). قال الطبرانى: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثورى عن محمد بن زيد يقال: هو العبدى، تفرد به عبد الملك.

قلت: محمد هذا هو العبدى، وثَّقه قوم وضعَّفه آخرون؛ قال الدارقطنى: ليس بالقوى. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وذكره ابن حبان فى الثقات. وروى له الترمذى وابن ماجه. وفى هذه الطبقة محمد بن زيد الشامى يروى عن أبى سلمة بن عبدالرحمن، وهو متروك، ونخاف أن يكون هذا هو؛ فالثورى لم ينسبه، وإنما يقال هو العبدى... والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائى، عن يحيى بن أبى كثير، عن عامر العقيلى، عن أبيه، عن أبى هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار. فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد؛ وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال. وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلَّط، وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فى ماله، وفقير فخور ». وروى الترمذى منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط (٢).

قالوا: ويكفى فى فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء، وعامة أهل النار الأغنياء.
قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالله بن محمد بن أبى شيبة، حدثنا شريك، عن أبى إسحاق، عن السائب بن مالك، عن عبدالله بن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء » (٣).

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٨٨٦٥) قريبًا منه، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٣): « فيه عدى بن الفضل التيمى مولاهم وهو ضعيف .... ».

(٢) الترمذى (١٦٤٢) فى فضائل الجهاد، باب: ماجاء فى ثواب الشهداء، وقال: « حسن » وأحمد (٢/ ٤٧٩).

(٣) أحمد (٢/ ١٧٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٤): « إسناده جيد ».

وفى صحيح البخارى ،عن أبى رجاء ،قال: جاء عمران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ،فقالت : حدثنا ما سمعت من النبى ﷺ: ،فقال: إنه ليس من حديث ! فلم تدعه (أو قال) فأغضبته ، فقال :سمعت رسول الله ﷺ يقول: « نظرت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ،ونظرت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء » (١).

وفى الصحيحين ، من حديث أسامة بن زيد :أن رسول الله ﷺ قال: « قمت على باب الجنة ،فإذا عامة من دخلها المساكين ، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» (٢).

وفى صحيح مسلم ،عن ابن عباس :أن النبى ﷺ اطلع فى النار فرأى أكثر أهلها النساء،واطلع فى الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء (٣).

قالوا :ويكفى فى فضل الفقراء أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء . قال الإمام أحمد :حدثنا عبدالله بن نمير ،حدثنا إسماعيل ـ يعنى ابن خالد ـ عن نفيع ،عن أنس بن مالك ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من أحد يوم القيامة غنى ولا فقير إلا ود أن ما كان أوتى فى الدنيا قوتاً » (٤). قال البخارى :يتكلمون فى نفيع .وهذا أليق ما قيل فيه.

قالوا : وقد صرح رسول الله ﷺ فى تفضيل الفقراء فى غير حديث ،فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ،حدثنا الأعمش ، عن زيد ابن وهب ،عن أبى ذر ﷺ وقال: قال رسول الله ﷺ: « يا أبا ذر ،ارفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه فى المسجد ». قال: فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له. قال : فقلت : هذا، قال: فقال : « يا أبا ذر ،ارفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه فى المسجد »، قال : فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق، قال: فقلت: هذا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ،لهذا أفضل عند الله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا » (٥).

قال :حدثنا وكيع ووافقه زائد ،حدثنا الأعمش ،عن سليمان بن يسار ،عن خرشة بن الحر ،عن أبى ذر ،فذكره ،وقال : « لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا » . قال الإمام أحمد : وحدثنا أبو معاوية ، ووافقه يعلى ، قال: حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ،عن أبى ذر ،فذكره.

قالوا : والذى يفصل بيننا فى هذه المسألة ويشفى العليل : أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزلته عند الله . والغنى ولو شكر،فإن ما ناله فى الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم

---

(١) البخارى (٥١٩٨) فى النكاح ، باب كفران العشير.

(٢) البخارى (٥١٩٦) فى النكاح، باب (٨٧) ، ومسلم (٢٧٣٦/ ٩٣) ،فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء . . . إلخ.

(٣) مسلم (٢٧٣٧) فى الكتاب والباب السابقين.

(٤) أحمد (٣/ ١١٧). (٥) أحمد (٥/ ١٧٠).

القيامة ،وإن تناوله بأحل وجه ، فقليل الفضل فى الدنيا ناقص من كثير الآخرة.

وفى صحيح مسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال:«ما من غازية فى سبيل الله ، فيصيبون الغنيمة ، إلا تعجلوا ثلثى أجرهم من الآخرة ، ويبقى لهم الثلث . وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم » (١).

وفى الصحيحين ، عن خباب بن الأرت رضي الله عنه ، قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله. فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً ،منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، قتل يوم أحد وترك بردة ، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ؛ فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ، ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر. ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها (٢).

وفى الصحيحين ، عن قيس بن أبى حازم، قال: دخلنا على خباب نعوده ،وقد اكتوى سبع كيات ، فقال :إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا. وذكر الحديث (٣).

وقال سعيد بن منصور :حدثنا معاوية ، عن الأعمش ،عن مجاهد ،عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :ما أوتى عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً.

وفى صحيح البخارى ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : أوتى عبد الرحمن رضي الله عنه بطعام وكان صائماً ، فقال : قتل مصعب بن عمير ، وهو خير منى ، وكفن فى بردة : إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا رأسه . وقتل حمزة رضي الله عنه ، وهو خير منى ، فلم يوجد له كفن إلا بردة. ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط. أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا . وقد خشيت أن يكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام (٤) .

قال أبو سعيد الأعرابى: وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب قالا ذلك دون غيرهما ؛ لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه، وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل ، وأن ما أخروا له كان أنقص .ومنهم : أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وأبو عبيدة، وعمار بن ياسر ، وسلمان، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وأبو هشام بن عتبة، وجماعة لم نذكرهم للاختصار رضي الله عنهم .

---

(١) مسلم (١٩٠٦/ ١٥٤) فى الإمارة ، باب :بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم.

(٢) البخارى (١٢٧٦) فى الجنائز، باب : إذا لم يجد كفنا . . . إلخ، ومسلم (٩٤٠/ ٤٤) فى الجنائز، باب :فى كفن الميت.

(٣) البخارى (٥٦٧٢) فى المرضى ، باب : تمنى المريض الموت ، ومسلم (٢٦٨١/ ١٢) فى الذكر والدعاء ، باب : كراهة تمنى الموت . . . إلخ.

(٤) البخارى (٤٠٤٥) فى المغازى ،باب:غزوة أحد.

فأما أبو بكر ﷺ ، فحدثنا ابن أبى الدنيا ، حدثنا عبدالرحمن بن أبان الطائى ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوراث ،حدثنا عبد الواحد بن زيد ،حدثنى سليمان ،عن مرة ، عن زيد بن أرقم ﷺ ، قال :كنا مع أبى بكر الصديق ﷺ ، فدعا بشراب ، فأتى بماء وعسل،فلما أدناه من فيه ،بكى وبكى حتى أبكى أصحابه ،فسكتوا وما سكت ، ثم عاد وبكى ، حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته ،قال:ثم مسح عينيه ،فقالوا :يا خليفة رسول الله ، ما أبكاك ؟ فقال : كنت مع رسول الله ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ، ولم أر معه أحداً ، فقلت : يا رسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال : « هذه الدنيا مثلت لى ، فقلت لها : إليك عنى ، ثم رجعت ، فقالت : إنك إن أفلت منى فلن يفلت منى من بعدك » (١).

وذكر ليث ، عن ابن سعد ، عن صالح بن كيسان ، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه : أن أبا بكر ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه : إنى وليت أمركم وإنى لست بخيركم ، وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له ، وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج ، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان ، ثم أنتم أول ضال بالناس . تصفقون يميناً وشمالاً.ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر ،والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا.

وذكر محمد بن عطاء بن خباب، قال: كنت جالساً مع أبى بكر ، فرأى طائراً، فقال : طوبى لك يا طائر ، تأكل من هذا الشجر ، ثم تبعر ، ثم لا تكون شيئاً ، وليس عليك حساب ؛ وددت أنى مكانك . فقلت له : أتقول هذا وأنت صديق رسول الله ﷺ ؟ !

وأما عمر ﷺ ، فإنه لما أتى بكنوز كسرى بكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما الذى يبكيك ، يا أمير المؤمنين ؛ فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح ؟! فقال عمر : إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء.

ودخل عليه أبو سنان الدؤلى ،وعنده نفر من المهاجرين ،فأرسل عمر إلى سفط أتى به من قلعة بالعراق ،وكان فيه خاتم ، فأخذه بعض ولده فأدخله فى فيه ، فانتزعه عمر منه ثم بكى ، فقال له من عنده : لم تبكى وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى

(١) ابن أبى الدنيا ،فى كتاب ذم الدنيا رقم (١١).

يوم القيامة » (١) ، وأنا مشفق من ذلك .

قال أبو سعيد :وجدت فى كتاب بخط يدى ،عن أبى داود ،قال:حدثنا محمد بن عبيد،حدثنا حماد ،حدثنا يونس ، عن الحسن:أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه ، وفى القوم سراقة بن مالك ، فألقى إليه سوارى كسرى ، فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه ،فلما رآهما فى يد سراقة قال :الحمد لله سوار كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابى من بنى مدلج.اللهم،قد علمت أن رسولك قد كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك ،فزويت ذلك عنه نظراً منك له واختياراً ؛ اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا مكر منك بعمر . ثم قال : ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)** ﴾ [المؤمنون].

والمقصود : أن سعة الدنيا وبسطها، تعجيل من أصل الآخرة: وتضييق من سعتها .
قال عبدالرزاق: أنبأنا معمر ،عن الزهرى،عن ابن أبى صغيرة،عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: لما كان يوم أحد أشرف النبى ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ ،فقال:« إنى شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم » (٢). قال معمر : وأخبره فيمن سمع الحسن يقول : قال النبى ﷺ: « هؤلاء قد مضوا ،وقد شهدت عليهم ، لم يأكلوا من أجورهم شيئاً ، وإنكم قد أكلتم من أجوركم ،وإنى لا أدرى ما تحدثون بعدى » (٣).

وقال ابن المبارك :أخبرنا جرير بن حازم ،قال:سمعت الحسن يقول:خرج رسول الله ﷺ بأصحابه إلى بقيع الغرقد ، فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم ! ». ثم أقبل على أصحابه فقال : « هؤلاء خير منكم ». فقالوا:يا رسول الله ، إخواننا ؛ أسلمنا كما أسلموا ، وهاجرنا كما هاجروا، وجاهدنا كما جاهدوا، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها، وبقينا فى آجالنا ؛ فما يجعلهم خيراً منا ؟ فقال: « إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ، ولم يأكلوا من أجورهم شيئاً ،وخرجوا وأنا شهيد عليهم ، وأنتم قد أكلتم من أجوركم، ولا أدرى ما تحدثون بعدى » ، قال : فلما سمعها القوم ، والله عقلوها ، وانتفعوا بها ؛ فقالوا : وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم ، وإنه لمنتقص به من أجورنا .فأكلوا طيباً ،وأنفقوا قصداً ،وقدموا فضلاً.

وقال عبد الله بن أحمد : قرأت على أبى هذا الحديث: حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل، عن ثوير، عن مجاهد ،عن ابن عمر،قال:ما أعطى رجل من الدنيا إلا نقص من

---

(١) أحمد (١/١٦) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٣٩):« إسناده حسن ».
(٢) النسائى (٢٠٠٢) فى الجنائز ، باب:مواراة الشهيد فى دمه ، وأحمد (٥/ ٤٣١).
(٣) مصنف عبد الرزاق (٩٥٨١) فى الجهاد ، باب:الصلاة على الشهيد وغسله.

درجته.

قالوا: وقد صرح سادات الأغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا، وابتلوا بالسراء فلم يصبروا، قال ذلك عبد الرحمن وغيره، وكان هذا مصداقاً لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء؛ إنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة» [١].

قالوا: وها هنا قضيتان صادقتان، بهما يتبين الفضل، إحداهما: أن الأكثرين هم الأقلون. وقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية. وأما الثانية: ففي الصحيحين، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: خرجت ليلة من الليالى، فإذا رسول الله ﷺ يمشى وحده ليس معه إنسان. قال: فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد، فجعلت أمشى فى ظل القمر، فالتفت فرآنى، فقال: من هذا؟ قلت: أبو ذر جعلنى الله فداك، قال: «يا أبا ذر، تعال فمشيت معه ساعة»، فقال: «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً» [٢]. وذكر الحديث.

قالوا: ولو كان الغنى أفضل من الفقر لما حض الله رسوله على الزهد فى الدنيا والإعراض عنها، وذم الحرص عليها والرغبة فيها، بل كان ينبغى أن يحض عليها وعلى اكتسابها والإكثار منها، كما حض على اكتساب الفضائل التى بها كمال العبد من العلم والعمل. فلما حض على الزهد فيها والتقلل، دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين. وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء [٣]، وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها [٤]، وأن مثلها فى الآخرة كمثل ما يعلق بأصبع من أدخل أصبعه فى البحر [٥]، وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم [٦]، وأنها سجن المؤمنين وجنة

---

(١) أبو يعلى (٧٨٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٤٨، ٢٤٩): «رواه البزار وفيه رجل لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) البخارى (٦٤٤٣) فى الرقاق، باب: المكثرون هم المقلون، ومسلم (٩٤/ ٣٢) فى الزكاة، باب: الترغيب فى الصدقة.

(٣) الترمذى (٢٣٢٠) فى الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل، وقال: «صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٤١١٠) فى الزهد، باب: مثل الدنيا، وفى الزوائد: «فى إسناده زكريا بن منظور، وهو ضعيف... إلخ».

(٤) الترمذى (٢٣٢١) فى الكتاب والباب السابقين، وقال: «حديث المستورد حديث حسن»، وابن ماجه (٤١١١) فى الكتاب والباب السابقين.

(٥) الترمذى (٢٣٢٣) فى الزهد، باب: (١٥)، وقال: «حسن صحيح... إلخ»، وابن ماجه (٤١٠٨) فى الزهد، باب: مثل الدنيا.

(٦) الترمذى (٢٣٢٢) فى الزهد، باب: (١٤)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٤١١٢) فى الزهد، باب: مثل الدنيا.

الكافرين[١]. وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل [٢]، ويعد نفسه من أهل القبور، وإذا أصبح فلا ينتظر المساء، وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها [٣]، ولعن عبدالدينار وعبد الدرهم، ودعا عليه بالتعس والانتكاس، وعدم إقالة العثرة بالانتقاش [٤].

وأخبر أنها خضرة حلوة[٥]،أى تأخذ العيون بخضرتها،والقلوب بحلاوتها. وأمر باتقائها والحذر منها،كما يتقى النساء ويحذر منهن [٦]. وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضاريين إذا أرسلا فى زريبة غنم أو أشد إفساداً [٧]. وأخبر أنه فى الدنيا كراكب استظل تحت شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها [٨]. وهذه فى الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم،ولكن هو ﷺ شهد هذه الحال وعمى عنها بنو الدنيا. ومر بهم وهم يعالجون خصاً لهم قد وهى،فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك» [٩] وأمر بستر على بابه فنزع،وقال: «إنه يذكرنى الدنيا» [١٠].وأعلم الناس أنه ليس لأحد منهم حق فى سوى بيت يسكنه،وثوب يوارى عورته،وقوت يقيم صلبه [١١].وأخبر أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله،فيرجع أهله وماله ويبقى عمله [١٢].وأخبر أن للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة [١٣].وأقسم أنه لا يخاف الفقر على

---

(١) مسلم (٢٩٥٦/ ١) فى أول كتاب الزهد والرقائق،والترمذى (٢٣٢٤) فى الزهد، باب:ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر،وقال: «حسن صحيح».

(٢) البخارى (٦٤١٦) فى الرقاق،باب:قول النبى ﷺ: «كن فى الدنيا كأنك غريب ... إلخ»،والترمذى (٢٣٣٣) فى الزهد،باب:ما جاء فى قصر الأمل،وابن ماجه (٤١١٤) فى الزهد،باب:مثل الدنيا.

(٣) الترمذى (٢٣٢٨) فى الزهد،باب:(٢٠) وقال: «حسن».

(٤) البخارى (٢٨٨٧) فى الجهاد،باب:الحراسة فى الغزو فى سبيل الله،وابن ماجه (٤١٣٦) فى الزهد،باب:فى المكثرين

(٥) البخارى (٢٨٤٢) فى الجهاد، باب:فضل النفقة فى سبيل الله،ومسلم (١٠٥٢/ ٢٢) فى الزكاة، باب:تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا،وابن ماجه (٤٠٠٠) فى الفتن،باب فتنة النساء.

(٦) مسلم (٢٧٤٢/ ٩٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار،باب:أكثر أهل الجنة الفقراء... إلخ،والترمذى (٢١٩١) فى الفتن،باب:ما جاء ما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة،وابن ماجه (٤٠٠٠) فى الفتن، باب: فتنة النساء.

(٧) الترمذى (٢٣٧٦) فى الزهد، باب: (٤٣)، وقال: «حسن صحيح»،وأحمد (٣/ ٤٥٦).

(٨) الترمذى (٢٣٧٧) فى الزهد،باب: (٤٤)،وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤١١٠) فى الزهد،باب:مثل الدنيا.

(٩) أبو داود (٥٢٣٦) فى الأدب،باب:ما جاء فى البناء،والترمذى (٢٣٣٥) فى الزهد،باب:ماجاء فى قصر الأمل،وقال: «حسن صحيح».

(١٠) الترمذى (٢٤٦٨) فى صفة القيامة والرقائق والورع،باب:(٣٢)،وقال: «حسن صحيح غريب».

(١١) الترمذى (٢٣٤١) فى الزهد، باب: (٣٠)، وقال: «حسن صحيح».

(١٢) البخارى (٦٥١٤) فى الرقائق،باب:سكرات الموت،ومسلم (٢٩٦٠/ ٥)فى الزهد والرقائق.

(١٣) الترمذى (٢٣٧٤) فى الزهد،باب:ما جاء فى أخذ المال،وقال: «حسن صحيح».

أصحابه ، وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم (١)،وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى ،أو لبس فأبلى ،أو تصدق فأمضى (٢). وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه ،فإن لم يقتصر عليها ،فثلث بطنه لطعامه ،وثلثه لشرابه، وثلثه لنفسه (٣). وفى هذا الحديث: الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا.

وأخبر أن غنى العبد فيها غنى نفسه لا كثرة عرضه (٤) . وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتاً (٥) ، وغبط من كان رزقه فيها كفافاً بعد أن هدى للإسلام (٦).

وأخبر أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ،وشتت عليه شمله ،ولم يأته منها إلا ما كتب له (٧). وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً ،فقال: « لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ،فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ،وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » (٨). وأعلمهم أن: « من أصبح منهم آمناً فى سربه ، معافى فى جسده ،عنده قوت يومه ،فكأنما حيزت له الدنيا » (٩). وأخبر أن بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له، وإمساكه شر له ،وأنه لا يلام على الكفاف(١٠). ونهى أمته أن ينظر أحدهم إلى من هو فوقه فى الدنيا ،وأمره أن ينظر إلى من هو دونه فى الدنيا (١١).

---

(١) البخارى (٤٠١٥) فى المغازى ، باب: (١٢) ، ومسلم (٦/٢٩٦١) فى الزهد والرقائق.

(٢) مسلم (٣/٢٩٥٨) فى الزهد والرقائق ،والترمذى (٢٣٤٢) فى الزهد ، باب:٣١،وقال : « حسن صحيح »، والنسائى (٣٦١٣) فى الوصايا ،باب:الكراهية فى تأخير الوصايا.

(٣) الترمذى (٢٣٨٠) فى الزهد ، باب :ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ،وقال:«حسن صحيح »،وابن ماجه (٣٣٤٩) فى الأطعمة ،باب:الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع.

(٤) البخارى (٦٤٤٦) فى الرقائق ،باب:الغنى غنى النفس ،ومسلم (١٠٥١/ ١٢٠) فى الزكاة ،باب:ليس الغنى عن كثرة العرض.

(٥) البخارى (٦٤٦٠) فى الرقائق ، باب:كيف كان عيش النبى. . .إلخ،ومسلم (١٠٥٥/١٢٦) فى الزكاة ، باب:فى الكفاف والقناعة .

(٦) مسلم (١٠٥٥/ ١٢٥) فى الزكاة ،باب:فى الكفاف والقناعة ،وأحمد (١٦٨/٢).

(٧) الترمذى (٢٤٦٥) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٣٠) ،وابن ماجه (٤١٠٥) فى الزهد ، باب: الهم بالدنيا، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ،ورجاله ثقات » ، وأحمد (١٨٣/٥).

(٨) الترمذى (٢٣٤٧) فى الزهد ، باب:ما جاء فى الكفاف والصبر عليه ،وقال : « حسن » ، وضعفه الألبانى ، وأحمد (٢٥٤/٥).

(٩) الترمذى (٢٣٤٦) فى الزهد ،باب:(٣٤)،وقال:« حسن غريب» ،وابن ماجه (٤١٤١) فى الزهد ،باب:القناعة.

(١٠) مسلم (١٠٣٦/٩٧) فى الزكاة ، باب :بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى . . . إلخ ،والترمذى (٢٣٤٣) فى الزهد ،باب :(٣٢) ،وقال : « حسن صحيح ».

(١١) البخارى (٦٤٩٠) فى الرقاق،باب:لينظر إلى من هو أسفل منه،ولا ينظر إلى من هو فوقه ،ومسلم (٩/٢٩٦٣) فى الزهد والرقائق.

وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضر [١] ، مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه ، إن كان أوله طيباً لذيذاً فهذا آخره [٢] . وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين فيها[٣] ؛ فإن أمامهم دار النعيم ؛ فهم لا يرضون بنعيمهم فى الدنيا عوضاً من ذلك النعيم. وأخبر أن نجاة أول هذه الأمة بالزهد واليقين ،وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل [٤]. وكان يقول:« لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة » [٥].وأخبر أنه تعالى إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يحمى الإنسان مريضه من الطعام والشراب [٦].ودخل على عثمان بن مظعون وهو فى الموت ،فأكب عليه يقبله ويقول:« رحمك الله يا عثمان ،ما أصبت من الدنيا ،ولا أصابت منك » [٧] ، فغبطه بذلك.وكان يقول : « الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فى الدنيا تطيل الهموم والحزن » [٨]. وكان يقول : « من جعل الهموم كلها هماً واحداً كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك » [٩].

وأخبر أنه :« يؤتى يوم القيامة بأنعم الناس كان فى الدنيا ،فيقول الله عز وجل: أصبغوه فى النار صبغة ، ثم يؤتى به ، فيقول: يا بن آدم ، هل أصبت نعيماً قط ؟ هل رأيت قرة عين قط؟هل أصبت سروراً قط ؟فيقول:لا وعزتك.ثم يقول : ردوه إلى النار ، ثم يؤتى بأشد الناس كان بلاء فى الدنيا وأجهدهم جهداً، فيقول تبارك وتعالى:أصبغوه فى الجنة صبغة ، فيصبغ فيها ،ثم يؤتى به ،فيقول :يا ابن آدم ، هل رأيت ما تكره قط ؟ فيقول:لا وعزتك ما رأيت شيئاً قط أكرهه » [١٠].

وفى حديث مناجاة موسى،الذى رواه الإمام أحمد فى كتاب « الزهد »:حدثنا

---

(١) ابن ماجه (٤٠٣٥) فى الفتن ،باب :شدة الزمان ،وفى الزوائد :« إسناده صحيح ، ورجاله ثقات ».

(٢) الطبرانى فى الكبير (٦١١٩) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩١):« رجاله رجال الصحيح ».

(٣) أحمد (٥/ ٢٤٣) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٣) : « رجاله ثقات ».

(٤) الطبرانى فى الأوسط (٧٦٥٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٩) : « رجاله وثقوا ، على ضعف فى بعضهم».

(٥) البخارى (٤٠٩٩) فى المغازى ، باب :غزوة الخندق وهى الأحزاب ،ومسلم (١٨٠٥/ ١٢٨) فى الجهاد والسير، باب:غزوة الأحزاب وهى الخندق.

(٦) الترمذى (٢٠٣٦) فى الطب ، باب:ما جاء فى الحمية ،وقال:« حسن غريب ».

(٧) كنز العمال (٣٣١٠) ،وحلية الأولياء (١/ ١٠٥).

(٨) الطبرانى فى الأوسط (٦١٢٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٩) : « فيه أشعث بن بزار ولم أعرفه ،وبقية رجاله وثقوا على ضعف فيهم ».

(٩) ابن ماجه (٢٥٧) فى المقدمة ، باب :الانتفاع بالعلم والعمل به،وفى الزوائد :« إسناده ضعيف ،فيه نهشل بن سعيد ، قيل : إنه يروى المناكير ،قيل :بل الموضوعات ».

(١٠) مسلم (٢٨٠٧/ ٥٥) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب :صبغ أنعم أهل الدنيا فى النار..إلخ ، وأحمد (٣/ ٢٠٣).

إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل ، حدثنا عبد الصمد بن معقل ، قال: سمعت وهب بن منبه ، فذكره ، وفيه: ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به ، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما؛ فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين. وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ، يعلم فرعون - حين ينظر إليها - أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما ، فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن نعيمها ذلك وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى ، وقديماً ما خرت لهم فى ذلك ؛ فإنى لأزودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراعى الهلكة ، وإنى لأجنبهم سلوتها وغيشها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة ، وما ذلك لهوانهم على ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً لم تكلمه الدنيا ولم يطغه الهوى ، واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا ؛ فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقاً. فإذا لقيتهم ، فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك. وذكرالحديث.

وقال أحمد: حدثنا عون بن جابر ، قال: سمعت محمد بن داود، عن أبيه ، عن وهب، قال: قال الحواريون: يا عيسى ، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس عاجلها ، فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم؛ فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وذكرهم إياها فواتاً ، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً ، فما عرضهم من نائلها رفضوه ، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها ، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها ، وماتت فى صدورهم فليسوا يحيونها ، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، رفضوها فكانوا بها هم الفرحين ، ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات، فأحيوا ذكر الموت ، وأماتوا ذكر الحياة ، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبر عجيب ، وعندهم الخبر العجيب ، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه عملوا ، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يحذرون.

وحدثنا روح ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، قال : قيل لعيسى ابن مريم : يا رسول الله ، لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك ؟ قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئاً يشغلنى به. وقال: اجعلوا كنوزكم فى السماء؛ فإن قلب المرء عند كنزه ، وقال: اتقوا فضول الدنيا؛ فإن فضول الدنيا عند الله رجز. وقال : يا بنى إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف، فما لكم فى العالم من منزل، إن أنتم إلا عابرى سبيل. وقال: يا معشر الحواريين، أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر داراً ؟ قالوا: يا روح الله ، من يقدر على ذلك ؟! قال: إياكم والدنيا ، فلا تتخذوها قراراً. وقال : أكل الخبز البر ، وشرب ماء عذب ، ونوم على المزابل مع الكلاب كثير ، لمن يريد أن يرث الفردوس.

قال أحمد: وحدثنا بهز ، عن الأعمش ، عن خيثمة، قال: قال المسيح بشدة: ما يدخل الغنى الجنة. وقال المسيح: حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ،ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة. وقال: يا بنى إسرائيل ،تهاونوا بالدنيا تهن عليكم ،وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة ،ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة ؛ فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة.

وقال إسحاق بن هانئ فى مسائله : قال أبو عبد الله ـ وأنا أخرج من داره ـ قال الحسن: أهينوا الدنيا، فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان. وقال الحسن: والله ما أبالى شرقت أم غربت. قال: وقال لى أبو عبد الله :يا إسحاق ، ما أهون الدنيا على الله عز وجل. وقال : الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى.

قالوا :وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها ،وقد روى فيه حديث مرفوع لا يثبت ، ولكنه يروى عن المسيح ،قال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله ابن عمر القواريرى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن بديل بن ميسرة ، قال : حدثنى جعفر بن خرفاش: أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال: رأس الخطيئة حب الدنيا ، والنساء حبالة الشيطان ،والخمر جماع كل شر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفرى، عن سفيان، قال: كان عيسى ابن مريم يقول : حب الدنيا أصل كل خطيئة ، والمال فيه داء كثير . قالوا : وما داؤه ؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء . قالوا : فإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل.

قالوا: وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة ؛ فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة ، ولاسيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها، فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها، وحبها يوقع فى الشبهات ، ثم فى المكروهات ، ثم فى المحرمات. وطالما أوقع فى الكفر ، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا ؛ فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصى التى كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم.

فكل خطيئة فى العالم أصلها حب الدنيا ، ولا تنس خطيئة الأبوين قديماً ؛ فإنما كان سببها حب الخلود فى الدنيا. ولا تنس ذنب إبليس وسببه حب الرياسة التى محبتها شر من محبة الدنيا ، وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما ،وأبو جهل وقومه واليهود ؛ فحب الدنيا والرياسة هو الذى عمر النار بأهلها ،والزهد فى الدنيا والرياسة هو الذى عمر الجنة بأهلها ،والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير ، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا فى ظلمة اللحد ، ولو انكشف عنه غطاؤه فى الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر، وأنه أشد من سكر الخمر.

والدنيا تسحر العقول أعظم سحر. قال الإمام أحمد : حدثنا سيار ،حدثنا جعفر، قال: سمعت مالك بن دينار يقول : اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة ؛ فإنها تسحر قلوب العلماء.

وقال يحيى بن معاذ الرازى:الدنيا خمر الشيطان ،من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين . وأقل ما فى حبها أنه يلهى عن حب الله وذكره. ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين ،وإذا ألهاه القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد. ومن فقهه فى الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه ، فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها ؟ وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه ، فقال : « لعن عبد الدينار والدرهم » (١) ، وقال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم : إن أعطى رضى وإن منع سخط » (٢). وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها.

وقد عرضت الدنيا على النبى ﷺ بحذافيرها وتعرضت له ، فدفع فى صدرها باليدين، وردها على عقبيها ، ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم ،فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل ، ومنهم من استعرضها وقال:ما فيك ؟ قالت: فى الحلال والشبهة والمكروه والحرام ، فقالوا : هاتى حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه ، فأخذوا حلالها ، ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه فطلبوا مكروهها وشبهها،فقالت: قد أخذه من قبلكم ، فقالوا:هاتى حرامك ،فأخذوه ، فطلبه من بعدهم ، فقالت:هو فى أيدى الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحملوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة ؛ فلا يمد فاجر يده إلى شىء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه. هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أصبح أحد فى الدنيا إلا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

فصل

قالوا :وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداً للدين من وجوه:

أحدها : أن حبها يقتضى تعظيمها ،وهى حقيرة عند الله ، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

وثانيها :أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها،ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه ، فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

---

(١) الترمذى (٢٣٧٥) فى الزهد ، باب:(٤٢) ،وقال :« حسن غريب من هذا الوجه . . . إلخ ».

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٢.

وثالثها : أنه إذا أحبها صيرها غايته ، وتوسل إليها بالأعمال التى جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة ، فعكس الأمر وقلب الحكمة ،فانعكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء. فهاهنا أمران : أحدهما : جعل الوسيلة غاية . والثانى : التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا. وهذا شر معكوس من كل وجه ،وقلب منكوس غاية الانتكاس.وهذا هو الذى انطبق عليه ـ حذو القذة بالقذة ـ قوله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)** ﴾ [هود] ، وقوله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨)** ﴾ [الإسراء] ، وقوله تعالى : ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)** ﴾ [الشورى] . فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً ،وتدل على معنى واحد ، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة ،فحظه ما أراد ،وهو نصيبه ليس له نصيب غيره.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له ،كحديث أبى هريرة رضي الله عنه،فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: « الغازى ،والمتصدق ، والقارئ ، الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب ».وهو فى صحيح مسلم (١).

وفى سنن النسائى ، عن أبى أمامة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال: يا رسول الله ،رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ :« لا شىء له»، فأعادها ثلاث مرات.يقول له رسول الله: « لا شىء له».ثم قال: « إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه» (٢)؛ فهذا قد بطل أجره وحبط عمله، مع أنه قصد حصول الأجر؛ لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس ، فلم يخلص عمله لله،فبطل كله.

وفى مسند الإمام أحمد،عن أبى هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله ،الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا ؟فقال له رسول الله ﷺ: « لا أجر له»،فأعظم الناس ذلك ،وقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ لعله لم يفهم ، فعاد فقال: يا رسول الله،الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا؟فقال رسول الله ﷺ: « لا أجر له » ،ثم أعاد الثالثة ،فقال رسول الله: « لا أجر له » (٣).

وفى المسند أيضاً ،وسنن النسائى،عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه،قال: إن رسول الله ﷺ قال: « من غزا فى سبيل الله عز وجل وهو لا ينوى فى غزاته إلا عقالاً فله ما نوى » (٤).

---

(١) مسلم (١٩٠٥/ ١٥٢) فى الإمارة ، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

(٢) النسائى (٣١٤٠) فى الجهاد ، باب : من غزا يلتمس الأجر والذكر .

(٣) أحمد (٢/ ٣٦٦) ،وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٨٨٧): « إسناده صحيح ».

(٤) النسائى (٣١٣٩) فى الجهاد، باب: من غزا فى سبيل الله ولم ينو من غزاته إلا عقالا، وأحمد (٥/ ٣١٥).

وفى المسند والسنن ، عن يعلى بن منبه ،قال:كان رسول الله ﷺ يبعثنى فى سرايا ، فبعثنى ذات يوم فى سرية ،وكان رجلاً يركب بغلاً فقلت له: ارحل؛فإن النبى ﷺ قد بعثنى فى سرية ،فقال: ما أنا بخارج معك حتى تجعل لى ثلاثة دنانير ، ففعلت ، فلما رجعت من غزاتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبى: « ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير » (١).

وفى سنن أبى داود: أن عبد الله بن عمر ﷺ قال : يا رسول الله ، أخبرنى عن الجهاد والغزو ، فقال: « يا عبد الله بن عمر ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً. يا عبد الله بن عمر ، على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال » (٢).

وفى المسند أو السنن ، عن أبى أيوب ﷺ ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستفتح عليكم الأمصار، وتضربون فيها بعوثاً ،فيكره الرجل منكم البعث ، فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول: من أكفيه بعث كذا وكذا ، ألا وذلك الأخير إلى آخر قطرة من دمه » (٣) ، فانظر محبة الدنيا ، ماذا حرمت هذا المجاهد من الأجر، وأفسدت عليه عمله ، وجعلته أول الداخلين إلى النار.

ورابعها : أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه فى الآخرة ؛ لاشتغاله عنه بمحبوبه. والناس هاهنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله عن الواجبات التى تجب عليه لله ولخلقه؛ فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً ، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات ، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره ،ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى ؛ فيفرط فى وقته وفى حقوقه ، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه فى الواجب وتفريغه لله عند أدائه ؛ فيؤديه ظاهراً لا باطنًا . وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها ؟ هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد ، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره ، وجمع قلبه على لسانه ، وجمع لسانه وقلبه على ربه. فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولابد ، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا، وفى هذا حديث قد روى مرفوعاً : « من أحب دنياه أضر بآخرته ،ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما بقى على ما يفنى » (٤).

وخامسها: أن محبتها تجعلها أكثر هم العبد ؛ وقد روى الترمذى ، من حديث أنس بن

---

(١) أبو داود (٢٥٢٧) فى الجهاد ، باب: فى الرجل يغزو بأجير ليخدم ، وأحمد (٤/ ٢٢٣).

(٢) أبو داود (٢٥١٩) فى الجهاد ، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، وضعفه الألبانى.

(٣) أبو داود (٢٥٢٥) فى الجهاد ، باب: فى الجعائل فى الغزو ،وضعفه الألبانى ، وأحمد (٥/ ٤١٣).

(٤) أحمد (٤/ ٤١٢) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢): « رواه البزار والطبرانى ورجاله ثقات ».

مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة أكبر همه ؛ جعل الله غناه فى قلبه. وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة. ومن كانت الدنيا أكبر همه؛ جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ،ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »(١).

وسادسها : أن محبها أشد الناس عذاباً بها ،وهو معذب فى دوره الثلاث: يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها ،وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها،وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه ؛ فهذا أشد الناس عذابا فى قبره ؛ يعمل الهم والغم والحزن والحسرة فى روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض فى جسمه ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه: أن حزقيل كان فيمن سبى بختنصر ، فذكر عنه حديثاً طويلاً ،وفى آخره قال: فبينما أنا نائم على شط الفرات ، إذ أتانى ملك ،فأخذ برأسى ، فاحتملنى حتى وضعنى بقاع من الأرض ، قد كانت معركة ،قال: وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم ، قال لى: إن قوماً يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت منى وذهبت عنه قدرتى فادعهم،قال حزقيل: فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذى انقطع منه ، ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذى فارق ، حتى أم بعضها بعظائم نبت عليها اللحم ، ثم نبت عليها العروق ،ثم انبسطت الجلود ،وأنا أنظر إلى ذلك.ثم قال: ادع أرواحهم .قال: فدعوتها ،فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذى فارق، فلما جلسوا سألتهم: فيم كنتم؟ قالوا: إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك ، فقال: هلموا أعمالكم،وخذوا أجوركم ،كذلك سنتنا فيكم ، وفيمن كان قبلكم ،وفيمن هو كائن بعدكم. قال: فنظر فى أعمالنا ، فوجدنا نعبد الأوثان، فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألم ،وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألمه ، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا.

ولا يستريح عاشق الدنيا ،فقولهم : كنا نعبد الأوثان ، فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان؛ تعس عبد الدينار ،تعس عبد الدرهم.

والمقصود: أن محب الدنيا يعذب فى قبره ويعذب يوم لقاء ربه ،قال تعالى : ﴿ **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** (٥٥) ﴾ [التوبة]. قال بعض السلف : يعذبهم بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها ؛ وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

وسابعها : أن عاشقها ومحبها الذى يؤثرها على الآخرة ، من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً؛ إذ آثر الخيال على الحقيقة ،والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم،

---

(١) الترمذى (٢٤٦٥) فى صفة القيامة والرقائق والورع ،باب :(٣٠) .

والدار الفانية على الدار الباقية ،وباع حياة الأبد فى أوغد عيش بحياة إنما هى أحلام نوم أو كظل زائل. إن اللبيب بمثلها لا يخدع ،كما نزل أعرابى بقوم ،فقدموا له طعاماً فأكل،ثم قام إلى ظل خيمة فنام ، فاقتلعوا الخيمة فأصابته فانتبه ،وهو يقول:

وإن امرؤ دنياه أكبر همه ... لمستمسك منها بحبل غرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظل زائل حمق

قال يونس بن عبدالأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب ،فبينما هو كذلك انتبه.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو على الطائى ،حدثنا عبدالرحمن البخارى،عن ليث، قال: رأى عيسى ابن مريم الدنيا فى صورة عجوز عليها من كل زينة ،فقال :كم تزوجت ؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت: بل كلهم قتلته. فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقين ،كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين؟! تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر !

أرى أشقياء النـاس لا يسأمـونها ... على أنهم فيهـا عـراة وجـوع

أراها وإن كانت تحـب فإنهـا ... سحابة صيف عـن قليل تقشع

أشبه الأشياء بالدنيا الظل ، تحسب له حقيقة ثابتة وهو فى تقلص وانقباض ، إن تتبعته لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بها السراب ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ،والله سريع الحساب. وأشبه الأشياء بها المنام، يرى فيه العبد ما يحب وما يكره ،فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له. وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر ،غدارة بالأزواج ، تزينت للخطاب بكل زينة وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها ، فطلب النكاح ، فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة؛ فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح ؛ فآثر الخطاب العاجلة ،وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناح. فلما كشف قناعها ،وحل إزارها ،إذا كل آفة وبلية ؛فمنهم من طلق واستراح ،ومنهم من اختار المقام ، فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحى على غير الفلاح ،فقام المجتهدون والمسلمون لها،فواصلوا فى طلبها الغدو بالرواح ،وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح،طاروا فى صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح ،فوقعوا فى شبكتها فأسلمتهم للذباح.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن على بن شفيق ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ،قال

سمعت الفضيل بن عياض، قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء ،زرقاء ، أنيابها بادية، مشوه خلقها؛ فتشرف على الخلائق ، فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه ، فيقال :هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم. ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى: يا رب أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا روح بن عبادة ،حدثنا عوف عن أبى العلاء قال: رأيت فى النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة الدنيا ،والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون إليها ،فجئت أنظر فتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها ، فقلت لها: ويلك من أنت ؟قالت: أما تعرفنى ؟ قلت لا، قالت أنا الدنيا ، قال : قلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم.

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنى إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال لى أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون ، فلما كانت بحذائى أقبلت على ، فقالت: لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر.

قال: وحدثنا محمد بن على: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل قال: بلغنى أن رجلاً عرج بروحه قال: فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلى والثياب، وإذا هى لا يمر بها أحد إلا جرحته. وإذا هى أدبرت كانت أحسن شىء رآه الناس. وإذا أقبلت أقبح شىء عجوز شمطاء زرقاء عمشاء. فقلت: أعوذ بالله. قالت: لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم. قال : قلت : من أنت ؟ قالت: أنا الدنيا.

ووصف على رضي الله عنه الدنيا فقال: دار من صح فيها هرم ،ومن سقم فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها فتن ، فى حلالها الحساب، وفى حرامها النار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له.

وذكر ابن أبى الدنيا : أن الحسن كتب إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد ،فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة ،فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغناء فيها فقرها ، لها فى كل حال قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كمداو جراحاته يحتمى قليلاً مخافة ما يكره طويلاً ، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء. فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وخيلت بآمالها، وشوقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة ،فالعيون إليها ناظرة ،والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ،وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقى بالماضى معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر ،والعارف بالله حين أخبره عنها مدكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر، وطغى ونسى المعاد، فشغل فيها

لبه حتى زلت عنها قدمه ، فعظمت ندامته ،وكبرت حسرته ،واجتمع عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت ونغصه، فذهب منها فى كمد ، ولم يدرك منها ما طلب ولم يرح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد،فاحذرها يا أمير المؤمنين،وأسر ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها. فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ،السار فيها غذاء ضار ،وقد وصل الرخاء منها بالبلاء. وجعل البقاء فيها إلى فناء،فسرورها مشوب بالحزن ، ما يرجع منها ما ولى فأدبر ،ولا يدرى ما هو آت فينتظر. أمانيها كاذبة ،وآمالها باطلة ،وصفوها كدر ،وعيشها نكد. فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم الغافل،فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ ، فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن ،وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها ،وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه،أو يرفع ما وضع مليكه ،فزواها عن الصالحين اختياراً ،وبسطها لأعدائه اغتراراً ،فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ماصنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضاً: ابن آدم ،لا تعلق قلبك فى الدنيا فتعلقه بشر معلق ،اقطع حبالها وغلق أبوابها ،حسبك يا بن آدم منها ما يبلغك المحل ،وكان يقول: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ،فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها. هيهات هيهات،ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد فى الأعناق.

وقال المسيح عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً ، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ،ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً. ما سكنت الدنيا فى قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفك عناؤه،وفقر لا يدرك غناؤه،وأمل لا يدرك منتهاه. والدنيا طالبة مطلوبة،فطالب الآخرة تطلبة الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه. يا معشر الحواريين، ارضوا بدنو الدنيا مع سلامة الدين ،كما رضى أهل الدنيا بدنو الدين مع سلامة الدنيا .

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار ،حدثنا جعفر ،حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها،تنادى ربها: يا رب ، لم تبغضنى ، فيقول : اسكتى يا لا شيء ، اسكتى يا لا شيء.

وقال الفضيل: تجيء الدنيا يوم القيامة فتتبختر فى زينتها ونضرتها. فتقول: يا رب ، اجعلنى لأحسن عبادك داراً،فيقول: لا أرضاك له،أنت لا شيء فكونى هباء منثوراً.

فصل
فى ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

المثال الأول : للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئاً وهى ما قبل أن يوجد ، وحالة أخرى وهى من ساعة موته إلى ما لا نهاية له فى البقاء السرمدى، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن، إما فى الجنة وإما فى النار ، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ويسكن إحدى الدارين فى خلود دائم ، ثم بين هاتين الحالتين ـ وهى ما بعد وجوده وما قبل موته ـ حالة متوسطة وهى أيام حياته ، فلينظر إلى مقدار زمانها وأنسبه إلى الحالتين ، يعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا ، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ، ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها ؛ فى ضر وضيق أو فى سعة ورفاهية ؛ ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وقال : « مالى وللدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها » (١). وقال: « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بما يرجع » (٢). وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها ، وهذا مثل صحيح ، فإن الحياة معبر إلى دار الآخرة ؛ والمهد هو الركن الأول للقنطرة ، واللحد هو الركن الثانى على آخرها ، ومن الناس من قطع نصف القنطرة كان فلا بد من العبور ، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور، فهو فى غاية الجهل والحمق.

المثال الثانى : شهوات الدنيا فى القلب كشهوات الأطعمة فى المعدة ، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت فى المعدة غايتها ، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعماً وأكثر دسماً وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر ، فكذلك كل شهوة كانت فى النفس ألذ وأقوى فالتأذى بها عند الموت أشد ، كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب.

وفى المسند أن النبى ﷺ قال للضحاك بن سفيان: « ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ، ثم تشرب عليه الماء واللبن » ، قال : بلى، قال: « فإلام يصير ؟ » ، قال : إلى ما قد علمت ، قال: « إن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » (٣).

كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢٢.
(٢) سبق تخريجه ص ١٢١.
(٣) سبق تخريجه ص ١٢٤.

المثال الثالث: لها ولأهلها فى اشتغالها بنعيمها عن الآخرة ،وما يعقبهم من الحسرات - مثل أهلها فى غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة ،فانتهت بهم إلى جزيرة،فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة ،وحذرهم الإبطاء ،وخوفهم مرور السفينة ، فتفرقوا فى نواحى الجزيرة ، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة ،فصادف المكان خالياً،فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده ،ووقف بعضهم فى الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ، ويسمع نغمات طيورها ،ويعجبه حسن أحجارها،ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها ،فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه ،وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فجعل منها حمله،فلما جاء لم يجد فى السفينة إلا مكاناً ضيقاً ، وزاده حمله ضيقاً ، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً ،ولم يقدر على نبذه ،بل لم يجد من حمله بداً ولم يجد له فى السفينة موضعاً ، فحمله على عنقه ،وندم على أخذه، فلم تنفعه الندامة؛ ثم ذبلت الأزهار ، وتغيرت رائحتها ،وآذاه نتنها. وتولغ بعضهم فى تلك الغياض، ونسى السفينة ،وأبعد فى نزهته ،حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه ، فهو تارة يتناول من الثمر ، وتارة يشم تلك الأزهار ،وتارة يعجب من حسن الأشجار،وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه،غير منفك من شوك يتشبث فى ثيابه ويدخل فى قدميه ،أو غصن يجرح بدنه،أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ، أوصوت هائل يفزعه ، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل. ومنهم من شاله لهو فافترسته السباع ونهشته الحيات. ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك. فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة،ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم. وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيماً قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه.

المثال الرابع: لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة. قال ابن أبى الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل ،حدثنا روح بن عبادة،حدثنا هشام بن حسان ،عن الحسن، قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقى،أنفدوا الزاد ،وحسروا الظهر، وبقوا بين ظهرانى المفازة ،لا زاد ولا حمولة ،فأيقنوا بالهلكة. فبينما هم كذلك،إذ خرج عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه ،فقالوا :إن هذا قريب عهد بريف ،وما جاءكم هذا إلا من قريب .فلما انتهى إليهم ، قال: يا هؤلاء علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ، ما تجعلون لى ؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال فأوردهم ماء ورياضاً خضراء. قال: فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء الرحيل، قالوا: إلى أين ؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم. قال: فقال جل القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش هو خير من هذا ؟

قال : وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم فى أول حديثه ؛ فوالله ليصدقنكم فى آخره. فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم ، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل »[١].

المثال الخامس : للدنيا وأهلها ، ما مثلها به النبى ﷺ كظل شجرة ،والمرء مسافر فيها إلى الله ،فاستظل فى ظل تلك الشجرة فى يوم صائف،ثم راح وتركها[٢]. فتأمل حسن هذا المثال،ومطابقته للواقع سواء؛فإنها فى خضرتها كشجرة ،وفى سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل،والعبد مسافر إلى ربه ،والمسافر إذا رأى شجرة فى يوم صائف لا يحسن به أن يبنى تحتها داراً ولا يتخذها قراراً ،بل يستظل بها بقدر الحاجة ،ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

المثال السادس : تمثيله لها ﷺ بمدخل أصبعه فى اليم[٣]،فالذى يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة. وهذا أيضاً من أحسن الأمثال؛فإن الدنيا منقطعة فانية ،ولو كانت مدتها أكثر مما هى ،والآخرة أبدية لا انقطاع لها،ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً ،وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفنى الخردل ، والآخرة لا تفنى. فنسبة الدنيا إلى الآخرة فى التمثيل ،كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل. ولهذا لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر،وأشجار الأرض كلها أقلام يكتب بها كلام الله،لنفدت الأبحر والأقلام ،ولم تنفد كلمات الله؛لأنها لا بداية لها،ولا نهاية لها ،والأبحر والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيره :لم يزل الله متكلماً إذا شاء ،وكماله المقدس مقتض لكلامه، وكماله من لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملاً،والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم. وهو ـ سبحانه ـ لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمة من الكلام. وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته ؛ فكلماته هى التى أوجد بها خلقه وأمره. وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلهيته. وهو لا يكون إلا رباً ملكاً إلها لا إله إلا هو . والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة ، وساعة من ساعاتها.

المثال السابع :ما مثلها به ﷺ فى الحديث المتفق على صحته من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه : قال: قال رسول الله ﷺ، فخطب الناس فقال:« لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ». فقال رجل: يا رسول الله ، أو يأتى الخير بالشر ؟ فصمت رسول الله ﷺ ، ثم قال: « كيف قلت ؟ » ، قال: يا رسول الله ، أو يأتى الخير

---

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا رقم (٨٨).

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٢.

(٣) سبق تخريجه ص ١٢١.

بالشر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الخير لا يأتى إلا بالخير ، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم ، إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها ، استقبلت الشمس فثلطت [١] وبالت ، ثم اجترت فعادت فأكلت. فمن أخذ مالاً بحقه بورك فيه ، ومن أخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع » [٢] . فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا ، وسماها زهرة فشبهها بالزهر فى طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه ، وأن وراءه ثمراً خيراً وأبقى منه.

وقوله: « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »، هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها ؛ وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع ، فتأكل منها بأعينها، فربما هلكت حبطاً. والحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، يقال: حبط الرجل - والدابة تحبط حبطاً إذا أصابه ذلك ، ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك فى سفره ، فمات حبطاً ، فنسب الحبطى كما يقال : السلمى. فكذلك الشرهة فى المال يقتله شرهه وحرصه. فإن لم يقتله قارب أن يقتله. وهو قوله: « أو يلم». وكثير من أرباب الأموال، إنما قتلتهم أموالهم ؛ فإنهم شرهوا فى جمعها واحتاج إليها غيرهم ، فلم يصلوا إليها بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: « إلا آكلة الخضر». هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته ، مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها: « أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها». وفى لفظ آخر: « امتدت خاصرتاها » ، وإنما تمتد من امتلائها من الطعام. وثنى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن.

وفى قوله: « استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت »، ثلاث فوائد:

إحداها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى ، تركته وبركت مستقبلة الشمس؛ لتستمرئ بذلك ما أكلته.

الثانية : أنها أعرضت عما يضرها من الشره فى المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس ، التى يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه.

الثالثة : أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى فى بطنها ، فاستراحت بإخراجه ، ولو بقى فيها لقتلها. فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث: « مثل الشره فى جمع الدنيا الحريص على تحصيلها»، فمثاله مثال للدابة التى حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطاً أو يلم إذا لم يقتلها ؛ فإن الشره الحريص إما

---

(١) ثلط البعير : إذا ألقى بعره رقيقًا .

(٢) البخارى (٦٤٢٧) فى الرقاق ، باب :ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ومسلم (١٠٥٢/١٢٢)فى الزكاة، باب :تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ، وأحمد (٣/ ٢١).

هالك وإما قريب من الهلاك. فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب ، فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها ، لما جاوزت حد الاحتمال ، فتنشق أمعاؤها وتهلك . كذلك الذى يجمع الدنيا من غير حلها ،ويحبسها أو يصرفها فى غير حقها.

وآخر الحديث: مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذى تنتفع الدابة بأكله ،ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله ، بل أكلت بقدر حاجتها .وهذا مثل الذى أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه.وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال فى حقه؛حيث يكون حبسه وإمساكه مضراً به،فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه،ونجا من وبال إمساكه باخراجه،كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

وفى هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره فى المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعاً.

وتضمن الخبر أيضاً إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته فى بدنه وقلبه ،وهو الإخراج منه وإنفاقه ،ولا يحبسه فيضره حبسه. وبالله التوفيق.

المثال الثامن: ما رواه عمرو بن شعيب ، عن أبيه ،عن سليمان بن يسار ، عن ميمونة، قالت: قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: « الدنيا خضرة حلوة ؛ فمن اتقى الله فيها وأصلح ،وإلا فهو كالآكل ولا يشبع.وبين الناس فى ذلك كبعد الكوكبين: أحدهما يطلع المشرق والآخر يغيب فى المغرب » (١) . فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها ، وبحلاوتها على استجلاء الصدور لها،وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلها وحببت إليهم ، لا سيما وهم مخلوقون منها وفيها،كما قيل:

ونحن بنو الدنيا ومنها نباتنا   وما أنت منه فهو شىء محبب

وجعل الناس فيها قسمين: أحدهما؛ مصلح متقٍ ، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها فى غير حقها ،فإن لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها ،فكان كالذى يأكل ولا يشبع.وهذا من أحسن الأمثلة؛فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة ،وذلك تابع لقدر الحاجة ،وليس المقصود منه ذاته ونفسه.فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم يشبع ؛ولهذا قال الإمام أحمد: الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى.وأخبر عن تفاوت الناس فى المنزلتين ـ أعنى منزلة التقوى والإصلاح،ومنزلة الأكل والشره ـ وأن بين الرجلين فى ذلك كما بين الكوكبين الغارب فى الأفق والطالع منه ،وبين ذلك منازل متفاوتة.

المثال التاسع: ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا

---

(١) كنز العمال (٦٢٠٠).

مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة. فقال رسول الله ﷺ: « أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها ؟ » قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: « فوالذى نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » (١). قال الترمذى: حديث حسن صحيح. فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة، بل جعلها أهون على الله منها.

وفى مسند الإمام أحمد فى هذا الحديث: « فوالذى نفسى بيده، الدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها » (٢)؛ فأكد ذلك بالقسم الصادق. فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها، فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة ؛ لأن تلك بما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففى غاية الهوان. والله المستعان.

المثال العاشر: مثلها مثل البحر، والذى لا بد للخلق كلهم من ركوبه ؛ ليقطعوه إلى الساحل الذى فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم، ولا يمكن قطعه إلا فى سفينة النجاة ؛ فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة، وتأمرهم بعملها وركوبها، وهى: طاعة رسله، وعبادته وحده، وإخلاص العمل له، والتشمير للآخرة وإرادتها، والسعى لها سعيها.

فنهض الموفقون وركبوا السفينة، ورغبوا عن خوض البحر ؛ لما علموا أنه لا يقطع خوضاً ولا سباحة. وأما الحمقاء فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها، وقالوا: نخوض البحر، فإذا عجزنا قطعناه سباحة، وهم أهل الدنيا فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا فى السباحة حتى أدركهم الغرق. ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام، وغرق أهل الأرض.

فتأمل هذا المثل، وحال أهل الدنيا فيها، يتبين لك مطابقته للواقع. وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر؛ فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

المثال الحادى عشر: مثالها مثال إناء مملوء عسلاً، رآه الذباب، فأقبل نحوه؛ فبعضه قعد على حافة الإناء، وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار؛ وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه فى لجة الإناء ووسطه، فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلاً حتى هلك فى وسطه.

المثال الثانى عشر: مثال حب قد نثر على وجه الأرض، وجعلت كل حبة فى فخ،

---

(١) الترمذى (٢٣٢١) فى الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل، وابن ماجه (٤١١١) فى الزهد، باب: مثل الدنيا.

(٢) أحمد (٤/ ٢٢٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٠): « رواه أبو يعلى والبزار، وفيه محمد بن مصعب وقد وثق على ضعفه، وبقية رجالهم رجال الصحيح ».

وجعل حول ذلك الحب ، حب ليس فى فخاخ،فجاءت الطير ، فمنها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه فى وسط الحب فأخذ حاجته ومضى ، ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب ، فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذه الفخ له.

المثال الثالث عشر : كمثل رجل أوقد ناراً عظيمة ، فجعلت الفراش والجنادب يرون ضوئها فيقصدونها ويتهافتون فيها ، ومن له علم بحالها جعل يستضىء ويستدفىء بها من بعيد. وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المثل بعينه فى الحديث الذى رواه مالك بن اسماعيل ، عن حفص بن حميد، عن عكرمة ،عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن عمر، عن النبى ﷺ قال : « إنى ممسك بحجزكم عن النار وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ويوشك أن أرسل بحجزكم». وفى لفظ آخر: « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله، جعلت للفراش والجنادب يتقاحمن فيها ،فأنا آخذ بحجزكم عن النار ،وأنتم تغلبونى وتقاحمون فيها » (١) ، وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها ،فالرسل تدعوهم إلى الآخرة ، وهم يتقاحمون فى الدنيا تقاحم الفراش.

المثال الرابع عشر:مثل قوم خرجوا فى سفر بأموالهم وأهليهم ، فمروا بواد مشعب كثير المياه والفواكه ، فنزلوا به وضربوا خيمهم ، وبنوا هنالك الدور والقصور ، فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته ، فقال:إنى رأيت بعينى هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهو قاصدكم ، فاتبعون أسلك لكم على غير طريق العدو فتنجوا منه.فأطاعته طائفة قليلة ، فصاح فيهم:يا قوم النجاة النجاة ، أتيتم أتيتم ،وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم ،فقالوا:كيف نرحل من هذا الوادى وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه ؟ فقال لهم الناصح:لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف عليه من متاعه ،وإلا فهو مأخوذ وماله مجتاح.فثقل على أصحاب المجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة ،وقال كل أحمق:لى أسوة بالقاعدين ، فهم أكثر منى مالاً وأهلاً ، فما أصابهم أصابنى معهم ، ونهض الأقلون مع الناصح، ففازوا بالنجاة، وصبح الجيش أهل الوادى فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المثل بعينه فى الحديث المتفق على صحته ، من حديث أبى بردة ، عن أبى موسى ، عن النبىﷺ قال:« إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال:يا قوم ،إنى رأيت الجيش بعينى،وأنا النذير العريان ؛ فالنجاة النجاة . فأطاعه طائفة من قومه ،فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا.وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم،فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم.فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت

---

(١) البخارى (٦٤٨٣) فى الرقاق ، باب:الانتهاء عن المعاصى ،ومسلم (٢٢٨٤/١٨) فى الفضائل ، باب:شفقته ﷺ على أمته ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم.

به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق »(١).

المثال الخامس عشر : رجل هيأ داراً وزينها ، ووضع فيها من جميع الآلات ، ودعا الناس إليها ؛ فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير ، وقدم إليه طبقاً من ذهب عليه لحم ، ووضع بين يديه أوان مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه ، وأخدمه عبيده ومماليكه ؛ فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده ، فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة منامه فى الدار ، ولم يعلق قلبه بها ، ولا حدث نفسه بتملكها ، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف ، يجلس حيث أجلسه ، ويأكل ما قدمه له ، ولا يسأل عما وراء ذلك ؛ اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه ، وما يفعله مع ضيوفه ؛ فدخل الدار كريماً وتمتع فيها كريما، وفارقها كريماً ، ورب الدار غير ذام له. وأما الأحمق ، فحدث نفسه بسكنى الدار، وحوز تلك الآلات إلى ملكه ، وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته ؛ فتخير المجلس لنفسه؛ وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان فى الدار يخبئها فيه ، وكلما قدم إليه ربها شيئاً أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، ورب الدار يشاهد ما يصنع، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره ، حتى إذا ظن أنه استبد بتلك الآلات ، وملك الدار، وتصرف فيها وفى آلاتها تصرف المالك الحقيقى ، واستوطنها واتخذها داراً له، أرسل إليه مالكها عبيده ، فأخرجوه منها إخراجاً عنيفاً ، وسلبوه كل ما هو فيه ، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء ، وحصل على مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل؛ فإنه مطابق للحقيقة . والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: كل أحد فى هذه الدنيا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وفى الصحيحين ، عن أنس بن مالك ﷺ ، قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه ، فجاء فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب، وقال: ثم تصنعت له أحسن ما كنت تصنع قبل ذلك فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب. قالت: يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت ، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب ؛ قال: تركتينى تلطخت ، ثم أخبرتينى بابنى. فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها ؛ فقال رسول الله ﷺ: « بارك الله لكما فى ليلتكما» (٢) . وذكر الحديث.

(١) البخارى (٦٤٨٢) فى الرقاق ، باب: الانتهاء عن المعاصى ، ومسلم (٢٢٨٣/١٦) فى الفضائل ، باب: شفقته ﷺ على أمته ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم.

(٢) مسلم (٢١٤٤/١٠٧) فى فضائل الصحابة ، باب: من فضائل أبى طلحة الأنصارى ﷺ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٣٨/١) إلا لمسلم.

المثال السادس عشر: قوم سلكوا مفازة ، ففاجأهم العطش ، فانتهوا إلى البحر ، وماؤه أمر شيء وأملحه ، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته ، فشربوا منه ، فلم يرووا ، وجعلوا كلما ازدادوا شرباً ازدادوا ظمأ ، حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشاً. وعلم عقلاؤهم أنه مر مالح ، وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمؤه ، فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضاً حلوة ، فحفروا فيها قليباً ، فنبع لهم ماء عذب فرات ، فشربوا وعجنوا وطبخوا ، ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر: هلموا إلى الماء الفرات. وكان منهم المستهزئ ، ومنهم المعرض الراضي بما هو فيه ، وكان المجيب واحداً بعد واحد. وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام ، فقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب البحر؛ كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

المثال السابع عشر: مثل الإنسان ومثل ماله وعمله وعشيرته ، مثل رجل له ثلاثة إخوة، فقضي له سفر بعيد طويل لابد له منه فدعا إخوته الثلاثة ، وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل ، وأحوج ما كنت إليكم الآن ، فقال أحدهم: أنا كنت أخاك إلى هذه الحال، ومن الآن فلست بأخ ولا صاحب ، وما عندى غير هذا. فقال له: لم تغن عنى شيئاً. فقال للآخر: ما عندك ؟ فقال: كنت أخاك وصاحبك إلى الآن ، وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك وتركب راحلتك ، ومن هنالك لست لك بصاحب. فقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك فى مسيرى. فقال: لا سبيل لك إلى ذلك. فقال: لم تغن عنى شيئاً ، فقال للثالث: ما عندك أنت ؟ فقال: كنت صاحبك فى صحتك ومرضك ، وأنا صاحبك الآن ، وصاحبك إذا ركبت راحلتك ، وصاحبك فى مسيرك ؛ فإن سرت ، سرتُ معك ، وإن نزلت نزلت معك، وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبداً ، فقال: إن كنت لأهون الأصحاب على، وكنت أوثر عليك صاحبيك ، فليتنى عرفت حقك وآثرتك عليهما.

فالأول ماله ، والثانى أقاربه وعشيرته وأصحابه، والثالث عمله. وقد روى فى هذا المثل بعينه حديث مرفوع ، لكنه لا يثبت. رواه أبو جعفر العقيلى فى كتاب « الضعفاء » من حديث ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة . . وعن ابن المسيب ، عن عائشة مرفوعاً. وهو مثل صحيح فى نفسه مطابق للواقع.

المثال الثامن عشر: وهو من أحسن الأمثلة؛ ملك بنى داراً ، لم ير الراؤون ، ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها ، ونصب لها طريقاً ، وبعث داعياً يدعو الناس إليها ، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة ، وألبست أنواع الحلى والحلل ، وممر الناس كلهم عليها ، وجعل لها أعواناً وخدماً تحت يدها ويد أعوانها زاداً للمارين السائرين إلى الملك فى تلك الطريق ، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك ، ولم يشتغل بك عنى ، وابتغى منك زاداً يوصله إلى ، فاخدميه وزوديه ، ولا تعوقيه عن سفره إلى ، بل أعينيه بكل ما يبلغه فى سفره ، ومن مد إليك عينيه ، ورضى

بك،وآثرك على ،وطلب وصالك؛فسوميه سوء العذاب ،وأوليه غاية الهوان،واستخدميه ، واجعليه يركض خلفك ركض الوحش . ومن يأكل منك ، فاخدعيه به قليلاً ، ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله ، وسلطى عليه أتباعك وعبيدك . وكلما بالغ فى محبتك وتعظيمك وإكرامك ، فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجراً ،حتى تتقطع نفسه عليك حسرات.

فتأمل هذا المثال ،وحال خطاب الدنيا ،وخطاب الآخرة ، والله المستعان.وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروى عن الله عز وجل :« يا دنيا اخدمى من خدمنى ،واستخدمى من خدمك».

المثال التاسع عشر :ملك خط مدينة فى أصلح المواضع،وأحسنها هواء ،وأكثرها مياهاً،وشق أنهارها ،وغرس أشجارها ،وقال لرعيته :تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها،فمن سبق إلى مكان فهو له ،ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤا مساكنهم فيها وبقى من أصحاب الحسرات.ونصب لهم ميدان السباق،وجعل على الميدان شجرة كبيرة ،لها ظل مديد ،وتحتها مياه جارية ،وفى الشجرة من كل أنواع الفواكه،وعليها طيور عجيبة الأصوات ،وقال لهم:لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها؛فعن قليل،تجتث من أصلها ،ويذهب ظلها،وينقطع ثمرها ،وتموت أطيارها.وأما مدينة الملك،فأكلها دائم ، وظلها مديد ،ونعيمها سرمدى ،وفيها ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر.فسمع الناس بها،فخرجوا فى طلبها على وجوههم،فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ ، فنزلوا كلهم تحتها ، واستظلوا بظلها،وذاقوا حلاوة ثمرها ، وسمعوا نغمات أطيارها ؛ فقيل لهم : إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم ، وتضمروا مراكبكم للسباق ،فتهيؤوا للركوب وكونوا على أهبة ، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق ، فقال الأكثرون : كيف ندع هذا الظل الظليل،والماءالسلسبيل، والفاكهة النضجة ، والدعة،والراحة ، ونقتحم هذه الحلبة فى الحر، والغبار ، والتعب ، والنصب ، والسفرالبعيد،والمفاوز المعطشة التى تنقطع فيها الأمعاء ؟ وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد ، ونترك ما نراه إلى ما لا نراه ؟ وذرة منقودة فى اليد أولى من ذرة موعودة بعد غد ،خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ،ونحن بنو اليوم،وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب فى بلد بعيد لا ندرى متى نصل إليه ؟ ونهض من كل ألف واحد ، وقالوا:والله ما مقامنا هذا فى ظل زائل ، تحت شجرة ، قد دنا قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها ،ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذى لا يزول ،والعيش الهنىء الذى لا ينقطع إلا من أعجز العجز ،وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه،ويتخذه وطنه ؛ خشية التأذى بالحر والبرد ؟وهل هذا إلا أسفه السفه ؟فالسباق السباق والبدار البدار.

حكم المنية فى البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

اقضوا مآربكم سراعاً إنما ... أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا ... أن تسترد فإنهن عوار
ودعوا الإقامة تحت ظل زائل ... أنتم على سفر بهذى الدار
من يرجو طيب العيش فيها إنما ... يبنى الرجاء على شفير هار
والعيش كل العيش بعد فراقها ... دار أهل السبق أكرم دار

فاقتحموا حلقة السباق ، ولم يستوحشوا من قلة الرفاق ، وساروا فى ظهور العزائم، ولم تأخذهم فى سيرهم لومة لائم. والمتخلف فى ظل الشجرة نائم. فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة ، وتساقطت أوراقها ، وانقطع ثمرها ، ويبست فروعها، وانقطع مشربها ؛ فقلعها قيمها من أصلها ، فأصبح أهلها فى حر السموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش فى ظلها يتحسرون. أحرقها قيمها فصارت هى وما حولها ناراً تلظى ،وأحاطت النار بمن تحتها ،فلم يستطع أحد منهم الخروج منها ،فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه ؟فقيل لهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم. فرأوهم من البعد فى قصور مدينة الملك وغرفها ، يتمتعون بأنواع اللذات ، فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم ،وزاد تضاعفها بأن حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون، وقيل هذا جزاء المتخلفين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل].

المثال العشرون :ما مثلها به النبى ﷺ من الثوب الذى شق وبقى معلقاً بخيط فى آخره، فما بقاء ذلك الخيط ؟ قال ابن أبى الدنيا: حدثنى الفضل بن جعفر ،حدثنا وهب بن حماد ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ،حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب ،عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ: « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره ، فبقى معلقاً بخيط فى آخره ،فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع » (١).

وإن أردت لهذا المثل زيادة إيضاح ،فانظر إلى ما رواه أحمد فى مسنده ،من حديث أبى نضرة ،عن أبى سعيد ،قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهاراً ،ثم قام فخطبنا، فلم يترك شيئاً قبل قيام الساعة إلا أخبر به ،حفظه من حفظه ،ونسيه من نسيه ،وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس: هل بقى منها شىء ؟ فقال: « ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » (٢).

وروى حفص بن غياث ، عن ليث ، عن المغيرة بن حكيم ، عن ابن عمر ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف، فقال: « ما بقى من الدنيا

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا رقم (٢٢١).
(٢) الترمذى (٢١٩١) فى الفتن ، باب :ما أخبر النبى ﷺ وأصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ،وأحمد (١٩/٣).

إلا مثل ما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه »(١).

وروى ابن أبى الدنيا ، عن إبراهيم بن سعد ، حدثنا موسى بن خلف ، عن قتادة ، عن أنس :أن رسول الله ﷺ خطب عند مغرب الشمس ، فقال:« ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه »(٢).

فالدنيا كلها كيوم واحد ، بعث رسول الله ﷺ فى آخره قبل غروب شمسه بيسير.

وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما ، عنه ﷺ :« بعثت أنا والساعة كهاتين » ،وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى (٣).

وكان بعض السلف يقول : تصبروا ؛ فإنما هى أيام قلائل ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ،وإنه قد نعيت إليكم أنفسكم ،والموت حبس لابد منه ،والله بالمرصاد ،وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة (٤).

المثال الحادى والعشرون :مثال الدنيا كحوض كبير ملىء ماء ،وجعل مورداً للأنام والأنعام ،فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد ، حتى لم يبق منه إلا كدر فى أسفله ،قد بالت فيه الدواب ،وخاضته الناس والأنعام. كما روى مسلم فى صحيحه عن عتبة بن غزوان :أنه خطبهم فقال فى خطبته:إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء،ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم.وقال عبد الله بن مسعود : إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً ، فما بقى منها إلا قليل من قليل . ومثل ما بقى منها : كالثغب شرب صفوه وبقى كدره . الثغب:الغدير.

المثال الثانى والعشرون :قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان ،فكثرت فيها الأحداث والآفات ،وطرقها المحن ،وأغارت عليها عساكر الجور والفساد ؛ فبنى ملكهم مدينة فى محل لا يطرقه آفة ولا عائقة ،وعزم على تخريب المدينة الأولى،فأرسل إلى سكانها فنودى فيهم بالرحيل بعد ثلاث ،ولا يتخلف منهم أحد،وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير ما فى تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة،وما خف حمله من المتاع وعظم قدره وصلح للملوك ،وأرسل إليهم الأدلاء وآلات النقل ،ونهج لهم

---

(١) أحمد (٢/ ١٣٣) ،وقال الشيخ أحمد شاكر (٦١٧٣):« إسناده صحيح ».

(٢) ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا رقم (٢٢٠).

(٣) البخارى (٦٥٠٥) فى الرقاق ، باب :قول النبى ﷺ :« بعثت أنا والساعة كهاتين » ،ومسلم (٢٨٦٧/ ٤٣) فى الجمعة ،باب:تخفيف الصلاة والخطبة.

(٤) ابن ماجه (٤١٠٢) فى الزهد ، باب:الزهد فى الدنيا ،وفى الزوائد:« فى إسناده خالد بن عمرو ،وهو ضعيف متفق على ضعفه ».

الطريق ،ونصب لهم الأعلام ،وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم فى أثر بعض،فانقسموا فرقاً ،فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم فى تلك المدينة ،وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة الملك ،وإلا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه ،فرأوا غبناً أن يقطعوا تلك المدة فى جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل ،فسألوا عن خير ما فى المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه فى مدينته ،فلما عرفوه لم يلتفتوا إلى ما دونه ، ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحلى إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها. فكان همهم فى تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل فى رأى الآخرين.

وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة،وتنافسوا فى كثرتها ،وهم على مراتب؛ فمنهم من أحماله أثمان ،ومنهم من أحماله دون ذلك ،على قدر هممهم وما يليق بهم ،لكن هممهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة.

وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور فى تلك المدينة والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها ،وحاربوا العازمين على النقلة ،وقالوا: لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئاً ،فإن شاركتمونا فى عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها ،وإلا لم نمكنكم من النقلة ،ولا من شيء من المتاع .فوقعت الحرب بينهم،فقاتلوا السائرين ،فعمدوا إلى أكل أموالهم وأهليهم وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك وإجابة داعيه ،والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها ،وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة ،وقالوا: لا نتعب أنفسنا فى عمارتها ولا ننقل منها ،ولا نعارض من أراد النقلة ،ولا نحاربهم ،ولا نعاونهم. وكان للملك فيها قصر فيه حريم له ،وقد أحاط عليه سوراً ،وأقام عليه حرساً ،ومنع أهل المدينة من قربانه ،وطاف به القاعدون ،فلم يجدوا فيه باباً يدخلون منه ،فغدوا على جدرانه فنقبوها ، ووصلوا إلى حريمه ،فأفسدوهم ، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه ، ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم.

فبينما هم على تلك الحال ،وإذا بالنفير قد صاح فيهم كلهم،فلم يمكن أحد منهم من التخلف ،فحملوا على تلك الحال ،وأحضروا بين يدى الملك ،فاستعرضهم واحداً واحداً،وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه،فقبل منها ما يصلح له،وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته وأنزلهم منازلهم من قربه ،ورد منها ما لا يصلح له،وضرب به وجوه أصحابه ،وقابل من نقب حماه وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون ؛ فسألوا الرجعة إلى المدينة ؛ ليعمروا قصره ، ويحفظوا حريمه ،ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار ،فقال: هيهات قد خربت المدينة خراباً لا تعمر بعده أبداً ،وليس بعدها إلا المدينة التى لا تخرب أبداً.

وقد مثلت الدنيا بمنام ، والعيش فيها بالحلم ، والموت باليقظة . ومثلت بمزرعة،

والعمل فيها بالبذور ،والحصاد يوم المعاد.ومثلت بدار ،لها بابان:باب يدخل منه الناس ، وباب يخرجون منه.ومثلت بحية ناعمة الملمس ، حسنة اللون ، وضربتها الموت.ومثلت بطعام مسموم،لذيذ الطعم ،طيب الرائحة ،من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه.ومثلت بالطعام فى المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها ، فحبسه قاتل أو مؤذ ، ولا راحة لصاحبه إلا فى خروجه كما أشار إليه النبى ﷺ فى آكلة الخضر.ومثلت بامرأة من أقبح النساء ، قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس . وهى تدعو الناس إلى منزلها ، فإذا أجابوها ، كشفت لهم عن منظرها ، وذبحتهم بسكاكينها ، وألقتهم فى الحفر ، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديماً وحدثناً.والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات ،وهم ينافسون فى وحديثا: ﴿ **وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ** (٤٥) ﴾ [إبراهيم] . ويكفى فى تمثيلها ما مثلها الله ـ سبحانه ـ فى كتابه ، فهو المثل المنطبق عليها.

قالوا :وإذا كان هذا شأنها ،فالتقلل منها ،والزهد فيها ،خير من الاستكثار منها والرغبة فيها.

قالوا :ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة فى الله والدار الآخرة أبداً.ولا تسكن هاتان الرغبتان فى مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن ،ولا تجتمع ابنة رسول الله ﷺ وابنة عدو الله عند رجل واحد أبداً.

قالوا :ويكفى أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها ،ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ،ولم تنقصه مما له عند الله شيئاً ،فاختار جوع يوم وشبع يوم ،ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله.

قالوا :وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ أربعة أقسام : قسم : لم يريدوا الدنيا ولم تردهم ، كالصديق ومن سلك سبيله .وقسم:أرادتهم الدنيا ولم يردوها ، كعمر بن الخطاب ومن سلك سبيله.وقسم : أرادوا الدنيا وأرادتهم ،كخلفاء بنى أمية ومن سلك سبيلهم،حاشا عمر بن عبدالعزيز فإنها أرادته ولم يردها.وقسم :أرادوها ولم تردهم ، كمن أفقر الله منها يده ،وأسكنها فى قلبه وامتحنه بجمعها.ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول.والثانى إنما فضل لأنه لم يردها ؛ فالتحق بالأول.

قالوا :قد سأل رجل رسول الله ﷺ أن يدله على عمل إذا فعله أحبه الله وأحبه الناس ، فقال له:« ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس[1] ». ،فلو كان الغنى لدله عليه.

---

(١) ابن ماجه (٤١٠٢) فى الزهد ، باب : الزهد فى الدنيا ، وفى الزوائد « فى إسناده خالد بن عمرو ، وهو ضعيف متفق اعلى ضضعفه »

قالوا : وقد شرع الله ـ سبحانه ـ قتال الكفار ، وشرع الكف عن الرهبان لا عتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها ، فمضت السنة بألا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية. هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه ! فعلم أن الزهد فيها عند الله بمكان.

قالوا : وكذلك استقرت حكمته فى شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد ، فهذا الزانى المحصن عقوبته الرجم ، وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب . وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد .

قالوا : وكيف يستوى عند الله ـ سبحانه ـ ذلة الفقر وكسرته ، وخضوعه وتجرع مرارته، وتحمل أعبائه ومشاقه ، وعزة الغنى ولذته، وصولته ، والمتمتع بلذاته، ومباشرة حلاوته؟! فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى. وأين أجر مشقة المجاهدين ، إلى أجر عباده القاعدين فى الأمن والدعة والراحة ؟

قالوا : وكيف يستوى أمران: أحدهما: حفت به الجنة ، والثانى: حفت به النار؟ فإن أصل الشهوات من قبل المال ، وأصل المكاره من قبل الفقر.

قالوا : والفقير لا ينفك فى خصاصة من مضض الفقر والجوع والعرى والحاجة وآلام الفقر، وكل واحد منها يكفر ما يقارفه من السيئات. وذلك زيادة على أجره بأعمال البر؛ فقد شارك الأغنياء بأعمال البر ، وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته. وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدى ، فله سبيل إلى لحاقهم فيه ، وله مثل أجورهم ، وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتى مثل ما أوتوه. لفعل كما يفعلون ، فيقول: لو أن لى مالاً لعملت بأعمالهم، فهو بنيته ، وأجرهما سواء ، كما أخبر به الصادق المصدوق فى الحديث الصحيح، الذى رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى [(١)].

قالوا : والفقير فى الدنيا بمنزلة المسجون ؛ إذ هو ممنوع عن الوصول إلى شهواته وملاذها. والغنى متخلص من هذا السجن. وقد قال النبى ﷺ: « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر » [(٢)]، فالغنى إن لم يسجن نفسه عن دواعى الغنى وطغيانه ، وأرسلها فى ميادين شهواتها، كانت الدنيا جنة له ، فإنما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذى هو فى سجن فقره.

قالوا : وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته فى الحياة الدنيا ، وإنه لحرى أن يكون عوضاً عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ولابد ، كما تقدم بيانه ، بخلاف من استكمل طيباته

---

(١) الترمذى (٢٣٢٥) فى الزهد ، باب: مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، وقال: « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٤٢٢٨) فى الزهد ، باب: النية ، وأحمد (٤/ ٢٣٠).

(٢) مسلم (٢٩٥٦/ ١) فى أول الزهد والرقائق ، والترمذى (٢٣٢٤) فى الزهد ، باب: ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، وقال: « حسن صحيح »، وابن ماجه (٤١١٣) فى الزهد ، باب: مثل الدنيا ، وأحمد (٢/ ٣٢٣).

في الآخرة لما منع منها في الدنيا ،وأتى رسول الله ﷺ بسويق لوز ،فأبى أن يشربه، وقال:« هذا شراب المترفين » (١).

قالوا :وقد سئل الحسن البصرى ،فقيل له:رجلان أحدهما تارك للدنيا ،والآخر يكتسبها ويتصدق بها ؟فقال:التارك لها أحب إلى.

قالوا :وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة:عن رجلين مر أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها ،ومر بها الآخر فأخذها وتصدق بها. فقال:الذى لم يلتفت إليها أفضل. ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها ،ولو أخذها لأنفقها فى سبيل الله.

قالوا :والفقير الفقيه فى فقره يمكنه لحاق الغنى فى جميع ما ناله بغناه ، بنيته وقوله ، فيساويه فى أجره ، ويتميز عنه بعدم الحساب بعدم المال ؛ فساواه بثوابه ، وتخلص من حسابه ، كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام ، وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته.

قال الإمام أحمد:حدثنا عبادة بن مسلم ،حدثنى يونس بن خباب ،عن أبى البحترى الطائى ،عن أبى كبشة،قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول:« ثلاث أقسم عليهن ،وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ؛فأما الثلاث التى أقسم عليهن:فإنه ما نقص مال عبد من صدقة ،ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل بها عزاً ،ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر. وأما الذى أحدثكم حديثاً فاحفظوه ـ كأنه قال :إنما الدنيا لأربعة نفر؛عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقى فيه ربه ،ويصل فيه رحمه ،ويعلم فيه لله حقاً ،فهذا بأفضل المنازل عند الله ؛وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ،فهو يقول:لو كان لى مال عملت فيه بعمل فلان. قال:فأجرهما سواء؛وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ،فهو يتخبط فى ماله بغير علم،لا يتقى فيه ربه ،ولا يصل فيه رحمه ،ولا يعلم لله فيه حقاً،فهذا بأخبث المنازل عند الله ؛وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ،فهو يقول:لو كان لى مال لفعلت بفعل فلان،قال:فهو بنيته ووزرهما سواء » (٢). فلما فضل الغنى بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته. والغنى هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل ،والفقير إنما نقص بسوء نيته. فلم ينفع الغنى غناه مع التخلف ،ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية ،ولا نفعه فقره مع سوء نيته.

قالوا : ففى هذا بيان كاف شاف فى المسألة ،حاكم بين الفريقين ،وبالله التوفيق.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢/ ٥٥).

(٢) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

فصل
فى ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء : لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الأدلة ورجلها ،ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها ،ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار ،وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوى اليسار ،ونحن نحاكمكم إلى ما حاكمتمونا إليه ،ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه ،ونضع أدلتنا وأدلتكم فى ميزان الشرع والعقل الذى لا يعزل،فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول ،ولكن أخرجوا من بيننا من تشبه بالفقراء الصادقين الصابرين ،ولبس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحهم عليها ، وأبعدهم من الفقر والصبر،من كل مظهر للفقر مبطن للحرص،غافل عن ربه ،متبع لهواه، مفرط فى أمر معاده ،قد جعل زى الفقر صناعة ،وتحل بما هو أبعد الناس منه بضاعة ،أو فقير حاجة فقره اضطراراً لا اختياراً ،فزهده زهد إفلاس لا زهد رغبة فى الله والدار الآخرة، أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله ،غير راض عن ربه فى فقره بل إن أعطى رضى ، وإن منع سخط ، شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها ،وهو أفقر الناس فيها،فهو أرغب شىء فيها ،وهى أزهد شىء فيه . وأخرجوا من بيننا ذا الثروة الجموع المنوع ، المتكاثر بماله المستأثر به ، الذى عض عليه بناجذه ؛ وثنى عليه خاصره ، يفرح بزيادته ، ويأسى على نقصانه. فقلبه به مشغوف ، وهو على تحصيله ملهوف ، إن عرض سوق الإنفاق والبذل أعطى قليلاً وأكدى ، وإن دعى إلى الإيثار أمعن فى الحرب جداً ، وأخلصونا وإخواننا من سباق الطائفتين ، وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم ، ونافسوا فى القرب منه بأعمالهم وأموالهم ، فقلوبهم عاكفة عليه ، وهمتهم إلى المسابقة إليه. ينظر غنيهم إلى فقيرهم ،فإذا رآه قد سبقه إلى عمل صالح شمر إلى اللحاق به،وينظر فقيرهم إلى غنيهم فإذا رآه قد فاقه بإنفاق فى طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه. فهؤلاء إخواننا الذين تكلم الناس فى التفضيل بينهم وأيهم أعلى درجة ،وأما أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر فى العذاب وأسفل منه. . .والله المستعان.

إذا عرف هذا ،فقد مدح الله ـ سبحانه ـ فى كتابه أعمالاً ،وأثنى على أصحابها ،ولا تحصل إلا بالغنى: كالزكاة ،والإنفاق فى وجوه البر ،والجهاد فى سبيل الله بالمال ،وتجهيز الغزاة ،وإغاثة المحاويج ،وفك الرقاب ،والإطعام فى زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغنى ونصره على فقره ومخمصته ؟وأين يقع صبره من نفع الغنى بماله فى نصرة دين الله وإعلاء

كلمته وكسر أعدائه ؟

وأين يقع صبر أبى ذر على فقره ،إلى شكر الصديق ربه ،وشرائه المعذبين فى الله وأعناقهم ،وإنفاقه على نصره الإسلام ،حين قال النبى ﷺ :« ما نفعنى مال أحد ما نفعنى مال أبى بكر »[(١)] .

وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة ،التى قال له رسول الله ﷺ فى بعضها:« ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم »[(٢)]،ثم قال:« غفر الله لك يا عثمان ، ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت »[(٣)] أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن ،وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين. وقد شهد رسول الله ﷺ بأن اليد العليا خير من اليد السفلى ،وفسر اليد العليا بالمعطية ،والسفلى بالسائلة[(٤)]. وقد عدد الله ـ سبحانه ـ على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فقره ،وكان غناه هو الحالة التى نقله إليها ،وفقره الحاله التى نقله منها. وهو سبحانه كان ينقله من الشىء إلى ما هو خير منه. وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى]، أن المراد به الحالتان: أى كل حالة خير لك مما قبلها ،ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى] فهذا يدخل فيه عطاؤه فى الدنيا والآخرة.

قالوا :والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾ [البقرة].

قالوا :والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين ؛لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان عليهم ،وإعانتهم على طاعاتهم ، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء ، زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التى تخصهم ،كما فى صحيح ابن خزيمة ، من رواية سلمان الفارسى رضي الله عنه، عن النبى ﷺ ،وذكر شهر رمضان، فقال:« من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار. وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء »[(٥)]. فقد حاز الغنى الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذى فطره.

---

(١) ابن ماجه (٩٤) فى المقدمة ، باب :فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، .وقال فى الزوائد :« إسناده إلى أبى هريرة فيه مقال. . .»، وأحمد (٢/ ٢٥٣).

(٢) الترمذى (٣٧٠١) فى المناقب ، باب :فى مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقال:« حسن غريب من هذا الوجه » ، وأحمد (٥/ ٦٣).

(٣) كنز العمال (٣٢٨٤٧).

(٤) البخارى (٢٧٥٠) فى الوصايا ، باب : تأويل قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ ، ومسلم (١٠٣٥/٩٦) فى الزكاة ، باب :بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح.

(٥) صحيح ابن خزيمة (١٨٨٧) فى الصيام ، باب :فضائل شهر رمضان إن صح الخبر.

قالوا : ولو لم يكن للغنى الشاكر إلا فضل الصدقة التى لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن ، كما ذكر النضر بن شميل ،عن قرة ، عن سعيد بن المسيب : أنه حدث عن عمر بن الخطاب ؛ قال : ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى ، فتقول الصدقة : أنا أفضلكم.

قالوا : والصدقة وقاية بين العبد وبين النار ؛ والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة فى ظل العرش.

وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الصدقة لتطفئ على أهلها حر القبور ، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته » [١] .

وقال يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن عقبة يرفعه : كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس. قال: يزيد وكان أبو الخير لا يأتى عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة.

وفى حديث معاذ عن النبى ﷺ : « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» [٢].

وروى البيهقى ، من حديث أبى يوسف القاضى ، عن المختار بن فلفل ، عن أنس يرفعه : « باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة » [٣].

وفى الصحيحين ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، قال : « إذا تصدق العبد من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ أخذها الله بيمينه فيربيها لأحدهم ، كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله ، حتى تكون مثل الجبل العظيم » [٤]. وفى لفظ للبيهقى فى هذا الحديث : «حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد » [٥].

وقال محمد بن المنكدر : من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان. وقد روى مرفوعاً من غير وجه.

وإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد غفر لمن سقى كلباً على شدة ظمئه ، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع ، وكسى العراة من المسلمين ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار

---

(١) كنز العمال (١٥٩٩٦) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ١١٣) وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه كلام ».

(٢) الترمذى (٢٦١٦) فى الإيمان ، باب : ما جاء فى حرمة الصلاة ، وقال : « حسن صحيح »، وابن ماجه (٣٩٧٣) فى الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة ، وأحمد (٥/ ٢٤٨).

(٣) البيهقى فى السنن الكبرى (٤/ ١٨٩).

(٤) البخارى (٧٤٣٠) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : ٤] ، ومسلم (١٠١٤/ ٦٣) فى الزكاة ، باب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(٥) البيهقى فى السنن الكبرى (٤/ ١٩٠ ، ١٩١).

ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة »[١]. فجعل الكلم الطيب عوضاً عن الصدقة لمن لا يقدر عليها.

قالوا : وأين لذة الصدقة والإحسان ، وتفريحهما القلب ، وتقويتهما إياه ، وما يلقى الله ـ سبحانه ـ للمتصدقين من المحبة والتعظيم فى قلوب عباده ، والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم ، من أجر الصبر على الفقر؟نعم إن له لأجراً عظيماً ، لكن الأجر درجات عند الله .

قالوا : وأيضاً ، فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى ، وأحب عباده إليه من اتصف بذلك ، كما قال النبى ﷺ : « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله»[٢].

قالوا : وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ أصناف السعداء ، فبدأ بالمتصدقين أولهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد]، فهؤلاء أصناف السعداء ، ومقدموهم المصدقين والمصدقات.

قالوا : وفى الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله ؛ فمنها أنها تتقى مصارع السوء، وتدفع البلاء ، حتى أنها لتدفع عن الظالم. قال إبراهيم النخعى: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم ، وتطفىء الخطيئة ، وتحفظ المال ، وتجلب الرزق ، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به ، كما أن البخل يوجب سوء الظن بالله، وترغم الشيطان ـ يعنى الصدقة ـ وتزكى النفس وتنميها ، وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه ، وتستر عليه كل عيب ، كما أن البخل يغطى عليه كل حسنة ، وتزيد فى العمر ، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم ، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر ، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة ، وتشفع له عند الله ، وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة ، وتدعو إلى سائر أعمال البر فلا تستعصى عليه. . وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك.

قالوا : ولو لم يكن فى النفع والإحسان إلا أنه صفة الله ، وهو ـ سبحانه ـ يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها ؛ فيحب العليم والجواد والحى والستير ، والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ، ويحب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم؛

---

(١) البخارى (٦٠٢٣) فى الأدب ، باب : طيب الكلام ، ومسلم (١٠١٦/ ٦٨) فى الزكاة ، باب : الحث على الصدقة ولو بشعه تمرة أو كلمة طيبة ، وأنها حجاب من النار.

(٢) أبو يعلى (٣٣١٥) ، والبزار (١٩٤٩) باب : قضاء الحوائج ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٩٤): « رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف بن عطية الصغار وهو متروك.

فصفته الغنى والجود ،ويحب الغنى الجواد.

قالوا : ويكفى فى فضل النفع المتعدى بالمال : أن الجزاء عليه من جنس العمل ، فمن كسى مؤمناً كساه الله من حلل الجنة ،ومن أشبع جائعاً أشبعه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى ظمآناً سقاه الله من شراب الجنة ،ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه ،ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ،والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه.

قالوا :ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر ،ولكن أين تقع من هذه الفضائل ،وقد جعل الله لكل شىء قدراً.

قالوا :وقد جعل رسول الله ﷺ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر [١] ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجة أخرى؛فإن الشكر يتضاعف إلى ما لا نهاية له ؛ بخلاف الصبر فإن له حداً يقف عليه.وهذا دليل مستقل فى المسألة ،يوضحه:أن الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أعلى من الصابر.فإذا كان الشاكر أفضل من الراضى،الذى هو أفضل من الصابر ،كان أفضل من الصابر فى درجتين.

قالوا :وفى الصحيحين ،من حديث الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه وقال:قال رسول الله ﷺ:« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار» [٢].فجعل الغنى مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به.

قالوا :وقد صرح فى حديث أبى كبشة الأنمارى:أن صاحب المال إذا عمل فى ماله بعمله ،واتقى فيه ربه ،ووصل به رحمه ،وأخرج منه حق الله فهو فى أعلى المنازل عند الله . وهذا تصريح فى تفضيله . وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعمل بعمله ،وقال ذلك بلسانه ثانياً ،وإنه بنيته وقوله ،وأجرهما سواء.فإن كلا منهما نوى خيراً وعمل ما يقدر عليه ، فالغنى نواه ونفذه بعمله ،والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه ، فاستويا فى الأجر من هذه الجهة ،ولا يلزم من استوائهما فى أصل الأجر استواؤهما فى كيفيته وتفاصيله ؛ فإن الأجر على العمل والنية له مزية على الأجر على مجرد النية التى قارنها القول.ومن نوى الحج ،ولم يكن له مال يحج به ،وإن أثيب على ذلك،فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه.

---

(١) الفتح (٩/ ٥٨٢) معلقا ،والترمذى (٢٤٨٦) فى صفة القيامة ،باب :(٤٣) ،وقال:« حسن غريب ».

(٢) البخارى (٧٥٢٩) فى التوحيد ، باب:قول النبى (ﷺ) رجل آتاه الله القرآن. . .إلخ »،ومسلم (٨١٥/ ٢٦٦) فى صلاة المسافرين ،باب :فضل من يقوم بالقرآن. . .إلخ.

وإذا أردت فهم هذا ، فتأمل قول النبى ﷺ : « من سأل الله الشهادة صادقاً من قلبه بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » (١). ولا ريب أن ما حصل للمقتول فى سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على ما حصل لناوى ذلك إذا مات على فراشه وإن بلغ منزلة الشهيد. فههنا أجران : أجر وقرب ، فإن استويا فى أصل الأجر، لكن الأعمال التى قام بها العامل تقتضى أثراً زائداً وقرباً خاصاً ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد قال ﷺ: « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال: « إنه أراد قتل صاحبه » (٢). فاستويا فى دخول النار ، ولا يلزم استواؤهما فى الدرجة ومقدار العذاب ؛ فاعط ألفاظ رسول الله ﷺ حقها ونزلها منازلها يتبين لك المراد.

يوضح هذا: أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ؛ يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون. قال: « أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ »، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: « تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٣). فلو كانوا يلحقون بهم فى مقدار الأمر بمجرد النية لقال لهم: انووا أن تفعلوا مثل فعلهم فتنالوا مثل أجرهم ، فلما أعاضهم عما فاتهم من ثواب الصدقة والعتق والحج والاعتمار بما يحصل نظيره بالذكر ، علم أن الأغنياء قد فضلوهم بالإنفاق ، فلما شاركوهم فى الذكر بقيت مزية الإنفاق ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ أن الامتياز لم يزل ، وأنهم قد ساوونا فى الذكر كما ساوونا فى الصوم والصلاة ؛ فأخبرهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فلو كان لهم سبيل إلى مساواتهم من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها.

قالت الفقراء: هذا الحديث حجة لنا إذا فهم على الحقيقة ؛ وذلك أن معناه أنهم وإن كانوا قد ساووكم فى الإيمان والإسلام والصلاة والصيام ، ثم فضلوكم فى الإنفاق ، ففى التكبير والتسبيح والتهليل ما يلحقكم بدرجتهم ، وقد ساويتموهم أيضاً بحسن النية ؛ إذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم. وفى بعض ألفاظ هذا الحديث: « إن أخذتم به سبقتم من قبلكم ولم

---

(١) أبو داود (٢٥٤١) فى الجهاد ، باب: فيمن سأل الله تعالى الشهادة ، وابن ماجه (٢٧٩٧) فى الجهاد ، باب : القتال فى سبيل الله سبحانه وتعالى.

(٢) البخارى (٣١) فى الإيمان ، باب : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ [الحجرات: ٩] ، ومسلم (٢٨٨٨/ ١٤) فى الفتن وأشرط الساعة ، باب: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما.

(٣) سبق تخريجه ص (٤٢٠).

يلحقكم من بعدكم ». وهذا يدل على أن الأغنياء لا يلحقونهم ، وإن قالوا مثل قولهم، وقوله ﷺ: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» ، معناه أن فضل الله ليس مقصوراً عليكم دونهم ، فكما آتاكم الله من فضله بالذكر ، كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم أيضاً؛ فأنتم فهمتم من الفضل التخصيص ، فوضعتموه فى غير موضعه. وإنما معناه العموم والشمول ، وأن فضله عام شامل للأغنياء والفقراء ، فلا تذهبون به دونهم؛ فأين فى هذا الحديث التفضيل لكم علينا ؟

قالوا : ويحتمل قوله : « ذلك فضل الله » ثلاثة أمور: **أحدها**: سبقهم لكم بالإنفاق ، **والثانى**: مساواتكم لهم فى فضيلة الذكر فلم تختصوا به دونهم ، **والثالث**: سبقكم لهم إلى الجنة بنصف يوم. وهذا وإن كان لا ذكر له فى هذه الرواية فهو مذكور فى بعض طرقه. قال البزار فى مسنده: حدثنا الوليد بن عمر ، حدثنا محمد بن الزبزقان، حدثنا موسى ابن عبيدة، عن عبدالله بن دينار ، عن ابن عمر ، قال: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل به أغنياؤهم ، فقالوا : يا رسول الله، إخواننا صدقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا، وصاموا صيامنا ، ولهم أموال يتصدقون منها ، ويصلون منها الرحم ، وينفقونها فى سبيل الله ، ونحن مساكين لا نقدر على ذلك ، فقال: « ألا أخبركم بشىء إذا أنتم فعلتموه أدركتم مثل فضلهم؟ قولوا الله أكبر فى دبر كل صلاة إحدى عشرة مرة ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، وسبحان الله مثل ذلك، تدركون مثل فضلهم»، ففعلوا، فذكروا ذلك للأغنياء ، ففعلوا مثل ذلك، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقالوا: هؤلاء إخواننا فعلوا مثل ما نقول ، فقال: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. . . يا معشر الفقراء ، ألا أبشركم أن الفقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام » . وتلا موسى بن عبيدة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج] .

قالوا : فهذا خبر واحد ، وكلام متصل ، ذكره بشارة لهم عندما ذكروا مساواة الأغنياء لهم فى القول المذكور ، فأشبه أن يرجع الفضل إلى سبق الفقراء للأغنياء ، وأنهم بهذه البشارة مخصصون ؛ فكان السبق لهم دون غيرهم ، وإن ساووهم فى القول ، وساووهم فى الإنفاق بالنية ، كما فى حديث أبى كبشة المتقدم ، وحصلت لهم مزية الفقراء.

قالت الأغنياء : لقد بالغتم فى صرف الحديث عن مقصوده إلى جهتكم ، وهو صريح فى تفضيل هذا الحديث لمن أنصف ؛ فإن قوله: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» خرج جواباً للفقراء عن قولهم: إن أهل الدثور قد ساووهم فى الذكر كما ساووهم فى الصلاة والصوم والإيمان ، وبقيت مزية الإنفاق ، ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها ، وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه ، فقال لهم حينئذ: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ». وهذا صريح جداً فى مقصوده ، فلما انكسر القوم لتحقيق السبق بالإنفاق الذى عجزوا عنه ، أخبرهم بالبشارة

بالسبق إلى دخول الجنة بنصف يوم ،وأن هذا السبق فى مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والإنفاق. ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم فى المنزلة والدرجة ؛فهؤلاء السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ـ من الموقوفين للحساب ـ من هو أفضل منه أكثرهم وأعلى من درجة.

قالوا :وقد سمى ـ سبحانه ـ المال خيراً فى غير موضع من كتابه ،كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]،وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧﴾ [العاديات]. وأخبر رسول الله ﷺ أن الخير لا يأتى إلا بالخير ـ كما تقدم ـ وإنما يأتى بالشر معصية الله فى الخير لا نفسه .وأعلم الله ـ سبحانه ـ أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها ،ونهى أن يأتى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم ،ومدحه النبى ﷺ بقوله: « نعم المال الصالح مع المرء الصالح» (١).

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ،يكف به وجهه عن الناس ،ويصل به رحمه ،ويعطى حقه. وقال أبو إسحاق السبيعى: كانوا يرون السعة عوناً على الدين. وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى ،وقال سفيان الثورى: المال فى زماننا هذا سلاح المؤمن. وقال يوسف بن سباط: ما كان المال فى زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه فى هذا الزمان ،والخير كالخيل ،لرجل أجر،ولرجل ستر ،وعلى رجل وزر.

قالوا : وقد جعل الله ـ سبحانه ـ المال سبباً لحفظ البدن ، وحفظه سبب لحفظ النفس، التى هى محل معرفة الله والإيمان به ،وتصدق رسله ومحبته والإنابة إليه ،فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة. وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه ،وصرف فى غير حقه،واستعبد صاحبه ، وملك قلبه ، وشغله عن الله والدار الآخرة. فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة ، أو شغله عن المقاصد المحمودة. فالذم للجاعل لا للمجعول. قال النبى ﷺ: « تعس عبد الدينار، تعس عبدالدرهم »(٢). فذم عبدهما دونهما.

قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان ،عن يزيد من ميسرة ،قال: كان رجل ممن مضى وجمع مالاً فأوعى ، ثم أقبل على نفسه وهو فى أهله ، فقال: أنعم سنين. فأتاه ملك الموت، فقرع الباب فى صورة مسكين ، فخرجوا إليه ،فقال: ادعوا لى صاحب الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك! ثم مكث قليلاً، ثم عاد فقرع الدار ،وصنع مثل ذلك، وقال: أخبروه أنى ملك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فزعاً ، وقال: لينوا له الكلام. قالوا: ما تريد غير سيدنا ،بارك الله فيك. قال: لا ،فدخل عليه فقال: قم فأوص ما

---

(١) أحمد (٤/١٩٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/٦٧): « رجال أحمد رجال الصحيح ».

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧٠ .

كنت موصياً ؛فإنى قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصرخ أهله وبكوا ،ثم قال: افتحوا الصناديق ،وافتحوا أوعية المال. ففتحوها جميعاً، فأقبل على المال يلعنه ويسبه ،يقول: لعنت من مال ؛أنت الذى أنسيتنى ربى وشغلتنى عن العمل لآخرتى ،حتى بلغنى أجلى؛ فتكلم المال فقال: لا تسبنى ،ألم تكن وضيعاً فى أعين الناس فرفعتك؟ ألم ير عليك من أثرى ، وكنت تحضر سدد الملوك والسادة فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون ؟ ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادة فتنكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون؟ ألم تكن تنفقنى فى سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو أنفقتنى فى سبيل الله لم أتعاص عليك؟وأنت ألوم منى؛إنما خلقت أنا وأنتم يا بنى آدم من تراب ، فمنطلق ببر ومنطلق بإثم. . . فهكذا يقول المال فاحذروا.

وفى أثر يقول الله تبارك وتعالى: «أموالنا رجعت إلينا ،سعد بها من سعد وشقى بها من شقى».

قالوا : ومن فوائد المال أنه قوام العبادات والطاعات ، وبه قام سوق بر الحج والجهاد، وبه حصل الإنفاق الواجب والمستحب ،وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها ،وبه يتوصل إلى النكاح الذى هو أفضل من التخلى لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة ،وبه ظهرت صفة الجود والسخاء ،وبه وفيت الأعراض، وبه اكتسبت الإخوان والأصدقاء ،وبه توصل الأبرار إلى الدرجات العلى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم؛ فهو مرقاة يصعد بها إلى أعلى غرف الجنة ،ويهبط منها إلى أسفل سافلين ،وهو مقيم مجد الماجد ، كان بعض السلف يقول : لا مجد إلا بفعال ،ولا فعال إلا بمال. وكان بعضهم يقول: اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى.

وهو من أسباب رضا الله عن العبد كما كان من أسباب سخطه عليه. وهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله به: الأبرص، والأقرع، والأعمى. نال به الأعمى رضا ربه، ونالا به سخطه.

والجهاد ذروة سنام العمل ،وتارة يكون بالنفس ،وتارة يكون بالمال. وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع ،وبأى شىء فضل عثمان على علّى ،وعلىٌّ أكثر جهاداً بنفسه وأسبق إسلاماً من عثمان ؟ وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف ،أفضل من جمهور الصحابة ،مع الغنى الوافر ،وتأثيرهما فى الدين أعظم من تأثير أهل الصفة.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعته ،وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير له من تركهم فقراء [1]. وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغى بها وجه الله إلا ازداد بها درجة

---

(١) البخارى (٢٧٤٢) فى الوصايا ، باب: أن يترك ورثته أغنياء. . .إلخ، ومسلم (١٦٢٨/ ٥) فى الوصية، باب: الوصية بالثلث.

ورفعة . وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر وقرنه بالكفر ،فقال: « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر » (١) . فإن الخير نوعان : خير الآخرة والكفر مضاده ،وخير الدنيا والفقر مضاده ؛فالفقر سبب عذاب الدنيا ،والكفر سبب عذاب الآخرة ،والله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء ،وأخذها وظيفة الفقراء ،وفرق بين اليدين شرعا وقدراً،وجعل يد المعطى أعلى من الآخذ ،وجعل الزكاة أوساخ المال ،ولذلك حرمها على أطيب خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفاً ورفعاً لأقدارهم.

ونحن لا ننكر أن رسول الله ﷺ كان فقيراً ثم أغناه الله ،والله فتح عليه وخوله،ووسع عليه ،وكان يدخر لأهله قوت سنة ، ويعطى العطايا التى لم يعطها أحد غيره وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ،ومات عن فدك والنضير وأموال خصه الله بها. وقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر:٧]. فنزهه ربه سبحانه عن الفقر الذى يسوغ الصدقة،وعوضه عما نزعه عنه بأشرف المال وأحله وأفضله،وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله ،الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً. فإنه خلق المال ليستعان به على طاعته،وهو بأيدى الكفار والفجار ظلماً وعدواناً ،فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنى رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنى بنى الدنيا وأملاكهم ؛فإن غناهم بالشىء ،وغناه ﷺ عن الشىء ،وهو الغنى العالى ،وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم ،وهو ﷺ إنما يتصرف فى ملكه تصرف العبد الذى لا يتصرف إلا بأمر سيده.

فجمع الله ـ سبحانه ـ له بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر ،فكمل له مراتب الكمال ؛ فليست إحدى الطائفتين بأحق من الأخرى.

فكان ﷺ فى فقره أصبر خلق الله وأشكرهم ،وكذلك فى غناه. والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء ، وأى غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض،وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً ،وخير بين أن يكون ملكاً نبياً ، وبين أن يكون عبداً نبياً ، فاختار أن يكون عبداً نبياً. ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن ، فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشىء ،بل تحمل عيال المسلمين ودينهم ،فقال: « من ترك مالاً فلورثته،ومن ترك كلا فإلى وعلى » (٢).

فرفع الله ـ سبحانه ـ قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة ،كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة ،بل أغناه به عن سواه ،

---

(١) النسائى (١٣٤٧) فى السهو ، باب :التعوذ فى دبر الصلاة ، وأحمد (٥/٣٦).

(٢) البخارى (٥٣٧١) فى النفقات ، باب :قول النبى (ﷺ):« من ترك كلاً أو ضياعا فإلى » ،ومسلم (١٦١٩/١٧) فى الفرائض ، باب :من ترك مالاً فلورثته .

وأغنى قلبه كل الغنى ، ووسع عليه غاية السعة ؛ فأنفق غاية الإنفاق ، وأعطى أجل العطايا ، ولا استأثر بالمال ،ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً ،ولا ترك شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة ولا ديناراً ولا درهماً.

فإذا احتج الغنى الشاكر بحاله ﷺ ،لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله .كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله ﷺ ،لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره،ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً.فرسول الله وفى كل مرتبة من مرتبتى الفقر والغنى حقها وعبوديتها.وأيضاً ، فإن الله ـ سبحانه ـ أغنى به الفقراء ،فما نالت أمته الغنى إلا به،وأغنى الناس من صار غيره به غنياً.

قال على بن أبى رباح اللخمى :كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصارى ،وهو يومئذ على مصر ،وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه ، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبى طالب ،فقال :لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته ،لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير.فقال عبدالله بن عمرو :ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير ،فقال مسلمة:ألم يقل الله تعالى: **﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾** [الضحى].فقال عبدالله بن عمرو :أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه ،وأما العيلة فكل ما كان بأيدى العرب إلا القلة ،يقول :إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجاً،ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشىء ومضى وتركها ،وحذر منها ومن فتنتها ،قال :وذلك معنى قوله: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾** [الضحى:٥].فلم تكن الدنيا لترضيه ، وهو لا يرضاها كلها لأمته وهو يحذر منها ، وتعرض عليه فيأباها ،وإنما هو ما يعطيه من الثواب ،وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ،ودخول الناس فى الإسلام ،وظهور الدين ؛إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى سفيان الثورى ،عن الأوزاعى ،عن إسماعيل بن عبد الله بن عباس ،عن النبى ﷺ قال:« رأيت ما هو مفتوح بعدى كفراً كفراً فسرنى ذلك فنزلت: **﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾** . قال : أعطنى ألف قصر من لؤلؤ ، ترابها المسك ، فى كل قصر ما ينبغى له» (١).

قالوا :وما ذكرتم من الزهد فى الدنيا والتقلل منها ،فالزهد لا ينافى الغنى ،بل زهد الغنى أكمل من زهد الفقير ؛فإن الغنى زهد عن قدرة ، والفقير عن عجز ، وبينهما بعد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٧/ ٦١).

بعيد. وقد كان رسول الله ﷺ في حال غناه أزهد الخلق ،وكذلك إبراهيم الخليل كان كثير المال ، وهو أزهد الناس في الدنيا .

وقد روى الترمذي في جامعه ، من حديث أبي ذر ، عن النبي ﷺ قال: « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعته ،ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق بما في يد الله ،وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب في ثوابها لو أنها بقيت لك» (١).

وسئل الإمام أحمد: عن الرجل يكون معه ألف دينار ،وهل يكون زاهداً ؟قال : نعم، بشرط ألا يفرح إذا زادت ،ولا يحزن إذا نقصت.

وقال بعض السلف: الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ،ولا الحرام صبره.

وهذا من أحسن الحدود: حقيقة مركبة من الصبر والشكر ،فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما. فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال ،وصبره لما عرض له من الحرام، فهو الزاهد على الحقيقة ،بخلاف من غلب عليه الحلال شكره والحرام صبره ،فكان شكره وصبره مغلوبين ؛فإن هذا ليس بزاهد.

وسمعت شيخ الإسلام يقول: الزهد تركك ما لا ينفعك ،والورع تركك ما يضرك.

فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها ،ويقابله الشح والحرص ،وهو ثلاثة أقسام: زهد في الحرام ،وزهد في الشبهات والمكروهات ،وزهد في الفضلات. فالأول فرض، والثاني فضل ،والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، وإن قويت التحق بالأول، وإلا فبالثالث. وقد يكون الثالث واجباً بمعنى أنه لابد منه ،وذلك لمن شمر إلى الله والدار الآخرة ؛فزهد الفضيلة يكون ضرورة ، فإن إرادة الدنيا فادحة في إرادة الآخرة ،ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه ،فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب.

أما توحيد المطلوب: ألا يتعلق طلبه وإرادته بغير الله وما يقرب إليه ويدني منه. وأما توحيده في الطلب: أن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشهوات وجواذب الهوى، وتسكن الإرادة في أقطار النفس ،فتملأها ،فلا يدع فيها فضلاً لغير الانجذاب إلى جانب الحق جل جلاله ، فتتمخض الإرادة له. ومتى تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة ؛ فإنه يفرغه لعمارة وقته ،وجمع قلبه على ما هو بصدده ،وقطع مواد طمعه مواد اللاتي هي من أفسد شيء للقلب ،بل أصل المعاصي والفساد والفجور كله من الطمع. فالزهد يقطع مواده ، ويفرغ البال ،ويملأ القلب ،ويستحث الجوارح ،ويذهب الوحشة التي بين العبد ، وبيْن ربه، ويجلب الأنس به ،ويقوي الرغبة في ثوابه إن ضعف عن الرغبة في قربه والدنو منه

(١) الترمذي (٢٣٤٠) في الزهد ، باب :ما جاء في الزهادة في الدنيا ، وقال: « حديث غريب . . . إلخ».

وذوق حلاوة معرفته ومحبته.

فالزاهد أروح الناس بدناً وقلباً. فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له فى إرادة الله والدار الآخرة ،بحيث فرغ قلبه لله ،وجعل حرصه على التقرب إليه ،وشحه على وقته أن يضيع منه شىء فى غير ما هو أرضى لله وأحب إليه كان من أنعم الناس عيشاً ،وأقرهم عيناً ، وأطيبهم نفساً ،وأفرحهم قلباً. فإن الرغبة فى الدنيا تشتت القلب ، وتبدد الشمل، وتطيل الهم والغم والحزن ؛ فهى عذاب حاضر يؤدى إلى عذاب منتظر أشد منه،وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة فى الدنيا.

قال الإمام أحمد :حدثنا الهيثم بن جميل ، حدثنا ـ يعنى ابن مسلم ـ عن إبراهيم ـ يعنى ابن ميسرة ـ عن طاوس ،قال:قال رسول الله ﷺ:«إن الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن،وإن الرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن» (١).

وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين :إحداهما الرغبة فى الدنيا والحرص عليها ،والثانى: التقصير فى أعمال البر والطاعة. قال عبدالله بن أحمد:حدثنى بيان بن الحكم ،حدثنا محمد بن حاتم ،عن بشر بن الحارث قال:حدثنا أبو بكر بن عياش ،عن ليث ، عن الحكم ،قال:قال رسول الله ﷺ:« إذا قصر العبد بالعمل إبتلاه الله عز وجل بالهم».

وكما أن الرغبة فى الدنيا أصل المعاصى الظاهرة ، فهى أصل معاصى القلب من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر. وهذا كله من امتلاء القلب بها لا من كونها فى اليد ،وامتلاء القلب بها ينافى الشكر ،ورأس الشكر تفريغ القلب منها.

وامتداد المال كامتداد العمر والجاه ؛ فخيركم فى الدنيا من طال عمره وحسن عمله ، فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره. فعمر المرء وماله وجاهه: إما أن يرفعه درجات، وإما أن يضعه درجات.

وسر المسألة :أن طريق الفقر والتقلل طريق سلامة مع الصبر ، وطريق الغنى والسعة فى الغالب طريق عطب ، فإنى اتقى الله فى ماله ووصل به رحمه ، وأخرج منه حق الله، وليس مقصوراً على الزكاة ، بل من حقه إشباع الجائع ،وكسوة العارى ،وإغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج والمضطر ، فطريقه طريق غنيمة ،وهى فوق السلامة.

فمثل صاحب الفقر ،كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه ، فهو يثاب على حسن صبره على حبسه. وأما الغنى ،فخطره عظيم فى جمعه وكسبه وصرفه ، فإذا سلم كسبه،وحسن أخذه من وجهه وصرفه فى حقه ،كان أنفع له.

فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس ، والغنى المنفق فى وجوه الخير كالمعين والمجاهد

---

(١) الزهد للإمام أحمد (١٠).

والمعلم والمجاهد . ولهذا جعله النبى ﷺ قرين الذى أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ، فهو أحد المحسودين اللذين لا ثالث لهما . والجهلة يغبطون المنقطع المتخلى المقصور النفع على نفسه ،ويجعلونه أولى بالحسد من المتفق والعالم المعلم.

فإن قيل :فأيهما أفضل:من يختار الغنى المتصدق والإنفاق فى وجوه البر ،أم من يختار الفقر والتقلل ليبعد عن الفتنة ويسلم من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا ،أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك ، بل يختار ما اختاره الله له فلا يعين باختياره واحداً من الأمرين؟

قيل :هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح،فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه فى وجوه البر ،كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة.وكان قيس بن سعد يقول:اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى ،ومنهم من اختار الفقر والتقلل كأبى ذر وجماعة من الصحابة معه ،وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها ،وأولئك نظروا إلى مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة.والفرقة الثالثة لم تختر شيئاً ،بل كان اختيارها ما اختاره الله لها.

وكذلك اختيار طول البقاء فى الدنيا لإقامة دين الله وعبادته ،فطائفة اختارته وتمنته ؛ وطائفة أحبت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا ،وطائفة ثالثة لم تختر هذا ولا ذاك ، بل اختارت ما يختاره الله لها،وكان اختيارهم سلفاً بما يريده الله دون مراد معين منهم ، وهى حال الصديق رضي الله عنه ؛ فإنهم قالوا له فى مرض موته: ألا ندعو لك الطبيب؟فقال: قد رآنى ، فقالوا: فما قال لك؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

والأولى حال موسى عليه السلام؛فإنه لما جاء ملك الموت لطمه ففقأ عينه.ولم يكن ذلك حباً منه للدنيا والعيش فيها ،ولكن لينفذ أوامر ربه ،ويقيم دينه ،ويجاهد أعداءه ،فكأنه قال لملك الموت أنت عبد مأمور ،وأنا عبد مأمور ،وأنا فى تنفيذ أوامر ربى وإقامة دينه.فلما عرضت عليه الحياة الطويلة ،وعلم أن الموت بعدها ،اختار ما اختاره الله له.

وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه ،فإن ربه أرسل إليه يخيره ،وكان أعلم الخلق بالله،فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له ،فاختار لقاء الله.ولو علم أن ربه يحب له البقاء فى الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه ،لما اختار غير ذلك ،فكان اختياره تابعاً لاختيار ربه عز وجل.فكما أنه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكاً نبياً ،وبين أن يكون

عبداً نبياً ،وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبداً نبياً ـ اختار ما اختاره الله له. فكان اختياره فى جميع أموره تابعاً لاختيار الله له. ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال فى ذاك الوقت ،ووفى هذا المقام حقه،ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق. فلم يكن له اختيار سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التى تقر الأعين منها. فكان راضياً بها مختارا لها ، مشاهداً اختيار ربه لها. وهذه غاية العبودية؛فشكر الله له ذلك،وجعل شكرانه ما بشره به فى أول سورة الفتح حتى هنأه الصحابة به ،وقالوا: هنيئاً لك يا رسول الله. وحق له أن يهنأ بأعظم ما هنئ به بشر صلوات الله وسلامه عليه.

ومما ينبغى أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل،قد أحل الله رسولهﷺ فى أعلاها ،وخصه بذروة سنامها. فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التى تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها ،أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً.

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف. احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم ،احتج به الداخلون فى الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر ،احتج به الغنى الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها ،واحتج به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم ،احتج به أرباب العز والقهر المبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ،احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذى لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به فى المشهد والغيب ،احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود ،احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه ،احتج به من راعى إصلاح بدنه

ومعيشته ودنياه ؛ فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها ،احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع ،احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال ،احتج به من انتقم فى مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله ،احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد ،احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل ،احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم ،احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال لا يفطر ،ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات ،احتج به من أحب أطيب ما فى الدنيا هو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه ،احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه ،احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يحتنب النساء بالكلية فى الحيض والصيام ،احتج به من يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطء ومن يقبل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج به من رحم أهل المعاصى بالقدر ،احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر ،احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة؛ فإنه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة. وأخبر عن نبى الله سليمان: أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبتها به. فلم يحكم بالاعتراف الذى ظهر له بطلانه بالقرينة. وترجم أبو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين : إحدهما :

قال: التوسعة للحاكم أن يقول للشيء الذى لا يفعله: افعله: ؛ليستبين به الحق ،ثم قال: الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه ،إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به. وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن فى حياته وبعده ،فقال على رضي الله عنه للمرأة التى حملت كتاب حاطب: لتخرجن الكتاب أو لأجردنك. وحد عمر رضي الله عنه فى الزنا بالحبل ،وفى الخمر بالرائحة. وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكاية مقرر غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته. وقال ﷺ لابن أبى الحقيق وقد زعم أن النفقة أذهبت كنز حيى ابن أخطب: « العهد قريب ،والمال أكثر من ذلك» (١). فاعتبر قرينتين دالتين على بقاء المال، وعاقبه حتى أقر به. وجوز لأولياء القتيل أن يحلفوا على رجل أنه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم. وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها فى اللعان وأبت أن تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه.

وشريعته ﷺ طافحة بذلك لمن تأملها ، فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به ،فهو حجة لقضاة الحق وولاة العدل ،كما أنه حجة على قضاة السوء وولاة الجور، والله المستعان.

والمقصود بهذا الفصل: أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين ، وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها ، وبالله التوفيق (٢).

وأيضا

أما مسألة: « الفقير الصابر والغنى الشاكر » وترجيح أحدهما على صاحبه ،فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى ، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق. فالمسألة أيضا فاسدة فى نفسها ،فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]، ولم يقل: أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه :والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده، كما قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)**﴾ [الفجر] أى: ليس كل من وسعت عليه وأعطيته أكون قد أكرمته ،ولا كل من ضيقت عليه وقترت أكون قد أهنته ،فالإكرام أن يكرم

---

(١) البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ١٣٧)، وابن حبان (١٦٩٧ موارد).
(٢) عدة الصابرين (٢١٧/ ٣٢٢) .

الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته ومعرفته ،والإهانة أن يسلبه ذلك. قال ـ يعنى ـ ابن تيمية: ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر بل بالتقوى ، فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ .فقال: لا يوزن غدا الفقر ولا الغنى ،وإنما يوزن الصبر والشكر.

وقال غيره :هذه المسألة محال من وجه آخر وهو :أن كلا من الغنى والفقير لابد له من صبر وشكر ،فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر،بل قد يكون نصيب الغنى وقسطه من الصبر أوفر لأنه يصبر عن قدرة ،فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز. ويكون شكر الفقير أتم ؛ لأن الشكر هو استفراغ الوسع فى طاعة الله ، والفقير أعظم فراغا للشكر من الغنى ،فكلاهما لا تقوم قائمة إيمانه إلا على ساقى الصبر والشكر.

نعم ،الذى يحكى الناس من هذه المسألة :فرعا من الشكر ، وفرعا من الصبر ، وأخذوا فى الترجيح بينهما ،فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً بازلاً ماله فى وجوه القرب شاكرا الله عليه،وفقيرا متفرغا لطاعة الله ،ولأوراد العبادات من الطاعات صابرا على فقره ،فهل هو أكمل من ذلك الغنى أم الغنى أكمل منه؟

فالصواب فى مثل هذا : أن وأكملـها أطوعهما ، فإن تساوت طـاعتهما تساوت درجاتهما، والله أعلم [١].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٢).



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

كتاب السلوك والزهد

كتاب النسب

كتاب الخصائص

كتاب الطب

كتاب المفاضلات

رقم الإيداع : ١٣٣٨٥/ ٢٠٠٢م

I.S.B.N:977-15-0376-6